اللطائف الإيمانية الملكوتية والحقائق الإحسانية الجبروتية

في

رسائل العارف بالله الشيخ أحمد بن عجيبة الحسني

١ - شرح خمرية ابن الفارض
٢ - شرح نونية الإمام الششتري
٣ - شرح صلاة القطب ابن مشيش
٤ - شرح قصيدة "يامن تعاظم" للإمام الرفاعي
٥ - معراج التشوف إلى حقائق التصوف
٦ - شرح صلاة الشيخ الأكبر ابن عربي
٧ - سلك الدرر في ذكر القضاء والقدر
٨ - شرح بعض مقطعات الششتري
٩ - شرح الأبيات الثلاثة للجنيد

ضبطها وصححها وعلق عليها
الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي
الحسيني الشاذلي الدرقاوي

DKI
دار الكتب العلمية
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971
بيروت - لبنان

Title: **Al-laṭâ'if al-'îmâniyah al-Malakûtiyah wal-ḥaqâ'iq al-'iḥsâniyah al-Jabarûtiyah fī rasâ'il al-'ârif bi-Allâh al-šayḫ Aḥmad ben 'Ajîbah al-Ḥasanî**
(9 Sufistic works of Ibn 'Ajîbah)

Author: Aḥmad ben 'Ajîbah al-Ḥasani

Editor: Dr. 'Āṣim Ibrāhīm Al-kayāli

Publisher: Dar Al-kotob Al-ilmiyah

Pages: 328

Year: 2006

Printed in: Lebanon

Edition: 1st

الكتاب: اللطائف الإيمانية الملكوتية والحقائق الإحسانية الجبروتية في رسائل العارف بالله الشيخ أحمد بن عجيبة الحسني

المؤلف: ابن عجيبة

المحقق: الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي

الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت

عدد الصفحات: 328

سنة الطباعة: 2006 م

بلد الطباعة: لبنان

الطبعة: الأولى


ISBN 2-7451-4602-5



الطبعة الأولى
٢٠٠٦ م – ١٤٢٧ هـ

منشورات محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

Mohamad Ali Baydoun Publications Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah

الإدارة : رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت
Ramel Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg., 1st Floor
هاتف وفاكس: ٣٦٤٣٩٨ - ٣٦٦١٣٥ (١ ٩٦١)

فرع عرمون، القبة، مبنى دار الكتب العلمية
Aramoun Branch - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.

هاتف: ١٢/١١/٨٠٤٨١٠ ٥ ٩٦١+ | ص.ب: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان
فاكس: ٨٠٤٨١٣ ٥ ٩٦١+ | رياض الصلح - بيروت ٢٢٩٠ ١١٠٧

http://www.al-ilmiyah.com
e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بسم الله الأول والآخر والظاهر والباطن احتجب عن العقول والأبصار وتجلى للأرواح والبصائر، ليس كمثله شيء من حيث ذاته، وهو السميع البصير من حيث أسماؤه وصفاته، أثبت الأكوان بقيوميته ومحاهم بأحديثه، كان ولا شيء معه وهو الآن على ما عليه كان.

والحمد لله المتصف بكل كمال والمنزه عن كل نقص، والغني عن كل ما سواه والمفتقر إليه كل ما عداه، خالق الخلق من العدم على غير مثال سبق بقدرته على وفق ما خصصته إرادته وكشفه علمه.

والصلاة والسلام على مجلى الوجود الحقي ومادة الوجود الخلقي، أحدي الكمال وواحدي الجلال والجمال، الأول بروحه والآخر بجسده، قرآن الذات، وفرقان الأسماء والصفات، باب الحضرة ومنتهاها، والرحمة المهداة لعوالم الملك والملكوت، والمتحقق بسر الجبروت، الإنسان الكامل والخليفة الحقيقي، والقدوة الحسنة للأنموذج الإنساني في أرض ملك جسمه وسماء ملكوت قلبه، وجبروت سر روحه، بما بعث له به من الدين الكامل: الإسلام والإيمان والإحسان.

وعلى آله الطيبين الطاهرين من دنس وهم الأغيار المتحقيقين بقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧]، وعلى أصحابه الأخيار المتخلقين بأنوار مقامات وأحوال رسول الله ﷺ، فكانوا نجوم الاقتداء والاهتداء مصداقاً لقوله ﷺ: «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديم».

وبعد ففي إطار نشر كتب التصوف الإسلامي التي نقوم بتحقيقها وتنقيحها وضبطها وتصحيحها وتنسيقها والتعليق عليها خدمة لمقام الإحسان المكوِّن للركن الثالث من أركان الدين الإسلامي الكامل بعد ركني الإيمان والإسلام، نقدم للقراء الكرام مجموعة من مؤلفات الأستاذ الكبير المربي العارف بالله تعالى والوارث المحمدي الشيخ أحمد بن عجيبة الحسني جمع فيها الكثير من اللطائف الإيمانية الملكوتية والحقائق الإحسانية الجبروتية. وهذه المؤلفات هي التالية:

١ ـ شرح خمرية سلطان العاشقين الشيخ عمر بن الفارض قدس سره.

٢ ـ شرح نونية الإمام أبي الحسن الششتري قدس سره.

٣ ـ شرح صيغة صلاة القطب عبد السلام مشيش على النبي ﷺ.

٤ ـ شرح قصيدة يا من تعاظم للقطب أحمد الرفاعي قدس سره.

٥ ـ معراج التشوّف إلى حقائق التصوف.

٦ ـ شرح صيغة صلاة الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي الحاتمي قدس سره.

٧ ـ شرح سلك الدرر في ذكر القضاء والقدر.

٨ ـ شرح بعض مقتطفات الإمام أبي الحسن الششتري.

٩ ـ شرح أبيات الإمام الجنيد: توضأ بماء الغيب...

هذا ونشير إلى أن الفضل في جمع ونشر هذه التآليف لأول مرة يرجع إلى الأستاذ الفاضل عبد السلام العمراني الخالدي الذي صحب أكابر بني عجيبة وجمع من مؤلفات الشيخ أحمد بن عجيبة ستة وعشرين ما بين شريعة وطريقة وحقيقة، طرائق إيمانية ملكوتية، وحقائق إحسانية جبروتية، من تآليف العارف بالله تعالى الشيخ أحمد بن عجيبة الحسني.

وفي الختام لا بدّ من الإشارة إلى أن كتب التصوّف تساعد المُريد على الإطّلاع على الأحوال والمقامات، التي يمرّ بها السالك إلى الله تعالى، كما يطّلع على الحكم والقواعد الصوفية، التي يستلهم منها كيفية التحقّق بأحكام مقام الإسلام وأنوار مقام الإيمان، وأسرار مقام الإحسان، وصولاً إلى قوله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر: ٩٩]. كل ذلك بإشراف

ورعاية وتربية شيخه العالم بأمراض النفوس والقلوب؛ وبالأدوية الشافية له من هذه الأمراض، لأنه ورث عن النبيّ ﷺ علوم وأسرار مقامات الدين الثلاث: الإسلام والإيمان والإحسان، والشريعة والطريقة والحقيقة، المُلْك والملكوت والجبروت؛ مصداقاً لقوله ﷺ: **«العلماء ورثة الأنبياء»**، وقوله ﷺ: **«إن هذا العلم دين فانظروا عمّن تأخذون دينكم»**.

ونرجو الله تعالى أن ينفعنا والمسلمين بما في هذه الكتب من الحب والإخلاص والصدق واليقين، ومن أنوار أسرار ما تعبّدنا الله به على لسان نبيّه ﷺ مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب: ٢١]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم: ٣، ٤]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء: ٦٩] لننال السعادة الحقيقية المتمثّلة بمعرفة الله تعالى في الدنيا، والنظر إلى وجهه الكريم في الآخرة مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣].

كتبه الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي
الحسيني الشاذلي الدرقاوي

ترجمة الشيخ أحمد بن عجيبة الحسني(*)

(... ـ منتصف القرن ١٣)

هو الشريف الحسيب، قطبُ دائرة الولاية الكبرى، ومنبعُ أسرار أهلِ الحقيقة، شيخ الطريقتين، وعُمدة الفريقين، وليُّ الله الأكبر، وغوثُه الأشهر، سيدنا ومولانا أحمد بن عجيبة الحسني الإدريسي الشاذلي الفاسي.

كان رضي الله عنه من أهل التمكين، تلقّى في بدايته العلومَ الشرعية.

وكان رضي الله عنه يلبسُ الملابس الحسنة، ومالَ إلى طريق التصوف فأخذَ أنوارَ الطريقة، وتلقّى أسرارَ الحقيقة من أستاذه فردِ هذه الطائفة سيدي محمد البوزيدي رضي الله عنه، ولقّنه العهودَ، والأوراد، والذكر، وقال له: يا أحمد، يا ولدي، شروطُ الطريق عندنا الصدقُ والمحبة. وقال رضي الله عنه: فقلتُ له: يا سيدي، نحبُّ أن تكتبَ لنا ذلك في كاغد[١]. قال: فكتبَ لي بذلك، ولمّا خلوتُ بنفسي، نظرتُ إلى الكاغد، وقرأتُ ما فيها، ففُتح عليَّ في الحسين، وصرتُ من أهل الحقائق والتمكين.

وبلغ رضي الله عنه وأرضاه مقاماتِ العارفين بصدقه وحبِّه، فخلعَ ما كان عليه من الثياب، لمّا فُتحت له الأبواب، وناداه منادي الأحباب: ما هذا الحال يا ابن عجيبة؟ فأُفيضت عليه الأنوار، فارتدى مرقعةً وإزاراً، وعلّق سبحته وقِرابه[٢] في عنقه كما هو شأن الأخيار، وصار يمرُّ في الأسواق معلقاً قرابه في

(*) مقتبسة من كتاب (طبقات الشاذلية الكبرى) المسمى جامع الكرامات العلية في طبقات السادة الشاذلية للشيخ محمد الكوهن الفاسي المتوفى سنة ١٣٤٧هـ.

(١) الكاغِدُ: القرطاس (ورق الكتابة) فارسي معرب، والجمع كواغد، (القاموس المحيط).

(٢) القِرابُ: غمد السيف والسكين والجمع قُرُبٌ وأقربة.

عنقه، لابساً لمرقعته وسبحته، وهو يقول بأعلى صوته: الله الله، أش هادي الغريبة؟ لو كان العلم يغني عن الحال، ما يعلّقُ القرابَ ابنُ عجيبة.

واستمرَّ على هذا الحال حتى نال ما نال، وتكلَّمَ على أسرار أهل الكمال، فأبدى علوماً غريبة، وأسراراً عجيبة، وأَجمعت على ولايته أهلُ المغرب بأسرها، وتبرّكوا بتقبيل يديه، وأقبلتِ الوفود عليه، وكان قدَّس الله سرَّه نظره إكسيراً، إذا أتاه أو التقى معه مَنْ يَعرفه يرقيه في ميدان «حسنات الأبرار سيئات المقربين»[١]، حتى كثرت على يديه الأبتاعُ والمريدون.

ومن يطالع شرحه على «الحكم» يعرفُ قدرَه ومكانته عند ربّه، وكان شرحه لهذه «الحكم العطائية» بأمر مَنْ لا تسعه مخالفته فردِ الطائفةِ الشاذلية أُستاذِه وموصلِه بسلسلة الأنوار سيدي محمد البوزيدي، قال قُدّس سرُّه: وجلُّ هذا الشرح الذي نقيِّدُه إنما هو مواهبُ؛ لأني أكتبُ الحكمةَ ولا أدري ما أكتبُ، فأقف مفتقراً إلى ما عند الله.

وله تآليفُ وشروحٌ كثيرة، منها: كتاب «قواعد التشوف في حقائق التصوف»، وله تفسيرٌ للقرآن[٢] في الظاهر والباطن، قال قدَّس الله سرَّه: إذا أردتُ أن نتكلَّمَ في التفسير أو غيره نشرع في الكلام، ثم نغيب، فكنت نحسُّ بالكلام يخرج منّي من غيرِ اختيار، كأنَّه السَّحابُ، فتصدُر منّي علومٌ وحكم، ولقد حضر معنا ذات يوم رجلٌ كبيرُ السن، فسمعَ ذلك، فقال: واللّهِ، لقد حضرتُ مجالسَ العلماء والصالحين، واللّهِ، ما رأيتُ مثلَ هذه الجواهر واليواقيت التي تخرجُ من سيّدي أحمد بن عجيبة، وذلك كلُّه ببركةِ صحبة أشياخنا، فجزاهم الله عنّا أحسنَ جزائه.

ومن تفسيره عند قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ...﴾ [الأحزاب: ٥٦] وأمّا كونها ـ أي الصلاة ـ تقومُ مقامَ الشيخ في دخوله مقامَ الفناء

---

(١) أورده علي القاري في الأسرار المرفوعة [١٨٦]، والهروي في المصنوع، [١/ ١١٠] والعجلوني في كشف الخفاء حديث رقم (١١٣٧) [١/ ٤٢٨].

(٢) انظر: الأعلام ١/ ٢٤٥.

والبقاء حتّى تعتدلَ حقيقتُه وشريعته، فلا تنقطع رعوناتُ[١] النفس إلا بآمرٍ وناه من غيره، يكون عالماً بدسائس النفوس وخدعها، وغايةُ ما تُوصل إليه الصلاةُ على رسول الله ﷺ إن لم يظفر بالشيخ الفناءُ في الصفات، وينالُ مقامَ الصلاح الأكبر، وتظهرُ له كراماتٌ وخوارق، ويكون من أربابِ الأحوال، وإن وصلَ إلى مقام الفناء، تكون شريعتُه أكبرَ من حقيقته، هذا ما ذقناه وسمعناه من أشياخنا، والطريق التي أدركناهم يستعملونها، وأخذنا عنهم أنَّهم يأمرون المُريد إن رأوه أهلاً للتربية أن يلتزمَ الاسمَ المُفرد، ويفنى فيه حتى تنعدمَ عوالمه، فإذا تحقَّقَ فناؤه، وغابَ عن نفسه ورسمه، ردُّوه إلى مقام البقاء، وحينئذٍ يأمرونه بالصَّلاة على رسول الله ﷺ؛ لتكون صلاتُه عليه كاملةً، يُصلّي على روحه وسرّه بلا حجاب، ويشاهده في كلِّ ساعةٍ كما شاهد ربَّه.

أقول: ولهذا كانت الطريقة الشاذلية بدايتُها نهاية غيرها، ونهايتُها تحقيقٌ فافهم.

وتآليفه قدَّس الله سرَّه، ونفعنا به عليها لوائح نفثات أهلِ المعرفة الكُمَّل، فإنه أُعطي رضي الله عنه ناطقةَ أسرارِ أهل الله، وأدركَ مقامات العارفين بربّهم، حتى عُدَّ قطبَ الزمان، وواحدَ الأوان.

وكلامه قدَّسَ الله سرَّه عالٍ، حلَّ مشكلات القوم، وفكَّ طلاسمَ أسرارهم، وتكلَّمَ بما أبهرَ عقولَ الأعيان.

توفّي قدَّس الله سرَّه في منتصف القرن الثالث عشر[٢]، ومقامه بالمغرب مشهورٌ يُتوسَّلُ به إلى الله في قضاء الحاجات، ودفع الكُربات، أمدَّنا الله بمدده، ونفعنا به، وجعلنا على أثره. آمين.

---

(١) الرعونات: الحُمُق. ومفردها: الرعونة.

(٢) في طبقات الشاذلية الكبرى لمحيي الدين الطعمي ص ٤١: توفي بقبيلة بني سلمان الغمارية عند شيخه البوزيدي في حياته عام ١٢٢٤ ودفن بالزميج من القبيلة الأنجرية.

شرح خمرية ابن الفارض
رضي الله عنه

لسيدي أحمد بن عجيبة
رضي الله عنه

ضبطها وصححها وعلق عليها
الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي
الحسيني الشاذلي الدرقاوي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

شَرحُ خَمْرِيَّةِ ابْنِ الْفَارِضِ: الحمد لله الَّذي سَقى قلوب أَحِبائه، مِنْ مُدَامَة حُبِّهِ. فَأَصبَحُوا من سكر محَبَّته مُتَوَلّهين. غَيَّبَهُمْ عَنْ شُهودِ غَيْرِهِ بدَوَاعي شُهُودِ سِرِّهِ فَأَضْحوا فِي رِيَاضِ ملكُوتِهِ متنزّهينَ. جَذب أَرْواحهُم بحَضْرَةِ قُدْسِهِ، فَصاروا في خَلَوَاتِهِمْ بِهِ أَنيسينَ. وهيّأَ أَسْرَارَهُم لحمْلِ أَعْبَاءِ مَعْرفته، فخَاضُوا فِي بِحارِ جَبَرُوتِهِ بِسُفُنِ أفكارهم سَابِحِينَ.

والصَّلاة والسَّلامُ عَلى مَنِ امْتَدَّتْ مِنْ سِرِّ نَاسُوتِهِ الأكوان. وأشرقَتْ مِنْ نُورِ لاَهُوتِهِ حقائق الْعِرْفان. وَرَضِي اللَّهُ تَعَالَى عَنْ أَصْحَابِهِ وأَهْل بَيْته الكِرَام. أما بعد كل شيءٍ وقَبْلَه فَعِلْم التَّوْحِيدِ مِنْ أَجَلِّ العُلُومِ وأَحَقّ ما تنفق فيه نتائج الفُهُوم. وكيْفَ لاَ ومَوْضوعه الذَّات الْعلية، وأَوصافها السَّنية وأَسْمَاؤها الزَّكية. وبه يقع الخلود في نَعِيم الجِنَانِ. والفَوْز بالقُرْبِ مِنَ الكَرِيم المَنَّانِ، وهو مُنقسم على قسْمَيْن: تَوْحِيد الدَّليل والبُرْهان، وهو لعَامَّة أَهْل الإِيمانِ، وتوحيد الشهود والعيَان، وهو لخوَاصّ أَهْلِ الإِحْسَانِ مِنْ أَهْل الذَّوْقِ والْوِجْدان شَربوا كؤوس المحبَّة، فسكرُوا وغابوا عَن الْوجُودِ. ثم صحوا من سَكْرَتِهِمْ فتمتَّعُوا بحلاَوة النَّظرة والشهودِ. فَيَا للَّه من شرَاب ما أَعْذَبَهُ ومِنْ مَنْهَلٍ مَا أَحْسَنَهُ، بَيْعُ النُّفُوس في إِدْراكِهِ حَقيرٌ، وبَذْل الأَرْواح والمُهج فِي نَيْلِهِ نَزْرٌ يسيرٌ. ولِلَّهِ دَرُّ القائِلِ:

إِنْ كَانَ سَفْكُ دَمِي أَقْصَى مُرَادِكُمْ ... فَمَا غَلَتْ نَظْرَةٌ مِنْكُمْ بِسَفْكِ دَمِي

وَمِمَّنْ أَحْرَزَ السَّبْق فِي هَذَا المَيْدانِ وكَانَ لهُ من هَذَا السِّرِّ الحظوة والشأن الأَنبياء والرُّسل عليهم الصلاة والسلام. وأَعْظَمُهم فِي ذلك سيّد الأَنام نبيّنا عليه أَفضل الصَّلاَةِ وَأَزْكَى السَّلام. إذ مِنْ بَحْرِ سِرِّهِ فاضَتْ أَسْرَارُهُمْ، ومِنْ شمس نُورِه انفَلَقَتْ أَنوَارُهُمْ، وكُلُّهُم مِنْ رسول الله مُلْتَمِسٌ غَرْفاً مِنَ البَحْرِ أَوْ رَشْفاً مِنَ الدِّيَم.

ثم ورث عَنهُمْ ذَلِكَ خَوَاصّ أوْلِيائِهِ، وصفوة أحبائِهِ. جَاهَدوا نفوسَهُمْ بأنوَاع الرياضات، وكَابَدُوا فِي طَلبِ مَحْبُوبِهم أَقْصَى الغايات. صَدَقوا ربَّهم في المعاملاتِ، ورَفَضُوا الْحُظُوظ والشَّهَوات فَحَصلَ لهم الميراث العظيم بَعْد تحقيق نِسْبة القَرَابَة المعنوية، بيّنة شهوده عقد المحبَّة، وأَحْكَام رابطة الصّحبَة، وبروز نطفة العناية مِنْ صُلْب الوِلاَية، وعُلُوقها في مَشيمَة الإرادة، وظهور جنين السَّعادة، ثم تربيته فِي عُشّ أَهْلِ المَعْرفة بيْن أَبوي المراقبة والمجاهدَة. ثم تغذيته بلبَن علم اليقين إلى أوَان فِطامه بِشهُودِ رَبّ العالمينَ.

فَهَذا هو العلم الموروث عن الأنبياء عليهم السلام، لاَ التوحيد الذي يُنْتجه الدَّليل والبُرْهان وَيَعْترِيهِ الزّيادة والنُّقْصَان، إذ قد تعرض له الشكوك والأوهامُ، التي هي محالٌ فِي حقّ الأنبياءِ عَلَيْهِم السَّلاَمُ. ومنْ تحقق بهذا الميراث الرفيع، والسّر البديع، سلطان العشاق، وإمام الحذّاق العارف الرَّبَّاني والحبرُ الصمداني شرَف الدّين أبو جعْفَرٍ عُمَر بن علي بن المرسف المعروف بابْنِ الفارض السَّعْدي الأَصل المصري الدَّار والمولد والوفاة. كَان رضي الله عنه أُعجوبة زمانِهِ وَفَرِيدَ عَصْرِهِ وَأَقرانِهِ. وُلِدَ رضي الله عَنْهُ سَنة ستّ وسبْعِين وخمسمائة بالقاهرة، وتوفي بِهَا سنة اثنين وثلاثين وست مائة. ودُفن بِسَفح المقطم خَارج مِصر، وعليْه قبَّة عَظيمة، ومزارة شهيرة، نَفَعَنَا الله ببركَاتِهِ. قال في الدِّيوان ناقلاً عن وَلد الشيخ؛ كانَ الشيخ رضي الله عنه معتدل القامة، جَميل الْوَجْهِ، مشوباً بحُمْرةٍ، وإذا اسْتَمع وتواجد وغَلَبَ عليه الْحَال، يَزْداد وجْهُه جَمالاً ونوراً، وينحدر العَرق من جَسدهِ حتى يَسِيلَ إلى الأرض. وكَان عليه نور وجَلالة وهَيْبة، وكَان إذا حَضَر فِي مَجْلِسٍ يَظْهَرُ على ذْلِكَ المَجْلِس سكينة. وكَانَ يحضر مَجْلسهُ أكابر الدَّوْلَةِ مِنَ الأُمَرَاءِ، والوزراء، والقضاة، ورُؤساء النَّاسِ، وهُمْ في غاية مَا يَكُون مِنَ الأدَبِ والاتضاع لَهُ، وإِذا خاطبوه كَأَنما يخاطبون مَلِكاً عظيماً. وَإذا مَشى فِي المَدِينَة يَزْدَحِم النَّاس عليْه، يلتمسُونَ مِنْهُ البَرَكة والدُّعاء. ويَقصدُونَ تقبيل يدهِ فلاَ يُمَكّنُ أَحَداً مِنْ ذْلِكَ بَلْ يُصافِحهُ، وكانت ثيابه حسَنَة، وَرَائحته طيبة، وكان ينفق على مَن يرد عليه نفقة مُتَّسِعَة، ويعطي مِنْ يَدِهِ عَطَاءً جزيلاً، ولم يكُنْ يَتَسَبَّبُ في شَيءٍ مِنْ تحصيل الدنيا، وَلاَ

يَقْبَلُ مِن أَحدٍ شَيئاً. وَبَعثَ إِلَيه السلطان أَلْفَ دِينارٍ فَرَدَّها إليه. وسأله أن يُجَهِّز لَهُ قَبراً عند أُمّه، فِي قُبَّة الإِمام الشافعي رضِي الله عَنهُ فَلَمْ يأذن له في ذلك، ثم سَأَلَهُ أَنْ يُجهّز له مكاناً يكن مَزاراً يُعرف بِهِ، فلم يَنْعَمْ له بذلك.

قال رضِي الله عَنهُ: كُنتُ فِي أَوّل تَجْريدي، أَسْتأذن والدي، وأَطْلع إِلى وادِ المسْتَضْعَفِين بالجَبَل الثّاني من المقطّب وآوِي فِيهِ، وأُقيم في هٰذِهِ السياحة ليْلاً ونهاراً، ثم أَعُود إلى والدي مِنْ أَجْلِ برّه، ومراعاة قَلْبِهِ، وكَان والدي يَوْمَئذٍ خليفة الْحَكم العزيز بالقاهرة ومِصر، وكَان من أكابر أَهْل العِلْم والْعَمل فيجد سُروراً بِرُجوعي إِلَيه، وَيُلْزمني الجلوسَ معه في مجالس الحُكْم وَمَدَارس الْعِلْم، ثم أَشتاق إلى التّجريد، وأَستأذنهُ، وأَعُود إِلى السياحَةِ. وما بَرِحْت أَفْعَل ذلِكَ مَرّة بَعْد مَرّةٍ، إلى أن سئل والدي أن يكون قاضي القضاةِ، فامتنع ونزل عن الحُكْمِ واعْتَزَل النّاس والسياحَة، وسُلُوك طريق الحقيقة، فَلَمْ يُفتحْ لي شَيْء، فرجَعْت من السياحَةِ يَوْماً إِلى المَدِينة ودَخلْت المدرسة اليوسفية فَوَجدت رَجُلاً شَيْخاً بَقّالاً على بَابِ المَدْرَسةِ، يتوضّأ وُضُوءاً غَيْر مُرَتّب، غَسَلَ يَدَيْهِ ثم غَسَل رِجْلَيْه، ثم مَسَح برأسِهِ، ثم غَسَل وَجْهَهُ. فَقُلْت له يَا شَيخ: أَنْتَ في هٰذَا السّنّ في دَارِ الإِسْلام وَبَيْنَ فقهاءِ المُسْلمين، وأَنْتَ تتوضّأ وضُوءاً خارجاً عَنِ التّرْتيب الشّرْعي، فَنَظر إِلَيّ وقال: يَا عُمَر أَنْتَ ما يُفتح علَيْكَ بِمِصْر، وإِنما يُفْتحُ عَلَيْكَ بِالحِجَازِ، في مكّة شرّفها اللّهُ، فاقْصِدها. فَقَدْ آل له وقت الفَتْحِ. فَعَلِمْتُ أَنّ الرّجُلَ مِنْ أَوْلِياءِ اللّهِ، وأنّه يَتَسَتّرُ بإظهارِ الجهلِ، فَجَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَقُلْتُ: يَا سَيّدِي أَيْن أَنَا وأَيْنَ مكّةَ؟ لاَ أَجِدُ رَكْباً ولا رُفقة فِي غَيْرِ أَشْهر الْحجِّ، فنظر إِليّ وأَشار وقَال: هذه مكّة أَمَامكَ فَنَظرتُ مَعَهُ فرأَيْت مكّة شرّفها اللّهُ فَتَرَكْتُهُ وطلبْتُهَا فَلَمْ تَبْرَحْ أَمامي إِلى أَن دَخَلْتها في ذٰلِكَ الْوَقْتِ. وجَاءَنِي الفَتح حِين دَخلْتُها، وتَرادفَ وَلَمْ يَنْقطِعْ. قال رضي اللّهُ عنهُ: ثم شَرَعْتُ فِي السّياحَة في أَوْديتها وكنت أَسْتأنِس بالوَحْشِ ليْلاً ونَهاراً، فأَقمْت بِوادٍ كان بينه وبين مكّة عشرَة أَيّام للرّاكِب المُجِدّ، وكنتُ آتي مِنْهُ كل يوم وليلة، وأُصلّي في الْحَرم الشريف الصّلوات الخمس ومَعِي سَبُعٌ عظيم، يَصحبني في ذَهابِي وإِيابِي، ويَنخُّ إِليّ كَمَا يَنخُّ بجمل ويقول: يَا سيّدي ارْكبْ، فما ركبته قطّ. ثم بعد خَمْسَة

عَشر سَنة، سَمِعْتُ الشيخ البَقَّال يُنَادي: يَا عُمَرُ، تَعَال إِلَى الْقاهرة، إحضر وَفَاتِي، فَأَتيْتُهُ مُسْرِعاً، فَوَجَدتُّه قَدِ احْتُضِرَ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليَّ، وَنَاوَلَنِي دنَانِير ذَهبٍ. وقال: جَهِّزْ لي بِهذِهِ وافعَلْ كَذا وَكَذَا... واعْط حَمَلة نَعْشِي إلى القرافة كل واحد ديناراً، واتركْني على الأَرض في هذِهِ البُقْعَةِ، وأَشَار بيَدِهِ إِلَيْهَا فَلَمْ تَزَلْ بَيْنَ عَيْني أنظر إِلَيْها وهي القرافة عند مجرى السَّيْل تحْت المسجد المعروف بالأرض بِالقُرْب منْ مَرَاكعِ مُوسَى، بِسفحِ جَبَل المقطَّبِ. وانْتَظرْ قُدُوم رجُلٍ يَهْبِطُ إِلَيْكَ مِنَ الجَبَلِ وَصَلِّ أَنْتَ وهُوَ عليَّ، وانتظر ما يفعَلُ اللَّهُ فِي أَمْرِي. قال رضي اللَّهُ عَنهُ: فَلَمَّا تُوفِّي جَهَّزْته كما قال، وطَرَحْتُهُ فِي الْبُقْعة المُباركَة كَمَا أَمَرنِي، فَهَبَط رَجُلٌ مِنَ الجَبَلِ كما يَهْبِط الطَّائر المُسْرع لم أَرَه يَمْشِي على رِجْلَيْه، فَعَرفته بشخصِهِ، كنت أَراهُ يُصفع قَفَاهُ بِالأَسْوَاقِ. فقَال: يا عُمَرُ تقدَّم، فَصلِّ بِنَا عَلَى الشَّيْخِ. فتقدَّمْتُ وَصَلَّيْتُ إِمَاماً، ورأَيْتُ طيوراً خُضْراً وَبِيضاً صفوفاً بيْن السماء والأَرْض يُصلُّونَ مَعَنَا، وَرَأَيْتُ طائراً مِنْهُمْ أَخْضَر عَظِيم الخلقة، قَدْ هَبَطَ عند رِجْلَيْه وابْتَلعهُ، وارْتفع إليهم وطَاروا جَمِيعاً، ولهم زجل بِالتَّسْبيح إلى أن غَابُوا عَنَّا. فقال: يَا عُمَرُ، أما سَمعتَ أَنَّ أَرْوَاحَ الشهداء في جوْف طيْر خُضْرٍ تسْرَح في الجنَّةِ حيث شَاءَتْ؟ هُمْ شهداء السُّيُوفِ. وَأَمَّا شُهَدَاء الْمَحبَّةِ، فكلّهُمْ، أَجْسَادهمْ وَأَرْوَاحُهُمْ في جوْف طيْر خُضْرٍ. وهذا الرَّجُلُ منهُمْ يَا عُمَرُ. وأَنا كُنتُ مَعَهُمْ. وإنما وقَعَتْ مِنِّي هَفوة، فطُردت عَنْهُمْ. فأَنَا أصفعُ قفايا نَدماً وتأديباً على تِلكَ الْهَفْوَةِ. ثم ارْتَفَعَ الرَّجُلُ إلى الجَبَلِ كالطَّائِرِ إلى أَنْ غَابَ عَنِّي. قال ولدهُ: وفي هٰذِهِ البُقْعَة المباركة، دفن الشيخ حسَبَ وصيته. وضريحه بِهَا مَعْرُوفٌ. قلت: وقد تَقَدَّمَ ذٰلِكَ. قال حفيدهُ رحمه اللَّهُ: وقد قلتُ في ذٰلِكَ أَبْياتاً:

جُزْ بالقَرَافَةِ تَحْتَ ذَيْلِ الْعَارِفِ ... وَقُل السَّلامُ عَلَيْكَ يَا ابْنَ الْفَارِضِ

أَبْرَزْتَ فِي نَظْمِ السُّلُوكِ عَجَائِباً ... وَكَشَفْتَ عَنْ سِرٍّ مَصُونٍ غَامِضِ

وَشَرِبْتَ مِنْ بَحْرِ المَحَبَّةِ وَالْوَفَا ... فَرَوِيتَ من بَحْرٍ مُحِيطٍ غَامِضِ

قال الشيْخ رضِيَ اللَّهُ عَنهُ: رأيْت رسُولَ اللَّه صلَّى اللَّه عليه وَسَلَّمَ فِي النَّوْمِ. فقال لي: يَا عُمَرُ، لِمَ تَنْتَسِبُ؟ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إلى بني سَعْدٍ،

قبيلة حليمَة السعدية مُرضِعتكَ فقال ﷺ: لاَ بُدَّ أَنْتَ مِنّي. ونَسَبك متَّصل بِي. فَقُلْت: يا رسول اللّه: إني أَحفظ نَسَبِي عن أَبِي وجدِّي إلى بني سَعْدٍ. فقال: لاَ - مَاذَاً بِهَا صَوْتَهُ - بَلْ أَنْتَ مِنّي. ونَسَبك متَّصل بِي. فَقُلْتُ: صَدَقْتَ يا رسول اللّهِ. مكَرراً لِذٰلِكَ. وهذه النِّسْبَة، إمَّا أَنْ تكون نِسْبَة الأهلية؛ أَوْ نِسْبة المحبَّة. ونسْبَة المحبَّة أشرف من نِسْبَة الأبوَّة؛ وهي التي قَرَّبَتْ بِلاَلاً وصُهَيْباً، وسَلْمَان الفَارسي مِن أَهْلِ البَيْت. وأَبْعَدَتْ أَبَا طالبٍ وَأَبَا جَهْلٍ. وإلى هَذَا، أَشَارَ الشيخ في قصيدتِهِ الْيائية، حيْثُ قال:

نَسَبٌ أَقْرَبُ فِي شَرْعِ الْهَوَى بَيْنَنَا مِنْ نَسَبٍ مِنْ أَبَوَيّ

فَقُلْتُ: وقد رُمِي الشيخ ابن الْفَارِض، بما رُمِيَ بِهِ غَيْرُهُ من المحققينَ. كالششتري، وابن سَبْعينَ، من الحُلُول والإتِّحَادِ. حتى أَنَّ بَعْض أَهْلِ الظَّاهِرِ نَهَى قِرَاءة تائيتهِ؛ التي سَمَّاهَا: أَنفاس الجنان، ونفائس الجنان. ثم رأى رسول الله ﷺ، فَقَالَ لَهُ: سَمِّيها نظم السلوك، فسَمَّاها بذلِكَ. ثم امْتُحِنَ النَّاهِي بِمُصيبَة، فَتَابَ وَرَجَعَ عَنْ ذٰلِكَ. فقال حفيدهُ: وكيف يتصوَّر مِنَ الشيْخ أن يميلَ في قصيدته إلى الْحُلُولِ. وَقَدْ نَزَّه عقيدَتَهُ عَنْهُ فِي قَوْلِهِ فِيهَا:

وكَيْف باسم الحَقّ ظَلَّ تحققي تَكُونُ أَراجِيفُ الضَّلال مُخِيفَتِي

وَهَا دَحْية وَافَى الأَمِينَ نَبِيَّنَا بِصُورَتِهِ فِي بِدْءِ وحْي النُّبُوءَةِ

أَجِبْرِيلُ قُلْ لِي كَان دَحْيَةَ إِذْ بَدَا لِمُهْدِي الْهُدَى فِي هَيْأَةٍ بَشَرِيَّة

وفِي عِلْمِهِ عَنْ حَاضِرِيهِ مَزِيَّةٌ بِمَاهِيَةِ الْمَرْءِ مِنْ غَيْرِ مِرْيَة

يَرَى مَلَكاً يُوحِي إِلَيْهِ وَغَيْرُهُ يَرَى رجُلاً يُدْعَى إِلَيْهِ بِصُحْبَةِ

وَلِي مِنْ أَتَمِّ الرُّؤْيَتَيْنِ إِشَارَةٌ تُنَزِّلُ عَنْ رَأْيِي الْحُلُولِ عَقِيدَةِ

ومَعْنَى كَلاَم الشيخ: أَنَّ الكَوْنَ كُلَّهُ كصُورة جِبْرِيلَ، حينَ تصوَّرَ على صورة دَحْيَة. فظاهره دَحية، وباطنه جِبْرِيلَ. فإذا حققتَ، لَمْ تَجِدْ إلاَّ جِبْرِيلَ. وَلاَ حُلُولَ وَلاَ اتحاد. إذْ لاَ شَيْءَ مَعَهُ. وكذلك الكَوْن مَعَ نُور الحق، اللَّهُ نور السماوات والأرض. فَافْهَمْ. قلتُ: وللشيخ قصَائد كثيرة، جَمَعَها حفيده فِي دِيوانٍ مسْتقلٍ. وأَشهرها وَأَنْفَسُهَا تائِيتهُ: نظْم السلوك الذي تقدَّم ذكْرُها. كَان

يقول فيها رَضيَ اللَّهُ عَنْهُ: هذه القصيدة الغَرَّاء. والفريدة الزَّهراء. لم يَنْسُجْ على مِنْوَالِهَا. وَلاَ يُسْمَحُ خاطر بمثالِهَا. تكَادُ تخرُجُ عن وُسْع طَوْر الْبَشَرِ. وَحَكَى جَمَاعَة مِنَ العلماء ممَّن كَانُوا يصحبُونَ الشيْخَ وَيُبَاطِنُونَهُ: إنَّ الشَّيْخَ لَمْ يَكُنْ نَظْمَهَا على حَدِّ نَظْم الشُّعَرَاءِ. بَلْ كَان يَحْصُلُ لَهُ جَذبات، يغيبُ فيها عَنْ حَوَاسِّهِ الأيَّام، نَحْوَ الأسْبُوع والعَشَرَة. فإذَا أَفَاقَ أمْلَى ما يُفْتَح عليْه مِنْهَا مِنَ الثلاثينَ والأربَعينَ والخمسينَ بَيْتاً. ثم يَدَع، حَتَّى يُعَاوِدَهُ ذِلْكَ الْحَال. قلت: ويقرب مِنْهَا قصيدتهُ الميمية الخمرية. التي أرَدْنَا الكَلاَمَ عَلَيْهَا. بَلْ هِيَ أَعْذَبُ مِنْهَا لفظاً، وأَسْلَسَ مِنْها نَظْماً. لاَ يَنْطِقُ بِهَا إلاَّ لِسَانٌ مَلَكُوتِي. وَقَلْبٌ جَبَرُوتِي. بَالَغَ فيها في مَدْحِ الخَمْرَةِ الأزلية. وأبدَى فيها أَسْرَار الحقيقة الغَيْبية، كشف فِيهَا رداء الصَّوْنِ عَنْ أَسْرَارِ جَبَرُوتِهِ. وأنْوَارِ مَلَكُوتِهِ. فَجَزَاهُ اللَّهُ عَنَّا أَحْسَنَ الجَزَاء. لقد قَرَّبَ الْمَدَارِكَ. وبيَّنَ المَسَالِكَ فِي أوْجَزِ عِبَارَة. وأَرْشَقِ إشَارَة. فأرَدْنَا بِعَوْنِ اللَّهِ أَنْ نَضَعَ لَهَا تقييداً مختصراً، يُبَيِّنُ أَلْفَاظَهَا، وَيُحِلُّ مَعْنَاهَا. بَعْدَ الاسْتِخَارَةِ النبويّة، والإشارة المعنوية؛ وَهَذا أَوَان الشُّرُوع فِي التَّقْيِيدِ المَذْكُورِ. مُعْتَمِداً على حَوْلِ اللَّهِ وقُوَّتِهِ. وَمَا يَفْتَحُ بِهِ الحَقّ تَعَالَى من مَوَاهِبَ مِنَّتِهِ. فأَقُولُ، وبِهِ أَحُولُ وأَصُولُ.

قال الشيخ رضي اللَّهُ عَنْهُ:

شَرِبْنَا عَلَى ذِكْرِ الْحَبِيبِ مُدَامَةً	**سَكِرْنَا بِهَا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُخْلَقَ الكَرْمُ**

قلتُ: **المُدَامَةُ والمُدَامُ**: اسم لِلْخَمْرِ؛ لأَنَّ العَرَبَ كَانَتْ تحِبُّ دَوَامَهَا عِنْدَهُمْ. فَسَمَّوْهَا بِهِ تَفَاؤُلاً. **والكَرْمُ**: شَجَرَ العِنَبِ. والْعِنَبُ نَفْسُهُ.

يَقُولُ رضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: شَرِبْنَا عَلى إثْرِ ذِكْرِ الْحَبِيبِ بِالقُلُوبِ والأَرْوَاحِ خَمْرَةً صَافيةً في مَقَام الصَّفا. سَكِرْنَا بِهَا، فَغِبْنَا عَنِ الإحساسِ. وَرَأَيْنَا أَنْوَارَ الحبيبِ فِي كل شَيْءٍ، وَمَعَ كل شَيْءٍ. وقبْل كل شيْءٍ، وَبَعْدَ كُلِّ شَيْءٍ، فَغَيَّبَنَا السُّكْرُ عَنْ ظُلمة الأكوانِ الْحَادِثَةِ، وأَبْصَرْنَا أَنْوَارَ القِدَمِ الباقية. قُلْتُ: وقَدْ أَشَرْتُ إلى هَذَا المَعْنَى فِي عَيْنِيتي فَقُلْتُ:

سَكِرْنَا فَهِمْنَا فِي بَهَاءِ جَمَالِهِ	وَغِبْنَا عَنِ الإِحْسَاسِ وَالنُّورُ سَاطِعُ
تَبَدَّتْ لَنَا شَمْسُ النَّهَارِ وأَشْرَقَتْ	فَلَمْ يَبْقَ ضَوْءُ النَّجمِ والشَّمْسُ طَالِعُ

يقولُ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ: وَقَعَ لَنَا هَذَا السكر بِالخَمْرَةِ الأزلية المعنوية. قَبْلَ أَنْ يُوجَد الكَرْم؛ التي تكون منه الخَمرَة الحسّية. إلى هذَا المَعْنَى، أَشَارَ الشّشتري رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ بِقَوْلِهِ:

لاَ شَـرَاب الـدَّوَالِـي إِنَّــهَــا أَرْضِـيَّــا
خَـمْرُهَا دُونَ خَمْرِي خَـمْـرَتِـي أَزَلِـيَّـا

فقوله: سَكِرْنَا بِهَا مِنْ قَبْلِ أَنْ يَخْلُقَ الكَرْمُ، يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ هٰذَا السُّكْرُ بَعْد ظهُورِ عَالَمِ الأشباحِ. وأَنَّ الرّوحَ سَكرتْ على ذكرِ الْحَبِيبِ بخَمْرَةٍ أَزَلية. قبل ظُهُورِ العِنَبِ الذي تكونُ منه الخمرة الحسية الأرْضية. والمراد، أَنه سكر بخمرَةٍ مَعْنَوِيَّةٍ قَبْلَ ظُهُورِ مَادَّةِ الخَمْرة الحسية؛ ويحْتَمَلُ أَنْ يَكُون هَذَا السُّكْرُ لِلرُّوحِ فِي الأَزَلِ، في عَالَم الأَرْوَاح، قَبْلَ ظهور عالم الأشباحِ. فيكون قَوْلهُ: قَبْلَ أَنْ يَخلق الكَرْم، على ظَاهِرِهِ. أَيْ قَبْلَ أَنْ تَظْهَرَ مَادَّة الخمرة الحسية. ويؤيد قولهُ فيما يأتي: فَعِندِيَ مِنْهَا نَشْوَة قَبْلَ نشأَتِي ـ البيْت ـ. وسيأتي الكَلاَمُ عليه إن شَاءَ اللَّهُ. والاحتمال الأول أَظْهَرُ. واللَّهُ أَعْلَمُ.

وسُمِّيَتِ الْغَيْبَة فِي اللَّهِ سُكراً. لاشْتِرَاكِهَا مَعَ السُّكْرِ الحسّي فِي الْغَيْبَةِ عَنِ الحسّ. فإنَّ نُور العَقْلِ، كَمَا يُسْتَر بالظلمة الطينية؛ وهي النَّشْوة النَّاشئة عن الخَمْرَة الحسِّيَّة. كَذٰلِكَ يُسْتَرُ بالأَنْوَارِ المَعْنَوِيَّةِ، المفاجِئةِ لَهُ مِنَ الْخَمْرَةِ الأزلية. فيغيب عن الإحْسَاسِ. فلِذلكِ سَمَّوْا تلك الغَيْبَة سُكراً. واللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

وهَا هُنَا إِصْطِلاَحَاتٌ لِلْقَوْمِ. نَذْكُرُ مِنْهَا مَا يتوقَّفُ عَلَيْهِ فهْم كَلاَم النَّاظِمِ مِنْهَا: الذَّوْقُ، والشُّرْبُ، والسُّكْرُ، والصَّحْوُ، ومِنْها الحسّ والمَعْنَى. ومِنْها القدْرة والحِكمَة. ومِنْها الْوَجْدُ والْوَجْدَان، والْوُجُود. ومِنْها الجَمْعُ والتَّفْرِقة.

أَمَّا الذَّوْقُ؛ فهُوَ بُرُوق أَنْوَارِ الذَّاتِ الْقَدِيمَةِ على الْعَقْلِ. فيغيب عن رُؤْيَةِ الْحُدُوثِ، فِي أَنْوَارِ القِدَمِ. لكن لاَ يَدُومُ ذٰلِكَ. بَلْ يَلْمَعُ تارَةً. ويخفى أُخْرَى، فَإِذَا لَمَعَ غَابَ عَنْ حِسّهِ. وَإِذَا خَفِيَ رَجَعَ إلى حِسّهِ؛ وَرُؤْيَةِ نَفْسِهِ. فَهَذَا يُسَمَّى عِنْدَهُمْ ذَوْقاً.

فإن دَامَ لَهُ ذلِكَ النُّورُ سَاعَة أَوْ سَاعَتَيْنِ فَهُوَ الشُّرْبُ. وإذا اتَّصَلَ وَدَامَ فَهُوَ السُّكْرُ. وَمَرْجِعُهُ إِلَى فَنَاءِ الرُّسُومِ، فِي شُهُودِ الحيّ القَيُّوم. والغَيْبَة عن الأثرِ،

فِي شُهُودِ المُؤَثِّر. ويسَمَّى أَيضاً **بِالفَنَاءِ**.

فإِنْ رَجَعَ إِلَى إِثْبَاتِ الأَشياءِ بِاللَّهِ، وقيامها بِهِ. وَرَآهَا نُوراً مِنْ أَنْوَارِهِ، لاَ وُجُودَ لَهَا مَعَهُ. **فَهُوَ الصَّحْوُ**. وَيُسَمَّى أَيْضاً **البَقَاء**؛ لإِبْقَاءِ الأَشْيَاءِ بِاللَّهِ بَعْدَ فَنَائِهَا بنور البَصِيرَةِ فِي اللَّهِ. وقَدْ أَشَارَ صاحبِ الحِكَم العَطائِية إِلَى هَذَا الْمَعْنَى بِقَوْلِهِ: **شُعَاعُ البَصِيرَةِ** يُشْهِدُك قرْب الحق مِنْكَ. **وَعَيْنُ الْبَصِيرَة** يُشْهِدُكَ عَدَمَك لوجودِهِ. **وحَقُّ البصيرَة** يشهدكَ وُجود الحقّ. لاَ عَدمَك وَلاَ وُجودكَ. كَان اللَّهُ وَلاَ شَيْءَ مَعَهُ وَهُوَ الآنَ على ما عَلَيْهِ كَانَ.

وقال أَيْضاً فِي بَيَانِ السّكر والصَّحْو، وبيان الشريعة والحقيقة. فقال بَعْد كَلاَم: **وصاحب حقيقة**: غابَ عن الخلق بِشُهُودِ المَلكِ الحَقّ. وَفَنِيَ عَنِ الأَسْباب، بِشُهودِ مسبّب الأَسْبَاب. فَهذا عَبْدٌ مواجَه بالحقيقة. ظاهر عليه سَنَاهَا سَالك للطريقةِ. قَدِ اسْتولى على مَدَاها، غَيْرَ أَنَّهُ غَارق الأَنْوار. مطمُوس الآثار. قَدْ غَلَبَ سكره على صحوه، وَجَمْعه على فَرْقِهِ وغيْبته على حضورِه. وأكْمَلَ منْهُ رجُلٌ شَرِبَ فَازْدَادَ صَحْواً، وغاب فازداد حضوراً. فَلاَ جَمْعه يحجُبه عن فَرْقِهِ، وَلاَ فَرْقُهُ يُحْجبُهُ عَنْ جَمْعِهِ. وَلا فناؤهُ يَصُدّهُ عَنْ بَقَائِهِ، وَلا بقاؤه يصرفه عن فنائِهِ. يُعْطي كل ذي قسْط قسْطهُ. ويوفي كل ذي حق حقَّهُ.

وَأَمَّا **الْوُجْدُ** فَهُوَ وَارِدٌ يُحَرّكُ القَلْبَ وَيُزْعِجُهُ. إِمَّا شَوْق مقلِق، فيثير بَسْطاً وسُرُوراً. وإِمَّا خَوْفٌ مُزْعِجٌ فيثير قَبْضاً وحُزْناً.

وَأَمَّا **الْوُجْدَانُ** فَهُوَ: دَوَامُ حَلاَوَةِ الشُّهُودِ، وَاتّصَالِهَا للواجِدِ مَعَ غَلَبَةِ السّكْرِ والدَّهَش. . فإِنِ اسْتَمَرَّ مَعَ ذٰلِكَ، حتى زَالت الدّهشة والحيْرة، وصفيت الفكرة والنظرة فهو **الوجود**. وإِلى هٰذَا أَشَارَ الجُنيْدُ رضيَ اللَّهُ عَنْهُ بقولِهِ: وُجُودِي أَنْ أَغِيبَ عَنِ الْوُجودِ، بِمَا يَبْدُو عَلَيَّ مِنَ الشُّهُودِ.

واعْلَمْ أَنَّ مثار الْوُجْد، هو سماع خطاب المحبوبِ. ومَثَار الوُجْدَانِ، هُوَ شُهُود جَمَال المحبوب. وَقَدْ يَغْلب عليهما الْحَال، فتضطرب الأشباح، وترْقصُ تبعاً لاضطرابِ الْقَلْبِ. ومثال ذلِكَ الطفل في الْمَهْدِ، فإِنه يسْكن إذا تحَرَّكَ بِهِ الْمَهْد. ويبكِي إِذَا سَكَنَ. كذلِكَ الْقَلْبُ يَرْتَاحُ إِذَا تَحَرَّكَ الْقَلْبُ. وإلاَّ بقِي يضطربُ. فَرُبَّمَا يخرجُ عَنْ طَوْرِهِ.

وَأَمَّا صَاحِبُ الوُجْد فهو سَاكنٌ متمكِّنٌ قدِ اسْتَأْنَس بالحَضْرَةِ. فَرُبَّمَا يخرجُ عَنْ طَوْرِهِ. وَأَمَّا صَاحِبُ الوُجْدان فهو سَاكنٌ متمكِّنٌ، قدِ اسْتَأْنَس بِالحَضْرَةِ، وَزَالَتْ عَنْهُ الدَّهْشَةُ والحَيْرَةُ؛ فَهُوَ كالْجَبَلِ الرَّاسِي. قيل للجنَيْدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَا لَكَ؛ كُنْتَ تتواجَدُ عند السَّمَاع ثم صرت لا يتحرّك منك شيءٌ؟ فَتَلا قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨]. وشاهِد ذٰلِكَ، صواحِب يُوسُف عليه السلام، فإنَّه لما فاجأَهُنَّ بِباهِرِ جَمَالِهِ: غِبْنَ عَنْ إِحْسَاسِهِنَّ ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾، [يوسف: ٣١] وَزُلَيْخَا لمَّا اسْتَمَرَّتْ مَعَهُ، لم تَصْنَع شيئاً مِنْ ذٰلِكَ. كذلك أَرْبابُ الْوُجْدَانِ. لمَّا استَشْرَفُوا على نُورِ الحَضْرَةِ، دَهِشُوا وَغَابُوا عَنْ إِحْسَاسِهِمْ. فَإِذا تَمَكَّنُوا مِنْ شُهُودِهَا، وَأَنِسُوا بِهَا، لَمْ يُحَرِّكهم شيْءٌ مِنْ أنوارِهَا. وقد يَغْلِبُ على العَارِف شهود الْجَمَالِ فيرقص وَيَطربُ، لكنَّهُ نَادِرٌ. واللَّهُ تَعَالى أَعْلَمُ.

وأمَّا **الجمعُ والتفرقة**: فالجمع عبارة عن تلاشي الحادث فِي إثباتِ الْقِدَم. أَوْ تقول: عبارة عن ضَمّ الفُرُوع إلى أُصُولِهَا. فَيَفْنَى مَا لَمْ يَكُنْ، وَيَبْقَى مَا لَمْ يَزَلْ. والتَّفْرِقَةُ عِبَارَةٌ عَنْ إِثْبَاتِ الأَحْكَام والحِكمَة قياماً بِرَسْم الْعُبُودِيَّةِ، وأَدَباً مَعَ الرُّبُوبِيَّةِ. فَالجَمْعُ مَحلُّهُ البَوَاطن. والفَرْقُ مَحَلُّهُ الظَّوَاهِرُ. إِذ الرّبوبية بِلاَ عُبُودِية نقصانٌ. والْعُبُودية بِلاَ رُبُوبية مُحَالٌ. فلذلِك قالُوا: الجمع بِلاَ فَرْقٍ زَنْدَقَة، لإبطَالِهِ الأَحْكَامَ والحكمة. والفَرْقُ بِلاَ جَمْع فسْق؛ لإخْراج صاحبِهِ عَنْ حَدّ الكَمَالِ. والجمع بَيْنَهُمَا عَيْن الكَمَالِ. ولقد سَمِعْتُ شَيْخَ شيخنا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: قَوْم تشرَّعُوا وَلَمْ يَتَصَوَّفُوا، وقوم تصَوَّفُوا ولم يتشرَّعُوا. وقَوْمٌ جَعَلُوا الشَّرِيعَةَ باباً. والحقيقة أَبْوَاباً. ﴿أُولَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة: ٢٢]. وَهٰذا أَوَّلُ كَلاَم سَمِعْته مِنْهُ عِنْدَ مُلاَقَاتِهِ، وقال لي: وأَنْتَ مِنَ القسم الثَّالِث. حَقَّقَنَا اللَّهُ بِمَحَبَّتِهِمْ، وَرزَقَنَا الأَدَبَ مَعَهُمْ آمين.

وأَمَّا **الحسُّ**، فهو عبَارَةٌ عَمَّا تَكَثَّفَ وَظَهَرَ مِنَ الأَكْوَانِ. والْمَعْنَى: عِبَارَةٌ عن النُّورِ اللطيفِ الْبَاطِنِ فِيهَا.

وأَمَّا **السِّرُّ** الَّذي قَامَتْ بِهِ الأَشْيَاءُ. فَالحِسُّ ظرفٌ لِلْمَعْنَى. فالأَكْوَنُ أَوَانِي، حَاملة للْمَعَاني. واللَّهُ تَعَالى أَعْلَمُ.

والقُدْرَةُ: عِبَارَةٌ عَمَّا يَصْدُرُ عَنِ الذَّاتِ العَلية من الأفعال. كَانَ عَلى وِفْقِ الْعَادَةِ أَوْ خَارِقاً لَهَا. **والحِكْمَةُ**: عِبَارَة عَنْ رَبْطِ الأَسْبَابِ بِمُسَبَّبَاتِهَا، والعَوَائِدُ بما تعوَّدَتْ بِهِ؛ فَهِيَ رداءٌ للقُدْرَةِ وسترٌ لَهَا. فَمَنْ وَقَفَ مَعَ رِداءِ الحِكْمَةِ، كَان محْجُوباً عَنْ شُهُودِ الْقدرَةِ. وَمَنْ حُجِبَ عَنِ الصِّفَةِ، حُجِبَ عَنِ الْمَوْصُوفِ، لمتَلازم وُجُودهما. واللَّهُ تَعَالى أَعْلَمُ. فَمَعْرِفَةُ هٰذِهِ الأشْيَاءِ، تُعِينُ عَلَى فَهْمِ القَومِ. واللَّهُ تَعَالى أَعْلَمُ.

ثُمَّ قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

لَهَا الْبَدْرُ كَأْسٌ وَهْيَ شَمْسٌ يُدِيرُهَا ... هِلالٌ وَكَمْ يَبْدُو إِذَا مُزِجَتْ نَجْمُ

يقولُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لهذِهِ الخَمْرَةِ الأزلية: كَأْسٌ، وهِي قمر التوحيد الخاصّ. فمن كَان مشركاً بثنوية السّوى، أو برُؤيةِ الأشياء مَعَ الْمَوْلَى. فَلاَ يَشْرَبُ من خَمْر الْهَوَى. أَوْ نقول: مَن كَانَ قلبهُ مشحوناً بِحبّ الأشياء، أَوْ مفتوراً بِنيلِ الدُّنيا، فَلاَ يذوق شيئاً مِنْ هَذِهِ الحُمَيَّا: «أي الخمر». وهذه الخمرة هي شمس العِرْفَان، فَإِذَا أَشْرَقَتْ فِي أُفُقِ سماء الجنان، غطّت وجود الأكْوَان، وَوَقَعَ العيَان على فِقْده الأعْيَانِ. يُدِيرُها عَلَى الشَّاربينَ، هِلال السَّعَادة، في طالع سَعْدِ الإرَادَةِ فإذا شَربت صرفاً غابَ النّشْوَان عن الرُّسُومِ. ولم يَبْقَ فِي نَظَرِهِ إلاَّ أَنوار الحيّ القيُّوم. فَإِذَا مُزِجَت بالصَّحْو والسلوك، صار كَاملاً مكمّلاً. فَكَمْ يَبْدُو لَهُ حينئذٍ من نَجْمِ الْعُلُومِ. وَكَمْ يُفتَحُ له مِنْ مَخَازِنِ الفُهُومِ. فَإِذَا أُذِنَ لَهُ في التَّعْبِير، وَقَعَتْ في مَسَامِعِ القلوبِ عبارتُهُ. وجُليت إليهم إشارته.

قال الشيخ أَبُو الحَسَن الشَّاذِلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في بَعْضِ كَلاَمِهِ على المحبَّةِ: **الشَّرَاب** هو النُّور الساطِع مِنْ جَمَال المحبوب. **والكَأْسُ** هو اللطف الموصِّل ذلك، إلى أَفْوَاه القُلُوب. **والسَّاقي**: هو المتولّي ذٰلِكَ لخصوص الكبراء والصَّالِحينَ مِنْ عبادِهِ. وَهُوَ اللَّهُ الْعَالِمُ بالمقادِيرِ ومَصَالح العبادِ. فَمَنْ كُشِفَ لَهُ عن ذٰلِكَ الْجَمَالِ أَوْ حُظِيَ شيْء منْهُ، نَفَساً أَوْ نَفَسَيْنِ، ثم أرخي عليه الحجاب؛ فهو الذَّائق المشتاق. ومَنْ دَامَ لَهُ ذٰلِكَ سَاعَةً أَوْ سَاعَتَيْنِ؛ فَهُوَ الشَّارِبُ حَقّاً. ومَن تَوالَى عليه الأمْرُ، ودَامَ لَهُ الشُّرْبُ، حتى امْتَلأَتْ عُرُوقُهُ وَمَفَاصِلُهُ، مِنْ أَنْوَارِ اللَّهِ المخْزُونَةِ، فَذَلِكَ هُوَ الرِّيُّ. وَرُبَّمَا غَابَ عَنِ المَحْسُوسِ والعُقُولِ. فَلاَ

يَدْرِي مَا يُقَالُ، وَلاَ مَا يَقُولُ. فَذٰلِكَ هُوَ السُّكْرُ. وقد تَدُورُ عليْه الكَاسَات، وتَخْتَلف لديْهم الحالاَت، وَيُرَدُّونَ إِلَى الذِّكْرِ والطَّاعَاتِ وَلاَ يُحْجَبُونَ عَن الصِّفَاتِ حتى تُزاحم المقدوراتِ. فَذٰلِكَ وقت صَحْوِهِمْ، واتّساع نَظَرِهِم، ومزيد عِلْمِهِمْ. فَهُمْ بِنُجُومِ الْعِلْمِ، وقمر التوحيد يَهْتَدُونَ فِي لَيْلِهِمْ، وبشموس المعارف يسْتَضيئُونَ فِي نَهَارِهِمْ. ﴿أُولَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾. [المجادلة: ٢٢] انتهى كَلاَمُهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ؛ وهو قريب مِنْ كَلاَمِ النَّاظِمِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ثم قال:

وَلَوْلاَ شَذَاهَا مَا اهْتَدَيْتُ لِخَانِهَا   وَلَوْلاَ سَنَاهَا مَا تَصَوَّرَهَا الْوَهْمُ

قلت: **الشَّذَا**: النَّسيم الطَّيِّبُ. وقال في القاموس: الشذا: قُوَّة ذكَاءِ الرَّائِحة. **والخَانُ**: دَارٌ يُبَاع فيها الخَمْرُ، أَوْ يُشْرَبُ فِيهَا. وقال في القاموس: الخَانُ: الحانوت أَو صاحبُهُ. وخان التجار. والسَّنا بالقَصْرِ؛ هو: الضَّوْءُ والنُّورُ. **والوَهْمُ**: الخاطِرُ. أَطْلَقَهُ هُنَا عَلَى الْعَقْلِ؛ لأَنَّهُ مَحَلُّهُ.

يَقُولُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هذه الخَمْرَة الأَزلية رفيعَة القَدْرِ، عَالية الشَّأْنِ، لطيفة خفيَّة. لاَ تُنَالُ بحِيلَةٍ وَلاَ سَبَبٍ. فَلَوْلاَ نَسِيمها الطَّيِّبُ الَّذِي يَهُبُّ عَلى القُلُوب، فتسْتنشقُهُ الأَرْوَاحُ، وتنجذِب إلى حَضْرَةِ عَلاَّمِ الغُيُوبِ. مَا اهْتَدَيْنَا لِمَحلِّهَا، وَلاَ تَوَجَّهْنَا إِلَى طَلَبِهَا. لكِنْ لمَّا لاَحَ لَنَا هِلاَلُ الهدَايَة، في طالِع سابِق العِنَايَةِ، هَبَّ على قُلُوبِنَا نَسِيم الخصُوصية مِنْ حَضْرَةِ عَظَمَةِ الرُّبُوبِيَّةِ. فَمَا زِلْنَا نَقْفُوا أَثَرَهَا، وَنَسْتَنْشِقُ نَشْرَهَا، حَتَّى أَفْضَتْ بِنَا إِلَى شُهُودِ أَنْوَارِ الحبِيبِ. وَمُنَاجاةِ الْقَرِيبِ مِنْ محلّ المشاهدة والمُكَالَمَةِ، والمُصَالَحَة، والْمُوَاجَهَة. فَقُلْنَا فِي ذلِك الْحَال:

لَكَ الدَّهْرُ طَوْعٌ والأَنَامُ عَبِيدُ   فَعِشْ كُلُّ يَوْمٍ مِنْ أَيَامِكَ عِيدُ

قال الشيْخ أَبُو الحَسَن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَثَلُ ابْتداءِ المَحَبَّةِ، كمثلِ رَجُلٍ شَمَّ رائحة المِسْكِ على بُعْدٍ، فَلاَ يَزَالُ يتبَعُ تِلْكَ الرَّائِحَة، وهيَ تَتَزَايَدُ عَلَيْهِ، حتى يَدْخُلَ البَيْتَ الَّذِي فيه المِسْك. فَإِذَا دَخَلَهُ غَمَرَتْهُ الرَّائِحَةُ، فَلاَ يَحِسُّ بِهَا. فَالمَعْنَى كَذٰلِكَ طَالِبُ الحقّ، لاَ يَزَالُ يَنجَذِبُ قَلْبُهُ إِلَى الْحَضْرَةِ؛ ويتعَطَّشُ إِلَيْهَا

وَيَتَوَجَّهُ إِلَيْهَا بِأَنْوَار التَّوَجُّهِ؛ وهيَ حَلاَوَةُ الْمُعَامَلَةِ، حتَّى يَغرَقَ في أَنْوَارِ الْمُوَاجَهَةِ؛ وهِي حَضْرَةُ الْمُشَاهَدَةِ، فَيَسْكُن حالهُ، وَيَزُولُ عطشُهُ بحصول الْوُصُولِ إِلَى الحبيبِ. فَلَمْ يَبْقَ إِلاَّ الأَدَب والتَّرَقِّي فِي المَقَامَاتِ. هَذَا مَحَلُّ الشطر الأول.

وقولُهُ: وَلَوْلاَ سَنَاهَا مَا تَصَوَّرَهَا الْوَهْمُ يَعْنِي أَنَّ هٰذِهِ الخمرةُ خفيةٌ عَنِ الأَوْهَامِ خَارِجَةٌ عَنْ مَدَارِكِ الْعُقُولِ والأَفْهَام. فَلَوْلاَ أَنْوَارُهَا الَّتي تشرق على الْقُلُوبِ، بَعْدَ صَفَائِها مِنَ الأغْيَارِ، وتطهيرها مِنَ الأَكْدَارِ، ما تَصَوَّرَهَا الْعَقْلُ، وَلاَ أَدْرَكَهَا الْفَهْمُ. إِذْ لاَ تُدْرَك بِالْعُقُولِ، وَلاَ بِتَحْصِيلِ النُّقُولِ. وَإِنَّمَا تُدْرَكُ بِصُحْبَةِ الرِّجَالِ. أَهْل التحقيق والكَمَالِ؛ لأَنَّهَا أَذْوَاقٌ فَلاَ تدْرك من الأَوْرَاق. كما قَالَ ابن البَنَّا في مَبَاحِثِهِ:

إِيَّـاكَ أَنْ تَـطْـمَـعَ أَنْ تَـحُـوزه ... مِـنْ دَفْـتَـرٍ أَوْ شِـعْـرٍ أَوْ أُرْجُـوزَةِ

وقال أَيْضا:

مَـا نَـالَـهَـا ذُو الْـعَـيْـنِ والْـفُـلُـوسِ ... وَإِنَّـمَـا تُـبَـاعُ بِـالـنُّـفُـوسِ

فَمَنْ بَاعَ نَفْسَهُ لشَيْخ كَامِلٍ حَكَّمَهُ عَلى نَفْسِهِ. أَشْرَقَتْ عَلَيْهِ أَنْوَار الْمَعَارِفِ. وَأَدْرَكَ مِنْ مِنَنِ اللّٰهِ مَا لا يُحِيطُ بِهِ وَصْفُ واصِفٍ. وإِلاَّ أَتْعَبَ نَفْسَهُ وَمَنْ تَعَلَّقَ بِهِ. هَذَا هُوَ الْغَالِبُ والنَّادِرُ لاَ حُكْمَ لَهُ. وبالله التوفيق.

ثم قَالَ رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ:

وَلَمْ يُبْقِ مِنْهَا الدَّهْرُ غَيرَ حُشَاشَةٍ ... كَأَنَّ خَفَاهَا فِي صُدُورِ النُّهَى كَتْمُ

قُلْتُ: **الحُشَاشَةُ**: بقية الرُّوحِ، في المريض في آخِرِ الرَّمق. قاله في القاموس. **والنُّهَى** بالضَّمّ جَمْعُ نُهْيَة؛ وهو الْعَقْلُ؛ وهُوَ عَلَى حَذْفِ مُضَافٍ. أَيْ أَهْلُ النُّهَى يَقُولُ رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ: ذَهَبَتْ هٰذِهِ الخَمْرَة مِنْ قُلُوبِ النَّاس. وانْدَرَسَتْ بِذَهَابِ أَهْلِهَا. وَمَاتَتْ بِمَوْتِ أَرْبَابِهَا. وَانسَلَّتْ مِنْ قُلُوبِ النَّاسِ كَانسِلاَلِ الرُّوحِ مِنَ الْجَسَدِ. ولَمْ يُبْقِ مِنْهَا الزَّمَانُ إِلاَّ نطفة ضعيفة، كبَقية الرُّوحِ مِنَ الْمَيِّتِ فِي آخِرِ رَمَقِهِ؛ وهذه الخمرة التي ذَكَرَ الشَّيْخُ هِيَ: اخْتِمَار القلوب بِأَنْوَارِ المَحْبُوبِ، فَيُحْتَجَبُ عَنِ الاغْيَارِ، بِرُؤْيَةِ الْوَاحِدِ القَهَّارِ. وقد كَانَتْ هذه الخَمْرَة فِي القَدْرِ الأول، ظَاهِرَة أَنوارهَا، بَادية أَسْرَارها على أَرْبَابِها. فَيَتَدَاوَلُونَهَا بَيْنَهُمْ. ويتكلَّمونَ

عَلَيْهَا بِأَلْطَافِ العِبَارات. وأَنواع الإِشَارَاتِ، ثـم انْدَرَسَتْ. وقلْت: فخفيَت أنوارهَا، وبطنتْ أَسْرَارها. فَكَأَنَّ خَفَاءَهَا وبُطُونَهَا كَتْمٌ مِنَ اللّٰهِ تَعَالَى لهَا عَنْ غَيْرِ أَهْلِهَا. وذٰلِكَ لاسْتِيلاَءِ الْغَفْلَةِ على النَّاس، وانصِرَاف الهِمَّة إلى الدُّنيا. فَلَمَّا رَأى الحقُّ تعالَى النَّاس حَادُوا عنْ بَابِه. وَلاَذُوا بِغَيْرِ جَنَابِهِ. حَجَب ذلكَ السِّرَّ في قُلُوبِ أَوْلِيائِهِ، وحَجَبَ أَوْلِيَاءَهُ فِي عِبَادِه. وَمَا قالهُ الشَّيْخُ رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ، مِنْ قِلَّة وجود هَذَا العلم وانْدِرَاسِهِ، قَالَه غَيْر واحدٍ قَبْلَهُ وَبَعْدَهُ، وَمَا ذلِكَ إلاَّ لغرابته وعِزَّتِه.

قال الجُنَيْدُ رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ: عِلْمُنَا هٰذَا الَّذِي نتكَلَّمُ فِيهِ، قَدْ طُوِيَ بِسَاطُهُ مُنْذُ عشرين سَنَةً. وإنما نتكَلَّمُ في حَواشِيهِ. وكَانَ أَيْضاً يقولُ: كُنْتُ أُجَالِسُ قوماً سنينَ، يتجاوَرُونَ في علوم لاَ أَفْهمُهَا، وَلا أَدْرِي مَاهِيَ. وَمَا بُلِيتُ بِالإِنْكَارِ قطُّ. كنت أتقبلها وأحبّها مِنْ غَيْرِ أَنْ أعْرِفَهَا. وكَانَ أَيْضاً يقول: كُنَّا نَتَحَاوَرُ مَعَ إِخْوَانِنَا قديماً في علوم كثيرة، ما نَعْرِفُها في وقتِنا هَذَا. وَلاَ سَأَلَنِي أَحَدٌ عَنْهَا؛ وَهٰذَا بَابٌ كَأَنه أُغلِقَ وَرُدِمَ.

وقال في القوتِ: قال بعْضُ عُلَمَائِنَا: أَنَا أَعْرِفُ للمُتَقَدِّمين سَبْعينَ علماً، كَانُوا يتحاورونَهَا ويتَعارفُونَهَا في هذا الْعلمِ. ولم يَبْق منها الْيوم عِلْمٌ واحدٌ. وأَعْرف في زَمَانِنَا هٰذَا علوماً كثيرة، مِنَ الأَبَاطيلِ والغُرُورِ، والدَّعاوى ظَهَرَتْ وسُمِّيَتْ عُلُوماً. ثم قالَ: وكانَ إِمَامُنَا سَهْل يَقُولُ: بعد ستة وثلاثمائة: لا يحلُّ أَنْ يُتكَلَّمُ بِعِلْمِنَا، هٰذَا، يَعْنِي لِقِلَّةِ أَهْلِهِ. لأنَّه يُحْدث قوم يستمعون الخلق، ويتزَيَّنُونَ بِالكَلاَمِ. يكُونُ مواجدهم لباسهُمْ ومَعْدِنهم بطونُهُمْ. وحيلتهم كَلاَمهُمْ.

وقال الأُسْتاذ أَبُو القَاسم القشيْري رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ، في صَدْرِ رِسَالتِهِ: اعلمُوا رحمكُمُ اللّٰهُ، أَنَّ المحققينَ مِنْ هذِهِ الطَّائفة، انقَرَضَ أَكْثَرَهُمْ. لم يَبْقَ فِي زَمَانِنَا هٰذَا مِنْ هٰذِه الطَّائِفَةِ إِلاَّ أَثَرَهُمْ. وفِي مَعْنَاهُ قيل:

لاَ والَّذِي حَجَّتْ قُرَيْشٌ بَيْتَهُ ... مُسْتَقْبِلينَ الرُّكْنَ مِنْ بَطْحَائِهَا
مَا أَبْصَرَتْ عَيْنِي خِيَامَ قَبِيلَةٍ ... إلاَّ بَكَيْتُ أَحِبَّتِي بِفَنَائِهَا
أَمَّا الْخِيَامُ فَإِنَّهَا كَخِيَامِهِمْ ... وَأَرَى نِسَاءَ الحَيِّ غَيْرَ نِسَائِهَا

قال ابن العربي الحاتمي رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ: قَالَ هٰذَا فِي زَمَانِهِ. حيْث أَدْرَكَ

مَنْ تَزَيَّنَ بِزَيِّ الْقَوْمِ، خالفَهُمْ فِي بَاطِنهم. وأَمَّا الْيَوْمَ فَلاَ خِيَامَ وَلاَ نِسَاءَ. وقال الشيخ أَبُو مَدْيَنَ فِي قَصيدته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

وَاعْلَمْ بِأَنَّ طَرِيقَ الْقَوْمِ دَارِسَةٌ ... وَقَالَ مَن يَدَّعِيهَا الْيَوْمَ كَيْفَ تَرى

وقَال فِي الْمَبَاحِثِ:

يَا سَائِلاً عَنْ سُنَنِ الْفَقِيرِ ... سَأَلْتَ مَا عَزَّ عَنِ التَّحْرِيرِ

إِنَّ الَّذِي سَأَلْتُ عَنْهُ مَاتَ ... وَصَارَ بَعْدُ أَعْظُماً رُفَاتَا

إِلاَّ رسُوماً رُبَّمَا لَمْ تَعْفُ ... وَذَاكَ مَا نَتْبَعُهُ وَتَقْفُ

وَهَبْكَ أَنْ تَظْفَرَ بِالأَوْطَانِ ... مَا السِّرُّ والمَغْنَى سوى القطَّانِ

وَكَانَ شَيْخُ شيوخنا سيدي علي العمراني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقولُ: مِنْ شَكَ تُونُس، إلى وَادِي نُون، لاَ تَجِد أَحَداً يَتَكَلَّمُ في هٰذا الْعِلْم، إلاَّ رَجُلاً أَوْ رَجُلَيْنِ. كِنَاية عن قِلَّةِ وُجُودِ الْمُحَقِّقِينَ. وَلاَ يَدُلُّ هٰذَا على انقطاعِهِمْ. في كلِّ زَمَانٍ رِجَال، يَرْحَمُ اللَّهُ بِهِمْ عِبَادَهُ. فَالْعَدَد المعلوم لاَ ينقطع، حتى ينقطع الدِّين.

قَالَ فِي لطائفِ المِنَنِ: سُئِلَ بَعْضُ الْعَارِفينَ عَنْ أَوْلِيَاءِ العدد، أينقصُونَ فِي زَمَنٍ؟ فَقَالَ: لَوْ نَقَصَ مِنْهُمْ واحِدٌ، مَا أَرْسَلَتِ السَّمَاءُ قَطْرَها. وَلاَ أَبْرَزَتِ الأرْض نَبَاتَهَا. وَفَسَاد الوقت لاَ يَكُونُ بِذَهَابِ أَعْدَادِهِمْ. وَلاَ بِنَقْصِ إِمْدَادِهِمْ. ولكن إِذَا فَسَد الْوَقْتُ. كَان مُرَاد اللَّه وقُوعَ اختفائِهم. فإِذَا كَانَ أَهْلُ الزَّمانِ مُعْرِضينَ عَنِ اللَّهِ. مُؤَثِّرِينَ سِوَى اللَّهِ. لاَ تنجح فيهم المَوْعِظَةُ، وَلاَ تُمَيِّلُهُمْ إِلى اللَّهِ التَّذْكرة. لَمْ يكُونُوا أَهْلاً لظهُورِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ فِيهِمْ. ولذلكَ قالوا: أولياء اللَّهِ عَرائِس. وَلاَ يَرَى العَرَائِس المجرمُونَ ثم قال: وَقَدْ قَال ﷺ: **«إذا رَأَيت شُحًا مُطاعاً، وَهَوىً مُتَّبَعاً، وَإِعْجَاب كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ، فَعَلَيْكَ بِخُوَيْصَةِ نَفْسِكَ»**[1]. فَسمعُوا قول رسول الله ﷺ فآثروا الخفاء، بل آثرهُ اللّه لهم مع أنه لأنَّ منهم، أن يكون في الوقت أئمة ظاهِرون، قائمون بالحجّة، لقول رسول الله ﷺ: «لاَ

(١) رواه ابن ماجة في سننه، باب قوله تعالى يا أيها الذين آمنو..، حديث رقم (٤٠١٤) [٢/ ١٢٣٠] والترمذي في سننه، باب ومن سورة المائدة، حديث رقم (٣٠٥٨) [٥/ ٢٥٧] ورواه غيرهما.

تَزَالُ طَائفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الحَقِّ، لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ إِلَى قيام السَّاعة»[1]. وقال سَيِّدنا عَليّ كَرَّمَ الله وَجْهَهُ: اللَّهُمَّ لا تُخْلِ الأرض مِن قائم لك بحجَّتِكَ. أُولٰئكَ الأقلُّونَ عَدَداً، الأعْظَمُونَ عِنْدَ اللَّهِ قَدْراً. قلوبُهُمْ معلقة بالمحلِّ الأعْلَى. أُولٰئِكَ خُلَفَاءُ اللَّهِ في عِبَادهِ وَبِلادِهِ. آه. آه. أواشوقاه إلى رُؤيتهم. قُلْتُ: وقد وجدت هذه الأئمة في زماننا هٰذَا. وظهروا ظُهُورَ الشمس في أُفُقِ السَّمَاءِ على مَن سَبَقَتْ لَهُ مِنَ اللَّهِ الْعِنَاية. ثم مَنَّ اللَّه عَلَيْنَا بِمعرفتهم وصحبتهم. فوجدناهم من أَهْلِ التربية النَّبَوِيَّة. سالكينَ الطريق. عارفين بِعَيْنِ التحقيق. سَلَكُوا بِلاَدَ التجريد. وخَافُوا بِحَار التوحيد. داعين إلى اللَّهِ بالهِمَّةِ والحلالِ. عارفين الإصْطِلاَح والمقال. ينهَضُون إلى اللَّهِ بِالْحَالِ. وَيَدُلُّونَ على اللَّهِ بالمقَالِ. سَلَكُوا مقام الجَذْبِ والْفنَاءِ. وَرَجَعُوا إِلَى مقام البقاءِ. قَدْ هَدَى اللَّهُ عَلى أَيْدِيهِم الجَمَّ الغَفيرَ. وتخَرَّجَ عَلى أَيْدِيهِمْ خَلْق كثيرٌ. غَيْرَ أَنَّهُ لاَ بُدَّ للشَّمْسِ من سَحَابٍ.. وللحسناءِ مِن نِقَابٍ. فَسَتَر اللَّهُ سِرَّهُمْ ببَعْض ما يظْهر من بَعْض أَصْحابِهِم من الأحوالِ الظلمَانية، والأفعال الشيطانية؛ وهم مُبَرَّؤونَ مِنْهَا. يحذرون دائماً مِن فِعْلِهَا. وكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مقدوراً. وَبِاللَّهِ التوفيق. ولا حَوْلَ ولا قوة إلاَّ بِاللَّهِ العلي العظيم.

ثم قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

وَمِنْ بَيْنِ أَحْشَاءِ الدِّنَانِ تَصَاعَدَتْ ... وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا فِي الْحَقِيقَةِ إِلاَّ اسْمُ

قُلْتُ: هٰذَا هو الصوابُ في اتِّصَالِ هٰذَا البيْتِ بِمَا قَبْلَهُ لِلْمُنَاسَبَةِ. ولَعَلَّ النَّاسخ أَخَّرَهُ عَن مَحَلِّهِ. **والأحْشاء**، جمع حُشْوَة بِالضَّمِّ وهُوَ مَا في البَطْنِ مِنَ الأمْعَاءِ. **والدِّنَان**، جمع دَنٌّ، بفتح الدَّال، وشدّ النُّون. وهو فَخَّار كبير، أَسفله رقيق، لا يجلس حتى يحفر لَهُ. ويُقَال له الرَّاقُود. يُخْزَن فيه الخمر والخلّ. وأَطلقه هُنَا على القلوب، أَو الأشباح لأنها أَوَانِي للخمرة الأزلية. وتصاعد الشيء ارتفع. يَقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَدِ ارتفعَتْ هذه الخمرة، وتصاعدت من

(١) رواه مسلم في صحيحه، باب قوله ﷺ لا تزال..، حديث رقم (١٠٣٧) [٣/ ١٥٢٤] والترمذي في سننه، باب ما جاء في الشام، حديث رقم (٢١٩٢) [٤/ ٤٨٥] ورواه غيرهما.

أَجْوَافِ النَّاسِ، ومن بيْن أَحْشاء الصُّدُور. ولم يَبْقَ منْهَا في حقيقة الأَمْرِ، إلاَّ اسْمٌ بِلا مسَمَّى. وَرَسْم بِلاَ دَارٍ. وكذلك عِلْمُ التصوّف الحقيقي، لم يَبْق منه إلاَّ التشدق بِاللِّسَانِ، مَعَ خَرَاب الجنان، وفي ذلِك يقول القائل:

أَهْـلُ الـتـصَـوف قَـدْ مَـضَـوا ... صَـارَ الـتَّـصَـوُّفُ مـخـرفَـةْ

صَـارَ الـتـصـوّف رتـعـة ... وسَـجَّـادة مُـزَوقـةْ

صَـارَ الـتَّـصَـوُّفُ سُـبْـحَـة ... وَتَـواجُـداً ومِـنـطـقـةْ

كَـذَبـتْـكَ نَـفْـسُـكَ لـيْـس ذِي ... سـنـن الـطـريـق الـمُـلْـحَـقَـةْ

وفيما تقَدَّمَ قَبْلَ هٰذَا كِفَايَة. والبَرَكَة لاَ تنقطِعُ. وبِاللَّهِ التوفيق.

ثم قالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

فَإِنْ ذُكِرَتْ فِي الْحَيِّ أَصْبَحَ أَهْلُهُ ... نَشَاوَى وَلاَ عَارٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ إِثْم

قلت: الحيّ: القبيلة. قالهُ فِي القَامُوس. **والنشاوى** جمع نشْوَان، كسَكْرَان، وَزناً ومَعْنىً.

يَقُولُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِذا ذكرت هذه الخمرة، ذكراً حقيقياً بالعلم والحال في قبيلة أَو مَدْشَرٍ، أَوْ بلد. أَصبح أَهل ذلك القبيلة سُكَارَى وَالهِينَ مِنْ ذكر الحبِيب، غالب عنهم الجذب إلى الحَضْرَةِ الأَزَلِيَةِ. لكن بِشرط أَنْ يكُونَ ذاكرها غالباً عليه السكر والجذب مَعَ طرف مِنَ الصَّحْوِ وأَن يَذْكرها مع أَهْلِها. فَإِنْ كَان كما قلْت، فَلاَ شَكَّ فِي سُكْر أَهْلِ ذٰلك البَلد. وانجِذَابِهِمْ إلى الحَضْرَةِ وإشراق أَنوارها عَلَيْهِمْ. قلتُ: وقد شهدت هٰذَا المعْنَى، حين خَرَجْنَا إِلى قبيلة أنجرة والفَحْص، في العام الأول من مُلاَقاةِ الشيخ، حيْث كَان السكْر غالباً علينَا، فَكُنَّا إِذا بتنا في مَنْزِلٍ يُصْبح أَهله جلهم سكَارى، يلهجون بذكر الله. وقد رأَيْت الصبْيان، والرُّعَاة والحرّائين يَتْبَعُونَا، وهم يَبْكُونَ. فَمَا كُنَّا نَرُدّهُمْ إلاَّ بِجُهْدٍ جهِيدٍ. وقد رأَيْتُ في فَحص طَنجة، أَصْحاب المخزن، وأَرْباب الدَّولة علقُوا التسابيح، وتابُوا، وتركُوا مَا كَانُوا عليه. فحققنا هٰذا الأمر الَّذِي ذكره الشيخ عياناً والحمد لله. وقولهُ: **وَلاَ عار عليهم**.. إلخ.. تعريف بالخمرة الحِسِّيَّة. فإِنَّها فيها الْعَيْبُ وَالإِثْمُ مِنْ قبل الشَّرْعِ. لتغييب الْعَقْلِ وتلفه في الظلمة. فتشغله

عن ذِكر اللَّهِ، وعن الصَّلاَةِ بِخِلاَفِ هذه. فإنَّ العَقل يغيبُ في نورِ الحبيب، وبهائه وحسن جَمَاله. ففي تَرْكها الْعَارُ والإِثْمُ، لاَ في تَعَاطيها، كما يأتي عنْدَ قوله:

وقـالـوا شَـرِبْـت الإثـم كَـلا وإنـمـا شربْت التي في تركها عِنْديَ الإثْمُ

وباللَّهِ التوفيق.

ثم قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

وَإِنْ خَطَرَتْ يَوْماً عَلى خَاطِرِ امْرِىءٍ أَقَـامَـتْ بِـهِ الأَرْوَاحُ وَارْتَـحَـلَ الْـهَـمُّ

يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إذَا خَطَرَتْ هذه الخمرة الأزلية؛ وهيَ الْمَعرفة الحقيقية؛ على قَلْبِ امرِىءٍ موَحِّد مُطَهر من الأغيار، سالم مِن خيالاَتِ صُوَر الآثار. ودَامَ ذلِكَ الخطور، بحيث لاَ تخَلَّلهُ فتورٌ. أَقَامَتْ: أَيْ سكَنَتْ في ذلِكَ الْقَلْبِ، بِسبب شهودِ تِلكَ الْخَمْرَةِ، الأفراح والسّرور. والابتهاج والحُبُور. وارْتفع عنْهُ الأَحْزَان وَالْهُموم. بمُشاهدَة الحيّ القيّوم؛ لأنَّ تلك الخمرة، هيَ معْرفة الذات الأزلية. على ما يأتي في تفسيرها إن شاء اللَّهُ. وَجنَّةُ المعارف، أَحظَى عند العَارفين مِن جَنَّةِ الزَّخارِف؛ لأن من دَخَل جَنَّةَ المعارف، لمْ يشتق إلى جنَّة الزَّخَارف. وقال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يونس: ٦٢]. أَي في الدّارين. وقال تعالى في الحديث القدسي: «**أَعددتُ لعبادي الصَّالِحينَ، مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ، وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلاَ خَطَرَ عَلى قَلْبِ بَشَرٍ**»[1]. ولـم يُقيّدْ ذلِكَ في الدّنيا وَلاَ الآخِرَةِ. فهو حاصل لهم في الدَّارَيْنِ. وأَيْضاً: إِنَّمَا تطرق الهُمومُ والأَحْزَان، بسبب وجود الإنسَان. وأَمَّا مَنْ تحقق له الزَّوال. فَلاَ يرى إلاَّ غاية الكَمَال مَا تجده القلوب من الأَحْزَانِ. فلما منعت من الشهود والعيان، كَمَا قالَ صاحِب الحِكَم: «أَوحى اللَّهُ إلى داود عليه السَّلاَمُ: يا داود، قل للصديقين: بِي فَلْيَفْرَحُوا. وَبِذِكْرِي فَلْيَتَمَتَّعُوا، أَي لاَ

---

(١) رواه البخاري في صحيحه في أبواب عدة منها: باب ما جاء في صفة الجنة. .، حديث رقم (٣٠٧٢) [٣/ ١١٨٥] ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة. .، حديث رقم (٢٨٢٤) [٤/ ٢١٧٤] ورواه غيرهما.

يَصْفُو الْفَرَحُ وَلا يكمل النّعيم. إلاّ بالنَّظَرِ إلى وجهه الكريم. وَقَالَ تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾ [يونس: ٥٨] أَيْ لاَ بغيره. ففضل اللّه معرفته، وَرَحْمَتُهُ: هدايته. وقال الشّاعر فِي هذَا المَعْنَى:

أَنْتُمْ سُرُورِي وَأَنْتُمْ مُشْتكَى أَلَمِي ... وَأَنْتُمْ فِي ظَلامِ اللَّيْلِ أَقْمَارِي
فَإِنْ تَكَلَّمْتُ لَمْ أَنطِقْ بِغَيْرِكُمْ ... وَإِنْ صَمَمْت فَأَنتم عِقْدُ إضماري

وقال آخرُ:

إِنَّ عِرْفَانَ ذِي الْجَلاَلِ لَعِزٌّ ... وضيَاء وَبَهْجَة وَسُرُورُ
وَعَلَى الْعَارِفِينَ أَيْضاً بَهَاءٌ ... وَعَلَيْهِمْ مِنَ المَحَبَّةِ نُورُ
فهنيئاً لِمَنْ عَرَفَكَ إِلَهِي ... هُوَ وَاللَّهِ دَهْرُهُ مَسْرُورُ

وقُلْتُ في تائيتي الْخَمْرِيَّةِ:

فَفِي سَكْرَةٍ مِنْهَا سُرُورٌ وَغِبْطَةٌ ... وخَيْرُ حَيَاةٍ فِي نَعِيمٍ وَبَهْجَة

وقلت فِي عينيتي:

ولِي لَوْعَةٌ بِالراحِي إذْ فيهِ رَاحَتِي ... وَرُوحِي وَرَيْحَانِي وَخَيْرُهُ وَاسِعُ

وإنما قَيَّدْنَا كَلاَمَ الشيخ بِدَوَام خطور تلك الخمرةِ؛ لأنَّ مطلق الخطور والمرور، لاَ يُوجب دَوَام السّرور، لأن ذلك كبرق سَرَى. فإذَا انسَدَلَ الحجاب، برفع ذلِك النُور، زال الْفَرَح والسّرور؛ لأن صاحب هٰذَا المقام، صاحب تلوُّنٍ. وصاحب التلوين ما زال في السَّيْرِ مَعَ السَّائِرينَ، والسَّفر قطعة من العذاب، فلا يسْتريح مِنَ التَّعَبِ، وَلاَ يُفَارِقهُ النَّصب، حتى يصِل إِلَى مَقَام التَّمكِينِ. فحينئذ يسْكن فسيح الجنان. وتضمحلّ عَنْهُ الْهُمُومُ والأَحْزَانُ، كما تقدَّمَ. وَبِاللّهِ التَّوْفِيقُ.

ثم قالَ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ:

وَلَوْ نَظَرَ النُّدْمَانُ خَتْمَ إِنَائِهَا ... لأسكَرَهُمْ مِنْ دُونِهَا ذٰلِكَ الْخَتْمُ

قلتُ: النُّدمان، يكون مُفرداً ويكونُ جَمْعاً كَمَا فِي الْقَامُوسِ. والْمُرَادُ هُنَا الجمعُ. بِدَليل جَمْعِ الضّمِير في قوله: لأسكَرهم، وهم الجماعَة التي تتحدَّث على الْخَمْرِ في مَجْلِسِهِ. وَخَتْمُ الإِنَاء: مَا تُسَدّ بِهِ.

يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، في تشبيه الخمرةِ الأزلية، بالخمْرَة الحسّية، أَو بالرّحيق المختوم في الجنَّة، فإنَّ هذه الخمرة الأزلية، مخزونة في أَوانِيها. مختوم عليها بختام الحفظ والصّيَانَة. فلو نَظَرَ القاصدون لشربَها. إلى ذٰلِكَ الْخَتْم، لسَكروا قبل الشُّرْبِ. فما بالكَ بالشرْبِ. فما بَالُك بالرّيّ.

قلت: وأَوَانِي هذه الخمرة؛ هي: بواطن العَارفين. وخَتْمَها هي ظواهر بَشريتهم. فكُلُّ من قَصَدَهُمْ بِالتَّعْظِيمِ وَالأَدَبِ، ونظر إليهم بالخضوع والإنكسارِ، والذِّلَّة والافتقار. جَازِماً بوجود خصوصيتهم، سَكِرَ لمجَرَّدِ رُؤْيتهم، قبل أَنْ يَأْخُذَ عَنْهُمْ وَيَصْحِبَهُمْ. وقد شهدنَا هٰذَا السّرّ من أَنفسنَا، ومن أَشياخنا. فكثير من الْمُرِيدِينَ، حَصَلَ لهم الجَذْبُ والسّكْرُ، قبل أَنْ يتلقَّوْا الورْد، بل لمجرَّدِ الرؤية. وقد رَأَيت بعض النَّصارى بثغر سبته[1]، حين قدِمْنا عَلَيْهَا، لمَّا عَقدنا حلقة الذِّكر. انجذبُوا وتبعونَا إلى منتهَى الحَدّ الّذي بيْنَنا وبيْنَهُمْ. وبَقوا مَبْهُوتِين واقفين خَلْفَنَا. لما أَشرقَ عليهم من نور الخَمْرَةِ. واللَّهُ تَعَالى أَعْلَمُ.

قال القطب مَوْلاَنَا ابن مشيش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في هذا المعْنَى ـ لمَّا تَكَلَّمَ على المحبَّة ـ فمِنْهم من يَسْكرُ بشهودِ الكَأسِ. ولم يَذق بعد شيئاً. فَمَا ظَنُّكَ بَعْدُ بِالذَّوْقِ، وَبَعْدُ بالشرْبِ. وَبعْدُ بالرَّيّ. وَبَعْدُ بِالسُّكْرِ بالمشروبِ. ثم الصحو بعد ذلِكَ على مقادير شتَّى. كما أَسكر أَيْضاً كذلكَ. والكَأْسُ: مِعْرفة الحقّ، يُغرف بِها ذلكَ الشراب الطهور الصَّافِي لمَن يشاء من عبادِهِ المخصوصينَ من خَلْقِهِ. فتارة يشهد الشارب تِلْكَ الكأس صورة، وتارة يشهدها معنوية. وتارة يشهدها علميّة. فالصّورة حظّ الأبْدانِ والأنفس. والمعنوية حَظ القلوب والعقول. والعلمية حَظُّ الأرواح والأسْرَار. فَيَا لَهُ من شَرَاب ما أَعْذَبَهُ؛ فطوبَى لمَنِ شَرِبَ وَدَامَ ولم يقطع عَنْهُ. نسْأَلُ الله من فَضلِهِ ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٤﴾ [الجمعة: ٤].

وقد تجتمع جماعَة من المحبِّينَ فَيُسْقَوْن مِنْ كَأْسٍ وَاحِدَةٍ. وقد يُسْقَوْنَ مِن كؤوس كثيرة. وقد يُسْقى الْوَاحد بِكأس وَبِكؤوس. وقد تختلف الأشربة حسَب

---

(١) سبتة: مدينة مغربية تقع على ساحل البحر الأبيض المتوسط.

عدد الأكوَاس. وقد يختلف الشرب من كَأسٍ واحِدَةٍ. وإن شَرِبَ مِنْهُ الجَمُّ الْغَفِيرُ مِنَ الأَحِبَّةِ. انتهى كَلاَمه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقوله: فتارة يشهد الشارب تلك الكأس صورة، أي يشهدها حسّية. ويشرب مِنْها خَمْراً حِسِّياً. على وَجْهِ الْعَادَةِ. يكون هٰذَا فِي حَالِ البِدَايَةِ في الجذْبِ الأول. وقد أَخْبَرَنِي أَخِي، أنه كَان يجد في فَمِهِ طعم الخمر-الحسي. ورائحته الحسية، في جذبِهِ الأول. وتارة يَشهدها معنوية. يعْني يشهد حَلاَوة المعاملة. ولذيذ الطاعَة. فيغيب قلبه في حالة الذِّكْرِ. إن كَان مَسْدوداً عليه الحجاب.

وقوله: تارة يشهدها علمية، أي يشهدها بِالْعِلْم. والمراد بِهِ عِلْمَ الْوحدة برَفْع الحجاب. فيسكر في شهود أنوار الحبيب، ثم يَصْحُو مِن سُكره.

وقوله: فالصّورة حظ الأبْدانِ والأنفسِ؛ لأنَّ هذه الحالة، تكون لأهلِ البدايات، فأبدانهم كثيفة. ونفوسهم قوية. فلا يؤثر فيها إلاَّ الشيء المحسوس. وأَيْضاً من نَوْع الكَرَامَة الحسية، فيتقوّى بِهَا المبتدىء دون المنتهي.

وقوله: والمعْنوية حظّ القلوب والعقول. إنما كَانت المعنوية حظّ القلوب والعقول؛ لأنَّ هذه الحالة، تكون للمتوسطينَ السَّائرينَ. قَدِ انقلبَتْ مُعَاملتهم البَدَنية، قلبية وعقلية. فلا يسْقَوْن إلاَّ مِنَ المَعَاني اللطيفة، وإن كَانُوا محجوبينَ عَن رُؤْيَتهم ولكنَّهم مستشرفون عَلَيْهَا، قد لاَحَتْ عَلَيْهِمْ أنوارها، وأشرقت عليهم أسرارها.

وقوله: والعلمية حظُّ الأرواح والأسْرَار؛ لأنَّ الرُّوحَ والسّر هو محلّ الشهود والعلم بالوحدة. فلا تسْقى إلاَّ مِنْ مَادَّة العِلم. فالوحدة، حتى تغرق في عيْن بَحْر الوحدة. وَلاَ تسمَّى روحاً ولاَ سِرّاً، حتَّى ينكشف عنها الحجاب. تدخل مع الأحْبَاب. وإلاَّ فيُقال فيها النَّفس والعَقل، والقلْب. الموضوع واحدٌ. وقد قُلْتُ في هٰذَا المَعْنَى من قصيدتي الرَّائيَة التي أَنْشَدتها في الرُّوحِ، وتقلبات أطوارها، فقلت في بَعْضِهَا:

هِيَ النَّفسُ ثُمّ العَقْلُ والْقَلْبُ تَالِيَا ... لَهَا الرُّوحُ ثُمّ السِّرُّ فِي صَفَاءِ التِّبْرِ
فَإِنْ أَخْلَدَتْ أَرْضُ الْهَوَى وَتَظَلَّمَتْ ... فَنَفْساً تُسَمَّى ذَاكَ فِي أَوَّلِ الأَمْرِ

وَإِنْ عقلتْ أَيْدِي الْهَوَى بِأَزِمَّةٍ ... فَعَقْلٌ بِهِ نيطَ التَكَلُّفُ بالأَمْرِ
وإن سَكَنَتْ لِلْخَيْرِ لَكِنْ خَوَاطِرُ ... تُقَلِّبُهَا قَلْبَ السُّفُنِ عَلَى الْبَحْرِ
بِذَاكَ تُسَمَّى الْقَلْبَ مَالِكٌ أَمْرَهَا ... بِهِ صَلاَحُ الأَعْضَاءِ فِي السِّرِّ وَالْجَهْرِ
وَإِنْ لَحَظَتْ رُوحُ الْوِصَالِ يَؤُمُّهَا ... وَزَالَ تَعَبُ الحِسِّ فِي سَاعَةِ الذِّكْرِ
فَروحاً تُسَمَّى فِي نَشَاءَةِ أَصْلِهَا ... وَلٰكِنْ بَقَايَا الحِسِّ تَشْرُقُ لِلْبِرِّ
فَإِنْ صُقِلَ الْمِرْآةَ عَنْ غَبْشِ حِسِّهِ ... فَذٰلِكَ سِرُّ اللّٰهِ ضُمَّ إِلَى السِّرِّ

انتهى المقصود مِنْهُ.

قوله: وقَدْ تجتمع جماعة... الخ يعني. قد تسْقى جماعَة على يَدِ شَيْخ واحِدٍ؛ وهُوَ الْمُرَاد بالكَأسِ.

وقولهُ: وقد يُسْقَى من كؤوس كثيرة. أَي كل واحد يشرب من واسطة شيْخه. وقوله: وقد يُسْقى الواحد بكأسٍ وبِكُؤُوس. يَعْنِي أَنَّهُ يُسْقَى أولاً من كَأسِ شيْخ، ثم يُسْقى مِن شيوخ أُخْرَى. إِذَا أَذِنَ لَهُ شيْخُه فِي مُلاَقاتهم. وقد يكون للمجذوب نحوَ أَرْبَعِينَ شيْخاً. كلهم غرَف منْهُم. إلاَّ أَنَّ هٰذا نادِر. أَوْ يَكُونُ بَعْدَ التَرْشيد. واللّٰهُ تَعَالى أَعْلَمُ.

وقولهُ: وقد تختلف الأشربة، يعني يكون بعْضها ممزوجاً بالصَّحْوِ؛ وهو الكَامل من الشراب، وبعضها يكون جَذْباً صِرْفاً ثم يصْحُو. وبعضه الجذب غالبٌ. وبَعْضُها السلوك غالبٌ. إِلَى غَيْرِ ذٰلِكَ. وذٰلِكَ بِحَسَبِ المشروب. وعلى عدد الكؤوس.

وقولهُ: وقد يختلفُ الشُّرْبُ من كَأْسٍ واحدة. أَي من يَدِ شَيْخ واحِدٍ. فيكون الماء واحداً. والزهر ألواناً. فالخمر واحد، والأواني مختلفة. فبعْضها صَلْبة قوية واسِعَة. لاَ يَغْلبها السُّكْرُ. وبعضها رقيقة لطيفة، أو ضيقة؛ أَقل شيء يؤثر فيها. والماء واحدٌ وهو الصحو لكمال السَّاقي. واللّٰهُ تَعَالى أَعْلَمُ. وبِاللّٰهِ التوفيق. وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّة إلاَّ باللّٰهِ العليّ العظيم.

ثم قال رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ:

وَلَوْ نَضَحُوا مِنْهَا ثَرَى قَبْرِ مَيِّت ... لَعَادَتْ إِلَيْهِ الرُّوحُ وَانْتَعَشَ الْجِسْمُ

قُلْتُ: **النَّضحُ**: الرَّشُّ. **والثَّرَى**: التراب. **وانتعشَ**: انتهضَ وارْتَفَعَ.

يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هذه الخَمْرَة الأزلية؛ وهي الحقيقة الإلَهية لها قوّة عظيمة. وتأثير قويّ في قَلْبِ الحقائق، خَرْق العوائد الحسّية والمعنوية. فلو رشَّ أَصحابُها منها رشة على قَبْر ميّتٍ، لَنَهَضَ وارْتفع من قَبْرِهِ بإذن رَبِّهِ. ويقوى تأثيرها بقدْر تحقيقها. وحصولها في قَلْب صاحِبِهَا. حتى يكون من تحقق بهَا. أَمْرُهُ بِأَمْرِ اللَّهِ. ولذلكَ كَانَت الأنبياء والرُسُل، تنفعل لهم الأشياء، وتخرق لهم العوائدُ أكثَر من غَيْرهم. فكَان سيّدنا عيسى عليه السلامُ، يحيي المَوْتَى، وَيُبْرِىءُ الأَكْمَهَ والأَبْرَصَ بإذْنِ اللَّهِ. وَكَان نبيُّنَا عليه الصَّلاَةُ والسلامُ يُطعم الجمَّ الغَفِير من صَاع مِن طعام، ويسْقي الجيش الكثيرَ من بيْن أَصَابِعِهِ الشَّريفة ﷺ. وقد أَحْيَا المؤءُودَةَ، وخَيَّرَها في الرجوع أَو البقاء، فاختارت الرجوع إلى ربّها. وأَحْيَا أَبَوَيْهِ حتى أَسْلَمَا على قَوْلٍ. وَرَدَّ عَيْن قتادة بعد أَن انتثرتْ في يدهِ. فكَانَتْ أَحْسَنَ عيْنيْهِ. إلى غَيْرِ ذلكَ مِمَّا لاَ يَنْحَصِرُ. وكرامَة الأولياء من هذا المَعْنَى متواترة، لاَ يمكِن حَصْرها.

ويحتمل أَنَّ كَلاَمَ الشيخ، على سبيل المجَاز والإشارة. فيُريد بثَرى قَبْرِ الميّت، بشرية الجاهل أَو الغافِل. وبانتعاش روحِهِ: حياتها وارتفاعها بالمعرفة والعِلْم. أَي ولو نَضَحَ العارفون من خَمْرَة هِمَّتِهم على ظَاهر من ماتت روحه بِالجَهْلِ والغَفْلَةِ، لحييَتْ وَانْتَهَضَتْ إِلَى حَضْرَةِ الحقِّ. وارتفَعَتْ بالعلم والذِّكْرِ من سَاعتها. وهٰذَا الأمر مجرَّب عند أَهْلِ الصِّدقِ. وفي بعض الأثر: «إنَّ لله رجَالاً مَنْ نَظَرَ إليهم سَعِدَ سعادة لاَ يشقى بَعْدَهَا أَبَداً».

وكَان الشيخ أَبو العبَّاس المرسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقولُ: «واللَّهِ ما بيْنِي وَبَيْنَ الرَّجُل إِلاَّ أَنْ أَنْظُرَ إِلَيْهِ وَقَدْ أَغْنَيْتُهُ». وقد شهد له بذلك شَيْخُهُ. فقَال: نعَمْ. الرجلُ أَبُو العباس؛ يأتيه البَدَوِيّ يَبُول على سَاقَيْهِ. فَلاَ يُمْسِي إلاَّ وَهُوَ وَلِيّ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ. ولقد سمعْتُ شَيْخَنَا البُوزَيْدِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: إِذَا كَانَ الشيخ أَبو العباس، يُغْنِي بالنَّظْرَةِ. فَلَقَدْ بَقِيَ في زَمَانِنَا هٰذَا، مَنْ يُغْنِي بالنَّظْرَةِ كَالشيخ أَوْ أَكْثَرَ. وسمعت شيخه مَوْلاَي العربي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: لقد بقي العارفُونَ في زماننا هٰذا، كالشَاذلي وأَمْثَالِهِ ـ يُشير إلى نَفْسه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ وهذا أَمر

شهير عند أَهْلِ الذّوْقِ وأَهْلِ الصّدق. . كل مَن قَصَدَهُمْ بالصِّدْقِ ربح مِنْ سَاعتِهِ. وحيي بَعْدَ مَوْتِهِ. وهذا الاحتمال عندِي أقربُ، لتحقق هٰذا الأمر للعارفينَ بخلاف الأول. فإنه مِنْ باب الكرامَة الحسّية. وَهُمْ لاَ يلتفتون إِلَيْهَا. وقد لاَ تَظهَر لَهُمْ. فكم من عارف كاملٍ، أَحْيَا اللّٰه على يده الجمَّ الغفير من أموات النُّفُوس والقلوب. ولم يظهر على يديه شيء من الكَرَامات الحسّية إِلاَّ القليل. كإِحياء الموتى الّذي ذكره الشيخ. وأَيْضاً: عِلْمُنَا كُلُّه إِشارة وَأَلْغاز، فَلاَ يُحْمَل على ظاهِرِهِ إِلاَّ مَن لم يعرف مقصدهم. والله تعالى أَعْلَمُ.

ثم قال رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ:

وَلَوْ طَرَحُوا فِي فَيْءِ حَائِطِ كَرْمِهَا عَلِيلاً وَقَدْ أَشْفَى لَفَارَقَهُ السُّقَمُ

قلت: **الفَيْء**: ظل الشيء بعد أن كَان شَمْساً. **والحائط**: البسْتان. **وَأَشْفَى عَلَى الْموْت**: أَشرف عليه.

يَقُول رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ: هذه الخمرة الأزلية، لقوّة تأثيرها تشفي الأسْقام وَالْعلل. قبل ظهورها من موادهَا. فَلَو طرح عليل، وقد أَشرَف على الْهَلاك في ظل بسْتانِ أشجارها قبل أن تعقّر بل قبل أَن يظهر عنبُها. لَشَغلهُ اللّٰهُ. وَفَارقه السُّقمُ من سَاعته. وهٰذَا يحتمل أَنْ يكون مُبَالغة في مَدْحِهَا. وأَنّها لو كانت حسّية وجُعل ذلك، لكون الأَمْر كَمَا قَالَ.

ويحتمل أَن يريد به العليل سقيم القلْبِ. وبالحائط، بسْتان العارفينَ. فكل مَنْ دَخَلَ فِي ظِلّ محبّتهم، شفاهُ اللّٰهُ مِنْ مَرَضِ قَلْبِهِ، ولو أشرف على الهلاك بالشكوك والخواطِرِ، والذّنوب والجرائم. وهذا أَيْضاً مجرّب. إِذ الْمَرْءُ على دين خليله. ومن تحقق بِجَلالةِ، لا يَخْلُو حَاضِرُوهُ مِنْهَا. وفي الخَبَرِ: «**تعَلّمُوا اليقين بمجالس أهْل اليقين**»[1]. واللّٰهِ ما أفلح من أَفْلحَ؛ إِلاَّ بصُحْبة مَنْ أَفْلَحَ. وفائدة الصحْبة وثمراتها. أَمْر شهير لا يحتاج إلى دَليل. وجُرِّبْ. ففي التجريب عِلْم الحقائق. ولابْنِ عَبَّادٍ رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ فِي نَظْمِ الحِكَمِ:

إِنَّ التَّـواخـي فَـضْـلُـهُ لا يُـنْـكَـرُ وَإِنْ خَـلاَ مِـنْ شَـرْطِـهِ لاَ يُـشْـكَـرُ

(١) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

والشَّرْط فِيهِ أَنْ تُوَاخِيَ الْعَارِفَ عن الحُظُوظِ والُلُحُوظِ صَارِفاً.
مَعَالُهُ وحَلاله سَيَّانِ مَا دعوْنَا إلاَّ إلَى الرحْمٰنِ أَنْوَارُهُ الدَائِمَة السرايَا
فِيكَ وَقَدْ حُفَّتْ بِكَ الرِّعَايَةُ

وقال سيدي إبراهيم التَّازي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «زِيَارة أَرْبَابِ التُّقى مَرْهَمٌ يُبْري وَمِفْتَاحُ أَبْواب الهِدَايَةِ والْخَيْرِ. وَتُحْدِثُ فِي قَدْرِ الْخِليّ إِرَادَةٍ».

ونَشْرَحُ صَدْراً فَاقَ مِنْ سعَةِ الْوِزْر وَتَنْصُر مظلوماً وَتَرْفَعَ خاملاً
وتكسب معدوماً وتَجْبُر ذَا كَسْرِ فَكَمْ خَلَّصَتْ مِنْ لجّة الإِثْمِ فاتِكاً

فَأَلْقَتْهُ فِي البَحْرِ والبَرّ. إلَى أَنْ قال:

وَلاَ فَرْقَ فِي أَحْكَامِهِ بَيْنَ سَالِكٍ مُرَبٍّ وَمَجْذُوبٍ وَحَيٍّ وَذِي قَبْرِ
وَذِي الزُّهْدِ وَالعُبَّادِ فَالكُلُّ مُنْعَم عَلَيْهِ وَلٰكِنْ لَيْسَتِ الشَّمْسُ كَالْبَدْرِ

ثم قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

وَلَوْ قَرَّبُوا مِنْ خَانِهَا مُقْعَداً مَشَى وَتَنْطِقُ مِنْ ذِكْرى مَذَاقتهَا الْبُكْمُ

قلْتُ: تقدَّمَ أن الْخَان: هو حانُوتُ الْخَمَّارِ أَوْ دَارُهُ.

يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ولو قرَّبُوْا مَحْبُوساً عَنِ المَشْيِ. مِنْ محل هذه الْخَمْرةِ الأَزَلية. لانطَلَقت رِجْلاَهُ للمَشْي سَرِيعاً. قَبْل الوُصُول إلى مَحِلِّهَا. فَمَا بالُكَ لَوْ دَخَلَ خَدنَهَا أَوْ شَرِبَ مِنْهَا. وكذلك لو ذكرت حَلاَوة مذاقتها عِنْدَ الأَبْكَم لَنَطقَ سريعاً مِن بَرَكَةِ ذِكْرهَا. فَمَا بالُكَ لَوْ ذَاقها بِلسانِهِ. وهٰذَا الَّذي ذُكِر، يَحْتَمِل أَنْ يَكُونَ حقيقةً، فَإِنَّ في كَراماتِ الأولياء، مثل هذا أَوْ أكثر. كقصَّة الجارية التي كانَتْ مقعدة سِنِينَ. فلمَّا بدت عند أَهْلها رجلاً صالحاً تَوَسَّلَتْ بِهِ. فقامَتْ مِنْ حينها. إلى غَيْر هٰذا مما يظهر على يَدِ الأولياء، من الكَراماتِ الحسية. ويحتمل أن يكون مجازاً. فيكون المراد بالمُقْعَد؛ مَن حُبِسَ عن الخَيْرَات. وأقعده الكسل عن الطَّاعاتِ. وَحَبَسَتْهُ الشهوات، عن النهوض إلى المقاماتِ. فإذا قرب من أَهْل هذه الخمرة؛ وهم العارفُونَ، انطلقَتْ قيودُهُ. ونشط إلى السَّير ظاهراً وباطناً. ويكُون المراد به الأبكم: وهو مَنْ أَخْرصته الْغَفْلة، وعقد لسانَهُ الجهْلُ والبِدْعةُ. فَلاَ ينطق إِلاَّ بما لاَ يَعْنِي. وَلا يتكلَّم إلا

فِي الحسّ فإذا صحب العَارفينَ، تَجَوْهَرتْ نَفْسهُ. وانطلقَ لسَانُهُ. فيتكلَّمُ بالحِكَم والعُلُوم اللّدُنية. وفِي الخَمَارِ: «مَنْ زَهِدَ فِي الدُّنْيَا أَرْبعينَ يَوْماً نطق بِالحِكْمَةِ»(١) أَوْ كما قَالَ. وقال أَبُو سليْمَان الدَّاراني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِذَا ابْتَعَدَتِ النُّفُوس عن تَرْكِ الآثام جَالَتْ فِي الملكوتِ. ثم رَجَعتْ إلى صاحِبِهَا بطرائف العلوم مِنْ غَيْر أَن يُؤَدِّيَ إليها عالمٌ عِلْمنا.

ثم قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

وَلَوْ عَبِقَتْ فِي الشَّرْقِ أَنفاسُ طِيبِهَا وَفِي الْغَرْبِ مَزْكُومٌ لَعَادَ لَهُ الشَّمُّ

قلت: عبقت الريح: إذا هبَّتْ وقال في القاموس: عَبِقَ عَبْقاً وعباقة: برق. وَلاَ يُنَاسِب هُنَا. والأنفاسُ جمع نَفَسٍ بالتحريكِ وهُوَ الرّيحُ.

يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَوْ هَبَّتْ أَنفَاس طيبِ هٰذه الْخمرةِ الأَزَلية مِنَ المَشرقِ. وفِي المغربِ مَزْكُومٌ أَي مَرِيضٌ بِالزُّكامِ. وهو الَّذي لاَ يَشُمُّ شيئاً. ثم وصَلَتْ إليهِ أَنفَاس تلك الخمرَة؛ أَيْ نسيمها الطيب، لعادَ لَهُ الشَّمُّ. وهذا صحيحاً من بَرَكَةِ طيبهَا. وقوة ذَكائِهَا.

وهذا يحتمل أَيْضاً أَن يكُونَ على ظاهِرِهِ مُبَالغَة فِي مَدْحِ نَسِيم هذه الخمرة لو ظَهَرَ للحسّ. ويحتمل أَن يكون المراد بالمزكوم: مَنْ لا يَشمُّ شيئاً من رائحة الخصوصية. مريض بالإنكَار على أَهْلِهَا. فَإِنَّهُ لو تَوَجَّهَتْ إِليه هِمَّتُهُمْ، وَعَبقت أنفاس خَمْرتهم نحوه وَلو كَان بعيداً منهمْ فِي المسافات؛ لَزَالَ عنْهُ الإِنْكَارُ. ولشمَّ رائحة الوِلايَة عَلَيْهم، وبَادَرَ إلى صحبتِهِمْ وخِدْمَتهمْ، حتى ينخَرِط فِي سِلْكِهِمْ، ويجلس على بِسَاطِ الْقُرْبِ والمؤانسة فِي مجلسهم. واللَّهُ تعالى أَعْلَمُ.

ثم قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

وَلَوْ خُضِبَتْ مِنْ كَأْسِهَا كَفُّ لامِسٍ لَمَا ضَلَّ فِي لَيْلٍ وَفِي يَدِهِ النَّجْمُ

قلتُ: خُضِبَتْ كفّه: لوَّنَها بِالخَضيبِ. ولمسه يلمِسهُ ويلمَسهُ: مسَّهُ بيَدِه.

---

(١) هذا الأثر لم أجده بلفظه فيما لدي من مصادر ومراجع ونقل الذهبي في سير أعلام النبلاء [٨/ ١٠٩] عن ابن وهب عن مالك قال بلغني أنه ما زهد أحد في الدنيا واتقى إلا نطق بالحكمة».

وَفَلَّ يَفِلّ بالكسر والفتح: ضاع وتلف. قاله فِي القاموسِ:

يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ: لَوْ خُضِبتْ مِن كَأسٍ هذه الخَمْرة الأزلية كفّ مَن مسَّها لأشْرَقت يده، وصَار نَجْماً يُهْتدى بِهَ في ظلمة البَرّ والبَحْرِ. وتصير يده، كيَدِ سَيِّدنَا موسى عليه السلامُ، حينَ ضَمَّها إِلَيْهِ. فإذا سَار في الليل، اهتدى. فلا يضلُّ عن الطريق. كَمَن فِي يدهِ نَجْم يُضيء له الطَّريق.

وهذا أَيْضاً يحتمل أَن يكون على ظاهره، مبالغة فِي تأثرها فِي خرق العَوائدِ الحسّية. ويحتمل أَن يريد بخضب الكف منها، مُبَاشرتها القلبِ. واتصالها بِهِ. فإنها لو توقَفت إليه، لأضَاءَ له نُورٌ يهتدى به في حل مشكلات بَرّ الشرائع. وغامض بَحرّ الحقائق. فلا يضلّ فِي سَيْرهِ إلى عَيْن التحقيق. وفي قلبه هذا النّور العظيمُ. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾. [الأنفال: ٢٩] أي نوراً يُفَرّق بيْن الحق والباطل. وفِي كَلاَمِ الشيخ أَبِي الحَسَن الشاذلي رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ، ما يوافق هٰذا الإحتمال؛ أعني: إطْلاق الحسّ على وصول علم الحقيقة إلى القلب. فإنه قال: المحبّةُ: آخذة مِنَ الله، قلْب عبْده، عن كُلِّ شيْءٍ سِوَاكَ. فترى النفس ملائكة متحصّنَة بِمَعْرِفَتِهِ. والرّوح آخِذة فِي حضْرَتِهِ. والسرّ مغموراً في مشاهدتهِ. والعبد يسْتزيد من حُبّه. فيزيد، ويفاتح بما هو عَذْب مِنْ لذيذِ مُنَاجَاتِهِ. فيكسى حلل التقريب. على بِساط القربة. وَيَلْمس أَبْكَار الحقائق، وثَيِّبات العلوم. المراد منك. فَأطلق المَسَّ على وُصُول العِلم إلى القَلْبِ. وجعل عِلْمَ الحقائق كَالأبْكَار. وعلم الشرائع كَالثَّيبات. لصعوبة إدراك الأول دونَ الثاني. إِذ قَدْ يُدركه مَنْ لاَ خَلاَقَ لهُ من العُقدة، وقُضَاة الجُور. واللَّهُ تعالى أَعْلَمُ.

ثم قال رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ:

وَلَوْ جُلِيَتْ سِرّاً عَلَى أَكْمَهٍ غَدَا ... بَصِيراً وَمِنْ رَاوُوقِهَا تَسْمَعُ الصُّمُّ

قُلْتُ: جُلِيَ الأَمْرُ بالبِنَاءِ لِلْمَفْعُول: كُشف وانجلَى. والأَكْمَهُ: الَّذِي وُلِد أَعْمَى. والرؤوق: لم يذكره في القاموس بالهَمْزِ. وإنما ذَكَرَهُ بالْوَاوِ فقال: والرَّاووقُ: المُصَفَّات؛ أي الخَمر المُصَفَّات والباطنة. وخمر: الشراب الذِي يزوق بِهِ والكَأْسُ. إِلاَّ أنَّ قَلْبَ الواو هَمْزَة جَائِزٌ. كَأُقِّتَتْ، ووقِّتَتْ. وقال أَيضاً:

والروق: الإعجاب به لشيء وقدراته: أعجبهُ، والصُّمُّ جَمْع أصَمّ.

يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ: لَوْ كُشِفَتْ هٰذه الخَمْرَةِ الأزَلِية، وأظهرت سرّاً على رَجُل خُلِقَ أَعْمَى، لَغَدَا، أيْ مَاتَ بصيراً من سَاعَتِهِ. كما كَان ذٰلِك لسيّدنا عِيسَى عليه السلامُ. ولغيْرِهِ مِنَ الأوْلِياءِ. فإن قُلْتَ: كَشْفُهَا يقتضِي الإظهار والجَهْرَ؛ وهو يُنافِي في قوله سِرّاً.

قُلْتُ: هذه الخمرة الأزلية؛ هِي معانِي لطيفة غَيْبية. فإظْهارها لعَالِم الشَّهَادَةِ، هو كَشفُهَا وجلاؤهَا. وَلاَ شَكَّ أنَّ بُرُوزهَا لعالم الشهادة، يكُون سِرّاً، ويكُون جَهْراً. فَعَبَّر النَّاظم بالسّرّ مُبَالغَة. ليكُون الجَهْرُ أوْلَى. أي فَلَوْ بَرَزَتْ مِنْ عَالَمِ الغَيْبِ، إلَى عَالِمَ الشهادة سِرّاً. لعادَ الأكْمه بصيراً. حتى يُبصر أنوارها. ويُشاهد أسْرَارهَا. فَمَا بالُكَ لَوْ بَرَزَتْ جَهْراً. ومِنْ حُسْنِ صَفَاءِ هٰذِهِ الْخَمْرَةِ، وجودة جوهريته. تُسْمع الآذان الصُّمَّ، أي تصير سَامعة، بعد أنْ كَانَتْ صَمَّاء. أو من الإعجابِ لحسنهَا، وحسْن الثياب علَيْهَا، تصير الآذَانُ الصّمُّ سَامعة. فتسمَعُ تلك المحاسنِ. بعد أنْ كَانَتْ صُمًّا؛ وَهٰذَا أَحْسَنُ. ويحتمل أنْ يريد بالأكْمه. أعْمَى البصيرة. فإذا صحب أهْل هذه الخمرة، وكَشفوا لَكَ شَيئاً مِنْ حُسْنها وبهجتها. انفتَحَتْ بصيرتُه، وصارَ عَلَى بيّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ. وأن يريد بالصُّمّ؛ الذين تَنْفَعُهم الموعظة، وَلاَ تنهجع فيهم التذكرة، فإذا سَمِعُوا مِنْ أَهْل هذه الخمرةِ شيئاً، مِنْ صفاءِ المَوْعظةِ. وحُسْن التَّذكِرة. انكَفّوا وانزجَرُوا. وقيلُوا ما سَمِعُوا. وصارُوا: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر: ١٨]. واللّٰهُ تعالَى أعْلَمُ. وبِاللّٰهِ التوفيق. وهو الْهَادي إلى سواءِ الطريق.

ثم قال رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ:

وَلَوْ أنَّ رَكْباً يَمَّمُوا تُرْبَ أَرْضِهَا ... وَفِي الرَّكْبِ مَلْسُوعٌ لَمَا ضَرَّهُ السُّمُ

قلتُ: **الرَّكْبُ** جمع رَاكِبٍ، كَصَحْب وصاحب. وقيل: لاَ مُفْرَدَ لَهُ مِنْ لفظِهِ. **وتَيَمَّمَ**: قَصَدَ. **والمسلوعُ**: الملدُوغ من الحيَّة أوِ العقْربِ، **والسُّم** مثلث السّين: الشيء القاتل.

يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ: لَوْ أنَّ جَمَاعة قصدوا تُرْب هذه الخَمْرة. التي تُنْبت كَرْمها. وفي الرَّكْب مَنْ لسَعته الحيَّةُ أو العَقرب، لمَا ضَرَّهُ سُمّ ذٰلِكَ اللَّسْع،

حيث قصد تُرْب هذه الخَمرة. فَمَا بالُكَ لَوْ وصَلَ إِلَيْهَا. أَوْ أَخَذَ شيئاً مِنْ تُرَابِهَا. أَوْ رماه على ما لُسع مِنْهُ. ويحتمل أن يُريد بالمَلْسُوعِ، مَنْ لَدَغَتْهُ الشهوات والمَعَاصِي. فَإِذَا كَانَ مَعَ قَوْم قَاصِدِينَ الوصول إليهَا. أَوْ إِلى مَحَلّها. فَلاَ يضرهُ الوقوع في شيْءٍ منهَا. إذ بَرَكَةُ محبتهم تُذْهب عنه الإِضرار. وتُزْعِجُهُ إلى الإِقلاعِ. وقد تَقَدَّمَ الكَلاَمُ على الصّحْبَة وثمرتها. وقال بَعْض العُلَمَاءِ: مَنْ قَصَد زيارة صالحٍ، لا يكْتُب عليه مَلَكُ الشمال شيئاً. ما دَامَ فِي زيارته. ولعله وقف على حديث فِي ذلكَ. واللّٰهُ تعالى أَعْلَمُ.

ثم قال رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ:

وَلَو رَسَمَ الرَّاقِي حُرُوفَ اسْمِهَا عَلَى ... جَبِينِ مُصَابٍ جُنَّ أَبْرَأَهُ الرَّسْمُ

قلت: **الرَّاقِي**؛ هو المعوّذ. قال في القاموس: الرُّقية بِالضّمّ: العَوْذَة. والجمع رُقىً. ورقاهُ رقياً ورقياً ورقية؛ فهو رقَّاء. نَفَثَ فِي عَوْذَتِهِ هـ. **والجبينُ**: قال في القاموس: والجبينَانِ حرفان لكشف الجبْهَة من جَانبيْهَا، فيما بيْن الحَاجِبَيْن. مصعداً إلى قصاره الشّعر. أو حروف الجبْهَةَ. مَا بيْن الصّدْغيْن، متصلاً بحذاء النّاصية. كله جبينٌ هـ. وجُنَّ بالضّمّ: جُناً وجِناً وجنوناً. واسْتُجِنَّ مَبْنيًا لِلمَفعُولِ. أيْ أَصَابَهُ الجنُونُ؛ وهو من الأَفْعَال اللاّزِمَة للبناءِ للمَفْعُولِ. لكَلّ دمه: أَي هَدَرَ وَزُهِيَ: أي تكبَّرَ. وعني بحاجتِهِ. فهذه الأَفْعَال لم يُسْمع فِيها البناء للفاعل. **وأبرأه الله**: شفاهُ.

يقول رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ: لَو رَسَم الكاتب المُعَوّذ، حروف هذه الخمرةَ الأزلية، على جبين مصاب، أصَابَهُ الجُنُون، لأبْرَأه ذِلِكَ الرَّسْمُ من سَاعَتِهِ. وحُرُوف هذه الخمرة هي حُرُوف اسْمِ الجلالة: فلو كتبها العارف على مجنونٍ. بحضور يهمّه، لبَرىءِ المصابُ من حِينه إِن شاءَ اللّٰهُ تَعَالَى. وكذا مَن جُنَّ قَلْبُه بالخواطِرِ الشيطانية. والشكوك الوهمية. إذا لَقَّنَهُ العارف هٰذَا الاسْمَ، وَرَسَمهُ له فِي قَلْبِهِ، لبرِىءَ مِنْ حينهِ، وَصَارَ مِنْ أَهْلِ اليقِين التامّ. والطُّمأنينة الكُبْرى. واللّٰهُ تعالى أَعْلَمُ.

ثم قال رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ:

وَفَوْقَ لِوَاءِ الجَيْشِ لَوْ رُقِمَ اسْمُهَا ... لأَسْكَرَ مَنْ تَحتَ اللِوَا ذٰلِكَ الرَّقْمُ

قلت: **اللواء** بالمدِّ: العَلَمُ. ويُجمع على أَلْوية. وَجَمْعُ الجمعِ أَلْوِياتُ. **والجيش**: الجُنْدُ. أو السائرون لحرب أو غيرها **وَرُقِمَ**: كَتَب. والمِرْقَمُ بِكسْر الميم: القَلَمُ، **والرَّقم**: الكتابة والتخطيط.

يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَوْ كتب اسْم هذه الخمرة الأزلية. وجُعل فَوْق عَلَم الجيْش لأسْكَر ذلِك الرَّقم كُلَّ مَن تَحت ذلِكَ اللواءِ. وصاروا كلهم نَشَاوَى مِن خَمْرَة المَحبَّة. فيذلون نفوسهم في مَرْضاةِ محْبوبهم. اختياراً مِنْهُم. فهذا كلهُ مبالغة فِي هذه الخمرة. وتشويق إِليْهَا. وقَدْ أشرْتُ إِلى شَيْءٍ من ذلِكَ فِي تائيتي فَقُلْتُ:

فيه لَهَا مِنْ نَشوَى لَوْ هَبَّ نَسِيمُهَا ... عَلَى قُبُورِ الأَمْوَاتِ أَحْيَتْ بِسُرْعَةِ
وَلَوْ عَبَقَتْ أَنْفَاسُ طِيبِهَا فِي الْوَرَى ... لأَضْحَوْا سُكَارَى بالجميع فِي لحْظَةِ
وَلَوْ بِيعَتِ الأَرْوَاحُ فِي قَبْر حَانِهَا ... لَكَانَ لَهَا بَيْعاً رَخِيصاً بِصُفْقَةِ
فَهِمْ وَتَنزَّه فِي كَمَالِ جَمَالِهَا ... وَلاَ تُسْرِفْ بِغَيْرِ الْحَبِيبِ بِنَظْرَةِ

وَباللَّهِ التوفيق. ثم ذَكَرَ ثَمَرَةَ هذه الخَمْرَةِ، وَمَا ينشأ عَنْهَا فِي الْبَاطِنِ. فَقَالَ:

تُهَذِّبُ أَخْلاَقَ النَّدَامَى فَيَهْتَدِي ... بِهَا لِطَرِيقِ الْعَزْمِ مَنْ لاَ لَهُ عَزْمُ
وَيُكْرِم مَنْ لَمْ يَعْرِفِ الْجُودَ كَفُّه ... وَيَحْلُمُ عِنْدَ الْغَيْظِ مَنْ لاَ لَهُ حِلْمُ

قلْتُ: **هَذَّبَ** الشيْءَ: نقَّاهُ وَأَخْلَصَهُ، وصفَّاهُ وَأَصْلَحَهُ. قاله فِي القَامُوسِ. **والأخلاق** جمع خُلق؛ وهو ما جُبِلَ عليه الإِنسان، حسَناً أَوْ قَبيحاً. **والنَّدَامَى** جَمْع نَدِيم: وهو: المُنَاجِي لصاحِبِهِ في مجلس الخمر أو غيْرِهِ. أَطلقه هُنا على الشَّارب. ويُكرم بِضَمّ أَوَّلِهِ. وكَسْر ثانيه. مضارع أكرمَ. **والحِلْمُ**: الأناةُ والعقل. قالهُ في القاموس. **والأَنَاة** بفتح الهَمْزَة: الرَّزَانة والتَّأني. **وحَلُمَ** بالضمّ، حُلْماً: عَفَا وأَصْفَحَ وَلَمْ يُعاجِل. **وتحلم**: تكلف الحلم.

يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّ هذه الخَمْرَة، تتقي وتخلّص أَخْلاَق الشَّارِبينَ لَهَا. فَتُبَدّل الأخْلاَق السَّيِّئَةَ بِالْحَسَنَةِ. فَتبدِّل الكَسَلَ بالنَّشاطِ؛ وخِفَّة الأعْضَاءِ. حَتَّى يهْتَدي لطريق العَزْمِ على البِرّ والتَّقوى مَنْ لاَ عَزْمَ لَهُ عَلَيْها. وتُبدِّل الشحّ

والبُخْل بالكَرَم، والسَّخاء، حتَّى يصيرَ مَنْ لاَ يَعْرف السَّخَاءَ أَصْلاً، أَسْخَى النَّاس، وَأَكْرم النَاس. وتبدّل الغَضَب والحقد والعجلة والبطش، بالْحِلم وسَلاَمَةَ الصَّدْرِ، والسكينة والتأني والرَّزَانة. وتبدّل الخوف والجَزعَ والهَلَعَ، بالشَّجَاعَةَ واليَقِينَ، والغِنَى بِاللّهِ. وتبَدّل الشكّ والاضطراب بالطُّمأنينة والسّكون. وتبدّل كثرة التدبير والاختيار، بالرّضى والتسْليم، والسكون تَحت مَجَارِي الأقدَار. وتبدّل التكَبُّرَ وحبّ الرّفعة، والجاه والرياسة، بالتواضع والسكينة، والخمول وحبّ السُّفليات، دُونَ العلويات. وتبدّل حبّ الدّنيا والحِرْص والطّمَع، بالزُّهْدِ والقَنَاعَة والْوَرَع. والغِنَى باللّهِ دُونَ شَيْءٍ سِوَاهُ. وتبدّل تعظيم الأغنياء والحلف لهُمْ. بالإِعْرَاضِ عنهم والزُّهْد فيهم. والتيهِ عليْهم. اكتفاءً بِعلم اللّهِ. وتُبَدّل تحقير الفقراءِ، وتصغيرهم، بتعْظيمهم ورفعتهم، والدّنوّ منهم. والحبّ لهُمْ. إلى غير ذلكَ ممّا لاَ يَنْحَصِر حتّى قال بعْضُهم: «للنَّفْس مِنَ النقائص. ما للّهِ من الكَمَالاَتِ». فتنقلِب جُلّ تلك النّقائص كَمَالاَت. وَلاَ يَلْزَمُ مِنْ ثبوت الخُصوصِية. مدَح وَصفِ البشرية. إِذْ لَوْ كُنْتَ لاَ تَصِلْ إِلَيْهِ إلاّ بَعْدَ فناء مَسَاوِئك، وَمَحْوِ دَعَاويكَ، لاَ تَصِل إِلَيْهِ أَبداً. ولكن إِذَا أرَادَ أَنْ يُوَصِّلَكَ إليه. غَطَّى وصَفكَ بِوَصْفِهِ، ونَعتَكَ بنَعْتِهِ. فَأوصلك بِمَا مِنْهُ إِلَيْكَ. لاَ بما مِنْكَ إِلَيْهِ. وبِاللّهِ التوفيق؛ وهو الهَادِي إلى سواءِ الطريق.

ثُمّ قال رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ:

وَلَوْ نَالَ قَرْمُ الْقَوْمِ لَثْمَ قِدَامِهَا ... لأَكْسَبَهُ مَعْنَى شَمَائِلَهَا اللَّثْمُ

قلت: نال الشيْء: أعطيه وأخذهُ. والقَرْمُ: السَّيِّدِ. وقَرْمُ القوم سيّدهُمْ. واللّثْمُ: التقبيل. لثَمَ كَضَرب وسمع، واللثام، كَكِتاب: ما عَلَى الْفَمِّ مِنَ النقابِ، والشَّمَائِل، جَمْعَ شَمَال بالفتح بِمَعْنَى الطَّبْع.

يقول رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ: لو نَالَ سيّد القَوْم وكبيرهم، تقبيل لثام هذه الخمرة، وشَمَّ شيئاً مِن عِطْرِها لأكسَبَه ذلكَ اللَّثم، معنى طبائعها الحسنة. فتهَذّب أَخْلاقَهُ، وتُزين أشكاله، فيَصيرُ حَليماً، كريماً، رحيماً، شفيعاً مُتَواضِعاً، سَهْلاً ليّناً، إلى آخر ما تقدم من الأخلاق تقلّب التي تكسبهَا، لمن تحقق بِهَا. وإنما كَانَت الخمرة تهذّب الأخْلاَق، وتقلّبُ الأعْيَان؛ لأنها نتيجة ذِكْر اللّهِ. وَلاَ

شَكَّ أَنَّ ذِكْرَ اللَّهِ الْحَقِيقِي يُهَذِّب صاحِبَه، ويخلِّصُهُ. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥] أي أَكْبَرُ مِنَ الصَّلاةِ، في النَّهْي عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ. وَهٰذَا أَمْرٌ مُجَرَّبٌ. قَدْ تَحَقَّقْنَا بِهِ وَرَأَيْنَاهُ والحَمْد لِلّهِ. ولَيْسَ الخَبَرُ كالْعَيانِ وَإِنَّما خَفَّ قَرَم الْقَوْم بِهٰذَا الأَمْرِ، لأَنَّهُ أَحْوج إِلَى التَّهْذِيبِ مِنْ غَيْرِهِ؛ لأَنَّ السِّيَاسَةَ لاَ تَلِيقُ إِلاَّ بأَهْلِ الْحِلْمِ وَالصَّبْرِ. والتَّأَنِّي والسكينَة. وإِلاَّ فَسَدتِ الرَّعِية. أَوْ تَعِبَتْ. وبِاللَّهِ التوفيق.

ثم قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

يَقُولُونَ لِي صِفْهَا فَأَنْتَ بِوَصْفِهَا ... خَبِيرٌ أَجَلْ عِنْدِي بِأَوْصَافِهَا عِلْمُ

يقول السَّامعُونَ لي: صِفْ لَنَا هٰذِهِ الخمرة التي شَوَّقْتَنا إِلَيْهَا، وَبَالَغْتَ فِي مَدْحِهَا فَقَالَ لَهُمْ: أَجَلَ، أَي نَعَمْ. عِنْدِي بِأَوصافهَا ونُعوتها، عِلْمٌ وتحقيق، ثم وَصَفَهَا لَهُمْ فقال:

صَفَاءٌ وَلاَ مَاءٌ ولُطْفٌ وَلا هَوَا ... وَنُورٌ وَلاَ نَارٌ وروحٌ وَلا جِسْمُ

تَقَدَّمَ كُلَّ الْكَائِنَاتِ حَدِيثُهَا ... قَدِيماً وَلاَ شَكْلٌ هُنَاكَ وَلا رَسْمُ

وَقَامَتْ بِهَا الأَشْيَاءُ ثُمَّ لِحِكْمَةٍ ... بِهَا احْتَجَبَتْ عَنْ كُلِّ مِنْ لاَ لَهُ فَهْمُ

يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في وصْفِ الخمرَة الأزلية، والذَّات المقدّسة الأصلية. هي ذات موجودة. خفية لطيفة، كَلُطْفِ الْهَوَاءِ وَلاَ هَوَاءَ لَهَا صَفاء كصفاءِ الماءِ، وَلاَ مَاء نورانية كَنُور النَّار وَلاَ نَارُ. رُوحانية كروحِ الأَجْسامِ وَلا جِسْمُ. أي متّصفة بالحياة الأصلية القديمَة. وقد تَقَدَّم حديثها أي نعوتها ووجودها كُلَّ الكَائنات: لأَنَّ وجودها قَدِيمٌ أزلي. لَم يكُن هُنَاكَ جِرْم صغير وَلاَ كبيرٌ. فالأَجرام الكبيرة، كالعَرْشِ والكُرْسِي، والسماوات والأرض، شبيهة بالرّسوم، أي الحروف. والأَجْرَامُ الصَّغيرةَ، كالمَلائكة والجِنّ والآدمِي وَسَائر المخلوقات الرقيقة، كالأشكال لتلك الحُروفِ. وَلاَ شَكَّ أَنَّ فَائدة الرُّسُوم والأشكال، هي قبْض المعاني مِنْهَا وفَهْمُها. فَإِذَا قبضت المعنَى اسْتُغْنِيَ عَن الرُّسُومِ ومُحِيَ. كَذٰلِكَ الكَائِنَات، ما نُصِبتْ إلاَّ لتُرَى فِيها مَوْلاَهَا. فإِذَا عَرَفْته. طاحَتْ تلك الرُّسُوم والأشكَال. وَلاَ يَبْقَى إلاَّ الكبيرُ المتعال. وأَنْشَدُوا:

وَطَاحَ مَقَامِي فِي الرّسُومِ كلاَمُهَا ... فَلَسْتُ أَرَى فِي الْوَقْتِ قرباً وَلا بُعْداً

فَنيتُ بِهِ عَنِّي فَبَاتَ بِهَا غَيْبِي ... فَهَذَا ظُهُور الحقِّ عِنْدَ الْفَنَا قَصْدَا
أَحَاطَ بِنَا التَّعْظِيمُ مِنْ كُلِّ جَانِبِ ... وَعَادَتْ صِفَاتُ الحقِّ مِمَّا يَلِي الْعَبْدَا

وفي الحدِيثِ الصَّحِيحِ: «كَانَ اللَّهُ ولاَ شَيْءٍ مَعَهُ»[(١)]. زَادَ بَعْض المحققين: وهو الآنَ عَلَى ما عَلَيْهِ كَانَ. وفي حَدِيث التِّرمذي، عن أَبي رُزَيْنٍ العُقَيلي: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ: «أَيْنَ كَانَ رَبُّنَا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ خَلْقَهُ؟» قال: «كَانَ فِي عَمَد مَا فَوْقَهُ هواء. وَمَا تَحْتَهُ هواء». قُلْتُ: العَمَد هو الخَفَا. قال تعالى: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ﴾. [القصص: ٦٦] أي خَفِيَتْ. أَيْ إِنَّ الحقَّ تعالى؛ كَانَ فِي خَفاءٍ لطافة؛ لاَ يُدْرَكُ وَلا يُعْرفُ. أَيْ كَان خفيّاً لطيفاً. لَيْسَ فوقهُ هواء. وَلاَ تَحْتَهُ هَوَاءٌ. بَلْ عَظَمَتُهُ أَحَاطَتْ بكُلِّ فَوْق، وبكُلِّ تَحت. وبكل هَوَاء. وَلاَ فَوْق وَلاَ تَحْتُ، وَلاَ هَوَاء. وإنمَا الوجود للْعَليّ الأَعْلَى فِي الأَزَلِ، وفيما لا يَزَالُ. وقيل لسيِّدنا عليّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ. يَا بْنَ عَمِّ رَسُول اللَّهِ، أَيْنَ كَانَ رَبّنَا؛ أَوْ هَلْ لَهُ مَكان؟ فَتَغَيَّرَ لَوْنهُ وسَكَتَ سَاعة. ثم قال: قَوْلكم أَيْن اللَّه. سؤال عن مَكانٍ. وَكَانَ اللَّهُ وَلا مَكَانَ. ثمَّ خَلَق الزَّمانَ والمَكانَ؛ وهُو الآن كَمَا كَانَ. دُونَ زَمَان وَلاَ مَكَانٍ. وسُئِلَ أَبُو الحسَن النُّوري فِي منْحَة الصوفية. أَيْن اللَّهُ مِن مخلوقاتِهِ. فقال: كَان اللَّهُ وَلاَ أَيْنَ. والمخلوقات في عَدَم. فكَان حَيْثُ هُوَ. وَهُوَ الآنَ حيْث كَانَ. إِذْ لاَ أَيْنَ وَلاَ مَكَانَ. وفِي بَعْضِ الأَخْبارِ: «كُنْتُ كَنْزاً لَمْ أُعْرَف فأَحْبَبْتُ أَن أُعْرَفَ. فَخلقْتُ الخَلْقَ فَتَعَرَّفْت لَهُمْ. فَبِي عَرَفُونِي»[(٢)]. وَقَوْلُهُ. وقَامَتْ بِهَا الأشياء. يَعْنِي أَنَّ الخمْرَة الأَزْلية؛ أَظْهَرَتْ أَنْوَارَهَا. وأَبْرَزتْ حُسْنَهَا وَجَمَالَهَا فِي مَظَاهِر الأَشْيَاءِ، كَمَا قَالَ الشيخ عبد الكريم الجيلي صاحِب الْعَيْنية:

تَجلَّى حَبِيبِي فِي مَرَائي جَمَالِهِ ... فَفِي كُلِّ مَرْأىً لِلْحَبِيبِ طَلاَئِعُ

---

(١) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (٢٠١١) [٢/ ١٧١] رواه البخاري بلفظ كان الله ولم يكن شيء غيره وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء...» حديث رقم (٢٠١٩) [٣/ ١١٦٦].

(٢) سنن الترمذي، باب ومن سورة هود، حديث رقم (٣١٠٩) [٥/ ٢٨٨] وأحمد في المسند، عن أبي رزين، حديث رقم (١٦٢٣٣) [٤/ ١١] ورواه غيرهما.

فَلَمَّا تَبَدّى حُسْنُهُ مُتَنَوّعاً تَسَمَّى بِأَسْمَاءٍ فِيهِنَّ مَطَالِعُ

وَقُلْتُ فِي تَائِيَّتِي الْخَمْرِية:

تَجلَّتْ عَرُوسةً فِي مَرَائِي جَمَالِهَا وَأَرْخَتْ سُتُورَ الكِبْرِيَاءِ لِعِزَّةِ

فَالأَشْيَاء كُلُّها قامَتْ بِالْخَمْرَةِ الأَزَلِيةِ. وَلاَ وُجُود لِها بِدُونِهَا، بَلْ لاَ نِسْبَةَ لَهَا مَعَهَا:

مُنذ عَرَفْتُ الإِلٰهَ لَمْ أَرَ غَيْراً وَكَذَا الْغَيْرُ عِنْدَنَا مَمْنُوعُ

قَالَ بَعْضُ المحققينَ: لَوْ كُلِّفْتُ أَنْ أَرَى غَيْرَهُ لَمْ أَسْتَطِعْ؛ فَإِنَّهُ لاَ شَيْء مَعَهُ حَتَّى أَشْهَدَهُ: ثم احْتَجَبتْ هٰذِهِ الخَمْرَة، بَعْدَ ظُهُورِهَا لِحِكْمَةٍ أَزَلِية. سَتَرَتْ أَسْرَارَ الرُّبُوبيّة. وَأَسْدَلَتْ حِجَاب الكبْرِياء عَلَى العظمَة الأَصْلية. فخفيَت تلك الخمرة بعد ظهورها. واستترت بَعْدَ بُرُوزِهَا. وَحُجِبَتْ عَمَّن لاَ فَهْمَ عِنْدَهُ. وَلاَ بصيرة لَهُ إذ لَو انفَتَحَتْ بَصِيرتهُ لَمْ يَرَ غَيْرَها. قَالَ فِي الحِكم: شُعَاعُ البصيرة، يشهدك قرْبَ الحقّ مِنكَ. وعَيْن البَصِيرَة، يُشهِدك عَدَمَكَ لِوُجُودِهِ. وحقُّ البصيرة يشهدك وُجُود الحقّ، لا عدمك وَلاَ وجودك. كَانَ اللّٰهُ وَلاَ شَيْءَ مَعَهُ؛ وهو الآنَ على ما عليه كَانَ. وقال المجذوب رضي اللّٰهُ عَنْهُ:

مَنْ شهدَ الكَوْن بِالكَوْنِ عَزّة فِي عَمَا البَصِيرَا

وَمَن شهد الكون بالمُكَوِّنِ ذَاكَ صادف علاج الشَّرِيرا

وقد أشرت إلى هٰذَا المَعْنَى الَّذي ذكره الشيخ، في تائيتي الخمرية فقلْت:

فَإِنْ تَسْأَلُونِي عَنْ نُعُوتِ كَمَالِهَا فَإِنِّي خَبِيرٌ عَنْ شُهُودٍ وَخِبْرَةِ

تَقَدَّمَ كُلَّ الْكَوْنِ نُورُ بَهَائِهَا لطيفٌ خَبِيرٌ فِي صَفَاءٍ وَقُدْرَةِ

وَقَامَتْ بِهَا الأَشْيَاءُ حِينَ تَكَثُّفَتْ وَعَنْ كُلِّ ذِي جَهْلٍ خَفَيَتْ لحِكْمَةِ

وَاعْلَمْ أَنَّكَ لاَ تَفْهَمُ هٰذِه الخَمْرَة ذَوْقاً وَعِلْماً. إِلاَّ إِذَا صَحِبتَ أَهْلَهَا: وهم العارِفُونَ بِذٰلِكَ أَهْل الجَذْب والسلوك. وإمَّا إن لم تصحبهم، فَلاَ تطمع فِي فَهمها. وَلَوْ طَالَعت أَلْفَ مجلّد. وصحبْت أَلف عالم؛ أَوْ عابِدٍ. وباللّٰهِ التوفيق.

ثم قال رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ:

وَهَامَتْ بِهَا رُوحِي بِحَيْثُ تَمَازَجَتْ بِعَاداً لاَ جِرْمٌ تَخلّله جِرْمُ

قال في القاموس. **الْهُيَام** بالضَّم. كالجُنُونِ مِنَ الْعِشْقِ. وقال أَيْضاً: هَامَ يَهِيمُ هِيْماً، وَهيْماناً: أَحبّ امرأة. ثم قال: وَرَجُل هائم: متحيّر. **وتمازَجَ**: اختلط. **والاتحاد**: يطلق على مَعْنَيينِ: أَحَدهما: اختلاط جِزمَيْن. حتى يَصِيرا جِزماً واحِداً. وهٰذَا مُحَال فِي حقّه تعالى، وَهُوَ كُفر لِمَن اعْتَقَدَهُ. ويطلق على الوحدة الحقيقية يُقَال: اتَّحَد الشيْء إذا صارَ واحداً؛ وهو المُرَاد هُنَا. وفي هٰذَا المعنى. قال القُطْب ابن مشيش رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ: وَشرَاب المحبَّة: مَزْج الأَوصاف بالأَوصافِ. والأخلاَق بالأَخْلاقِ. والأَنوار بالأَنْوار. والأَسْمَاء بالأَسْمَاء. والنعوت بالنعوتِ. والأَفْعَال بالأَفْعَال **والجرم**: الجسَدُ، ويجمع على أَجْرَام. وجُرُم، وجرم. قاله في الْقَاموس.

يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ: لَقَدْ هامَتْ رُوحِي أَيْ طاشَتْ وانجَذَبَتْ، بِسَبَبِ هٰذِهِ الخَمْرةِ. محبَّة وعشقاً. فَمَا زَالَتْ تتعطش إِلَيْهَا. وتطلب الوصول إِلَيْها بِالتخلية والتَّصْفِية. فَلَمَّا تَجَوْهَرتْ وتطَهَّرتْ مِنْ بَقَايَا الحِسِّ. اتَّصَلَتْ بِهَا وَامْتَزَجَتْ مَعَهَا. فَوَجَدَتْ نَفْسَهَا كَانَتْ فِي الحَضْرَةِ وهِيَ لاَ تَشْعُرُ. وإِنما حَجَبَها عَنهَا الجَهْل والْوَهْمُ. فَلَمَّا ارْتَفَعَ الْجَهْل. وثبَت العِلْمُ. وَجَدَتْ نفسهَا فِي الحَضْرَةِ. فَغَرقَتْ فِي عَيْن بَحْر الْوَحْدَة. وَارْتَفَعَ عَنهَا الشِرْك الخَفِي والجلِي. وَهِيَ هٰذَا المَعْنَى. قَالَ بَعْضُ المَشَارقة:

كُنتُ قَبْلَ الْيَوْم مَحْجُوباً بِالْوَهْمِ مُقَيَّداً بِقُيُودِ الْبَيْنِ
مُفْرَدِي وَاحِدٌ وَأَنَا أَحْسِبُهُ اثْنَيْنِ فَلَمَّا تَبدَّى جَمَالٌ وارتَفَعَ الضيْنِ
وَقَعَ العَيْن على العَيْن وصِرتُ عَيْن العَيْن

وقال في الحِكَم: ما حَجَبكَ عن اللّه وجود مَوْجود معه. إذ لا شيء معه. وإنما حَجَبَك تَوَهّم موجود مَعَهُ.

وقال أَيْضاً: وصُولك إِلى اللّهِ، وصُولُكَ إِلى الْعِلم بِهِ. وإِلاَّ فجلَّ رَبّنَا أن يتّصلَ بِشَيءٍ، أَوْ يتَّصِل بِهِ شَيْءٌ. وهٰذَا مَعْنَى الإِتحاد؛ إِذَا أُطلق عِنْدَ الصوفية. أَعْنِي بثبوتِ العِلْمِ بالوحدةِ. بَعْدَ الْجَهْلِ بِهَا. أَوْ بثبوت الْعِلم بعد حُصُول الْفَرْقِ. ومِنْهُ قول صَاحب الْعَيْنِيَة: الشيخ عبد الكريم الجيلي.

وَغُصْ فِي بِحَارِ الإِتِّحادِ مُنَزِّهاً عَنِ الْمَزْجِ بِالأَغْيَار إِن أَنْتَ سَاجِعُ

وَإِيَّـاكَ والـتَّـنْـزِيـهَ فَـهـوَ مُـقَـيِّـدٌ　　　وَإِيَّـاكَ وَالـتَّـشْـبِـيـهَ فَـهُـوَ مُـخَـادِعُ

وقال أَيْضاً في مَدْحٍ آخر:

فَـكُـنْـتُ أَنَـا وَهْـيَ كَـانَـتْ أَنَـا وَمَـا　　　لَـهَـا مِـنْ وُجُـودٍ مُـفْـرد مُـتَـنَـازع

فَنِيتُ بِهَا فِيهَا وَلاَ شَيْءَ بَيْنَنَا　　　وِصالِي بِهَا مَاضٍ وَبِهَا مُضَارِعُ

وقالَ أَيْضاً:

فنيتها حتَّى فَنَتْ وَهْيَ لَمْ تَكُنْ　　　وَلَـكِـنَّـي بِـالْـوَهْـمِ أُطَـالِـعُ

وَمِنْ ذلِكَ قَوْلُ الشَّاعر:

أَنَـا مَـنْ أَهْـوَى وَمَـنْ أَهْـوَى أَنَـا　　　نَـحْـنُ رُوحَـانِ حـلـلـنـا بَـدَنَـان

فَلاَ يَفهم هٰذَا الكَلاَم عَلَى ظَاهِرِهِ مِنَ الإتِّحَادِ والحُلولِ؛ لأَنهم مُبرَّأونَ مِنْهُ. وإِنما أَرَادُوا إِظهار التَّغَزُّل بإثبات المحبوبة والمحبّ، وحُصُول العشق مِنَ المحبّ لَهَا، فَإِذا حَصلَ الْوُصُول، لَمْ تبْقَ هٰذِهِ الإِشَارة، ولذلك قال فِي الحِكَم: مَا العارف مَنْ إِذَا أَشَارَ وجَدَ الحق أقرب إِلَيْهِ مِن إِشارتِهِ، بَلِ العَارفُ مَنْ لاَ إِشارة لَهُ، لفنائِهِ فِي وجودِهِ. وانطوائِهِ في شهودِهِ. ومن هٰذَا المَعْنَى احْتَرَسَ الشيخ بقولِهِ: وَلاَ جِرم تخلله جِرْمُ. لئَلاَّ يَفهَم السَّامع أَنَّهُ الاتحاد المَذْمُوم، وقد اتهمهم كثير مَنْ لَمْ يفْهَمْ مُرَادَهُمْ. فربّما همّ بِمَا لَمْ يحط به علماً، وقد تقدم تنزيه الشيْخ نَفْسه عن هٰذَا المعْنَى فِي تائِيته: نظم السلوك. وكَلام الشُّشْتُرِي، وابن سَبْعين، وابْن العربي، مصحوباً بهذِهِ الإِشارة. وهم أَوْلياء محققون. رضِي اللّٰه عَنهُم وَأَرضَاهُمْ وَقَدْ أَشَرْتُ فِي تَائِيتي الخَمْرية الأزلية، عن الحلول والإتحاد، فقلْتُ:

تَنَزَّهَتْ عَنْ حُكم الْحُلُولِ فِي وَصْفها　　　فَلَيْسَ لَهَا سِوَى فِي شَكْلِهِ حَلَّتِ

تَجَلَّتْ عَرُوساً فِي مَرَائِي جَمَالِهَا　　　فَأَرْخَتْ سُتُور الْكِبْرِيَاءِ بِعِزَّةِ

فَمَا ظَهَرَ فِي الكَوْنِ غَير بَهَائِهَا　　　وَمَا احْتَجَبَتْ إِلاَّ لِحُجْبِ شريرَةِ

واللّٰهُ تعالى أَعْلَمُ.

ثم قَالَ رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ:

فَـخَـمْـرٌ وَلاَ كَـرْمٌ وَآدَمُ لِـي أَبٌ　　　وَكَـرْمٌ وَلاَ خَـمْـرٌ وَلِـي أُمُّـهَـا أُمٌّ

وَقَدْ وَقَعَ التَّفْرِيقُ وَالْكُلُّ وَاحِدٌ فَأَرْوَاحُنَا خَمْرٌ وَأَشْبَاحُنَا كَرْمُ

قُلْتُ: شبَّهَ الشيخ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الرُّوح السَّارية فِي الْبَدَنِ: بِالْخَمرِ الْمُسْتَتِرِ فِي الكَرمِ. وشَبَّهَ البَشرِية الظَّاهِرةَ: بِالكَرم المحتوي على الخَمرَةِ، والمريد في حال سَيْرِهِ تارة يغلبُ جَذْبه على سلوكه. وسكره على محوِه. فتكون الرّوحانية غالبة على البشرية. مستولية عليها. فَلاَ يَبْقى لِلْبَشرية أَمرٌ. وتارة يَغلِب سُلُوكه على جذبِهِ، ومحوه على سُكْرِهِ. فتكون البشرية غالبة على الرُّوحَانية. مُسْتَوْلِية عَلَيْها. فإِذا غَلَبت الرُّوحانية على البَشرية، كَانَ كوُجودِ خَمْرٍ بَلاَ كَرمٍ. وَإِذَا غَلبَت البَشرية على الرُّوحانية، كَان كَوُجودِ كَرمٍ بِلاَ خَمْرٍ لبُطونها حينئذٍ.

فبيَّنَ الشيْخ رضِي اللَّهُ عَنْهُ حالَهُ في حَالِ سَيْرِهِ فَقَالَ: فَأَنَا تارة خَمْرٌ وَلاَ كَرْمٌ، وَذلكَ فِي حالة جَذْبِي وَسُكْري. وَأَنَا حينئذٍ خليفة اللَّهِ فِي أَرْضِهِ عَلَى قَدَمِ أَبي آدَمَ عليه السَّلاَمُ، لأَنَّ الجَذْبَ عِنَايَةٌ. فإِنَّ الرُّوحَ إِذَا اسْتَوْلَتْ على البَشَرية، اسْتَوْلَتْ على الوُجُودِ بِأَسْرِهِ. فيكون هو آدَمَ الأَكْبَرُ، خليفة عَن اللَّهِ، وهٰذَا مَعْنى قولِهِ: وَآدَمُ لِي أَبٌ؛ لأَنَّ الإِبْنَ خَليفة عن أَبِيهِ. فيكون هُوَ حِينئذٍ خليفة اللَّهِ في كَوْنِهِ. وَتَارَةً أَكُون كَرْماً وَلاَ خَمْر. وذلِكَ حِينَ يَغْلب سُلُوكي على جَذْبِي. فتكون بشريتي حاكمة على روحانيتي. كَحلْم الأُمِّ عَلَى وَلَدِها. وَهٰذَا مَعْنَى قَوْلِهِ: ولي أمّها أُمٌّ. وَأُمّ الخَمْرِ هِيَ الْكَرْمُ. والكَرْمُ شَبِيهٌ بالبشَرِية.

ويَحْتمل أَنْ يكُونَ قَوْلُهُ: وَآدَمُ لِي أَبٌ. إِشارة إِلَى أَنَّ جَذْبَهُ مَمْزُوجٌ بِسُلوكِهِ؛ لأَنَّ المصطلَح، خرجَ عن طوْر البَشَرِ. فإِما أَنْ يَلْتحِقَ بالرُّوحَانِيّينَ، أَوْ بالبَهَائِم. بِخلافِ مَنْ كَانَ سَالكاً في جَذْبِهِ، فَظَاهره سُلُوكٌ، وَبَاطنه جَذْبٌ. لكن تارة يَغْلَبُ الجذْب، فتَنْخَنِسُ البَشرِية، وتَبْطُنُ. وتسْتولي الرُّوحَانية عَلَيْها. كاستيلاءِ النَّار على الفَحْمَة. لكن البشرية ملحُوظَة. فهذا معْنى قولِهِ: وَآدَمُ لِي أَبٌ. أَيْ وَأَنَا بشرٌ مِن بني آدَمَ، لَمْ تَخرجْ عَن طَوْرِ الآدمية؛ وهٰذَا هُوَ عيْن الكَمَالِ وتارة يغلب السلوك، فيَبْطُنُ الجَذْبُ في الرّوحانية. وتظهر أوصاف البشرية على السَّالكِ. فتكون الرُّوحَانية تَمْتدّ من البشرية، وتشرَبُ مِن كَأْسِهَا. كَمَا قال التستري:

مِـنّـي عـلـيَّ دَارَتْ كُـؤوسـي فـتـكـون الـبـشـريـة كَـالأمِّ

والرّوحانية ولداً. رضع من لبنهَا. وهذَا مَعْنَى قَوْلِهِ: ولِي أمّها أمٌّ. أي حينئذٍ أُمّ الخمر؛ وهي الكَرْمُ أُمٌّ. والمراد بها البشرية، المسْتَولية على الرُّوحانية، اسْتِيلاَء الكَرْمِ عَلَى الخَمْرِ. وهٰذَا الإِخْتمَال أَحْسَن وَأَظْهَرُ. واللّٰهُ تعالى أَعْلَمُ.

وهٰذَا التعريف كُله قبل الوُصول إلى التحقيق. وإلا امتحق الحسّ وثبَتَ المعْنَى. فالكُلّ واحِدٌ. فَلاَ قيامَ للبَشَرية إلاّ بالرّوحانية. وَلاَ ظهور للرّوحانية إلاّ بالبشرية. بَلْ إذا سَقطت المعاني، سقطت الأواني، فالأَكْوَان ثَابِتَة بِإثباتِهِ. مَمْحُوَّة بِأحدية ذَاتِهِ. فَلاَ بَشَرِية وَلاَ رُوحَانية. وإنما الْوُجُود للفرْد الصَّمَد. لاَ شَرِيكَ لَهُ. وأَنشَدُوا:

فَلَمْ يَبْقَ إلاَّ الْحَقُّ لَمْ يَبْقَ كَائِنُ فَـمَـا ثَـمَّ مَـوْجُـودٌ وَلاَ ثَـمَّ بَـائِـنُ
بِذَا جَاءَ بُرْهَانُ العِيَانِ فَمَا أَرَى بِـعَـيْـنَـيَّ شَـيْـئـاً غَـيْـرَهُ إِذْ أُعَـايِـنُ

تنبيه: مَا ذكَره النَّاظم فِي هذيْن البَيْتَيْن، مِن تَشْبِيه الجَذْبِ بِخَمْرٍ وَلاَ كَرْم. وتشبِيه السُّلوك بِكَرْم وَلاَ خَمْر. مَثَلُهُ وَقَع للجنَيْد فِي شعرِهِ المشهور، حيْث سُئِلَ عن التوحيد، فَأَنْشَدَ يَقُولُ:

رَقَّ الـزُّجَـاجُ وَرَقَّـتِ الْـخَـمْـرُ فَـتَـشَـابَـهَـا وَتَـشَـاكَـلَ الأَمْـرُ
فَـكَـأَنَّـمَـا خَـمْـرٌ وَلاَ قَـدَحٌ وَكَـأَنَّـمَـا قَـدَحٌ وَلاَ خَـمْـرٌ

فَتَشَبَّهَ البشرية بالزجاجة. والرّوحانية بالخَمر. فَإذَا غَلَبَت الرُّوحانية على البشرية، وذلك فِي حالة الجذب، فَكَأَنَّمَا خَمْرٌ وَلاَ قدحٌ، إذا غَلَبَت البشرية على الرّوحانية، وذَلِكَ يكون في حالِ السُّلُوك، فَكَأَنما قَدَحٌ وَلاَ خَمر. وقد أَوْضَحْت هٰذَا الْمَعْنى في تَائِيتي الخَمرِية. فقلْتُ:

لِرِقَّةِ خَمْرٍ فِي الأَوَانِي تَلَطَّفَتْ لِلُطْفِ مَعَانِي الخَمْرِ فِي أَصْلِ نَشْأَتِي
فَطَوْراً تَغِيبُ الْخَمْرُ فِي جِرْمِ كَأْسِهَا وَطوراً تَغِيبُ الكَأْسُ فِي خَمْرِ نَشْوَةِ
وَغَيْبُ الأَوَانِي فِي الْمَعَانِي مُحقّق فَنَاءُ الأَوَانِي فِي الْمَعَانِي الْقديمَةِ
فَأَشْبَاحُنَا كَأْسٌ وَأَرْوَاحُنَا خَمْرٌ وَسَاقٍ لَهَا جَذْبُ الْعِنَايَةِ حفَّتِ

واللَّهُ تعالى أَعْلَمُ.

ثُمَّ قَال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

وَلُطْف الأَوَانِي فِي الْحَقِيقَةِ تَابِعُ لِلُطْفِ الْمَعَانِي وَالْمَعَانِي بِهَا تَسْمُو

قلْتُ: **لَطُفَ** كَكَرُمَ. لطفاً ولطافة: صَغُر ودق؛ فهُو لطيف. قالهُ في القاموس. **وَسَمَا** الشيْء سُمُوّاً: ارْتَفعَ. **والأَوَانِي** هُنَا: الكَائنات بِأَسْرِهَا. **والْمَعَانِي**: أَسرار الرُبوبية الْقَائمة بِهَا؛ وهِي الخمْرة المتقدمَة. فَأَصْلها لطيفة دقيقة. والأنوار الظّاهرة حينَ تحسَّسَت، صَارَتْ كثيفة. فَمَنْ وَقَفَ مَعَ ظَاهِرِ كَثافتهَا. كَانَ جَاهِلاً بِاللَّهِ. مَحْجُوباً عَن شهودِهِ. وَمَن نَفَذَ إلى بَاطِنِهَا وَجدَها حاملة للمَعَانِي ظُروفاً لأسْرَار الرُّبُوبية. فَغَاب عَنِ الأَوَانِي، بشهودِ الْمَعَانِي. فَكَان عَارفاً مُقرّباً مَحْبُوباً. وفِي ذُلِكَ يقول الشُشتري: لاَ تنظرْ إِلَى الأَوَانِي، وخُضْ بَحْرَ المَعَانِي. لَعلَّكَ تَرَانِي. وقال الشيخ ابن عطاء اللَّه السكندري فِي الحِكم: الأَكْوَانُ ظَاهِرُهَا غُرَّةٌ. وَبَاطِنُهَا عِبْرةٌ. فَالنَّفسُ تَنْظُر إِلى ظَاهِرِ غرَّتها. والقَلْبُ يَنْظُرُ إِلَى بَاطِنِ عِبْرَتِهَا. وتكثيفُ الأواني عَارفٌ. والأَصْلُ فيها اللَّطافة. إذ الأَوَانِي أَصْلُها مَعَانِي. لكن اسْمُه تعالى الظَّاهر، اقتَفَى ظهورها في الحِسِّ فهِيَ أَشْبَهُ شَيْءٍ بالثلجة، باطنها ماء، وظَاهرها ثلج. وفِي ذلِكَ يَقُولُ الشيخ عبد الكريم الجيلاَنِي فِي عَيْنِيتِهِ:

وَمَا الكَوْنُ فِي التِّمْثَالِ إلاَّ كَثَلْجَةٍ وَأَنْتَ لَهَا الْمَاءُ الَّذِي هُوَ نَابِعُ

فَمَا الثَّلْجُ فِي تَحْقِيقنَا غَيْرُ مَائِهِ وغَيْران فِي حُكْمِ دَعَتْهُ الشَّرائِعُ

وَهٰذَا مَعْنَى قول الشيْخ رضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ولطف الأَوَانِي فِي الحقيقة، تابِعَة لِلُطوفِ الْمَعَانِي. فَالمَعَانِي فِي الحقيقة أَصْلها مَعَانِي. والمَعَانِي لطيفة. ولُطفُ الأواني تابع لِلُطْفِهَا. وَإِنَّمَا تَكَثَّفَتْ وَتَحَسَّسَتْ، فِي حَقِّ مَنْ وَقَفَ مَعَهَا، وَاغْتَرَّ بزُخْرُفِ ظَاهِرهَا. واشْتَغَلَ بِحِسّها، حَتَّى انطبَعَتْ صُورُ ظَاهِرِهَا فِي مِرْآةِ قَلْبِهِ. فَعَمَى وَحُجِبت عَن رُؤْيةِ الْمعَانِي اللَّطيفة. ولِذلكَ يَقُولُ أَهْلُ المَعَانِي: كُلُّ مَا نَقصَ مِنَ الحسِّ؛ زَادَ فِي الْمَعْنَى. وكُلّ مَا زَادَ فِي الحِسِّ نَقصَ فِي الْمَعْنَى. وهٰذا مَعْنَى قولِهِ: الْمَعَانِي بِهَا تَسْمُو. أَيْ بِلُطْفِ الأَوَانِي. وردّها إلى أَصْلها، ترتفع المعانِي وَتَسْمُو. وإِنما تَتَلَطَّفُ الأَوَانِي بِالْغَيْبَةِ عَنْ حِسِّهَا. والإِعْرَاضِ عَنْ

شَوَاغِلِهَا، وَعَوائِقها. فَرِّغْ قَلْبَكَ مِنَ الأَغْيَار.

تملأه بالمَعَارف والأسْرَار.

وكَتَبَ إِلَيَّ شَيْخُ شَيْخِنَا مَوْلاَي العربي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ما نَصُّهُ بَعْدَ كَلاَم: وقُلْ لهم أَيْضاً: اتركُوا ذَبْلَةَ الدّنيا مِنْ قلوبكُمْ، تتقوى مَعَانيكُمْ: أو نقوِّلُ نورانيتكُمْ. إِذْ بِتَقْوِية النُّور؛ يتقوّى اليقِين. وبتقوية اليقين، تَعْلُو الهِمَّةُ. وَبِعلّو الهِمَّة، يَحْصُل الوصُولُ. وباللَّهِ التوفيق هـ. والذُّبْلة: رَأْسُ الفتيلة حينَ تَتَرمَّدُ. فَإِذَا قطعْتها تَشَعْشَعَ نُورُهَا. كَذٰلِكَ هَمُّ الدّنيا. يُطْفِىءُ نور اليقين مِنَ الْقَلْب. فَإِذا قطعته تشعشع نوره.

وقلْت لبعْض الفُقَرَاء: مَادَّة المَعَانِي ثلاثة أُمورٍ: الأول المُذَاكرة مَعَ أَهْل الفنّ، والحَلّ مَعَهُمْ. والثاني: الفِكرة وجَوَلان الْقَلْب فِي مَيَادِين التوحيد، حَتَّى تمْتَحى الأكْوَان مِنْ عَيْن البَصيرة. والثالث: ذِكر اللسَان جَمَاعة أو فرادى؛ وهو أضعفها مِنْ جِهَةِ الإِمْتدادِ. وتقوية المَعَانِي. وإِن كَان هُوَ الباب في الدّخول إِلَيْهَا. لكن إِذا حَصَلَ ذِكر القَلْب اكتفَى عَنْهُ: فضعُف تَأْثِيره بالنّسْبَةِ إِلَى الفِكْرَة. وقُلْت لَهُمْ: مَادَّة الحسّ ثلاثة: الأول: شغل الجوارح بالحسّ في طَلَبِ الحُظُوظِ. والثاني خوف اللسان فِي الحسّ مَعَ أَهْلِه. والثالث: الفِكْرة فِيه، واشتغَال القَلْبِ بالخَوْفِ فِيهِ. فبهذه المواد الثلاث، يتَقوّى الحسّ. وتَضْعُف المعانِي. حتى ينطفىء نورها. نعوذ باللَّهِ مِن ذلِكَ. قلْت لهم أَيْضاً: أَرْكَان الولاية وَموادها ثلاثة أشياء: تَفرِيغ القَلْبِ مِنَ الحسّ، وتَعظيم الشيْخ والأدب مَعَهُ. ودوام الذّكر بالحضور. كل واحد ما يليق به لساني أو قَلبِي أَوْ سِرّي. وقدْ قُلْت في ذلِكَ أبيَاتاً وهي هذهِ:

يَا مَنْ يُرِدْ مَرَاتِبَ الرِّجَال ... يَفْنَى عَنِ الحسّ فِي كُلّ حَال

يُفرّغ قَلْبَهُ مِنَ الأغْيَارِ ... يُملأ بالأنْوار وَالأَسْرَار

يُعَظّمُ الشيْخَ بِصِدْقٍ وَافِرْ ... وَيُكْثِرُ الذِّكْرَ بِقَلْبٍ حَافِرْ

فَهٰذِهِ مَرَاسِمُ الْوِلايَةْ ... وَمظْهر العِرْفان والعنايَةْ

وسَمِعْت صاحبنا العارف الرّبَّانِي، سيدي عبد الرَّحمن الرّحماني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقولُ: الحسُّ هو كل ما يُقوي مَادَّة وُجُودكَ. والمعْنَى هو كُلّ مَا يفنِيك عن

وُجودك. ويغيبك عنكَ. فالإشتغال بِالحِسّ إذَا كَان سَبَباً في تقوية المَعَاني، كَخِذْمَة الأَشياخ والإِخْوَان. وكُلّ ما يؤدّي إلى تصفية المَعْنَى. كَمَا قال سيدي عبد الوارث رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ: خِذمَةُ الرِّجَالِ، سَبَب الوِصالِ، لمَوْلى المَوَالِي. لاَ إِلَه إلاَّ اللَّهُ. واللَّهُ تعالى أَعْلَم.

ثم قال رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ:

وَلاَ قَبْلَهَا قَبْلٌ وَلاَ بَعْدَهَا بَعْدُ وَقَبْلِيَةِ الأَبْعَادِ فَهْيَ لَهَا خَتْمُ

وَحَضْرُ[1] المَدَى مِنْ قَبْلِهِ كان عصرهَا وَعَهْد أَبِينَا بَعْدَهَا وَلَهَا الْيُتْمُ

يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ: هذه الخمرة الأزلية قديمة باقية، فَلَيْس قبلها زمانٌ يكون قبلاً لَهَا وَلاَ بَعْدَهَا زَمَانٌ يكون بَعْداً لَهَا. والقَبْلِيَة التِي ثبتَتْ لَهَا قبْل ظهور الأشياءِ؛ وهي الأولية بِلا بداية. هيَ ختْم لها بَعْد ظهور الأشياء؛ وهي الآخرية بِلاَ نِهَاية. فَتَرتُّب الأَزْمَان زَمَان بَعْد زَمان؛ هي سَابقة عليه. وباقية بَعْدَهُ. هٰذَا مَعْنَى قوله: وقبلية الأبعاد هي لها خَتْمُ. أَي وعدم النهاية السابقة على الأكوان؛ هي خَتْم لها بَعْد ظهور الأكْوَانِ. قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣] فالأسماءِ متعددة، وَالمُسَمَّى واحِد؛ وهي الذَّات المقدَّسة؛ فالأول هو عيْن الآخِرِ. الآخر هو عيْن الأول. والظَّاهر هو عيْن الباطِن. والباطن هو عيْن الظَّاهِر. وإِلَى هٰذا أَشار صاحب العينية فقال:

وَأَبْرَزَ مِنْهُ فِيهِ آثَار وَصْفِهِ فَذلِكَ بِالآثَار مَا هُوَ صَانِعُ

فَأَوْصَافُهُ والإِسْمُ والأَثَرُ الَّذِي هُوَ الكَوْنُ عَيْنُ الذَّاتِ واللَّهُ جَامعُ

فَمَا ثَمَّ شَيءٍ سِوَى اللَّهِ فِي الْوَرَى وَلاَ ثَمَّ مَسْمُوع وَلاَ ثَمَّ سَامِعُ

وقوله: وحضر المدى... الخ يَعْني أَنَّ وجود هٰذِه الخمرية، كَان قديماً قَبْل حَضْرِ الزَّمَانِ، وعدّه وتَرْتيبه. وزمان وجود أبينا آدم عليه السَّلام، وعهد حياته كَان بعدهَا: لأَن ظهوره حادثٌ. ووجوده قدِيمٌ. فثبت لها اليُتْمُ، أَي الإِنْفِراد، والغِنَى عَنِ المَادَّة القبلية والبَعْدية. فليْسَ لها أَبٌ سَابِق عليْهَا. وَلاَ وَلَدٌ لاَحِق بَعْدَهَا. قال تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا

(١) وفي نسخة [عصر] بدل [حصر].

أَحَـدٌ﴾ [الأخلاص: ٧٦٦].

ثم قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

مَحَاسِنُ تَهْدي الـمَادِحِينَ لِوَصْفِهَا فَيَحْسُنُ فِيهَا مِنْهُمُ النَّثْرُ وَالنَّظْمُ
وَيَطْرَبُ مَنْ لَمْ يَدْرِهَا عِنْدَ ذِكْرِهَا كَمُشْتَاقِ نُعْمٍ كُلَّمَا ذُكِرَتْ نُعْمُ

قُلت: الطربُ: الفَرَح. ويُطلقُ على الحُزنِ كَمَا فِي القَامُوسِ. يُقالُ: طرب طرباً. كَفَرِحَ فَرَحاً. بالمضارع مفتوح العيْنِ. ونَعُم بِضَمّ العَيْنِ. اسم امرأة. كَمَا فِي القَاموس. وأَرَاد هُنا اسم المحبوبة. يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الأوصاف التي ذكرتُ للخمرة، هِيَ محاسِنٌ لَهَا. تهدِي أيْ تُرْشد المَادِحِينَ لِوَصْفهَا. فَيَمْدحُونَهَا بِقَدْرِ طَاقَتِهِمْ. فيَحْسُن منهم كلّ ما يمدحونَهَا بِهِ نَظماً أَوْ نَثراً؛ لأنها فوق ما يُقَال فيهَا: فَلَوْ بَقِي أَهل الدّنيا يَمْدحُونَهَا مُدّة عُمر الدّنيا والآخرة، ما بَلَغُوا معشار حسْنها وبهائهَا. ويفرح عند ذِكر هذه الأمْواجِ من لمْ يَعْرفها، شوقاً ومحبَّةً. فكيْف لمَن يعرفها؛ فهو أَب مَن لَمْ يَعْرفها. ولكنه مشتاق إليها، كمشتاق محبُوبته التي اسْمُها نُعْمَ. فلما ذكرت هذه المحبوبة، اهتَزَّ لَهَا. واشتاق لرُؤيتها. وَأَمَّا مَنْ عَرَفَهَا وَاتَّصَلَ بها، وتَمكَّنَ مِن شُهُودها. فلا يَهُزّه سماع مَدحهَا. لقوّتِهِ وتمكّنِهِ؛ فَهُو مالكٌ للأَحْوَالِ. وليْسَت مالكة له؛ فهو كالجبل الرّاسِي، واللَّهُ تَعَالى أَعْلَمُ.

ثم قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

وَقَـالـوا شَـرِبْـتَ الإِثْـمَ كُـلَّا وَإِنَّـمَـا شَرِبْتُ الَّتِي فِي تَرْكِهَا عِنْدِي الإِثْمُ

قُلْتُ: كَلاَّ عِنْد النّحاة حَرْفَ زَجْر وَرَدْع.

يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قال لي العواذل واللؤم: شَرِبْتَ مَا يُوجِب لكَ الإِثم؛ لأَنَّكَ تَسَبَّبْتَ فِي هَتْك عِرْضكَ. وتخريب ظاهركَ. وتَلْف مالك. فَقُلْتُ لَهُمْ: كَلاَ. بَلْ شَرِبْت التي في تَرْكِ شُرْبِهَا هُوَ الإِثْمُ؛ لأَنها تُهذِّبُ أَخْلاَقَ النَّدَامَى. فكُلّ من لم يَشْرَبْ مِنهَا، لا يَخْلُو مِن ذَنْبٍ. وَلاَ يَصْفو مِن عَيْبٍ. ولذلك قال [حجة الإسلام أبو حامد] الغَزّالي: عِلْمُ التصوف فَرض عَيْنٍ. إذْ لاَ يَخْلُو الإِنْسَان من العُيُوبِ. وقال الشيخ أَبُو الحسَن الشاذلي: مَنْ لَمْ يَتغَلْغَلْ في علمِنَا هٰذَا؛ ماتَ مُصِرًا عَلى الكَبَائر؛ وَهُوَ لا يَشْعُرُ.

وقال آخر(١): مَنْ تَشَرَّعَ وَلَمْ يَتَصوَّف فَقَدْ تَفَسَّق. إلى غير ذٰلِكَ. لِمَا وَرَدَ في مَدْحِ التَّصوّفِ وَأربابه. وباللّٰهِ التوفيق.

ثم قال رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ:

هَنِيئاً لأَهْلِ الدَّيْرِ كَمْ سَكِرُوا بِهَا ۝ وَمَا شَرِبُوا مِنْهَا وَلٰكِنَّهُمْ هَمُّوا

قلت: **الهَنَى والهَنَاءُ**: ما أَتَاكَ بِلا مَشَقَّةٍ. هو هنيّ سائغٌ. قَالَه في القاموس، ويُعرب حَالاً عامله محذوفٌ وجُوباً. أَي ثَبَتَ الخَيْرُ هَنِيئاً. أَي سهْلاً بِلا مَشقةٍ. **والدَّيْرُ**: الصَّوْمعة التي يتعَبَّد فِيها الرُّهْبَان. فيُحتمل أَن يُريد بأَهْل الدَّيْر هُنَا: العُبَّاد والزُّهَّاد المنقطعينَ إِلى اللّٰهِ في البَرَاري والجِبَالِ. حَبَسُوا أَنفُسَهُمْ لِلّٰهِ. كمَا حَبَسَت الرّهْبَان أَنفسهم فِي الدّيور، طلباً لمحبَّة اللّٰهِ. فَلَم يَنالوا مِنْهَا شيئاً. لترْكهم الشريعة التي هي باب اللّٰهِ. قال تعالى: ﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾ [البقرة: ١٨٩] بخلاف العُبَّادِ والزُّهَّاد، والمنقَطعِينَ إلى اللّٰهِ. قَد قَصَدوا الأمْرَ مِن بَابِهِ. فَقَال الشيخ رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ، مُبَشِّراً لَهُمْ ومُغْتبِطاً لِحَالِهِمْ: هَنيئاً لأَهْلِ الدَّيْر. أَيْ ثَبَتَ لَهُمُ الخَيْر العَظيم سهْلاً بلا مَشَقَّةٍ. فَكَمْ سَكِرُوا بِهَا. أَيْ كَثيراً مَا سَكِرُوا بِهٰذِهِ الخمْرةِ، حتَّى تَاهوا، ورفَضُوا الأَهْلَ والأَولاد. وتَرَكُوا الأَوطَانَ والبلادَ. وَمَع ذٰلِكَ، لَمْ يَقَعْ لَهُم شُرْب مِنْهَا. إِذْ لَمْ يَتَّصِلُوا بِأَرْبَابِهَا؛ وهم العَارِفُونَ أَهْل التربيَة النبوية، والخمرة الأزلية. إِذْ لَوْ اتصلُوا بهم: لسَكِرُوا في مَوْضعهم وبيْنَ أَوْلاَدِهِمْ. ولكنهم هَمُّوا بشربهَا، فتَاهُوا فِي طَلَبِهَا. فَسَكِرُوا قَبْلَ الشُّرْبِ. فَمَا بَالكَ لو شَرِبُوا. وَمَا بَالُكَ لَوْ رُوُوا مِنْهَا. فَسُكْرُ العُبَّادِ والزُّهَّادِ؛ هو الفِرَار من الأشياء، لغَيْبَتِهم عَنْ شُهُودِ مكَوّنها. ولو شَهِدوا مُكَوّنها فيها لَمْ يَفِرُّوا مِنْهَا. قال في الحِكَم: إِنَّمَا اسْتَوْحَشَ العُبَّادُ والزُّهَّادُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ. لغَيْبَتِهِمْ عَنِ اللّٰهِ فِي كُلِّ شَيءٍ. وَلَوْ عَرَفُوهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ. مَا اسْتَوْحَشُوا مِنْ شَيْءٍ. هـ. فَسُكْرُهُم نَاقِصٌ. بخلافِ مَنِ اتَّصَلَ بِأَهْلِ الخَمْرَةِ، فَسَقوه مِنْهَا فَإِنّ سُكْره مَمْزوج بِصَحْوَه. فَكُلَّما شَرِب ازْدَادَ صَحْواً. وكلَّمَا غَابَ، ازداد حُضُوراً. لا يحجبه صَحْوه عن سُكْرِهِ. وَلاَ سُكْره عَن صَحْوِهِ. وَيُوفي كل ذي قسط

---

(١) هو الإمام مالك بن أنس رحمه الله تعالى.

قِسْطَهُ.

ويحتَمل أَن يُريد بأَهْلِ الدَّيْر؛ الرُّهْبَان المنقطعينَ فيه من النَّصارى. أَي لولا المحبَّة التي في قلبهم ما صَبرُوا على تلك المشاقّ. مِن الجوع والبَرْدِ. فَلَوْلا خَمرة المحبَّة التي شمّتها أَرْواحهم مِن وَرَاء الحِجَابِ. مَا انقَطَعُوا هٰذَا الإِنقطاع. فإِنْ قُلت: لاَ يصحّ قوله في حَقِّهِمْ هَنِيئاً. إذ لاَ خَيْرَ عِنْدَهُمْ. قُلْتُ: للعارفينَ نَظَرٌ رقيق، يشهدُونَ الأَنوار الباطنة. ويغيبون عن الظلمَة الظاهِرَة. يَشْهَدُونَ القُدْرَة، ويَعْرِفُونَ الحِكْمَةَ. فَهُم كالنَّحْلَةِ، تَرْعى مِن كل نُورٍ. حلواً أَوْ مُرّاً. وَلاَ يَخرُج مِنها إِلاَّ العَسَل الحُلْوَ. ولذلك قال شيخ أَشياخِنَا. سيّدي عَبْد الرحمن الْمَجْذُوب:

الـــخـــلـــق نـــوز   وأَنـــا ازعـــت فـــيـــهـــم
هُـــمُ الـــحُـــجُـــبُ الأَكْـــبَـــز   والْـــمَـــدْخَـــلْ فـــيـــهـــم

وفي هٰذَا المنزع يقول الرّفَاعِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

تَأَدبْ بِبَابِ الدَّيْرِ وَاخْلَعْ بِهِ النَّعْلاَ   وَسَلِّمْ عَلَى الرُّهْبَانِ وَاحْطُطْ بِهِمْ نَعْلاَ
وَعَظِّمْ بِهِ الْقِسِّيسَ إِنْ شِئْت حظوهُ   وكَبِّرْ بِهِ الشَّمَّاس إِنْ شِئْتَ أَنْ تَعْلاَ
وَدُونَكَ أَمْوَاتُ الشَّمَّامِينَ فَاسْتَمِعْ   لأَلْحَانِهِمْ واحْذَرْكَ أَنْ يَسْلُبُوا الْعَقْلَ
بَدَتْ فِيهِمْ أَقْمَارٌ شُمُوسٌ طَوَالِعُ   يَطُوفُونَ بِهِ الصُّلْبَان واحذَرك أَنْ تَبْلاَ
فَإِيَّاكَ أَنْ تَسْمَعْ لَهُنَّ بِخُلَّةٍ   وَإِيَّاكَ أَنْ تَجْمَع لَهُنَّ بِكَ الشَّمْلا

إِلَى أَن قال في أَثْنَاءِ القَصِيدَة:

فَلَمَّا أَتَيْتُ الدَّيْرَ أَمْسَيْتُ سَيِّداً   وَأَصْبَحْتُ مِنْ زُهْدِي أَجُرُّ بِهِ الذَّيْلا
سَأَلْتُ عَنِ الخَمَّارِ أَيْنَ مَحَلُّهُ   وَهَلْ لِي سَبِيلٌ لِلْوُصُولِ بِهِ أَمْ لاَ
فَقَالَ لِيَ الْقِسِّيسُ مَاذَا تُرِيدُهُ   فَقُلْتُ أُرِيدُ الْخَمْرَ مِن عِندكُمْ أَمْ لاَ
فقال: وَرَأْسِي والمسيح ابن مَرْيم   ودِينِي ولم بالدَّم تُبَدِّلُهُ بَذْلاَ

إِلَى آخِر كَلاَمِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَلِلْعَارِفِينَ مَنْزَع غَرِيبٌ، ونظَرٌ عجيبٌ. لاَ يَذُوقُهُ إِلاَّ مَنْ صَحِبَهُمْ. وإِلاَّ فَشَأْنهُ التَّسليمُ. فإِنِ اعْتَرَضَ عَلَيْهِمْ، أَصْبَحَ مِنَ البُكْمِ الصُّمّ الذِينَ لاَ يعقلُونَ. وَلاَ شكَّ أَنَّ الحقيقة الْعَارية مِن وَرَاء الشريعة؛

الشهوة فِيها أَقرب وأظهَرُ. ولذلك قال:

بَدَتْ فيهم أقمار شمُوس طَوَالِعُ   وَلاَ يَـذُوق هَـذَا إِلاَّ أَرْبَـاب الـفَـنّ

واللَّهُ تعالى أَعْلَمُ.

ثم قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

وَعِـنْـدِي مِـنْـهَـا نَـشْـوَةٌ قَـبْـلَ نَـشْـأَتِـي   مَـعِـي أَبَـداً تَـبْـقَـى وَإِنْ بَـلِـيَ الْـعَـظْـمُ

قلت: **النَّشْوَة**: السَّكْرَة. يُقالُ: نَشَا نَشْوَة: سَكَرَ. قَالهُ في القاموس. يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: عِنْدِي مِنْ هٰذِهِ الخَمْرَة نشوة لرُوحي فِي الأزَلِ، قَبْلَ نَشْأة البَشرية. فَمَا ظَهَرَ فِي عَالَمِ الشَّهَادة إلاَّ مَا سَبَق فِي عَالَمِ الْغَيْبِ. فللرُّوحِ سَكْرَة. لِمَا عَلِمَتْهُ مِن سَبْقِ السَّعَادَةِ، والعِنَايَة، قَبْل ظهور البَشَرِية. ثُمَّ تَبقى تِلك النَّشْوَة لها بَعْد مُفَارقتها هذه البشرية اللطيفة، وإن بقي عظمها، واضْمَحَلَّ رسْمُهَا؛ فإِنَّ الرُّوحَ لاَ فَنَاءَ لَهَا. فإذَا فَارَقَتْ هذه البَشرية. بقيْت عَلى ما كَانَتْ عليه مِنَ المعرفة والعِلْم. بل لَمْ تَزَلْ تَتَرَقَّى فِي المَقَامَاتِ، كما كَانَتْ فِي الدُّنيا أَبَداً سَرْمَداً. يَمُوتُ الْمَرْءُ عَلَى ما عاش عليه. ويُبْعَثُ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ. وقد أشرتُ إِلى هٰذَا المَعْنَى الَّذي قاله الشيخ، في تَائيتي الخَمْرِية. فَقُلْتُ:

سَكِـرْنَـا بِـهَـا قِـدماً وَبَـعْـدَ نَـشْـأَتـي   وَفِي النَّشْأَةِ الأُخْرَى تَدُومُ مَسَرَّتِي

ثم قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

عَلَيْكَ بِهَا صِرْفاً وَإِنْ شِئْتَ مَزْجَهَا   فَعَدْلُكَ عَنْ ظُلْمِ الْحَبِيبِ هُوَ الظُّلْمُ

قلت: **الصِّرْفُ** بِكَسْرِ الصَّادِ: الخالِصُ مِنَ الخَمْرِ وغَيرها. قاله في القاموس. **والمَزْجُ**: الخَلْطُ. **وَعَدَل** عَنْ كَذَا: انصَرَفَ عَنْهُ. **والظَّلْمُ**، ضبَطها بفتح الظَّاءِ. وفسره بالريق. وقوله في القاموس. الظُّلْم بالضّمّ: وَضْع الشيْء في غَيْر مَحلّهِ. والمصْدَر الحقيقي: الظَّلْم بالفَتح، ظَلَم يظلم ظَلماً بالفَتح فَهو ظَالِمٌ وَمظلوم. ثم قال: والظلم: الثلجُ بهذيل الثعلبي. وماء الأسنان هـ. فإن أراد بماءِ الأَسْنانِ الرّيق، وافَق ما قاله الْبَعْضُ. ويكون حينئذٍ كناية عن خَمْرِ المحبّة. لكنَّها بعيدة لغربة الإنتقال، مِنَ الرّيقِ إلى الخَمْرِ. والَّذي يظهر. أَنَّهُ الظلم المعلومُ، أطلقه على التَّصرُّفَات القهرية الجلالية. إذ لاَ سبيل لشُرْب خَمْر

المحبّة على الْوفاءِ والصّفَاءِ، إلاّ بعد مرور هذه التّصرُّفات الإلْهية عليه. وإلاّ كَانَ كَاذباً. لقول أبي المَوَاهِب: مَنِ ادَّعَى شهود الجَمَالِ، قَبْل تَأَدّبِهِ بِالْجَلاَلِ، فارْفُضْهُ فإنه دَجَّالٌ. فَهُوَ كَقَول الشّاعِر:

الـحـبُّ دِيـنـي فَـلاَ أَبـغِـي بِـهِ بَـدَلاَ ... والـحُسْنُ مَلِكٌ مُطَاعٌ جَارَ أَمْ عَدَلاَ

والـنّفْسُ عُزّتْ لَكِنْ فِيكَ أَبـذُلُـهَا ... وَالـذّلُّ مُـرٌّ ولـكِـنْ فِـي رِضَـاكَ حَـلاَ

يَـا مَـنْ عَـذَابِـي عَـذْبٌ فِـي مَـحَـبّـتِـهِ ... لاَ أَشْـتَـكِـي مِـنْـكَ لاَ صُـدّاً وَلاَ مَـلَـلاَ

يقول رَضِيَ اللّهُ عَنهُ: عليك أَيّها الشّارب للخَمرةِ الأزلية بِهَا صِرْفاً. أي صافية، خالصة من السلوكِ. بل اسْتَغْرِقْ فِي تعاطِي أَسْباب شُرْبِهَا، حتى تغيب عن الحسّ بالكلية. وإن شِئت فامْزجها بشيءٍ مِن السلوكِ إعطاءً لحق العبودية؛ التي هي كَمَالٌ. فَإِنْ تَعرفَ إليكَ الحق بشيءٍ من التّصرُّفَاتِ القهرية التي هي سبب الشرْب وشرْب هذه الخمرة الأزلية. فَعذلك عَنْها، وانصرافكَ عن نِيرَانها؛ هو الظّلم الكَبِيرُ. الحق تعالى يقول لك: هاتِ نُسْقيكَ خَمْرَتِي بثمَنِ تَصرُّفَاتِي. وأَنت تَهرب مِنْهُ. الحق تعالى يريدُ أن يطوي عنك مسافَة البُعْدِ. وأَنْتَ تَفِرّ مِنْهُ إلى الْبُعْدِ. وفِي الحِكَم: إِذَا فَتَحَ لكَ وجْهَة، مِنَ التّصرّفِ، فَلاَ تبالي مَعَهَا إِنْ قَلّ عَمَلُكَ. فَإِنّهُ مَا فَتَحَهَا لك؛ إِلاّ وَهُوَ يُريد أَنْ يَتَعرّفَ إِلَيْكَ فِيهَا هـ.

وكَان شيْخ شيخنا رَضِيَ اللّهُ عَنهُ يَقُولُ: العجَبُ كل العَجَب مِنَ الفَقِير يقول: يَا رَبِّ عرّفْنِي بِكَ. فَإِذَا تَعَرّفَ الحق تَعَالى إِلَيْهِ فَرّ مِنْهُ وَأَنْكَرهُ.

والحاصل: أَنّ جَنّة المعارف؛ التي هي محلّ شُرْب الخمرة الأَزَلية. مَحفُوفةٌ بالمَكَارهِ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾. [البقرة: ٢١٤] الآية: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢] الآية، فإطلاقُ الشيخ رَضِيَ اللّهُ عَنهُ على هٰذِه التّصرُّفَاتِ ظلْماً مَجازٌ. ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾. [الكهف: ٤٩] لكن ذَكَرَ الحبيبَ هُنَا ليَسْهُلَ هٰذَا الإطلاق. إِذْ كُلّ ما يصْدُر مِنَ الحبِيبِ كُلّه حُلو مُسْتعْذَبٌ. إنْ كَانَ ظَاهِره ظلماً. فَبَاطِنُهُ صَوَابٌ وتقريب. والله تعالى أَعْلَمُ.

ثم قال رَضِيَ اللّهُ عَنهُ:

فَدُونَكَهَا فِي الْحَانِ وَاسْتَجْلِهَا بِهِ ... عَلَى نَغَمِ الأَلْحانِ فَهيَ بِهَا غُنْمُ

قُلْتُ: دُونَكَ اسْمُ فِعْلٍ بِمَعْنَى خُذْ. اللَّحْنُ مِنَ الأَصْوَاتِ المصنُوعاتِ المَوْضوعة على ميزان الشِّعْرِ. والجمع أَلحان ولحون والغُنْمُ بِالضَّمِّ: الفَوْز بالشَّيْءِ بِلاَ مَشَقَّةٍ. قَالَهُ في القَامُوس.

يَقُول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إنْ أَردتَّ أَنْ تَظْفَرَ بِهٰذِهِ الخَمْرَةِ، فَخُذْها مِنْ مَحَلِّها. واستجلِها مِن خَانِهَا؛ وهو الإجْتماع مَعَ أَرْبَابِهَا. والصُّحْبة لَهُمْ. والأدب مَعَهُمْ وتعظيمهم، والمُذَاكَرَة فِيها مَعَهُمْ. وإنشاد الأشْعَار التِي تَشْتَمِلُ على ذِكْرِها. على نُغْم حَسَنَة. وألْحان مستحسنة؛ فهِي السبَبُ في الفَوْزِ بحصولهَا. والظَّفر بالسُّكْرِ بِهَا. كَأَلحانِ الششتري والنَّاظم وغيرهما من الخمرية أو البحرية. ولذلك اتخذت الصوفية مُنْشداً لينشد في حلقة الذِّكر وبعدهَا؛ لأنَّهَا تُهَيِّج الحبَّ. وتَسْتجلب السكر. ويُشْترط أَنْ يكُونَ صَيِّتاً عارفاً بصناعَةِ الإِنْشادِ. يَذْكُرُ فِي كُلِّ محلٍّ ما يُنَاسِبُهُ، بِدَايَةً ونهايَةً. جَذْباً وَسُلوكاً. وباللَّهِ التوفيق.

ثم قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

فَمَا سَكَنَتْ وَالْهَمُّ يَوماً بِمَوْضِعٍ ... كَذٰلِكَ لَمْ يَسْكُنْ مَعَ النَّغَمِ الْغَمُّ

يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هٰذِه الخَمْرة الأزلية، مَنْ شَرِبها وسَكر بِهَا وتمَكَّنَتْ مِنْ قَلْبِهِ مَعْرِفَتُهَا. وأشرقت على سِرِّهِ أنوارهَا. لاَ يَسْكُنُ مَعَهَا فِي قَلْبِهِ هَمٌّ أَبَداً؛ لأَنَّ الْوُصُول إِلَى هٰذِه الْخَمْرَةِ، هو الْوُصُول إلى الحبيب، والجلوس في بسَاطِ حَضْرَتِهِ. ومُشاهدة أنوار طلعَتِهِ. وَمَن كَانَ مَعَ الحَبِيبِ لاَ يَعْتَرِيهِ الهُمُومُ. وَلا يطرق ساحته الغُموم. كَما قال القائل:

هَنيئاً لِمَنْ قَدْ نَالَ حُبَّ حَبِيبِهِ ... وَخَلافَ بِتَرْكِ الغَيْرِ أَكْرَمَ مَوْرِدِ

نَعِيمٌ بِلاَ حَلٍّ لَدَيْهِ مُجَدَّدٌ ... عَلَى عَدَدِ الأَنْفَاسِ فِي كُلِّ مَشْهَدِ

وأَيْضاً: لاَ تطرق الهموم والأحْزَان، إلاَّ من وُجُودِ الإنسَان. وأَمَّا مَن تحقَّقَ زَوَالُهُ؛ كَانَ أَمْرُهُ كُلُّهُ باللَّهِ. ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الإسراء: ٨١]. والحقُّ مُنَزَّهٌ عَنِ النَّقَائِصِ. وإن شئْتَ قُلْتَ: الهَمُّ والْحُزْن لا يتصوَّران إلاَّ فُقدَان شَيْءٍ أَوْ فَوَاتِهِ. وَماذَا فَقَدَ مَنْ وَجَدَ اللَّهَ. بَلْ مَنْ وَجَدَ اللَّهَ كَانَتْ أَوْقاته كلها مَوَاسِم وأَعْيَاد. كما قال الشَّاعِرُ:

الدَّهْرُ لِي مَأْتَمٌ إنْ غِبْتَ يَا أَمَلِي ... وَالعِيدُ مَا كُنْتَ لِي مرءاً ومُسْتَمِعاً

وقال آخَرُ:

قَالت: هنِّ العيدَ بالبشرَى فَقُلْت لها   الْعيدُ والْبُشرَى عِنْدِي يَوْمَ لُقْيَاكَ

اللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ النَّاسَ قَدْ فَرِحُوا   بِهِ وَمَا فَرْحَتِي إلاَّ بِرُؤْيَاكَ

وإنْ شئْتَ قُلْتَ: إنما كَانَتْ هذِه الخَمرة لاَ يسْكُنُ مَعَهَا الْهَمُّ والْغَمُّ، لأن هذه الخَمرة لاَ تَسْكُنُ إلاَّ فِي قَلْبٍ تَقِيٍّ. وقد قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣] أيْ يَجْعل له من كُلِّ هَمٍّ مَخرجاً. وَلا تَسْكُنُ أيضاً. إلاّ في قَلْبٍ مُحسِن. وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ۝١٢٨﴾. [النحل: ١٢٨] وَلاَ تَسْكُنُ أيْضاً إلاَّ فِي قَلْب صَبُور. وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، [البقرة: ١٥٣] ومَن كَان اللَّهُ مَعَهُ مَاذا يَفُوتُهُ؟

وإن شِئْتَ قُلْتَ: إنما تطرقَ الهموم والغموم، مَنْ عَدِمَ الثقة بِالحيِّ القَيُّوم. وَأمَّا مَنْ صَلحَ تَوَكّلُهُ على اللّهِ. فَقَدْ كَفَاهُ اللّهُ وَآوَاهُ. قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾. [الطلاق: ٣] وَمَنْ كَان اللّهُ كَافِيهِ، كَيْف تَعْتَرِيهِ الْهُمُومُ؟

إنْ شِئْتَ قُلْتَ: إنَّمَا تَطْرُقُ هٰذِه الغمُوم. مَنْ عَدم التحقق بالقَضَاءِ المَخْتُومِ. وأمَّا مَنْ تحقق بِسَابِق القَضَاءِ والقَدَرِ. أرَاحَ نَفْسَهُ مِنَ التَّعَبِ والكَدَرِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ [الحديد: ٢٢] الآية. ثم قال: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾. [الحديد: ٢٣] حُكِيَ أَنَّ رَجُلاً فَاقَ حَالُهُ. وَتَعَطَّلَ أَجَلُهُ. فَخَرَجَ هائماً عَلَى وَجْهِهِ. وَدَخَلَ الصحراءَ، فَوَجَدَ قصراً دَارِساً مُتَخَرِّباً. قَدْ كَشَف الريحُ عَنْهُ الرَّمْلَ. وفي حَائطِ ذلِكَ القَصْرِ، لوْح من الرُّخَام. مكتوبٌ فيه بقلم القُدْرَة هٰذَا الشِّعر:

لَمَّا رَأيْتُك جَالِساً مُسْتَقْبِلاً   أيْقَنْتُ أنَّك لِلْهُمُوم قَرِينُ

مَا لاَ يُقَدَّرُ لاَ يَكُونُ بِحِيلَةٍ   أبَداً وَمَا هُوَ كَائِنٌ سَيَكُونُ

سَيَكُونُ مَا هُوَ كَائِنٌ فِي وَقْتِهِ   وَأَخُو الْجَهَالَةِ مَتْعُوبٌ مَحْزُونُ

يَجْرِي الْحرِيصُ وَلاَ ينَالُ بِحِرْصِهِ   شَيْئاً وَيَضْحَى عَاجِزاً مُهِينُ

دَعِ الْهُمُومَ وَتَعرَّ مِنْ أَثْوَابِهَا إنْ كَانَ عِنْدَكَ بِالْقَضَاءِ يَقِينُ
هَوِّنْ عَلَيْكَ وَكُنْ بِرَبِّكَ وَاثِقاً فَأَخُو الْحَقِيقَةِ شَأْنُهُ التَّهْوِينُ
طَرَحَ الأَذَى عَنْ نَفْسِهِ فِي رِزْقِهِ لَمَّا تَيَقَّنَ أَنَّهُ مَضْمُونُ

وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ: الْهُمُومُ وَالْغُمُومُ ظُلُمَات. والخَمْرَة الأَزَلية أَنْوَارٌ مُشْرِقَاتٌ. فَكَيْفَ تَجتَمِع الظُّلَمَات والنُّورُ؟ أَمْ كَيْف تجتمعُ الكَآبة والسُّرُور؟ وتعبير الشيخ بالسُّكْنَى يَقْتَضِي أَنَّ خطو الهَمّ على القَلْبِ ومُرورِه عليه. لاَ ينافي وُجُود الخَمرة. وَهُوَ كَذلِكَ. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١] فهذه الآية، تحكُم على أهل البِدَايَاتِ والنهاياتِ لِقوله تعالَى قَبْلَ ذُلِكَ مُخَاطِباً لِسَيِّدِ العارفينَ. ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٢٠٠] الآية. أو إشارة إلى أَنَّ الطَّيْفَ لاَ يَخْلُو مِنْهُ أَحَدٌ. وإن كَان الرَّسول معصوماً من إصراره، لكن فيه تنبيهٌ لِغَيْرِهِ. واللَّهُ تعالى أَعْلَمُ.

ثم قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

وَفِي سَكْرَةٍ مِنْهَا وَلَوْ عُمْرُ سَاعَةٍ تَرَى الدَّهْر عَبْداً طَائِعاً وَلك الْحُكْمُ

يَقُولُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وفي سَكَرَةٍ مِنْ هٰذِهِ الخَمْرَةِ الأَزَلِيَة، وَلو سَاعَة من الْعُمْرِ، ترى الزَّمَانَ طَائِعاً لكَ. والأَشياء كُلّها عِنْدَ أَمْرِكَ ونَهيكَ. وأَنْتَ حاكِمٌ عَلَيْها. ما دُمْتَ فِي هٰذِهِ السَّكْرة. لأَنكَ حُرّ عنهَا، غنِيّ بِشُهُودِ مُكَوِّنِهَا. الأَشْيَاءُ كُلّما تشتاقُ إِلَيْكَ وأَنْتَ مَوْلاَهَا. أَنْتَ مَعَ الأَكْوَان. مَا لَمْ تَشهد المُكوّن. فَإِذَا أَشهدتّهُ، كَانَتِ الأَكْوَان مَعَكَ. وفي الحديث: «اشْتَاقَتِ الجَنَّةُ إِلَى عَلِيِّ وَعَمَّارٍ، وصُهَيْبِ وَبلاَلِ»[1]. وَبِالْجُمْلَةِ، فَمَن عَلَتْ هِمَّتُهُ عَنِ الأَشْيَاءِ كَانَ حُرّاً. والأَشْيَاء كلها عَبِيد لَهُ. يَتَصَرَّف فِيها بالَّليل. مُرَاده مَعَ مُرَاد مَوْلاك. لاَ يشتهي إلاَّ ما يَقْضي، وَلاَ يُرِيدُ إِلاَّ ما يُريدُ. صَارَ المَنْعُ عِنْدَهُ عَيْنَ العَطاءِ. والذّل عَيْنَ الْعِزّ.

---

(١) هذا الأثر لم أجده بلفظه فيما لدى من مصادر ومراجع والذي ورد: «اشتاقت الجنة إلى ثلاثة علي وعمار وسلمان» (رواه الحاكم برقم (٤٦٦٦) [١٤٨/٣]) وفي الاستيعاب لابن عبد البر: «اشتاقت الجنة إلى علي وعمار وسلمان وبلال» رضي الله عنهم. [ج/ ١١٣٨].

والْفَقْر عَيْن الْغِنَا. والقبْضُ عَيْنَ البَسطِ. إلى غَيْرِ ذٰلِكَ مِنْ تَوَارِدَ الأَضدادِ. فَلاَ يَقْدَحُ فِي حقّ العارفِ تَعَذر الأشياء عليه، في أَمْر الدُّنيا؛ لأنه عِنْدَ مَوْلاَهُ. مَنَعَهُ أَوْ أَعْطَاهُ. وتقييدنا كَلاَم الشيخ. بوقتِ الخَمْرةِ لاَ بُدَّ مِنْهُ. وأَمَّا مَن رَجَعَ إِلى نَفْسِهِ، وَشُهُودِ حِسّهِ. فَلاَ تبقى له هٰذِهِ الْمَزِية. لغَلَبة أَحْكَام العُبُودية عَلَيْهِ. وفي ذٰلِكَ يقُول الشَّاعِر:

نَـحْـنُ إِنْ كُـنَّـا بِـهِ دَلاَلاَ ... تِـهْنَا عَنْ سَائِرِ الأَحْرَار والْعَبيدِ

وَإِنْ نَـحْـنُ رَجَـعْـنَـا إِلَـيْـنَـا ... عَـطَّـل ذُلّـنَـا ذُلّ الْـيَـهُـودِ

فَمَنْ دَامَ سُكْرُهُ فِي الْبَاطِنِ. وتحقق بَقَاؤهُ وَفَنَاؤهُ. وسَكَنَ عِنْدَ مَوْلاَهُ، كَان حُرّاً عَلَى الدَّوَام. مَالِكاً عَلَى الدَّوَام. والأشياء مملوكة له على الدَّوام. يَتَصَرَّف فِيهَا باللّهِ. خليفَة عَن اللّه في حُكْمِهِ وَإِلزَامِهِ. مَعْزُول عن رؤية نَفْسِهِ وَوُجُودِهِ. يَتَظَهَّرُ بعَيْن البَصِيرَة إِلى سَابِقِ الْقَضَاءِ، فَيَحْكُمُ بِهِ. قَدْ ذَهَبَ رُؤْيَةُ الْكَوْنِ عَن نَظرهِ. فَلاَ يشهد إِلاَّ مُكَوِّنَهَا. فلا شكَّ أَنَّ مَنْ كَانَ هَكَذا. يكُون الدَّهر خَادماً لهُ. والأَنَامُ عَبيدٌ. فَكُلّ يوم عِنْدَهُ الْعِيدُ. حَقَّقَنَا اللّهُ بِهٰذَا الأَمْرِ الْعَظِيم. يجله سَيّد الخَلْقِ عليه السلام.

ثُم قَالَ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ:

فَلاَ عَيْشَ فِي الدُّنْيَا لمن عَاشَ صَاحِياً ... وَمَن لَمْ يَمُتْ سُكْراً بِهَا فَاتَهُ الْحَزْمُ

قُلْتُ: الصّحْو: ذَهَابُ الْغَيْم، والسُّكْر. يقال: صَحِيَ السكران. كَرَضِي. وَأَصْحَى: ذَهَبَ سُكْرُهُ. قَالَهُ فِي الْقَامُوس:

يقول رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ: مَنْ فَاتَهُ السّكر بِهٰذِهِ الخَمْرَةِ، وعاش سَالِكاً مَحْضاً. لاَ يَرَى إِلاَّ الأَكْوَان. وَلاَ يَجُول فِكْره إِلاَّ فِيهَا. فَعَيْشُهُ عَيْش الْبَهَائِم. فَلاَ عَيْشَ لَهُ عِنْدَ الأَكْيَاسِ؛ لأَنَّ عَيْشَه مُكَدَّر. وَرزقه مِنَ العلوم مُقَتَّرٌ. مسجُون بمحيطاتِهِ، مَحْصُورٌ فِي هَيْكَلِ ذَاتِهِ. لَمْ يُفْتَحْ لَهُ مَيَادِينُ الْغُيُوب. وَلَمْ يَخْرجْ إِلى فَضَاءِ الشُّهُودِ والعِيَان. قَدْ بَانَ غَبْنه، وَدَامَ حُزْنُهُ. وَقَدْ قُلْتُ فِي تائيتي فِي هٰذَا المَعْنَى:

فَيَا غَبْنَ مَنْ لَمْ يَشْفِ مِنْهَا غَلِيلَهُ ... لَقَدْ كَسَاكَ الْحِرمَانُ ثَوْبَ مَذلَّتِي

وَيَا فَوْزَ مَنْ أَضْحَى لَهَا مُتَضَلِّعاً ... عَلَى عَدَدِ الأَنْفَاسِ فِي كُلّ وجْهَةِ

هَـنِـيـئـاً لَـهُ فَـالأَمْـرُ عِـنْـدَ مُـرَادِهِ وَعَبْداً يَصِيرُ الدَّهْرُ فِي كُلِّ خِدْمَةِ
فَمَنْ عَاش وَلَمْ يَسْكرْ مِنها حَتَّى مَاتَ فَقَدْ فَاتَهُ الحَزْمُ وَكَانَ حَظُّهُ النَّدَمُ

كَمَا قَالَ الشاعِرُ:

مَـنْ فَـاتَـهُ مِـنْـكَ وَصْـلٌ حَـظُّـهُ الـنَّـدَمُ وَمَـنْ تَـكُـنْ هَـمَّـهُ تَـسْـمُـو بِـهِ الْـهِـمَـمُ

وَاعْلَمْ أَنَّ الصَّحْوَ عَلَى قِسْمَيْنِ: صَحْوٌ بعد السُّكر: وهٰذَا عَيْن الكَمالِ. وصحو قبل السكر؛ وهذا هو المَذْمُوم؛ لأن صاحبه محجوب عن اللَّهِ؛ وهو الذي أرَاد الناظم هُنَا، كَمَا أَنَّ السكر على قسْميْن: سكر يكُون مَعَه سلوك أَوْ بعدهُ. وهذا هو الكَمَال. وسكر لاَ يصحبه سلوك معه وَلاَ بعدهُ. وهٰذَا نَاقِصٌ؛ لا يصْلحُ للتربية النبوية. كَما أنَّ السُّلوك المحْض لا يصلح أَيْضاً للتَّرْبية. ومَن سَكر ثم صَحَا كان شيخاً مُرَبّياً، كَاملاً مكملاً؛ وهذا لاَ ينقطعُ، ما دَامَ الجود قَائماً. وَلاَ يقول بخلافِ هٰذَا، إِلاَّ مَنْ طَبَعَ اللَّهُ على قَلْبِهِ. نَسْأل اللَّهُ السَّلامَة بمنِّهِ وَكَرَمِهِ:

ثُمَّ إنه قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

عَلى نَفسِهِ فَلْيَبْكِ مَنْ ضَاعَ عُمْرُهُ وَلَيْسَ لَهُ فِيهَا نَصِيبٌ وَلا سَهْمُ

يَقُولُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَن ضَاع عُمُرُهُ فِي البطالة والتقصير، والتخليط والتكْدير، ولِيْسَ له مِن خَمْرَة الأَفراحِ قليل وَلاَ كَبيرٌ. فَالواجبُ عليه أَنْ يبكي على نَفسِهِ آناء اللَّيْل وأَطراف النَّهار. ويلتجىء إلى العارفين الأطهار والصالحين الأبْرَار فَعَسى أَنْ تهُبَّ عليه نَفَحات مِنَ الكَرِيم الْغَفَّار. لعلّ يلتحق بِهِم، وينخرط فِي سِلكهم. وإِلاَّ بَقِيَ مغبوناً عبادَتُهُ؛ وإن كَثُرتْ فِي الحسِّ؛ فهي قليلة في الْمَعْنَى؛ لأَنَّ المقصود مِنْ عَمَلِ الجوارحِ، وصُولُ ثمرتها إلى الْقَلْبِ؛ وهِي خَمْرة المحبَّة. فَمَنْ لَمْ يَصِلْ إلى هٰذِهِ الخَمْرَةِ، فعبادته وسيلة بِلاَ غَايَةِ. ولذلك قال القطب ابن مَشيش ـ نَفَعَنَا اللَّهُ بِذِكْرِه ـ مَنْ دَلَّكَ على الدّنيا فَقَدْ غَشَّكَ. وَمَنْ دَلَّكَ عَلَى الْعَمَل فَقَدْ أَتْعَبَكَ. وَمَنْ دَلَّكَ على اللَّهِ فَقَدْ نَصَحَكَ. فالدَّلاَلَةُ على اللَّهِ، هو تَغيّب الْعَبْد عَمَّا سواهُ، ونِسْيَانِه نَفْسه وَهَواهُ؛ وَهٰذِهِ هِيَ الخمرةُ المَطلوبة. فعبادة أَهل هذه الخمرة كثيرة فِي المَعْنَى. وَإِن كَانَتْ قَليلَة فِي الحسِّ؛ لأنَّ عبادَة هذه الخمرة كُلّها مُضَاعفة بأَضعاف كثيرة؛ لأنها بيْن فكْرَةٍ

ونظرةٍ. وشهودٍ وعِبْرة. وفي الخَبر: «تَفَكُّرُ سَاعَةٍ أَفْضَلُ مِنْ عِبَادَةِ سَبْعِينَ سَنَة»[١]. وَقَال الشَّاعِر:

كُلُّ وَقْتٍ مِنْ حَبِيبي ... قَدْره كَألْفِ حَجَّةِ

أي: سنة. وقال الشيخ أَبُو العَبَّاس المرسِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَوْقَاتُنَا كُلها ليلة القدْر. أي كل وقتٍ عِنْدَنَا خَيْر مِن أَلْفِ شَهْرٍ. يشيرُ إِلَى هٰذَا المَعْنى. وقال الجنيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَشرف المجالس وأعلاها؛ مع الفكرة في ميدان التوحيد، والتنسُّم بالمعرفة. والشُربُ بكأس المحبَّة، مِنْ بَحْر الوِداد، والنظر بحسْن الظَّنِ باللَّهِ تعالى. ثم قال: يَا لَهَا مِن مجالس. مَا أَجَلَّها! وَمِن شَرابٍ ما أَلَذَّهُ! طوبَى لِمَن رُزِقَهُ هـ.

وقال ابن عطية رحمهُ اللَّهُ: حدَّثني أَبِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: عن بَعْض علماءِ المشرقِ، قال: كنت تائِهاً فِي مسجد الأَقْدَام بِمصر. فصلَّيْت العَتَمة. فَرَأَيْت رَجُلاً قَدِ اضْطَجَعَ فِي كِسَاءٍ لَهُ. مسَجياً بكسَائِهِ حَتَّى أَصْبَحَ. وَصَلَّيْنَا في الليلة وسهرنَا. فَلَمَّا أُقيمت صَلاَةَ الصُّبْح. قام ذٰلِكَ الرَّجُل، فاسْتَقْبَلَ القِبْلَةَ. وصَلَّى مَعَ النَّاسِ، فاسْتعْظَمْتُ جُرْأَتَهُ في الصَّلاَةِ بِغَيْر وُضُوءٍ. فلمَّا فَرغت الصلاة، خرج فَتَبعتُهُ لأَعِظَهُ. فَلَمَّا تبعته سَمِعْتُهُ يُنْشِدُ:

مُنْسَجِنُ الْجِسْمِ غَائِبٌ حَاضِرْ ... مُتَنَبِّهُ الْقَلْبِ صَامِتٌ ذاكِرْ

مُنْقَبِضٌ فِي الْغُيُوبِ مُنْبسط ... كَذَاك مَنْ كَان عَارِفاً نَكِرْ

قال: فعلِمتُ أَنَّهُ ممَنْ يَعْبدُ اللَّهَ بِالفِكْرَةِ. وقال أَبُو الحجاج الضرير في مَنظومته:

والفِكْرُ فِي عَجَائِبِ الخَلِيقَةْ ... مِنْ أَفْضَلِ الطَّاعَاتِ فِي الحقيقَةْ

لأَنَّهُ بِهِ تَكُونُ الْمَعْرِفَةْ ... وإِنَّمَا يَخافُهُ مَنْ عَرَفَه

وقال الششتري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

---

(١) هذا الأثر لم أجده بلفظه فيما لدي من مصادر ومراجع والذي ورد: «تفكر ساعة خير من عبادة سنة» (المصنوع للهروي [١/ ٩٣] وفي لفظ: «ستين سنة» وأورده العجلوني في كشف الخفاء برقم (١٠٠٤) [١/ ٣٧٠]).

دَع السَّيْفَ والسُّبحة والسّجّاذ   واغقد سُكيرةً مِنْ خَمْرَةِ الإفراذ

أي اترك الجهاد الحِسّي والعبادة الحسية. واشْتَغِلْ بالعبَادَةِ الباطنية القلبية. ولذلك قال بعض العارفينَ: الذَّرَّةُ مِنْ أَعْمَال القُلُوبِ. أفضل مِن أَمْثَال الجِبَالِ مِنْ أَعْمَالِ الجَوَارحِ. وقال الإمام أَبو القاسم القشيري رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ: التفكر نعْت كل طالبِ. وثمرة الوصول، بِشرطِ العِلْم. فَإِذَا سَلِم الفكر عَن الشوائب. ورَد صاحبه على مَنَاهِل التحقيق.

وفي كتاب اللَّهِ عَزّ وجلّ، وسنَّة رسول الله ﷺ، مِنَ الحث على التفكّر، والإغتباط به. ما يَقلّ بِهِ أَسْفار. وكذلك أخبار السّلف الصالح. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ .[آل عمران: ١٩١] وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١]. وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾ [الأعراف: ١٨٤]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٨٥]. إلى غَيْر ذلِكَ ممَّا لاَ يُحْصَى. ولمَّا نَزَلت على رسول الله ﷺ، هذه الآية: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [البقرة: ١٦٤] الخ الآية، قال: «وَيلٌ لِمَنْ قَرَأهَا وَلَمْ يَتفكّرَ فِيهَا». وقال ﷺ: «لاَ عِبَادَةَ كَالتَّفَكُّرُ». وسُئِلَتْ زوجة أَبي ذَرّ عن عبادة زَوْجِهَا. فَقَالَتْ: كَانَ نَهَارُهُ أجمع في ناحية يتفكّرُ. وكذلك ذَكرتْ زَوْجة أَبي بَكْر. قَالَتْ: كَانَ لَيْلُهُ في ناحيَة يَتَفَكَّرُ. وَكَانَ عيسى عليه السلام يقولُ: طوبَى لِمَن قيله ذكراً. وصمته تفكراً ونظرةُ عِبْرة. إنَّ أكْيَسَ النَّاس مَن دَانَ نَفْسَهُ؛ وعمل لمَا بَعْد المَوْت[1]. وقال كَعْبٌ: مَنْ أَرَادَ شَرَفَ الآخِرَة، فليكثر التَّفَكّر. وقيل لأُمّ الدَّرداءِ: ما كَانَ أفْضل عَمَلِ أَبي الدَّرْداءِ؟ قَالَتْ: التَّفكّر. وقيل لإِبراهيم: إنك تُطيل الفِكرة. فقال: الفِكرة مُخ العَقْل.

وَكَان سُفْيَانُ بْن عُيينَة، كَثِيراً مَا يَتَأَمَّلُ وَيقُول: إذا المَرْء كَانَتْ لَهُ فِكْرَة. فَفِي كُلّ شَيْءٍ لَهُ عِبْرَة. وقال الحسَن: مَنْ لَمْ يكُن كَلاَمه حكمَة، فَهُو لَغوٌ.

---

(١) روى الحاكم في المتدرك عن شداد بن أوس قال: قال رسول الله ﷺ: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله». حديث رقم (١٩١) [١/ ١٢٥] والترمذي في سننه، باب ٢٥ برقم (٢٤٥٩) [٤/ ٦٣٨] ورواه غيرهما.

وَمَنْ لَمْ يَكُنْ سكوته تفكّراً؛ فَهُو سَهْوٌ. وَمَنْ لَمْ يَكُن نظرةُ اعْتباراً، فَهُوَ لَهْوٌ. وقيل في قوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٤٦] أي أَمْنعَ قلوبَهُمُ التفكير في أَمْرِي.

وَكَانَ لُقْمَانُ يُطِيلُ الجُلوسَ وحْدهُ. فيمرّ بهِ مَوْلاَهُ. فيقول له: يا لقمان. إنك تطيل الجُلُوس وحدك. فَلَوْ جلسْتَ مَعَ النَّاسِ، كَان آَأْنس لَكَ. فيقول لقمان: إن أطول الوحدة أَتَمُّ لِلفكرةِ.

وقال في الحِكم: ما نفع القَلْب شيءٌ مثل عُزْلة، يَدْخل بِهَا مِيْدان وفِكْرة. وقال أَيْضاً: الفِكْرة سِراج الْقَلْب. فإذا ذَهَبَتْ فَلاَ إضاءَةَ لَهُ. وقال أَيْضاً: الفِكرة فكرتان: فِكرة تَصدِيقٍ وإيمَانٍ. وفِكرة شُهُودٍ وعِيَانٍ. فالأَوّل لأَرْبابِ الاعْتِبار. والثانية: لأَرْباب الشهود، والاِسْتِبْصَارِ. فكرة أَهْل الشهودِ والعِيانِ؛ هي التي تَسْتَلْزِم الخَمْرة؛ وهي المقصودة عنْدَ العَارِفين. وهي التي تعَادِل أَلْف سَنَة. وقت منْهَا خَيْر من أَلف شَهْرٍ. فَمَنْ فَقَدَها فَلاَ عَيْش لهُ في الدُّنيا. وَحق على نَفسه البُكَاء. وَمَنْ ظَفَرَ بِهَا وَنَالَهَا يحق لهُ الْهَنَاءُ. وفي أَمْثالِهِ قال القائل:

هُـمُ الـرّجـالُ وغَـيْـن لِـمَـنْ أَنْ يُـقَـالَ   لَمْ يَتصِفْ بِمَعَانِي فِي وَصْفِهِمْ رَجُلُ

حَقَّقنا اللّهُ بِمَا حَقَّقَهُمْ بِهِ. وأَتْحَفَنَا بِمَا أَتْحَفَهُمْ بِهِ. آمينَ. وسلام على المُرْسلينَ. والحمد لله رب الْعَالَمِينَ.

هٰذَا آخر ما قَصَدنَا جَمْعَهُ على القصيدة الخمرية الفرضية: على يد عبد ربه، أَقَل عبيده، أحمد بن محمد بن عجِيبة الحسَنِي.

شرح نونية الإمام الششتري رضي الله عنه

لسيدي أحمد بن عجيبة

رضي الله عنه

ضبطها وصححها وعلق عليها

الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي

الحسيني الشاذلي الدرقاوي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وصلى الله على سيدنا محمّد وآله وصحبه وسلم تسليماً

الْحَمْدُ لِلَّهِ الوَاحِدِ الأَحَدِ، الْفَرْد الصَّمَد. الَّذي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ. وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ. قَدْ تَنَزَّهَتْ أحديته عن مُزَاحمَة الشركَاءِ والأضداد والأنداد. وتقدَّسَتْ عَظَمَةُ ذَاتِهِ عن وَفْق الحُلُولِ والاتّحاد. والصَّلاةُ والسلامُ على قطب دائرة الأَكْوَانِ وسيِّد الأسْيَادِ، الَّذي من نور فيْضه الأوَّل ظهَرَتْ نعمة الإِيجاد والإِمْدَادِ، سيّدنا ومولاَنا محمد المبعوث بالعِزِّ الدَّائِمِ والشرف الفاخِرِ رحمة للعبادِ.

وبَعْدُ: فهذا شرح عجيبٌ لنونية الإمام المحقق بحر زمانِهِ. وفريد عَصْره وأَوَانِهِ. إمَام أَهْل الأذواق والوُجْدَان. وقطْب أهل التوحيد والعِرفَان أبِي الحَسَن علي بن عبْد اللَّه الشُّشْتري. وَقَدْ سَبَق إلى شَرْحِهَا العَلاَّمة الصَّوفي، سيّدي أحمد زَرُّوق. رضي الله عَنهُ. اقتصر فيه على حَلِّ ألفاظِهَا، وبيَان ما انغلَقَ مِنْ بَعْضِ معانيها. غَيْر أنه لم يَخُضْ في تَيَّارِ بَحْرِ أَسْرَارِ التوحيد منها؛ على غَوَامِض أنوارها. ولا فَضَّ خَاتَم أَسْرَارِهَا، وَلا دَخَل بعَرَائِس أَبْكَارِهَا. ولَعلَّه شَرَحَهَا قبْلَ أَنْ يُفتح عليه في أَسْرَار الحقيقة. فقد كَانَ شيخ شيوخنا سيّدي علي العمراني رضي الله عنه يقول: ما فتح على الشيخ زرّوق إلاَّ في آخِرِ عُمُرهِ. أي بحيْث لم يؤلف شيئاً بَعْد الفتْحِ. واللّه أَعْلَمُ. وَكِتَابُهُ شاهده بِذلك. إذ الكَلامُ وصْف المتكَلِّم. وَمَنْ تَكَلَّم عُرِف مِن سَاعَته. فَهُوَ في عُلُوم الطريقة إمامٌ. وأمّا في علوم الحقيقة وأَسْرَار الأذواق فَلَمْ يَنَل فيهَا شيئاً إلاَّ في آخِرِ عمرهِ، وكاد أن يخرج منها صِفر اليَدَيْنِ. ولذلك كثر اعْتِراضه على أهل اللّه. وظَهَرَ فِي كَلامِهِ التَّشديد والتضييق عَلَيهم. وقد رأيته في نوم كاليقظة. فقلت لهُ: قَدْ شددتَّ على

أهل اللَّهِ. في عدة مُريدينَ فقال: وَمَا قلْت فيها؟ فقلت له: قلت كذا كذا. وذكرت له بعض ما انتقد عليْهم. وما شدَّد فيها. فقال: ذٰلِكَ الَّذي يُنَاسِبُ مَذْهَبَ مالكٍ. فَقُلْتُ له: الصُوفِي الحقيقي لاَ يُقَلِّد مَالكاً ولاَ غَيْرَهُ بل يأخذ الشريعة مِن أصْلها. والحقيقة من مَعْدِنِها. فقال مَنْ بَلَغَ هذا، أَوْ صَحِبَ مَنْ بَلَغه ولا يتكلَّم مَعَهُ فقلتُ: واللّهِ لقَدْ بَلَغْنَاهُ. وصَحِبْنَا مَنْ بَلَغَهُ. فَغَاب عَنِّي.

وَكَانَ بَعْض الْفُقَهَاءِ يقول: الشيخ زروق مُحْتَسِب الصوفية. قُلْتُ: إنما يكون مُحْتَسِبُ صوفية الظَّاهِرِ؛ أَهْلِ العبادَةِ الظَّاهِرة. والنسْكِ الظَّاهِرِ. وأما أَهْلُ البَاطِنِ أَهْل التَّرْبية. فَلا احتساب له عَلَيْهم. إذ لم يُحِطْ عِلْماً بِمَا عِنْدَهُمْ. ولقد سَمِعْت شيخ مشايخ التَّرْبية في زَمَاننا: مولاي العربي الدَّرقاوي الحسَيني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ:

الشَّيْخ زرُوق عند أَهْل الظَّاهِرِ شيء كَبيرٌ. وعِنْدَ أَهْل البَاطِنِ شيءٌ صَغِيرٌ. وأَهْلُ مكَّةَ أَعْرَف بِشِعَابِهَا.

لا يَعْرِفُ الشَّوْقَ إلاَّ مِنْ يُكَابِدُهُ. وَلاَ الصَّبَابَةَ إلاَّ مَنْ يُعَانِيهَا. وَمَرَاتِبُ الأَوْلياء، كَطَبَقَاتِ الجِنَان. الأعْلَى يَعْرف الأسْفَل. دون العَكْس. واللَّهُ أَعْلَمُ.

ترجمة الشيخ الششتري

قال في أوّل شَرْحِهِ لهذه القصيدة في التعريف بالشيخ: وأمَّا الشيْخ فهو الأسْتاذ الفقيه، المُقرِئ المحدِّث. الصوفي العالم، العامل الكامل المحقق المدقق. أبُو الحسن علي بن عبد الله النّميري، ثم الشُّشْتُري بمعجمتين. أولاهما مضمومة. وبَعْدها تاء فوقية. كذلك نسْبة إلى شُشتر. قرْية بالأندلس. على مَقْربة مِن لوشة. وبالعراق أيْضاً قرية تسَمَّى بِذٰلِكَ. قال ابن ليُون: كَان مِن أَبْنَاءِ الملوك والأمراء، فصار من سَادة الفقَهاءِ. وكان يُقرأ عليه القرْآن بالرّوايات. وكَان عَارِفاً بِالأُصُولِ السّتَّة. وَأَنْوَاع الرّواة. وقال الطّوام: كان من التُّجّار السُّفَّار. ثم صار من الشيوخ الأبرار. قرأ الرّأي، أي الفقه ثم تصوّف والتزم طريقه فما تشوّف. وكان ذا عزمة وهمَّة. مع مشاركة في علوم جمَّة.

نزل طرابلس، فأخذ عنه أهْلها علوماً. ثم عَرَضوا عليه قضاءَهَا. فَلَمْ

يوافق عليه، وَلاَ مَقَامَ حَوْلَهُ. فاستحمقوهُ. فقال في ذلك:

رَضِيَ الْمُتَيَّمُ فِي الْهَوَى بِجُنُونِهِ ... خَلُّوهُ يَفْنِي عُمْرَهُ فِي فُنُونِه

لاَ تَعْذِلُوهُ فَلَيْسَ يَنْفَعُ عَذْلُكُمْ ... لَيْسَ السُّلُوُّ عَنِ الْهَوَى مِنْ دِينِهِ

قَسَماً بِمَنْ ذَكَرَ الْعَقِيق مِنْ أجلِهِ ... قَسَمَ الْمُحِبُّ بِحُبِّهِ وَيَمِينِه

مَالِي سِوَاكُمْ غَيْرَ أَنِّي تائِبٌ ... مِنْ فَتْرَةٍ فِي الحبِّ أَوْ تَلْوِينِهِ

مَالِي إِذَا هَتَفَ الْحَمَامُ بَأَيْلَةٍ ... أَبداً أَحَنُّ لِشَجْوِهِ وشُجُونِهِ

وَإِذَا الْبُكَاءُ بِغَيْرِ دَمْعٍ دَأْبُهُ ... فالصَّبُّ تَجْرِي دَمْعُهُ بِعُيُونِهِ

وإنما أَنْشَدَ القصيدة اعْتِزَازاً عَنْ إِعْرَاضِهِ عَنِ القَضَاءِ. وكَأَنه يقول لَمْ أَتركْهُ زُهْداً فيه. ولاَ رَغْبة عَنِ الشريعة. إِلاَّ أَنَّهُ يُوجب التشتيت والتلوين. هذا ظاهِرُ كَلامِهِ. قال الطَّوام. كان يجيز في المتصفَّى والمجهل؛ وله طريقةٌ حَسَنَةٌ في المقاماتِ. ولكَلامِهِ عُذُوبة. ولم تَزل معه مصحوبة، ثم قال: وكَان يُرْمى بمذهب شيخه الإمام الولي الكامل المحقق سيِّدي عبد الحق بن سبعينَ ثم حَمَلَ على الرجوع عنه في حكاية وقَعَتْ لهُ بِبَجَاية. والَّذي كان يُرْمَى ابن سبعين هذا القول بالحلولِ والاتحادِ والميل إلى الزَّيْغ والإلحاد. معاذ الله أن يكون من أَهْل ذلك؛ وهو من أَهل الْعِلْم. والتمسك بالأحكام الشرعية. وإن كانَتْ له ظواهر تقتضي ذلك. فالواجب أن يوكل علمُهَا إليهم. وتأوَّل بِالوَجهِ الصحيح عليهم. والتَّسْليم أَنْجَى وأَسْلم. فقد قال الشيخ أَبو عبد اللّه المقري الفقيه القاضي رحمهُ اللَّهُ وغَفَر لهُ: الاعتقادُ ولايةٌ. والانتقاد جِنايةٌ. فَإِن عَرَفْت فَاتْبَعْ. وإن جَهلت فَسَلِّمْ.

وسُئل الشيخ الغوري رحمه الله عن ابن العربي الحاتِمي فقال: أَعْرَفُ بِكُلِّ فَنٍّ. مِنْ أَهْلِ كل فَنٍّ. قيل: مَا سَأَلْنَاكَ عَنْ هٰذَا. فَقَالَ: اختلف فيه من الكفر إلى القطبانية قِيلَ لَهُ: ماذا تُرَجِحُ؟ قال: التَّسْليم. وأَخذ يسْتدل لَهُ.

وسُئل النَّوَوِي رحِمَهُ اللَّهُ عن ابن الْعَرَبِي الحاتمي فقال: الكلام كلام صوفي. و﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤] وقَال الْقَرافِي في أَجوِبَتِهِ بعد نقل كَلاَم النَّاس فيه: الأولى

أن يُحْكَمَ عَلَى الكلامِ فيقال: هذا الكلامُ يَقْضِي كذا. ويَدلُّ على كذا. وَيُنكَّرُ من كَذَا. ولاَ يتعرضُ لتكفير صاحبهِ لاحتِمَالِ رجُوعِهِ عَنْهُ. لاَ سِيَّمَا وقد كَان عالِماً بالسُّنَنِ والأثرِ وفي كَلاَمِهِ ما يدلُّ على اقتداءٍ كثير. هذا مَعْنَى كَلاَمِهِ. وقد قال الشيخ أَبُو بَكْرِ بن فورك رحمه اللَّهُ: الغلط في إدْخَال أَلْفِ كَافِرٍ بِشُبْهَةٍ. ولا الغلطُ في إخراج مُسْلِمٍ واحدٍ بِألفِ شُبْهَةٍ كُفْرٍ. نقله عنه عَيَّاض في الشفاء. انتهى كَلاَم زروق رضي الله عنهُ.

أسباب انتقاد أهل الباطن

قلتُ: وسبب انتقادِ أَهْل الظَّاهر على أَهْل البَاطِن. أَنَّ أَهْل البَاطِن لمَّا اسْتَشرفوا على بِحَارِ زَوَاخِر من التوحيد الخام. راح بَعْضُهم للتعبير عَن تِلْكَ الأَسْرَار فضَاقت عبارتهم عن ذلك. فَفَهموا مِنْها غَيْرَ مَا أَرَادُوه فَرُمُوا بالحُلُولِ والاتحادِ. مع تنزّههم عنهُ. وذلك كابنِ العربي. والششتري وابن الفارض وأَضرابهم. وهذه الأسرار لا تدرك بالعبارة. وإنها تنال بالصحبة والسراية.

ومِنْهُمْ من عَبَّر عَنهَا بإشارة رقيقة. وعِبَارة دَقيقة. غَطَّاها بنوعٍ مِنَ التشريع. فَقُبِل منهُ. وأُقِرَّ في مَحلِّهِ. كابْن عطاءِ اللَّه. رضي اللَّه عَنهُ وأَشياخه: المُرْسِي. والشاذلي. وابن مشيش. فَسَلموا من الانتقاد عليْهم. وكلهم أولياء رضي الله عنهم أجْمعين. هـ.

ولنَرْجع لِمَا كُنَّا فيه مِن تعريف بالشَيْخ؛ وذلك أن الششتري أَلَّف كتاب: العُرْوَة الوُثْقَى. وكتاب المقاليد الوجودية. وكتاب الرسالة العلمية؛ وهي التي اختصرها ابن ليون التجيبي في الإقالة. في الانتصار للطائفة الصوفية. وله مقطعات وأزجال في الخمرة الأزلية. قال ابن ليون: دُفِنَ الششتري رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ بالطينة. عن مَقْرَبة مِن دُمْياط. وقد مدت دونها بِثَمَانِية عَشر مِيلاً. فَحَمله الفقراء على أَعْنَاقِهِمْ حتى وَصَلوهُ إليها. وقد سُئِلَ قرْب ذلِكَ: مَنِ الفقير؟ فقال: الَّذي يَمْشي بعد مَوْتِهِ ثمانية عشر ميلاً. فكان كما ذَكَر وذلِكَ سنة ثمانية وستين وستمائة «٦٦٨هـ» كما ذكره الطوام. قُلْتُ: فكان في عصْر الشاذلي وتأخر مَوْتُهُ عنه بِنَحْوِ اثنتي عشرَة سنة.

قال الشيخ زروق رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ: فَأَمَّا هذه القصيدة فقد احْتَوت على

مقاصد طريق العارفين. وتعريف أحوال الرِّجَالِ. وقد جزَّأَها ثلاثة أَجْزَاء: **الجُزْء الأول** في تعيين المطلوب وما يطلب به، وما يقوم فيه. وَوَجه المعاملة في ذلك نفياً وإثباتاً. وهذا من أوَّلها إلى قَوْلِهِ: أَمَامك هَوْل فاسْتَمع لوصيتي. **الجُزْء الثاني** من هُنا إلى قوله: فكَم واقفِ أَزدى. وقد ذكر فيه آيات العَقْل. وتطويره بالمحاسن والقبائح. وما يعرف فيه. **الجزء الثالث**: في الأمور التي اكتسبها العَقْل لذويه من نَقصٍ أو كمَالٍ أو تَضَمَّن ذلك تعريف جماعة من الرِّجَالِ وسيُذكر كلٌّ في مَحلِهِ إنْ شَاءَ اللَّهُ:

وَهَذَا أَوَّلُ القصيدة. قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

أَرَى طَالِباً مِنَّا الزِّيَادَةَ لاَ الْحُسْنَى   بِفِكْرٍ رَمَى سَهْماً فَعَدَّى بِهِ عَدْنَا

يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَرَى طالباً مِنَّا مَعَاشر الصوفية. بسيرهِ ومجاهدتِهِ، وإحسانِهِ فِي معاملته. إنما هو الزِّيادة المذكورة في قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] لاَ الحُسْنى التي هِيَ الجَنَّة؛ التي فسِّرت بها الحُسْنى. والزّيادة المَذْكورة في الآية، هي النَّظرُ في وجهه الكريم. ودوام شهوده. أو المعرفة. وزيادة الترقي فيها أبداً سَرْمداً. وإنما كان مطلبهم ذٰلِك لمسكِ هِمَمِهم. ورَفعِها عن الأَكْوَانِ بِأَسْرِهَا. فالجنَّةُ كَوْنٌ مِنَ الأَكْوَانِ. فمن رحل بقلبِه عنِ الدّنيا. وطلب الجنَّةَ وزَخارفَهَا. فقد رَحَل من كَوْنٍ إلى كونٍ فيكونُ كَحِمَارِ الرَّحَى ما انْتَقَلَ عَنْهُ. هو الَّذي حَارَ إليهِ. والمطلوب إنما هو الرَّحيل مِنَ الكونِ إِلَى المُكَوِّنِ. ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝٤٢﴾. [النجم: ٤٢] قال أَبُو مَدين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

«شتَّانَ بين مَنْ هِمَّتُهُ الحورُ والقُصُورُ وبيْن مَن هِمّتهُ رفع الستور، ودَوام الحضور وقد مَدَحَ الحق تعالى أهل الصُّفَّة بقوله: «يريدونَ وَجْههُ» أي ذاتَهُ. فكَانَتْ عبَادتهم لإرادة معرفة ذَاتِه. كذلك الصوفية برفعِ همَّتِهم. لاَ يَرُومونَ إِلاَّ مَعْرِفة الذَّات، وكشف الحجابِ عَنْهَا. وإنما طلبُوا الزِّيادة المذكورة بفكرٍ دلَّهم عليْهَا؛ وإنها أَرْفَعُ المَطالِبِ فكانَت بمثابة قوس رمَى سَهْماً؛ وهو نظره السديد. وأَمَله المديد الذي لم يَزَل يَجُولُ بِهِ حتَّى انتهى بِهِ لأَرفع المطالِب، وأَسْنَى المآرب؛ وهي معرفة الذَّات وشهودها. فعدَّى بتشديد الدَّالي. أي جاوز بذلك النظر. عَدْناً: أي جنَّةُ عَدْنٍ؛ فَلَمْ يلتَفِتْ إِلَيْهَا. ولاَ قَصَّرَ نظره عليها. بل جاوَزَ إلى ما هو أعظم منهَا. إنما مقصوده شهود الحبيب؛ الذي هو نعيم الأَروَاحِ: لا

الجنَّة التي هي نعيم الأشباحِ. وفي ذلك يقول ابن الفارض:

لَيْسَ سُؤلي مِنَ الجِنَانِ نَعيماً غَيْرَ أنّي أُرِيدُهَا لأرَاكَ

وَلاَ يلزَمُ مِن منك الهمَّة عن الشيءِ، اختصار ما سَمَتْ عنه؛ لأنَّ اللَّهَ عَظَّمَ شَأنَ الجنَّةِ، وأَعَدَّها لأوْليائِه. وإنَّما الْمُرَاد أَنَّ معاملتهم لَيْسَتْ في مُقابلة ذٰلِكَ. إنما هِيَ عَبُودية ومحبَّة. وطلبٌ لمَا هو أوْلى وأَعْظم. واللَّه أَعْلَمُ. ولمَّا كَانَ مطلبهم رفع الهمَّة عَنِ الكَوْنَين؛ وهُمَا مِن جُمْلَة السِّوَى الْبَاطِلِ. كما قال الشاعر لبيد:

أَلاَ كُلُّ شَيءٍ مَا خَلاَ اللَّهَ باطِلُ[1] وكُلُّ نَعيمٍ لاَ مَحَالَةَ زَائِلُ

تحقَّقُوا بالحق. وصارُوا من أَهْلِ الحقّ فَعَبَّرُوا بِهِ عن ذاتِ الحقّ. فَجَرى في مخاطبتهم اسم الحقّ. فيقولونَ: قال الحق. إلى غَير ذٰلِكَ مما هو معلوم في مُحَاورَتهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم. ثم بيَّنَ أَنَّ كوْن المطلوب هو عَيْن الطالب في الحقيقة عند أَهْلِ الفناءِ فقال:

طَالِبُنَا مَطْلُوبُنَا مِنْ وُجُودِنَا نَغِيبُ بِهِ عَنَّا لَدَى الطَّعنِ إذْ عنا

يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ: وطالِبُنَا. أي والطالبُ مِنَّا تلك الزِّيادة التي هي المعرفة. هو عين مَطْلُوبنَا. إذ لَيسَ الأمر خارجاً عَن ذَاتنا عند تحقيق الفَنَاءِ. فالطَّالب هو المطلوب والمطلوب هو الطالب في الحقيقة. إذاً لا إثْنينية، ولاَ غَيْرية عنْد المُحَققينَ مِنْ أَهْلِ التوحيد الخاصّ. وهٰذَا كقولِهِ في بَعْضِ أَزْجَالِهِ:

لَقَدْ أَنَا شيْءٌ عَجِيبٌ لِمَنْ تَرانِي أَنَا المُحِبُّ والحَبيبُ مَا ثَمَّ ثَانِي

يَا طَالِباً عَيْن الخَبَر غِطاهُ أَيْنُكْ الْخَمْر مِنْكَ وَالْخَبَرْ والسِّرُّ عِنْدَكْ

ازجِعْ بِذَاتِكَ واعْتَبِرْ مَا ثَمَّ غَيْرُكَ

وقال آخر:

---

(١) حديث الشريف رواه البخاري في أبواب عدة منها: باب أيام الجاهلية، حديث رقم (٣٦٢٨) [٣/ ١٣٩٥] ومسلم في صحيحه، كتاب الشعر، حديث رقم (٢٢٥٦) [٤/ ١٧٦٨] ورواه غيرهما. ونص رواية البخاري هو: «أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد
ألا كل شيء ماخلا الله باطل وكاد أمية بن أبي الصلت أن يسلم»

لاَ تَـظُـنَّ الأَمْـرَ عَـنْـكَ خَـارجاً ... هــو ذَوْق ثُــمَّ شُــرْبٌ ثُــمَّ رَيْ

وقال آخر:

أَنَــا مَــنْ أَهْــوَى وَمَــنْ أَهْــوَى أَنَــا ... نَـحْـنُ روحــان حَـلَـلْـنَـا بَـدَنَـا

وليس هُنَا حلولٌ ولا اتِّحاد؛ لنفي الْغَيْرية والإِثْنينية، حتَّى يَتَّحِدَ بالآخَرِ. كَانَ اللَّهُ ولاَ شَيءَ مَعَهُ وَهُو الآن على مَا عليه كَانَ[١]. «فَيَا عَجَباً كَيْفَ يَظْهر الوجود فِي الْعَدَمِ أم كيْف يثبتُ الحَادِث مَعَ من لَهُ وصْف الْقِدَمِ[٢]». وقول الشاعر:

نحن رَوْحان: أَشَار به إلى الرُّوحِ التي هي المَعْنى الْقَائِمة بِالأَشْيَاءِ. فَهِي قائِمَة بِالرُّوح. والرّوح قائمة بِالجِسْمِ. الجِسْم من تجليات الحقّ تجلى بِهِ وبَطنَ بَعْد تجلِّيه: بما أظهر فيه مِن أوْصاف الْعُبُودية؛ ليتحقق فيه اسْمُه الظَّاهِر، واسْمُه البَاطِن. ففي الحقيقة لا وُجُود للْعَبْدِ أَصْلاً. وَإِنَّمَا تُثْبِت العَبْدَ في عَالَمِ الفَرْق حِكْمَةٌ. وتنفيه في عَالَم الجَمع قُدْرَةٌ. فإِذَا اسْتَولى على العَبْد الجَذْبُ والفَنَاء أَصلاً غابَ عَن مقام الْفَرْقِ فَلَا عبْد أصلاً؛ وصار الطالب عَيْن المَطلوب. والمطلوب عيْن الطالب. والذَّاكر عيْن المَذكور وهذا الذي لاحظ الشيخُ بِقَوْلِهِ: وَطَالِبُنَا مَطْلُوبُنَا مِن وُجُودِنَا أي هو مِنْ عَيْنِ وُجُودِنا لا خَارِجاً عَنَّا نغيب به. أي بشهود مطلوبنا عَنَّا عَنْ وُجُودِنَا عَنَّا لَدَى الطَّعْنِ. أي عند الطَّعْن؛ وهُوَ زوال الْعَبْدِ وفَنَاؤه واضمحلالُه عِنْد سُطُوع أَنوارِ الْقِدَم على ضحضاح البشرية. فيفْنَى ما لم يكُنْ. ويبقى ما لَمْ يَزَلْ، وقوله: «إِذ عَنَّا» أي حين عَرَضِ هذا الطَّعْنِ. لوجود العبد الوهمي، نغيب عن وجودنَا. وعن كلّ شيْءٍ. وفي الحِكَم[٣]: «ليس العارف مَنْ إذا أَشارَ وجَدَ الحقَّ أقرب إليه من إشارتِهِ لهُ. لفنائِهِ في وجودِهِ وانطوائِهِ في شهودِهِ».. وقال أيضاً: «كيْف يحتجب الحق بشيْءٍ والذي يحتجب به هو فيه ظاهرٌ وموجودٌ حاضِر» وقال[٤] في التنوير: «أَبى المحققون

---

(١) حديث شريف سبق تخريجه.
(٢) جزء من حكمة لإبن عطاء الله السكندري.
(٣) العطائية لإبن عطاء الله السكندري.
(٤) الشيخ أحمد بن عطاء الله السكندري.

أنْ يشهدوا مَعَ اللَّه غَيْرهُ».

لِمَا حَقَّقَهُمْ بِهِ مِن شهودِ القيّومية. وإحاطةِ الدّيْمُومية. وقال الشيخ عبد الكريم الجيلي في عَيْنيته:

هُوَ مُوجِدُ الأَشْيَاء وَهُوَ وُجُودُهَا   وَعَيْن ذَوَاتِ الكُلِّ وَهُوَ جَوَامِعُ

لاَ تَطمَعْ أَنْ تَفْهم هذه الأسرار. إلاَّ بصُحْبة الرِّجَالِ، أَهْل الفناءِ والبَقَاء. وإلاَّ بقيتَ مَعَ أَهْل التَّنكر والانتقادِ على أَوْلياء اللَّهِ على الدَّوام. فَتبُوء بالخيبة والخسْرَانِ. والعياذ باللَّهِ.

ثم هذا المطلوب إنما ينال ويُدْرك بالحظوظ واللحُوظِ. كما أَبَانَ ذلِكَ بقَولِهِ:

تَرَكْنَا حُظُوظَنَا مِنْ حَضِيضِ لُحُوظِنَا   مَعَ الْمَقْصَدِ الأَقْصَى إلى الْمَطْلَبِ الأَسْنَى

قلتُ: الحُظُوظُ: ما تميلُ إليه النَّفْسُ وتَهْواهُ. واللُّحُوظُ: الالتفات إلى الحادِثِ. وقصده بالنَّظر. والْحَضِيضُ: المكَان المنخفض. يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: تركْنَا حظوظاً مِنْ حظوظِ أَنْفسِنَا التي تَهْوي بصاحِبِهَا إلى الحضيض الأَسْفلِ؛ بِسَببِ لحوظِهِ لغَيْر اللَّهِ. والتفاته إليه. فَعَبَّر عن حظوظ النَّفس بالحضيض. وهو التَّسَاقط إلى المَرْكَزِ الأَسْفل؛ لأَنَّها سببُه؛ لأَنَّ مَنِ انْهَمَك فِي اللُّحُوظِ قطعاً يَسْقط إلى الحضيض الأَسْفل. وأَضَافه إلى اللحوظِ؛ لأَنَّ الاشتغال باللُّحُوظِ مسبَّب عن لحُوظ الغَيْر، والالتفات إليه. أمَّا لَو اشْتغَل بِاللَّهِ لَنَسي حُظوظَهُ ولحوظَهُ.

وحَاصِل مَعْنَى البَيْت: تركْنَا حُظوظاً من حُظُوظِ النَّفْسِ التي تَهْوِي بنا إلى الحَضيض الأَسْفَلِ بِسَبَبِ لُحوظِنَا إيَّاها والتفاتِنا إليهَا. التي لا يَرْضَى بِهَا ذو هِمَّة عالية. ولا يتمكَّنُ مَعَها فتوح رَبَّانية.

والحظوظ ثلاثة: حظوظ جسمانية. وحظوظ قلبية. وحظوظ روحية. وكُلُّهَا تحجُبُ عَنِ اللَّهِ لِمَنْ وَقَفَ مَعَها.

فالجسمانية: كتمتع النَّفس بلذَّةِ المطاعِمِ والمشارب، والمَنَاكِحِ وما يَرْجع إلى ذٰلِكَ مما تتمتَّعُ به البشرية، ويزيدُ في حسِّهَا. إذا سكَن شيء منها في

القلب. لم يَرْحل إلى اللهِ أبداً ما دامَ ساكناً فِيهَا.

والقلبية: كحُبِّ المَالِ والرياسَة، والجاه والتقدم وحبِّ المَدْحِ والثناءِ والتعْظيم، وإقبال النَّاسِ وكاتصافه بالكِبْرِ والحسَد وغَيْرِهما مِن مَصَائِبِ القَلْب.

وهذه أَقبح من الأولى، وأصعب منها علاجاً.

واعْتَبِر بقصة آدم مع إبليس فكانَت شَهْوة آدم فِي بَطْنِهِ، فتداركه بالتَّوْبَةِ.

وكانت شهوة إبليس في قلبه، فَطُرِدَ وأُبْعِدَ.

والحظوظ الروحانية، كطلَبِ الكَرَامَاتِ، والوقوف مَعَ المقاماتِ وحَلاوَة الطَّاعاتِ.

وغَيْر ذلك من الخوارق. فكلهَا تقدم في العبودية التي هي سَببٌ في شهودِ الرُّبُوبية. ولذٰلِكَ قَالَ الشيخ ابن عطاء الله فِي الحِكَم: «الحَقُّ لَيْسَ بِمَحْجُوبٍ عَنك. وإِنَّما المحجُوبُ أَنْتَ عَنِ النَّظَرِ إِلَيه». ثُم قال: متَّصلاً بِهٰذِهِ الحِكمَةِ: «أُخْرجْ مِنْ أَوْصَاف بشريتكَ عَنْ كُلِّ وَصْفٍ مُنَاقِضٍ لعُبُودِيتكَ. لتكون لنداءِ الحقِّ مجيباً. ومِنْ حَضرتِهِ قريباً». فَكَأَنَّهُ قالَ: إنما حجبكَ عَنِ النَّظرِ إليه أوصاف بَشَريتكَ. أُخْرُجْ عَنْهَا يَحْصل لَكَ النَّظَرُ إلَيْه. وعلى هٰذَا المَسْلك سَلكَ النَّاظِمُ حيْث قَالَ: وطالبنا هو مطلوبنا. أقرب إِلَيْنَا مِنَّا مِنْ وجودِنَا. ثم قال: تركْنَا حظوظاً الخ. فَكَأَنه يَقُول: مطلُوبُنَا أقرب إِلَيْنَا مِنَّا. وإنما حجَبَ النَّاسَ عنهُ، الاشتغالُ بحظُوظِهِمْ ولحوظِهِم التي أَهْوَتْ بِهِمْ إلى الحَضِيض، فقد تَرَكْنَا ذٰلِكَ، فَوَجَدْنَا الطَّالب مِنَّا عيْن المطلوب.

وقولهُ: لا مَعَ الْمَقْصِد الأَقْصَى، أي مَعَ تَرْكِ المَقْصَد الأبْعد: وهو نَعِيم الجِنَانِ مِنَ القصور والحور التي هي الحسْنَى. فَهُو وإِن كَانَ ليْسَ مِنَ الحَظِّ العَاجِلِ، فَهُوَ لحَظ والتفَات إلى الْغَيْرِ وسَمَّاهُ المَقصد الأقْصَى؛ لأنه بعيد من حُظوظ هذه الدَّار وَعَامَّة الناس يقصدونه بِمعامَلتهم.

وقوْلُهُ: «إِلَى الْمَطلِبِ الأَسْنَى»؛ وهو الزِّيادة، التي هي المُشاهدة والترقي في أنوارها أبداً سَرْمداً. جعلنا الله من هٰذَا القبيل آمين. فتحصَّلَ أَنَّ الْعَبْد لا يدخل حضرة الشهودِ، حتى يترك الحظوظ كلها. ويَبْقى بقلبٍ مُفردٍ لِلهِ تعالى. كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ﴾. [الأنعام: ٩٤] وقيل للجُنَيْدِ: كَيْف

الْوُصُولُ إلى الانقطاع إلى الله عَزَّ وجَلَّ؟ فقال: «بتوبَةٍ تُزِيل الإصْرار، وخوف يقطع التَّسْويف، وَرَجاءٍ يَبْعَث على مَسَالِكِ العمل وإِهانة النَّفس بِقرْبِهَا مِنَ الأَجَلِ وَبُعْدِهَا مِنَ الأَمَلِ. قيل لهُ: بِمَاذَا يَصِل العبد إلى هٰذَا؟ قال: بِقَلْبٍ مُفْرِدٍ يزور.

ثم ذكر نتيجة ترْك الحظوظ واللُّحُوظِ؛ وهو كشف حجاب الكَائنَاتِ فقالَ:

وَلَمْ نُلْقَ كُنْهَ الْكَوْنِ إِلاَّ تَوَهُّماً ... وَلَيْسَ بِشَيْءٍ ثَابِتٍ هٰكَذَا الْفَنَا

يَقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَلَمْ نُلْقَ بِضَمّ النُّونِ، أي نَجِدُ كُنْهَ الْكَوْنِ، أي حقيقته، عند انكشافِ ظُلْمَةِ الحسّ إِلاَّ تَوَهُّماً، أيْ عَدَماً مَحْضاً؛ تَوَهَّمَ النَّاس أَنَّهُ شيء ثابِتٌ مَعَ اللَّهِ، وليس شيئاً ثابِتاً مَعهُ إِنَّما هُوَ كَالْهِبَاءِ فِي الْهَوَاءِ، إِنْ فَتَّشته لَمْ تَجِدهُ شَيْئاً خارجاً عَنْ أَنْوار الأُلُوهية، وإِنَّما الوجود لله وحْدَهُ. كَانَ اللَّهُ وَلاَ شَيْءَ مَعَهُ. وَهُوَ الآن على ما عَلَيْهِ كَانَ. على هٰذَا دَرَجَ أَهْل الأَذْوَاقِ، من أهل التوحيد قاطبة. وبِذٰلِكَ غَنَّوْا فِي أَشعارهم، كَقَوْلِ الْقَائِلِ:

مُـذْ عَـرَفْـتُ الإِلَـهَ لَـمْ أَرَ غَـيْـراً ... وَكَـذَا الْـغَـيْـرُ عِـنْـدَنَـا مَـمْـنُـوعُ
مُذْ تَجَمَّعْتُ مَا خَشِيتُ افْتِراقاً ... فَـأَنَـا الْـيَـوْمَ وَاصِـلٌ مَـجْـمُـوعُ
فَلَـمْ يَبْـقَ إِلاَّ اللَّـهُ لَـمْ يَبْـقَ كَـائِـنٌ ... فَـمَـا ثَـمَّ مَـوْصُـولٌ وَلاَ ثَـمَّ بَـائِـنُ
بِهَـا جَـاءَ بُـرْهَـانُ الْعِـيَـانِ فَـمَـا أَرَى ... بِـعَـيْـنِـي إِلاَّ عَـيْـنـه إِذْ أُعَـايِـنُ

إلى غَيْر ذلِكَ من مَوَاجِيدهم، وأَذْوَاقِهم رَضِيَ اللَّهُ عَنهُم. قال ابْن عَطَاءِ اللَّه في الحِكَم: «مَا حَجَبَكَ عَنِ الحقّ وُجودُ مَوْجُودٍ مَعَهُ إِذْ لاَ شَيْء مَعَهُ. وإِنَّما حَجَبَكَ تَوهُّم مَوْجودٍ مَعَهُ». وقال في التَّنْوير: «فما سوَى اللَّه تَعَالَى لاَ يوصف بِفَقْدٍ وَلاَ بوجُودٍ؛ لأَنه لاَ يُوجد مَعَهُ غَيْرهُ. لثبوب أَحَديتِهِ. ولاَ فقد لغَيْره؛ لأَنَّه لا يُفقد إِلاَّ مَا كَانَ مَوْجوداً. وَلوِ انهتَكَ حجاب الْوَهْمِ، لَوَقَعَ العِيان على فَقْدِ الأَعْيَانِ. وَلأَشْرَقَتْ نور الإيمَانِ، فَغَطَّى وُجود الأَكْوَان.

وقال في لطائف المِنَنِ: «وأَشْبَه شَيْءٍ بالكَائنات وُجُودُ الظِّلاَلِ فَالظِّلُّ لاَ موجود باعْتبار مَرَاتِب الوجودِ، وَلاَ معدوم باعتبار مَرَاتب الْعَدَمِ». واعتبار العَدَم

في الظَّاهر أقربُ؛ لأَنَّهُ خَيَالٌ لاَ حقيقة لَهُ. وتَشَبُّه الكَائنات بِالظِلِّ؛ لأَنه يُنْسَخُ ويُعْدَمُ عند وصُول الشَّمْس إلى مَحَلِّهِ، فَكَذلك حِسّ الأَوانِي يُعْدَمُ وَيُفْقَدُ، عِنْدَ طلوعِ شَمْس الْعِرْفَانِ عليه. فَإِذَا أَشرقت شَمْس المعانِي، ارتفع حِسُّ الأَوَانِي. وإليه الإشارة بقوله تعالى على طريق أَهْل الإشارة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾. [الفرقان: ٤٥] أي ظِلّ الكَائنات. ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾. [الفرقان: ٤٥] أي وَلَوْ شَاءَ لجعل ذلِك الظِّلَّ سَاكِناً. ما ارْتفعَتْ ظُلْمَتُه عنِ القلوبِ. ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ﴾، [الفرقان: ٤٥] أي شمس العِرْفَانِ ﴿عَلَيْهِ﴾ [:] أَيْ عَلَى ذٰلِكَ الظِّلِّ ﴿دَلِيلًا﴾ [:] حتى صار ذلكَ العارف يشتغل باللّٰهِ على غَيْرِهِ ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ﴾ [الفرقان: ٤٦] على قلوب المتوجّهينَ ﴿قَبْضًا يَسِيرًا﴾: [الفرقان: ٤٦] شَيْئاً فَشَيْئاً. على حَسَبِ التصفية والترقية حتَّى يَنْقطِعَ بِالكلية. وقد أَشَار النَّاظِم في بعض أَزْجالِهِ إلى هٰذَا المعْنَى فقال:

تجلَّتِ المعاني وغَابت الظِّلالُ كُسِّرت الأَوَانِي وَمُزِّقَ المِثَالُ

وقال ابن عطاءِ اللّٰهِ فِي الحِكَم: «الأَكان ثابتة بِإِثْبَاتِهِ، مَمْحوَّةٌ بِأَحدية ذَاتِهِ. لاَ يَدُلُّ على ثُبُوتها اسْتقلال. وإِنَّما الْمُرَاد أَنَّه أظهر حِسهَا لِيُعْرَفَ بِهَا ثم مَحَاهَا بِأَحَدِية أَسْرار ذَاتِهِ؛ وهي المَعَاني الْقائمة بِهَا قيام الثلْجَةِ بِالْمَاءِ، فإذا ظَهَرَ الْماء بدون الثلجة، فَلاَ ثَلْجَةَ كَمَا قال صَاحِب الْعَيْنية[1]:

وَمَا الكون فِي التِّمْثَالِ إِلاَّ كَثَلْجَةٍ وَأَنْتَ بِهَا الْمَاءُ الَّذِي هُوَ نَابِعُ
وَمَا الثَّلْجُ فِي تَحْقيقِنَا غَيْرُ مَائِهِ فِي حُكْمِ دَعَتْهُ الشَّرَائِعُ

وقَوْلُهُ: هٰكذا الفَنَاءُ: أيْ هكَذَا حَقِيقة الْفَنَاءِ: مَحْو الأشياء واضْمحلالها كما قال الشيخ أَبو الْمَوَاهب: «حقيقة الْفَنَاءِ مَحْوٌ واضمحلالٌ. وَذهاب عَنْكَ وَزَوَالٌ وَمِنَ الأَشياء وجود النَّفْس، فَلاَ يحقق العَبْدُ الفَنَاء حتَّى يغيب عن وُجُودِهِ، ووجود الكَون بِأَسْرِهِ في شهود وجود محبوبِهِ». وفي نسْخة الشيخ زروق: «وليْس بشيْءٍ ثابِتٍ هكذَا الفَنَاء». قال يعْني هَكذَا وَجدْنَا إشارة إلى أَنَّ

(١) هو الشيخ عبد الكريم الجيلي من صوفية القرن الثامنة الهجري مؤلف كتاب «الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل» توفي سنة ٨٠٥ هجرية.

معرفَتَهم من طريق الذَّوْقِ والمُنَازلة لاَ مِنْ طريق العِلْم والمُحاولة. قلت: وهو غَيْر جيّد؛ لأنه يُؤدي إلى نَوْع تِكْرارٍ مَعَ أَوَّل البَيْتِ لأَنَّ قوله: وَلَمْ نَلْقَ، أي نَجِدْ صريحاً في الذَّوْقِ والْوُجْدَانِ، فَلاَ مَعْنَى لإِعَادَتِهِ. واللَّهُ تعالى أَعْلَمُ.

ثم ذكر ما أنتج هذا الوجدان فقال:

فَرَفْضُ السِّوَى فَرْضاً عَلَيْنَا لأَنَّنَا بِمِلَّةِ مَحْوِ الشِّرْكِ وَالشَّك قَدْ دِنَّا

يَقُولُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَرَفْضُ السِّوَى، أَيْ طَرْحُهُ والغَيْبة عنهُ فَرْضٌ وَاجِبٌ علَيْنَا معشر الموحِّدِينَ. وهذا البيْت مُرَتَّبٌ على ما قبْله؛ لأَنَّ مَن وَجَد الكَوْنَ توهُّماً لاَ حقيقة لِوُجُودِهِ ـ والكَوْن كلُّ ما سِوَى اللَّهِ ـ تَعَيَّن عليه رَفْضُهُ، وعدم اعْتباره، نظراً واعتباراً. ومحبَّة واسْتناداً. فَلاَ يَرَى في الوجود إلاَّ اللَّهُ. وَلاَ يعْتمد في أُمُوره إلاَّ عليْه. كما قال الشَّاعِرُ:

حَـرَامٌ عَـلـى مَـنْ وَحَّـدَ الـلَّـهَ رَبَّـهُ وَأَفْـرَده أن يـحْـتـذي أَحـداً رِفْـداً
فَيَا صَاحِبِي قِفْ بِي عَلَى الحَقِّ وَقْفَةً أَمُوتُ بِـهَا وُجْداً وَأَحيَا بِـهَا وُجْداً
وَقُلْ لِمُلُوكِ الأَرْضِ تَجْهَدُ جُهْدَهَا فَذَا المُلْكُ مُلْكٌ لاَ يُبَاعُ وَلاَ يُهْدَى

وكذلكَ لا يميل لمحبَّة شيءٍ من حُسْن الكَائِنَاتِ، وإنما يَتَعَشَّق إلى أَسْرار الْمَعَانِي؛ التي هي وَجْه الرَّحْمٰن. فَافْهَمْ؛ لأَنَّ مَنْ سَابقَتْه المَعَانِي، لاَ يَلْتَفِتُ إلى جَمَالِ صُوَرِ الأَوَانِي. وغابَ عَنهَا فِي جَمَالِ المتجلِّي بِهَا فيَغيب بِحَلاَوَة لَذَّةِ الشُّهُود، عَنْ جَمَالِ كل مشهودٍ.

ثم علَّلَ رَفْضهُمُ السِّوى بِقَوْلِهِ: لأَننا بِمِلَّةِ مَحْوِ الشِّركِ والشَّكُ قَدْ دنَّا؛ أي لأَننا تمسَّكنا بِملَّة الحنَفية الإِبْرَاهيمية؛ التي جاء بها رسولُنَا عليه الصَّلاة والسَّلاَمُ؛ وهي مؤسَّسَة على محو الشرْكِ وَرُؤْية الْغَيْر عن عيْن القَلْبِ؛ لأَنَّ إبراهيم عليه الصَّلاَة والسَّلاَمُ، حين زُجَّ بهِ فِي المنجنيقِ. وَرُمِيَ بِهِ فِي النَّارِ، تَعَرَّضَ لَهُ جبريل في الْهَوَاء، فَقَالَ لَهُ: أَلَكَ حَاجَةٌ؟ فقال: أَمَّا إِلَيْكَ فَلاَ. وأَمَّا إِلَى اللَّهِ فَبَلَى. فقال جبريل: سَلْهُ فقال إِبْرَاهيم: «عِلْمُهُ بحَالِي يُغْنِي عن سُؤَالِي». فَلَمْ يلتفِتْ إلى الواسطةِ قطعاً. ولم يشرِكْ في تملّقه أَحَداً، سوَى مَوْلاهُ الذي لاَ يخفى عليْه. وكذلك محْو الشَّكِّ والرِّيبَة، فَإِنه عليه السلامُ، طَلَبَ الانتقَالَ مِنْ عِلم اليقين، الذي يمكِن أَنْ يُزاحِمَه خاطِر تُهْمَة، إلى عَيْن

الْيَقين؛ الَّذِي لاَ يَبْقى مَعَهُ وَهْمٌ، وَلاَ رِيبَة أَصْلاً. إِذ لَيْسَ الخَبَرُ كالْعِيَانِ. وذلِكَ حينَ قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٠] الآية. فَأسعَفه الحق تعالى في ذلِكَ، حتَّى انتقل مِنْ علم اليقين. إلى عَيْن اليقينِ. وَهٰذَا مَعْنَى قَوْله: لأَنَّنَا بِمِلَّة مَحْوِ الشِّرْكِ والشَّكِّ قَد دِنَّا. أيْ اتَّخذنَاهُ دِيناً، نتمسَّكُ بِهِ ظَاهِراً وَبَاطِناً. وعلى هٰذَا يَدُور فلك قُطْب التَّصَوف، بِحيْثُ لاَ يَبْقَى فِي الْقَلْب ريبَة، وَلاَ تهْمَة في ظهور الحقّ وانفرادِهِ بِالوجودِ؛ لأَنَّهُمْ بَلَغُوا رُتْبَة الْعِيَانِ وَارْتَفَعُوا عن مقام غَيْب الإِيمان. كذلكَ الأمور الموعود بِهَا. صارت عِنْدَهُمْ كَأَنَّها حاضرة لدَيْهم حتى صَارُوا بِحَيْث لوْ كُشف الغِطَاء عَنْهَا وظهرتْ، ما ازدادوا يقيناً كما قال سيّدنا عليّ كرَّم اللَّهُ وَجْهَهُ، وكما قال حارثة فِي قصَّته[1] المشهورة حينَ سُئِلَ عَن حقيقة إِيمَانِهِ. وكذلكَ مُعَاذ بن جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم.

ثم التفَتَ إلى ما قدَّمناه من مُشاهدة نَفْي المُكَوَّنِ مع وجود رفضِهِ. ورأى ذلكَ كالتناقض فقال:

وَلٰكِنَّه كَيفَ السَّبِيلُ لِرَفْضِهِ   وَرَافِضُهُ الْمَرْفُوضُ نَحْنُ وَمَا كُنَّا

قلت: «رَافِضُهُ» مُبْتدأ. و«المرفوضُ» خَبَرٌ، و«نحْن» خَبَرٌ عن مُضمر يعود على الرَّافِضِ وهو «نَحنُ»، وَ«مَا كُنَّا» حالٌ.

يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قد قَدَّمنا أَنَّ رَفْضَ السِّوَى فَرْضٌ علَيْنَا، ولكنَّهُ إِشكال؛ وهو أَنْ نقول: كَيْفَ الطريق إلى رفْضِه. والرافض هو المرفوض. والمرفوض عينُ الرافضِ؛ لأَنَّ الجَميع سِوى، وهو مصدرٌ محض. فالرافض هو نَحْنُ. وَمَا كُنَّا شيئاً، بل عَدَماً محضاً لاَ كنَّا من جملة السِّوَى فتحصَّلَ: أَنَّ الحقَّ تعالى، هو الَّذِي فَعَلَ جميعَ ذلكَ، حتَّى عَرَف نَفْسه بِنَفْسِهِ وَأَزَال المَوَانِعِ

(١) ونص القصة هو: عن الحارث بن مالك الأنصاري أنه مر برسول الله ﷺ فقال له كيف أصبحت يا حارث قال أصبحت مؤمنا حقا فقال انظر ما تقول فإن لكل شيء حقيقة فما حقيقة إيمانك فقال قد عزفت نفسي عن الدنيا وأسهرت لذلك ليلي وأظمأن نهاري وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزا وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها فقال يا حارث عرفت فالزم ثلاثا» (المعجم الكبير للطبراني، [باب] (٢٨٢ الحارث بن مالك الأنصاري) حديث رقم (٣٣٦٧) [٣/ ٢٦٦].

عن ذَاته بِذَاته وَيُجَابُ بأَنَّ الحق جل جَلاله، لمَّا تجلَّى بِاسْمِهِ الظَّاهر، من عَالَم الغَيْبِ إلى عَالَم الشهادَةِ تجلَّى أَيْضاً بِاسْمه الباطِنِ، فبطن في ظهوره، واختفى في حالِ تجلِّيهِ؛ وذلكَ بِمَا أَسْدَلَ عَلَى وَجْهِهِ من رِدَاءِ كِبْرِيائِهِ؛ وهي رِداء الحُسْنِ، ويسمَّى هذا الرداء، عَالم الحِكْمَة، وَعَالَمَ الأَشباح، وعَالَمَ الفَرْقِ وإنما تَرَدَّى بِذلِكَ؛ لِيَبْقَى الكَنْزُ مَدفوناً والسرُّ مصوناً. فسُبحان المُدَبِّر الحكيم العليم. فَلَمَّا بَرَزَتِ الروح مِنْ عَالَم اللطافة والصَّفَاءِ، إلى العَالَم الحسِّي، انْسَدَلَ عَليها الحجاب، مِن جُملَةِ مَنِ انسدل عليهِمْ. فَمَا فَتَحَتْ عيناها إلاَّ في هذا العالم الحِسِّي فعشقته وَمَالَتْ إليه وتَاهَتْ فِي فروقِهِ ونَسِيَتْ أَصْلَهَا. وَجَهلتْ رَبَّهَا، فَبَعَث اللَّهُ تعالى مَنْ يُعَالجها من الأَنْبِيَاءِ والرُّسلِ وَخُلَفَائهم مِنَ الأولياءِ الفحُولِ فَأَمرُوهَا بالأَدَب مَعَ الرّبوبية في الظَّاهِرِ فَعَلَّمُوهَا ثم أَمَرُوهَا بالأَدَبِ فِي الباطِنِ مَعَهُ؛ وهو تَرْكُ الحظوظ واللحوظ، ورفضُ كُلِّ مَا يشغل عن اللَّهِ؛ وَهُوَ المُعَبَّر عنه بِالسُّوى، فَإذا فَعَلَتْ ذٰلِكَ، رَجَعَتْ إلى أَصْلها، وشاهدتْ أَسْرار رَبِّهَا. وتَنَزَّهَت فِي جَمَال ذَاتِهِ. حين ارْتفَع عَنْهَا رِداء الْحِسِّ. فَظَهَرَ حينئذ بِهذا الاعْتبار الرافضُ والمرفوض وانحَلَّ الإِشْكالُ الذي توهَّمُوه. وأمَّا لو تركْنا هذا الاعتبارَ لبطلتِ الأحكامُ والحِكْمة، وهذا كفْر وزندقة. فالواجِبُ على العارِف أنْ يكُون لهُ عَيْنَانِ: عيْن تَنْظر لعَالمِ الجَمْعِ؛ وهو مقام الفناءِ فَلاَ يَرَ إلاَّ الحقّ متجلّياً بِاسْمه الظَّاهِرِ؛ وهذا هو الحق في عيْن الحقيقة. فَيُثْبِتُ الحِكمة والأحكَام ويُسَمَّى هٰذَا المَقَامُ مقام البَقاء، فيكون كامِلاً مجموعاً فِي فَرْقِهِ. مفروقاً في جَمْعِهِ. يُعطِي كل ذي حق حقَّهُ. ويُوَفِّي كلَّ ذِي قسْطٍ قسْطهُ.

وبهذا الاعتبار غنَّى الشاعِرُ شاكياً، لِمَا أُشْكِلَ عليه مِن ذلك فقالَ:

الـعَـبْـدُ حَـقٌّ والـرَّبُّ حَـقٌّ ... يَـا لَـيْـتَ شِـعْـرِي مَـنِ الـمُـكَـلَّـفُ
إنْ قِـيـلَ عَـبْـدٌ فَـالْـعَـبْـدُ مَـيْـتٌ ... أَوْ قِـيـل رَبٌّ أَنَّـى يُـكَـلَّـفُ

فأجاب شيخُ شيوخنا سيدي عبد الرحمن الفاسي فقال:

نَـعَـمْ بِـحَـقٍّ إِثْـبَـاتِ عَـبْـدٍ ... بِـنَـعْـتِ فَـرْقٍ بِـهِ يُـكَـلَّـفُ
والْـعَـبْـدُ مَـيْـتٌ بِـكُـلِّ حَـالٍ ... لِـسِـرِّ عَـوْنٍ بِـهِ مُـكَـلَّـفُ

فالْعَبْدُ في الحقيقة لاَ وجود لهُ من ذَاتِهِ أَصْلاً. لكِنْ لمَّا تجلى سبْحَانَهُ

بِمَظْهَرِ الرُّبوبية، في قَوالب الْعُبُودية، سُمِّيَ ذلك المَظْهَر باعتبار القَالب عبْداً؛ وهو محذوف باعتبار الْمَظْهَرِ. فإنْ نَظَرْت إلى مطلق التَّجَلّي، رأيْت عَظيمَة قَدِيمة أَزلية وَلاَ عَبْدَ. وَإِنْ نظرتَ إلى تطوير ذلِكَ التجلّي بِشكل الْعَبْد وَصُورَتِهِ. رأَيْت عبداً فقيراً وإِلَى ذلك أَشار في الحِكَم بقولِهِ:

سُبْحَانَ مَنْ سَتَرَ سِرَّ الخصوصية، في وَصْف البَشَرية، وَظَهَر بعظَمة الرُّبوبية في إظهار العُبُودية. وأمَّا قول الشَّاعر:

أَرَبٌّ وَعَبْدٌ وَنَفْيُ ضِدِ ... قُلْتُ لَهُ لَيْسَ ذَاكَ عِنْدِي

فَقَالَ مَا عِنْدَكُمْ فَقُلْنَا ... وُجُودُ فَقْدٍ وَفَقْدُ وِجْدِ

توحيدُ حقٍّ بِتَرْكِ حَقٍّ ... وليْسَ مِنْ سِوَايَ وَحْدِي

فَإِنَّمَا أنكر وجود العَبْد مسْتقلاً مفْروقاً كما هو اعتقاد عامَّة أَهْل الدَّليل والْبُرْهَان مِن أَصْحاب اليمينِ. وَهُوَ مُحَالٌ مُنكَّر عندَ العَارِفين المُقَرَّبينَ وإنما أطَلْتُ الكَلامَ هُنَا؛ لأَنَّ هذه المَسْأَلة خَفِيَتْ عَنْ كثير ممَّن ينتسبُ للوجدان والعِرْفان فضلاً عن غَيْرهم وباللَّهِ التوفيق.

ثم نَهَى المريد عن نسْبة الفعل إلى نفسه مَعَ كَوْنِهِ لاَ وجود له مع ربِّه بِنَاءَ على مَا تَقَدَّمَ لهُ. فقال:

فَيَا قَائِلاً بِالْوَصْلِ وَالْوَقْفَةِ الَّتِي ... حُجِبْتَ بِهَا ارْجِعْ وَارْعَوِي مِثْلَ مَا أُبْنَا

قلت: إِرْعَوْ أَمْرٌ مِنْ ارْعَوَى، بِمَعْنَى انزَجَرَ. ومنْهُ قول الشاعِرِ:

أَلاَ ارْعِواء لِمَن ولَّتْ شبِيبَتُهُ ... وَأَذِنَتْ بِمَشِيب بعده هَرَمُ

وَإِثْبَات الياءِ في الأَمْرِ للوَزْنِ. ومثل صفة لمصْدَرٍ محذوفٍ. وَمَا مَصْدَرية، وأُبْنا بِضَمِّ الْهَمْزِ من آب، أي رجعَ كقلنا من قال. أي انزَجِرْ وَارْجِعْ عن ذلِك، رجوعاً مثل رُجُوعِنَا. يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مُنْكِراً عَلَى من يَدَّعِي الوصول إلى اللَّه بنفْسِهِ، أيْ بحولِهِ وقوَّتِهِ أَوْ بمجاهَدته وَرِياضته. وَعَلَى مَنْ يشتكِي الْوِقفَة مِنْ نَفْسِهِ إذ كِلاَهما عِلَّةٌ فِي الطَّرِيقِ وشِرْكٌ كَادَ أَن يكون جَلياً عند أَهْل التحقيق. فقال: يا قائلاً بالوصول إلى اللَّه بنفسِهِ وبمجاهدتِهِ. يا قائِلاً بالوَقْفَةِ، والفترة عن السَّيْر التي حُجِبْتَ بِهَا عن الوصول اسْمَع ما أقول لك في

نصيحَتي، وارْعَوِ. أي انْزَجِرْ عن هذه المقالة. وارْجِع إلى الله بالتوبة والاستغفارِ رجوعاً مثل رُجُوعنَا. فقد كنا في هذا المحلِّ ثم تُبْنَا، وَرَجعنا إلى الله عَنْهُ. فَإِنَّ ادِّعَاء الْوُصُول إلى اللّهِ، مع وجُودِ النَّفس، دَعْوى وكذب. واعتقاد الوصول بالعملِ علة وشرْكٌ. فيجب على العَبْد التَّوْبَةُ مِنْ جميع ذلكَ. فالواجب حينئذ الدّخول على اللّه من بَابِ الكَرَمِ لاَ مِن بَابِ العَمَلِ فَمَن دَخَل منْ بَاب الكَرَم وجَدَ البَابَ مَفتوحاً. وَمَنْ دَخَلَ مِن باب العمل وَجَدَ الْبَاب مَغْلُوقاً. وفي الحِكَم: «لَوْ كُنتَ لاَ تَصِلُ إلَى اللّهِ إلاَّ بعد فَنَاءِ مَسَاوِيكَ ومحو دعاويك لن تَصِلَ إليه أَبَداً. ولكن إذا أَرَاد أَنْ يُوصلك إِلَيْه، غَطَّى وصْفكَ بِوَصْفِهِ وَنَعْتكَ بِنَعْتِهِ، فَوصلك إليه بِمَا منه إِلَيكَ. لاَ بِمَا مِنْكَ إِلَيْهِ».

وكذلكَ القائل بالوَقفة؛ وهي الفَتْرَة التي تَعتري المريد في السَّيْرِ، بحيْث تَبْرُد قريحتُهُ وتنْحَلُّ عَزِيمتُهُ. وَلاَ يَنْبَغِي أَنْ يُظهرهَا إِلاَّ لشيْخِهِ، وَلاَ يشتكِي بِهَا لِغَيْرِهِ. إذ كُلّ ذٰلِكَ مِن اللّهِ امتحاناً لعَبْدِهِ. فَلْيَثْبُتَ فِي الطريقِ، وَيُلاَزِم صُحْبَة أَهْل القوّةِ والتحقيقِ. وَقَال بَعْضُهُمْ، الفَرْقُ بيْن الْوَقفة والفترةِ. أَنَّ الوَقفَة تردّد. بل حتى يَمُنَّ الكريمُ الوهَّاب عليه بالقوةِ. فليتحقق بيْن الأَقْوياءِ من ذَوِي التحقيق.

وقال بَعْضهُمْ: الفَرْق بيْن الوقفَة والفترة. أَنَّ الوقفة تردّد فِي صحّة الطَّريق.

والفَتْرة: ضَعْف القريحة؛ والعَزْم مَعَ الجَزْمِ بِصحَّة الطَّريق فالوقفَة أَقْبَحُ من الفَتْرةِ. فَإِذَا جَزَمَ بِعَدَم صحّة الطريق؛ فهو رُجُوع والعياذُ باللّهِ.

وحاصل كَلام الناظم: تحقق الفناء عن النفس، والغَيْبة عَنْهَا بِالكلية. فَلا يُنْسَب إليها، وَصْلاً وَلاَ وقفاً. وَلاَ قوة وَلاَ ضعفاً. إذ الكلُّ مِنَ اللّه تعالى، ولِذلكَ قال الشيخ الأكبر محيي الدّين بن عربي رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ:

«مَنْ شَهِد أَنَّ الخلقَ لاَ فِعْل لَهُمْ فَقَدْ حَازَ، ومنْ شَهِدهُمْ لاَ حَياةَ لَهُمْ فَقَدْ فَازَ. ومن شَهِدَهم بِعَيْنِ الْعَدَمِ فَقَدْ وَصَل». وأَنْشَدُوا فِي ذٰلِكَ:

مَنْ أَبْصَرَ الخَلْقَ كَالسَّرَابِ   فَقَدْ تَرَقَّى عَنِ الحِجَابِ
إِلَى وُجُودٍ يَرَاهُ رَتْقاً   بِلاَ ابْتِعَادٍ وَلاَ اقْتِرَابِ

وَلَــمْ يُــشَــاهِــدْ بِــهِ سِــوَاهُ هُــنَـاكَ يُـهْـدَى إِلَـى الـصَّـوَابِ
فَــلاَ خِـطَـابٌ مِـنْـهُ إِلَـيْـهِ وَلا مُـشِـيـرٌ إِلَـى الـخِـطَـابِ

فَقَوْلُهُ: فَلاَ خطَابٌ منْهُ إليه: يشير إلى قَوْلِهم: مَن عَرَفَ اللَّهَ كَلَّ لسَانُهُ، فالضَّمِير فِي مِنْهُ يعود على مَنْ أَبْصَرَ. واللَّهُ تعالى أَعْلَمُ.

ثم بيَّنَ أَصْلَ الْعِلَلِ فَقَالَ:

تَـقَـيَّـدتَّ بِـالأَوْهَـامِ لَـمَّـا تَـدَاخَـلَـتْ عَلَيكَ وَنُورُ الْعَقْلِ أَوْرَثَكَ السِّجْنَا

يَقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِمَنْ وَقَفَ مَعَ الاسْتِدْلاَلِ، وَقَنَعَ بِمَقَام الإِيمَانِ: لَمَّا تَدَاخَلَتْ عليكَ الأَوْهَامُ والشكوك والخَوَاطر. تَقَيَّدتَ بِهَا، وحُجِبْتَ عن مَقَام الإِيمَانِ. وَالْمُرَادُ بِالأَوْهَام وَهْمُ وجودِ الكَوْنِ واسْتقلاله ومشاهدةِ الأَثَرِ فوقف مع ظلمة حِسِّهِ وَلَمْ يَشْهَد الحقَّ قَبْلَهُ وَلاَ بَعْدَهُ، فَأَعْوزَه وجود الأَنْوَارِ وحُجِبَتْ عنه شموسُ المعارف بسحُبِ الآثار وَوَهْم تخلّف ضَمَان الرِّزق، فَاشتغَل بتحصيل أَسْبابِهِ، واجْتهادِهِ في جَمْعه واحتِكَارِهِ فَأَعْوَزَهُ أَنْوَارُ التوكّلِ، وتظلَّمَ باطِنُهُ بِهَمِّ الرِّزْقِ، وخَوْف الفقر وَوَهْمِ ضَرَرِ الخَلْقِ، وَنَفْعهم، فَاشتغَل باطِنُهُ بتحصيل أَغْرَاضِهِمْ، وتظلَّم بِالْخَوْفِ مِنْهُمْ.

فهذه هِيَ الأَوْهَامُ التي تداخَلَتْ قلوب أَهْلِ الحِجَابِ. فبقوا من وراء الباب. وتَدَاخُلُ الأَوْهَام هُوَ تَرَدُّدُها وتَرَادُفُها على الْقَلْبِ حَتَّى انحَصَرَتْ فِكرَتهُ فيهَا. وتقيَّد قَلْبُهُ مَعَهَا. والوقوف أيضاً مَعَ نور الْعَقْل يُورث السِّجْنَ؛ وهو البَقَاءُ مَعَ دَائِرة الأَكْوَانِ؛ لأَنَّ الْعَقْلَ غاية مَدْركِهِ، يَدْرِك: أَنَّ الصَّنْعة تحتاج إِلَى صَانِع، وَلاَ يَنْفذ نُورُه إلى تَرق مِنَ الكَائِنَاتِ، حتى يَفْضِيَ إلى أَسْرَار المعَانِي؛ وشُهُودِ المُكَوِّنِ؛ لأَنَّ ذلِكَ مِن مَدَارِكِ الرُّوحِ والسِّرِّ. فَإِذَا رَجَعَتِ الرّوحُ، وغَلَبَ عليْها ذكر اللَّهِ. فُتِحَتْ لَهَا مَيَادِين الْغُيُوبِ وخرجَتْ فِكْرَتُهَا عن دائرة الأَكْوانِ إلى فَضَاءِ شهود المُكَوِّنِ. وإلى ما ذكره النَّاظم، أَشَار فِي الحِكَم بِقَوْلِهِ: «الكَائِن فِي الكَوْنِ ولم يُفتح له ميادين الْغُيوبِ، مَسْجُونٌ بِمُحِيطَاتِهِ. مَحْصُورٌ فِي هَيْكلِ ذَاتِهِ». وهذَا الأَمْرُ لاَ يَفهمهُ إلاَّ أَهْل الأَذْوَاقِ وإِلاَّ فَحَسْبُهُ الإِيمان بِاللَّهِ، والتَّصْدِيق بِوُجُودِهِ عِنْدَ أَرْبَابِهِ.

وقد تُحْجَبُ القُلُوبُ بِالأَنْوَارِ، كما تحجَبُ بالأَغْيَارِ، وإلى ذَلِكَ أَشَارَ

بِقَوْلِهِ:

وَهِمْتَ بِأَنْوَارٍ فهِمْنَا أُصُولَهَا وَمَنْبَعَهَا مِنْ أَيْنَ كَانَ فَمَا هِمْنَا
وَقَدْ تَحْجُبُ الأَنْوَارُ لِلْعَبْدِ مِثْلَ مَا تَقَيَّدَ مِنْ إِظْلاَمِ نَفْسٍ حَوَتْ ضِغْنَا

يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ: وَهِمْتَ أَيُّهَا الْعَبْدُ المَحْجُوب عَنِ اللَّهِ، أي تِهْتَ وَتَلفتَ عَنِ السَّيْرِ إلى حضرةِ الحقِّ وشُهُودِهِ، بِأَنْوَارٍ قد فَهِمْنَا نَحن أُصُولَها. ومِن أَيْنَ تَفَرَّعَتْ ومَنْبَعَهَا، ومن أَيْنَ نَبَعَتْ وظَهَرَتْ. ومن أَيْنَ كَانَتْ. فَمَا هِمْنَا أيْ فَمَا تِهْنَا عَنْ طَرِيقِ الحقِّ؛ بِالوقوفِ مَعَهَا، والرُّكُون إِلَيْهَا. وذلِكَ كَأَنْوَارِ حَلاَوَةِ الطَّاعَاتِ، وَلَذَّةِ المُنَاجَاةِ. وَظُهُور الكَرَامات، والتنزّه في المقاماتِ للعُبَّادِ والزُّهَادِ والصَّالحين. فَقَدْ وَقَفُوا مَعَهَا وَاعْتَمَدُوا عَلَيْهَا وَرَأَوْا غَايَة الْوُصُول؛ وهم أَشدّ حجاباً عَنِ اللَّهِ. لا يخرجهم مِن ذٰلِكَ. إلاَّ صُحْبَة شيخ كَاملٍ، بنور محرق، وكتحقيق المَسَائل وتحرير النوازلِ. والتَّفَنُّن فِي أَنواع العلوم الشَّرْعيةِ، وَهٰذَا حجاب كَبير للعلماءِ يَرَوْن بذلِكَ أَنَّهُمْ حَازُوا قَصَبَ السَّبْقِ فِي الكمالاتِ؛ وهم باعتبار الرِّجَال فِي بِدَاية البداياتِ. وَلاَ يخرجهم من ذلكَ إلاَّ حَطُّ رُؤُوسِهِم للعارفينَ من مشايخ التَّرْبية، وكتحقيق الأدِلَّة العقلية والنقلية في معرفة الحقِّ من طريق الاسْتدلالِ؛ وهُوَ من أقبح الحجاب لعلمَاءِ الكَلاَمِ وقِسْ على هَذَا سَائر العلوم والأحوال والواردات. فَمَنْ وقف مَعَ شَيْءٍ من هذه الأنوار لَمْ تنفُذْ بصيرته إلى شهودِ ذَاتِ الحقِّ؛ فهو محجوب عن رؤية النّور الأصْلِي. فقد فَهِمْنَا هذه الأنوار، وعَلِمْنَا أصْلها ومَنْبَعَهَا فَرحَلْنَا عنهَا، وما هِمْنَا بالوقوف مَعَهَا.

وفي بعض الإشارات عن الله تعالى يقول: «يا عَبْدِي لاَ تَرْكَنَنْ إلى شَيْءٍ دُونَنَا فَإِنَّكَ إن رَكَنتَ إلى العِلْم جَهَّلْنَاكَ فيهِ. وإِنْ ركَنتَ إلى العمل رَدَدْنَاهُ عليكَ. وإِنْ رَكَنتَ إلى حَالٍ وقفْنَاكَ مَعَهُ. وإِن ركَنتَ إلى مَعْرفةٍ نكَّرْنَاهَا عليك فَأي حيلة لكَ؟ فكُن لنَا عبْداً حتَّى نكُونَ لك رَبًّا». أو كما قال تَعَالَى.

وقال في الحِكَم: «لاَ تطلُبْ بَقَاءَ الوارداتِ بَعْدَ أَنْ بَسَطَتْ عَلَيْكَ أَنْوارَهَا. وأَوْدَعَتْ عليك أَسْرَارَهَا فَلَكَ فِي اللَّهِ غِنىً عَنْ كل شيءٍ، ولَيْس يُغنيكَ عنه شيءٌ».

ومن هذا أَيْضاً، قَوْلُ الشيخ مَوْلانا عبد السلام بن مشيش رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ

في شأن مقام الرضَى والتَّسْليم: «أَخَافُ أَنْ تشغِلَنِي حَلاَوتهما عن اللَّهِ وبعد هٰذَا فَمَنْ لَمْ يَتَّصِلْ بشيخ التَّرْبية لاَ يطمع في الرَّحِيل عن هذه الأمور أَبداً. ولَوْ عمل ما عملَ».

وقوله: «وقد تُحْجَبُ الأنوار للعبد» إلخ. هو تقريرٌ لمَا قَبْلَهُ. والمراد بالأنوارِ ما تقدَّمَ مِنْ حَلاَوةِ الطاعات، وتحقيق المقاماتِ، وتتابع الأحوال والسكَرَات وفيْض العلوم الرَّسْمِيَّاتِ. فقد تُحْجَبُ هذه الأَنْوَار للعَبْدِ إِذَا استحْلاَهَا، وَوَقَفَ مَعَهَا وتُسَمَّى أَنْوَارَ التوجُّهِ. قال فِي الحِكَم: «اهْتَدى الرَّاحلونَ إليه بِأَنْوَار التوجُّهِ. والواصلونَ لهم أَنوار المْوَاجَهَة. فَالأَوَّل للأنوار. وهؤلاء الأنوار لَهُمْ؛ لأَنهم لهُ. لاَ لشيْءٍ دونِهِ. قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾. [الأنعام: ٩١]

وأَنوار المواجهة؛ هي أَنوار الشهودِ؛ لأنهَا تواجه الْعَبْدَ، فيغرقُ فيها ويَغيبُ عن رُؤْية الأغيَار؛ وهو مَا سِوَى اللَّهِ. وقوله: «مثل ما تقيَّد مِن إِظْلاَمِ نَفْس حَوَتْ ضِغْنَا». أيْ تحجبُه الأنوارُ، وتقيِّده عن النهوضِ إلى اللَّهِ. مثل تقييدِهِ مِنْ أَجْل ظلم نَفْسٍ، حيْث غَيَّبتِ القَلْبَ بظلماتِ الْهَوَى، والحظوظ حينَ حَوَتْ ضِغْناً، أيْ خبْثاً فِي الباطِنِ؛ وهي سَائر الأمْرَاضِ مِنَ الحسَدِ والكِبْرِ، والحقد وغيرها مِمَّا هو مُقَرَّرٌ فِي مَحَلِّهِ. وَحَوَى الشَّيْءَ: ضَمَّهُ وصار في حَوْزِهِ.

ثم نَهَى عَنْ دَعْوَى الوِصَالِ والأَمْنِ مِنَ السَّلْبِ والرجُوعِ فَقَالَ:

وَأَيُّ وِصَالٍ فِي الحقِيقَةِ يُدَّعَى أَكْمَلُ مَنْ فِي النَّاسِ لَمْ يَدَّعِ الأَمْنَا

يَقُولُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَدْ تَكَلَّمَ النَّاسُ فِي قضية الوِصال والاتِّصَالِ؛ وادَّعَى كلُّ واحدٍ أَنَّهُ بَلَغَ فِي ذلِكَ الْغَايَةَ والنِّهَاية؛ وهو في ذٰلِكَ تَالِفٌ وَمُخْطِىءٌ. وكيْف يَدَّعِي النِّهَاية فِي الْعِلْم. وقد قال تعالى لسيِّدِ العارفينَ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ۝١١٤﴾. [طه: ١١٤] فَلَوْ عَاشَ الْعَبْدُ عُمُرَ الدُّنيَا والآخرة. يَتَرَقَّى فِي العلوم والمعارفِ ما بَلَغَ معشار عُشرهَا. وَبعْضهم ادَّعَى التمكينَ في الوصول إلى الحقِّ. والأَمْنَ وعدم الرُّجُوعِ. كيْف يَدَّعِي في المسْأَلة الأمْنَ من السَّلْبِ. وأَكْمل ما فِي النَّاس وهُو سيِّد الوجود لَمْ يَدَّعِ الأَمْنَ، حتى قال: ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾. وهٰذَا مِنْه عليه السلام مَعَ اتِّسَاع في العِلْم والمَعْرِفة؛ لأَنَّ صاحب الاتِّسَاع لاَ

يَقِفُ مَع وعْدٍ وَلاَ وعِيدٍ. إنما ينظر ما يبرز من عُنصُرٍ كل لحْظةٍ، لغَيْب المشيئَةِ. ولذلك كَان العارف لاَ يزول اضطرارهُ. وَلاَ يكون مَعَ غَيْر الله قرارهُ. واعْتَبِرْ بحال الأنبياءِ عليهم السلامُ. كقول الخليل عليه السلامُ: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا﴾. [الأنعام: ٨٠] فَاسْتَثْنى مع جَزْمه بِعَدَم خَوْفِهِ من أَصْنَامِهِمْ. ثم بيَّن وجْهَ الاسْتثناءِ فقَال: ﴿وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾. [الأنعام: ٨٠] كذلك سيِّدنا شعَيْب عليه السَّلاَم حين قالَ: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾. [الأعراف: ٨٩] وكذلك قضية نبينا ﷺ مع الصديق مَعَ بَدْرٍ، حيْث بَات يَتضَرَّعُ، ويَدْعُو مَعَ وعْدِ اللَّهِ له بالنَّصْرِ حتَّى قال له الصدِّيق: «أَمْسِك يَا رسُولَ اللَّهِ ﷺ. فَإِنَّ اللَّه مُنْجِزٌ لَكَ مَا وَعَدَك»[1]. فَوَقَفَ الصِّدِّيق مَعَ ظَاهِرِ الوَعْدِ، وأَخَذَ عليه السَّلاَم إلى غَيْبِ المشيئةِ لاتِّسَاع عِلْمِهِ بِاللَّهِ.

والحاصل أنه عليه السلامُ مَأْمُون في الدُّنْيَا والآخِرَة. بِوَعْدِ اللَّهِ له بذلكَ حَيْثُ قال: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣﴾. [الفتح: ٣] وهذا باعْتِبَار الدُّنْيَا. وقال تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾. [الضحى: ٥] باعْتِبَارِ الآخِرَة إلى غَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ الآيَاتِ. لكِنَّهُ عليه السَّلاَمُ، أَظْهَرَ العُبُودية وَلَمْ يَقِفْ مَعَ شَيْءٍ ﷺ. وكذلك خُلَفَاؤه من الأولياءِ لاَ يقفون مَعَ وَعْدٍ وَلاَ وعِيدٍ لغَيْب المشيئَةِ. وفي بَعْضِ الأَخْبَار، يقول اللَّهُ تَعَالَى:

«يَا عَبْدِي لاَ تَأْمَنْ مَكْرِي وَإِنْ أَمَنْتُكَ فَإِنَّ عِلْمِي لاَ يحيط بِهِ مُحِيطٌ»[2]. وقد يَبْلُغُونَ مِنَ التمكينِ مع الحقِّ، مقاماً يَترَجَّحُ مَعَهُ الأَمْنُ. بقولِهِ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ۝٨٢﴾. [الأنعام: ٨٢] فَمَنْ تحقق مَقَام الإِيمَان، حتى بلغ مِنْهُ مقام العِيَانِ. وانتفى عَنْهُ الشرك الجلي والخَفِي. فقد حَصَلَ لَهُ الأَمْنُ بِنَصِّ الآية. قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

---

(١) أورده الطبري في الرياض النضرة، شدة بأسه ﷺ وثبوته يوم بدر [٢/ ٣٥] ورواه ابن حبان في الثقات، السنة الثامنة من الهجرة [١/ ١٦٧].

(٢) لم أجد هذا الخبر فيما لدي من مصادر ومراجع.

«يَبْلُغُ الْوَلِيُّ مَقَاماً يُقَالُ له: افْعَلْ مَا شِئْتَ، قد أَصْحَبْنَاكَ السَّلاَمَةَ، وأَسْقَطْنَا عَنْكَ الْمَلاَمَةَ». وقال في شَأْنِ تلميذِه الْمُرْسِي: «قَدْ تَمَكَّنَ الشيخ أبو العَبَّاس مع اللَّهِ تَمَكُّناً. لَوْ طَلَبَ الحِجَابَ لَمْ يجِدْهُ. ويُسَمَّى مَقَامَ المحْبُوبية». ويُعَضِّده قولُه تَعَالَى فِي حقّ سُلَيْمَانَ عليه السلامُ: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾﴾. [ص: ٣٩]

هٰذَا؛ وَإِنْ كَانَ فِي مَقَام النبوءة، فَلِلْوِلاَيَة قِسْط بِحَسَبِ الوِرَاثةِ. وبَعْدَ هٰذَا كلهِ لا يزول عنهم خَوْفهم. فَلاَ يَزُول اضطرارهم، وَلاَ يكون مَعَ غَيْرِ اللهِ قرارهُمْ لاتّسَاع دائِرة عِلْمِهِمْ. وقد حققنا هذه المسألة فِي التفسير[1] في سورتي الأنعام والأحقاف فَانْظُرْهُ إن شِئْتَ. وباللّهِ التوفيق.

وقد تكَلَّمَ النَّاسُ فِي حقيقة الْوُصول. قال في الحِكَم: «وُصُولُكَ إِلَيْهِ، وُصُولكَ إِلَى الْعِلْمِ بِهِ. وَإِلاَّ فَجَلَّ رَبُّنَا أَن يَتّصل بِشيءٍ، أَوْ يَتَّصل به شَيْءٌ». وأَحْسَنُ ما يُقال في حقيقة الوصول؛ أَنّه فَنَاء الرسوم والأشكال بظهور الكَبير المتعال فيَفْنَى مَا لَمْ يَكُنْ؛ وهو الْوَهْمُ والْجَهْلُ. ويَبْقى من لم يَزُلْ؛ وهو الحق وحْدهُ. فقد كَان وحْده لاَ شيْءَ مَعَهُ. وقد بَقِي ما كَانَ عليهِ. فالوصُول إلى اللّهِ عبَارة عن تحقيق الْعِلْم بِوَحدتِهِ. وغَيْبة العَبْدِ عَنْ وجودِهِ فِي وُجُودِ مَعْبُودِهِ حتى لاَ يُشَاهدَ إِلاَّ عظمَتَهُ فِي كل شَيْءٍ. مُتَرَدِّياً بِرِدَاءِ الْكِبْرِيَاءِ لِيَبْقى السِّرُّ مَصُوناً. والكَنْزُ مَدْفوناً.

ثم بَرْهَنَ عن كَوْنِ الوصول لاَ يكون بِمُجَرَّدِ الدَّعْوَى فقال:

وَلَوْ كَانَ سِرُّ اللَّهِ يُدْرَكُ هَكَذَا لَقَالَ لَنَا الْجُمْهُورُ هَا نَحْنُ مَا خِبْنَا

يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَوْ كَانَ سِرُّ اللَّهِ؛ وهو الوِلاَية والمعرفة على سَبِيل الْعِيانِ؛ وهُوَ مَعْنَى الوصول إلى اللَّهِ، يُدْركُ هكَذَا، أيْ بِمُجَرَّدِ الدَّعْوَى مَعَ وجودِ النَّفسِ، وَرَاحَة الجِسْم، ورقوده تحت ظِلّ الجدي لقال جمهورُ النَّاس أي عَامَّتُهُمْ: هَا نَحْنُ ما خِبْنَا الْمَعْرفة، بل نَحْنُ وَأَنْتُمْ فيهَا سواء. أيْ لو كَانَتْ تُنَال

(١) تفسيره المسمى «البحر المديد في تفسير القرآن المجيد» الواقع في ثمان مجلدات طبعة دار الكتب العلمية بيروت، بتحقيق الشيخ عمر أحمد الراوي وبتقديمنا.

بِلاَ مجاهدة وَلاَ تَرْبِيَة لاَدَّعَاها كلُّ النَّاسِ، لكنَّهَا لاَ تُنَالُ إلاَّ بِذَبْحِ النُّفُوسِ وحَطِّ الرُّؤُوسِ لأَرْبَابِهَا. وَبَذْلِ الْفُلُوس زُهْداً فِيهَا. وَارتِكَابِ الشَّدَائِدِ والأَهْوَالِ وتَتَابع الوارداتِ والأَحْوَالِ، ومُفَارقة الأوطانِ والأحباب، والغَيْبة عَنِ الْعَشَائر والأَصْحَاب.

قَالَ فِي الحِكَم: «لَوْلاَ مَيَادِينُ النفوس، مَا تَحَقَّقَ سَيْر السَّائِرِينَ». وقال أيضاً: «كَيْفَ تُخْرَقُ لَكَ العوائدُ، وأَنتَ لَمْ تخرق مِن نَفسك العَوَائد». وَقَدْ بَيَّنَ ذلِكَ الشيخ بِقَوْلِهِ:

فَكَمْ دُونَهُ مِنْ فِتْنَةٍ وَبَلِيَّةٍ وَكَمْ مَهْمَهٍ مِنْ قَبْلِ ذَلِكَ قَدْ جُبْنَا

يَقُولُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَكَمْ دُونَ الْوُصُولِ من فتنةٍ وبَلِيَّة أي مِن امتحانٍ واختبارٍ للمريد؛ هل هو صادِقٌ في الطَّلَبِ أَوْ هُوَ كَاذِبٌ. فَإن ثبت وصبَرَ وصَلَ وإِلاَّ رجَعَ مِن حيث جَاءَ. فَأَوَّل ذلِك تسْليط النَّاس عليه بِالإِذَايَة والإهانَة، والتَّصْغير والهِجْرَانِ. وَرُبَّما وصلُوا إلى ضَرْبِهِ وسجنه، وتطويفه وقتلِهِ. فإن صَبَر على ذٰلِكَ، تعرَّضَ له إبليس بالتخويف والتسويف وتبعيد الفَتْح وتبطيء السَّيْر فإن صَبَرَ على ذَلِكَ تعرَّضَتْ لَهُ الدّنْيَا بتزيين زَخَارِفِهَا وحظوظها وَزَهْرَتِهَا، فَإِن أَعْرَضَ عَنْهَا، تَعَرَّضَتْ لَهُ الآخِرة بحورِهَا وقصُورِهَا، وسائر نَعِيمها فَإِن أَعْرَضَ عَنْهَا، تعرَّضَتْ لَهُ الكَرَامَاتُ، وصَوْلة الأحْوَالِ وحَلاَوة المقاماتِ. فَإِن أَعْرَضَ عن هٰذَا كُلِّهِ. قال له الحق جَلَّ جَلاَلُهُ: «مَرْحَباً وَأَهْلاً هٰذِهِ حَضْرة قُدْسِي. تَنَعَّمْ فِيهَا بِمَا شِئْتَ وتَنَزَّهْ بِفِكْرَتِكَ حَيْثُ شِئْتَ». وَيُقَالُ لَهُ حِينئذٍ:

لَكَ الدَّهْرُ طَوْعٌ والأَنَامُ عَبِيدُ فَعِش كُلَّ يَوْم مِنْ أَيَّامِكَ عِيدُ

وَإِنْ وقَفَ مَعَ شيءٍ مِن هٰذَا، رجَعَ من الطريق. وأَمَّا مَن وَصَلَ فَلاَ رُجُوعَ عَلَيْهِ لَهُ؛ أَيْ بِفَضْلِ اللَّهِ وكَرَمِهِ؛ لأَنَّ اللَّهَ لاَ يجب عليه شيءٌ. وَالْوُصُول هُوَ تحقيق الفَنَاءِ، والتَّمكُّنُ من البَقَاءِ. وقولهُ: «وَكَمْ مَهْمَهٍ إلخ». هي المَفازة البعيدة. وَيُجْمَعُ على مَهَامِهِ. وَمَعْنَى جُبْنا: قطعْنَا. والجَوبُ: هو القطْعُ. أي كَمْ مِن مَفَازَة للنَّفس قَدْ قَطعْنَاهَا بِالمُجاهَدَة والمُكَابَدة والرِّياضة. كمشاقِّ الأسْفَار إلى زيارة المشايخ والإخْوان وكَقَطع عوائد النَّفْسِ. وَمَا ركَنَتْ إليه مِنَ الْجَاهِ، والرَّاحة، وإقبال الخلقِ بتحمُّل أَضْدادهَا من الذلِّ والتعبِ. والإعراض عن

الخلق بالعُزْلةِ والانفرادِ، وهٰذَا هو خَرْق عوائدهَا؛ وهو شرْط في عمارَة الباطِنِ.

قال بَعْضُهُمْ: ما ينال ما عنْدَ اللّهِ إلاّ بِتنضِيجِ الجلودِ، وضِيْق الكبود. وقال الشيخ زُرّوق رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ: «إنّ الْمُرِيدَ لاَ يَصِلُ لعَيْن الحقيقة، حتّى يَرَى مِنَ المِحَنِ والفِتَنِ والبلايَا مَا لاَ مَزِيدَ عليْهِ. ويجوب مَعَ ذْلِكَ مَهَامِهَ، وتقصر فيها الخطَى، فَمَن عَصَمَه اللّه نفذ. ومَنْ أهانه رجَعَ. فَإِنْ جَدَّ تقابِله الدُّنيا والخلق بالإدْبَارِ، والنفس بالتعصبِ، وإبْلِيس بالتسلُّطِ. فَإن صَبَرَ وَجَاهَدَ وجدَّ والْتَزَمَ، فَازَ وَوَصَلَ، وإلاّ هَلَكَ فِي بَعْضِ أوْدِيتهِ. ثم يُقابِله كذلِكَ بالإِقْبالِ والتخير، كذا فإن سكَن كذا وحذر نَجَى، وإلاَّ ذَهَبَ في الاغترارِ والاِسْترسال ونَحْوِهَا، ثم يقابله الجميع بِالتمكينِ. فَإن ثبت وإلاَّ انقلَب على وَجْهِه في اتباع الْهَوَى رداً وقبولاً.

وقال الشيخ عبْد الكريم الجيلي فِي عيْنيته فِي هٰذَا المَعْنَى:

وَإِيَّاكَ فَاصْبِرْ لاَ تَمُلَّ فَإِنَّمَا ... بِصَبْرِ الْفَتَى جَاءَتْ إِلَيْهِ الْمَطَامِعُ

وَهَوِّنْ عَلَى النَّفْسِ ارْتِكَاباً لِهَوْلِهَا ... فَغَيْرُ مُحِبٍّ مَنْ دَهَتْهُ الفَجَائِعُ

قلتُ: مَنِ اتَّصلَ بشيخ التَّرْبية، سهل عليه ذلِك كله إن الْتَزَمَ وَتَأَدَّبَ. وإنْ لَمْ يتصل بشيخ التَّرْبية، أتعَبَ نَفسهُ بِلاَ طَائِلٍ كما جَرَّبْنَا ذْلِكَ وَذقْنَاهُ. وجَرِّبْ فَفِي التجريب علم الحقائق، وباللّهِ التوفيق.

وتمام ذلك كلّه إدَامَة السَّيْرِ، وعَدَم الاِلتفات إلى الغَيْرِ كما أَبَانَ ذْلِكَ بِقَوْلِهِ:

فَلاَ تَلْتَفِتْ بِالسَّيْرِ غَيْراً وَكُلُّ مَا ... سِوَى اللَّهِ غَيْرٌ فَاتَّخِذْ ذِكْرَهُ حِصْنَا

وَكُلُّ مَقَامٍ لاَ تُقِمْ فِيهِ أَنَّهُ ... حِجَابٌ فَجُدُّ السَّيْرَ واسْتَنْجِدِ الْعَوْنَا

يقول رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ: فلا تلتفِت في حَالِ السَّيْرِ إلى غَيْرِ الله تعالى أيّاً ما كَانَ، سواء كَانَ علوماً أَوْ أَحوالاً، أَوْ مقاماتٍ، أو طاعات، أو كرامات، أو إقبال الخلقِ، أو إدبَارَهُمْ، أَوْ عِزاً، أَوْ غَيْر ذْلِكَ. فكل ما سِوَى الله غَيْرٌ، وحجابٌ عَظِيم لِمَن وَقَفَ مَعَهُ. فالمقصود والمطلوبُ، هو الوصال إلى شهودِ عظمة ذَاتِ الحقّ عياناً ومعرفته دواماً واتّصالاً. فاتخذ ذِكْرَهُ بِقَلْبٍ حصناً من

ذلِكَ القواطع. وَ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾. [الأنعام: ٩١] وَلاَ شك أَنَّ ذِكر اللّهِ حصْن مَانع مِنَ الشيطانِ، وسَائر القواطِع. يكون أَوَّلاً بِاللِّسَانِ. ثم بِالقَلْب، ثم بالرُوحِ، ثم بالسِّرِّ. وهو مقام التمكين مِنَ المعرفة. فحينئذ يحصل الأمان مِن الخَلْقِ والشيطَانِ، ومن سَائر القواطعِ في الغَالِبِ.

ومن جملة القواطع، الوقوف مع المقاماتِ؛ فلذلكَ قال: «وكل مقام لا تَقُمْ فيه أَنَّهُ حجابٌ». وَلاَ مفهومَ للمَقَامَاتِ، وكذلك الأحْوَال والوارداتُ، لاَ ينبغي استحلاؤهَا، وَلا التطلع إِلَيْهَا. قال في الحِكَم:

«لاَ تَطْلُبَنَّ بَقَاءَ الْوَارِدَاتِ بَعْدَ أَنْ بُسِطَتْ أَنوارُهَا. وَأُوْدِعَتْ أَسْرارُها. فَلَكَ فِي اللّهِ غِنًى عَنْ كُلِّ شَيْءٍ. وليْسَ يُغْنِيكَ عَنْهُ شَيْءٌ. تَطَلُّعُكَ إلى بَقَاءِ غَيْرِه، دليلٌ على عَدَم وُجْدَانِكَ له. واستيحاشكَ بِفُقْدَانِ ما سِوَاهُ، دليلٌ عَلى عَدَمِ وَصلَتِكَ بِهِ» وقال الشيخ أبو هادي في صباحِ يوم لأصحابِهِ: بِمَ يَرْتَفِعُ الْعَبْدُ من حالةٍ لمَا هُوَ أرْفَع مِنْهَا؟ قَالُوا بِفَضْلِ اللّهِ ورحْمَتِهِ، قَالَ: إِنما سَأَلْتُكم عنِ السَّبَب الخاصِّ بِهٰذَا الأمْرِ، قَالُوا: من عند الشيخ. قال: يخلق اللّهُ له هِمَّةً أَعْلَى مِن هِمَّتِهِ. فيرفعه بها إِلى رُتْبَة أَعْلَى من رتبته. قُلْتُ: وَأَقوى الأَسْبَاب فِي الارْتِفَاعِ، الانكسارُ والاتِضَاعُ. فَإِذَا انْكَسَرَ المُريد اتَّضَعَ لسيِّدِهِ، بِسَبَبٍ أَوْ بِغَيْرِ سَبَبٍ. حَصَلَ له التَّرَقِّي إلى مَقَام لَمْ يَكُن يَعْرِفُهُ. ثم أَمَرَ الشيخ بالجَدِّ فِي السَّيْرِ والنهوض فقال: «فَجُدَّ السَّيْرَ» أيْ فجُدَّ الْعَزْمَ وَدُمْ على جِهَادِ نَفْسِكَ، ومخالفتها. فَلَوْلاَ مَيَادِين النُّفوس، ما تحقق سَيْر السَّائرينَ. والْزَمْ صُحبة الرِّجَالِ والمشايخِ، فَلاَ عَوْنَ أَعْظم من ذٰلِكَ. وتأمَّلْ ما قاله الشيخ عبْد الكريم الجيلي رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ فِي عينيته:

فَشَمِّرْ وَلُذْ بِالأَوْلِيَاءِ فَإِنَّهُمْ ... لَهُمْ فِي كتاب اللّهِ تِلْكَ الْوَقَائِعُ
هُمُ الذُّخْرُ لِلْمَلْهُوفِ والكَنْزُ لِلرَّجَا ... وَمِنْهُم يَنَالُ الصَّبُّ مَنْ هُوَ طَامِعُ
بِهِمْ يُهْتَدَى للعَيْنِ مَنْ ضَلَّ فِي الْعَمَا ... بِهِمْ يُجْذب العشاقُ والرَّبْعُ شَاسِعُ

واسْتَنْجِدِ العَوْنَ، أي اطْلُبْهُ مِنَ اللّهِ، بعد تحصيل ما تقدَّمَ، فَإِنَّه يُعينك عَلَى مَا تريدُ. والاسْتنجادُ: الإلحاحُ فِي الطَّلَبِ. قَالَهُ فِي القاموس.

ثم ذَكر وَجْهَ العَمَلِ فِي الفرار من الوقوف مع الغَيْر فقال:

وَمَهْمَا تَرَى كُلَّ الْمَرَاتِبِ تُجْتَلَى عَلَيْكَ فَحُلْ عَنْهَا فَعَنْ مِثْلِهَا حُلْنَا
وَقُلْ لَيْسَ فِي غَيْرِ ذَاتِكَ مَطْلَبٌ فَلاَ صُورَةٌ تُجْلَى وَلاَ طُرْفَةٌ تُجْنَى

يَقُولُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ومهمَا تَرَى كُلَّ الْمَرَاتب من مَرَاتب أَهْل التخصيص والتَّقْريب تُجْتَلَى؛ أي تَظهر عليكَ كَظهور الكراماتِ، والكشف عَنْ أَسْرار المقاماتِ، وحَلاَوة الطاعات وإقبال الوَرَى وأَبْناء الجِنْس، فَحُلْ عَنْهَا؛ أَيْ تَحَوَّلْ بِهِمَّتِكَ عَن الاِلْتفاتِ إِلَيْهَا، وعن الوقوف مَعَهَا، فَإِنَّ الوُقُوف مَعَ شيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، حجابٌ عن شهودِ الحقِّ. قال في الحِكَم: «مَا أَرَادَتْ هِمَّةُ سَالِكٍ أَن تقف عندما كُشِفَ لَهَا إِلاَّ وَنَادتْهُ هَوَاتِفُ الحقيقة؛ الَّذِي تطلب أَمَامَكَ وَلاَ تَبرَّجَتْ ظَواهِرُ المكوَّنات، إلاَّ ونَادَتْهُ حَقَائِقُهَا إِنَّمَا نَحنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكفُرْ».

والمراتب الَّتِي تُجْتَلَى للسَّائر فِي سَيْرِهِ ثلاثٌ: فَنَاء فِي الأفعال وفَنَاءٌ في الصفات، وفَنَاء فِي الذَّاتِ. فَإِذَا كُشِفَ للسَّائرينَ عن توحيد الأَفْعَالِ وذَاقَ حَلاَوَتَهُ. وَأَرَادتْ همَّته أَن تقف مَع ذَلِكَ المَقَام، نَادَتْهُ هواتِف الْفَنَاءِ فِي الصِّفَاتِ؛ الَّذِي تطلبُه أَمَامَكَ. وإِذَا تَرَقَّى إلَى الْفَنَاءِ فِي الصِّفَاتِ، وكُشف له عَنْ سِرِّ توحيد الصفات. فاسْتشرف على الفَنَاءِ في الذَّاتِ، وأَرَادَتْ هِمَّتُهُ أَنْ تَقِفَ مَع ذَلِكَ الْمَقَام نادَتْهُ هَوَاتفُ الفَنَاءِ فِي الذَّاتِ؛ الذي تطلب أَمَامَكَ وإِذَا تَرَقَّى إِلَى الفناءِ فِي الذَّاتِ، كُشِفَ لَهُ عَنْ سِرِّ توحيد الذَّاتِ. وَأَرَادَتْ همَّته أَنْ تقفَ مَعَ ذَلِكَ. نادَتْهُ هَوَاتفُ حقيقةِ البقاء وبقاء البَقَاء. وهكذا إلى مَا لاَ نهايةَ لَهُ مِنَ التَّرَقِّي. وإِذَا تَبَرَّجَتْ، أَيْ ظَهَرَتْ بِزِينَتِهَا وَزَخَارفها ظَاهرُ المكَونات بخَرْقِ عوائدِها. وانقيادِها لَهُ. وتصرفِهِ فيها بِهِمَّتِهِ. كالمَشْي عَلى الماءِ، والطَّيَرَان فِي الهواءِ. وطَيِّ المسَافة البعيدة فِي لحْظَةٍ. وغَيْر ذَلِكَ من الكَرَامات الحسِّية. وأَرَادَتْ همَّةُ السَّالك أن تقف مَعَهَا، نادَته هَوَاتفُ الحقيقةِ؛ وهي أَسْرارُ المَعَانِي الباطنية. إِنَّما نَحن فِتْنَةٌ لَكَ، نَخْتَبِرُكَ هَلْ تقف مَعَ ظَاهِرِهَا فَتُحْجبَ بِهَا، أَوْ تَنْفُذ إلى بَاطِنِها. فتعرف مَالِكها والمتجلِّي بِهَا.

قال الشيخ أبو عُثْمان بن عاشوراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «خَرَجْتُ مِنْ بَغْدَادَ أُرِيدُ الْمَوْصِلَ. فَأَنَا أَسِيرُ، فَإِذَا بالدُّنيا قَدْ عُرِضَتْ عليَّ بِعِزِّها وَجَاهِها، ورفعتِها، ومراكِبِها وَمَلاَبِسِهَا. ومزيناتِها وثمارِها ومشْتهياتِها. فَأَعْرضت عَنْهَا. فعُرِضَت

عليَّ الجنَّةُ بِحُورِهَا وقصورِهَا، وأَنهارِها وثمارِهَا فَلَمْ أَشْتَغِلْ بِهَا. فَقِيلَ لِي يَا عُثْمَان، لَوْ وقفْتَ مع الأولى لَحَجَبْنَاكَ عن الثانية. ولو وقفت مع الثانية لَحَجَبْنَاكَ عنَّا. فهَا نَحْنُ وقسْطكَ من الدَّارَيْنِ يَأْتِيكَ».

وقال بَعْضُهُمْ: مَنْ سَمَتْ هِمَّتُهُ عَنِ الأَكْوَانِ. وصَلَ إلى مُكَوِّنِهَا. وَمَنْ وقَفَ بِهِمَّتِهِ مَع شيْءٍ دُونَ الحقِّ فَاتَهُ الحق؛ وهُو أَعَزُّ مِن أن يرضَى مَعَهُ بِشَيْءٍ. وإلى هٰذَا أَشَار الشيخ بقولِهِ: فَلاَ يشغلنَّك عنه أَيُّهَا الْمُرِيدُ صُورَة تُجْلَى، أي تظهر لك من نَوْعِ الكَرَامَاتِ. وَلاَ طرفة تجْنَى، كوجُودِ الثمارِ من غَيْر إِبَّانِهَا. وحَلاَوَةِ الطاعات. فإِنَّهَا سُمُوم قاتِلَةٌ.

قال الشيخ أَبو يزيد رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ: «أَوْقَفنِي الحقُّ بَيْنَ يَدَيْهِ فَقَالَ: تُريد الطرف فَقُلْتُ لاَ. فقال: تُريدُ الْغرف. فقلْت لاَ. فقال: تريدُ التحقق قُلْتُ لاَ. قَالَ: فَمَا تريدُ؟ قلْتُ: أُريدُ أَنْ لاَ أُرِيد؛ لأَنِّي أَنَا الْمُرَاد وَأَنْتَ الْمُرِيد». وَحَكَى أَنَّهُ قَالَ: كَان الحق تعالى يريني الكراماتِ، فأُعرضُ عَنْهَا. فَلَمَّا رأى ذٰلِكَ مِنِّي جَعَلَ لِي إِلَى مَعْرفتِهِ سَبِيلاً. قال بَعْضهم: كُشف لِي عن أَرْبعين حَوْراء، فَرَأيتهُنَّ يَتَشَخَّصْنَ فِيَّ فَالتَفتُّ إِلَيْهِنَّ. فَحُجِبْتُ عن مَقَامِي مدَّةً. ثم كشف لِي عن ثمانينَ، فسجدتُ وأَنَا أَقُولُ: اللَّهُم إِنِّي أَعُوذُ بكَ مِمَّا سِوَاكَ.

وقال شيخ شيوخِنَا سيِّدِي علي العمراني رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ: «اشتَقْتُ يَوْماً إلى الجنَّة، فَإِذَا أَنَا آكل مِن ثمارهَا، وأقطف مِن أزهَارِهَا، وأَشْربُ مِن أَنْهَارِهَا. فاشتغلْتُ بذلكَ عن حَلاَوَة الشهود فتبْتُ إلى اللَّهِ فَأَخْرَجَنِي من سجْنِهَا». وقال الجُنَيْدُ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ: «أَلْطَفُ مَا يُخَادَعُ به الأَوْلياءُ، الكَرَامَاتُ والمعونات». ويُحْكَى أَنَّ بِشراً الحَافِي رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ، رَأى عليّ بن أَبِي طالبٍ في النَّوْم. فقال له: «يا أَمِيرَ المؤمنينَ، ما أَحْسَنَ عَطف الأغنياءِ على الفقراءِ رَجَاء الثواب. فقال لَهُ عليّ كَرَّم اللَّهُ وَجْهَهُ: وأَحْسَنُ له من ذلِكَ، تِيه الفقراء ثقة بِاللَّهِ».

قَالَ بعض المشايخ: وأَكْبَرُ من ذلِكَ، هِمَّةُ العَارِفِينَ، تتشاكَى له فِيهَا جميع المقدورات، فضلاً عن المخلوقات.

لمَّا قَدِمَ الشيْخ أَبو الحسَن الشاذلي رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ على القُطْبِ عبد السلام بن مشيش، وجَدَه في مغارته يَدْعُو. فكَره الدّخول عليه ليْلاً، وكَان في مقصد

الشيخ أبي الحسَن نَفعُ النَّاس، وجلبُهُمْ إِلَيْهِ ليدْعُوهُمْ إلى اللَّهِ. وكَان يتَرَدَّد فِي خَاطِرِهِ، هل يدْخل للمُدُنِ أَوْ يَنْقَطع فِي الجِبَالِ والقفار، للعبَادة، فَسمعَ الشيخَ من دَاخِلِ المغارة يَقُولُ: اللهمَّ إِنَّ قوماً قد طلبُوا منكَ أنْ تُسَخِّرَ لَهُمْ خَلْقَكَ. فَسَخَّرْتَهُمْ لَهُمْ، فَرَضُوا بذلِك. وأَنَا أَسْأَلك اعوجاجَهُمْ عَلَيَّ، حتى لاَ يكونَ مَلْجَئِي إِلاَّ إِلَيْكَ.

فقال الشيخ أَبُو الحسَن: يا نَفسي من أي بَحْرٍ يغترفُ هٰذَا الرَّجلُ. فلَمَّا دَخَلَ وَسَلَّمَ عليْه. قال لهُ: كَيْفَ أَنْتَ يَا سَيِّدِي. قال: أَشكُو مِنْ بَرْدِ الرِّضَى والتَّسْلِيم، كما تشكُو أَنْتَ مِنْ حَرِّ التَّدْبِيرِ والاِخْتِيَارِ. فقال: يا سيِّدي أَمَّا شَكْوَاتِي من حَرِّ التَّدْبِير والاختيارِ، فقد ذُقْتُهُ وَأَنَا فِيهِ. وأَمَّا شكوَاكَ أَنْتَ مِنْ بَرْد الرِّضا والتسْلِيم، فلِمَاذَا؟ قال: أَخَافُ أَنْ تشغلَنِي حَلاَوتُهُمَا عَنِ اللَّهِ. ثم قال يا سيِّدِي: سَمِعْتُك تقول: اللَّهُمَّ إني أَسْأَلك اعْوجاجَ الخَلْقِ عَلَيَّ. قال ابن مشيش: يَا أَبَا الحسَن: عِوَضَ أَن تقول: اللَّهُمَّ يَا ربِّ سَخِّر لِي خَلْقَكَ قل يا رب كُنْ لِي. أَفَتَرى إِن كَانَ لَكَ، أيفوتُك شَيْءٌ؟ فما هذه الجبانة. انتهى بمعْنَاه. فهذه المقامات والكرامات كلها تصرف المريد إلى التعلّق باللَّهِ. وعَدَم الالتفات إلى ما سِوَاه كَائناً ما كَانَ.

ولمَّا حَرَّضَ على الفَنَاءِ والفِرَار إلى اللَّهِ. أَمَرَ بالتَّمسك بالشريعة؛ وهو مَقَامُ البَقَاءِ، وكَمَالِ الكَمَال فقال:

وَسِرْ نَحْوَ أَعْلاَمِ الْيَمِينِ فَإِنَّهَا   سَبِيلٌ بِهَا يُمْنٌ فَلاَ تَتْرُكِ الْيُمْنَا

يقولُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِذَا أَفْردتَ قلبكَ لله، وَلاَحَتْ عَلَيْكَ أَنْوارُ الْفَنَاءِ. فتمَسَّكْ بِالشريعة المحمَّدية. وسِرْ نحو أَعْلام الْيَمِينِ، واسْتَظِل معهم تحتَ ظِلِّ لِوَاءِ الشريعة؛ وأَعْلاَمِهَا، فَإِنَّهَا طريق بِها يُمْنٌ وبَرَكَةٌ ونجدةٌ وغنيمَةٌ، فَلا تَتْرُكِ اليُمْنَ والبركةَ فَتَقَع فِي الخُسْرَانِ والنَّدامَة. ولذلِكَ قيلَ:

«مَنْ تَصَوَّفَ وَلَمْ يَتَفَقَّهْ فَقَدْ تَزَنْدَقَ. وَمَنْ تَفَقَّهَ وَلَمْ يَتَصَوَّفْ فَقَدْ تَفَسَّقَ. وَمَن جَمَعَ بَيْنَهُمَا فَقَدْ تحقَّقَ».

قال الشيخ زروق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

«تَزَندق الأولُ لإهْمَاله الشريعة. وقد جَاءَ بها الصَّادِقُ المصدوقُ؛ فهي

باب الدُّخول إلى اللَّهِ. وتفَسّقَ الثاني لإِهْمَالِهِ الحقيقة، وتحقق الثالثُ، لجمعه بينهُمَا». قال: وكَان شيخنا أَبُو العبَّاس بن عقبة الحَضْرَمِي كثيراً ما يَنْشد هَذَينِ الْبيتَيْن:

اتْبَعْ رِيَاحَ الصَّبَا وَدُرْ حَيْث دَارَتْ   وَسَلِّمْ لِسَلْمَى وسِرْ حَيْثُ سَارَتْ

وَمُرَاده سَلْمَى فيما أَظنُّهُ: الشريعة. واللَّهُ أَعْلَمُ. قُلْتُ: بَلِ الظَّاهِر، أَنَّهَا الحقيقة. إِذا هِيَ التي يكنى عنها أَهْلُ الفَنّ بِسَلْمَى. وعزَّة ولَيْلَى وأَيْضاً: هِيَ المتصرفة في الأشياء كلها فيجب الميل مَعَهَا أَيْنَ ما ظَهَرَتْ. والسَّير بِسَيْرِهَا حيْث سَارَتْ. وأَمَّا الشريعة فَإِنَّها رِدَاءٌ لَهَا وسَتْر لأَسْرَارها. واللَّهُ أَعْلَمُ.

فَالتَّمَسكُ برسوم الشريعة لأَهْلِ الحقيقة فَرْضٌ لاَزِمٌ. وَمَنْ أَخلَّ بِهِ، رَجَعَ مِن حيْث جَاءَ. وَلاَ يُرْجَى فَلاَحُهُ. وقال السَّاحلي في بغيتِهِ لمَّا تكَلَّم على آداب مَقَامِ الإِحْسَانِ بعد كَلاَم الثالث: إِقامة رسومِ الشريعة، أَحْسَنَ إِقامَةٍ؛ فَهِيَ شعار العُبُودية، وهي الوَسَائل إلى دَرْكِ الحقائق الإِلَهية. وَمَنْ ظَنَّ أَنَّ ذلِكَ مُسْتَغْنىً عَنْهُ عنْدَ مواردِ التحقيق؛ فَهُوَ مَغْبُونٌ فِي حقيقته. مفتونٌ فِي وِجْهَتِهِ. رَاضٍ بالحِرْمَانِ وَالْهَوَانِ. وَمِن عَلاَمَاتِ صِدْق أَهْل الاخْتِصَاصَاتِ عَدَمُ حَلّ الْيَد مِنْ عَرْوَة الشريعة، بَلْ فِي اسْتغراقهم الحِفظ عليها، في إقامة الرُّسُوم الشرعية، كَمَا أَنَّ مِنْ عَلاَمَةِ الخِذْلاَنِ، حَلُّ اليَدِ مِنْ عُرْوَة الشريعة، عنْدَ وُرُود الحقائق، رزقنَا الله مِنْ حِفْظِهِ وكَلاَءَتِهِ، مَا يَحْملنا على مَنَاهِجِ الْعَارفين.

قُلتُ: ورسوم الشريعة: هو فِعْلُ المَأْمُوراتِ، وتَرْك الْمَنْهِيَاتِ. نهي تحريم، أَو نَهْي كَرَاهةٍ. وقال أَيْضاً: في شروطِ المعرفة: الثالث: المحافظة على الرّسوم الشرعية وإِقامة الوَظائف الربَّانية اقتداءً بِإِمَام العارفينَ، وسيّد الْمُقَرَّبِينَ الَّذي تفطَّرتْ قدمَاهُ من طولِ القيامِ فِي الصلاةِ لِتَمَكُّنِ مَعْرفتِهِ، وقد ضَلَّ قَوْمٌ، وزَلَّتْ أَقْدامُهُم حينَ ادَّعَوْا المعرفة. وقالُوا بترك الشريعة، وَرَأَوْا ذُلِكَ من البرّ والتقوى. ولم يشعرُوا بِأَنَّ ذلِكَ تعطيلٌ وَكُفْرٌ وحَاشَا المعرفة من ذُلِكَ. قال إمام هذه الطريقة، وسيّد أَهْلِ الحقيقة أبو القاسم الجنَيْد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الْقَوْلُ بِإِسْقَاطِ الأَعْمَال عنْدِي عظيمٌ والَّذِي يسْرق ويزنِي، أَحْسَن حالاً عندي مِنَ الَّذِي يقول بإسقاط الأعمال؛ أي الشريعة».

قال النقشبَنْدي: وقد صَدق رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ: فَإن السَّارقَ والزَّانِي عاصٍ بِسرقته وزناهُ. وَلاَ يَصِلُ إلى حَدِّ الكُفرِ. وأمَّا القائل بسقوطِ الفرائِضِ. وتحليل المحرمات المُعْتَقِدُ لِذلِكَ فقد انْسَلَّ الإيمانُ مِنهُ إسلالَ الشَّعْرَة منَ العجِينِ. ثم قال الجُنَيْدُ: «فَإِنَّ العارفينَ أَخَذُوا الأعمالَ مِنَ اللَّهِ». ثم قال: وَلَوْ بقيتُ ألف عام لَمْ أنقصْ مِن الشريعة ذَرَّةً.

ثم قال السَّاحِلِي في آدَابِ المعرفة: الثالث: مُلازَمتُه الهيبة، والصعود إلى غايتها. فإنَّ الهَيْبَة مِن أَمَارَات المعرفةِ، كلما ازدادتْ معرفته ازْدادتْ هيْبتهُ. وقد يُعَبَّر عن الهيْبة بالخشية. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾. [فاطر: ٢٨] وقال ﷺ: «أَنا أعرَفُكُمْ بِاللَّهِ وأشدّكُمْ له خشيةً»(١). فَإن قلت: كَلاَمك يشير إلى أن المعرفة: محوٌ مطلق. والمَحْوُ المطلق: فَنَاءٌ عن الرُّسوم والصفات، والهيْبة مِنَ الرّسوم والصفات. فالجواب أَنَّ العارفَ، وإِنْ كَانَ بِهٰذِهِ المَثَابَة مِنَ الاسْتغرَاقِ فِي معروفِهِ. والاستهلاكِ فِي مَوْجُودِهِ لشُهُودِهِ. فَمِنْ عَلاَماتِ قرْبِهِ، وإِن اخْتُطِفَ عن إحساسِهِ، أَنْ تَبْقَى رسومُ الأدَبِ محفوظة عليه، بحفظ اللَّه تَعَالَى إِيَّاها عليْه. وإقامته فيها مقام الحَمْد، فيكن سِرّه مستغرقاً في شهودِهِ وَرَسْمِهِ. قائماً بوظائف معبُودِهِ مِنَ البُغْيَةِ. وَلِلَّهِ دَرُّ سيدي عَبْد اللَّه الهبطي حيْث قال فِي مَنْظُومَتِهِ؛ الَّتِي سَمَّاها شمسَ الضُّحَى:

وثالثُ الفُصُول فِي الشريعَهْ ... لأنَّهَا إِلَى الْهُدَى ذَرِيعَهْ
فَكُلُّ بَابٍ دُونَهَا مَسْدُودُ ... وَمَنْ أَتَى مِنْ غَيْرِهَا مَرْدُودُ
قَدِ اصْطَفَاهَا رَبُّنَا عَزَّ وَجَلْ ... بِفَضْلِهِ وَجُودِهِ عَلَى الْمِلَلْ
طرِيقَةُ الرَّحْمٰنِ لِلْعَدْنَانِ ... مَحْفُوفَةٌ بِالنُّورِ وَالرِّضْوَانِ
طُوبَى لِمَنْ أَتَى بِهَا لِلْعَرْضِ ... وَالْوَيْلُ لِلَّذِي بِهَا لَمْ يَقْضِ

وَإِنَّمَا أَطَلْتُ الكَلاَمَ هُنَا؛ لأنِّي رَأَيت كَثيراً مِنَ الْفُقَرَاءِ خَلُّوا يَدَهُمْ مِنَ

---

(١) أورده العجلوني في كشف الخفاء بلفظ: «أنا أعرفكم بالله وأخوفكم منه» حديث رقم (٦٠٧) [١/ ٢٣١] وفي صحيح البخاري باب أنا أعلمكم بالله..، حديث رقم (٢٠) [١/ ١٦]: «إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا».

الشَّرِيعَةِ. وَظَهَرَ عَلَيْهِمُ المَسْخُ والْبُعْدُ وَالْعِيَاذ بِاللَّهِ مِنَ السَّلْبِ بَعْدَ الْعَطاءِ.

ثم حَذَّرَ الشيخ من الوقوفِ مَعَ مُجرَّدِ الْعَقْلِ؛ لأَنَّهُ مَعْقُولٌ عن شُهُودِ الأَسْرَارِ فَقال:

أَمَامَكَ هَوْلٌ فَاسْتَمِعْ لِوَصِيَّتِي ... عِقَالٌ مِنَ الْعَقْلِ الَّذِي مِنْهُ قَدْ تُبْنَا

قُلْتُ: عِقَالٌ بَدَلٌ مِنْ هَوْل. يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قُدَّامك أَيُّهَا السَّائر هَوْلٌ عَظِيمٌ؛ وَهُوَ عِقَالُ فِكْرَتِكَ عَنِ النُّفُوذ إلى مَيَادِين الْغُيُوب، وفضاء الشهود. وهٰذَا العِقَال هو عقلكَ، حيث وَقَفْتَ مَعَهُ. وَلَمْ تُدْرِكْ إلاَّ مَا أَدْرَكَهُ مِنْ صنعة الكَوْنِ. وافتقاره إلى صانعه، ولم تَنفُذْ إلى مَا وَرَائِهِ مِن شهودِ المُكَوِّنِ فِي مَظَاهِرِ مُكَوِّنَاتِهِ. فَإِنَّ أَسْرَار المَعَانِي خارجة عن دائرة العُقُولِ وإِحَاطة النُّقُولِ كما قال سلطان العاشقين الشيخ عمر بن الفارض فِي تَائِيَّتِهِ:

وَلاَ تَكُنْ مِمَّنْ طَيَّشَتْهُ طُرُوسُهُ ... بِحَيْثُ اسْتَخَفَّتْ عَقْلَهُ وَاسْتَقَرَّتِ

فَثَمَّ وَرَاءَ النَّقْلِ عِلْمٌ يَدِقُّ عَنْ ... مَدَارِكِ غَايَاتِ الْعُقُولِ السَّلِيمَةِ

تَلَقَّيْتُهُ عَنِّي ومِنِّي أَخَذْتُهُ ... وَنَفْسِي كَانَتْ مِنْ عَطَائِي مُمِدَّتِي

فَاسْتَمِعْ لِوَصِيَّتِي؛ وَهِيَ لاَ تقف مَعَ تَوهُّمَات العَقلِ، وتخيُّلاَتِهِ التي تُبْنَى مِنْهَا. وَرَجعنا إلى ربِّنَا، فَاشتغلْنَا بِذِكره، ذكراً مُتَّصِلاً، وَتَرَكْنَا حُظُوظَنَا ولُحُوظَنَا فَأَشْرَقتْ علينَا الأَنْوَار، وَلاَحتْ علينَا الأَسْرَار، فَخَرَجْنَا عَن دائرةِ الأَكْوَانِ، وَأَفْضَيْنَا إلى فَضَاءِ الشهودِ والعِيَانِ بَعْدَ صحبَة المشايخ وخِدْمتِهم وامتثالِ أَمْرِهِمْ، وَلَوْ أَفْضَى إِلَى العَطَبِ وتصْديقِ قَوْلِهِمْ. وَلَوْ كَانَ مُحَالاً، كَمَا قَال الشيخ أبو الحسن الشاذِلِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِذَا جَالَسْتَ إِلَى الكُبَراءِ، فَدَعْ مَا تَعْرِفُ لِمَا لاَ تَعْرِفُ؛ لتفُوزَ بِالسِّرِّ الْمَكْنُونِ».

ثُمَّ ذَكَرَ وَبَالَ مَنْ وَقَفَ مَعَ عَقْلِهِ فَقَالَ:

أَبادَ الْوَرَى بِالْمُشْكِلاَتِ وَقَبْلَهُمْ ... بِأَوْهَامِهِ قَدْ أَهْلَكَ الْجِنَّ وَالْبِنَّا

الجِنُّ والبِنُّ: قبِيلتَانِ مِنَ الجِنِّ، عَمَّرَتَا الأَرْضَ قَبْلَ آدَمَ. هٰكَذَا وُجِدَ بِخطِّ النَّوَوِي مِنْهُمْ أَسْوَد البُهْمُ، أَوْ سَفَلَة الجِنّ وضُعَفَاؤهَا، فَقَدْ ذَكَرَهُ في القَامُوس ونَصُّهُ: الجِنُّ بالْكسْرِ: حَيٌّ مِنَ الجِنِّ منهُمُ الكلابُ السُّودُ البُهْمُ أو سَفَلَةُ الجِنِّ

وضُعَفَاؤهم أَوْ كِلاَبُهُمْ أَوْ خَلْقٌ بيْن الجِنِّ والإِنْسِ.

وأمَّا البِنُّ: فَقَالَ فِي القَامُوس أَيْضاً: البِنَّة: الرّيح الطيبة. ثم قال: ومَوْضع بِكَائِلِ، وَبَلدة بِبَغْدَاد. وحِصْنٌ بالأَنْدَلُسِ. فَلَمْ يَذكُر أَنَّه من قبائِلِ الجنِّ. لكن مَنْ أَثْبَتَ حجة، ولَمْ يذكُرْهُ فِي مَادَّةِ المقصورِ.

يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي ذَمِّ الْعَقْلِ لِمَنْ وَقَفَ مَعَهُ. وحَكَّمهُ في أُمُور عقائدهِ: أَبَاد الْوَرَى: أي أَهْلَكَهُمْ وَأَتْلَفَهُمْ بِالمشكِلاَتِ النظرية. ردّاً وقَبُولاً إِذِ العَقْل إِذَا لَمْ يَتَأَيَّد بِأَنْوَارِ الشريعة، وَلَمْ يَقِفْ مَعَ الحِجَابِ الأَعْظَمِ؛ وهو النبيّ صلّى اللَّهُ عليه وسَلَّمَ ضَلَّ وأَضَلَّ. وَهَذَا سَبَبُ هَلاَكِ الْمُعْتَزِلَةَ، والْقَدَرِية، والإمامية، وغيْرهم مِن الطوائف الضَّالة: الاثْنين والسَّبعين المفترقة فِي هذه المِلَّةِ. وَمَنْ قَبْلهِمْ من الفلاسفة، والطَّبَائِعيينَ وأَضْرَابهم حيْث لَمْ يتقيَّدُوا بِالْوَحي الإِلَهِيِّ، بل اسْتَصْغَرُوهُ كَمَا قَالَ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [غافر: ٨٣]، أي وتَهَاونوا بِغَيْرِهِ بِقوْلِهِ: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [هود: ٨] قيل إنه صادقٌ بِالفلاسِفَة. وإِنَّهُمْ اعْتَقَدُوا أَنَّ عِنْدَهُمْ مَا يسْتغنُونَ بِهِ عَنْ عِلْم الأنبيَاءِ عليْهِمُ السلامُ. ولَمَّا سَمِعَ بُقراط الحكيم بموسَى عليه السلامُ. قيل لهُ: لَوْ هاجرْت إليه فقال: «نَحْنُ قَوْمٌ مُؤَدَّبُونَ فَلاَ حَاجَةَ إِلَى مَنْ يَهْدِينَا». ورَأى بَعْضُ الصَّالحينَ النَّبِيّ ﷺ فَسَأَلَهُ عَنِ ابنِ سينَاءَ. فقال ﷺ: «إِنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَصِلَ إِلَى اللَّهِ بِدُونَ وَاسِطة، فَانْقَطَعَ عَنِ اللَّهِ». وعلى فَرْضِ وُقوفِهِمْ بَعْد رياضةِ النَّفْس، وتَهْذيبِهَا على التجرُّدِ وانْكشافِ قُدْسِ حضْرَةِ الحقِّ. فَلاَ يظفَرُونَ بالعُبُودِية، وَلاَ بالفَنَاءِ في توحِيدِ الرُّبُوبيَّةِ، والتخليصِ من لَوْثِ وُجُودِهِم. والشَّأنُ أن تَكونَ عيْن الاسْم. لا أَن تَعْرِفَ الاسْمَ والْعَيْنَ، وإِنَّمَا تُقْتَبَسُ مِن مشكاةِ مَهْبِط الْوَحْي. وانصبابِ أَنْوَار الغَيْبِ. إِنَّمَا تَفِيضُ بِواسطةِ درَّة الوجودِ عليه السلامُ. وتظهر سرّ العيان الأَحَدِي الأَحْمَدِي. فَافْهَمْ. قال شيخ شيوخنا سيدي عبْد الرحمٰن الفَاسِي، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وَرَضِيَ به عَنَّا.

وَالحَاصِلُ: أَنَّ مجرَّد العَقل لاَ يُنْجِي صَاحِبَهُ. بل يضرُّهُ إِنْ وَقَفَ مَعَهُ. وَلاَ يَنْقُلُ السَّالِكَ إِلَى اللَّهِ تعالى إِلاَّ بِالغَيْبَة عَنْهُ فيتلَقَّى فِي بِدَايَتِهِ مَا يَرِدُ مِن قِبَلِ شيْخهِ بالقَبُولِ لَوْ كَانَ مُحَالاً في نَظَرِهِ. فَإِذا أَدْخَلَه الحَضْرَة، تلقَّى مَا يَرِد عليه

مِنْ رَبِّه. وتَرَكَ عَقْلَهُ وَرَاءَ ظَهْرِه؛ لأَنَّ نُورَ الْعَقْلِ كَالْقَمَرِ، ونور الْمَعْرِفَة كَالشَّمْسِ وَلاَ وُجود لنور الْقَمَرِ عند طلوع الشَّمْسِ؛ وهٰذَا قَبْلَ كَمَالِ تَصفِيَتِهِ كَمَا يَأْتِي.

وقوْلُهُ: وقَبْلَهُمْ قَدْ أَهْلَكَ بِأَوهَامِهِ الجِنَّ والبِّنَا. يَعْنِي أَنَّ الْعَقْل قَبْلَ الوَرَاءِ؛ أَي الإنسان أَهْلَكَ بأَوْهَامِهِ وَتَزيينِهِ؛ قبيلتين مِنَ الجِنّ. زيّن لهم الكفر والفسَاد حتى حَارَبَتْهُم المَلاَئكة وَأَسَارَتْ أَبَاهُمْ إِبْليس فَأَسْلَمَ وَعَبَدَ فِي السماواتِ. فَلَمَّا أُمِرَ بالسُّجُودِ لَهُ. فهَمهُ التكبر، فَطُرِدَ وأُبْعِدَ. وَلَوْ خَرَجَ عن رأي عَقْلِهِ ما اسْتعمل القياسَ الفَاسِد في تَفْضِيل النَّارِ عَلَى الطين. وَبِاللّٰهِ التوفيق.

وإِذَا كَانَ العَقْلُ مهلكةً فَعَزْلُهُ وَاجِبٌ. وعليه السُّلُوك. كَمَا أَبَانَ ذلِك بِقَوْلِهِ:

مَحَجَّتُنَا قَطْعُ الْحِجَا وَهُوَ حَجّنَا   وَحُجَّتُنَا تَتْلُوهُ بَاءٌ بِهَا تِهْنَا

يَقُولُ رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ: محجَّتُنَا أي طريقنا التي نسلكُهَا إلى ربِّنَا هي قطع الحِجَا. أي الْعَقْلُ والغَيْبة عَنْهُ بالاشتغال بِذِكْرِ اللّٰهِ. والفناء فيه. حتّى تفيض علينا أَنْوار المواجَهَة والشهود فَنَغِيب عَنِ الشاهِدِ فِي المشْهُودِ. فَلَيْسَتْ طَرِيقَتُنَا طَرِيقة الاسْتِدلالِ لفَهْمِ الطَّرِيق، حتَّى نحتاجَ إِلَى الْعَقْلِ إنما هِيَ طريقة أَذْواقٍ وَوُجْدانٍ، يغيبُ الدَّلِيل في المَدْلولِ، والذَّاكر في المَذْكور، والأصل فِي الموصُول فَنَسْتَدِل بِاللّٰهِ على غَيْرِهِ فَلاَ نَجِدُهُ؛ هذا هُوَ حجُّنا. وغايَة بُغيتنَا. وعَرَفَةُ وُقُوفِنا. مَنْ وَصَل إِلَيْه تَمَّ نُسُكُهُ وَحَجُّهُ. وَمَنْ تَعَوَّقَ عَنْهُ خَابَ سَعْيُهُ. وضَاعَ تَعَبُهُ. وهٰذَا أَيْضاً حُجَّتُنَا. وَبُرْهَان مَعْرفَتِنَا. فَمَا دَامَ السَّالِكُ يَفْتَقِر إِلَى الاِسْتِدْلاَلِ فَهُوَ فِي الطَّرِيق. فَإِذَا اسْتَغْنَى عَنِ الدَّلِيل بِشُهُودِ المَدْلولِ عليه وَرُؤيته فقد تحققَ وُصُولهُ. وفي الحِكَم: «إِلَهِي كَيْفَ يُسْتَدَلُّ عَلَيْكَ بِمَنْ هُوَ فِي وُجُودِهِ مُفْتَقِرٌ إِلَيْكَ. أَيكونُ لِغَيْرِكَ مِنَ الظُّهُور ما لَيسَ لَكَ. مَتَى غِبْتَ حَتَّى تحتاجَ إِلَى دليلٍ يدلُّ عَلَيكَ؟ ومتى بَعُدتْ حتى تكون الآثار هي التي تُوَصِّلُ إِلَيْك؟ وَقولُ الحِكَم: بِمَنْ هُوَ فِي وجوده مُفْتَقِرٌ إِلَيْكَ. يشير إلى حِسِّ الْكَائِنَاتِ مَعَ أَنَّهَا لاَ وُجودَ لَهَا أَصْلاً. إِذ المَعْرفة اسْتهلاكُ الحِسِّ فِي المَعْنَى. وقَالَ الشيْخ أَبُو الحسن رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ: «كَيْف يُعْرَفُ بِالْمَعَارِفِ. مَنْ بِهِ عُرِفَتِ المعَارِفُ».

وَأَنْشَدُوا:

عَجِبْتُ لِمَنْ يَبْغِي عَلَيْكَ شَهَادَةً وَأَنْتَ الَّذِي أَشْهَدتَهُ كُلَّ شَاهِدِ

وَفِكْرَة الاعتبار التي فيهَا شيءٌ مِنَ الْعَقْلِ تَعْمِش عيْنَ البصيرة التي هي مَبْنى فِكْرَةِ الاسْتبصَارِ. فَلاَ تخلفُ فِكْرَة الاسْتِبْصَارِ إلاَّ بقطْع موادِّ العَقْلِ والاسْتِدْلالِ. وقوله: تَتْلُوهُ بَاءٌ. أيْ وَتَتْلُو مَا ذُكِرَ مِنْ حَجِّنَا وحُجَّتِنَا بَاء الْوَحْدةِ. فَقَدْ تِهْنَا بِهَا. وغِبْنَا فِي بَحْرِهَا عن وُجودِنَا وَرَسْمِنَا وَعَقْلِنَا وَفَهْمِنَا. ولِلَّهِ درُّ سيّدي عبد الرحمن المجذُوب حيْث قال:

يَا قَارِئِينْ عِلْمَ التَّوْحِيدْ هُنَا الْبُحُوزُ اللِّي تَغْبِي

هٰذَا مَقَامْ أَهْلِ التَّجْرِيدْ الْوَاقْفِينْ مَعَ رَبِّي

وَبَاءُ الوَحدةِ تشير إلى بِي كَانَ، وَمَا يكون، في توحيد الأفعَال، وَبِي قَامَتِ الأَشْيَاء فِي تَوْحِيد الذَّاتِ. فَإِذَا غَرِقَ الْعَبْدُ فِي تَيَّارِ بَحْرِ الذَّاتِ. غَابَ عَنْ حُكْمِ عَقْلِهِ. واسْتَغْنَى بِشُهُودِ رَبِّهِ، عَنِ الاِسْتِدْلاَلِ بِعَقْلِهِ. إِذْ لَيْسَ الخَبَرُ كَالْعِيَانِ. ونقطَة الْبَاءِ يُشِيرُونَ بِهَا إلى نقطة الكَوْنِ. فَإِنَّهُ مَظْهَرُ تَجَلِّي الذَّاتِ. وَمُعَرِّفٍ لَهَا. كَمَا عُرِفَتِ الْبَاءُ بِنُقطتِهَا. وقد سَأَلَ الجُنَيْدُ الشِّبْلِي مَنْ أَنْتَ؟ فقال: أَنَا نقطة الْبَاءِ. فَأَجَابَهُ الجُنَيْدُ بتحقيق ذٰلِكَ. إذ قَالَ:

«أَنْتَ لَشاهدِهِ مَا لَمْ تَجْعَلْ لِنَفسِكَ قَدراً». أَنْتَ محقّق لِمَعْرفَتي لأَنَّهُ شيخهُ. مَا لَمْ تَثْبتْ لنفسك وجوداً مَعَ الحقّ لأَنَّ النقطة لها انفصال عَنِ البَاءِ. وَلاَ انْفِصَال للعارِفِ عن مُوجِدِهِ. ولاَ للكَوْنِ بِأَسْرِهِ عَنِ التجلّي بِهِ. وقَدْ أَشَار النَّاظِم إِلَى هٰذَا المَعْنَى، في قصيدته المشهورة. حيث قال فيهَا:

نُقطَةَ البَاءِ كُنْ إِذَا شِئْتَ تَسْمُو أَوْ فَدَعْ ذِكْر قُرْبِنَا يَا مُولَهْ

ويحتمل أَنْ يُشِيرَ بنقطةِ البَاءِ هُنَا إِلَى العبودية؛ وهي التجلّي بالسُّفليات، دون العلويات. فإنَّهَا سَبَب العِزّ والارْتِفاع. واللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

ومن وَبَالِ الوُقُوفِ مَعَ الْعَقْلِ أنه يُبْطِىء السَّيْرَ لما قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُبطِئُنَا عَنِ الصُّعُودِ لأَنَّهُ، يَوَدُّ لَوْ أَنَّ لِلصَّعِيد قَدْ أَخْلَدْنَا.

يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في شأْنِ الْعَقْلِ، أَنَّهُ يُبْطِئُنَا؛ أي يَعوقُنَا عَن الصعود عَنْهُ إلى أَسْرار التوحيد الخاصّ. بالوقوف مَعَ دَلاَئِلِهِ. وَحُجَجِهِ؛ لأَنَّهُ يَرَى أَنَّ مَا

أدركه لاَ غَاية فَوْقَهُ. وَأَسْرَارُ التوحيد الخاصّ خارجة عن مدَارِكِ العقول وإنما كَان يُبْطِئُنَا عن الصعودِ مِنْهُ إلى الترقِّي في مَدَارِجِ الأَسْرَارِ؛ لأَنَّهُ لا يُحِبُّ أَنْ نُفَارِقَهُ. بَلْ يُحِبُّ بَقَاءَنَا فِي عقالِهِ أبداً.

وكَذٰلِكَ العوائد التي تَعوَّدْنَا بِهَا، لاَ نحب أَنْ نُفَارِقَهَا. وحُظُوظ النَّفْسِ لاَ تُحِبُّ أَنْ نَخْرُجَ عَنْهَا. بل جميع ذلِكَ يحبُّ أَنْ نَخْلُدَ للصَّعيد؛ أَيْ نُقيمَ فِي عَالَمِ الأَشْبَاحِ، وهو عالم الصلصال حتَّى نبقى في قياده مَرْهُوناً مَعَهُ. فيشغلنا العَقل بِعلومِهِ وفهُومِهِ وأوهامه وأَحكَامِهِ. وتشغلنا العزائد بِالوقوف مَعَها. والنُّفُوس بالعكف على حظوظها. وكَلُّ هٰذَا مَانِعٌ مِن إِشراق أنوار التوحيد. والعروج إلى أَسْرَارِ التفريد. فَلاَ بُدَّ مِنَ الخروجِ عَنِ العَقل وخَرْق العَوَائِد، ومُخَالفة النفوس، وإلاَّ بقينا في عَالَم الأَشْبَاحِ مَحْجُوبينَ عَن عَالَمِ الأَرْواحِ، مَسْجُونينَ فِي ظُلْمَةِ الأَكْوَانِ عن شهودِ الْمُكَوِّنِ.

تنبيه: مَا ذَكرهُ الشيْخُ منْ ذَمِّ الْعَقْلِ، إِنَّمَا هُوَ لِمُريد سُلُوكِ طريق الأذواقِ. فَلاَ بُدَّ أَنْ يَنْعَزِلَ أَوّلاً عَنْ عَقْلِهِ وعِلْمِهِ وفَهْمِهِ، وينظر ما يُشير عليه شيْخُهُ. فَإِذَا زُجَّ بِهِ فِي نُورِ الحَضْرةِ، اسْتَغْنَى بِذَوْقِهِ عَنْ عَقْلِهِ، وَأَمَّا مَنْ قَنع بِمَقامِ الإِيمانِ، وبَقِيَ في مَحلِّ الإستدلالِ والبُرْهَانِ. فلا بُدَّ مِنِ اسْتِعْمَالِهِ والاِسْتِغْناء بِشَأْنِهِ فِي اسْتخراج البَرَاهين العَقلية والنَّقلية. فَمَا عُرفَ الإِلٰهُ إِلاَّ بِهِ. وَلاَ عُبِدَ إِلاَّ بِهِ. وفي الحديث: «قِوَامُ الْمَرءِ عَقْلُهُ وَلاَ دِينَ لِمَنْ لاَ عَقْلَ لَهُ»(١).

وَقَالَ عليه الصَّلاَة والسَّلاَمُ: «المَغبُونُ مَن أَخطأَ حَظَّهُ مِنَ العَقْلِ. وَلاَ تَوَصَّلَ النَّاسُ بشيءٍ أَفضَل منه في الدّنيا والآخرة»(٢). وقَال أَيْضاً: «أَساسُ الدِّينِ الْعَقْلُ، وسَيدُ النَّاس أَعْقَلُهُمْ»(٣). وقال: «سيِّدُ أَهْلِ الجنَّة بعد الْمُرْسَلينَ أَفضَلُهُم عَقْلاً. وأَفضَلُ الناس أَعْقَلُ النَّاس»(٤). وقال: «مَوْتُ أَلْف عَابِدٍ صَائِم النَّهار قَائِم اللَّيْلَ أَهْوَنُ مِنْ مَوْتِ عَاقِلٍ عَقَلَ عن اللّٰهِ أَمْرهُ ونَهْيَه وَمَا أَحَلَّ لَهُ، وَمَا حَرَّمَ

---

(١) رواه الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب، حديث رقم (٤٦٢٩) [٣/ ٢١٧] والبيهقي في شعب الإيمان، حديث رقم (٤٦٤٤) [٤/ ١٥٧] ورواه غيرهما.

(٢) و(٣) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

(٤) رواه الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب، حديث رقم (٣٤٧٦) [٢/ ٣٢٥].

عَلَيْهِ وانْتَفَعَ بِعِلْمِهِ ونَفَعَ بِهِ. وَإِنْ كَانَ لاَ يَزِيد عَنِ الفرائِضِ التي فرضَ عليه كبير زيادةٍ»(١).

وقال ﷺ: «قَسَّمَ اللَّهُ الْعَقْلَ عَلَى ثَلاثَة أَقْسَام، فَمَنْ كُنَّ فِيهِ كَمُلَ عَقْلُهُ. وَمَنْ لَمْ تكُن فيه فَلاَ عَقْلَ لَهُ: حُسْنُ المعرفة بِاللَّهِ، وحُسْنُ الطَّاعَةِ، وحُسْنُ الصَّبْرِ عَلَى أَمْرِهِ»(٢). والعَقْلُ على قسْمَينِ: عَقْلٌ مَوْهُوبٌ، وَعَقْلٌ مَكْسُوبٌ. فَالْمَوْهوبُ هو الَّذِي يسْتَعْمِله صَاحِبُهُ فِيمَا يُقَرِّبُهُ إِلَى اللَّهِ ويُعَرِّفُهُ بِهِ. والمكسُوبُ: الَّذِي يكْسِبُهُ العَبْدُ بالتجارب والمِحَنِ. وَيَسْتَعْمِله صاحِبُهُ فِي أُمُور دنْيَاهُ، واللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

ثم أَخَذَ فِي ذِكْرِ تَطَوُّرَاتِه وتَحوِيلاتِهِ فَقَال:

تَلُوحُ لَنَا الأَطْوَارُ مِنْهُ ثَلاثَةٌ ... كَرَاءٍ مَرْئِيٍّ وَرُؤْيَةِ مَا قُلْنَا

يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّ العقْلَ يَتطوَّرُ بِاعْتِبَارِ كَمَالِهِ وَنُقْصَانِهِ بِهِ، على ثلاثة أَطوَارٍ: فَتَارة يُنْظَرُ فِيهِ بِاعْتِبَارِ الرَّائِي، أَي الناظِرُ بِهِ، فَيتطَوَّرُ بِوصْفِهِ، فَإِن كَان النَّاظِرُ بِهِ كَامِلاً، اتصفَ عَقْله بالكَمَالِ، وإِن كَان نَاقِصاً، اتَّصفَ بالنقصانِ في الرائِي، باعْتبار عِرْفانِهِ وإِتقانِهِ. وَزُهْدِهِ وَوَرَعِهِ، وصلاحِهِ وكَمَال طَاعَتِهِ، وَقُرْبِهِ مِنْ رَبِّه، أَوْ باعْتِبَارِ جَهْلِهِ وضُعْفِ يَقِينِهِ، وحِرصِهِ وَطَمَعِهِ، وَفَزَعِهِ وَفِسْقِهِ، وَبُعْدِهِ من رَبِّهِ.

فالعقلُ يَزْدَادُ نُورُه بِالطَّاعةِ، والنَّزَاهة والْعِفَّةِ، والتفرُّغ مِنَ الشَّوَاغِلِ وينقُصُ بِالمعصية والحرص، وحبِّ الدُّنيا، والحظوظ واتِّبَاعِ الهَوى. كَمَا قال الشاعِرُ:

إِنَارة العَقْلِ مكْسُوفٌ بِطَوعِ الْهَوَى ... وَعَقْلُ عَاصِي الْهَوَى يَزْدَادُ تَنْوِيراً

وتارة يُنظر فيها بِاعْتِبَارِ الْمَرئِي أَي المنْظُور فِيهِ، فيتطوَّر بِنَعْتِهِ، فَإِنْ كَان علوماً نافعة، أَوْ أَحوَالاً سَنِيَّةً، يُريد التجلِّي بِهَا، فَيَنْظُرُ فِي سَبِبِهَا، أَوْ مقامات عالية يريد الرُّقِيَّ إِلَيْهَا لِكَمَالٍ، أَوْ مَعْرِفَةٍ كامِلَةٍ يريد الصُّعودَ إِلَيهَا. فيتفكَّرُ بِعَقْلِهِ في معارجِهَا. فهذا العقل كَامِلٌ لكمالِ المنظور فيه، وهو المُراد بِالْمَرْئِيِّ. وإِن كَانَ الْمَرئِيُّ أَي المنظورُ فيه ناقصاً كعُلومٍ حَدِيثةٍ أَوْ فَلْسفية، أَوْ أَقوال فاسِدة

(١) و(٢) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

تُسَوِّس بِذرةَ الإِيمانِ، أَوْ أَنْظار تخييلية أَو وَهمِية لاَ حقيقية. وَقِسْ على هذا. فَهَذَا العَقل نَاقِصٌ بِاعتبار المنظور فِيهِ.

وتارة النظر بِاعْتِبار مَا قُلْنَا فيما سَلَفَ، فَإِنْ كَان صاحِبُهُ مُريداً طريق الأذواقِ والْوُجْدَانِ فالنَّظر بِهِ نُقْصانٌ، والوقوف معه خِذلان. وإن كَان قاصداً تصحيح مقام الإيمان على طريق الاِسْتِدْلالِ والبُرْهَانِ، فَالنَّظرُ بِهِ كَمَال. وَاعْتباره واجبٌ في البَرَاهِن التي لاَ تدْرك إِلاَّ بهِ فِي بَابِهِ. وإِن أَيَّده بِأَنوار الشريعة مِنَ الكتَّابِ والسنة، فهو كمال الكَمَالِ؛ وهذا معنى قوله تلوحُ: أي تظهر لنا الأطوار منه ثلاثة. تارة يتطوَّرُ كراءٍ بِهِ. وتارة كمرئي فيه. وتارة كرؤية ماءٍ. كما قلنا فيما تقدم من التفصيل والله أعلمُ.

ثم ذكر له النَّاظم أطواراً باعتبار الرأي فقال:

وَيَبْصُرُ عَبْداً عِنْدَ طَوْرِ بَقَائِهِ ... وَيَرْجِع مَولىً بِالْفَنَا وَهُوَ لاَ يَفْنَى

يعني أَنَّ العقل يتطوَّر أيضاً باعتبار الرأي في مقام البقاءِ والفناءِ، والسلوك والجذب، فإن كان صاحبه في مقام البقاء الأوَّلِ وهو مقام الحجاب، أَبْصَرَ العقل ورَأى عبداً؛ لأنَّ صاحبَهُ عبْدٌ ما بَرح عن مقام العبودية؛ وهو السلوك الأول. وحقيقته: رؤية خَلْقٍ بِلاَ حقّ. وإن كَان صاحبه في مقام الفناءِ، وهو: شهود حقٍ بلا خلق عند غَيْبُوبيته، ويُسمَّى مقَام الجذبِ، وهو: اختطاف العقل من شهود الكَوْنِ إلى شهودِ المُكَوِّن، أو من شهود الخلق إلى شهود الحقّ. فالعقل لاَ يفنى بفناءِ صاحِبِهِ، وإنما يتغطَّى نوره بنور شمس العِرْفَانِ، كنور القمر مع الشمس، وكما أنه يتغطَّى نوره بالخمرة الحسية، كذلكَ يَتَغَطَّى بالخمرة المعنوية الأزلية. فإذا صحَا المريد من سكرته، وخرج من الفناءِ إلى البقاء، رجع نور العَقل إليه، فيميز بِهِ بين الحسّ والمعْنَى، وبين الحِكْمة والقدرة، وبين الشريعة والحقيقة، فيعْطي كل ذي حقٍّ حقهُ، وكل ذي قسْطٍ قِسْطَهُ. فالبقاء بَقَاءَانِ: بقاءٌ أَولٌ: وهو بقاء النَّفس. وحقيقته: شهود الخلق بِلاَ حق. وبقاءٌ ثانٍ بقاء بِاللَّهِ: وهو شهود خلق بِحَقٍّ. فمراد الناظم: الأولَ؛ لأنَّ صاحبَه عبدٌ محض. وأمَّا البَقَاء الثاني، فصاحبه مخيَّرٌ. إن نظر إلى نَفْسِهِ رَأَى نفسه عبداً. وإن نظر إلى معناه: رآه حرًّا. فهو يتطوَّر كيْف يشاء، العبودية طوْعُ يَدهِ،

والحرية طوع يدهِ.

وهذا هو العارفُ الكامِل يطور العقل لوحاً وقلماً، كما أبان ذٰلِكَ النَّاظِمُ بقولِهِ:

وَلَوْحاً إِذَا لاَحَتْ سُطُورُ كِيَانِنَا ... لَهُ فِيهِ وَهُوَ اللَّوْحُ وَالْقَلَمُ الأَدْنَى

يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ويبصر العقل أيضاً لوحاً، أي كاللوح المحفوظ إذا لاحت سُطُورُ الكَائِنَاتِ إذا صَفَا وتَطَهَّر نورهُ حتى اتصل بالعقل الأكْبَرِ؛ وهو أَوَّلُ نور فَيَّاضٍ من بَحرِ الجبروتِ. وفي الحديث: «أَوَّل ما خلق اللَّهُ العَقل. فقال له: أَقبل، فَأَقبَلَ ثم قال له: أَدبر فأَدبَرَ. ثم قال: فوعزَّتِي وجَلالِي لا أُعطيكَ إلاَّ لِمَنْ أَحْبَبْتُ مِنْ عبادِي»(١).

وهو حديث متكلَّمٌ فِيهِ بالوضع والضعفِ، ويُسَمَّى أَيْضاً هٰذَا العَقْل: الرُّوح الأَعْظَم، فَإِذَا تَطَهَّرتِ الرُّوح، وَكَمُلَ صَفَاؤهَا، استولى نُورها على الكَائِنَاتِ بِأَسْرِها. فالعَقل والرُّوحُ إذا كمُل تطهيرهما انْطوى فيهما جميع الكَائنات وصار كاللوحِ المحفوظ، وإلى ذلك أَشار في المباحث الأصلية بقوله:

أَعْقِلْ فَأَنت نُسْخَة الوجودِ ... للهِ مَا أَعْلاَكَ مِن موجودِ

أَلَيْسَ فيكَ العرشُ والْكُرسِيُّ ... والْعَالَم الْعُلْوِي والسَّفلِيّ

وما الكَوْنُ إلاَّ رجُلٌ كَبِير ... أنت كَوْنٌ مِثْلُه صَغِيرُ

وقال النظام في بعض أزجَالِهِ:

وَأَنت مرأىً للنظر قطب الزمانِ ... وفيك يطوى ما انتشر مِنَ الأوانِي

وقوله هنا: سُطُور كياننا، أصْله كواننا، فجمع على أَكوانٍ وَكِوَانٍ. أي يصير لوحاً، إذا لاَحَتْ سُطور أَكْوانِنَا لصاحبِهِ فيه: أيْ فِي عَقْلِهِ؛ وهو حينئذ اللَّوح المحفوظ الأَدْنَى والقلم الأَدْنَى: أي الأَصْغَر، إِذِ الأكبَر هو اللَّوح المحفوظ؛ والقلم الذي يَكتب فيه. ومِن تصرُّفِهِ بالقلمية فِي لوحه ما ذكر الناظر

---

(١) روى نحوه الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب، ذكر حديث الأوائل، حديث رقم (٤) [١٣/١].

في لوحه ما ذكر الناظم بقوله:

يَمُدُّ خُطُوطَ الدَّهْرِ عِنْدَ الْتِفَاتِهِ إِحَاطَتُهُ الْقُصْوَى الَّتِي فِيهَا أُظْهِرْنَا

يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ: لَمَّا شَبَّه العقل بِالْقَلَم إِذَا اتَّصَل نوره بِالْعَقلِ الأكْبَرِ يمدّ هذا العقل خطوط الدَّهر، فَيُجَلِّي فيهِ الْمَاضِي والآتِي والحال. فَكَأَنَّ الأَزْمِنَة قد كَتَبَت وسطرت في مرآته، من مدد نُورِه عند التفاتِهِ إِلَيْهَا فيرى الأول عيْن الآخر، والماضي عين الحال. إذ المتجلي في الأزمنة واحد، وهذه إحاطته القصْوى، وغاية إدراكِهِ. وأما تفاصيل كيْفيتها وما يقع فيها مِنَ المقدوراتِ، فمن شأن الرّبوبية؛ لأنّا في هذه الأزمنة ظَهَرْنَا، وظَهَر وجودنَا، فلا نعرف وراءه تَفْصِيلاً. وهي سِدْرة منتهى الْعقل.

كَما أَبَان ذَٰلِكَ النَّاظمُ بقوله:

أَقَـامَ دُوَيْنَ الـدَّهْـرِ سِـدْرَةَ ذَاتِـهِ وَنَحْنُ وَوَصْفُ الْكُلِّ فِي وَصْفِهِ صِرْنَا

قلتُ: دُوَيْنَ: تَصْغير دون؛ وهو ظرف لأَقَامَ، والدهر عبارة عن مرور الفلكِ، وسِدْرةَ مفعول أقامَ. ونحن مبتدأ، وصِرْنَا خَبَرٌ. وفي وصفه متعلق بِهِ.

يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في شأن العقل الأصْغَرِ، أَنه أَقَام سِدْرةَ ذَاتِهِ، ومنتهى عِلْمِهِ، دون إحَاطَة الدَّهْرِ. وَمُرورِ أفْلاكِهِ. فَلاَ يعرف ما وراءها من الأَسْرَار اللطيفة؛ التي لاَ نهاية لَها وَلاَ حدّ فوقاً وَلاَ تحتاً، وَلاَ طولاً ولاَ عرضاً. وَرُوي أن ملكاً اسْتأْذَنَ اللّه تعالى أَنْ يصعد في هذه الأَسْرَار الخارجة عن العرش. فَأَذِنَ لَهُ؛ فطار ثلاثين أَلفَ سنة. فقال أَيْنَ أَنْتَ يَا رَبِّ. فَقَالَ: «أَنَا مَعَكَ»، فَتَابَ وَطَلَبَ الرُّجُوعَ ثم طار ثلاثين أُخرى، فقال: أَيْنَ أَنْتَ يا ربِّ. فَقَالَ: «أَنَا مَعَكَ» فَتابَ وطلب الرُّجوعَ إلى عُشِّهِ، فَالعظمة المحيطة بكورة الكَوْنِ لاَ نِهَايَةَ لَهَا.

فالعقل المعقول، مسجُون بمحيطاتِهِ محصور في هَيْكل ذَاتِ صاحبِهِ. فَلا يرى إِلاَّ حِسَّ الكَائنات المحيطة بِهِ، ولو تكمل نورهُ واتَّصلَ بنور العَقل الأكْبَرِ لخرجَتْ فِكْرتُهُ عن دائرة الأكوانِ إلى شهودِ المكوِّنِ في دائرة مكوَّنَاتِهِ. وفيما خرج عَنْهَا مِنَ الأَسْرارِ التي أَحَاطَتْ بِأَفْلاَكِ الأَنْوَارِ. مع كَوْنِ العقل عاجزاً عن النّفوذِ إلى ما وراء أفلاكِ الدَّهرِ، فَقَد حَار النَّاس فِي أفلاكه، بل وصفه عموماً

وخُصُوصاً فَلَم يقفُوا على كُنْهِ حَقِيقتِهِ وَلاَ أَيْن محَله؛ وهذا مَعْنَى قولِهِ: ونحن وصف الكُلّ في وصْفه حِرْنَا. وأقرب ما قيل فيه: إنه نور لطيف يُدركُ به العلوم الضرورية والنظرية. قيل: محَلّه الدّماغ؛ وهو مذهب الفلاسفة. وقيل محله القلْب. لقوله تعالى: ﴿ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ [الحج: ٤٠٩]. وجمع بعْضهم بيْن القَوْلَيْنِ، بأن قال: محلهُ القلبُ. ويتّصل شعاعه بالدّمَاغ، بدليل أَنّ الإنسَان إذا ضُرِب في دمَاغِهِ، اختَلّ عقلهُ والله أَعْلَمُ.

ثم ذكر النّاظِمُ تطويراً آخر فقال:

يقيدُ بالأَزْمانِ للدَّهرِ مثلَ مَا يكيف لِلأَجْسَامِ مِنْ ذَاتِهِ الأَيْنَا

يقول رَضِيَ اللّهُ عَنهُ في شَأن العقلِ أن يقيد الدّهر بالأزمنة: بالماضي والمسْتقبل والحَالِ. فالحركة التي انْقَضَى من الفلك زمانها ماض، والآتية زمانها مستقبل، والحاضرة زمانها حال، ولوْلاَ العقل لاَسْتَوَتِ الأزمنة. ألاَ ترى أَنَّ غَيْرَ العاقلِ لاَ شعور له بهذه الأزمنة. فإذَا صَفَا نور العقل، وتَوجّه لِمَوْلاَه، غَابَ عن المَاضي والمُسْتقبل، واشتغل بعمارة الأرضِ الوَقتَ الذي هو فيه.

وأما العَقل الأكْبَرُ، فما عنده زمان واحد، لرؤيته للمتجلي به؛ وهو واحد. فصاحب الشهود غائب عن الماضِي والمستقبل والدّنيا والآخرة؛ لاسْتغراقه فِي شهودِ الحقّ الّذِي لاَ يتقيد بزمَانٍ وَلاَ مَكَانٍ، بل هو عيْن الكُلّ موجود في الكُلّ، فافهم.

من كَلاَم شيخ شيْخنا رَضِيَ اللّهُ عَنهُ في بعض رَسَائِلِهِ لَنَا: إذَا حَصَلَتِ الرؤية، غَابَ الرائي، والدّنيا والآخرة وغاب كل شيء، إلى آخر كلامِهِ رَضِيَ اللّهُ عَنهُ. ومن شأن ذَاتِ العقل أيْضاً، أن يكيّف للأجسام الأماكن والهيئآتِ. ويميز بيْن الأشخاص والذّوات، ويعرف ما كان مجموعاً في عَالَم الغَيْبِ. وما هو باق في جَمْعيتهِ في عَالَم الشهادة. إذ الوجود كله ذات واحِدة وبحر متصل في الحقيقة بالعقل الأصْغَرِ الذي هو فرْقُ ما كان مجموعاً؛ لأنه معقول ومحصور في عالم الحِكمة فَلاَ يدركُ ما غاب عنه في عالم القدرة. وأَما العقل الأكْبَر، ويسمَّى أَيْضاً: الروح الأعظم، فإنه يَرَى الوجود كُلَّهُ ذاتاً واحدة، وَهذه الأشكَال والرُسُوم، تلوينات وتطويرات، للخمرة الأزلية الكُلّية المتصلة بعضها

بِبَعض، وَهٰذَا الذي قصده الشاعر في الشعر المتقدم بقولِهِ:

إلـى وجـود تـرانـي رتـقـاً بِـلاَ ابْـتـعَـادِ وَلاَ اقـتـرابِ

إلى هذا التكييف والتمييز أشار النَّاظم بقولِهِ: مثل ما يقيد للأجسام أي يقيد الدَّهر بالأزمانِ تقييداً شبيهاً بتكييف الأجسام بالأيْن، والوصف.

وقوله: من ذاتِهِ، أيْ مِنْ ذَاتِ العَقْلِ وحقيقته الضعيفة كَيْف الأجسام والأيَن والجهات؟ ولو قوي نوره، لاتَّصَلَ نَظَرُهُ بِكل الجهاتِ. وأَرَادَ بالأيْن هُنَا مَا يَعُمُّ الذَّوات، والأمَاكِن، والصفات، وسائر العوارض الجسْمَانية. واللّٰهُ تعالى أعْلَمُ.

ومما يُدركه العقل أَيْضاً على سبيل الإِجْمَالِ، بعض العوالم العلوية، كما قال النَّاظِم:

وَعَـرْشـاً وَكُـرْسِـيًـا وَبُـرْجـاً وَكَـوْكَـبـاً وَحَشواً لِجِسْمِ الْكُلِّ فِي بَحْرِهِ عُمْنَا

يقول رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ: ومما يُدْركه العَقْلُ أَيْضاً من العَوَالِم العلوية، العرشُ والكرسِيُّ أي شَخْصُهُ. ويميزهُ على ما أدركه من طريق السَّمْع وإلاَّ فَلاَ مُدْرِكَ لَهُ لهذه الْعَوَالم الْغَيْبية، بمجرَّدِهِ. ويدرك أَيْضاً البُرْجُ والكَوَاكبُ والمنازِلُ؛ وهذا أَمْر مشاهَدٌ بِالْبَصَرِ. وإِنَّما شأْنُ العقلِ فِيه التفصيل، وتدْقيق ما فيها مِنْ عَجَائِبِ القدرةِ، وأَسْرَار الحِكْمة. ويدرك أَيْضاً الحَشو الذي بيْنهُمَا؛ وهو الفضاء الَّذِي بيْن العَرْش والكُرْسِيّ. وبيْن كل سَماءٍ وسمَاءٍ، وبيْن السَّمَاءِ والأرْضِ؛ هو الهَوَاء الَّذِي نَحْنُ فِيهِ، وهٰذَا معْنَى قولِهِ؛ وحشواً لجِسم الكلّ. أي ويدرك حَشواً، المنسوب لكل جِسْم؛ وهو الهواء الَّذِي بيْن الأجسام العُلْوية، وبيْن العلوية والسّفلية.

ثم ذكر الشيخ أَنَّ الخلقَ كُلَّهُمْ دائمُونَ، وسَابحونَ في بَحْر أَسْرارِ الذَّاتِ. بقولِهِ: في بَحْره عُمْنَا. أيْ فِي بَحْرِ الكُلِّ عُمْنَا؛ وهو بَحْرُ الوَحْدَةِ؛ لأَنَّ بَحْرَهَا مُتَّصِلٌ والخلق فيه كالحُوتِ في المَاءِ. وإِن كَانُوا لاَ شعور لَهُمْ بِذٰلِكَ فَمَنْ شَعَرَ بِذٰلِكَ واتَّسَعَتْ معرفته حتى خَرَجَتْ فِكْرَتُهُ عَنْ دَائِرَةِ الأكْوَانِ، واتَّسَعَتْ نَظْرتهُ، وَجَدَ الأفْلاَكَ تدور فِي الشَّمْس والقمر، ويشرقان في فضاءِ قلبِهِ. كما قال النَّاظم في بَعْضِ أَزْجَالِهِ:

الفُلكُ فِيكَ يَدُورُ . . وَيَطْلَعْ وَيَلْمَعْ … والشموس والبُدُورُ فِيكَ تغِيبُ وتطْلَعْ

وقال غَيْرُهُ:

إِذَا كُنتَ كُرْسِيّاً وَعَرْشاً وَجَنَّةً … وَنَاراً وأَفْلاكاً تَدُورُ وَأَمْلاكَا

وكُنتَ مِنَ السِّرِّ المَصُونِ حَقيقَةً … وَأدْرَكْتَ هٰذَا بِالْحَقِيقَةِ إِدْراكاً

فَفِيمَا التَّأَنِّي فِي الحَضِيضِ تَبَطُّؤاً … مُقِيماً مَعَ الأَسْرَى أَمَا أَن إِسْرَاكَا

أي إِذَا كنت أَيُّهَا الآدمي جامعاً لهٰذِهِ العَوَالِم، وكُنتَ مِنْ عَيْن السرِّ المَصُونِ. وعيْن الكَنز المَدْفون، وعَرَفْتَ أَنَّ هٰذَا كَامِنٌ فِيكَ، فَفِي أَيِّ شيءٍ هٰذَا التأخير والتَّوانِي، عن النهوضِ إلى اللّٰهِ، بحذفِ عَوَائِدِكَ، وجهادِ نَفْسِكَ، حتَّى تعرف هٰذَا ذَوْقاً وكشفاً. وإلى كَمْ تَبْقَى في الحَضِيضِ من عالَم الأشباحِ تَتَبَطأً عنِ العُرُوج إلى سَمَاءِ الأرواحِ مقيماً مع الأَسَارَى، في أَيْدِي نُفُوسِهِمْ تَلْعَب بِهِمْ كيف شاءَتْ فما هٰذَا إلاَّ الخُسْرَان المبين، أَمَا آنَ إِطْلاَقك من يَدِ نَفْسِكَ، وعُروجُك إلى فضاءِ شهودِ ربِّكَ. وفي الحِكَم: «وَسِعَك الكَوْنُ مِنْ حيْث جثمانيَّتُكَ، ولم يَسَعْكَ مِنْ حيْث ثبوتُ رُوحَانيتُكَ، وباللّٰهِ التوفيق.

ثم ذكر النَّاظم فِي تطوير العَقْلِ أيْضاً:

وَفَتْقٌ لأَفْلاكِ جَوَاهِرَهُ الَّذِي … يُشَكِّلُهُ سِرُّ الْحُرُوفِ بِحَرْفِنَا

قلت: فَتْقٌ: مبْتدأ، وخبره محذوف، أي من شأنه فتْق. والمسَوِّغ: العمل وجَوَاهِرَهُ مفعُول بِهِ. والضمير للأفلاك. والمراد بها الجِنس. ولو قَال جواهرها التي يُشَكِّلها لكَان أَحْسَن.

يقول رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ: ومِن شَأْنِ هٰذَا الْعَقل: أَنْ فَلَّقَ الأفلاك الدَّائرة بكرة الأرضِ جواهرها. بِأَن أَدرك محاسنهَا، وخواصها من مَنَافعها ومضارهَا. بقدرة الحكيم العليم لاَ على ما يزعمهُ أَهْل التنجيم. فقد جعل الحق سبحانه بقدرته وحِكمتِهِ لكلِّ فلكٍ خاصية يقع بها التصرف في هذا العالم السُّفلي. وفي الحقيقة، إِنَّما التصرف لله الواحد القهَّار. وإنما ذلكَ منها أَمارات وعَلاَمَات، كما جعل في العشب، وجعل لنزول المطرِ أَمَارة، وغير ذلك مما هو مقرر في عِلْم الحِكْمَةِ، فَإِنَّ عَالَمَ الحِكمة مبنيٌّ على الأسباب، والعِلَلِ، والحِكَم. وعَالَم

القدرة في لحظة بِغَيْر علةٍ، وَلاَ سَبَبٍ لكن لِكلّ قدْرة حِكْمة؛ وهي رداؤها وصوانها في هذه الدّار؛ التي هي محلّ التكليف.

ويسمى في الاصطلاح عَالَمُ الحِكْمة عالمُ الخلق، وعَالَمُ القدرةِ: عَالَمُ الأمْرِ. كما قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُۗ﴾. [الأعراف: ٥٤] فَعَالَم الخلق بالتدرج والأسباب. وعالَم الأمر كُن فيكون. لا يَبرز شيء من عَالَم الأمْرِ إلا بِرِدَاءِ عَالَم الخلق إلاّ ما كَانَ من الخوارق، كالمعجزات والكراماتِ في هذه الدّار. الحكمة ظاهرة والقدرة باطنة. وفي دار الآخرة بالعكْس، القدرة ظاهرة والحِكمة باطنة، لاَ تصرّف لَهَا. فلذلك تظهر الخوارق للعام والخاصّ؛ لأَنها دار التصريف. وهذه دار التكليف. لتَظْهَر مزية الإيمان بِالْغيب هُنَا.

وهذه الجَوَاهر، أي الخوَاصّ التي فتقها العَقْل بِالأَفلاك إما يشكلهَا في الأفلاكِ ويَبْرز منْهَا ما يَبْرز. فسِرّ الحروف الهجائية وكذلك الدّراري[1] السبعة لها خَوَاصّ وطبائع، على ما زعَمَه أَهْل التنجيم؛ ولها حروف من حروف العَجَم، تتصرف في باب الحِكمة، التي مَحَلُّها الظاهر. وأَمّا في الباطِنِ، فما ثَمّ إلاّ اللّهُ.

وقول النّاظم بِحَرْفينَا، لعَلّهُ يشير إلى حرف الألفِ والباءِ. فإن جُلّ أَسْرار الحروف راجعة فِي المعْنَى إِلَيْهِمَا؛ لأَنّ الألف يشير إلى وحدَة الذّاتِ والباء تشير إلى وحدة الصفاتِ والأفعال: إِنّي أنا الواحد الأحَدُ بِي كَانَ وبي يكون إلى الأبَدِ. وقول الشيخ زروق، يشير إلى اسْمه الظّاهر والباطن لا مُنَاسبَة لهُ في هٰذَا المقام، فهو بعيدٌ. واللّهُ تعالى أعْلَمُ.

ثم ذكر النّاظِمُ حكْماً آخَرَ للعَقْلِ فَقَالَ:

يُفَرِّقُ مَجْمُوعَ الْقَضِيةِ ظَاهِراً ... وَتُجْمَع فَرْقاً مِنْ تَدَاخُلِهِ فُرْنَا

يقولُ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ: ومن شأن العقل أيْضاً أنّهُ يُفَرّق مجموع القضية، أي يُفَرّق ما أصْله مجموع في قضية الخَمْرَة الأزلية. ففي الحقيقة، الوجود كله

---

(١) جاء في كتاب الصحاح للشيخ إسماعيل الجوهري: «قال الفاء: والعرب تسمي الكواكب العظام التي لا تعرف أسماءها: الدراري.

مجموع، ذات واحدة، وبَحْرٌ واحد متصل أوله بآخِرِهِ وظَاهره بباطنه وإنما جَاءَ تَفْرِيقهُ في الظَّاهر من ناحية العَقل، لقصر إدْرَاكه. فَإنما أَدرك الفروقات الكونية الحسية. وفاته المعاني المتصلة القديمة الأزلية. وهي المراد بمجموع القضية، ففرقُهَا ظاهرة. وهي مجموعة في فَرْقِهَا.

وهٰذَا معْنَى قَوْلِهِ: «وتجمع فَرْقاً» فالجملة حالية. وفَرْقاً حال من ضمير تجمع: أي يُفَرِّق مجموع الخمرة الأزلية ظَاهراً، والحال أنها تجمع في حال فَرْقِهَا، فهي مفروقة ظاهراً مجموعة باطناً. ومن أَجْل تداخل فَرْقها في جَمْعِهَا وجمعها في فَرْقها فُزْنَا بالمعرفةِ الكَامِلَة، حيث مَيَّزنَا بَيْنَهما، فَأَنْزلنا الفرْقَ فِي مَحَلِّهِ، وهو عَالَم الحِكمة والجمعَ في مَحَلِّهِ. وهو عَالَمُ القُدْرَةِ وعالَمُ الذَّاتِ. وكثيرٌ مِنَ النَّاس التبَس الأمْرُ عليْهِمْ. فَوَقَفُوا مع الفَرْقِ المحْضِ. وحجبُوا بِهِ عَنِ الجَمْعِ. وبعضهم غَرِقُوا فِي بَحْرِ الجَمْعِ، وحجبُوا عن الفَرْقِ وهو نقصان بِمَحْض جذبِهِ، أَوْ زَنْدَقتِهِ إنْ كَانَ له سلوكٌ. وبالله التوفيق. ثم قال النَّاظم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

وَعَـدَّدَ شَـيْـئـاً لَـمْ يَـكُـنْ غَـيْـرَ وَاحِـدٍ   بِـأَلْفَـاظِ أَسْمَـاءٍ بِهَـا شَتَّـتَ الْـمَـعْـنَـى

قلت: هذا تقرير لمَا قبله، وتتميم لهُ. يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ومن شأن العَقل المعقول، أنه عدَّدَ شيئاً؛ وهو الوجود الحقيقي، وكثَّر فُرُوعَهُ. مَعَ أَنَّه لَمْ يَكُنْ فِي الحقيقة إلا شيئاً واحِداً، أَوْ ذَاتاً واحدةً. قال الشَّاعِرُ:

هٰـذَا الـوجـود وإن تـعـدد ظَـاهـراً   وحـيـاتِـكـم مـا فـيـه إلاَّ أَنْـتُـمُ

ومغْنَى قوله: وعدَّدَ: أي اعتقد تعديده وكثرتهُ. مع كونه واحداً في الأزلِ. كَانَ اللَّهُ وَلاَ شَيْءَ مَعَهُ، وهو الآن على ما عليه كَانَ. وإنما تعدَّد هٰذَا الشيْء الواحد عند الْعَقْل بسَبب ظهور ألفاظ الأسماء لمسَمَّيَاتِ متعددة، كالسَّماءِ والأرْضِ والعرشِ والكرسي، وأَسْمَاء أَنْوَاع الحيواناتِ، والجَمَادات، فلكل شخصٍ جزئي من هٰذَا الوجودِ اسم يخصّه، ليتميَّزَ بِهِ وفي الحقيقة إنما هي تجليات، ومظَاهر، للواحد الأحَدِ، وفروع وتلوينَات للخمرَة الأزلية.

وَفِي ذٰلِكَ يقول الشيخ عبد الكريم الجيلاني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ونَفَعَنَا بِبَرَكَاتِهِ:

تَجلَّى حَبِيبي فِي مَرَائِي جَمَالِهِ فَفِي كُلِّ مَرأىً لِلحبِيبِ طَلائِعُ
فَلَمَّا تَبَدَّى حُسْنُهُ متنوِّعاً تَسَمَّى بِأَسْمَاءٍ فَهُنَّ مَطَالِعُ

وقوله: بما شَتَّتَ المَعْنَى أي بسَبب تَعَدُّد هذه الأشياءِ، مَعَ أَنَّ المسمَّى واحد. فرَّق العَقلُ المَعْنَى أي اعتقد تفرقها ظاهراً؛ وهي مجموعة متصلة باطِناً. فبحر المعاني متصل، وأَمْواجه متفرقة؛ وهي مِنْهُ، بل عيْنُهُ. والمراد بالمعْنَى: السرّ الأزَلِي اللطيف القائم بالأشياء الحسية، السَّارِي فيها. والأشياء الحسية، إنما هي تكلف للمعْنَى اللطيف، الذي هو الخمْرة الأزَلية، فلولاَ الحسّ، ما ظهر المعنَى. ولولاَ المعْنَى، ما قام لِلأَشياءِ وجود فالأشياء الحسية، حاملة للمعاني، ولهذا قال النَّاظِم في بَعْض أَزْجالِهِ:

لاَ تَنْظر للأوَانِي، وخُضْ بَحْرَ المعاني، لعلكَ تَرَانِي. وقال ابن الفارض في خمريته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

ولطف الأواني في الحقيقة تابع لِلُطفِ المَعَانِي والمعانِي بِهَا تَسْمُو

والمعاني تَسْمُو أي تظهر وترفع بِالأواني، فلا ظهور لها منها فَافْهَمْ واصْحَبِ الرجَالَ. حتى يُدْخِلوكَ بِلاَد المَعْنَى، فتفُوزَ بالحِسِّ والمَعْنَى. وللشَّيخ زرُّوقَ هنا خبطٌ يدلّ على أَنَّه لم يدخل بِهِ المَعَانِي وما فتح عليه فيها إِلاَّ في آخِرِ عُمرِهِ كما تقدَّمَ. وبالله التوفيق.

ثم قال النَّاظمُ:

وَيَعْرُجُ بِالمِعْرَاجِ مِنْهُ لِذَاتِهِ لتَطويرِهِ الْعُلْوِي بِالْوهْمِ أَسْرَيْنَا

يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ومن شأنِ العقل أيْضاً، إِذا اتَّصلَ بالطبِيبِ المَاهِرِ أن يَعْرُجَ، ويُرفعَ عن عَالَم الحسِّ إلى عَالَمِ الْمَعْنَى. ومن عَالَمِ الأشباحِ، إلى عَالَمِ الأرْوَاحِ. ومن شهودِ المُلْكِ إلى شُهُودِ المَلكوتِ والجَبَرُوت. وذلك بسَبَبِ عروجه عن رؤية حسِّهِ، إلى شهودِ مَعْنَاهُ. فالعروج والارْتقاء إنما هو منْهُ إِليْهِ. وهذا معنى قَوْلِهِ: منهُ لذاتِهِ أي من شُهُودِ حِسِّهِ الظاهر، لِرؤْية ذاتِهِ الحقيقية والمعنوية. فليْس الأمْرُ عنك خارجاً كما قال النَّاظم فِي بَعْضِ أَزجَالِهِ:

وَإِلَيكَ وَأَنْتَ مَعْنَى الخَبَرْ وما دونك غَيْرياً محل الفقر

أي الذَّاتُ. وإنما جاءهُ هذا الرفع والعروجُ المذكورُ لتطويره بالمقام العلوي، وهو محل الشهود والعيّان الذي هو مقام الإِحسان. وإذا حققت الأمر لاَ تجد ارْتفاعاً وَلاَ عروجاً؛ لأَن الحق كَان وحدهُ؛ وهو باقٍ وحْدَهُ. لكنَّ الوَهْمَ أَثبتَ الغَيْرية والإثنينية فإذا ارْتَفَعَ الْوَهْم، والجَهْلُ، لم تجد إلاّ الواحد الأحد في الأزَلِ وفيما لاَ يزال. ما تجلَّى بِهِ في الأزلِ، هو ما تجلَّى في الأبدِ، من غَيْر زيادة وَلاَ نقصانٍ. إذا وقَعَتِ الغَيْبَة عَنِ الأشكالِ والرّسوم التي هي وَرَاءَ الْكِبْرِيَاءِ. وهذا مَعْنَى قَوْله: بالوَهْم أَسْرَيْنَا أي إنما أَسْرَيْنَا وارْتَقَيْنَا، وثبت لنا ذلِكَ بسبب الْوَهْمِ. وأمَّا لَوِ ارتَفَعَ الوَهْمُ وثبت الحقُّ، لم يَبْقَ لأَحَدٍ ارتِقاءٌ ولا عُرُوجٌ، وهذا الوهْمُ وإن كَانَ عَدَمياً فَهُوَ حاصل فِي عَالَم الحكمَة، وثبوته حق بِهِ وَقَعَ الحجاب لجلّ النَّاسِ. فهو نَوْع من قَهْرية الحقّ الّذي قَهَرَ بِهَا عبادهُ كما قال في الحِكَمِ: «مِمَّا يَدُلك على وجودِ قَهْرِهِ. أَنْ حَجَبَكَ عنه تعالى بِمَا لَيْسَ بِمَوْجودٍ مَعَهُ». وَباللَّهِ التوفيق.

ثم ذَكَرَ النَّاظِم نُزُوله لِلْعُبُودية، بالقيام بوظائف الربوبية فَقَالَ:

وَيَجْعَلُ سُفْلِيّا وَيوهِمُ أَنّهُ ... لِسُفْلِيّهِ الْمَجْعُولِ بالذّاتِ أُهْبِطْنَا

يعْني أَنَّ العقل تارة يَرْتَقِي علوياً بعروجِهِ، من أَرْضِ الأشباحِ، إلى عالم الأرواح، في مقام الفَنَاءِ، وتَارة يُجعل سُفلياً بنزولِهِ من سَمَاءِ الحقوقِ إلى أرْض الحظوظِ. للقيام بِآدابِ العبودية، في مقام البقاءِ ويُوهم إِذَا نَزَل إلى السّفليات أنه المَجْعول سُفلياً بالذَّات حقيقة. وليس كذلِكَ. إنما هو تنزّل وإظهار للعُبُودية مع كَوْنه علوياً حقيقة ذاتية. لأَنَّ هٰذَا إنما هو تلوين للخمرة الأزلية تظهر التنزيل منها إلَهيًا، فهي علوية في سفليّها رفيعة في وَضْعِهَا.

قال شيخ شيوخنا سيدي علي الجَمَلِ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ: «انظر يا أخِي وتَأَمَّلْ هذه الخمرة كيْف كَملت فيها الأوصاف، وتوفَّرَتْ فيها الشروط، وكيْف كَمُل نُقصانها، كما كَمُل كمالها. سبحان من أظهرهَا بالكَمالِ في النَّقْصِ والكمال حتى صار الكُلّ كَمالاً وَلاَ نَقْصَ». وكذلكَ «أنظر يا أخِي ما أَقرَبَهَا فِي بُعْدهَا. وَمَا أَبعدها في قُرْبِهَا، وما أَرْفعها في سُفليّهَا. وما أَوضعها فِي علويّها. وما أَكْبَرهَا في صغرها. وما أَصْغَرها في كِبَرِهَا. وَمَا أقواها في ضُعفِهَا. وَمَا أَضْعَفَهَا

فِي قُوتِهَا. وَمَا أَغْنَاهَا فِي فَقْرِهَا. وَمَا أَفقَرَهَا فِي غناهَا. وَمَا أَعزَّها عَلى نَفْسِهَا، وَمَا أَذَلَّهَا لنَفْسِهَا وما أَعْظَمَ قدرتها على نفسهَا، وَمَا أَضْعَفَ عجْزِها عن نَفْسِهَا» إلى آخِرِ كَلامِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. والمراد إِنها تُسْتَر في حَالِ تجلّيهَا فَتُظهر من نَفْسِهَا النَّقْصَ؛ وهي في غاية الكَمَالِ ليَبْقَى السِّرُّ مَصُوناً. والكَنْزُ مدفوناً.

وقوله أُهْبِطْنَا لعله حذف قُلْ أي يُوهم أنه المَجْعول بالذَّات سُفلياً، ويُوهم أنه قد أُهْبطنا من عُشّ الحَضْرَة الْعلية إلى أَرْض الحظوظ السّفلية. مع أَنَّنا لَمْ يَقَعْ لنَا هُبُوطٌ. إِنَّمَا هُوَ شَرَف، زيادة في الارْتقاءِ؛ كَأَنَّ المُرِيد كُلَّما نَزَل لأَدَاءِ الحقوق، ارْتفعَ وارْتَقَى إِلَى دَوَام الشهودِ، لأَنَّهُ يَنْزِل بِالإِذنِ والتمكين، والرسُوخ في اليقين، لاَ فِي المُتْعة والشهوة، والله أعلمُ بمرادِ الشيخ بقولِهِ: أهبطنَا، وأظنه تَصْحيفاً. إِذْ لَيْسَ فِي يَدِنَا إِلاَّ نسْخة مصحَّفَة ومن ظَهَرَ لَهُ غير ما قلْنَا فليلحقه بِالطُّرَّةِ(١)، وأَجْرُهُ على اللَّهِ.

ثم قال النَّاظِمُ:

يُقَدِّرُ وَصْلاً بَعْدَ فَصْلٍ لِذَاتِهِ ... وَفَرْضَ مَسَافَةٍ يُحذُّ لَهَا الدَّهْنَا

قلت: وفرض عطف على وصْلاً. ويحذُّ بالذَّالِ المعجمة يقطع، الدَّهْنَاءِ بِالْفَتْحِ والمَدِّ ويُقْصر: الفلات كما في القاموس. يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ومن شأن الْعَقْلِ أنه يقدر الوصول إلى حضرة الحق بعد انْفِصَالٍ، كان بَيْنَه وبَيْنَهَا. وَهٰذَا من جُمْلَة وَهْمِهِ. إِذ لاَ انفِصَال وَلاَ بينونَة بيْنَ العَبْد وَرَبِّهِ، وإنما جَهْله هو الذي بَعَّدَهُ في حال قربِهِ، وفَصَله في حال وصْلِهِ. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾. [:] وفي الحِكَم: «لاَ مَسَافَةَ بيْنكَ وبيْنَهُ حَتَّى تطويهَا رِحلتكَ. وَلاَ قَطِيعة بيْنك وبَيْنَهُ حتى تمحُوهَا وَصْلَتك». وقال أَيْضاً: الحق ليْس بمحجوب عنكَ. إِنما المحجوب أَنْتَ عن النظر إليه. إِذْ لو حجَبَه شَيْء لسَتَرَه ما حَجَبَهُ. ولو كَان له سَاتر، لكَان لوجوده حاصِر. وكل حَاصِرٍ لشَيْءٍ فهو لَهُ قاهِرٌ: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾.

(١) طُرَّةُ الثوب: موضع هدبه، وهي حاشيته التي لا هدب لها، وطُرَّةُ الأرض أحاشيتها. وطرة كل شيء: طرفه. ومراد المصنف هنا والله أعلم: الحاشية.

[الأنعام: ١٨] وقال أَيْضاً: «كيْفَ يَحْتَجِبُ الحق تَعَالَى بشيْءٍ. والذي احْتَجَبَ بِهِ هُوَ فيه ظاهر، وموجود حَاضِرٌ. فتحَصَّل أَنَّ الحق تَعَالَى لاَ حَائِلَ بيْنَكَ وَبيْنَهُ. وَلاَ فَصْلَ وَلاَ بينونة، كما قال القَائل:

فَلَمْ يَبْقَ إلاَّ اللَّهُ لَمْ يَبْقَ كَائِنُ ... فَمَا ثَمَّ مَوْصُولٌ وَلاَ ثَمَّ بَائِنُ

فَالْعَقْل لضعفه هو الَّذِي يُقَدِّر الوصلَ، بعد الفَصْل لذاتِهِ عن حَضرة الحقّ. ويُقدر أَيْضاً: فرض مسَافات وَمَهَامِه بَيْنَهُ وبيْن الوصول إلى الحق، يقطع لأجلها الفلوات والمفاوز من الأرْضِ. وهذا كُلّه اسْتعارة وكناية عن قطع مَألوفَاتِ النَّفس وَعَوَائِدِهَا. والخروج عن الطبع البَشري الذي يحجب عن شهُودِ الحقّ، والنفوذ من شهُود حسِّ الكَائنات إلى مَسَافة المَعَانِي. قال الشطيبي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في شَرْح الحِكَم: واعْلَم أَنَّ طريق اللَّه تعالى، لَيْسَ فيه مَفَازة، وَلاَ متاهة، بل هي مَنَازلٌ وأَحْوالٌ، قد جعل اللَّهُ لجميعهَا أَعْواناً وأَنصاراً؛ هو سبحانه يصدق وَعْدَهُ، وَيَنْصُر عبْدهُ. ويَهزم الأحزابَ وحْدَهُ. وإنما المَفَاوزُ والمَسَافَات في الرّكُونِ إلى المَألوفاتِ واتِّباع العادات. وفي مسامحة النَّفْس في الوقوف مع الحسِّ والحَدَس. وعن كشف الغطاء يتبيَّن ذٰلِك. وعن قطع هذه المألوفات ورياضة النَّفس عبَّرُوا بالسَّيْر والمَنَازل والمَنَاهل، كما قال في المباحث:

وَإِنَّمَا الْقَوْمُ مُسَافِرُونَا ... لِحَضْرَةِ الْحَقِّ وَظَاعِنُونَا

فَافْتَقَرُوا فِيهِ إِلَى دَلِيلِ ... ذِي بَصَرٍ بِالسَّيْرِ وَالْمَقِيلِ

قَدْ سَلَكَ الطَّرِيقَ ثُمَّ عَادَا ... لِيُخْبِرَ الْقَوْمَ بِمَا اسْتَفَادا

ومن شأنِ الْعَقْلِ أَيْضاً، إِثباتُ المَعِيَّةِ، وَالاِثْنَيْنِيَّةِ، بِمشْفعية الآثَارِ. كما قال النَّاظِمُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

يُجَلِّي لَنَا طَوْرَ الْمَعِيَّةِ شَكُّهُ ... وَإِنْ لَمَعَتْ مِنْهُ فَتُلْحِقُهُ الْمَيْنَا

وَيُلْحِقُهَا بِالشِّرْكِ مِنْ مَثْنَوِيَةٍ ... يَلُوحُ بِهَا وَهُوَ الْمُلَوِّحُ وَالْمُثْنَا

قُلْتُ: شكُّهُ: فَاعل يُجَلِّي. وأَطْلَقَ الشَّكَّ هُنَا عَلَى مُجَرَّدِ الْوَهْمِ، وَفَاعِلُ لَمَعَتْ مَحْذُوف. أي أنوار الخلائق. والمَيْن: الكذب الملوّح. اسم فاعل،

والمثنَى بِضَمّ الميم اسْمُ مفعول. والجملة حَالٌ. يقول رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ: يُجَلِّي أيْ يُظْهِرُ نُورُ العَقل لنا طوْر المعية. أي وُجودها وثبوتها وذلكَ أنَّهُ لمَّا أثبتَ الأثَرَ، أثبت نَفْسَهُ مَعَ اللّهِ لزمَهُ وُجُود الْمَعِية، والأثنينية. وهي حَال عند المحققينَ من أهل التوحيد الْخَاصِّ. قال في الحِكَم: «ما حجبك عن الله وجودُ موجودٍ معَهُ. إذ لاَ شيْء مَعَهُ. وإنما حجبك تَوَهُّمُ موجودٍ معهُ». وقال أيْضاً: «الأكْوَان ثابتة بإثباتِهِ. ممحوة بِأَحدية ذاتِهِ». وإن لمَعَت من العَقل أَنْوَار تلك الْحَقَائِق، مَحَتْ تلك المعية، وأَثْبَتَت الوجود لِلْواحِدِ الأحَدِ. فَتُلْحِقه الْمَيْنَ والكَذب في اعتقاد المعية والإثنينية. وتثبت الْوَترية للوِتْر الْفَرْد. قال الناظمُ في بعَض أَزْجَالِهِ:

وَبِــــــرَوْحِ وَرَاحِ عَـادَ شفعي وتْري

أي وبِرَوْحِ الوصالِ، وشُرْب خَمْرَة الأزل؛ صار شَفْعِي؛ وهو اعتقاد وجودي مع الحقّ وتري، حتى امتحى وُجودي فِي وُجودِهِ. فثبتَتِ الوترية التي كَانَتْ ولم تَزَلْ وَوهمُ الْعَقْلِ أثبت ضِدّهَا. فَإن قلت: قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾. [الحديد: ٤] بصحبة المَعِيَّة، سواء قلنا بالذَّاتِ أو بِالْعِلْم قُلْنَا: الخطابُ وَارِدٌ من عَالَم القدرة، إلى عَالَم الحِكْمةِ وهو محلُّ التشريع. وعالَمُ الحِكمة هو عالمُ الأشْباحِ ويُسَمَّى عالمَ الْفَرْقِ، وعَالَمَ الأثَرِ، وعَالَم الحسِّ، وعَالَم المُلْكِ. أثبته تَعَالَى بِحِكمَتِهِ لتظهَرَ فيه آثارُ صفاتِهِ وَأَسْمَائِهِ، وتظهرَ فيه آداب العبُودية للرُبوبية إذ المَلِكُ بِلاَ رعية نَاقصٌ. فأثبتهَا فَرْقاً، ومحاها بِأَحدية ذاتِهِ جَمْعاً. فأهل الحقائق ينظرونَ لعَالَم القدْرةِ، ويُسَمَّى عَالَم الْمَعَانِي، وعَالَم الملكوتِ، فلاَ يَرَوْنَ إلاَّ اللّهَ.

وأهل الشرائع يَنظرون لعَالَم الحِكْمَة، فيُثْبِتُونَ الأثَرَ والمُؤَثِّر. وعليه وَرَدَ الخطاب بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾. [الحديد: ٤] قال العارف الرَّبَّانِي، الإمام الْوَرنْجبي رَضِيَ اللّهُ عَنهُ ما نَصُّهُ: في هٰذه الآية مَقَامَانِ: مقام الجمع، وَمقام إفراد الْقِدَم عَنِ الحُدُوثِ. فَمن حيْث الوَحدة والقِدَمُ، تتصاغر الأكْوانُ، فِي عِزَّة الرَّحْمَن من سطوات عظمته، حتى لاَ يَبْقَى أثرهَا. ثم قال: ومن حيْث الجمْعُ، أثر نور الصفة، بنور العقل، ونُورُ الصِّفَةِ قائم بِالذَّاتِ.

فتجلَّى بنورهِ لفعلهِ من ذاتِهِ وصفاته. ثم يتجلى من الفِعْلِ، فترى جميع الوجود مِرْآةَ وجودهِ، وهو ظَاهر بكلِّ شيْءٍ، من كل شيءٍ، لِلْعُموم بالفعل، وللخصوص بِالاسْمِ والنَّعْتِ، ولخُصُوصِ الْخُصُوصِ بالصفاتِ. وللقَائِمِينَ بمشاهَدَة ذاتِهِ بالذَّات. وهو تعالى مُنَزَّهٌ عن البَيْنونية، والحلول، والافتراق، والاجتماع، وإنَّمَا هُوَ ذَوْق العشق، وَلاَ يَعلم تأويله إلاَّ اللَّهُ.

وحاصلُ كَلاَمِهِ أَنَّ المعية بِذَاتِهِ لذَاتِهِ مِنْ ذَاتِهِ. وَلاَ يَفْهَمها إلاَّ العَاشقونَ، أهْل الفناء والبَقاء. وقوله: ويلحقها بالشركِ؛ أي يلحق العَقل المعية التي أثبتها بِوَهْمِهِ بالشركِ الجليّ عند أهْل الفَنَاءِ من أهْل الباطِنِ. وبالشِرْكِ الخفِي، عند أهْل الظاهِرِ من مثنوية، أي من أَجْل مثنوية الأثَرِ؛ الذي أثبته مَعَ الحقِّ. يُلوِّح أي يُظهر بِها ويعتقدها وَهْماً وجَهْلاً. وهذا في عَالَم الحِكْمة، وهُوَ عالمُ الْفَرْقِ، وعَالَم التَّشْريع. وأمَّا فِي الحقيقة؛ فهو المُلَوِّح أي المُظهر للإثنينية سرَّ الأسرار رُبُوبيته. أَن تُبْتَذل بالإظهار. ويُنَادى عليها بِلِسَان الاشتهار؛ وهو أيْضاً المُثَنَّى، الَّذِي صارَ شفعاً بِاعْتبارِ الأثَرِ؛ فهُو الظَّاهِرُ في بُطُونِهِ، والباطن في ظهورِه، وباللّه التوفيق.

ثم ذَكَرَ النَّاظم حجاب العَقْل والرّوح عن سِرّ الوحدة. بعد أن كَانَتْ عَارفة بِهَا فَقَالَ:

فَنَحْنُ كَدُودِ الْقَزِّ يَحْصُرُنَا الَّذِي ... صَنَعْنَا لِدَفْعِ الْحَصْرِ سَدْنٌ لنَا مِنَّا

يقولُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فنحن كَدُود الْقَزِّ أي دود الحرير؛ لأنها تبدو أولاً ظَاهرة مُطلقة لاَ حجاب عَلَيْهَا، ثم تنسِج على نَفْسها مِن حَريرهَا. كذلكَ الأرْوَاح الإنسَانية، تبرز لهذا الْعَالَم على الفِطْرة الأصْلية لاَ حجَابَ عَلَيْهَا. ولذَلِكَ نَرَى الصِّبْيَانَ ينطقون بالمغيباتِ، وبالحكَم الباهرة، فَإذَا بَلَغت الرُّوحُ. وكمل عَقْلُهَا نظرت إلى هٰذَا الْعَالم السّفلِي. وعشقت فرُوقه. وتاهَتْ فِي حُظوظها وشهواتها، فكلما زَادَتْ فِي تيَاهِهَا تَرَاكَم حجابُهَا. **فمنها** من يتراكَمُ عليها حجاب الظلمة، كظلمة المعاصِي والمساوىء؛ وهم العَوَامّ. **ومنها** من يتراكم عليها حجاب الأنوار، كالإشتغال بِالعلوم النقلية والرَّسمية، والعقلية. فَتَتَغَلْغَل في تلك العلوم وترسخ فيها فَيَعْسُر انتقالها عَنْهَا؛ وهو أَشَدّ الحجاب.

وكالوُقوف مع حَلاَوة الطّاعاتِ، وظهور الكَرَامات، وتحقيق المقامات. كما هُوَ شأن العُبّادِ والزُّهّادِ، والمُسْتشرفينَ على علم الحقيقة، وهذا أيْضاً حجاب عظيمٌ؛ ولذا قيلَ:

أَشدُّ النّاس حجاباً عَنِ اللّهِ العلماءُ ثم العبّاد، ثم الزُّهّاد، فَهُمْ يعملونَ في خلاصِ أَنْفُسهِمْ مما يظنّونَ؛ وهم في الحقيقة يزيدون في حجَابها، وهذا مَعْنَى قوله: يحصرنا الّذِي صَنَعْنَا، لدَفْعِ الحَصْر. أيْ يَحْصُرُنَا عن مَيَادِينِ الغُيُوبِ وفضاءِ الشُّهُودِ الذي صَنَعْنَاه من الطّاعاتِ لدفعِ ذلكَ الحصر. فهو أي ما صَنَعْنَا سَدٌ، أيْ حجاب لَنَا مِنّا لأَنْفُسِنَا والخلاصُ من هٰذَا الحجاب، التضرّع إلى اللّهِ في العُثور على الطبيبِ؛ وهو شيْخ التربية النبوية فيلقي إليه زمام نفسهِ، ويَلْزَم خدمتَهُ وصحبَتَهُ، حتى يقول له: هَا أَنتَ وَربكَ. فيخرجه من حَصْر الأكوانِ إلى فضاءِ العيَانِ فتخرج فِكرَته عن دَائرة الأكوان، ويسقط عنه الحجاب بالكلية. فَلاَ يزال في الترقي أَبَداً على مُرُورِ السّاعة والأيام. وَأمّا مَن لم يَسْقُط على صاحبِ التربية، فَلاَ يزيد في مُرُور أيامه وأَنْفَاسِهِ إلاَّ حجاباً، وغطاء عن أَسْرَار غوامضِ التوحيد. وكُلُّ ما يفعَلهُ في علاج نفسِهِ، عبَثٌ وضَرْب في حديد باردٍ.

وتأمل بعضَ ما قَالَهُ بَعْضُ الفقرَاء، وأَظنه الشيخ زروق بنفسِه. كما نقله عنه في كفاية المحتاج، في تَرْجمتِه، قال: طُفت المشارق والمغارب في طلبِ الحقّ، واسْتعملت جميع الأسباب المذكورة في معالجة النفس، وتخيَّلْتُ بقَدرِ الإمكَان في مرضاةِ الحقّ. فما طَلَبْت قرْبَ الحق بشيءٍ، إلاَّ كَان مُبْعِدِي عَنْهُ، لرؤيَة نَفْسِي، وَلاَ عَملت في معالجة النَّفس بشيءٍ إلاَّ كَان معيناً لها عَلَيّ. وَلاَ توجّهت لإِرْضَاءِ الخلقِ بشيْءٍ، إلاَّ كَانَ سَبَبَ عَدَاوَتِهِمْ لِي. فعدتُ إِلَى الاسْتسْلام، فَخَرَجَ لِي منه رؤية وجودِي؛ وهو رَأْسُ الْعِلَلِ فطرحْت نَفْسِي بيْن يَدَي الحقّ طرحاً لاَ يَصْحَبه حَوْلٌ وَلاَ قوّةٌ فصحّ عندي أنَّ السَّلاَمَةَ في كل شيْءٍ، والتَّبَرّي مِن كل شَيْء، وإنما الغنيمة مع كل شَيْءٍ بالرجوع إلى اللّهِ بكل شيْءٍ، اعتباراً بالقدرة وإِثْبَاتاً للحكمَةِ، وقياماً مع الطّباعِ، بِشواهِدِ الانطبَاعِ إلى تمام كَلاَمِهِ. نقله هنا الشيخ زروق عن بَعْضِ الفقرَاءِ، وأَظنُّه عَنَى نَفْسَهُ واللّهُ أعلمُ. كما نقله الشيخ أحمد بابا السّوداني في ترجمَتِهِ.

وإنما تعَطَّل الفتح على الشيْخ زرّوق، لقلةِ صُحْبتِهِ لشيْخِهِ الحَضْرَمِي. فقد قال عن نَفْسِهِ إنما صحبَه أَوَّلاً سَبْعَة أشهُر، أَو نحوهَا، ثم انْفَصَل عنهُ، ثم رجع لزيارتِهِ. فبقيَ معه ثمانية أَشْهُر. فكَان المجموع من صحبته خَمْسَة عشر شهراً أو نحوها. قال: وانتفعْتُ بِهِ انتفاعاً لاَ يخفَى. قُلْتُ: هذه المدَّة لا تسْلخ المريد من كلِّ طَبْعِهِ، وَلاَ تخرجه عَنْ عِلْمِهِ وَعوَالِمِهِ، لاَ سيَّمَا وقد كَان مُتَغَلغلاً فِي الْعُلوم النَّقلية والْعقلية. فلا يسلخه مِنْها إلاَّ طول الصحبَة بِالصّدْقِ والخِدْمَةِ، والتجريد، كَما هو مجرَّبٌ فِي شَأْنِ أَمْثَالِهِ. وقد كَان شيْخُهُ يكاتِبهُ بشيْءٍ من الحقائق؛ فلَمْ يَهْتد إِلَيْهَا؛ لأَنَّهَا لاَ تؤخذ بمجردِ الْعِلْمِ، إنما تُؤخذُ بالسراية مَعَ تحقق الصدق والتحقيق.

واعْلَمْ أَنَّ كثيراً مِنَ العلماءِ صحبُوا المشايخ العَارِفِينَ، ولم يَنَالُوا مِن حقائقهم شيئاً؛ لأَنهم كَانُوا يصحبونَهم على نَظَرِ نفوسِهِمْ، على نَظَر المشايخ. فإِذَا أَمرُوهم بشيءٍ، أَوْ نَهَوْهُمْ عن شيْءٍ وزَنوهُ بميزَانِ شريعتهم. فما وافق نظرهم قبلوهُ. وما خَالَفَ ردُّوهُ. فلم يغرقوا في بَحْرِ أَسْرَارهم واللَّه تعالى أعْلَمُ.

ثم ذَكَرَ النَّاظِم ما يفيده العقل من نَقْصٍ وكَمَالٍ، باعْتِبَار صاحبِهِ فقال:

فكَمْ وَاقِفٍ أَرْدَى وَكَمْ سَائِرٍ هَدَى وَكَمْ حِكْمَةٍ أَبْدَى وَكَمْ مِنْ مُمْلِقٍ أَغْنَى

يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في شأن العَقْل: إنه ظَهَرَتْ على الْخَلْقِ منْهُ آثار مختلفة، فَمِنْهَا ما هو خسْرَان ومِنْهَا ما هو رِبْحٌ، فكم واقف معَهُ، ولم يَنفذ إلى ما وَرَاءَهُ من الأَسْرَار الخارجة عن مَدَارك العقول.

أَرْدَاه: أي أَهْلَكَهُ وَأَوْقَعَهُ فِي الرَّدَى: وهو بقاؤه مَعَ الحِجَابِ، أو أوقعه فِي انحِلال حيْث وقف معَهُ وحكمه على نفسه، ولم يقبل من العَقَائد والأَحْكَام، إِلاَّ مَا أَدْركه عَقْله، كما فَعَلَتِ المعتزلة، وضَلُّوا، وأَضَلّوا. فقدَّمُوا العَقل على صحيح النقل مِنَ الكتاب والسنَّة، فَرَدُّوا الأحاديث الصحيحة، لمَّا خَالَفَتْ قَواعد عقلهم وأَوَّلُوا الآيات الصريحة، لتطابق ما أدركته عقولهُمْ، وهو زَيْغ وَإِلحادٌ.

وكَمْ سالكٍ هداه الله إلى طريق الوُصُول حيْث ميَّزَ بِهِ مَا يضرّه وما ينفعُهُ،

فتركُ ما يَضره، وهو كل ما يُشغل عن ربِّهِ واشتغل بما ينفَعُهُ. وهو كل ما يُقَرِّبُهُ مِن رَبِّهِ. وإذا لاَحَ شَيْءٌ مِنهُ، وَزَنَهُ بِالكتابِ والسّنّة. فطبِّق بيْن المعقول والمَنقُول وإذا تَعَذَّرَ الوفاقُ بيْنهُمَا، قَدَّمَ مَا وَرَدَ في الكتابِ والسنَّة، وحَكَم على الْعقل بِالضُّعْفِ، وكَمْ حِكْمة أَبْدَى لصاحبِهِ، حيث نوّره بطاعةِ ربِّهِ، ومخالفة هَوَاهُ فإن العَقل إنّما عَقَل صاحبَه عَنِ الْهَوَى، ونطق بينابيع الحِكمة.

وفي الحديث: «مَنْ زَهِدَ في الدّنيا أرْبَعينَ يوماً نَطَقَ بِالحِكْمَة»[1]. وقال أيْضاً عليه السلامُ: «مَنْ أُعْطِيَ زُهْداً وصمتاً حسَناً فاقرَبُوا منْهُ، فإنه يُلقّى الحِكْمَة»[2]. أوْ كَما قال عليه السّلاَمُ.

والحِكْمَةُ الإصابة في الشيْءِ. وقيل: إتقان الشيْءِ وَإِبْداعهُ وَمَحلّها القلْبُ وتظهر آثارها على الجوارِحِ. ففي العبد مثلاً بالصّنَائِع العجيبة، وفي اللسانِ بالمعانِي الغَريبة، ولذلك يُقال: نَزَلتِ الحِكْمَةُ عَلَى ثلاثة أعْضَاءٍ في الجسَد: على قلوب اليونانِ، وعلى أَلْسنَة العَرَبِ، وعلى أَيْدِي أَهْل الصّينِ فَإنَّ اليُونَان قَدْ أُعْطوا الأنْظَارَ فِي العَقْليّاتِ واستِخْراج البَرَاهِينِ المنطقيات.

والعَرَبُ قد أُعطُوا الحِكمَة في أَشعارها وخطبِهَا، وأَهْل الصّين قد أُعْطُوا الصَّنَائع البَدِيعَة فِي البُنْيَانِ والنَّقْشِ والأوَانِي الرفيعة. وكَمْ من مُمْلِقٍ أي فقير أَغْنَى أي صَيَّرَه غَنِياً؛ وذَلِكَ حيث دَلَّهُ على صحبَة العَارفينَ وَوَصَّلهُ اللَّهُ إِلَيهم، فإنهم يُغنُونَهُ بالنَّظَرِ. وقَدْ قال الشيْخ أبو الحَسَن الشّاذلِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الخلوة معنا نفيسة توجب غِنَى الدّارَيْنِ». وقال أيْضاً: «طَرِيقنا طريقُ الغِنَى الأكْبَر». وقال الشيخ أبو العبّاس المرْسِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ما بيْنِي وبيْن الرّجُلِ إلاّ أَنْ أنظرَ إليه وَقَدْ أَغْنَيْتُهُ». وكل زَمَان له رِجَال يغنون. فالْعَقل الذي جَرَّ صاحِبَهُ للدّخول مَعَ الأغنياءِ بِاللّه هو العَقْل المغني.

---

(١) أورد نحوه الجرجاني في الكامل في ضعفاء الرجال، حديث رقم (١٤٥٧) [٥/٣٠٧] والذهبي في ميزان الأعتدال، رقم (٥٢٦٠ ـ ٥٣٦٠) [٤/٤١٣].

(٢) روي نحوه البيهقي في شعب الإيمان، حديث رقم (١٠٥٢٩) [٧/٣٤٦] وابن أبي عاصم في الزهد، حديث رقم (٢٣١) [١/١١٧] ونصه: «إذا رأيتم الرجل قد أعطي زهداً في الدنيا وقلة منطق فاقتربوا منه فإنه يلقى الحكمة».

وقال بَعْضُ الحُكَمَاء: «خَيْرُ مَا أُعْطِيَ المَرْءُ عَقْلٌ يَزجُرُه، فَإن لَمْ يكن، فمالٌ يستُرهُ، فَإن لم يكُنْ فحيَاء يَمْنعهُ، فإنْ لَمْ يَكُن فصاعقة تحرِقهُ ليستريح منه البلاد والعباد». ولأجل ما ظَهَر عليه من المنَافِعِ، اعْتَنَى بشأنِهِ كبار الفلاسفة وغيْرهم.

كما قال النَّاظم:

وَتَيَّمَ أَلْبَابَ الْهَرَامِس كُلَّهُمْ ... وَحَسْبُكَ مِنْ بُقْرَاطَ أَسْكَنَهُ الدَّنَا
وَجَرَّدَ أَمْثَالَ الْعَوَالِم كُلَّهَا ... وَأَبْرَأَ أَفْلاَطُونَ فِي أَمْثَلِ الْحُسْنَى
وَهَامَ رُسْطُو حَتَّى مَشَى مِنْ هُيَامِهِ ... وَبَثَّ الَّذِي أَلْقَى إِلَيْهِ وَمَا ظَنَّا
وَكَانَ لِذِي الْقَرْنَيْنِ عَوْناً عَلَى الَّذِي ... تَبَدَّى لَهُ وَهْمُ الَّذِي طَلَبَ الْعَيْنَا

يَقُولُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَتَيَّمَ الْعَقل أَلْبَابَ الْهَرَامِس؛ أي أَخَذَ قلوبَهُمْ، حيْث صَرفُوا عَنَان عِنَايتهم لِشَأنِهِ. والْهَرَامس: الفلاسفة والكفَّار منهم، وجُلّهم كَانُوا من اليونَانِ. وفي القاموس، الهِرْماسُ بِالكَسْرِ: الأَسَد الشديد الْعادِي على النَّاس كالهرمس والهَرَامس. ولعل تسْمية الفلاسفة بِذلكَ لشدَّة عُقُولهم أو لعُدْوانِهِمْ، إذ جُلُّهم كفَّار. وَحَسْبُكَ مِن بُقراطَ أَنَّهُ أَسْكَنه الدَّنَا أيْ ويكْفيكَ في العَقْلِ أَنَّهُ أسْكن بُقراط الحكيم الدَّنَا أي الجَرَّة: وهي الآنية الكَبِيرة التي تُغْرسُ في الأرْضِ أسْفلها ضيِّقٌ وأَعْلاَهَا واسِعٌ ويُقَالُ لهَا: الرَّاقود، وفي القاموس: الدَّنُّ: الرَّاقود العَظِيمُ. ثم قال: لا يَقْصد إلاَّ أَنْ يخصر لهُ. وظاهِر إطلاقِهِ، أَنَّهُ بفتح الدَّالِ كما هُوَ اصْطلاحُهُ؛ وذلِكَ أَنَّ بُقرَاط دَخَلَ جرَّة وجَلَس فيها ليَخصر فِكْرَهُ لئلا يشوّش عقلهُ. وتقدَّمَ أَنَّهُ كَانَ فِي زَمَنِ موسى عليه السلامُ، فقيل لهُ: لوْ ذَهبْتَ إليه لتأخذ منه الشريعة. فقال: نَحْنُ قَوْمٌ مهذَّبُونَ لاَ نَحْتَاجُ إلى أَخْذٍ. فَأَرْدَاهُ عَقْلُهُ حيْث صَرَفَهُ عنِ التَّمَسُّكِ بِأنوارِ الشريعة فَكَانَ مِنَ الضَّالّينَ.

وقَولهُ: وجَرَّ أمْثَال العَوَالِم، يَحْتَمِلُ أَنْ يعود الضَّمير على العَقْل، ومِن شَأنِ الْعَقْل، أَنَّهُ جَرَّد العَوَالِم العلوية والسّفلية، وَمَيَّزَ بَعْضَهَا مِنْ بَعْضٍ. وَيَحْتَمِلُ أن يَرْجِعَ لأَفْلاَطُون، فإنه تكلم عن العَوَالم الحسية بعقله وحَدْسِهِ. فَإنَّ عِلْمَ النجُوم والأفلاك جلّه مأخوذ عن الفلاسِفة القدماءِ. يُقال: إنه كَان بعْدَ الطّوفانِ بِقَريبٍ. ولعَلّه تمسَّك بشريعة نوح عليه السَّلامُ أو غيْره من الأنبياءِ، فلذلِكَ قال

النَّاظِم في حَقِّهِ، وَأَبْرَأَ أي أَنشأ العقل أفلاطونَ فِي أَمْثَل الحُسْنَى، أي فِي أَفْضَل الحسْنَى أي جعله ناشئاً فِيهَا وَمُلاَزماً لَهَا إِذا كان موافقاً للحقِّ باعتقادِهِ على ما ذكره بعض من عَرَّف بِهِ. قاله زرّوق.

وذكَر ابْن خَلْدون في شفاء المسائِلِ؛ أنَّ أفلاطون شيخ الصوفية، قاله الشيخ زروق، وفيه نَظَر؛ لأنه لَمْ يَذْكُر في هٰذِهِ الأَبْيَاتِ إِلاَّ فلاسفة الأقدمينَ. قلت: ثم رأَيت في الإِنالة للتجِيبِي، أنه شيخ أرسطُو. ونَصُّهُ: وأَفلاطون قال بِحُدُوثِ العالم، وتلميذه أَرسْطُو بِقدمِهِ. وأَرسطُو من كبار الفلاسفة، ويُقال له: أَرسطو طاليس. وهو أَحَد المَشَّائين الذينَ كَان مشيهُمْ على ساحِل البَحْرِ لطلب الزيادة فيما بدا لهُ. فَكَانَ مشيهُ وهيامه طرباً مِما حَصَّلَ وطالباً ما لم يحصُلْ وهو معْنَى قوْلِهِ. وَهَامَ رسْطُو حتَّى مشَى مِن هيامه. ويقرأها رِسطوْ بِحذف الهَمْزَةِ لِلْوَزْنِ. والهيَام نَوْع من القلق في طربِ. وقال في القاموس: الهيام كالمجنونِ من العشقِ.

وقوله: وبَثَّ الخ.. أي أَنَّ أَرِسْطُو بث ما ألقَى إليه عقله من العلوم والحِكْمَة. فَعَلَّمَهَا للنَّاس وَمَا ضَنَّ أيْ بَخل بِشيءٍ مِنْهَا، له كُتب فِي الطِّبِّ وَالحكمة. وكَانَ وزيراً لذي القرْنيْن فكان ذُو القرْنيْن يسْتعين بِهِ في أُمور الحِكمة، وتدبير المملكة. وهذا مَعْنَى قوله: وكَان لذي القَرْنين عوْناً على الَّذِي تَبَدَّى لَهُ. أي كَانَ عوناً لهُ على ما ظهر له من المُلك. ما خَصَّهُ اللَّهُ به من تيسير الأسْبَاب المبلغة لما قصده مِنَ الأوَابِي جمع أوْبة. فكان يسْتعين به فِي عَالَم الحِكمة، وإِن كَان على غَيْر دينِه؛ لأَنَّ ذا القرْنيْنِ الأكْبر قيلَ كَانَ نبياً، أو رجُلاً صالحاً. وذكَر أَهْل التَّفْسِير، أنه حجَّ البيْت، فلقي سيدنا إِبْرَاهيم الخليل، وأَخَذَ عنْه الشريعة الحنيفية.

وقوله: «وهُوَ الَّذِي طَلَبَ العَيْنَ». يَحتمل أن يكون أَرسْطُوْ هو الَّذِي طَلَبَ عيْن الحياة؛ وهي التي مَنْ شَرِبَ مِنْهَا لم يمت إلى آخِرِ الدَّهْرِ. ويحتمل أن يكونَ ذا القَرْنَيْن هو المشهورُ. فقد كَان يطلبُ عيْنَ الحياة هو والخضر عليه السلام، فَعَثَرَ عليْها الخضر وحُرِمها ذو القرنيْن، كما قال بعض المفسّرينَ. أي ردَّ بحثَهُ عَنْهَا غيْناً. بل وهُو الذي كَان يَبْحثُ عن أَسْبَاب ما قد سمعتم في

القرآن من جولانِهِ فِي الأرضِ، شرقاً وغَرْباً. وجوفاً وقبلة. ويبْحَث أيْضاً عن عيْن الحياة، وبِبَحثه عَنْهَا، وحِرْصِهِ عليها حُرِمَهَا، وتغطَّتْ عَنْهُ. وَهٰذَا مَعْنَى قوله: وبالبَحْثِ غَطَّى العَيْن إذ رَدَّه غيْنا». أي ردَّ بحثه عنْهَا غَيْناً. أيّ غطاء وسِتْراً عَنْهَا.

وقال الشيخ زروق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وبالبحث غَطَّى ذو القرْنيْن العَيْن، أي الكشف الذي حَصَلَ لَهُ. فَرَدَّه غيناً. أي غِطَاءَ وَغِشاء. أي: بحيث ظن الجاهل أنَّ ملكَهُ كَان مقيّداً بِالأَسْبَابِ، وما كان كذلِكَ بل مؤيّداً بالْوَحْي إن كَان نبيّاً وبالإلْهَامِ إن كَانَ وليّاً. ثم قال: تنبيه: ذَكَرَ رِجَالاً مُرَتَّبِينَ على المواقف الأربعة. فبقراط من الواقفين مع العَقْلِ، وأَفْلاطون من السَّائرينَ بِهِ، وأَرِسطُو من أهْل الحِكمَة وذو القرنيْن من أهْلِ الغِنَى الأكْبَر سواء قلْنا إنه نبيٌّ أوْ وَليّ فتأمَّلْ ذلِكَ.

ثـم ذكر النَّاظِمُ رِجَالاً اهْتَدَوْا بِعقولِهِمْ إلى الْحَقِّ، مِنَ المِلَّةِ المُحَمَّدِية فَقَالَ:

وَذَوَّقَ لِلْحَلاَّجِ طَعْمَ اتِّحَادِهِ	فَقَالَ أَنَا مَنْ لاَ يُحِيطُ بِهِ مَعْنَى
فَقِيلَ لَهُ ارْجِعْ عَنْ مَقَالِكَ قَالَ لاَ	شَرِبْتُ مُدَاماً كُلُّ مَنْ ذَاقَهَا غَنَّى
وَأَنْطَقَ لِلشُّبْلِيّ بِالْوَحْدَةِ الَّتِي	أَشَارَ بِهَا لَمَّا مَحَا عِنْدَهُ الْكَوْنَا
وَكَانَ لِذَاتِ النُّوفَرِيّ مُوَلِّهاً	يُخَاطَبُ بِالتَّوْحِيدِ صَيَّرهُ خِدْنَا
وَكَانَ خَطِيباً بَيْنَ ذَاتَيْنِ مَنْ يَكُنْ	فَقِيراً يَرَى الْبَحْرَ الَّذِي فِيهِ قَدْ غصنَا
وَأَصْمَتَ لِلْجِنِّي تَجْرِيدَ خَلْقِهِ	مَعَ الأَمْرِ إِذْ صَارَتْ فَصَاحَتُهُ لُكْنَا

يَقُولُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وذَوَّق الْعَقل حينَ تَنَوَّرَ، واتَّصَلَ نورهُ بِالعَقْلِ الأَكْبَر لِلْحَلاَّجِ وهو أَبُو مغيْثٍ الحسيَن بن منصُور، صَحبَ الْجُنَيْدَ والنوري وغيْرَهُما؛ وهو من أَكَابِرِ الأَوْلِيَاءِ المحققينَ، غيْرَ أَنَّه غلب عليه الوُجْدُ، فَعَرْبَدَ فِي الحقيقة، حتَّى مَاتَ عَلَيْهَا. فَقَد ذَوَّق له عَقْلُهُ طُعْم اتِّحادِهِ، أي طُعْم فَنَائِهِ، فالاتحادُ يطلق على مَعْنَيَيْنِ، أَحَدهما اخْتلاط ذَاتَيْنِ، حتَّى تَصِير ذَاتاً واحِدَةً؛ وهٰذَا محالٌ فِي حقِّهِ تَعَالَى. وَمَنِ اعتقده كَفَرَ، والثَّانِي يطلق على الوحدةِ الحقيقية. يُقال: اتَّحَدَ الشَّيْء إذا صَارَ وَاحِداً؛ وهو الَّذِي يعَبِّر عَنْهُ الصوفية، ويَذْكرُونَهُ فِي أَشْعَارِهِمْ.

فَهُوَ كِنَايَة عَنْ سقوط الغَيْرية الإثنينية، فيفْنَى مَن لَمْ يَكُنْ، ويَبْقَى مَنْ لَمْ يَزَلْ. فقال الحَلاَّجُ حينَ غَابَ عَنْ وُجُودِهِ فِي شُهُود محبوبِهِ، أَنَا مَنْ لاَ يُحِيط بِهِ مَعْنى. أي أَنَا اللَّهُ الَّذِي لاَ تَحصُرُه مغنىً، وَلاَ يحيط بِهِ وهْمٌ وَلاَ فِكْرٌ. وقال أَيْضاً مِنْ جُمْلة الكَلاَمِ والَّذِي قُتِلَ بِهِ: أَنَا أَنْتَ بِلاَ شَكٌّ. سُبْحَانَك سبحاني. توحيدك توحيدي، وَعِصيانَك عِضياني، وقال أَيْضاً: ما في الجُبَّة إلاَّ اللَّهُ، والَّذِي تعبُدون تحْتَ قَدَمِي. فقيل له: ارجع عن مَقَالِك، وإلاَّ قتلك سَيْف الشريعة. فقال: لا، لأني شرِبْتُ مُداماً، أيْ خمرةً قوية. كُلّ من ذَاقها غَنَّى. لاَ سِيَمَا إذا شَرِبَ وسكر، وفي هذا مَنْ عَبَّرَ عَنْ حَالِهِ:

سقوْنِي وقالُوا لاَ تُغَنِّي وَلَوْ سَقَوْا   جِبَال حُنَيْنٍ مَا سَقُوْنِي لَغَنَّتْ

والنُّطْق بِالأَنَانية صَارَ مِن كثير من الأوْلياءِ، في حالِ فَنَائِهِمْ. قال بَعْضهُمْ: لقد قال كثير من الأوْلياءِ في مقام الفَنَاءِ، أَنَا. وقال آخر في مقام البقاء: هُوَ. فَيُقال للأول صَدَقْتَ وَمَا كَذَبْت. ويُقال للثانِي: أَحْسَنْتَ وَتَأَدَّبْتَ. ولمَّا حبس للقتلِ، قال له الشبلِي، يا أَبَا المُغيث: ما معْنَى التَّفرّد؟ فقال له: «هُوَ أَنْ يَنْفرد الْعَبْد بالواحِدِ الأَحَدِ الفَرْدِ. فَإذَا رآه الحق انفرَد عَنِ الخَلْق، أَمَّنهُ مِنْ عَذابِ الطَّرْدِ، فيصير للحق مشاهداً. والحقّ عَلَى لِسَانِهِ شاهداً. فحينئذ يتخلَّصُ لمَقَام المعرفة. وَيُوحَى إلى خاطِرهِ. وَيُحرس سرُّه عمَّا سواهُ. فَلاَ يَرْشح منْهُ غَيْرُ الحق، من حضرة الحق بِالحقّ».

وقال الشبلِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أيضاً لِلْحَلاَّجِ: ما المعرفة؟ فقال الحلاَّجُ: «اسْتِهلاكُ الْحِسِّ فِي المعْنَى». فقلت له: «مَا الوُجْد؟ فقال: لهيبٌ ينشأ عَن الشوْق فِي الأَسْرَارِ وتطرب به الجوارحُ، ثُمَّ يَزُولُ لأنه مقرونٌ بِالزَّوَالِ. وَيَبْقى نتيجته العِرْفانية. لاَ تحول وَلاَ تزولُ. ثم قال يا شبلِي مَنْ رَاقَبَ اللَّهَ عِنْد خُطواتِ قلبِهِ عَصَمَهُ عند حركاتِ جوارحِهِ. ثم قال يا شبلِي: أَلسْتَ تحفظ كتاب اللَّهِ. فقال الشبلِي بَلَى. فقال: قد قال لنبيه عليه الصَّلاة والسَّلاَمُ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾. [الأنفال: ١٧] يَا شبلِي: إِذَا رَمَى اللَّهُ قَلْبَ عَبْدِهِ بحبَّةٍ من حُبِّهِ. نادى عليه مَدَى الأزمان بِلسانِ العِتَّابِ. فقلْت له: ما المحبَّة؟ فقال الحَلاَّج: الغَيْبة عَمَّا سِوَى المحبوب. فقلْت له: مَا الأُنسُ؟ فقال:

وجود الهيبة، مع ارتفاع الخشية وغلبَة الرجاء على الخَوْف. ثم قتل شهيداً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ببغداد، يوم الثلاثاء، لست بقيْن من ذي الحجة سنة ست وثلاثمائة هجرية (٣٠٦ هـ). وتأخَّرَت وفاته عن الجُنَيْدِ بتسْع سنينَ. أمَّا ما ذكر بَعْضهم أنَّ الحلاج تصور به بيْته، حتى ملأ البيْت فلم يقدر أَحَد على إخراجِهِ، فذكَرُوا ذلِك للجُنَيْدِ، فَأَتى إِلَيْهِ، وقال: يا حسَيْنُ، فتحتَ ثغراً لاَ يَسُدّها إلاَّ رؤيتك. فاخرج وسلّم. فَأَنفش بَدَنَهُ، وخَرَجَ مُسَلِّماً، مُشَكَّكٌ فيه لأَنَّ الجُنَيْدَ مات سَنَة سَبْع وتسعين ومائتين (٢٩٧هـ). في قول الأكثر ممَّن عَرَّفَ بِهِ. فكيف يحْضر قَتْلَهُ؟ وكذلك قول من قال في محْنة الصوفية إِنَّهُ الآمِرُ. قال للعلماء: قتلتم الحَلاَّجَ، وهو وليُّ اللّهِ. وأنتم تريدون قتلَ الجنَيْد فلا يصحُّ أيضاً. إلاَّ أن يكون وَقَعَ الغلطُ في مَوْتِ الحَلاّجِ للشعرَانِي في طبقاته فإني نقلته منْهُ. ثم رأَيْت الشيخ ابن زكْري وافق ما للشعراني. نَعَم ذكر الفقيه المسْناوي في نصرته خلافاً ضعيفاً في وفاة الجنيْد، فالله تعالى أَعْلَمُ.

وقوله: أَنْطَقَ للشبلي. أيْ صيَّر العقل الشبلِي ناطقاً بالوحدةِ التي أشار في قولِهِ: أَنَا النّقطة التي تحتَ البَاء كَمَا مَرَّ قريباً، لما مضى عن رؤية الكوْن. والإشارة بالباءِ إلى بَحْر الجَبَرُوتِ التي تدفقتْ منه نقطةُ الكَوْنِ. وفي مَعْنَى ذٰلِكَ قِيلَ:

بـيْـنَ الـتـذلّـل والـتَّـدَلـل نـقـطَـة ... فِـي فَـهْـمِـهَـا يَـتَـحَـيَّـرُ الـنَّـحْـرِيـرُ
هِـيَ نُـقْـطَـةُ الأَكْـوَانِ إِنْ جَـاوَزْتَـهَـا ... كُـنْـتَ الْـمُـرَادَ وَعِـنْـدَكَ الإِكْـسِـيـرُ

والإِمَامُ الشبلِي: هُوَ أَبُو بَكْرٍ، قيل اسْمُهُ جَعْفَر بن يُونُسَ؛ وهو شيْخ الصوفية. وإِمَام أهْل الْبَاطِنِ. كَانَ صَالِحاً فقيهاً، على مَذْهَبِ مَالِكٍ ذو الأنباءِ البَديعة، والأخبار الغَرِيبة. وأَحَد المتصوفينَ في علم الشريعة والحقيقة. أصْله من خراسان، من قرْية يُقَال لها شَبْلَة. ونَشَأ بِبَغْدَاد. فَكتب الحديث، وَصَحب الجُنَيْد. ومَن فِي وَقْتِه مِن المشايخ. وَرَوَى عنه جماعة، كَالأَزْهَرِي والرَّازِي وغيرهما. قال الرَّازِي: لَمْ أَرَ فِي الصوفية أَعْلَمَ مِنَ الشبلِي. وقال الجنَيْدُ: هو عيْن الْعَيْنِ. خَلَّف أَبُوه ستين أَلْف دينارٍ، سوى الضياع والعقار. قال: فَأَنفقتها كُلها في سبيل اللّهِ. ثم رجعت إلى الفقراء لا أرجع إلى داري وَلاَ أَسْتظهر

بمعلومٍ. وكان جَسيماً بَديناً. فقيل لهُ: إنَّ المحبَّة تقضِي، فَأنشأ يقول:

أَحَبَّ قَلْبِي وَمَا دَرَى بَدنِي ... وَلَوْ دَرَى مَا أَقَامَ فِي السِّمَنِ

وَرُئِيَ خارجاً من المَسْجِد يوم عيدٍ وهو يَقُولُ:

إِذَا كُنْتَ لِي عِيداً ... فَمَا أَصْنَعُ بِالْعِيدِ

جَرَى حُبّكَ فِي قَلْبِي ... جَرْيَ الْمَاءِ فِي الْعُودِ

وسُئل الشبلي عن الزُّهْد فقال: تحويلُ قلبكَ عَنِ الأشياء. وقال في التَّصَوُّف: ضبْط حواسِّكَ، ومُرَاعاة أَنْفَاسِكَ: أي أَوْقَاتِك. توفي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سنة ٣٣٤هـ (أربعة وثلاثين وثلاثمائة).

وقوله: وكَان لذَات النوفري مَوَلهاً، أيْ وكان العَقْلُ لذَاتِ النَّوفري مُوَلَّهاً. أيْ مُغَيَّباً عَمَّا سِوَى الحقِّ. قال الشيخ زروق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: النوفري لاَ أعرف اسْمَه، وَلاَ أَدري حقيقة ما كَان عليه تعريفاً، لكن ما قال هُنَا يدلُّ على أنّه كَان مسْتغرقاً في التوحيدِ، حتى تَولَّهَ مِن أجْل ذٰلِكَ، حتى لاَ يخاطِبَ وَلاَ يخاطَبُ إلاَّ بِهِ. فَصَارَ لَهُ كَالْخَليل الملازم؛ وهو الخذن، واللَّهُ أَعْلَمْ.

وكان النوفري أيْضاً خطيباً بيْن ذَاتَيْنِ، أيْ بيْن عَالَم الأَرْواح، وعَالَم الأشباحِ. وَهٰذَا من تمكنِهِ في مقام البقاءِ. وقَوْله: مَنْ لَمْ يكُن فقيراً إلخ. كَلاَمَ مسْتأنف، بيَّن فيه أنه لاَ يَفْهم كَلاَمَهُ، ويُذَوِّقهُ إلاَّ من دَخَلَ البَحْرَ الَّذِي دَخَلَ فيه، أي مَن يكن فقيراً حقيقياً يَرَى البَحْر الَّذِي غُصْنَاهُ، وَيَفْهَم الأَسْرَار التي أَشَرْنَا إِلَيْهَا في هذه القصيدة وغيْرِها. وَهٰذَا كَقَوْلِهِ فِي بَعْضِ أَزْجَالِهِ:

سِرِّي لاَ يَفْهَمُهُ إلاَّ مَنْ هُوَ مِثْلِي.

قوله: واصْمَت للجنّي: قال الشيخ زروق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَظُنُّ أَنَّهُ يَعْنِي ابْن جِنّي النَّحْوِي. فإِنَّهُ أَلَّفَ كِتَاباً سَمَّاه: تجريد خلق الإنسَان. فَذَكَر فيه ما يتعلَّق بالفَصَاحَة، والْعَقلِ. أي وَأَصْمَتَ الْعَقْلَ لابْنِ جنّي، كتابُهُ الَّذِي سَمَّاه: تجريد خَلْق الإنسَان. وإنما أَصْمَتَهُ؛ لأَنَّ الأمر يقتضي أَوْسَع مما ذَكَر فيه. فلمَّا قَصَّ فيه أَصْمَتَهُ عَقْلُهُ.

وقَوْلُهُ: مَعَ الأَمِيرْ أيْ مَعَ اقتضاءِ الأَمْرِ أَوسع من ذٰلِكَ لاختلاف اللُّغات

وَمَوَادُهَا. واختلاف أَسْباب الفَصَاحَة، والبَلاَغَة والبَيَان. فصَارتْ فَصَاحة ابن جني أكناً أي خرساً. أو فصارت فصاحَة الكَلاَم أُكْناً، أي عجمة. وَفِي القاموس: لكن كفرح، لُكْناً محرّكاً، ولكْنة ولُكُونَةً فَهُوَ لَكِنٌ، لاَ يفهم العربيَة لعجمَة لِسَانِهِ. وحاصل الكَلاَم أَنَّ كتابهُ الذي أَلَّفَهُ في الفَصَاحَة والعَقْلِ، لَمْ يَبْلُغ منه المُرَامَ فَأَصْمَتَهُ عَقْلُهُ. وقال لهُ: لَيْتَكَ سَكَتَّ.

وابْن جنّي: هو أَبُو الفتح، عثمان بن جنّي، المُوصِلِي النَّحوِي، كَان إماماً في العربية، قرأ الأدب على الشيخ أبي علي الفارسِي، وَقَعَدَ لِلإِقْرَاءِ. فَرَآهُ شيخه أَبُو عَلِيّ في حَلَقَة، والنّاس حوْله يأخذونَ عَنْهُ. فقال لهُ: أتزَبَّبْتَ وأَنت حِصْرِمٌ. فتركَ حلقتهُ، وَلاَزَمَهُ حَتَّى تَمَهَّرَ. وكَان أَبُوهُ جِنِّياً رُومِياً، مملوكاً لسلَيْمَان الأَزْدِي. توفي ابن جنيٌّ سنة اثنتين وتسْعينَ وثلاثمائة هجرية (٣٩٢هـ). ثم ذكر النَّاظِمُ جَمَاعَةً أُخْرَى فَقَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

تَثَنَّى قَضِيبُ الْبَانِ مِنْ شُرْبِ خَمْرَةٍ ... فَكَانَ كَمِثْلِ الْغَيْرِ لَكِنَّهُ ثَنَّى

وَقَدْ شَدَّ بِالشُّوذِيِّ عَنْ نَوْعِهِ فَلَمْ ... يَمِلْ نَحوَ أَخْدَانٍ وَلاَ سَاكَنَ الْمُدْنَا

وَأَصْبَحَ فِيهِ السُّهْرُورِيُّ خَائِفاً ... يُصِيحُ فَمَا يُلْقِي الوُجُودُ لَهُ أُذْنا

وَلاِبْنِ قُسِيٍّ خَلْعُ نَعْلِ وُجُودِهِ ... وَلُبْسُ إِحَاطَةٍ مِنَ الحِجْرِ قَدْ تُبْنَا

أَقَامَ على شَأْنِ الْمَسَرَّةِ نَجْلُهَا ... لَمَّا رَمَّزَ الأَسْرَارَ وَاسْتَمْطَرَ الْمُزْنَا

وَلاَحَ سَنَا بَرْقٍ مِنَ الْقُرْبِ لِلنُّهَى ... لِنَجْلِ ابْنِ سِينَاءَ الَّذِي ظَنَّ مَا ظَنَّا

يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: تَثَنَّى قَضِيبُ الْبَانِ: وهو رَجُل من أَهْل الشَّامِ، مِنْ أَرْبَابِ الأَحْوَالِ، كَانَتْ تَظْهَرُ عليه عجائب وغَرَائِبُ. وهو ممَّن اختلف فيه بالقبول والرَّدِّ. وكَان خَرِّبَ ظَاهِرَهُ. فكَان يَجْلِس بِالْمَزَابِلِ، وربَّمَا تَجَرَّدَ مِنَ الثِّيَابِ، فَبَقِيَ عُرْيَاناً. وكَان يتطور في صور متعددة. وَهٰذَا معْنَى قولِهِ: تَثَنَّى: أيْ صَيَّر من ذاتِهِ اثْنَيْنِ، مِن شُرْبِ خَمْرة، فتجوهر عَقْلهُ، وخَرَجَ عَنْ طَوْرِ الفضلاءِ في الظَّاهِرِ، فكَان إذا تطوَّر، يَرَى كَمِثْل الغَيْرِ وهو بِعَيْنِهِ. لكِنَّهُ تَثَنَّى، أي رجَع اثنيْن. واللَّهُ أَعْلَمُ.

والشُّوذِي هو العفيف التِّلمِسَاني المعروف بالحالْوِي، قاله زروق. ولم

أَقِفْ عَلَى تَعْرِيفِهِ. ومعْنَى شَذَّ، أي خرجَ العَقْل بالشوذيِّ عَنْ نَوْعِهِ وجنْسِهِ من النَّاسِ. فكان مُنفرداً وحْدانيًا، فَارّاً مِنَ المُدُنِ والقرَى، لمَّا صقلت مرآة عَقْلِهِ تأَنُّسَ بِاللَّهِ، وفرَّ مِمَّا سوَاهُ. فَلَمْ يمِلْ لأَصحاب وعشائر. وَلاَ سَاكن المُدن وكِبَار المَدَاشر؛ لأَنَّ الخُلْطة تُشَوّش الفِكْرَةَ. سَيَمَا هَرَج المُدُنِ فلا يقوى عَلَيْهَا إِلاَّ مَن قوي نُورُ معرفته، وباللَّهِ التوفيق.

والسُّهْروردِيّ: قال الشيخُ زُرّوق: المراد بِهِ المقتول، صاحب خواصّ الأربعينَ الإدريسية وغيرهَا، أي صاحب العوارف، أي وأصبح السُّهْرُورِيُّ خَائِفاً مِن جِهَة عَقْلِهِ، فَلَمْ يطقْ ما تجلّى لهُ من أسْرار خواصّ الأسْمَاءِ. فكَان يصيح في العَالَم بما عنْدهُ، فلم يَسْمَع أَحَد نداءَهُ. وَلاَ ألقى إليه أُذناً. وفي بعض النسخ: يصيخ بالخاءِ المعجَمَة. يُقال: أَصَاخ للأمر: استمَعَ لهُ. وهٰذَا بعيد المُنَاسَبَة:

وابن قسيّ: هو صاحب خلْع النَّعْلَين، واقتباس النُّورَيْن مِن مَوْضع القَدمَيْن، قالهُ زروق، ولم يذكر له تعريفاً. غَيْرَ أَنَّهُ اعْتَرَفَ عَلَى النَّاظِم تشريعه بِذٰلِكَ، لأَنَّ أهْل الطريق قد تكلمُوا فيه، أي ولابْن قسيّ خلْع نَعْل وجُودِهِ، وغابَ عنهُ لمَّا تحققتْ معرفته بِاللَّهِ. ولعلَّ كَلاَمَ أَهْل الطَّرِيق، حيثُ لَمْ يَفْهَمُوا مُرَادهُ. كَمَا تَكَلَّمُوا في غَيْرِهِ مِنَ المحققينَ.

وقوله: ولبْس إحاطة. أشار لكتاب سمَّاه بِذٰلِك، أي ولهُ لبْس إِحاطةٍ. وقوله: من الحِجْرِ قَدْ تُبْنَا: أي تُبْنا من ثبوت الحِجرِ لثبوت الحرّية لَنَا، والتَّرْشيد من أشياخنَا. ولعل ذلك الكتاب المسمَّى بِلبْس الإحاطةِ، تكلم فيه على التحجِير، من جِهَة الشريعة، أو من جِهَة حصر الكَائنات. فقال النَّاظم: قد تُبْنا مِنْ ذلِكَ، وخرجْنَا منْهُ واللَّهُ أَعْلَمْ.

وقولهُ: أقَام عَلَى شَأْنِ المسَرّة. قال الشيخ زروق: ابن المسَرّة هو ابن سُرُور؛ وهو فقيه، صاحب يَد فِي العلوم القديمة، أي أقام ابن مسرّة على متْن السّرور حيْث ظهر بما خفي على النَّاسِ من مكنونِ أسْرار الرّموز؛ لأَنه ممَّن اعْتَنَى بحلهَا وفكّهَا، كما فَعَلَ المقدسي وإليه أشار بقولِهِ: لمَّا رَمَزَ الأَسْرَارَ.

واستمطر المُزْنَا أي دَامَتْ مسَرّته، لما كشف الأَسرار، وَاسْتَمْطَرَ: أي

اسْتَنْزَلَ أَمْطار المعاني من سحائب الألفاظِ، أوْ من سُحُب الآثار؛ وَهي الأوانِي.
وَقَوْلُه: وَلاَحَ سَنَا بَرْقٍ إلخ. . أي ظَهَر ضَوْء بَرْق لابْن سينَاء، من حقيقة عقله المُقرِّبة للعقول ما كَان بعيداً عنْهَا، فإِنَّهُ شَرحَ مِن أَمْرِ العقل مَا لَمْ يشرحْهُ غَيْرهُ.

وابْنُ سينَاء هٰذَا، هو المتأخِّر، وهو أَحَد فَلاَسِفَةِ الإسلام، وقد تكلَّم النَّاسُ فيه، واتهموهُ بِالكُفْرِ. قال الشيخ السنوسي في شرح الكُبْرى، ولقد ضَلَّ ابْن سينا، وتستَّر بالإِسلامِ، حيث قال في الطبائِع الأربعة:

وقولُ بُقْراط هو الصحيح ماءٌ ونَارٌ وَهَوىً وَرِيح.

قلت: أَمَّا مجرَّد هٰذَا القول، فَلاَ يَدُلّ على كُفْرِهِ؛ لأَنَّ عالَمَ الحِكمَة مَبْنِيّ على الأَسْبَابِ، والعِلَل في الظَّاهِر. والباطنُ هو اللّٰه. فقد يكون تَكَلَّم على ما هو مقررٌ فِي عَالَمِ الحِكْمَةِ من ترْتيب الطَّبائِع والأسباب. نَعَم قد قيل عنْهُ إِنه كَان يَرَى أَنَّ الشريعة للعَقْلِ تابِعة، فتدور معهُ في عِلَلِ الأَحْكَام. قال الشيخ زروق؛ وهو مذهب فَاسِدٌ. وإليه أشار النَّاظم بقولهِ: الَّذِي ظَنَّ مَا ظَنَّا. أي ظَنَّ أَنَّ الشريعةَ تَابِعَة لِلْعَقْلِ والحق أَنَّ العقل تابع للشَّرْع في عِلَلِ الأَحْكَام وأَسْرَارهَا. فإِن أَدْرَكَ لَهَا عِلَّةً وحِكمةً كَانَ عيْن الكَمَالِ، وإِنْ لم يُدْرك لَهَا حَكَمَ بتقصيرهِ وتَعبَّد بأَمْرِ سيِّدِهِ. وباللّٰهِ التوفيق.

ثم ذكر النَّاظِمُ جَمَاعَةً أُخْرَى فَقَالَ:

وَقَدْ قَلَّدَ الطُّوسِيُّ مَا قَدْ ذَكَرْتُهُ ... وَلٰكِنَّهُ نَحْوَ التَّصَوُّفِ قَدْ حَنَّا

وَلابْنِ طُفَيْلٍ وَابْنِ رُشْدٍ تَيَقُّظٌ ... رِسَالَةُ يَقْظَانَ اقْتَضَى فَتْحُهُ الْحَيْنَ

كَسَى لِشُعَيْبٍ ثَوْبَ جَمْعٍ لِذَاتِهِ ... يَجُرُّ عَلَى حُسَّادِهِ الذَّيْلَ وَالرُّدْنَا

يقولُ رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ: وقَدْ قَلَّدَ الطُّوسِي؛ وهو الغَزَّالِي، أيْ قَدْ تقلَّدَ مَا قَدْ ذَكَرْتُهُ مِنْ تحكيمَاتِ الْعَقْل، واستحسَانَاتِهِ بِذلِكَ، من عجائب القلْبِ، وشرح أَسْرَارهِ ما يقضي منه العَجب. وكذلك أسرار العباداتِ، والعاداتِ، وغَيْر ذلِك مما هو مذكُورٌ في كُتُبِهِ، لٰكِنَّهُ نَجا مِنْ وَبَالِ العَقْلِ؛ حيث حَنَّ إلى التَّصوّفِ، فصرفَ عَقْلَهُ في استخراج أَسْرار سرّ الشريعة، وحِكَم الأَحْكَام.

والغَزَّالِي: هو حجة الإسلام، محمد بن محمد بن أحمد الغزَّالِي

الطُّوسي. وَيُكَنَّى أَبَا حَامِدٍ حبْر هذه الأمّة وَرَاهِبها. اشتغل أَوّلاً بالعلوم وتدريسهَا بِبَغداد. ثم تركَ جميع ذلِكَ، وسلكَ طريق التجريد والانقطاع، وخَدَمَ الصوفية بنفسه سنينَ ثم قَعَدَ الحجَّ. فَلَمّا رجع قَدِمَ إلى الشام، وأقام ببيْت المقدِس مجاوراً، واجْتهد في العبادةِ وزيارة المشاهد والمواضع المعظمة. ثم عاد إلى دِمشق. واعتكفَ في زاوية مِنْ منَار الجامع، وأخذ في التصنيف، لإحياء علوم الدِّين؛ وهو من أنفَس الكُتب، لاَ يسْتغني عنها طالب الآخِرة. وكَان يُرَوِّضُ نَفسهُ في المجاهداتِ، ويُكَلّفها مشاق الطاعات. ثم قصد مصر، وأَقام بالإسْكندرية مدّة، ثم رجع إلى بَغْدَاد، وعقَدَ بِهَا مجالس الْوَعْظِ، وتكلَّم على لسَانِ أَهْل الحقيقة. ثم عاد إلى وطنِهِ بطوس. ووزَّع أوْقاته على وَظَائِفِ الخَيْرِ، من خَتْمِ القرآن، ومجالسة أَهْل القبُولِ وإدَامة العبَادة إلى أَنْ نَقله الحقُّ إلى دار الكَرَامة، في يوم الإثنيْن، رابع جمادى الثانية، سنة خَمْسٍ وخمسمائة (٥٠٥هـ). بطوس وبها دُفِنَ. وقبْره بِهَا مشْهُورٌ. وذكر التالدي في كتابه المعزى: أَنَّ سببَ تجريد الغزَّالي وانقطاعه، هُوَ أَخُوهُ. وكَان من محققي الصوفية. وَقَفَ عليه في مجلسِ عِلْمِهِ فَقَالَ لهُ: إلى أَيْن تحتبس في هذه المعاقِلِ، وأنشده شعراً أنهضه إلى رَبِّهِ، وذكر غيْرهُ، أَنَّهُ وصَّلَهُ بشيخهِ، وكَان خرازاً، فجذبه إلى ربِّهِ، وأَمَرَه بتخريب ظَاهرِه وبالتجريد. فحينئذ ذاق ما ذاقَتِ الرجال.

والغزَّالي بتشديد الزَّاي نسبة إلى الغَزَّالِ. على عادة أهْلِ خَوَارزم وجُرجان، فَإِنَّهُم ينسبون إلى القصَّار، القصَّاري، وإلى العَطَّار العَطَّارِي. وقيل: إنَّ الزَّاي مخففة نسبة إلى غزالة. وهي قرْية من قُرَى طُوسٍ؛ وهو خِلاَفُ المشهور وطُوْسٌ بِضَمّ الطَّاءِ، وسكون الواو: قرية من قُرَى بُخَارى. وما يقال إنه مدفون بترعة، غلط فَاحِش. قال الدَّميري في حياة الحيوان روينا بالسَّنَدِ الصحيح عن الشيخ أبي الحسَن الشاذلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: رأيْتُ النبيَّ ﷺ في النَّوْمِ. وقد بَاهَى موسى وعيسى بالغَزَّالِي، فقال لهُمَا: فِي أُمَّتكما هذا الحَبْر؟ وأشار إلى الْغزَّالِي. فقالا: لاَ. قال الشيخ أَبو العباس المِرْسِي: «إِنَّا لَنَشْهَد لَهُ بِالْغوثِيَة العُظْمَى». وقيل القائل، هو الشاذِلي رضي الله عنهم أجمعينَ.

ثم قال النَّاظم: ولابْنِ طُفَيْل وابْن رُشْد تيقظ. أَمَّا ابن طفيلٍ فهو من فلاسفةِ الإسلامِ له عَقل وتيقظٌ في الأمور العَقلية، وَلَمْ أَقِفْ على تعريفِهِ. وأَمَّا ابْنُ رُشْدٍ، فَالمراد به الحفيدُ؛ وهو محمد بن أحمد بن محمد بن رُشْد، الإمام المشهور. ولد سنة عشرين وخمسمائة (٥٢٠هـ) قبل وفاة جدِّهِ أبي الوليد بِشهرٍ وَاشْتَهَرَ بِالْحَفِيدِ، وهو من أَهْل قرطبة. وقَاضِي الجماعة بِهَا. أَخَذَ الفقه عن المازري وغيْرِهِ. وأَخَذَ الطبّ عن أبي مزوان بن جريُونَ. وكَانت الدراية، أَغلب عليه منَ الرِّوَاية خلاف جدِّهِ. ولم ينشأ في الأندلسِ مثْلهُ. حتى قيل فيه: كَانَ أَفْقَهَ من جَدِّهِ. وصنَّفَ وَقَيَّدَ وذهب ومالَ إلى علم الأوائلِ. وكَانَتْ له فيها الإمامَة دُونَ أَهْل عصرهِ. وكان يفزع إلى فِتْيَاه في الطبِّ، كما يفزع إلى فتياهُ في الفقهِ. له تآليف جَليلة. منْهَا: كتاب بداية المجتهد ونهاية المقتصد. وذكر فيها أَسْبَاب خلاف المذَاهب وعللهَا. وأفاد وأَقْنَعَ فيه. وَلاَ يُعْلم في وقتِهِ أَنْفعَ مِنْهُ. وله كتب أُخرى ذكرها في الدِّيبَاجِ. تُوفي رحمهُ اللَّهُ سنَة خمس وتسْعين وخمسمائة (٥٩٥هـ) بمراكش. كَانَ قَدِمَ على السلطان فمات، ثم دفِنَ بِهَا، ثم نُقل إلى قبرسلة بقرطبة. وفي قَبْره دُفِنَ الولي الشهير أبو العباس السّبتي. وقيل في الحفيد، إنه اتُّهِمَ بالاعتزال وبالميل لمذاهب الفلاسفة، كما رمي بذلك ابن طفيل، ولذلك قرِن مَعَهُ. ولم يَنْسُب لهما النَّاظم إلاَّ التيقظ فِي أُمور العقل فقط. قال الشيخ زروق: وأَمَّا ابن طفيل وابن رشد الحفيد فمن متفلسفة الإسْلاَم. وقد رُمُوا بأكبر الكفر والله أعْلَمُ. قلت: كتب الحديث موشحة بالأحاديث النبوية، ليْس فيها شيْء مما رُمِي بِهِ. وقد عرَّف به صاحب الدِّيباج وغيره، فلم ينسبُوا له شيئاً ممَّا يُنقصُهُ. وعند الله تجتمع الخصوم. ويقظان هو ابن يقظان، وله رسالة في العقليات. قال الشيخ زروق: وقد وقفت عليْهَا وهيَ مبنيّة على القول بالطبيعَةِ، وهو نوع من الكُفرِ، ولذلك قال الناظم: اقتَضى فتح الحيْنَ؛ أي اقتضى فتح العَقْلِ لهُ الحَيْنَ؛ وهو الْهَلاَك.

كَسَى لشُعَيْبِ: المراد أبو مَدْين الغوث الشهير بالولاية شرقاً وغرباً. كَان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، من أعيان مشايخ المغربِ، وصدور المُقَرَّبينَ، واسْمُه شعيْب، وولده بَمْدَيَن مدفون بِمِصر، ببركة القرع، وقبْره مشهور يُزَارُ. وأما أبو مدْيَنَ،

فهو مدفون بمدينَة تِلمسَان، في تربة العباد. مات وقد جاوز الثمانينَ سنَةً. كَان مقيماً ببجاية. ثم إنَّ سلطان تِلمسَان بلغهُ خَبَرهُ، وما كان فِيهِ من الشُّهرَةِ، فأَمَر بإحضاره من بجاية ليتبرك بِهِ، لتعذُّر وصول السلطان إلى زيارته، خوفاً مِن اختلالِ رعيتهِ. فأَجَابَ بالسَّمْع والطاعةِ. ثم قال بخفض صَوْتِهِ: ما لنا وَللسلطان، الليلة نزورُ الإخوان، ثم نزور تِلمسَان، واستقبل القبلة ليلة دُخُولِهِ، وتشهَّد ثم قال: هَا قَدْ جِئْتُ وعجلْت إليك رَبِّ لتَرْضَى. ثم قال: اللَّهُ الحيُّ. وفاضت روحهُ. قال الشيخ عبد الرزَّاق: اجتمعْت بِالخضر عليه السلام، فسَألته عن شيْخنا أبِي مَدْيَنَ. فقال: هو إِمَامُ الصِّدِّيقِينَ في هٰذَا الوقتِ. وقد أعْطاه اللَّهُ مفتاحاً من السرِّ المَصُونِ. فما في هذه السَّاعةِ أَجْمَعَ لأَسْرَار المرسلينَ مِنْهُ. وقد أَجْمَعَتِ المشايخ على تعْظِيمِهِ وإِجْلالِهِ. وكَانَ جميلاً ظريفاً، متواضعاً زاهِداً، وَرِعاً محققاً. قَدِ اشتَمَلَ على كَرَمِ الأَخلاقِ. وَكَان يقول ليْسَ للقَلْبِ إلاَّ جِهَة واحدة متى تَوَجَّهَ إليْهَا، غَابَ عَنْ غَيْرِهَا. وَقَالَ أَيْضاً: الفَقرُ نُورٌ مَا دُمْتَ تَسترُهُ، فَإِذَا أَفْشَيتهُ ذهَب نُورُهُ. وقال أَيْضاً: كل فقير كان الأخذ أحَبَّ إليه من العطاءِ فهُوَ كَذَّابٌ، لم يشُمَّ لِلفَقرِ رائِحَةً. وقال أيضاً: مَنْ لَمْ يَصْلُحْ لِخِدْمَتِهِ، شَغَله بالدُّنْيَا. وَمَنْ لَمْ يَصْلُحْ لمعرفتِهِ، شَغَلَهُ بالآخِرَةِ. وقال أيْضاً: مَنْ لَمْ يَخْلَعْ له العُذَار، لم تُرْفع له الأَسْتَار. ومكَثَ فِي بَيْتِهِ سنَةً، لَمْ يَخْرُجْ إلاَّ إلى الجُمُعَةِ فاجْتمع النَّاس على باب دَارِهِ، وطلبُوا منه أنْ يتكَلَّم عَلَيْهِمْ، فلمَّا أَلْزَموهُ خَرَجَ، فَرَأَته العصافير التي على سور في الدَّار، فَفَرَّتْ منه، فرجعَ، وقال: لوْ صلحْتُ للحديثِ عليكم لَمْ تفِرَّ مِنِّي الطُّيُور. فَجَلَس فِي البيْت سنَة أُخرى، ثم جَاؤوا إلَيه، فَلَمْ تَفِرَّ منهُ الطيور، فتكلَّم على النَّاسِ. ونَزَلت الطُّيُورُ تَضْرِبُ بِأَجنِحَتِهَا، حتى مَاتَ منها طائفة، وماتَ رجل من الحَاضِرِينَ. وكَانَ الحق تعالى قد أَذَلَّ له الوحوشَ. فإِذَا رآه الوحْش ارْتَعَدَ مِن هيْبَته. ومَرَّ يوْماً على حمارٍ، والسَّبعُ قد أَكَلَ نصفهُ، وصاحب الحِمَارِ ينظر إليه من بَعيدٍ لاَ يسْتطيع أن يقرب منهُ. فقال لصاحب الحمار: تَعَالَ. وذهب بِهِ إلى الأسَدِ. وقال: أَمْسِكْ بِأُذنِهِ. واستَعْمِله مكَان حِمَارِكَ حتى يمُوتَ. فَأَخذ بِأُذنِهِ وركِبَ. وَصَارَ يسْتعمله مكَان حماره حتى مَاتَ الأسَدُ.

تُوفي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة (٥٩٣هـ) عن خمس وثمانينَ. وخرج مِنْ دائرته ثلاثمائة قطب دُونَ الصَّالحينَ. وأخَذَ الطريق عن أبي يَعْزَى والشيخ عبد القادر وسيدي علي بن حزم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم أَجمعينَ.

قال النَّاظم فِي مَدْحِهِ: كَسَى لشعيب ثوب جمع لذات. أي كسَاهُ عَقْلُهُ ثوباً جامعاً لذاتِهِ على رَبِّهِ. فكان دائماً مجموعاً على اللَّه، في بساطِ الحَضْرةِ. وكَان كثيراً مَا يُنْشد:

اللَّهَ قُلْ وَذَرِ الْوُجُودَ وَمَا حَوَى إنْ كُنْتَ مُرْتَاضاً بُلُوغَ كَمَالِ

يَجُرُّ الذَّيل أي طرفَ الإِزَار. والرُّدْنُ بِضَمِّ الرَّاءِ. أَصْل الكَمّ. أي يجُرُّ ذَيْله وكُمهُ افتخاراً لمَوْلاَهُ. وشكراً لمَا بِهِ أَوْلاَهُ. قال الشيخ زروق: تخرجَ على يده ألْف وليّ، ولم يذكر عن أَحَدٍ من الأَئمَّة طعَن فيهِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ. ونَفَعَنَا بِهِ؛ وهُو أَنْدَلسي.

ثم ذكر النَّاظِم جماعة أُخْرى فقال:

وَعَنْهُ طَوَى الطَّائِي بِسْطَ كِيَانِهِ بِدَسْكَرَةَ الْخُلاَّعِ إِذْ ذَهَبَ الْوَهْنَا
تُسَمَّى بِرُوحِ الرُّوحِ جَمْراً فَلَمْ يُبَلَلْ وَلَمْ يَرَ نَدَاً فِي الْمَقَامِ وَلاَ خِدْنَا
بِهِ عُمَرُ بْنُ الْفَارِضِ النَّاظِم الَّذِي تَجَرَّدَ لِلأَسْفَارِ قَدْ سَهلَ الْحَزْنَا
وَبَاحَ بِهَا نَجْلُ الحَرَالِيّ عِنْدَمَا رَأَى كَتْمَهُ ضُعْفاً وَتَلْوِيعَهُ غَبْنَا
وَلِلأَمَوِيّ النَّظْم والنَّثْرُ فِي الَّذِي ذَكَرْنَا وإعْرَابٌ عَمَّا نَحْنُ أعْرَبْنَا

المُراد بالطائي: ابن الْعَرَبِي؛ لأنه من ذرية حَاتَم الطَّائي، وكَان في زمانِهِ، يعرف بابْن سُراقة. وعند المتأخرينَ مِنَ الصوفية: محيي الدِّين. وهو الإمَام المحقق، رأس العارفينَ، وإمَام المُقرَّبِينَ، ذو النَّفحات القدْسية، والأنفاس الرّوحانية، والمعارف البَاهِرَة، والحقائق الزَّاهرة. له المحلّ الأرفع في مراتب القرْبِ، وَمَنَازِل الأُنس؛ وهو أَحَد أَرْكَانِ هذه الطريق. وأَجَلّ أئمة أَهْل التحقيق. بحر زمَانِهِ وفريد أوَانِهِ. لقَّبه الشيخ أَبُو مَدْيَنَ بسُلطانِ العارفين. وكَلاَم الرجل دَليل على مَقَامِهِ. وكُتبه مشهورة بِأَيْدي النَّاسِ. إلاَّ أنه مال فيها لإظهار الحقائق، وكشف غطائها. فَرُميَ بما رُمِي بِهِ غيْرهُ ممّن أَظْهَرَ. وَمِن كشوفاته

رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ: أنه ذكَرَ فِي بَعْضِ كُتُبِه صفَة السلطان ابن سليمان الأول، وفتْحَه القُسْطنطينيةَ فِي الوقت الفلاني. فجاءَ الأمْر كما قَالَهُ. وبيْنَهُ وبَيْنَ السلطانِ نَحو مائتي سنَة. فَبَنَى عليه قُبَّةً عظيمة بِالشَّام، وَرَتَّبَ فيها طعَاماً وخَيْرات. بَعْدَ أن كَانُوا يبولُونَ على قَبْرِهِ. وحكى الشيخ الصالح سيّدي أحمد الحَلَبِي، أنَّه كَان له بيْتٌ مشرف على ضريح الشيخ محيي الدّين، فجاء شَخْص مِن المُنكرين، بَعْد صَلاةِ العِشاءِ بنارٍ يريد أنْ يحرق تابُوت الشيخ، فَخُسِفَ بِهِ دُونَ الْقَبْر بتسْعَة أذْرع، فغَابَ فِي الأرض وأَنَا أنْظُرُ فَفَقَده أهْله فِي تِلك اللَّيْلَةِ، فَأَخْبَرْتهم بِالقصَّةِ فجاءُوا وحَفَروا رأسَهُ. فكلَّمَا حَفَرُوا نَزَلَ غَائِراً في الأرضِ إلى أن عَجَزُوا وَرَدُّوا التُّرَاب عَلَيْهِ.

وكَان رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ: أولاً يكتب الإنشاء لبعْضِ ملوكِ المَغْربِ، ثم تَزَهَّدَ وتَعَبَّدَ. وسَاحَ ودَخَل مصر والشام والحجاز والرّوم. ولهُ في كل بلدٍ دَخَلَهَا مؤلفاتٌ. وكَان الشيخ عِزّ الدّين بن عبْد السلام يحطُّ من قدْرهِ كثيراً. فلمَّا صحبَ الشيخ أبَا الحسَن رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ. وعَرَفَ أَحْوَال الرّجَال، صار يترجمه بالولاية والعرفانية. مات شهيداً سنة ثمان وثلاثين وستمائة (٦٣٨هـ). وله من المؤلفاتِ نيف وأرْبعمائة، منها التفسير الكَبير الَّذِي بَلَغَ فيه إلى سورةِ الكهْفِ عنْدَ قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا﴾ .[الكهف: ٦٥] ثم توفي ولم يكمل. وهذا التفسير، كتاب عظيم بَلَغَ ثلاثين سِفْراً. كل سفر بَحْر لاَ سَاحِلَ لَهُ. فقال النَّاظِم فِي ترْجمتِهِ: وعنْهُ طوى الطَّائِي بَسْط كيانِه، أيْ وعن عَقْلِهِ طوَى الحاتمي الطَّائي بسْط وجوده، فغاب عَقله عن إدراكِ حقيقته بخروج ما أدْرك عن دائرة العُقُول. فالكيَان بِمَعْنَى الكَوْن، أيْ طوى عن عَقْله بسْط كَوْنِهِ. وكَان ابتداء ذلِكَ الطي بِدَسْكَرَةَ الخُلاع، أي بِحَضرَة اجتماعِ أهْل الخمرة؛ وهُمُ الَّذِين يَخْلعونَ عُذَارَهُمْ فِي رِضَى محبُوبِهِمْ، فيُخَرِّبُونَ ظَوَاهِرَهُمْ، ويهتكون أغْرَاضَهُمْ، وَلاَ يُبَالُونَ بِمَن لاَمَهُمْ وَعَابَ عَلَيْهِمْ.

وفي القاموس الدَّسْكرةُ: القرْية والصَّوْمعة، وبيوت الأَعَاجِم، يكونُ فِيهَا الْخَمرُ والمَلاَهِي، وهو المُرَاد هُنَا؛ لأَنَّ الخَمْرَ مَعْنَوِي، والملاهِي، كِنَايَة عَنِ التَّغَزُّلِ بالمحبُوبِ. وتُعَبِّرُ عنْهُ الصّوفية بِالخَانِ، أي كَان ذَا الفتح بمَحْضَر أهْل

الأذواقِ الذين خَلَعُوا عُذَارهُمْ، إذْ ذَهَب الْوَهْنَا: أي حينَ ذَهَبَ عنهُ ضعْفُهُ وكَسَلهُ، وفرْقه بخلع عُذَارِهِ، وافْتِضَاحِ نَفْسِهِ؛ وهو الَّذِي تَسَمَّى بروح الرُّوح في شِعره المعلوم الذي قال فيه:

أَنَا الْقُرْآنُ والسَّبْعُ المَثَانِي ... وَرُوحُ الرُّوحِ لاَ رُوحُ الأَوَانِي
فُؤَادِي عِنْدَ مَعْلُومِهِ مُقِيمٌ ... تُنَاجِيهِ وَعِنْدَكُمْ لِسَانِي
فَلاَ تَنْظُرْ بِطَرْفِكَ نَحْوَ جِسْمِي ... وَعُدْ عَنِ التَّنَعُّمِ بِالأَوَانِي
فَأَسْرَارٌ تَرَاءَتْ مُبْهَمَاتٌ ... مُسَتَّرَةٌ بِأَنْوَاعِ المَعَانِي
وَمَنْ فَهِمَ الإِشَارَةَ فَلْيَصُنْهَا ... وإِلاَّ سَوْفَ يُقْتَلُ بِالسِّنَانِ
كَحَلاَّجِ المحبَّةِ إِذْ تَبَدَّتْ ... لَهُ شَمْسُ المحبَّةِ بِالتَّدَانِي
فَقَالَ: أَنَا هُوَ الحَقُّ الَّذِي لاَ ... يُغَيَّرُ ذَاتَهُ مِنَ الزَّمَانِ

وتأويله: أَنَّهُ غَابَ عن وجودِهِ عندَ مخسُوسِهِ، فَشَاهد العَيْن بِالْعَيْنِ. فَصَارَ عَيْنَ الْعَيْنِ فقال: أَنَا مُنَزِّل القرآن، وأَنَا رُوح الرّوحِ والذي هو السرّ المَكْنون؛ الذي قام بالأرواح والأشباحِ. ومن كَلاَمِهِ أَيْضاً: تطَهَّرْ بماءِ الْغَيْب إِن كُنت ذَا سرٍّ إلى آخر الأبيات المشهورة على ما نسَبه أبو المواهب التونسي حسبما ذَكَرَه الشعرانِي. ونسَبها غيره للجنيْدِ؛ وهو المشهور. وقوله لَمْ يُبَالِ. هكذا في نسْختنا أي لَمْ يُبَالِ بِمَنْ أنكَر عليه مَقَالتهُ. ولم يَرَ له نَدّاً، أي شَبيهاً، وَلاَ معانداً في زمانِه في مقام الْعِلْم والدِّيَانَةِ.

وَقَوْلُهُ: وَلاَ خِدْناً، أي ولأَصْحَابِهِ يقرب من حَالِهِ، بل رأى نفسه منفرداً بما حَصَّلَ وأصل. وَلاَ يسْتغرب من هٰذَا فإِنَّ الباطن يقلُّ في كل زَمَانٍ. ثم ذكر ابن الفارض فقال به: عُمَر بن الفارضِ، أي بالعَقل تَجرَّد عُمَر بن الفارض الَّذِي اشْتهر بالنظم للأشعارِ. فَسَهُلَ عليه الحَزْنُ، أي الصَّعْبُ منه، وتحمَّل مشاقه للمحبَّة التي اشتعلت في قلبِهِ التي هداه إلَيْها عَقلهُ مع تقدم القدرة والاقتدار. وفي القامُوسِ: الْحَزْنُ: مَا غَلَظ من الأرضِ، فإِذا سَهُل ما غلظ منْهَا فأولى ما كَان بسيطاً.

وابن الفارض: هو الوليّ الكبير والمحبّ الشهير إمام العُشّاق أبو حفص

عمر بن الحسَن بن علي بن المرسف الحُمَيري الأصل المصري الدَّار والمولد والوفاة. له ديوان في الشعر رائق في أُسْلوب غريب فائق. وله قصيدة مشتملة على ستمائة بيْت على اصطلاحَاتِهم ومناهجهم. وله قصيدتان تائيّتانِ، فيهما كَلاَم غامض شرح إحداهما أبو سَعِيد الفِرغاني شرحاً جيداً. وُلد رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ سنة ست وسبعين وخمسمائة (٥٧٦هـ)، وتوفي سنة اثنين وثلاثين وستمائة (٦٣٢هـ). فعمْره ست وخمسُونَ. وقد ذكرت في شرحي لخمريته، مناقبه ومَآثره وَمُلاَقاته بالشيخ البقال وسياحته في نواحِي مكّة. وَرُجوعه لصَلاتِهِ على شيْخه عند مَوْتِه، واستقراره في مصْر فراجعه إن شئتَ.

والحُرَالي: قَالَ الشيخ زروق: هو أبُو الحسن، علي بن محمد التجيبي الحُرَالِي بجائِي الدَّار. ترجمه صاحب عنوان الدراية: بِالعالم المطلقِ. وقال: مَا من فَنٌ إلاَّ وَأَلّف فِيهِ.

ثم قوله: وباح بها: يحتمل أن يريد الحِكمة بل المعقولية أو فوائدها المقصودة، أو الموجودة، أو المشهورة أي وَبَاحَ بِالحِكْمَة أو بفَوائدِ العَقْلِ ابن الحُرَالِي، ولم يقدرْ على كتمهَا إذ رأى كتمَهُ لها ضعفاً في الإِيمانِ؛ إن كتمهَا على أَهْلهَا، لقوله عليه السلام: «لاَ تُؤْتُوا الحِكمَةَ غَيْر أَهْلِهَا فتَظْلِمُوهَا، وَلاَ تَمْنَعُوهَا عَنْ أَهْلِهَا فَتَظلمُوهُمْ»[1]. وَرَأى أَيْضاً تلويحَه بِهَا، وإشارته بِهَا غيْناً أي غطاءً وسِتراً فما أمْكَنهُ إلاّ التصريحُ نفعاً للعبَادِ.

والأموي: قال الشيخ زروق رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ: كُنت أعرفه ثم غاب عن ذهْني، وللأموي النَّظم والنثر في شأن العَقْل الذي ذَكَرْنَا وإِعراباً: أي بَيَاناً كَمَا نَحْنُ أَعْرَبْنَا أيْ بَيّنّا. واللَّهُ تعالى أَعْلَمُ. ثم ذكر شأن شيْخه وشأن نفسهِ، وبهما وقع الختام. فقال:

وَأَظْهَرَ ابْنُ سَبْعِينَ لِي مِنهُ مَا خَفَى ... وَكَشَّفَ عَنْ أَطْوَارِهِ الْغَيْمَ وَالدَّجْنَا

وَبَيَّنَ أَسْرَارَ الْعُبُودِيةِ الَّتِي ... عَنْ إعْرَابِهَا لَمْ يَرْفَعُوا اللَّبْسَ وَاللَّحْنَا

---

(١) روي نحوه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، كتاب الأدب، حديث رقم (٧٧٠٧) [٤/ ٣٠١] وابن حميد في المسند، حديث رقم (٦٧٤) [١/ ٢٢٥] ورواه غيرهما.

ابْن سبعين، هو الإمام العارف الرَّبَّانِي، المحقق القطب الصمداني، عبد الحيّ بن إبراهيم بن محمد بن سبْعينَ. قال الغبريني: فقيه جليل، عارف نبيل فصيح، له حكمة ومعرفة، وبراعة وَبَلاَغة. مشارك في المعقول والمنقولِ. أحَد مشاهير الفضلاء، وله أتباع كثيرة، وموضوعات كثيرة في يد أصحابه، فيها ألغاز وإشارات، وله موشحَات وأَشْعَارٌ في طريق القوم.

توفي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سنة تِسْع وستينَ وستمائة (٦٦٩هـ)؛ وهو ممَّن اختلف فيه أهْل الظَّاهِر رداً وقبولاً. وأمَّا أهْل الباطنِ، فَأَجْمعُوا على تحقيق ولاَيته ومعرفته.

وفي طبقات الشعرانِي: كَان ابن سبْعين من المشايخ الأكابر، مات بمكَّة، عن خمس وخمسين سنة (٥٥ سنة). وقال فِي المُقدّمة: أخرجُوهُ من بلادِ المغربِ، وكتبوا فيه كتاباً. وقالوا فِيه: إنه يقول: أنَا هو، وهو أنَا. ولمَّا قَدمَ مكة وجد السلطان الذي فيها مريضاً قد ظَهَرَ مُخُّهُ؛ فَصَنَعَ له رَأساً من القَرْعِ، وغَمَّ بِهِ مُخَّهُ فشفاه اللَّهُ فَقَرَّبَهُ وأَكْرَمَهُ وعظَّمَهُ. فما زال مُعظَّماً، حتى مات بِهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. فقال النَّاظم فِي تَرْجمتِهِ. أَظْهَر ابن سبعين مِنْهُ، أي من أُمُورِ العَقْلِ فَأَخْفَى عن النَّاسِ، وأَضَافه إلى نفسه؛ لأنه شيخهُ. قال الشيخ زروق: وكَوْنه أظهر من حَقائق العَقْلِ وفوائدها ما خفي ظاهر من كتبِهِ، لاَ سِيَمَا عنْدَ البَدْوِ وَمَا جَرَى مَجراهُ. وإِن كانت عبارته تحتاج إلى مُسَامحة في مَحلِّهَا. فهي وإنْ كَانت عيْن التحقيق، فَلِلَّحْن نسبة في التعبير. وقوله: وبيَّن أسْرار العبودية، يَعْنِي في كتابه البَدْوِ، الَّذِي تكلَّم فيه بِلِسَانِ المتكلم والفَيْلَسُوفِي، والفقيه والحكيم والمحقق. وأَعْطى كل مسألة حَقَّهَا من كَلاَمِهِمْ. وكشَّفَ بِشَدّ السّين للمبالغة أي كَشْفَ عن إطارِ العَقْلِ وَمَرَاتبِهِ الغيم، أي السحاب الرقيق الَّذِي يغطي الشَّمْس والدَّجْن: أي الظَّلاَم. وبيَّنَ أيْضاً أسْرار العبودية إذ هي شَرَف الإنسان، التي لم يرفَعُوا: أي النَّاس والحكماء، عن إعرابِهَا: أي عن بَيَانِهَا، اللَّبْس أي الاختلاط والاشتباه. وفي القامُوس اللَّبْسُ بالفتح وَبِضَمٍ: الشُّبهة. واللَّحْن بِسُكون الحاءِ. ثم ذَكَرَ شَأن نَفْسِهِ فقال:

كَشَفْنَا غِطَاءً مِنْ تَدَاخُلِ سِرِّهَا فَأَصْبَحَ ظَهْراً مَا رَأَيْتُمْ لَهُ بَطْنَا

هَدَانَا لِقَوْلِ الْحَقِّ مَا قَدْ تَوَلَّهَتْ　　لِعِزِّيهِ أَلْبَابُنَا وَلَهُ هُذْنَا
فَمَنْ كَانَ يَبْغِي السَّيْرَ لِلْجَانِبِ الَّذِي　　تَقَدَّسَ فَلْيَأْتِ لِيَأْخُذَهُ عَنَّا

يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قد كشفنا عن العبودية غطاءً كَان حَاصِلاً من تداخل سِرِّهَا مع الحقيقة فبيَّنَّا محلَّ العبودية، من محلِّ الحقيقة. فَمَحَلُّ العبودية الظَّوَاهِرُ، ومحلّ الحقيقة؛ وهو شهود الرّبوبية البواطِن. وذلِكَ أَنَّ الحق تعالى تَجَلَّى بيْن الضِدَّيْن، فتجلَّى بمظهَرِ الرّبوبية، في قوالِب الْعُبُودية، ليتحقق اسمه الظَّاهر، واسْمُه الباطِن.

قال في الحِكَم: «سُبْحَانَ من سَتَرَ سِرّ الخصوصية بظهُور وصْف البشرية. وظَهَر بعظمة الرُّبوبيَة، فِي إِظهار العُبُودية». فَمَنْ نظر لمطلق التجلِّي، رأى رُبُوبية ظَاهرة أزلية، وَمَن نَظَرَ للقوالب رأى قوالب العبودية، فالعبْد مأمور بالقيام بِحقّ القوالبِ؛ وهي آدَاب العبودية. وبحقّ الظواهر، وهي شهود عظمة الرّبوبية. فَظَهر التمييز بيْن العبودية والرُّبُوبيَة. فَأَصبح ظَاهِراً مَا كَانَ بَاطناً خفياً. وهذا معنى قوله: فَأَصْبَح ظَهْراً مَا رأيتم له بَطْناً. فظهراً خبرُ أصْبح. وَمَا اسمُها. وبطناً مفعولٌ ثانٍ لِرَأَيْتُمْ؛ أي فَأَصبح ما كنتم رأيتمُوهُ من العبودية بَطْناً ظهْراً. هٰذَا وَلَمْ نَرَ للنَّاظِم كَلاَماً مُسْتَوْفى فِي العبودية. بل جلّ كلامه في أنظامه في أسْرار الحقيقة. فَلْنَتَكَلَّمْ على شيءٍ مِنْهَا؛ فنقول، وباللّٰهِ التوفيق: العبودية هي شَرَف الإنسَان وعزّه، وسبب ترقيه إلى كَمَالِ الكَمَالِ؛ وهي مِفتاحُ الفتوحاتِ كُلّهَا. فبقدْرِ مَا يتحقق الظَّاهر بالعبودية يُشْرِقُ على الباطِن أنوار الحقيقة. ومَرْجعها إلى تحقُّقِ الذلّ في الظَّاهِرِ، يُظْهِر ذلِكَ بَيْنَ الأقران؛ كالمشْي بالحَفَا، وتعرية الرأس، والجلوس على الترابِ، وغير ذلكَ مما يثقل على النَّفسِ، ويجمع ذلك كله السُّؤَال في الأسواق؛ فهو يجهز عن النفس مرّة واحدة إن كَان بِإِذْنٍ، ولغَيْر طمع، ويلحق بذلك التخلق بالأخلاقِ الحسَنَة، كالتواضع، والسَّخَاء، والكَرَم، وسعَة القَدْرِ، وترْك الغضب للنَّفس، وغَيْر ذلِكَ. وإِن أَردتَّ أَنْ تعرف العبودية، فانظر إن اشتريْتَ عَبْداً من مَالِك، كيف تحب أنْ يكون معكَ، فكن أنت مع سيّدكَ كما تحب أن يكون عبدك مَعَكَ.

فَالعَبْد لاَ يكون بيْن يَدَي سيّده حتى يُحَرِّرَهُ سيّده إلاَّ فقيراً ذليلاً، وَلاَ

يلبَس إلاَّ لباس الذلّ؛ وهيَ ثياب الخِدْمَة والمِهنَة. فالعبد المتأدّب لا يتحلّى بِحِلية سَيِّدِهِ حتى يحرّره سَيِّدُهُ. والعَبْد أيْضاً لاَ يُدَبِّر أمْر نَفْسِهِ؛ وهو في مَمْلكَة سَيِّدِهِ. إذْ لاَ يَنْفَعه ذَلِكَ أيْضاً.

وإِذَا أراد العَبْد أيْضاً أن يَحْظَى عند سيِّدِهِ، يكون عند أَمْره ونَهْيِهِ، سَميعاً مطيعاً بالفَهْم عَنْ سيّدِهِ فيَفْعَل ما يشتهي سيّده قبل أن يأمره بِهِ.

وأيضاً: العبد المحبّ لسيّده، لاَ يخدمه عن غرَضٍ، إذ لا يستحق على سيده شيئاً بل يخدمه عَبُودية ومحَبَّة. وفي الحديث: «لاَ يكُنْ أَحَدُكم كالأجِير السُّوءِ، إذا أعْطِي عمل وإلاَّ لَمْ يَعْمل». أو كما قال عليه السَّلاَمُ. ثم قال النَّاظِمُ: هَدَانَا اللَّهُ تَعَالَى أو العقل بإِذْنِ اللَّهِ لقولِ الحقّ. فقلناه فيمَا نَظَمْنا؛ وَهُوَ شَرْحُ مَا تَوَلَّهَتْ، أيْ تَحَيَّرَتْ لِعِزَّتِهِ، أي لأَجْل صُعُوبَتِهِ وغَلَبته أَلبَابُنَا؛ أي عُقولُنَا. وله هُدْنَا؛ أي رَجعْنَا. بَعْدَ نُفُورنَا عَنْهُ لصُعُوبَتِهِ، أي وَلِلَّهِ تُبْنَا ورجَعْنَا إن لَمْ نُصَادِف الصَّوَاب. ثم قال: فَمَن كَان يَبْغِي السَّيْرَ والنُّهُوض إلى الجانِب الأقْدَسِ؛ وهو حضرة القُدْس، محلّ الأُنسِ فَلْيَأْتِ إلَيْنَا ليأخذه عنَّا. فَإنَّ طريق السَّيْر لاَ تؤخذ إلاَّ عن أرْبابِهَا؛ وهم الذين سَارُوا مَعَهَا. وعَرَفُوا وَعْرَهَا وَسَهْلَهَا. والمُرَادُ: تَرْبِيَة النفوس وتهذيبهَا، فَلاَ تؤخذ إلاَّ مِمَّنْ أَخَذَهَا عَنْ غيْرِهِ. وسَلَكَها بنفسِهِ. وخاف مَقَامَ الجذبِ والسُّلُوكِ، وحازَ مقام الفَنَاء والبقاء. وَمَنْ لَمْ يسْلك ذَلِكَ فلا يقتدى بِهِ فِي سُلُوكِهَا وبالله التوفيق. وهو الهادي إلى سَواء الطريق. هٰذَا آخِرُ ما قصدناه من شرح النونية الششترية، على تصحيف في مَتْنِهَا. فَمَن وَقَفَ على خَلَلٍ فَليصلحْه مِنْهَا وَمِن شَرْحِهَا. إذ قَلَّ مَا يَخلصُ مُصَنَّف مِنَ الْهَفواتِ. أو يَنْجُو مؤلِّفٌ من العَثَرات. كما قال الشيخ خليل رحمه اللَّهُ. وكَان الفراغُ من تَبْيِيضِه، ضَحْوة يوم الخميس، فاتح رجب سنة عشرين ومائتين وألْف هجرية (١٢٢٠هـ) على يد جامعه، العبد الفقير أحمد بن محمد بن عجيبة الحسني.

شرح صلاة القطب ابن مشيش
رضي الله عنه

لسيدي أحمد بن عجيبة

رضي الله عنه

ضبطها وصححها وعلق عليها

الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي

الحسيني الشاذلي الدرقاوي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وصَلَّىٰ اللَّهُ عَلَىٰ سَيِّدنا مُحَمَّد وَآلِهِ وصَحْبِهِ وسَلَّم تَسْلِيماً

قَالَ الشَّيْخُ الإِمَامُ، العَالِمُ العلاَّمة، الوليّ الصَّالح، العارف الربَّاني: سيّدي أحمد بن محمَّد بن عجيبة الحَسَني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَنَفَعَنَا بِهِ آمِين.

نَحْمَدُكَ يَا مَنْ تَجَلَّىٰ لِقُلوب أوليائِهِ، بِكَمالِ جَمَالِهِ وَبَهَائِه. فَتَنَزَّهَتْ فِي رِيَاضِ مَلَكُوتِهِ الأَفْكَارُ. ونشكرك يَا مَنْ تولَّى أَسْرَارَ أنبيائِهِ وأَصْفِيَائِهِ، فخاضَتْ فِي بِحَارِ جَبَرُوتِهِ الأَسْرَارُ. ونُصَلِّي ونُسَلِّم عَلى بَذْرَةِ الْوُجُودِ، ومَطلع شَمْسِ السُّعُود، سيِّدنا ومَوْلاَنَا مُحَمَّد، الَّذي من سرّ ناسُوتِهِ انشقَّت الأسرار. ومن لاهُوتِ صِفَاتِهِ؛ انفَلَقَتِ الأَنْوَارُ. صَلاَةً وسَلاماً يَلِيقانِ بِمَا لهُ مِنْ عَظِيمِ جَاهِ ومِقْدارِ. وَرَضِيَ اللَّهُ تَعَالَىٰ عَنْ أَصْحابِهِ الأَبْرارِ، وَأَهْلِ بَيْتِهِ الأَطْهَار.

وَبَعْدُ: فَهٰذَا شَرْحٌ لَطِيفٌ، عَلَىٰ تَصْلية القطبِ الجامع، لسيِّدي عبد السَّلام بن مشيش نَفَعَنَا اللَّهُ بِذِكْرِهِ. وأفاضَ عَلَيْنَا مِن صيب فيضه آمين. نَدَبني إليه شيخنا العارف، الربَّاني، قدوة السائرينَ. ومُربِّي الواصلينَ، سيّدي محمَّد بن أحمد البوزدي الحسني. فأَجَبْتُهُ إِلَى ذلِكَ. رجَاءَ التحقيق بِمَحَبَّتِهِ، والشُّرب مِنْ فَيْضِ مَدَدِهِ. ولْنقدِّمْ بَيْنَ يدي الكلام، ترجمة الشَّيْخ. وَذِكْر شَيْءٍ مِنْ كَلاَمِهِ.

أما ترجمتهُ: فهو الشيخ الإمام، العارف الواصل، الولي الكبير، والقطب الشهير، شمس زمانِهِ، وفريد عصره وأوانِهِ. سيِّدنا ومولانا عبد السلام بن مشيش بالميم. وربما قيل بالباء. وإِبْدَالُ البَاءِ بالميم، لغة مازنية، ومَعْناهُ الخَادم الخفيف؛ الحاذق اللبيب، ابن أبي بكر بن علي، بن حُرْمَة، بن عيسى، بن سلام، بن مِزْوار. ومعْناه بلغة البَرْبر، بكر أبيه. ويستعمل في رئيس القوم، ابن علي بن حيْدَرَة. وهو في الأصل، اسم الأسد، ابن محمد بن إدريس

الأزهر، بن إدريس الأكبر، بن عبد الله الكامل، بن الحسن المثنَّى، بن الحسن السبط، بن علي كرَّم الله وَجْهَهُ، رضِيَ اللهُ عَنهُمْ أَجْمَعِين. توفي رضي الله عنه شهيداً سنة ٦٢٢هـ، أو فيما بعده بقليل. قال ابن خَلْدُون: قَتَلَهُ في جَبَلِ العَلَم قَوْم، بَعَثهم لِقَتلِهِ، ابن أبي الطواجِنِ الكتامي الساحر، المدَّعي النبوَّة. وبسَبَبِ هذه الدَّعوة، زَحَفَتْ إليه عَسَاكر سبْتة. وكَان عند بني سعيد فقتل. ثم قلت: أخبَرني مَنْ أثقُ بِهِ من بني سعيدٍ، أنَّهُ قتلهُ شابٌّ مِنهُمْ، وذلكَ أنَّ الظالمَ كَانَ فَاسِقاً. يتعمَّد بَنَاتِ النَّاس كرْهاً، فتزيَّا شابٌ بِزَيِّ النِّسَاءِ، فلمَّا اختلطَ بِهِ فِي خَلْوَتِهِ قَتَلَهُ؛ لأنَّ الظَّالِمَ كَانَ أرَادَ أن يَدْخُلَ بِأُخْتِهِ، فتزيَّا بِزيِّ النِّساءِ وأُهْديَ لَهُ، عَلَى أنَّهُ بِنتٌ. فَقَتَلَهُ بخُنجَارٍ. وَكَانَتْ وَفَاته سَنَة خمس وعشرين وستمائة ٦٢٥هـ، أي القطب ابن مشيش، على قَوْلِ ابن خلدون. وَدُفِنَ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ، فِي قمَّةِ الجَبَلِ، المُسَمَّى بالعلم. قَالَ فِي المِيرَاثِ: وَآثاره هُنَا كثيرة، من مغارة للخَلْوَةِ والعبادة، ومسجده، جُدرانه قصيرة، ومَوْضع لارْتقابِ الْفَجْر، وتحت ضَريحهِ بِنحْوِ الْمِيل، عيْن كَان يتوضّأُ فيها، ومقتلهُ فَوْقَهَا بقريبٍ يُقالُ: إنَّهُ توضَّأ فيهَا عِنْدَ الفَجْر. وقَصَدَ الصُّعُود لمَحلِّ العِبَادَةِ، وارْتقاب الْفَجْرِ، فَقَتَلُوهُ هُناك. ومِنَ الشَّائِعِ، أنَّه ألقي عليهم الضباب الكثيف، ودُفِعُوا إلى شَواهِقِ الجِبَالِ. فَترددوا مِنْهَا فِي مَهَاوي سحيقة. فمُزِّقوا كلَّ مُمزَّقٍ، ولَمْ يَرْجع منهم مُخبر. وتَحْت هٰذِهِ العيْن، بمسافة أخرى، رسوم داره التي كان يسْكنُها. قلْتُ: وقد وصَلْتُهَا، وصلَّيْتُ فِي إثْرِ مسْجِدِه، قُرْب العَيْن الَّتي يُسمُّونَهَا عيْن القشور عن يمينها، ولا سَاكِن هناك اليوم، وإنَّما العُمْران في سَفْح الجبل، دائراً به، في مدائر وعُمْران، يسكنها أهْل هذا النَّسَبِ الشريف، ومعهم غَيْرهم. وكانَ لَهُ مِنَ الأَوْلادِ أرْبَعَةٌ: محمَّدٌ، وأحْمَدُ، وَعَبْدُ الصَّمَدِ، وعلاَّل. ومن بني ولده محمد: بنو عبد الوهَّاب، وطائفة يسمّون الرَّحمونيين، بقرْبِ شفشاون. ومن وَلَده علاَّل أوْلاد الفِجْفج، مِنهُمْ فرقة بمرَّاكش.

ولَهُ أخَوَانِ: مُوسىٰ ويمْلاح. ومن بني موسَىٰ: الشفشاويّون القاطنون بفاس. ومن بني يمْلاَح: سيِّدي عبد الله بن إبراهيم، نزيل وزَّان. ولَهُ مِنَ الأعمامِ ستَّةٌ: يُونس، وعليج، وملهى، وميمون، والفتوح، والحاج. ومن

أولادِ يُونُسَ: أولاد ابن رئيسون. وأولاد ابن رخمُون، وأولاد مَرْحُو. ومن المنقول عن سيّدي عبد الله الغَزْواني رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ، أنَّ رَوْضَةَ مَوْلاَنَا عَبْد السَّلام، مشتملةٌ على ثلاثة قبور، الوسط منهم هُوَ قَبْرُ الشَّيخ، والذي خَلْفَ ظَهْرِهِ، قبر ولدِهِ، سيّدي محمَّد، والذي بيْن يَدَيْه، قبر خديمه ابن خدرمة رَضِيَ اللَّهُ عَنهُم. ويُرْوىٰ أنَّ الشَّيخ كَانَ يوماً بإزاءِ خَلْوَتِهِ، يتلو القرآن، ومعه تلميذه، الشَّيخ أبو الحسَنِ الشاذلي، حتى وصل سورة الأنعام، إلى قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعۡدِلۡ كُلَّ عَدۡلٖ لَّا يُؤۡخَذۡ مِنۡهَآ﴾. [الأنعام: ٧٠] فورَد عليه واردٌ إلَهي، اقتطعه عن حِسِّه، واسْتغرق فيه مدَّة، فلمَّا أفاق رفَعَ يده إلى السَّماء داعِياً. فكان مِنْ دُعَائِهِ: اللهُمَّ من سَبَقَ لَهُ الشقَاءُ مِنْكَ فَلاَ يصِلْ إليَّ، وَمَنْ وَصَلَ إليَّ أكونُ له شَفِيعاً يَوْمَ القِيَامَة. اللَّهُمَّ لاَ تَبْعَثْ لَنَا مَنْ حَكَمْتَ بِشَقَائِهِ.

وأمَّا علوّ قدرِهِ، وجَلاَلَة مَنْصِبِهِ، فذلِك أمرٌ شَهِيرٌ. وقَدْ تَغلغل في علوم القوم؛ التي مدارها علم التحقيق بأخْلاقِ النبيّ ﷺ، فَنَالَ من ذلك الحظَّ الأوْفَر، وطريقه طريق الْغِنَىٰ الأكْبَر. قال الشَّيخ أبو الحسَن الشاذلي: دَخَلْتُ العِراقَ، واجتمَعْت بالشَّيْخ الصَّالح، ابن الفتح، فما رأيْت مِثْلَهُ، وكُنْتُ أطْلب الْقُطب. فقال لي بعض الأولياء: تطلب القطبَ وهُوَ ببلادِكَ. ارجع إلى بِلاَدِك تجِدْهُ. فرجَعْتُ إلى المَغرب، إلى أن اجتمعْتُ بأسْتاذِي رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ، وقال أيضاً: كُنتُ يَوْماً بَيْنَ يَدَيْ أُسْتاذِي، فقُلْتُ فِي نَفْسِي: لَيْتَ شِعْرِي، هل يَعْلَمُ الشيْخ اسمُ الله الأعْظم. فقال ولد الشيخ: يا أبا الحسَن: لَيْس الشأن مَنْ يعلمُ وإنَّما الشَّأن من يكون هو عيْن الاسْم. فقال الشيخ: أصَابَ وتفرَّسَ فيكَ ولدي يا أبا الحسَن. وقيل: كان الولدُ المذكور من ثلاث سنين. وقال أيْضاً: كنْتُ في سياحَتِي في مَبْدأ أمْرِي، حصل لي تردد، هل ألْزَم البراري والقفار لأتفرَّغ للطاعة والأذكار أو أرجع إلى المُدن، لصحبة العلماءِ والأخْيَار. فوُصف لي وليٌّ هُناك، وكان برَأْسِ جَبَلٍ، فَصَعدت إليه ليلاً، وقلت في نَفْسي: لا أدْخل عليه في هٰذَا الوَقتِ: فَسمعته وهو يقول: مَنْ دَخَلَ المَغَارة؟ اللَّهُمَّ إنَّ قَوْماً سألُوكَ أنْ تُسَخِّرَ لَهُمْ خَلْقك فَسَخَّرْتَ لَهُم خَلْقك فَرَضُوا بِذٰلِكَ مِنْكَ، اللَّهُمَّ وإنّي أسْألُكَ اعْوِجَاجَ الخَلْقِ عليَّ، حتَّى لاَ يَكُونَ مَنْجا إلاَّ إلَيْكَ.

والْتَفتُّ إلى نَفسِي، وقلتُ: يَا نَفسِي، انظري مِنْ أيّ بَحْرٍ يَغْتَرِفُ هٰذَا الشَّيْخ؟ فلمَّا أصْبَحت، دَخَلْتُ عَلَيْهِ، فَارْتَعَبْتُ مِنْ هَيْبَتِهِ. فقلت: يا سيّدي، كيْف حالك؟ فقال: أشكو إلى الله مِنْ بَردِ الرِّضى والتَّسْليم، كَمَا تَشْكُو أنْتَ مِنْ حَرِّ التَّدْبير والاخْتِيارِ. فقلت: أما شكواي من حَرِّ التدبير والاختيار، فقد ذُقْتهُ، وإني الآن فِيهِ، أمَّا شكواك من بَردِ الرِّضَى والتَّسْليم فما ذقتهما. فقال: أخاف أنْ تشغلَني حَلاَوتهما عَنِ اللَّهِ. فقلت: يا سَيِّدي سمعتُكَ البارحة تَقُولُ: اللَّهُمَّ إنَّ قوماً.. إلخ... فتبسَّمَ ثم قَالَ: يا بني عوَضَ أن تقول: سَخر لي خَلْقَكَ، قل: يَا رَبّ كُنْ لي. أترى إذا كانَ لَكَ أيفوتك شيء؟ فما هذه الجبانة؟ اهـ.

وأمَّا كَلامه في الحقائق والوصايا، فقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في بعض كَلاَمِهِ: «الْزَم الطَّهارَةَ مِنَ الشُّكوكِ، كُلَّما أحْدَثْتَ تَطَهَّرْتَ، ومن تَدَنُّس الدُّنيا، كلّما مِلْتَ إلى شهوةٍ، أصلحت بالتوجه ما أفْسَدت بالْوَهْم، أو كدت، وعليك بمَحَبّةِ اللَّهِ عَلَى التَّوْقِير والنَّزاهةِ، وأدمن الشرب بكأسها، مع السُّكْر، كُلَّما أفَقْتَ أو تَيَقَّظْتَ شَرِبْتَ، حتَّى يكونَ سُكركَ وصحوكَ بِهِ. وحتى تغيب بجماله عن المحبَّة وعن الشَّرابِ. والشُّرب والكأسُ بما يَبْدُو لَكَ مِنْ نُور جَمَالِهِ، وقُدْس كَمَال جَلاَلِهِ، ولَعَلِّي أُحَدِّثُ مَنْ لاَ يَعْرف المحبَّة، وَلاَ الشُّرب، وَلاَ الكَأْسَ، وَلاَ السُّكر وَلاَ الصَّحْوَ». قال له القائل: أجَلْ، وَكَمْ مِن غَريق في الشيء لا يَعْرِفُ بِغَرَقِهِ. فَعَرِّفني ونَبِّهْني على مَا أنا بِهِ جَاهِلٌ، أوْ ما مَرَّ عليَّ وأنا عَنْهُ غَافِلٌ. قلت: لكَ نَعَمْ. المَحَبَّة آخذةٌ مِنَ الله. قُلْتُ: مَن أحَبَّ بما يكشف له من نور جمالِهِ، وقُدس كمالِ جَلاَلِهِ. وشُرْبُ المحبَّة: مَزْجُ الأوصَافِ بِالأوْصَافِ، والأخلاقِ بالأخلاقِ، والأنوارِ بالأنْوَارِ، والأسماءِ بالأسماءِ، والنُّعُوتِ بِالنُّعُوتِ، والأفعالِ بالأفْعَالِ. وَيَتَّسعُ فيه النَّظر ولِمَنْ شَاءَ الله عَزَّ وَجلَّ. والشُّرْب: سَقي القلوب، والأوصال والعُرُوق مِن هٰذَا الشرابِ، ويكُونُ الشربُ بِالتَّدْريب بَعْدَ التَّدريب، والتهذيب بعد التهذيب، فيسقى كل على قَدْرِهِ، فمنهم مَنْ يُسْقى بِغَيْر واسِطةٍ، والله يتولَّى ذلك، ومنهم من يُسقى مِن جِهَةِ الْوَسَائِطِ، كَالملائِكَة والعُلماء، والأكابِرِ مِنَ المُقَرَّبِينَ، فمنهم من يسكر بشهودِ الكأس، ولَوْ لَمْ يَذُقْ بَعْدُ شيئاً. فَمَا ظَنّك بَعْدُ بالذَّوْق، وبعدُ بالشرْب، وبَعْدُ بالرِّيّ، وبَعْدُ بالسُّكْرِ، وبعدُ

بالمشروبِ. ثمّ بالصحوِ، ثم بعْدَ ذلك على مصادر شتّى. كالسُّكْر أيْضاً كذلك.

والكأس: مِعْرفَة الحقّ، يُغرفُ بِهَا مِن ذلكَ الشّرابِ الطهور المحضِ الصّافي، لمَن شاءَ من عِبَادِهِ المخلصينَ من خَلْقِهِ. فتارةً يشْهَد الشراب بذلكَ الكَأْسِ صورة، وتارة يشهدها معنوية، وتارة يشهدها عِلْمية. فالصُّورة حَظُّ الأبدانِ والنُّفوس، والمعنوية حظُّ القلوب والعُقول، والعلمية حَظُّ الأرواحِ والأسْرَار. فَيَا لَهُ مِن شَرَابٍ ما أعْذَبَهُ! فطوبَى لِمَنْ شَرِبَ مِنْهُ ودَامَ وَلَمْ يُقْطَعْ عَنْهُ. نسأل الله من فضله، ذَلِكَ فضل الله يؤتيه من يشَاءُ. وقَدْ تجتمعُ جَمَاعة من المُحِبِّينَ، فَيُسْقَوْنَ مِن كَأْسٍ واحدة، وقد يُسْقَوْن مِن كُؤُوسٍ كثيرة، وقد تختلف الأشْرِبَةُ بِحَسَبِ الكُؤوسِ، وقَد يختلف الشُّرْبُ من كأس واحدة. وإنْ شَرِبَ مِنْهُ الجَمُّ الغَفِيرُ مِن الأحِبَّةِ اهـ. قُلْتُ: وَقَدْ شَرَحْت هٰذَا الْكَلاَم، في شَرْحِنَا لخمرية ابن الفارض اهـ.

«ومِنْ وَصَايَاهُ رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ، لتلميذهِ أبي الحَسَنِ، قال له: الله الله، والنَّاسَ نَزِّهْ لسَانَكَ عَنْ ذِكْرِهِمْ، وقَلْبكَ عَنِ التَّماثل من قِبَلِهِم.. وقل: اللّٰهُمَّ ارحَمْنِي مِنْ ذِكْرِهِم، ونَجِّني مِن شرِّهم، واغنني بِخَيْرِكَ عَنْ خَيْرِهِم، وتَوَلَّني بالخُصُوصية مِنْ بَيْنِهِمْ. إنَّكَ على كل شيْءٍ قدير» وقال الشَّيخ أبُو الحَسَن رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ: أوْصَانِي حَبِيبِي، أي أُسْتَاذِي مَوْلاَنَا عَبْد السَّلام بن مشيش، فقال: يَا أبا الحسَن: لاَ تَنْقُلْ قَدَمَيْكَ إلاَّ حَيْث تَرْجُو ثَوَابَ الله، وَلاَ تَجْلِسْ إلاَّ حَيْث تأْمَن غالباً مِنْ مَعْصِية الله. وَلاَ تَصْحَبْ إلاَّ مَن تَسْتعينُ بِهِ عَلَى طَاعَةِ الله. وَلاَ تصطفي لِنَفْسِكَ إلاَّ مَنْ تَزْدادُ بِهِ يَقيناً، وقليلٌ مَا هُمْ اهـ. وقال أيضاً: أوْصَانِي أُسْتاذِي فَقَالَ: «لاَ تَصْحَبْ مَنْ يُؤثِر نَفْسَهُ عَلَيْكَ، فَإنَّهُ لئيمٌ، وَلاَ مَنْ يؤثرك على نَفْسهِ، فإنه قَلَّ ما يَدُومُ، واصحبْ مَنْ إذا ذُكِرَ، ذُكِرَ الله، فإنَّه يُغْنى بِهِ إذا شُهِدَ، وينوب عَنْهُ إذا فُقد ذِكْرهُ نور القلب، ومُشاهدته مِفتاحُ الغيوبِ».

وقَالَ أيْضاً رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ: يَا أبا الْحَسَن «اهربْ مِنْ خَيْرِ النَّاسِ، أكْثَرَ مِنْ أنْ تهربَ مِنْ شَرِّهِمْ، فَإنَّ خَيْرَهُمْ يصيبكَ فِي قَلْبِكَ، وشَرُّهُمْ يصيبُكَ فِي بَدَنِكَ، ولأَنْ تُصَابَ في بَدَنِكَ خَيْرٌ مِن أن تصابَ فِي قَلْبِكَ، ولعَدُوٌّ تصِلُ بِهِ إلىٰ رَبِّكَ خَيْرٌ مِنْ حَبِيبٍ يقطَعُكَ عَنْ رَبِّكَ».

وَقَالَ أيضاً: سَأَلْتُ أُسْتَاذِي رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ عَنْ قَوْلِ الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلامُ: «يَسِّرُوا وَلاَ تُعَسِّرُوا، وَبَشِّرُوا وَلاَ تُنَفِّرُوا». فَقَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: دلُّوهُمْ عَلَى الله، وَلاَ تَدُلُّوهُمْ على غَيْرِهِ، فإنَّ مَنْ دَلَّكَ عَلَىٰ الدُّنْيَا فَقَدْ غَشَّكَ، وَمَنْ دَلَّكَ عَلَىٰ العمل فقد أتْعَبَكَ، ومَنْ دَلَّكَ عَلَىٰ الله فَقَدْ نَصَحَكَ.

وَقَالَ أيْضاً: فَقَدْ سَأَلَنِي أُسْتَاذِي فَقَالَ: يَا أَبَا الحَسَن: بِماذَا تَلْقَىٰ الله؟ فَقُلْتُ بِفَقْرِي، فَقَالَ: لَئِن لَقِيت الله بِفَقْرِكَ لتَلْقِيَنَّهُ بالصَّنَم الأعْظَم. وإنَّما يُلْقَى الله بِهِ سُبْحَانَهُ، لاَ بشَيْءٍ سِوَاهُ. وقَالَ لَهُ رَجُلٌ: يَا سيِّدِي وَظِّفْ عليَّ وظائف وأوراداً أعْمَلُ بِهَا. فَقَال لَهُ: أرَسُولٌ أنا؟! الفرائض مشهورة، والمحرمات معلومة، فَكُن للفَرَائضِ حَافِظاً، وللمعاصِي رَافِضاً، واحْفَظْ نَفْسَكَ مِن حُبّ الدُّنيا، وحُبِّ النِّساءِ وحُبِّ الْجَاهِ، وإيثار الشهوات، واقنَعْ بِما قَسمَ الله لكَ. إذا أخرجَ لَكَ مخرجَ الرِّضَى، فَكُنْ فِيهِ شَاكِراً، وإذا أخرج لك مخرج السُّخطِ، فكُن عليه صَابِراً.

وحبُّ الله قُطْبٌ تَدُور علَيْهِ الخَيْراتُ، وأصْلٌ جَامعٌ لأنواعِ الكراماتِ وحَصْرُ ذلك كلّه في أربَعٍ: الوَرَع، وحُسْن النِّيَّة، وإخلاص العملِ، وصُحْبة العلم؛ ولا تَتِمُّ لهُ هذه الجملة إلاَّ بِصُحْبَةِ أخٍ صالحٍ، أو شَيْخٍ نَاصِحٍ.

أخَذَ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ عَنْ شَيْخِهِ أبِي محمَّد، سَيِّدي عَبْد الرَّحمٰن المَدَني، المُلقَّب بالزيَّات، لسُكناه بحارة الزَّيدتين، وكَانَ الشَّيخ سيِّدي عبد السَّلام بن مشيش في صُغْرِهِ، انقطع للعبادة في مغارة بِجَبَلِ العَلَم، بَعْد أن أدْركَهُ الجَذْب؛ وهو ابْن سبع سنين. فَدَخل عليه بعد مُدَّةٍ رجلٌ عليه سيما أهْل الخَيْر والصَّلاح، فقال: أنا شيخُكَ الَّذي كنْت أمُدّكَ من وقت الجذبِ إلى الآن، ووصَفَ لَهُ ما وَصَلَ إلَيْه عَلَى يَدَيْهِ ومن المُنازَلاتِ والمَعَارِف، وَفَصَّلَ لَهُ ذلِكَ مَقاماً مقاماً، وحالاً حالاً، وعيَّن لكلِّ حالٍ زَمَنَهُ، ثم سُئِلَ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ بعد ذَلِكَ، هَلْ كَانَ يأتيكَ أوْ كُنْتَ تأتيه؟ فقال: كل قد كان. فقيل لهُ: أطيّاً لمسافة المكان، أوْ سفراً. فقال: طيّاً. وأخذ شيخه المذكور، عن عارف وقْتِهِ: القطبُ تقيّ الدِّين الفقير فيهما، وهو من أرض العِراق، وهو عن القطب فَخر الدِّين، عن القطبِ نور الدِّين أبي الحسين، عن القطب تاج الدِّين، عن القطب شمس

الدِّين بأرض الترك، عن القطب زيْن الدِّين القزويني، عن القطب أبي إسحاق، إبراهيم البَصْري، عن القطب محمَّد أبي القاسم أحمد المِرْواني، عن القُطْبِ أبي محمَّد سعيد، عن القطب سَعْدٍ، عن القطب محمد فتح السعود، عن القطب سعيد الغزواني، عن القطب أبي محمد جابر، عن أوَّل الأقطاب، سيِّدنا الحسَن، عن أبيه سيِّدنا علي بن أبي طالب، عن سيِّد الأولين والآخرين، سيِّدنا ومَوْلاَنا محَّمد ﷺ، ويتَّصل نَسَبُنَا بِهٰذَا الشَّيخ، من طريق شَيْخنا العارف البُزَيْدي الحسني، عن شيخه العارف، مَوْلاي العربي الدرقاوي الحسني، عن شيخه العارف، سيدي علي العمراني الحسني، عن شيخه العارف سيّدي العربي بن أحمد، بن عبد الله، عن أبيه سيدي أحمد بن عبد الله، عن سيدي قاسم الخصاصي، عن العارف بالله، سيدي عبد الرحمٰن الفاسي، عن سيدي محمَّد بن عبد الله الكبير، والد سيدي أحمد، وهما عن القطب سيدي يوسف الفاسي، عن العارف سيّدي عبد الرحمٰن المجذوب، عن شيخه سيّدي علي الصنهاجي؛ المشهور بالدوار، عن شيخه سيّدي إبراهيم أفحام، عن سيّدي أحمد زروق، عن شيخه سيّدي أحمد بن عقبة الحَضْرَمي، عن سيدي يحيى القادري، عن القطب سيدي علي بن وفا، عن والده سيّدي محمَّد بحر الصفا، عن سيدي داود الباخلي، عن سيدي أحمد بن عطاء الله، عن القطب سيدي أبي العباس المرسي، عن القطب سيدي أبي الحسن الشاذلي، عن القطب الكبير العارف الشهير صاحب التصلية؛ الَّذي قال في أوَّلِهَا:

«اللَّهُمَّ». أي يا الله، حذفت الياءُ إزالة للبُعْدِ الذي تدلّ عليه، وعُوضَتْ عنها الميم، دلالة على الجَمْعِ، ولذلكَ قال الحسَنُ: مَن قال: اللهمَّ، كأنَّما دَعَا الله بأسْمَائِهِ كُلّها؛ لأنَّ الميمَ تدلّ على الجَمْعِ كهُمْ **«صَلِّ»** أي ترحَّم وتعطف **«عَلَىٰ»** سيِّدنا ومَوْلاَنا محمَّد **«مَنْ»** أيْ الذي **«مِنْهُ»** أيْ من نورِهِ؛ الذي هو بَذْرة الوجود، والسبب في كل مَوْجُودٍ. ويحتمل أن تكون مَنْ تعليلية، أي من أجْله ﷺ **«انْشَقَّتْ»** أي لاَحَتْ وظَهَرَتْ، أوْ نَبَعَتْ وَانْفَجَرَتْ **«الأسْرَارُ»** أي أسْرار الذَّات العالية. وقد كانت قبل ظهور نوره محجوبة باطنية، تجلَّى فيها الحقّ تعالى باسمه الباطن، فلمَّا أراد أن يتجلَّى باسْمِهِ الظَّاهِرِ، أظهر قبضةً مِنْ نوره،

فقال: كُوني محمَّداً، فَمن تلك القَبْضَة المُحمَّديَّة، تكوَّنَتِ الأكوانُ، منَ العَرْش إلى الفرْش، فما ظَهرت أسْرار الذَّاتِ، إلاَّ من تلك القَبْضة النّورانية، فَظَاهِرُهَا ذات، وباطنها صفات، وبتلك الصفات، وقع التكثيف والتصويرُ، والتعبيرُ، والتشْكيل والتحيير. وإلى ذلك أشار بقَوْلِهِ: «وانفَلَقَتْ» أي من نورهِ ﷺ، انفلقَتْ، أي انفلقَتْ وظَهَرَت «الأنوارُ» أي أنْوَار الصفاتِ، وأنوارُهَا: أي آثارها؛ التي ظهرتْ على ظاهر التجليات. مِنْ تكثيفِ وتلطيفِ، وتقييدِ وتخصيصِ، وتشكيل وتمييز، وإعْزاز وإذلالِ، وخَفْض وَرَفْع، وقبْضِ وبَسْطِ، وغَيْر ذلِكَ مِن اختلافِ الآثار، وانتقالات الأطوار، فهذه كلهَا من آثار الصفات الأزلية، التي هي القدرة، والإرادة، والْعِلم، والحياة. والصفات لا تفارق الموصوف، لكِنْ لمَّا كانت الصِّفاتُ لطيفة لا تُدْرَكُ أظهرتْ نفْسَها في المحسوساتِ، والذَّات عيْن الصفات، والصفات عيْن الذَّات، أي مَحَلّها واحِدٌ، فَحَيْث تجلَّتِ الذَّاتُ تجلَّتِ الصِّفاتُ، وحيْث ظَهَرَتِ الصِّفات، ظَهَرتِ الذَّات، فَعَبَّروا عن هٰذَا الكلام بالاتِحادِ، والعَيْن.

فأهْلُ الفَرْق وهُمْ أهْل الحجابِ، لا يشهدون إلاَّ الصفات، أي أثرها؛ وهم محجوبون عن شُهُودِ الذَّاتِ. فكُلُّ مَن دَخَلَ عالم التكوين، فهُوَ من تِلكَ القَبْضةِ، فَظَاهِرها الخ... وأهْلُ الجمْع؛ وهم أهْل الجَذْبِ والفناء، لا يشهدونَ إلاَّ الذَّات، ويغيبُونَ عن أثر الصفاتِ، وأهْل البقاءِ؛ وهم أهْلُ الكَمَالِ يشهدونَ الذَّات فِي الصّفاتِ، والجمْعَ في الفَرْقِ، لا يحجبُهُمْ جَمْعهم عن فَرْقِهِمْ؛ ولا فَرْقُهُمْ عن جَمْعِهِم، يعطون كل ذي حقّ حقَّهُ، ويُوفون كُلَّ ذي قِسْطٍ قِسْطَهُ. فَكَلام الشيخ رضي الله عنه مِنْ بابِ التَّرقِّي، فانشقاق الأسْرَارِ؛ لأهل الفَنَاءِ فِي الذَّاتِ؛ وهم أهل الجذْبِ والسكر. وانفلاق الأنْوار لأهْلِ البقاءِ؛ وهو الرجوع إلى شهودِ الأثرِ بالله، وهم أهل السلوكِ بَعْدَ الجذْبِ والفناء.

ويحتمل أن يريد بقوله: منه انشقت الأسرار. أي أسرار الجبروت، ومنه انفلقت الأنوار، أي أنوار الملكوت. أو تقول: منه انشقت الأسرار. أي أسرار الحقيقة، وانفلقت الأنوار، أي أنوار الشريعة. أو تقول: منه انشقَّت الأسرار، أي أسْرار الإحسان، وانفلقت الأنوار، أي أنوار الإيمان والإسلام. أو تقول:

منه انشقت الأسرار: أسْرار عالم الغَيْب، وانْفَلَقَتِ الأنْوَار: أنوار عالم الشَّهَادَةِ. أوْ تَقولُ: مِنْهُ انشقت الأسْرار: أسْرَار القدرة. وانفلقَت الأنوار، أنوار الحِكمة.

ويحتمل أنْ يكون كلامهُ من باب التَّدلّي، فيكونُ قدَّم أوَّلاً مقام أهْل الإحسان، من أهْل الشهود والعِيَان. ثم نَزَل إلى مقام أهْل الدَّليل والبُرْهان، وهم أهْل شهود أثر الصّفَات، قبل شهود الذَّاتِ، فيكون قَوْلهُ: انشقَّتِ الأسْرار لأهْل الفَنَاءِ فِي الذَّاتِ. وانفلَقَتِ الأنوارُ؛ لأهْلِ الفنَاءِ في الصِّفاتِ؛ قبل الفَنَاءِ في الذَّاتِ. فإنَّ عامَّة المتوجّهينَ، يَبْتدئون بِشهودِ الأثَرِ، ثم يَرْتقُونَ إلى شهودِ المُؤَثِّرِ بالشريعة، ثم بالحقيقة وبالإسْلام والإيمان، ثم بالإحسان، وبعالَمِ الشَّهادة، ثم عالَمِ الغَيْبِ، وبالحِكمة ثم القدرة، فيكون أوَّلاً في توحيد الأفعال: لاَ فاعل إلاَّ الله؛ وهو نهاية الصالحين، ثم في توحيد الصفات: لا حَيّ ولا قَادِر وَلاَ مُريد، وَلاَ سَمِيعَ، وَلاَ بَصِير، ولا متكلِّم إلاَّ الله، ثم في توحيد الذَّاتِ: لاَ موجود إلاَّ الله، ثم يزيدون إلى مقام البقاءِ، وإلى ذَلِكَ أشار بعضهم بقولِهِ:

وَيَفْنَىٰ ثُمَّ يَفْنَىٰ ثُمَّ يَفْنَىٰ فَكَانَ فَنَاؤه عَيْنَ البَقَاءِ

ولقَدْ سمعتُ شيخنا البوزيدي رضيَ الله عَنْهُ يَقُولُ: طريقنا لَيْس فيها إلاَّ فَنَاءانِ: فناء الأفْعال، وفناء الذات. وأما فناء الصفات فهو معنوي في فناءِ الذَّاتِ؛ وهو كما قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لأن طريق الشاذلية مختصرة، صاحبها أول قدم يضعه في مقام الإحسان فيفْنَى أوَّلاً في الاسْمِ، ثم في الذَّاتِ فنهاية الصَّالحين، بداية العارفين، وكلامنا كله مع مَنْ وجد شيخ التربية، أمَّا من لم يجد فَلاَ كَلاَم مَعَهُ، إذ لاَ سِرَّ لَهُ.

تنبيهٌ: إنما خصّ تجلِّي الذّات بالأسرار، وتجلِّي الصفات بالأنْوارِ؛ لأن تجلِّي الذّات لا يدركه إلاَّ الخواصّ، أو خواصّ الخواصّ. ومن شأن السرّ أن لا يُدْركه إلاّ الأفراد، نجد في تجلّي الصفات؛ وهو الأثر، فيُدركه العام والخاصّ. كما أنَّ النور كذلِكَ، لا يخفى على أحدٍ، وإنما خصَّ أيْضاً السرّ بالشقّ، والنُّور بالفلقِ، لأنَّ الشق يكون أوّلاً، ثم يقع الفلق ثانياً. تقول: انشقَّت الإناءُ إذَا لَمْ تَنْفَصِلْ. فاحتجبَت بِلاَ حجاب، ولله درّ القائل:

وَمَا احْتَجَبَتْ إلاَّ بِرَفْعِ حِجَابِهَا وَمِنْ عَجَبٍ أنَّ الظُّهُورَ تَسَتُّرُ

وفي مشاهدتها على ثلاثة أقسام:

قسم يشهدونها بعد مشاهدة الأكوانِ؛ وهم أهل.

فإذا انْفَصَلَ، تقول انفَلَقَ، كذلِكَ انشقَّت الأسْرار، يكون أوَّلاً لأهل الفناءِ، وانفلاق الأنوار يكون ثانياً لأهْل البقاء بعد الفناء. واعلَمْ أن الأنوار الحسية ثلاثة: نورُ النجوم، ونور القمر، ونور الشمس. والأنوار المعنوية كذلك: نور الإسْلام، كَنُورِ النُجُومِ، ونور الإيمان كنور الْقَمَرِ، ونور الإحسان كَنُورِ الشَّمْسِ، أوْ تقول: نور الفَنَاءِ في الأفعالِ كنُور النجوم، ونُور الفناءِ في الصفات، كَنُور القَمَر، ونور الفناء في الذَّاتِ، كنُور الشَّمْسِ. فأوَّلُ ما يكْشَفُ للمُرِيد، نور ضعيف كَنور النجوم، فتراه يسقط ويقوم، لخفاءِ الطريق، تختفي. ثم يَبْدُو لَهُ قَمَرُ التوحيد. فيقل عِثارُهُ. ثم تطلع عليه شمس العِرْفان، فلا يخفى عليه مكانٌ، وفي ذلك يقول المجذوب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

طَلَعَ النَّهارُ على الأقمارِ ولا يَبْقَى إلاَّ رَبِّي النَّاسُ زَارَتْ مُحَمَّدْ وأنَا سَكَنْ لِي فِي قَلْبِي

وقال أيْضاً:

طَلَعَ النَّهارُ عَلَىٰ قَلْبِي حتَّى نَظَرته بِعَينيا

وقال آخر:

إنَّ شَمْسَ النَّهَارِ تَغرُبُ بِلَيْلٍ وشَمْسُ الْقُلُوبِ لَيْسَتْ تَغِيبُ

وقُلْتُ فِي قصيدتي الرَّائية، في سِرِّ الرُّوحِ:

لطيفة نُورٍ في كَثَافَةِ ظُلْمَةٍ ولكِنَّ بَدْرَ التَّامِ في لَيْلِهِ يَجْرِي

فَإنْ أشْرَقَتْ شَمْسُ النَّهَارِ تَغَيَّبَتْ غَيَاهِبُ لَيْلٍ عَنْ سَمَا قَلْبِكَ الدُّرِّي

ألا إنَّ شَمْسَ الحِسِّ تَغرُبُ لَيْلُهَا ولَيْسَ لِشَمْسِ الحَقِّ مِنْ أَفُلٍ يَجْرِي

واعْلَمْ أنَّ هذه الأنوار؛ التي انفلقت مِن نُورِهِ عليه السَّلام، انحجَبَتْ بِسِرِّ الحِكْمَةِ في حَالِ ظهورها، إذْ لا بُدَّ لِلْحَسْنَاءِ مِنْ نِقَابٍ، وللشَّمْسِ من سَحَابٍ، فَاحْتَجَبَتْ بِلاَ حِجَابٍ، ولله درُّ القائِلِ:

وَمَا احْتَجَبَتْ إلاَّ بِرَفْعِ حِجَابِهَا وَمِنْ عجَبٍ أنَّ الظُّهُورَ تَسَتُّرُ

والنَّاسُ في مُشاهدتها على ثلاثة أقسام:

قسم يشهدونها بعد مُشَاهَدَة الأكْوَانِ؛ وهم أهْل الجَذْبِ والفَنَاءِ، مِنْ أهْلِ مقام الإحْسَانِ، وإليه أشار بعضهم بقوله: ما رَأَيت شَيْئاً، إلاَّ رأيت الله قبله، ولَمْ أره حَدِيثاً، وإما هو من قول بعض العارفين، كالذي قَبْلَهُ. والله تعالى أعْلَمُ.

وقَالَ الشَّيْخُ مَوْلاَنَا عَبْد السَّلام لِتِلْمِيذِهِ أبي الحسَنِ: «حَدِّدْ بَصَرَ الإيمَانِ، تجِدِ الله تَعَالَىٰ في كُلِّ شَيْءٍ، وَعِنْدَ كُلِّ شَيْءٍ، وَمَعَ كل شيْءٍ، وتَحْتَ كل شيْءٍ، وقريباً من كلِّ شَيْءٍ، ومحيطاً بكلِّ شيْءٍ، بِقُرْبٍ هُوَ وَصْفُهُ، وبِإحَاطَةٍ هِيَ نَعْتُهُ. وعُدَّ عَنِ الظَّرْفِيةِ والحدودِ، وعن الأماكِنِ والجِهَاتِ، وعن الصحبة، والقرْب في المَسَافَاتِ، وعن الدَّور بالمخلوقاتِ، وامْحَق الكلَّ، بوصْفه الأول والآخِر، والظَّاهر والباطِنُ، وهُوَ هُوَ هو. كَانَ الله وَلاَ شَيْءَ مَعَهُ، وهو الآن على ما عليه كان. وَقَوْلُهُ: حَدِّدْ بحاءٍ مهْمَلة، أي صِف، وقوله: وامحَقْ، هو بالميم من المحقِ؛ وهو المحْق والاضمِحلاَلُ، وبَاقِي كلامِه ظاهرٌ عِنْد أهْل الأذْوَاقِ، نَفَعَنا الله بذكْرِهِمْ، وخَرَطَنَا فِي سِلْكِهِمْ آمينَ.

ثم قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وفِيهِ»: أيْ في سَمَا قَلْبِهِ الصافِي «ارْتَقَت»: أي ارتفَعَتْ وأشرقَت شُمُوسُ «الحَقَائِق» العِرْفانية؛ والأسْرار الرَّبَّانية، والعلوم اللَّدُنية. شبَّهَ قَلْبَهُ عليه الصَّلاَة والسَّلام، بِسَمَاءٍ صاحِيَةٍ، أشرقت فيها شموس كثيرة، فامْتَلأَتْ بِالأنْوَارِ. ولذلك جمع الحقيقة، وإن كَانَت في الأصل واحدة؛ لأنه عليه الصَّلاة والسلام، اجتمع فيه من الحقائق، ما افترَقَ في غَيْرِهِ. فكان باطِنه عليه الصَّلاة والسلام، معموراً بِأنوار الحقائقِ، وظاهِرُهُ معموراً بأنوارِ الشَّرائعِ، فَكَان عليه الصَّلاة والسلام، أعطاه الله القوة مِنَ الجِهَتَيْنِ: ظاهره معمور بالشرائع، وباطنه معمور بالحقائق. وَلاَ يكون هذا إلاَّ له عليه الصلاة والسلام، أوْ لِمَن كَان على قَدَمِهِ ﷺ، ممَّن أهَّلهُ الله للاقْتِداء بِهِ. ويكون هٰذا بَعْد التمكين، ولقد سمعْت شيخ شيْخنا مولاي العربي رضي الله عنه يقول: لاَ تجتمع مجاهدة ومشاهدة، إلاَّ في رَجُلٍ واحِدٍ، على قَدمِهِ ﷺ، واعترف قول الشيخ اليوسي في بعض أدعيته: وزيّن الظاهر بالمجاهدة، وزيّن الباطن

بالمشاهدة. إذ لا مُجاهدة في الظَّاهِرِ، قبل مشاهدة الباطِنِ، كما تقدَّم.

وقال شيخ شيوخنا سيدي علي الجمل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الوليُّ الكامل؛ هو الَّذي يكون ظاهره معموراً بالشَّرائعِ، وباطنهُ معموراً بالحقائق. قُلْتُ: وهذا قليلٌ. وعلى تقدير وُقوعِهِ: تكون عِبَادة الله معمولاً فيها بالقدرةِ، فلا مجاهدة له فيها البتَّة. والغالب على أهْل الباطِنِ خفاء أعْمَالِهم؛ لأنَّها قَلْبيَّة بيْن فِكْرةٍ ونَظْرةٍ، وشهودٍ وعِبْرةٍ، لا يزيدون على الفرائض إلاَّ ما تَيَسَّرَ. ثم يسْتغرقن في الفِكرة والنظرة التي هي أفضل العبادات، ساعة منها تَفْضل عبادة سنَةٍ، كما في الحديث. وفي رواية سَبْعين سَنَة. والجمع بَيْنهما، أنَّ الأول في فِكْرة أهل الحجابِ، والثاني في فِكرة أهْل العِرْفان. وفيه قال الشاعِرُ:

كُلُّ وقْتٍ مِنْ حَبِيبي قدرُهُ كألْفِ حجَّةٍ

أي: سنة. وقال أبو العبَّاس المُرْسي، رضي الله عنه: قَوْمٌ أقامَهُمُ الله لخِدْمتِهِ، وقَوْمٌ اخْتَصَّهُمْ لِمَحَبَّتِهِ. ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإسراء: ٢٠] فأهْلُ المَحَبَّة، هم أهْلُ الفِكْرَة، وأهْلُ الخِدْمَة، هم أهْلُ العبادة الظَّاهرةِ. أوْ تقول: أهْلُ المحبَّة هُمْ أهْل العِبَادة القلبية. وأهْلُ الخِدْمَةِ؛ هم أهْل العِبَادَةِ الخارجية. أوْ تقول: أهْلُ المحبَّة، هم أهْل العِبَادَةِ المَعْنَوِيَّة، وأهْل الخِدمَة هم أهْل العِبَادةِ الحِسِّيَّة.

والحاصلُ: أنَّ عمل الشريعة، لا بُدَّ لهُ أنْ يعْتبرَ الحقيقة. والحقيقة لا بُدَّ أنْ تعْتبِرَ الشريعة. إلاَّ مَا لا بُدَّ مِنْهُ. وَمَنْ قال خِلاَفَ هٰذَا، فهو جَاهِل بِعِلْم الباطِنِ. وقد رأيت فِي قوتِ القلوب؛ لأبي طالب المكِّي، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّ بعض العَارفينَ قال لَهُ المَلَكُ الَّذي يكْتُبُ أعْمَالَهُ: يَا سَيِّدي، فَرِّحْنَا بشَيْءٍ مِنْ أَعْمَالكَ، أي ظهِّرْهُ لَنَا، نتقرَّب بِهِ إلى رَبِّنا. فَقَالَ له: أمَا يكفيكَ الصلوات الخَمْسُ. وانظر قول الشاعر؛ وهو الحَلاَّج:

قلوبُ العارفينَ لهَا عُيُونٌ تَرَىٰ مَا لاَ يُرَىٰ للنَّاظِرِينَ
وألْسِنَةٌ بِأسْرَارٍ تُنَاجِي تَغِيبُ عَنِ الكِرَام الكَاتِبينَ
وأجْنِحَةٌ تَطِيرُ بِغَيْرِ رِيشٍ إلَىٰ مَلَكُوتِ رَبِّ الْعَالَمينَ

وقد ذَيَّلْنَاهُ بِبَيْتَيْنِ آخرَيْنِ فقلْت:

وأفـئـدةٌ تَـهِـيـمُ بِـعـشـقِ وُجْـدِ إلَـىٰ جَـبَـرُوتِ ذِي حـقٍّ يـقـيـنـا
فَـإنْ أرَدت دَرْكَ ذي الْـمَـعَـانِـي فَـبَـدِّلْ رُوحـكَ قـلـيـلاً فِـيـنَـا

فهذه عبادة العارفينَ المحققينَ، باطنية خفية. ولذلكَ اخْتَفَوا عن كَثير مِنَ النَّاسِ. فَلاَ يَعْرفهُمْ إلاَّ مَنْ أرَادَ الله أن يُعَرِّفَهُمْ بِهِمْ.

ثمَّ أشَارَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى الْعِلْم الظَّاهِرِ؛ الذي علمه عليه السلام فقال: «وتَنَزَّلَتْ» فِي قَلْبِهِ عليه السَّلام، بالوحي والإلهام «عُلُومُ آدَمَ» عليه السلام. قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١] أيْ ألْهَمَه الله، وألْقَىٰ في فِطرتِهِ مَعْرِفةَ الأشياءِ كُلِّها، ولغات الألسُن كُلّها، مِنْ عَرَبيَّة وسِرْيانية وغيرهما، مما تكلم به أوْلاَدهُ، وكَذٰلِك نَبيُّنَا عليه الصلاة والسلام، علمَهُ الله أسْمَاءَ الأشياءِ ومسمياتها وزَادَ معرفة خواصّها ومَنَافعها. وكان عليه السَّلامُ، يَعْرف لغات العرب والْعَجَم وغيْرهما، فَكَانَ يُخَاطِب كل قَوْم بِلُغَتِهِم، ويكْتُبُ إلَيْهم بعُرْفِ كَلامِهِمْ. وقد أطلعه الله تعالى، على عُلوم المتقدمين، وشرائعهم الدَّارسة، وأخبارهم الماضية، وعَلِمَ ما يكونُ في أُمَّتِهِ مِنَ الأحْدَاثِ والوقائِعِ. وما يَلْقَوْنَ من المصائِبِ والفَجَائِعِ، وخَصَّهُ الله بِأسْرارِ، لَمْ يطَّلعْ عليها أحَدٌ مِن خلقِ الله. وَكَانَ عَلَيْه الصَّلاةُ والسلامُ، يخصّ قوماً بأسْرَارِ لَمْ يَفْشِهَا لغَيْرِهِمْ. حتَّى قال الفَارُوقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كُنْت أدْخُلُ على النبيّ ﷺ، ومَعَهُ الصدِّيق رضي الله عنه، وهما يتكلمَانِ في عِلْم السرّ، وفي عِلم التوحيد، فأكون بيْنهما كالزِّنجي، لا أعرف ما يقولانِ. قال سيِّدي عبد الوارث، في شَرْحِ المَبَاحِثِ: كَانَا أوَّل مرَّةٍ يتكلمَانِ فِي عِلْم السرِّ، فإذا دَخَلَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أمْسَكَا. ثم أشْرَكَاهُ في المذاكرةِ. فإذا دَخَلَ عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أمْسَكُوا، ثم أشركوهُ في المُذَاكرةِ، فإذَا دَخَلَ عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أمْسَكُوا، ثم أشركُوهُ في المُذَاكَرَةِ. وقال غيرهُ: كَان عليٌّ رضي الله عنه، يَفْهَم تِلك الأسرار، قبل أن يشركوه فِي الْمُذَاكَرَةِ. والله أعْلَمُ.

وهذه الأسرار لَيْسَت من علم الظَّاهر، وإنَّما هِيَ من عِلْم الباطِنِ، فحقها أن تُذْكر عِنْدَ قَوْله: «وَفِيهِ ارْتَقَتِ الْحَقَائِقُ». لكن انْجرَّ الكَلاَمَ إلَيْها فِي هٰذَا الْمَوضُوعِ. فالأمْرُ قَرِيبٌ، إذ إنَّ عِلْمَ الباطِنِ، لاَ يتحقق إلاَّ بعد الْعِلم الظَّاهر؛

وهو ما يتعلّق بإصْلاَحِ الجوارحِ الظّاهرة.

فالعلومُ ثلاثة: علمٌ يتعلق بإصلاحِ الظَّاهِرِ، ويُسَمَّى علمَ الشريعة، وعِلْمُ الحِكْمَة، وعِلْمٌ يتعلق بإصْلاَحِ الْبَاطِنِ؛ ويُسمَّى عِلمَ التَّصَوُّفِ، وعِلْمَ الطريقةِ. وهما كسْبِيّانِ، وعِلْمٌ مَوْهُوبٌ، ويُسمَّى علم الحقيقة؛ وهو الثمرَة والغاية. فكُلّ علم لا يُبَلّغ صاحِبَهُ لِعِلْمِ الحقيقةِ؛ فَهُوَ نَاقِصٌ. إذْ ثَمرَةُ العِلم العمل. وثمرَة العمل الحال. وثمرة الحَال الذَّوق والوُجْدَان؛ وَهُوَ نِهَايَةُ الْعِرْفَانِ. وَلاَ بُدَّ مِنْ شيخ مُرَبِّي، ينقل المُريد من عِلْم الشريعة، إلى عِلْم الطَّريقة، مع تحقيق الشريعة. وإلاَّ بَقِيَ في أحدهما عَلَىٰ الدَّوام. والشريعة تُصْلِحُ الظَّواهر، والطريقة تصلحُ الضَّمائر. والحقيقة تصلح السَّرائر. أَوْ تقول: الشريعة أن تَعْبُدَهُ. والطريقة أن تقصدهُ. والحقيقة أنْ تشهدَهُ. أوْ تقول: الشريعة للطالِبينَ. والطريقة للسَّائرينَ. والحقيقة للواصلينَ. أوْ تقول: الشريعة لطالبِ الأجُورِ. والطريقة لطالبِ الحُضُورِ. والحقيقة لِرَفْع السُّتُورِ. أوْ تقول: الشريعة للعوامِّ. والطريقة للخَوَاصِّ. والحقيقة لخواصِّ الخواصِّ.

ومَرْجع الشريعة إلى امتثالِ الأمْرِ، واجتنابِ النَّهْي. ومَرْجع الطريقة، إلى تخلية وتحلية. فالتخلِّي: التطهير من الرَّذائِلِ. والتَّحْلية: الاتصافُ بالفضائلِ. وإنْ شئت قلت التخلية: هِيَ التَّنَزُّهُ عَن أَخْلاَقِ البَهَائِمِ والشياطين. والتحلية: التخلّق بأخْلاَقِ الرُّوحانيينَ. فأخلاق البَهَائِم: الاِهتمامُ بالأكْلِ والشرْبِ والنكاح، وأخلاق الشياطين: الحسَدُ والمَكْرُ، والخديعة، والغِشُّ، والكِبْرُ، والْغَضَبُ، والحدةُ، والقلَق، والشُّحُ، والفظاظة والقسْوَة، وحبّ الجاه، والمال، والرياسة وغيْرُ ذلِكَ مما لاَ يُحْصَى. حتَّى قال بَعْضهُمْ: «للنَّفْسِ مِنَ النَّقائِصِ، مَا لله مِنَ الكَمَالاتِ». والله أعْلَمُ.

وأخلاق الرُّوحانيين: سلامةُ الصَّدْرِ، وسخاوة النَّفس، وحُسْنُ الخُلُق، والتواضعُ، والحِلْمُ، والتَّأنّي، والسكينة، والطمأنينة، والشفقة والرَّحْمة، والسُّهُولة والليُونة، وغَيْر ذلِكَ من الكَمَالاَتِ. فَمَن جَمَعَ هٰذِهِ العلوم؛ فَهُوَ النَّجم الثَّاقِبُ. وَمَنِ اكْتَفَىٰ بِأحَدِهَا فَهُوَ نَاقِصٌ وسَاقِطٌ. فَمَنْ تَشَرَّعَ وَلَمْ يتحَقَّقْ فَهُوَ فاسِقٌ. إذْ لاَ يَخْلُو مِنْ مُنَازَعة المقادير. واعتراضه على الواحد القادِر. وَمَن

تحقق ولَمْ يتشرَّعْ، فَهُو زنْدِيق، بإبطالِهِ الأحكام، وتعطيل الحِكمة، وَمَنْ جَمَعَ بَيْنَهُمَا فَقَدْ تحقق، لقيامه بالقدرة مع الأدب والحِكمة.

وفي التحقيق: ما ثَمَّ إلاَّ الحقيقة. إذْ لاَ فَاعِلَ إلاَّ الله، وَلاَ مَوْجُود سِواهُ. غَيْرَ أنَّ مَا يَبْرُزُ مِنْ عُنْصُرِ القدرة، إن كَان موافقاً للحكمة، سُمِّي شريعة وطاعةً، ويسمَّى أيْضاً حقيقة نُورَانية، وإن كَان مخالفاً، سُمِّي معصيةً. ويُسَمَّى أيْضاً حقيقة ظلمانية، فالكُلّ مِنْهُ وإلَيْهِ. قال تعالى وهو أصْدَق القائلينَ: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: ١١٢]. وقَالَ تَعَالىٰ: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [القصص: ٦٨]. وقال تَعَالىٰ: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [يونس: ٩٩]. وقال سُبْحَانَهُ وتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠] فالحقيقة عين الشريعة، والشريعة عين الحقيقة. إذ كُلاًّ مِنْهُمَا مَأْمُور بِهِمَا، ولله درّ القائل في مَدْحِ النبيّ ﷺ حيْث قال:

يَا زَيْنَ الْخَلاَئِقِ يَا عَيْنَ الحقيقهْ　　حققت الحقائق وَكَانَتْ وثيقهْ

فالإنسان كلّه، باطِنهُ قدرة، وظاهره حكْمة، فإن بَرَزَ مِنَ القدْرةِ ما يُوافق الحِكمة كَان حقيقة نورانية، وكَانَتْ علامة على سعادة العَبْدِ، وإنْ بَرَزَ مِن القدرة ما يخالف الحِكْمَة كَان حقيقة ظلمانية، وكان علامَة على عقوبة العَبْدِ، إلاَّ أن يَظْهر حِلْمُهُ، وبالله التوفيق. وحَيْث اجْتَمَعَ مع نبينا عليه الصَّلاة والسَّلامُ الحقائق، وعلم التشريع، وعلوم الأولين، والآخِرين، عَجزَ النَّاس عن معرفته، ولذلكَ قال: «فأعجز الخلائق» أي: صَيَّرَهُم عاجزين عَنْ فَهْمِهِ. فَوَجَب الإذْعَانُ والانْقِيَاد لِحكْمِهِ، كَمَا انقادَتِ الملائكة بالسجودِ، حيْث عجزَتْ عَنْ إدْرَاكِ عِلْمِهِ. وقد قالت الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنهُم، لمَّا رأوا الغَنَم سَجَدَتْ له في قِصَّة البُسْتَانِ: يا رسُول الله، نَحْن أحَق بالسُّجُودِ لكَ مِنْهَا. فقال ﷺ: «**لَوْ أمَرْتُ أحَداً أن يَسْجد لأحَدٍ، لأمَرْتُ الْمَرْأة أن تَسْجد لِزَوْجِهَا**»[1]. فالسُّجود إنَّما يكُونُ لله. وأمَّا آدَمُ، فَكَانَ قِبْلَةً. والمقصود بالسجودِ هو الله الَّذي أمَرَ بِهِ. ثم قرَّر العَجْزَ المتقدم وبيَّنَهُ بِقَولِهِ «وَلَهُ» أي وَعَنْهُ «تَضَاءَلَت» أي تقاصَرَتْ وتَصَاغَرَتْ،

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، كتاب البر والصلة، (٥/ ٧٣٢) [٤/ ١٩٠] وابن ماجة في سننه، باب حق الزوج على المرأة، حديث رقم (١٨٥٢).

أو تلاشَتْ واضمحَلَّتْ «الْفُهُومُ»: جمع فَهم. أيْ فُهُوم العِبَادِ، فَلَمْ يَقْدِرْ أحَدٌ أن يَفْهَمَ ما خَصَّهُ الله بِهِ مِنَ الأَسْرَارِ الإلَهيَّة، والمواهب الباطنية؛ لأنهم لَمْ يَرَوْا إلاّ خَيَالَهُ الظَّاهِر. وأمَّا الباطن فَلَمْ يَعْلمه إلاَّ خالقهُ الَّذي خصَّه الله بِهِ. وفي بَعْضِ الأحاديث: «**والله ما عَرَفَنِي حقًّا غير رَبِّي**». ولله در البوصيري حيْث قال:

وكَيْف يُدْرِكُ فِي الدُّنْيا حَقِيقَتَهُ   قَوْمٌ نِيامٌ تَسَلَّوْا عَنْهُ بِالْحُلُمِ

ولذلِكَ قال الشَّيخ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**فَلَمْ يُدْرِكْهُ مِنَّا**» مَعْشر الخلائق. «**سَابِقٌ**» عَلَيْهِ في مظهرِهِ الشخصي. «**وَلاَ لاَحِقٌ**» بَعْد وجودِهِ الحِسِّي. بل كلهم كلَّتْ فُهُومُهُمْ، وتَقَاصَرَتْ عُلُومُهُمْ عَنِ الإحاطَة بالحقيقة المحمديّة. ويحتمل بالسباق: مَن سَبَق في زمانه عليه الصَّلاة والسلامُ. كالصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم. باللاَّحق. مَنْ أَتَىٰ بَعْدَهُمْ. إذ كلهم سواء في العَجْز عن إدراكِهِ ﷺ. ولذلكَ قال أويس القرنِي: «والله ما رأى أصحاب محمد من محمد ﷺ، إلاَّ قشرة الظَّاهِر، وأما الباطِنُ فلم يعرفْهُ أحَدٌ. فقيل لهُ: وَلَوْ ابن أبي قحافة. قال: ولو ابن أبي قحافة. والمرادُ: نَفْيُ الإحَاطَةِ بمعرفة سرِّهِ عليه الصَّلاة والسلامُ. وأمَّا إدراك البَعْضِ، فَلَهُمْ فِي ذلِك نَصِيبٌ، على قدر تَفَاوُتِهم في معرفَةِ الله. وكذلك الأولياء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فمنهم مَن يُدْرك شيئاً مِنْ سِرِّه عليه السلامُ، ومنهم مَن يُدرك رُوحَهُ. ومِنْهُمْ مَن يُدْرك عَقْلَهُ، ومنْهُمْ مَنْ يُدْرك نَفْسه عليه الصلاة والسلامُ. فأهْل الرسُوخ والتمكين، يُدْركون سرَّه عليه الصَّلاة والسلامُ. وَلاَ يغيب عنهم طرفة عيْنٍ. كالْمُرْسِي وأمثالِهِ. وأهْلُ الشُّهُودِ والعيَانِ مِنَ السَّائرينَ، يدْركون روحَهُ عليه الصلاة والسلامُ. وأهْل الْمُرَاقبة مِنْ أهْل الاستشراق، يُدْركُون عَقْلَهُ عليه الصلاة والسلامُ. وأهْل الحجاب من أهْل الدَّليل والبُرْهان، إنَّما يُدْركُونَ نَفْسَهُ ومَظْهَرَهُ الشخصي. فيرونه مُحَيَّزاً في صُورتِهِ التي كَانَ عليها ﷺ في الدُّنيا، مناماً أو يقظةً، على قَدْرِ فَنَائهم فيه ﷺ؛ وهُمْ على مراتب: وأما تمثيل بَعْضهم له، كالخروفي، ومن تبعهُ لهذا الحديث، بالصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم. فلعَلَّ ذلِك كان في زمانِهِ عليه الصَّلاة والسلام. والله أعْلَمُ.

وقَدْ سَمِعْت شيخ شيخنا مَوْلاَي العربي يقول: لقِيَنِي عالِمَانِ من علمَاءِ فاس بِمَسْجِدِ الْقَرَوِيين. فَقَالاَ لي: كَيْف يقول أبُو العباس المُرْسي: «مَا غَابَ

عَنِّي رسُولُ الله ﷺ طرفَة عَيْنٍ». كَيْف يكون ذلِكَ؟ فقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قلتُ لَهُمْ: «يَا هٰؤلاءِ، أُولَئِكَ السادة، كَانَتْ أفكارُهم فِي عَالَم الملكوت، وهو عالَمُ الأرواحِ، وفيه أزواح الأنبياء وغَيْرهم، ولَمْ تَكُنْ أفكَارُهُمْ فِي عَالَم الأشبَاحِ، وهُوَ عَالَمُ المُلك. قال: ثم قلتُ لهُمْ: وهَلْ تَدْرُونَ أيْن هو عَالَم الأرواح؟ عالم الأرْوَاحِ هو حَيْث عالم الأشباح، ثم قمتُ عَنهُمْ» اهـ. قُلْتُ: الآن المحلّ واحد، وإنما تختلف النَّظرة، فأهل البصيرة لاَ يَرَوْن إلاَّ الملكوت؛ وهو عَالَمُ الأرْواحِ وأهْل البَصَرِ، لاَ يَروْنَ إلاَّ المُلكَ؛ وهو عَالَمُ الأشباحِ.

وقد أشار إلى ذلِكَ الشيخ بِقولِهِ: «فَرِيَاضُ» جَمع رَوض؛ وهو محلّ النّزهة، لاِشتمالِهِ على نُوّارٍ وأزهار، ومياه وخضرة. «المَلَكُوتِ» هو في اصْطلاحِ الصُّوفية، ما يُدرَكُ بِٱلبَصِيرَةِ والعلم. كما أنَّ المُلْكَ ما يُدْركُ بٱلبَصَر والوَهم. أوْ تقولُ الملكوتُ: مَدْركُ أهْل الجَمْع. والمُلْكُ: مَدْركُ أهْلِ الفَرْقِ. أوْ تقولَ: المُلكُ مَا ظَهَرَ والمَلَكُوتُ مَا بَطَنَ. فَالْمَلَكُوت: مَدْرك أهْل الشهود والعيانِ. والمُلْكُ: مَدْركُ أهْل الدَّليل والبُرْهَانِ. «بِزَهْرِ» جَمْع زهرة؛ وهي النّوار التي تُفْتحُ فِي زَمانِ الرَّبيع. «جَمَالِهِ» ﷺ «مُونِقَةٌ» أيْ معجبَة، ورياض الملكوت، مِن إضَافَة المشبَّهِ بهِ لِلْمُشَبّهِ. شَبَّهَ الملكوت الَّذي هو محلّ نزهة العارفين بِرِياضٍ مشتملةٍ على أزْهارٍ ونُوارٍ وخُضرَة وجَمَال، لا يَتِمُّ جَمَالُهَا، وَلاَ يظهرُ نوارها إلاَّ باتباع الشريعة المحمَّدية. وإلاَّ كَانَتْ حقيقة ظلمانية، فالكَوْن الَّذي هو المُلْك كُلُّه ظلمة، وإنما أناره ظهور الحقّ فيه، فَصَارَ كُلُّهُ نوراً. وَمَنْ لَمْ يَدْرك نُورَ الحقّ فيه، صار في حقِّهِ ظُلْمَةً. وكَانَ مُلْكاً. وَلاَ يُمْكِن أنْ يَظهر الحق فيه إلاَّ بالسلوك على الشريعة المحَمَّدية على يَد شيْخ عارف بدقائقها وأسرارها وحقائقها الظَّاهرة والباطنة. وإلاَّ بقي مع ظُلْمَة الأكْوَان. وسِجْن الأوْهَام. «وَحياضُ» جَمْع حَوْض؛ وهو محلُّ اجتماعِ الْمَاءِ كَالصَّهْرِيج. «الجَبَرُوت»: وهو ما يُدْركُ بِٱلعَقْل والفَهم، أو بالبصيرة والعِلْمِ. لكن في ثاني حَال، أيْ بَعْدَ مَعْرفة المَلَكوت.

والحاصِل: أنَّ المُلْكَ والمَلَكُوتَ والجَبَرُوتَ مَحَلُّهَا واحِدٌ؛ وهو الوجود الأصْلي؛ الْفَرْعِي، لكن تختلِف التسْمية، باختلافِ النظرةِ. وتختلف النَّظْرة،

باختلاف التَرَقي في المَعْرِفة. فمَن نَظَر الكَوْن ورَآه كَوْناً مُستقِلاً بنَفسِه قَائِماً بِقدرة الله، ولم يُكْشَفْ لَهُ عَنْ رُؤْيَةِ صَانِعِهِ فيه سُمّيَ فِي حَقّه مُلْكاً؛ لظُهُور تصرُفِ الْقُدْرَة فيه، ووجُودِهِ؛ وهما لاَ حقيقة لَهُمَا عِنْدَ المحققينَ. ولذلكَ لَمْ يُذْرِكْهُ الشيخ رضي الله عَنْهُ. وَكَانَ صَاحِب هذه الرُؤْيَةِ مَحْجُوباً لِوُقُوفه مَعَ الْوَهْم، وَمَنْ فَتَحَ الله بصيرتَهُ، ونفَذَ إلى شهُودِ الْمُكَوّنِ فِي الْكَوْنِ، أوْ قَبْلهُ، سُمّيَ في حقّه مَلَكُوتاً. وَكَانَ صَاحِب هذه الرُؤْيَةِ عَارِفاً مفتوحاً عَلَيْهِ. فإن نَفَذَتْ بصيرتُهُ، إلى شهود أصْل الأُصُول والْفُرُوع؛ وهي العظمَة الأزلية اللطيفية، قَبْل أن تتجلّى وتُعْرف. وقد أشار إلَيْهَا ابن الفارض بقولِهِ:

صَفَاءٌ وَلاَ مَاءٌ وَلُطْفٌ وَلاَ هَوَىٰ ... ونُورٌ وَلاَ نَارٌ، وَرُوحٌ وَلاَ جِسْمُ

تَقَدَّمَ كُلَّ الْكَائِنَاتِ حَدِيثُهَا ... قديماً وَلاَ شَكْلٌ هُنَاكَ وَلاَ رَسْمُ

وقَامَتْ بِهَا الأشْيَاءُ ثَمَّ لِحِكْمَةٍ ... بِهَا احْتجبَتْ عَنْ كُلّ مَنْ لاَ لَهُ فَهْم

سُمّيَ ذلِكَ جَبَرُوتاً، وَمَنْ نظر إلى نفوذ الرّحْمَةِ السّابِقة، فِي الأشياءِ كلّها، وهِي نِعْمة الإيجاد ونعمة الإمداد. سُمّيَ ذلِكَ رحموتاً. فصارت العوالم أربعةً: مُلْكاً ومَلَكُوتاً، وجَبَرُوتاً، وَرَحَمُوتاً. وقَدْ نَظمْتُ قَصيدة تليق هُنَا، وهٰذَا بَعْضٌ مِنهَا، فَقُلْتُ:

إذَا سُجنت نَفسٌ فِي سِجْنِ الْهَوَىٰ الَّذي ... تَقَيَّدَ بِهِ الْعَقْلُ فِي قَهْرِ قَبْضَةِ

وأشْغَلَهَا عِلْمُ الصَّوَانِ لِحِكْمَةٍ ... فَلَمْ تَرَ إلاَّ الْكَوْنَ فِي كُلّ وِجْهَةِ

فَذَلِكَ عَيْنُ الْمُلْكِ وَهُمْ ثُبُوتُهَا ... وَنَاظِرُهُ المَحْجُوبُ فِي سِجْنِ ظُلْمَةِ

وَإنْ نَفَذَتْ رُوحُ الْمُقَدَّسِ سِرُّهُ ... إلَى دَرْكِ سِرّ الذَّاتِ خَلْفَ الأنِيَةِ

وَنَعْنِي بِهَا سِرَّ الْمَعَانِي الَّذِي سَرَى ... فِي كُلّ الأوَانِي عِنْدَ أهْلِ الحقيقةِ

فَذَا مَلَكُوتُ الله يُسَمَّىٰ لِوَسْعِهِ ... وعَارِفُهُ يَحْظَىٰ بِفَتْحِ بَصِيرَةِ

وَإنْ سَبَحَتْ بَحْرَ اللَّطافَة والْهَنَا ... وأصْل الأصول والفروع بفكرةِ

فَذَا بَحْرُ مَا لاَ يحيطُ بِهِ الْفَتَىٰ ... ولٰكِنْ يخوفُ مِنْهُ فِي طَرْفِ لُجّةِ

والعَوَالِمُ إنْ حققتها خمسة: ملكاً وملكوتاً، وجبروتاً، ولاهوتاً، ورَحمُوتاً. بإضافةِ الْفُرُوع إلى الأصول وفي ذلك يقول القائل:

وَإِنْ أُلْحِقَتْ كُلُّ الْفُرُوعِ بِأَصْلِهَا ... وَخَاضَتْ بِحَارَ الْجَمْعِ فِي كُلِّ لَحْظَةِ
فَذَاكَ الَّذِي يُسمَى بِلاَهُوتِ سِرِّهِ ... وَعَارِفُهُ حَقًّا يُهَنَّأُ بِمِكْنَةِ
وَإِنْ نَظَرَتْ أَهْلَ الإلْحَادِ بِرحْمَةٍ ... وَجَرْيَهَا فِي الأَشْيَاءِ طُرّاً بِنِعْمَةِ
فَذَاكَ رَحموتاً فيه يَدْرِيه عَارِفٌ ... تَخَلَّقَ بِاسْمِ الْحَقِّ فِي كل نِسْبَةِ

والتَّحقيق: أنَّ مَن دَخَلَ عَالَمَ التكوين؛ ما ظَهَرَ مِنْ حِسِّهِ، يُسَمَّى مُلْكاً، وَمَا بَطَنَ مِنْ أَسْرَارِ الْمَعَانِي يُسَمَّىٰ مَلَكُوتاً. وما لم يَدْخُلْ عَالَمَ التكوينِ مِنَ الأَسْرَارِ الباقية على أَصْلِهَا يسمَّى جَبَرُوتاً، وَلاَ يَفْهَم هٰذَا إلاَّ من دَخَلَ مَقَامَ الإِحْسَانِ، وخاضَ بَحْرَ الْمَعَانِي، وإلاَّ فحسبُهُ التَّسْلِيم لأَرْبَابِهِ. واعْلَمْ أنَّ شهودَ عَالَمِ المَلَكُوتِ يحجب عن شهودِ عَالَم المُلْكِ، وشهود عالم الجَبَروت يحجب عن شهود عَالَمِ الملكوتِ. وكل من ترقى إلى مقام، غابَ عَمَّا قَبْلَهُ، إلاَّ الرَّحموتُ، فيمكن شهوده مع العَوَالم كُلِّهَا. والله تعالى أَعْلَمُ.

والحاصل: أنَّ بَحْرَ الجَبَروت، فَيَّاضٌ بِأنوارِ الملكوتِ. وأنوار الملكوت، أصْلُها القبْضة النورانية المحمدية. فكل من بَرزَ مِنَ الجَبَروتِ، فالنور المحمدي واسطَة فيهِ، وأصل فيه. وهٰذَا مَعْنَى قَوْلِهِ: «**وَحِيَاضُ الْجَبَرُوتِ بِفَيْضِ أَنْوَارِهِ ﷺ مُتَدَفِّقَةٌ**»: أيْ مُنصَبَّة بِقُوَّةٍ. فالتدفّق: هو الانْصِبابُ بِشِدَّةٍ، شَيْئاً فشيئاً، إنَّه شَبَّهَ بَحْرَ الجَبَرُوت بحياضٍ مملوءة بِمَاءِ الْغَيْبِ. تنصَبُّ إلى عَالَمِ الشَّهَادَةِ، شَيْئاً فشيئاً، على حَسَبِ الإرادة والمشيئة. ولمَّا كان نبيُّنا ﷺ، هُوَ سبَبٌ فِي إبرازِ تِلْكَ الأنوارِ، أُضِيفَتْ إليه ﷺ، إضافَةَ المُسَبِبِ إلى السَّبَبِ. وإن كان الكل جبروتياً لاهوتياً؛ لأنَّ مَنْ لَمْ يشكرِ الواسطة، لم يشكرِ الموسوط. وَمَنْ لَمْ يشكرِ النَّاسَ، لَمْ يَشْكُرِ الله.

فأهل الجَذْبِ والفَنَاءِ يَغيبُونَ عَنِ الواسطةِ فَلاَ يَشْهَدُونَ إلاَّ الجَبَروت. وأهْل البقاء لكمالهم، يشْهَدُونَ الواسطة والموسوط، وَيُعطون كلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، وَلاَ يحجبهم فَرْقُهُمْ عَنْ جَمْعِهِمْ، وَلاَ جَمْعُهم عَنْ فَرْقِهِمْ نَفَعَنَا الله بِهِمْ، وخَرَطَنَا فِي سِلكهم آمين. إنما اختارَ التشبُّهَ بالحياضِ، ولم يشبه بالبحارِ، مُنَاسَبَة لِلرِّياضِ؛ لأنَّه لمَّا شَبَّه الملكوت بالرياضِ، نَاسَبَ أن يشبِّهَ الجَبَرُوت بالحيَاضِ إذ لاَ يقوم الرياض إلاَّ بالْحيَاضِ. كَمَا لاَ يقوم الملكوت إلاَّ بالجبروت، بل هو عنه كما

تقدَّم، لكنَّ السالك يترقَّىٰ بِهِ إلى الجبروت. فَوَجب إثباتهُ ثمَّ مَحْوُهُ. الأكْوَان ثابتة بإثباتِهِ، مَمْحوَّة بِأَحَدية ذَاتِه.

وإلَى إثبات واسطَتِهِ ﷺ، أشَارَ بِقَوْلِهِ: «وَلاَ شَيْءَ» مِنَ الكَائِنَاتِ «إلاَّ وَهُوَ بِهِ مَنُوطٌ» أي متعلق وَمُتَّصِل اتصال الْمَوْسُوطِ بِالْوَاسِطَةِ، فكُلُّ مَن بَرَزَ من عَالم الْغَيْبِ، فنبيُّنَا وَمَوْلاَنَا محمَّد ﷺ واسطة فِيهِ. كما وَرَدَ في بعض الأخبار: «لَوْلاَ محمَّدٌ مَا خَلَقْت عَرْشاً وَلاَ كُرْسِيًا، وَلاَ سَمَاءً وَلاَ أرْضاً، وَلاَ جَنَّةً وَلاَ نَاراً»(١).

وفي بُرْدَةِ البوصيري: لَوْلاَهُ لَمْ تُخْرَج الدُّنيا مِنَ العَدَمِ. ثم ذكر علة تعلق الأشياءِ بِهِ ﷺ فَقَالَ: «إذْ لَوْلاَ الْوَاسِطَةُ» الَّذِي هو نبيُّنَا ﷺ. «لَذَهَبَ كَمَا قِيلَ الْمَوْسُوطُ»: أي لَوْلاَ تَوَسُّطهُ ﷺ، بيْن الله وخلْقِهِ؛ لَذَهَبَ المَوْسوطُ الذي هُوَ الكَوْنُ. أي لَبَقِيَ عَلَىٰ مَا كَانَ عَلَيْه مِنَ العَدَمِ. فإذ تعليلة، والموسوطة فاعل لذَهَبَ. والجملة: كما قيل معترضة بيْن الفِعل والفاعِلِ، لأجْل القافية. إذ لَوْ قدّم على المجرور، لاخْتَلَّ الوَزْنُ بالطاءِ. والتقدير: إنما تعلقت الأشياء بِهِ ﷺ؛ لأنّه واسطة. ولولاَ الواسطة لَذَهَبَ المَوْسُوطُ. كما هو قول مشهورٌ.

ثم ذكَرَ معمول قوْله ﷺ، وهو المصدر النَّوْعي فقال: «صَلاَةً» أي صَلِّ صلاةً عظيمة كاملةً «تَلِيقُ» أي بعظمتِكَ وكمالكَ؛ وهذه الصَّلاة لاَ يعلم قدرَهَا إلاَّ الله سبحانهُ وتعالى، وتكونُ هذه الصَّلاةُ وَاصِلَةً «بِكَ مِنكَ إلَيْهِ» بِلاَ واسِطةِ أحَدٍ مِنْ خَلْقِكَ وَلاَ شكَّ أنَّ الهدايا والتُّحَف الَّتي تَصِلُ إلى الوُزَراءِ بِلاَ واسطةٍ، بل مِن يَدِ المَلِكِ إلى الوَزِير، أعْظَمُ وأتَمُّ مِمَّنْ تَصِل على يَدِ الوَسَائِطِ.

ثم ذكر عِلَّةَ تعظيم هذه الصَّلاة فَقَالَ: «كما هُوَ أهْلُهُ»: أيْ لأجْلِ ما هو مستحقه ﷺ مِنَ التعظيم والإجْلاَلِ، فَالْكَافُ تعليلية كقوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ﴾. [البقرة: ١٨٩] ثم ذكَرَ وجْهَ اسْتحقاقِهِ ﷺ، لهذه الكرامة فقال: «اللَّهُمَّ» لَيْسَت هيَ للدّعاءِ، إنَّما هي مُبَالغة فِي الإقرارِ. كقوله في الجواب: اللَّهُمَّ نَعَمْ. مبالغة في تمكين الجواب في ذِهْنِ السَّامِعِ. فكأنه قال: أُقِرُّ

(١) روى نحوه الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب، باب الياء، حديث رقم (٨٠٣١) [٥/٢٢٧].

وأتحقق، أنه ﷺ «**سِرُّكَ**» الخفِي الذي اختصَصْتَ بِمَعْرِفتِهِ، أوْ سرّكَ الَّذِي أوْدَعْتهُ فِي هٰذَا الكَوْنِ، إذ هو عليه الصّلاة والسّلامُ، سرُّ الأسرار، وَمَنْبَع الأنْوارِ؛ ومنه انشقت الأسْرَار، وانفلقت الأنوار. «**الجامِعُ**» لِما افترق في غيرهِ. فكَانَتْ روحانيته ﷺ، جامعة لأوصافِ الكَمَالاَتِ، وبشريتُه جامعةٌ لأنواع المحاسِنِ، وشريعتُهُ جامعةٌ لجَميعِ الشَّرائِعِ. وكتابُهُ جامعاً لسائر الكتب؛ وهو أيْضاً: يجمع النَّاس على الله، ويَدُلُّهُمْ على الجمع، ويحذِّرهُمْ مِنَ الفَرْقِ؛ «**الدَّالُّ عَلَيْكَ**» بأقواله وأفْعَالِهِ وأحْوالِهِ ﷺ، فكانَتْ خُطَبُهُ ومَوَاعِظهُ تَرِقُّ مِنْهَا القُلُوبُ، وتَذْرِفُ مِنْهَا العُيُونُ. وَمَا بُعِثَ عَلَيْهِ السَّلامُ إلاَّ دالاً على الله. ومُعَرِّفاً بِهِ تَعَالَى. فَمَا تَرَكَ شيئاً يجمع العباد على الله، إلاَّ دَالَّهُمْ عَلَيْهِ، وعَرَّفهم بِهِ. وَلاَ رَأَى شيئاً يقطع عَنِ الله، إلاَّ حَذَّرَ العِبَادَ مِنْهُ. لَمْ يَأْلُ جُهْداً فِي نصح العِبادِ. وهَدْيهم إلى طريق الرَّشادِ، فَجَزاهُ الله عَنْهُ أحْسنَ مَا جَزَىٰ رَسُولاً عن قوْمِهِ، ونبيّاً عن أُمَّتِهِ.

وبعد أن كَان عليه الصلاة والسلام دالاً على الله، كَانَ حَاجِباً من حُجُوبِ الحَضْرَةِ، لاَ يدخُلُهَا أحَد إلاَّ عَلَى يَدَيْهِ. فلذلِكَ قَالَ: «**وَحِجَابُكَ**» الذي يتوسَّطُ بَيْنكَ وبَيْنَ الدَّاخِلِينَ إلى حضرتِكَ. فكلُّ مَن دَخَلَ عَلَىٰ يَدَيْه عليه السَّلامُ، وعظَّمَهُ، واتَّبَعَ سُنَّتَهُ. أدْخَلَهُ الحَضْرَة عَلَى نَعتِ الْهَيْبَةِ والْوَقَارِ والأدَبِ، فَٱسْتَقَرَّ فِي الحَضْرَة عَلَىٰ الدَّوامِ، وكُلُّ مَنْ دَخَلَ مِنْ غَيْرِ بَابِهِ ﷺ، طُرِد وعُوقِبَ، وفي ذلك يقول القائل:

وأنـــتَ بَـــابُ الله أيُّ امْـــرِىءٍ   وَافَـىٰ مِـنْ غَـيْـرِ بَـابِـكَ لاَ يَـدْخُـلُ

وأيْضاً: هو ﷺ، حجاب الأرواحِ عَنِ الهَلاَكِ، إذ مِنْ شَأْنِ الرُّوحِ أن تتطلع الخَوْفَ فِيمَا لا تقْدِرُ عليه مِن بَحْرِ الجَبَرُوتِ، فَكُلَّمَا هَمَّتْ بالخَوْفِ فيهِ، زَاجَرها عليه السلامُ، وعَاقَلَهَا بعِقَالِ الشَّرَائِعِ، ولذلكَ قال عليه الصَّلاة والسَّلام: «**تَفَكَّرُوا فِي آيَاتِهِ، وَلاَ تَتَفَكَّرُوا فِي مَاهية ذَاتِهِ**»(١). إذْ كُنْه الرّبوبية محجوبٌ عَنِ العقولِ. فَلاَ سَبِيلَ إلى إدْراكِهِ، وَلاَ شَكَّ أنَّ الرُّسُلَ عليهم الصلاة والسلامُ،

---

(١) روى نحوه الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب، حديث رقم (٢٣١٨) [٢/٥٦] وابن السري في الزهد باب التفكير. . ، حديث رقم (٩٤٦) [٢/٤٦٩] وروى نحوه غيرهما. ونصه: «تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله فإنكم لن تقدروا قدره».

حُجُبٌ لِقَوْمِهِمْ، ولكنَّ المصطفى ﷺ، هو أعظم منهُمْ، كَمَا قال الشيخ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ثم وصَفَه بشدَّةِ القرْبِ والأدبِ فقال: **«الأَعْظَمُ الْقَائِمِ، لَكَ بَيْنَ يَدَيْكَ»** أدَباً وتعْظيماً، وَوَاسِطةً بَيْنَكَ وَبَيْنَ خَلْقِكَ، وتَرْجُمَاناً فِي تبليغ أحكامك.

ثم شَرَعَ فِي الدُّعَاءِ باللُّحقِ بِهِ؛ يكون على قَدَمِهِ، وهو أعْظَمُ الوِلاَيَةِ فَقَالَ: **«اللَّهُمَّ أَلْحِقْنِي بِنَسَبِهِ»** الطِّيني والدِّيني، وأرادَ دَوَامه على مُتَابَعتِهِ عليه السلامُ، وإلاَّ، فَلاَ يَنْفَعُ النَّسَبُ، مع عَدَم الأدَبِ، **«وَحَقِّقْنِي»** أي خَلِّقْنِي **«بِحَسَبِهِ»** أي بِخُلُقِهِ الحَسَبِ؛ وهُوَ مَا يَفْتَخِرُ بِهِ الإنْسَانُ مِنْ مَكَارِمِ الأَخْلاَقِ، وَأَرَاد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنْ يكُونَ على قَدَمِهِ ﷺ، فإنَّ الأولياءَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم، مِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ نُوحِياً، ومِنْهُمْ مَنْ يكون إبراهِيميًا، ومِنْهُمْ مَنْ يَكُون مُوسَوِيًا، ومِنْهُمْ مَن يكون عِيسَوِيًا، ومِنْهُمْ من يكون محمَّدياً؛ وهو أعظمهُمْ لِجَمْعِهِ ما افترقَ فِي غَيْرِهِ. وقَدْ حَقَّقَ الله رَجَاءَهُ، وأجَابَ دُعَاءَهُ. فَقَدْ تغلغل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي عُلوم الْقَوْمِ التي مَدَارها على التخلق بِأخْلاَقِ الرَّحْمٰنِ، ونَالَ من ذٰلِكَ الحَظَّ الأوْفَرَ.. وقَدْ تقدَّم فِي تَرْجَمَتِهِ مِنْ كَلاَمِهِ مَا يُحَقِّقُ ذلِكَ، نَفَعَنَا الله بِمحبَّتِهِ آمين، إنما عَبَّرَ بالتحقيقِ، دُونَ التخلُّقِ، لأنَّ التخلق يكون مُجَاهدةً وكَسْباً، والتحقق يكون غَرِيزةً وتَمَسُّكاً.

ثم طَلَبَ مَعْرِفَتَهُ عليه السَّلامُ، المعرفة الخاصَّة فَقَالَ: **«وَعَرِّفْنِي إِيَّاهُ»**. طَلَبَ معرفَتَهُ عليه السَّلام، قَبْلَ أنْ يطْلُبَ مَعْرِفَةَ الله؛ لأنه الواسطة، فَلاَ يَدْخُلُ على الله إلاَّ مِنْ بَابِهِ؛ لأنَّ مَنْ عَرَفَهُ عليه السَّلامُ، المعرفة الخاصَّة، بادَرَ إلى خِدْمَتِهِ ومَحَبَّتِهِ، فَيُدْخِلَهُ عَلَى رَبِّهِ بِنَفْسِهِ، أو بِشَيْخ يَهْدِيهِ إليه، وأتَى الشَّيخ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بضمير النبيِّ ﷺ مُنفصِلاً، وإنْ كَان الاتِّصَالُ أرْجح عِنْد النحَاة، أدباً مَعَ النَّبيِّ ﷺ، إذ لَوْ قَالَ: وَعَرِّفْنِيهِ، كما هو الأرْجَحُ، لكَان ضَمِيره عليه السَّلامُ، مُتَّصِلاً بِضَمِيرِ الشَّيْخ، فيفوتَهُ الأدَبُ، إذ المصطفى يَنْبَغي أنْ يكون غَيْرُهُ مُتَّصِلاً بِهِ، لاَ هُوَ متصلاً بِغَيْرِهِ. فَمَا أحْسَنَ أدَبَهُ! وأدقَّ نظَرَهُ!

ثم ذَكَر نتيجة المعرفة بِهِ عليه السَّلام فَقَالَ: **«مَعْرِفَةً»** كاملة، **«أسْلَمُ بِهَا»** أي بِسَبَبِهَا **«مِنْ مَوَارِدِ الْجَهْلِ»**: أي من الوقوع في شيْءٍ مِنَ الْجَهْلِ. أيُّ جَهْلٍ

كَانَ. فَالْوُرُودُ هُوَ الشُّرْبُ، والْمَوْرِد هو محلُّ الشرب، ويُجمع على مَوَارد. شبَّه رضيَ الله عَنْهُ الجَهْلَ بِمَاءٍ قبيحٍ، وسَأَلَ الله تَعَالَىٰ أن يُسَلِّمَهُ بمعرفَتِهِ عليه الصَّلاة والسَّلامُ، مِنَ الوُقُوعِ فِي مَشْرَبِهِ، أَوْ فِي القُرْبِ مِنْهُ؛ وهو الشُّرْبُ مِنْ مَوَارِدِ الْعِلْمِ النَّافع.

ثمَّ ذَكَرَ ضِدَّه فَقَالَ: «وَأَكْرَعُ»: أي أشْرَبُ على فَمِي مِنْ غَيْرِ وَاسِطَةٍ. فَالْكَرْعُ: هو الشُّرْبُ على الْفَم، بفعلِ المتعطش اللهفانِ «بِهَا» أيْ بِتِلْكَ المَعْرِفَةِ «مِنْ مَوَارِدِ» جَمع مَوْرِدٍ؛ وَهُوَ مَحَلُّ الشُّرْب. أي بتلك المعرفة مِنْ مَنَاهِل «الْفَضْلِ»؛ الَّتي هي العُلومُ اللّدنية، والأسْرَارُ الرَّبانية؛ الَّتي تكونُ بالفَضْلِ والْمِنَّةِ، لاَ بِالْكَسْبِ والْخِدْمَةِ، وَلاَ شكَّ أنَّ مَنْ عَرَفَهُ وَقَامَ بوَاجِبِ حَقِّهِ، لاَ بُدَّ أنْ يَنْهَلَ مِنْ مَنَاهِلِهِ؛ وَيَرِدَ مِنْ مَوَارِدِهِ، ويأخُذ قِسْطهُ من الْعُلوم التي عَلِمَها عليه السَّلامُ، بالْوَحي أوْ بِالإلْهَام لأنَّ «مَنْ عَمِلَ بِمَا يَعْلَمُ، أوْرَثَهُ الله عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ»[1]. شبَّه الشَّيخُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الْعِلْمَ اللّدُني بأبْحُرٍ عَذْبةٍ، يَرِد النَّاس مِنْها، وطَلَبَ مِنَ الله أنْ يَشْرَبَ مِنْهَا بِلاَ وَاسِطَةٍ، غَيْر واسطتِهِ عليه السَّلامُ، حتَّى تمتلِىءَ عُرُوقُهُ وأضْلاَعُهُ وأوْصَالُهُ. «إذ القَنَاعَةُ مِنَ الله حِرْمانٌ». والْعِلْمُ لاَ حَلَّ له حتَّى يُشبَعَ مِنْهُ. «وَقُل رَبِّ زِدْنِي عِلْماً».

ثمَّ طَلَبَ السلوكَ إلى حَضرَة الْقُدسِ، مَحَلّ الأُنسِ فَقَالَ: «وَاحْمِلْنِي عَلَىٰ سَبِيلِهِ»: أي طريقه الأقْوَم، «إلىٰ حَضرتِكَ»: أي العكُوفِ فِي مشاهدة جَمَال حَضْرَتِكَ. أرَاد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن يَكُون فِي سَيْرِهِ محمُولاً على كَاهِلِ السُّنَّةِ المحمَّدية، لا حامِلاً مَتْعُوباً؛ لأنَّ من حَمَلتْه العِنَاية الرَّبَّانية، قَطَعَ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ مَا لاَ يَقْطعُهُ غَيْرُهُ فِي سِنِينَ، وهُوَ لاَ يَشْعُرُ. وَلَيْسَ مَنْ كَانَ مَحْبُوباً، كَمَنْ كَانَ مُحِبًّا، وَلاَ مَنْ كَانَ مَجْذُوباً كَمَنْ كَانَ سَالِكاً. ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾. [الشورى: ١٣] «لَوْ كُنْتَ لاَ تَصِلُ إلَيْهِ إلاَّ بَعْدَ مَحْوِ مَسَاوِئِكَ، وقطع دعاويكَ، لاَ تَصِلُ إلَيْه أبَداً، ولٰكِن إذا أرَاد أنْ يُوَصِّلكَ إلَيْهِ، غَطَّى وَصْفَكَ بِوَصْفِهِ، وَنَعْتَكَ بِنَعْتِهِ، فَوَصَّلَكَ بِمَا مِنْهُ إلَيْكَ، لاَ بِمَا مِنْك

---

(١) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (٢٥٤٢) [٢/ ٣٤٧].

إِلَيْهِ»[1]. والحَضرَةُ: هِي حضُورُ القَلْبِ مَعَ الرَّبِّ، أو حُضور الرُّوح أو السرِّ مَعَ الحقِّ، فهي إذاً على ثلاثةِ أقْسَام: حَضرة القلب للطالبين، وحَضرَة الرُّوحِ للسَّائرين، وحَضرَة الأسْرار للواصلِّينَ. أوْ تقول: حضرة القلوب لأهل الْمُرَاقبة، وحضرة الأرواحِ لأهل المشاهدة، وحضرة الأسْرَارِ لأهل المُكَالمَةِ. أوْ تقول: حَضرة القلوبِ لأهل البُرْهَان، وحَضرة الأرْوَاحِ لأهْل الْعِيَانِ، وحضرَة الأسْرَارِ لأهل التمكين.

والحَاصِلُ: أنَّ المُرِيدَ ما دَامَ محجوباً على شُهُودِ نَفْسِهِ، وهو يُجاهِد في حُضُور قَلْبِهِ مَعَ رَبِّهِ؛ فهُوَ فِي حَضرةِ القُلُوبِ، وإذا افتتح عليْهِ، غابَ بِشُهُودِ رَبِّهِ عن شُهُود نَفسِهِ. أوْ تقول: غَابَ بِجمعِهِ في فَرْقِهِ؛ فَهُو فِي حَضْرَة الأرواح. وإذا تمكَّنَ ورَجَعَ إلى البَقَاءِ بحَيْث لاَ يحجبُهُ جمعه عَنْ فرقِهِ، وَلاَ فَرْقهُ عن جَمْعِهِ؛ فهُوَ في حضرةِ الأسْرَارِ، وحِكْمَةُ ذلِكَ، أنَّ الرُّوحَ ما دَامَتْ مُنهمكَةً فِي الْغَفْلَةِ سُمِّيَتْ نَفْساً. وَلَمْ تدخل الحضرة قط. فإذَا تَيَقظتْ أو اسْتَقَامَتْ، وجَعَلتْ تُجَاهِدُ نفسها فِي الْحُضُورِ، سُمِّيَتْ قَلْباً، لتقلبها مِنَ الغَفْلَةِ إلى الحضرة، ومِنَ الحَضْرَةِ إلى الْغَفلة، أوْ لتقلبها من الطاعة إلى المعصية، ومِنَ المعصية إلى الطَّاعةِ، وإذا وصَلَتْ إلى مقام الإحْسَانِ، وَفُتِحَ علَيْهَا فِي مَقَام الْعِرْفَانِ، سُمِّيَتْ رُوحاً، لراحتها مِنْ تَعَبِ الحجابِ، وَدُخُولِهَا مَعَ الأحْبَابِ، وإِذَا تأدَّبَتْ وتهذَّبَتْ وجُليت عيْن بصيرتها، مِن غَبَشِ الحسِّ، سُمِّيَتْ سرّاً لخَفَائهَا عن مداركِ العُقُولِ، أوْ لخفاءِ صَاحِبِهَا عن فَهْمِ النَّاس. إذْ لاَ يعرف حَقِيقَة الوليّ، إلاَّ مَوْلاَه الكَبير العليّ، أوْ مَنْ دَخَلَ مَعَهُ فِي الوِلاَيَةِ، فَأُضِيفَتْ الحَضْرَة إلى الرُّوحِ، مَعَ اخْتِلافِ تَسْميتها، باختلافِ تطوّرها وتَرَقِّيهَا. فقيلَ حَضرة القلوب ما دامَتْ قَلْباً، ثم حَضْرة الأرواحِ، ما دَامَتْ روحاً، ثم حَضرَة الأسْرَار، ما دَامَتْ سِرّاً.

ولمَّا كَانَ الْحَمْلُ إِلَى الحَضرَةِ لاَ يكْمُلُ إلاَّ إذا صحبَتْهُ النُّصْرَةُ، سأَلَ ذلكَ الشَّيخُ فَقَالَ: **«حَمْلاً مَحفُوفاً بِنُصْرَتِكَ»**: أيْ يكون ذلِك الحملُ مُدَوَّراً بنُصْرَتِكَ. أي حُفَّتْ بِهِ النُّصْرة مِن كُل جَانِبٍ، وَلاَ شَكَّ أنَّ الْعَبْد إذَا صحبتْهُ النصْرَةُ

---

(١) حكمة من حكم الشيخ ابن عطاء الله السكندري.

والمعرفة فِي سَيْرِهِ، بَلَغَ القصد والمَأمُولَ، ورَتَعَ في أقرب سَاعَةٍ فِي حَضْرة الْوُصُولِ. ولله دَرُّ القائِلِ:

إذَا كَانَ عَوْنُ اللَّهِ لِلْمَرْءِ قَاصِراً ... تَيَسَّرَ لَهُ مِنْ كُلِّ عَوْنٍ مُرَادُهُ

وإنْ لَمْ يَكُنْ عَوْنٌ مِنَ الله لِلْفَتَىٰ ... فَأكْثَرُ مَا يَجْنِي عَلَيْهِ اجْتِهَادُهُ

ثُمَّ ذَكَرَ ثمرة الوُصُولِ؛ وهِيَ الْغَيْبَةُ عَنِ السِّوَى، فَقَالَ: «وَاقْذِفْ»: أي ارْمِ «بِي عَلَىٰ الْبَاطِلِ»؛ وهو ما سوى الحق تعالى. وفي الحديث: «أصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا الشَّاعِرُ، كَلِمَةَ لَبِيدٍ:

ألاَ كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلاَ الله بَاطِلُ ... وَكُلُّ نَعِيمٍ لاَ محَالَةَ زَائِلُ(١)

شَبَّهَ السّوى الذي هو الباطِل، بحيوانٍ له دمَاغٌ، فَإذا أُصيبَ دِمَاغُهُ ماتَ. ولذلكَ قَالَ: «فَأَدْمَغْهُ»: أي فأصيب دمَاغهُ. فَيَتَشَتَّتُ ويَضْمَحِلُّ. وإذَا زَهَقَ البَاطِلُ جَاءَ الحقُّ. ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾. [الإسراء: ٨١] ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾. [يونس: ٣٢] وَلاَ شَكَّ أنَّ مَا سِوَى الله تَعَالَىٰ مفقود عِنْدَ المحققينَ. أبى المحققونَ أن يشهدوا مَعَ الله غَيْرهُ. إذْ مُحَالٌ أنْ تَشْهَدَهُ وتَشْهَدَ مَعَهُ غَيْرَهُ. مَا حَجَبَكَ عَنِ الحقِّ وجود مَوْجودٍ مَعَهُ، إذ لاَ شَيْء مَعَهُ، وإنَّما حَجَبَكَ تَوَهُّمُ مَوْجُودٍ مَعَهُ.

مُذْ عَرَفْتُ الإلَهَ لَمْ أرَ غَيْره... ... وكَذَا الْغَيْرُ عِنْدَنَا مَمْنُوعُ

مُذْ تَجَمَّعتُ مَا خَشيتُ افْتِرَاقاً ... فَأنَا الْيَوْمَ واصِلٌ مَجْمُوعُ

وإذا ذَهَبَ عن القَلْبِ شُهُود السِّوَى، غَرِقَ فِي بِحَارِ الوحدة. ولذلِكَ قال: «وَزُجَّ بِي»: أي أدْخِلْنِي. «فِي بحَارِ الأحَدِيَّةِ»، فَالزَّجُ فِي اللُّغَةِ: هُوَ الإدخالُ، قَالَ الشَّاعِر:

أتَحَلَنِي الْحُبُّ فَلَوْ زُجَّ بِي ... فِي مُقْلَةِ النَّائِم لَمْ يَنْتَبِهْ

كَأنَّ لِي فِيمَا مَضَىٰ خَتْمٌ ... والآنَ لَوْ شِئْتُ تَمَنْطَقْتُ بِهْ

والأحَدِية مُبَالغة في الوحدةِ، أي أدخِلْنِي فِي بِحَارِ أحَدية ذَاتِكَ وصفاتك

---

(١) رواه الطبري في تهذيب الآثار مسند علي، حديث رقم (٩٧٢) [٦٥٨/٢].

وأفْعَالِكَ، ولذلِكَ عَبَّرَ بالجَمْعِ، إذ كلّ بَحْرٍ مسْتقلٌ بِنَفْسهِ، فَمَنْ غرِقَ فِي بَحْرِ توحيد الذَّاتِ، غَابَ عَنْ نَفْسِهِ عن شُهُود السِّوَى، وبقي بجودِ رَبِّهِ، وَمَن غَرِقَ فِي بَحْرِ تَوْحِيدِ الصِّفَاتِ، غَابَ عن صفة نفسِهِ، وصفة غيْرِهِ، وبقي بصفاتِ ربِّهِ. ومَن غَرِقَ في بَحْرِ وحْدة الأفعَالِ غَاب عَن فِعْله وفِعْل غَيْرِهِ، وخرجَ من تدبيرِهِ واختيارِهِ. إذْ لاَ يدبّر الإنسان مَا يَفعَل غَيْرُهُ. وإنّما عَبَّرَ بالأحدية التي هي أبلغ من الوحدانية؛ لأنَّ المراد هنا مِنَ التوحيد، ما كَان ذوقاً وحالاً ومقاماً، لاَ مَا كَانَ علماً واعتقاداً، إذْ ذلِكَ من شأنِ أهْل الحِجَابِ: أهْل الدَّليل والبُرْهانِ. وفي هٰذَا المقام، قال شيخ شيخنا، سيِّدي عبد الرحمٰن المجذوب رضي الله عنه:

يَا قَارِئِينْ عِلْم التَّوْحِيدْ هُنَا الْبُحُورْ إلِيّ تِغْبِي
هٰذَا مَقَامْ أَهْل التَّجْرِيدْ الْوَاقِفِينْ مَعَ رَبِّي

إذْ لا يخوف هٰذِهِ البُحُورَ، إلاَّ أهْل التَّجريد والحُضُور. وأمّا مَن تنشب ظاهره بكثرة الأسْبَابِ، فَلاَ يَطْمَع أنْ يُفْتَحَ لهُ هذِهِ الأبواب. وقد سَمِعْتُ شَيْخَنَا البُوزَيْدِي رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ يقولُ: معرفة المتَسبِّب، لاَ تَقْرُبُ من مَعْرِفَةِ المُتجرِّد. وقال أيْضاً: المتجرِّد النَّاقِصُ، أفضل من المتسبِّب الكامل، يعْني المتهذِّب. إذِ المتَسَبِّبُ لاَ يَخْلُو بَاطِنُهُ مِنْ تَكْدير. وسَمِعْتُ شيخ شيخنا مولاَي العربي الدَّرقاوي رضي الله عنه يقول: فكرة المتجرِّد، أمْنَعُ مِنْ فِكْرَةِ المتسبِّب. أيْ أصْفَىٰ وَأبْلَغُ؛ لأنّها ناشئة عَنِ الصَّفَاءِ، إذ صَفَاءُ الباطِنِ، من صَفَاءِ الظَّاهِرِ، وتكْدِيرُ الباطن، مِن تكديرِ الظَّاهِرِ. وهٰذَا كُلّهُ فِي حقّ السَّائرينَ.

وأمّا الواصلونَ المتمكّنُونَ فَلاَ كَلاَمَ عَلَيْهِم. إذْ أمرهم كُلّه بالله. وعليه يُحْمَل حَالُ الصحابة رَضِيَ اللّٰهُ عَنهُم. إذْ كَانَ فيهم المتسبِّبونَ، كالصِّديق، والفاروق، وغَيْرهما. والإجماع على تفضيلهما، فَيُحْتَمَلُ ذٰلِكَ، على أنّهُ كَانَ بَعْدَ كَمَالِ حَالِهِمْ. وأيْضاً: مُشاهدَتُهُمْ لنور النبوءة، مَنَعَتْهُمْ مِنَ الرُّكُونِ إلى شَيْءٍ سِوَاهُ. فنظرة واحدة مِنَ الرّسول ﷺ، تخرجُهُ مِن عَوَالِمِهِ وعَوَائِدِهِ فِي سَاعَةٍ واحِدَةٍ، والله ذو الفضل العظيم.

ولمّا كَان راكب البحر على خَطَرٍ، إمّا أن يَسْلَمَ، وإمّا أنْ يغرقَ، طلبَ

النجاة من الغَرَقِ فِي بَحْرِ الأَوْهَامِ، أَوْ فِي بَحْرِ الشكُوكِ والخواطِرِ، أو في بَحْر الزَّنْدَقةِ والإلْحَادِ فَقَالَ: «وَانشُلْنِي»: أيْ خَلِّصْنِي وأنْقِذْنِي «مِنْ أَوْحَالِ» جَمْع وَحْلٍ؛ وَهُوَ الخَضْخَاضُ. أي سلمني من وغيض «التَّوْحِيدِ»، من إضافة المشبه به إلى المشبّه. أي أنقِذْنِي مِن توحيدٍ كَالْخَضْخَاضِ، بأن يَصْحبَه تكدير وتخليط، إمَّا برُؤْية السِّوَى مَعَهُ؛ وهو توحيد العوامِّ؛ وهو مكدَّرٌ بالأَوْهَامِ والشكوكِ والخواطِرِ، وإمَّا بِاْعْتِقَادِ الحلولِ والاتحادِ. فإنَّ بَعْضَ الجَهَلة، اعتقدوا السِّوَى، وادَّعَوْا حلول الألوهية فيه. وهو مَذْهب النَّصَارى، وبَعْضهم ادَّعَىٰ وجود السِّوَى، لكنَّه اتَّحِدَ وامتزج مَعَ الألوهية. وهو كفر حَرَامٌ. جاء في الحكم يا عجباً كَيْف يظهر الوجود في الْعَدَمِ؟ أمْ كَيْفَ يثبُت الحادِث مَعَ مَنْ لَهُ وصْفُ القِدَمِ؟

أهل التحقيق لم يثبتُوا مَعَ الحقِّ سِوَاهُ، ورَأوا الكُلَّ مِنْهُ وإلَيْهِ، فالكُلُّ دُونَ الله، إنْ حَقَّقْتَهُ عَدَمٌ على التفصيل والإجمالِ. وإلى ذَلِكَ أشَارَ القائِلُ بقولِهِ:

مَنْ لاَ وُجُودَ لِذَاتِهِ مِنْ ذَاتِهِ فَوُجُودُهُ لَوْلاَهُ عَيْنُ مُحَالِ[1]

فَإنْ لَمْ تَذُقْ مَا ذَاقَهُ الرِّجَالُ، فَحُطَّ رَأْسَكَ لأَقْدَامِ الرِّجَالِ حَتَّى يسْقوكَ مِنَ التوحِيدِ خَمْرة صافِية زُلَلٍ، وإلاَّ فَسَلِّمْ لأَهْلِ الكَمَالِ

وقَدْ شَبَّهُوا رَاكِبَ بَحْرِ التوحيدِ، بِرَاكِبِ البَحْر الحسِّي، فإن كَان صاحبُ السَّفِينةِ رئيساً مَاهِراً آوى به إلَى جَبَلِ السنة المحمَّدية، فَكَانَ من الناجحينَ

---

(١) هذا البيت من قصيدة للقطب شعيب بن الحسن الاندلسي التلمساني أبو مدين المتوفي سنة ٥٩٤ هجرية والقصيدة هي

الله قل وذر الوجود وما حوى إن كنت مرتاداً بلوغ كمال
فالكل دون الله إن حققته عدم على التفصيل والإجمال
واعلم بأنك والعوالم كلها لولاه في محو وفي اضمحلال
من لا وجود لذاته من ذاته فوجوده لولاه عين محال
فالعارفون فنوا ولما يشهدوا شيئاً سوى المتكبر المتعال
ورأو سواه على الحقيقة هالكاً في الحال والماضي والاستقبال
فالمح بعقلك أو بطرفك هل ترى شيئاً سوى فعل من الأفعال
وانظر إلى علو الوجود وسفله نظراً تؤيده بالاستدلال
تجد الجميع يشير نحو جلاله بلسان حال أو لسان مقال

النَّاجِينَ، وإن كَانَ صَاحِبُ السَّفينة جَاهِلاً بالبَحْرِ، آوَىٰ بِهِ إلَى جَبَل عَقْلِهِ وَحَدْسِهِ، فَالْتَطَمَتْ بِهِ الأمْوَاجُ فكان مِنَ المُغْرَقِينَ.

ولمَّا طَلَبَ النَّجاة مِنَ الغَرَقِ فِي بَحْرِ التخليطِ، طَلَبَ الغَرَقَ فِي بَحْرِ الصَّفَاءِ؛ وهي الوحدة الحقيقية. فقال: **«وأغْرِقْنِي فِي عَيْنِ»**: أيْ في حقيقة **«بَحْرِ الْوَحْدَةِ»**: أيْ فِي وسَطِ بَحْر الوحدةِ. والمراد أن يَغيبَ في شهودِ الذَّات وحدهَا. فيكون مُنهمكاً في الحقيقة، غائباً في وُجوده بوجودِ مشهودِهِ، كَمَا قَالَ الجُنَيْد، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

وُجُودِي أنْ أغِيبَ عَنِ الْوُجُودِ ... بِمَا يَبْدُو عَلَيَّ مِنَ الشُّهُودِ

وإنْ غَابَ في الحقِّ، كَانَ أمْره كله بِهِ لاَ بِنَفْسِهِ. ولذلكَ قَالَ: **«حَتَّى لاَ أرَىٰ»** إلاَّ بالذَّاتِ العلية، **«وَلاَ أسْمَعَ»** إلاَّ بِهَا ومِنْهَا. كَمَا قَالَ الششتري: أنَا بِاللَّهِ أنْطِقُ وَمِنَ اللَّهِ أسْمَعُ وكما قَالَ فِي الحديثِ الْقُدْسِي: **«فَإذَا أحْبَبْتُهُ كُنتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا»**(١) الحديث. وفي رِوَايةٍ أُخرىٰ: «فَإذَا أحْبَبْتُهُ كُنْتُهُ». وإلى تَمَامِهِ أشَارَ الشَّيْخ بِقَوْلِهِ: «وَلاَ أجِدُ» فِي بَاطِنِي، مِنْ فَرَحٍ أوْ حُزْنٍ أوْ قَبْضٍ أوْ بَسْطٍ، أوْ غَيْرُ ذٰلِكَ مِنَ الْوُجْدَانِيَّاتِ الْبَاطِنية. **«وَلاَ أحِسّ»** مِنْ حَرٍّ أوْ بَرْدٍ، أوْ لِيُونَةٍ أوْ حرُوشَةٍ، أوْ غَيْر ذلِكَ مِنَ المَحْسُوسَاتِ الظَّاهِرة. **«إلاَّ بِهَا»**: أي بِعَيْنِ بَحْر الْوَحْدة، وعَبَّرَ بِهَا عَنِ الذَّاتِ الْعَالِيَة، فَيَكُون فِعْله كُلّه بالله، ومِنَ الله. وهٰذَا هُوَ المُعبَّر عَنْهُ بِمَقَامِ الْفَنَاءِ. ويُمْكِنُ أنْ يُريد بِعَيْنِ بَحْرِ الْوَحْدَةِ، مَظهر الإنسَان. فَبَحْرِ الوحْدةِ؛ هو البَحْرُ المحيط. كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾. [الإسراء: ٦٠] وَعَيْنُ ذلِكَ البَحْر هُوَ وجود الإنسَانِ، لأنَّه جَوْهرة الصَّدَفِ، ولبّ الكائناتِ، فإذَا عَرَفَ الله فيهِ، وغَرِق في بَحْرِهِ، فقد عَرَفَ الله فِي غَيْرِهِ، مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ، عَرَفَ ربَّهُ، فَتأمَّلْ.

ثم رَجَع إلى مَقام الفناءِ فقال: **«وَاجْعَلِ الْحِجَابَ الأعْظَمَ»**. هو النبيُّ ﷺ.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، باب من جاهد نفسه في طاعة الله، حديث رقم (٦١٣٥) [٥/ ٢٣٨٤] وابن حبان في صحيحه، ذكر الإخبار عما يجب على المرء..، حديث (٣٤٧) [٢/ ٥٨] ورواه غيرهما.

وقد تقدَّمَ مِنْ قولِهِ: «وحِجَابُك الأعظم»: أيْ اجعل شهودكَ الحجاب الأعْظم. «حَيَاةَ رُوحِي». أي سبب حياتها؛ لأنَّ مَنْ غرق في بَحْرِ الوحدة، وأنكَرَ الواسطة، وأثبتَ الحِكْمَةَ، وأبطل الشريعة، فتَزنْدَقَ وألْحدَ، وماتتْ رُوحُهُ. ومَن أقرَّ الواسطة، وأثبت الحِكْمَةَ، حيَتْ روحهُ، وبقيَتْ منَعَّمةً فِي حَضرة الشهودِ، على نَعْت الهِبَةِ والأدَب، مَعَ المَالِك المعبود، فيكون باطنه يشاهد القدرة، وظَاهرهُ يشاهِد الحِكمة. أوْ تقول: باطنهُ حُرية، وظاهرُه عبودية. أوْ تقول: باطنهُ جَذْبٌ، وظَاهرُهُ سُلُوكٌ. أوْ تَقُولُ: باطِنُهُ حقيقة. وظَاهره شريعة. فهو الَّذِي تكون رُوحُه حية باقية، لا تفتر ولا تَبِيدُ. حَتَّى ترد يوم المزيد، واعْلَمْ أنَّ إنكارَ الواسِطَة، قَدْ يطرق بعض المريدين عِنْدَ اسْتشرافهمْ على الفَنَاءِ فِي الذَّاتِ، وعند الجذبة الأولى، لكن لاَ يَدُومُ ذلِكَ، إلاَّ لِمَنْ لَيْسَ لَهُ شيْخ، أوْ خرج عنه قبل التَّرْشيد. وأمَّا ما دَامَ في حضَانَةِ الشيخ، فلا بُدَّ أن يُخرجَهُ إلَى البقاءِ، كما يُخرجُ فصل الشتاءِ بدخول فَصْل الرَّبيع، وفَصْل الرَّبِيع، بِدُخُولِ فَصْل الصَّيْف، وهٰكَذَا.

والمُرَاد بالواسِطَةِ: القَبْضَة النُّورانية التي تكثفَتْ وبَرَزَتْ مِنَ الجَبَرُوت، وسُمِّيَتْ محمَّداً ﷺ. فَمَنْ ألْحقَها بِأصْلِهَا، ولم ينظر إلى حِكْمَةِ إظهارها، أنكرَ الواسطة، وكَان ناقصاً أو ساقطاً، ومن نَظَرَ إلى حكمة إظهارها، وأنها ثابتة بإثباتِهِ، مَمْحوَّة بأحدية ذَاتِهِ، أقرَّها بالله، وأقامَ بحقوقها، وهي أحْكام الشريعة، فلا بُدَّ مِنْ إثباتِهَا وُجُوداً، والغَيْبَة عَنْهَا شهوداً.

والواسطة مِنْ عَيْن المَوسُوط. فَمَنْ وَقَفَ مَعَ الواسطة، وحُجب عن الموسوط، كَان جاهِلاً بالله، غَيْر عارف بِهِ، وَمَن حُجِبَ بالوَاسِطةِ عَنِ المَوسُوطِ، فإنْ كَانَ مَجْذوباً غائباً، كَان ناقصاً، وإن كَان صَاحياً كَانَ سَاقطاً. ومَنْ جَمَعَ بَيْنَهُمَا كَان محققاً كَامِلاً، وبالله التوفيق.

ولمَّا طَلَبَ حياة رُوحِهِ، بِشهودِ ظاهِرِ الحِجابِ الأعْظَم؛ وهو النَّبيّ ﷺ؛ طَلَبَ تصفيتها، حتَّى تنقلِبَ سرًّا بشهودِ باطنِهِ عليه السَّلامُ. وهو روحه فقال: «وَرُوحَهُ سِرَّ حَقِيقَتِي»: أيْ واجْعل شهود روحِهِ، سببَ سِرّ حقيقتي، أي سَبَبَ انقلابِ روحي سِرّاً، فَحَقيقة الإنسان هِيَ رُوحُهُ.

والحاصلُ: أن النظر إلى ظَاهِرِهِ عليه الصَّلاة والسَّلامُ يُفيد تحقيق الشريعة؛ وهو سبب حياة الرُّوحِ. والنَّظر إلى باطِنِهِ عليه السلام، يُفيد تحقيقَ الطريقة، وبها تكون تصفية الرُّوح، حتَّى تكون سِرّاً، بعد أن كَانَتْ نَفْساً، ثم عقلاً، ثم قلباً، ثم روحاً، فإذا تَهَذَّبَتْ صارت سِرًّا.

وأما النظر إلى جُمْلَتِهِ عَلَيْهِ الصَّلاة والسَّلامُ يَعْنِي ظَاهره وباطِنُه، فَيُفِيدُ تحقيقَ الحقيقة، وبِهَا يكون تصفية السِّرّ، وإليه أشار بقولِهِ: **«وَحَقِيقَتَهُ وجَامعَ عَوَالِمِي»**: أيْ واجْعَل شُهُود حقيقتِهِ كلها، بِظاهِرِهَا وبَاطِنِهَا، بجميع عَوَالمي الباطنية؛ وهو العلم والفَهْمُ، والفِكْر والعَقْلُ، والنظر والاعْتِبار، فتكون عوالمي كلها مُنحصِرَةً فِي الحقيقة المحمَّدية؛ وَهِيَ القَبْضة الجَبَروتية، أو المظهر الجَبَرُوتي، مَعَ النظر إلى الجَبَروت الأصْلِي، كما يأتي بَعْدَهَا.

والحاصل: أنَّ ظاهرهُ عليه السلامُ مُلكٌ، وباطنَهُ مَلَكُوتٌ والجمع بَيْنَهُما جَبَروتٌ. فطلب أولاً النظر إلى مُلْكِ ظاهِرِهِ عليه السَّلامُ، لتحقيق شريعته. وطلبَ ثانياً النَّظَرَ إلى مَلَكُوتِ باطِنِهِ عليه السَّلامُ؛ لتحقيق طَريقتِهِ، فتكون سُلَّماً للإشراق نُور حقيقته، وطَلَبَ ثالثاً النَّظَرَ إلى جَبَرُوتِ جُمْلته عليه السَّلامُ، لتكمل حقيقتهُ.

وإنْ شِئْتَ قُلْتَ: طَلَبَ أوّلاً بِقولِهِ: واجْعَلِ الحِجَابَ الأعْظَمَ، حَيَاةَ رُوحِي - الاقْتِدَاءَ بِظَاهِرِهِ. إذْ هُوَ سَبَبٌ لِحَيَاةِ الرُّوحِ حسّاً ومَعْنىً؛ وهو محلّ التشريع، فيكونُ كَلاَمُ الشيخ حينئذٍ على حَذْفِ مُضَافَيْنِ. أيْ واجْعَل شُهُودَ ظَاهِرِ الْحِجَاب الأعْظَم، لكِن إذا أُطلِقَ الكَلاَمُ، إنَّما ينصَرِف إلى الظاهِرِ، فلا يحتاج إلى تقدير المُضاف الثاني، وطَلَبَ ثالثاً بِقَوْلِهِ: وروحه سِرٌ حقيقتي الاقتداء ببَاطِنِهِ عليه السَّلامُ. وَهُوَ مَحَلُّ تصفية الرُّوحِ. إذ كُلُّ مَن نَظَرَ إلى بَاطِنِهِ عليه السَّلاَمُ ورَأى ما كَانَ عليه مِن كَمَالِ الأخْلاق، انجَرَّ إلى الاقتداءِ بِهِ عليه السلامُ. وهو عَمَل الطريقة. وطَلَبَ ثالثاً بقوْلِهِ: **«وحقيقته جَامعَ عَوَالِمِي»**. الجمعُ بَيْن الاقتداءِ بالظَّاهر والباطِنِ، وبذلكَ تتَنَوَّرُ الحقيقة، ويظهر سِرّها.

أو تقول: طلبَ أوّلاً تحقيق مقام الإسلام، بشهودِ ظَاهِرِهِ عليه السَّلامُ، وطَلَبَ ثانياً بتحقيق مَقام الإيمانِ، بشهود باطنه عليه السلامُ. وطلبَ ثالثاً تحقيق

مقام الإِحْسَانِ، بشهودِ حَقيقته عليه السَّلامُ.

أو تقولُ: طلبَ أوَّلاً شهوده عليه السلامُ مِن جِهَة مُلْكِهِ. وثانياً: شهودهُ مِن جِهَة ملكوتِهِ. وثالثاً: شهوده من جِهَة جَبَروتِهِ، وهذا أحسن من ذلك إن شاء الله، لأنَّ الشيخ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ، لمَّا طَلَبَ الرّجوع إلى البقاءِ، بِشهودِ الواسطةِ، طلب أن يكون رجوعه إلَيْهَا بِشهود مُلْكها ومَلَكُوتها وجَبَروتها، ولذلك ضَمَّ جَبَرُوت الواسطة، إلى جَبَروت المَوْسُوطِ فقال: «بِتَحْقِيقِ الْحَقِّ الأولِ» الباء للتَّعْدية، والحق الأول: الشهود السَّابق في عَالَم الأرواح يَوْمَ «أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ»: أيْ حَقِّقْهُ الآنَ حتى أَسْتحضرهُ، أَسْتَعِينُ بِهِ على دَوَامِ الشهودِ، أو الباء للمعية. والحق الأولُ: هو شهود الرُّبوبية والاسْتغراق في الوحدانية. أو البَاءُ للقسَمِ، والحق الأول هو الله تَعَالىٰ، إذ هو السَّابق على كل حقٍّ، ومنه كان كل حقٍّ.

وأعودُ إلى الْمَعْنَىٰ: بتحقيق، أي مع تحقيق الحقّ الأوّلِ؛ وهو الجبروت الأصْلِي، فالبَاءُ بِمعْنَىٰ مَعَ. كقوله تَعَالَىٰ: ﴿وَقَد دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ﴾ [المائدة: ٦١] أي مَعهُ. فَطَلَبَ أن تكونَ عوالمهُ مُنْصَرفةً إلى جَبَروت الواسطةِ مع النظر إلى جَبَرُوتِ الموسوطِ؛ الَّذي هو الأصْل؛ وهو الحقّ الأولُ. والفَرْق بَيْن جَبَرُوتِ الواسطة، وجَبَرُوت الأصْل أنَّ جَبَرُوت الواسطة، محجوب بالحِكمة، مُغَطًى برداءِ العِزِّ والقهرية، فظاهره حِكمة، وباطنه قدرة، فَمَنْ ضَمَّ جَبرُوتِ الفرْعِ، إلى جبروتِ الأصْل مطلقاً، من غَيْر مُرَاعاةِ الحكمة، ورداءِ القهْرية، وقَعَ في الزَّنْدَقةِ؛ لإبطالِهِ الأحكَام والحِكْمَةِ، وخَرْقه رداء العِزَّة القهرية. ومَن ضَمَّهَا مَعَ مُرَاعَاةِ الحِكْمة، ورداء الكِبْرياءِ والعِزَّةِ، كَانَ إماماً كَامِلاً جَامِعاً، يَصْلح للتربية والترقية، جعلنا الله منهم، بِمنِّهِ.

«يَا أوَّلُ» قَبلَ كُلّ شَيْءٍ. «يَا آخِرُ» بَعْدَ كُلّ شَيْءٍ. «يَا ظَاهِرُ» فَوْقَ كُلّ شَيْءٍ. «يَا بَاطِنُ» دُونَ كلّ شَيْءٍ. هٰكذا فَسَّره النَّبي ﷺ في حديث أخرجَهُ مَالِكٌ في المُوَطَّأ. ولَفظهُ: «اللَّهُمَّ أَنْتَ الأَوَّلُ، فَلَيسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وأنْتَ الآخِرُ فَلَيس بَعْدكَ شَيْءٌ، وأنْتَ الظَّاهِر فَلَيس فَوْقَكَ شَيْءٌ، وأنْتَ الباطِنُ فَلَيسَ دُونَكَ شَيْءٌ، أقْضِ عَنّي الدَّيْنَ» فَعَبَّرَ بالأوّلية عَنِ الْقِدَمِ، وبالآخِرية عَنِ البَقَاءِ، وبالظهورِ عن

التجلِّي، وبالبطونِ عَنِ الحجاب بالحِكْمَةِ وَرَاء القهرية؛ فهو ظَاهِرٌ فِي بطونِهِ، باطِنٌ فِي ظُهُورِهِ، فَاسْمُه الظَّاهر يَمْحُو ظُهورَ السّوَى ويبطنهُ. إذ لاَ ظَاهِر مَعَهُ سُبْحَانَهُ وتَعَالَىٰ، واسْمه الباطِن، يقتضي ظهور تجلياته، ليكُونَ بَاطِناً بالنِّسْبَة إلى حِسِّهَا الظَّاهِر. فَلَوْ بَقِيَ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ مِن البُطُونِ، مَا عُرِف وَلاَ عُبِدَ. وفي الحِكَم[1]: لا أظْهَرَ كُلَّ شَيْءٍ بأنه الباطن، وطَوَىٰ كُلَّ شَيْءٍ بأنه الظَّاهر.

وقال في آخِر المُنَاجَاة: كَيْفَ تخفَى وأنْتَ الظَّاهر، أمْ كَيْفَ تغيبُ وأنت الرقيب الحَاضِرُ. **والحاصل**: أنَّ الْحَصْرَ فِي قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣]. يقتضي انفراده بالظهورِ دُونَ غَيْرِهِ، لأنَّ التَّقْدِير: هو الأوَّلُ، هو الآخِر، هو الظَّاهر، هو الباطن دون غَيْرِهِ. فكُلُّ مَا ظَهَرَ فَهُوَ هُوَ، وكل ما بطن فَهُو هُوَ. أوْ تقول: هو ظَاهر كل ما بطنَ، وباطن كل ما ظَهَرَ من الألوهية، إذ لا شَيْءَ مَعَهُ، أوْ تقول: هو الظَّاهِرُ مِنْ جِهَةِ التعريف، والباطن من جِهَةِ التكثيف. إذ إن كُنْه الرُّبوبية لا يُكَيَّفُ. أوْ تقول: ظاهرٌ بقدرتِهِ، باطِنٌ بحكمتِهِ. أي سبب حِكمتِهِ، فَقَدْ أظهر الحكمة، وأبْطَن القدرةَ، إليه أشار بعض العارفين بقولِهِ:

لَقَدْ ظَهَرَتْ فَلاَ تخفَىٰ على أحَدٍ ... إلاَّ عَلَىٰ أكمَهٍ لاَ يُبْصِرُ الْقَمَرَا

لَكِنْ بَطَنَتْ بِمَا أظْهَرتْ مُحْتَجِباً ... وَكَيْفَ يُبْصَرُ مَنْ بِٱلْعِزَّةِ اسْتَتَرا

واعْلَمْ أنَّ الحِكْمَة عَيْن القُدْرةِ، والقُدْرَة عَيْن الحِكْمَةِ، إذِ الفاعِل واحِدٌ. وسأذكر لكَ شيئاً من بَحْرِ القُدْرة، وشيئاً من بَحْر الحِكْمَة، ليَظهر لكَ الْفَرْق بَيْنَهُما، مع اتِّحادِهما مَحَلاًّ، فنقول: وبالله التوفيق:

بَحْرُ الْقُدْرَةِ، بَحْر زَاخِرٌ، وأمْرهُ قاهِرٌ، لَيْسَ له أوَّلٌ وَلاَ آخِرٌ، يُظهر ويبطن، ويحرك ويسكن، ويقبض ويدفع، ويعطي ويمنع، ويَخفَظُ ويَرْفَعُ، بِيَدِهِ مَقَادِير الأمور، وعلى قُطْبِ دائرته الأفلاك تدور، أصْل الفروع، وفروع الأصول، وإليه ينتهي الوصول. تطير إليه قلوب المشتاقين، وتعوم في طرف لُجَّتِهِ أرواح السائرين، وتخوض في بَحْرِ لُجَّته أسْرَارُ الواصلينَ، وَلاَ تعرف كُنْهَ

---

(١) العطائية للشيخ. أحمد بن عطاء الله السكندري.

عظمته قلوبُ العارفين؛ غايَةُ مُنْتَهَاهَا الدّهش والحَيْرَة، ثم العكوف فهي الحَضْرَة.

وأمّا بحْرُ الحِكْمَةِ؛ فَهُو أيْضاً: بَحْرٌ زَاخِرٌ، وأمْره ظَاهِرٌ، يُظْهِرُ الأسْبَابَ، ويُسْدلُ الحجابَ، يَرْبط الأحكام بالْعِلَلِ، ويُقرِّرُ الشَّرَائع والمِلَلَ، يُغَطِّي مَا يَبْرزُ مِنْ عُنْصُرِ الْقُدْرَةِ بِرِدَائِهِ، ويستر ما يَبْدُو من أسْرَار الرّبوبية بِعِزّ كِبْرِيَائِهِ، يُنَوِّرُ الطَّرِيقة، ويصونُ الحقيقة، يُظهر العبودية، ويبطن الحرية، مَنْ وَقفَ معه كَانَ مَحْجُوباً، وَمَنْ نَفَذَ مِنْهُ إلى بَحْرِ الْقُدْرَةِ، كَانَ وَاصِلاً مجذوباً، ومَنْ نَظَرَ إلَيْهما معاً، كَانَ كَامِلاً محبوباً، وبالعناية مصحوباً.

واعلم أنَّ القُدْرَة والحِكْمَة، كل واحدة تنادي على صَاحِبَتِهَا، بلسَانِ حَالِهَا. أمَّا القدرة فتقول للحِكْمَة: أنْتِ تَحْتَ قَهْرِي ومشيئتي، لاَ تَفْعَلِي إلاَّ مَا أشاءُ، وَلاَ يَصدُر مِنْكِ إلاَّ مَا أُرِيدُ، فإن أردت خِلافِي رددتك، وإن سَبَقتني أدرَكْتُكِ. وتقول الحكمة للقدرَةِ: أنْتِ تحت حُكْمِي، وعِنْدَ أمْرِي وَنَهْيِي، فإنْ عَصَيْتِنِي أدَّبتُكِ، ورُبَّما قتلتُكِ، فإن بَرَزَتِ الْقُدْرَةُ مُوَافِقَة لِلْحِكْمَةِ، كَانَ ذَلِكَ علامة الجمالِ عاجِلاً أوْ آجِلاً، وإن بَرَزتِ القدرة مخالفة للحِكمَةِ، كَانَ عَلاَمَة الجلالِ عاجِلاً أوْ آجِلاً؛ لأنَّ الحِكمَة منوطُ الشريعة، والقدرة محلُّ الحقيقة. فإذا خَلَفَتِ الحقيقةُ الشريعة، كَانَ معصية؛ وهي سبب الجمال، والإنسان دائر بيْن قُدْرَةٍ وحِكمةٍ، كَمَا هو دائر بيْن حقيقة وشريعة، والله تعالى أعْلَمُ.

ثمَّ ذكر الشيخ مطلوبَهُ بالنِّدَاءِ فَقَالَ: «اسمعْ نِدَائِي» سَمَاع قبول، أي أجِبْ دعائِي. «بِمَا سَمِعْتَ»: أي بِالْوَجْه الَّذِي سَمِعْتَ «بِهِ نِدَاءَ عَبْدِكَ زَكَرِيَّاءَ»؛ وهو سُرْعَة الإجَابة، على وَجْهِ خَرْقِ الْعَادَةِ، فَقَدْ وَهَبَ لَهُ وَلَداً مِنْ صُلْبِهِ، مَعَ يَأْسِ أهْلِهِ، وَكِبَرِ سِنِّهِ، وفيه إشارة لطلبِ الوارث الرُّوحَانِي، فكَأنَّ الشيخ خَافَ أنْ يَنْقَطِعَ الانتفاع بِهِ بَعْدَ المَوْت، حَيْث لَمْ يترك وارثاً لِسرِّهِ، فأجَابَ الله دُعَاءَهُ، بأبِي الحسَن الشاذلي، فأخَذَ سِرَّهُ، ونشَرَه فِي المشرقِ والمَغْرِب، فقد انتشرتِ الطَّرِيقة الشاذلية، انتشار الشَّمْس في أُفُقِ السَّمَاءِ، وكثر أتباعها شرقاً وغَرْباً، كل ذلِكَ فِي صَحيفَةِ الشيخ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والمَرْءُ فِي مِيزانِهِ أتباعُهُ. فَاقْدُرْ بِذَلِكَ قَدْرَ النبيّ محمَّد ﷺ.

ثم كَمَّلَ مطلوبَهُ فَقَالَ: «**وانصُرْنِي**»: أيْ قوِّنِي وأعِنِّي فِي الظَّاهر بِكَ، لاَ بوَاسِطة شَيْءٍ، لأكون عَبْداً خالصاً لكَ؛ لأنَّ النَّصْرَ إذا كَانَ بوَاسِطةٍ، رُبَّمَا تميلُ النَّفْسُ إلى مَحبَّةِ الْوَاسِطَةِ، فَتُحْجَبُ عَنِ الْمَوْسُوطِ، بخلافِ ما إذا كَانَ بِلاَ واسِطة، أوْ غَائِباً عَنْهَا، كَانَ عَبْداً حقيقياً، لانحصار المحبَّة فِي النَّاصر الحقيقي. «**وأيِّدْنِي**» أيْ قوِّني في الْبَاطِنِ «**بِكَ**» لاَ بِرُؤية غَيْرِكَ «**لَكَ**»: أيْ لأكُون عَبْداً خالِصاً لكَ، فتقرر أنَّ النَّصْرَ في الظَّاهِرِ، بموافقة الأسْباب، والتَّأْييدَ فِي الباطِنِ، برَفْعِ الْحِجَابِ، وَمُوَافقة الصَّوَابِ. وقيل: النَّصْر والتأييد مُتَرَادِفَانِ، والجَمْع بَيْنَهُمَا تَفَنُّن فِي العِبَارَةِ. والتحقيق: الأولُ. ويُوافق النَّصْر: الهِداية. ويُوافق التأْييد: التوفيق.

والحاصل: أنَّ النَّصْرَ والهداية والتأييد والتوفيق محلّها القلوب. لكن النصر والهِداية، يظهر أكثرهما على الجوارحِ الظَّاهرة. فتهدي إلى الطهارة والاسْتقامة، وتقوِّي على المُوَاظبة على العبادة. والتأييدُ والتوفيق: يظهر أثرهما على الْعَوَالم الباطنية، فتتخلَّى عن الرَّذائِلِ، وتتحلَّى بأنواعِ الفَضَائِلِ؛ التي هِيَ مَكَارم الأخْلاَقِ، والرِّضى والتسليم، والمحبّة والمعرفة. وغَيْر ذلِكَ مِمَّا تقدَّم ذِكْرهُ. والله تعالى أعْلَمُ.

ثم ذكر ثمرَة النَّصْرِ، والتأييد؛ وهو الجمع على الله، والغَيْبَةُ عَمَّا سواهُ، على سبيل الاسْتغراقِ والدَّوام فقال: «**وَاجْمَعْ بَيْنِي وَبَيْنَكَ**» طلبَ دوامَهُ واتِّصالَهُ، وإلاَّ فالجمع حاصِلٌ لهُ، فَهُو كقَوْلِهِ تعَالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١].

والجمع: شهود الرّبوبية متصلةً على الدَّوامِ. والْفَرْقُ: شهود العبودية مُنفصِلةً على الدَّوام. أو تقول: الجمْعُ، شهود القدْرة وحدها. والفَرْق: شهود الحِكْمَة وحْدَهَا. فَأَهْلُ الجَذْبِ والفَنَاءِ: لاَ يشهدون إلاَّ الجمعَ، وأهْل السلوك قبل رفع الحجاب، لا يشهدونَ إلاَّ الفَرْقَ، وأهْلُ البقاء يشهدون الجمع فِي عَيْنِ الفَرْقِ. والفَرْق فِي عَيْن الجَمْعِ، فَهُمْ مَجْمُوعُونَ فِي فَرْقِهِمْ. مَفْرُوقون فِي جمعهم، لا يحجبُهُمْ جَمْعهم عَن فَرْقِهِمْ، وَلاَ فَرْقهم عن جَمْعِهِمْ، رضي الله عَنْهُمْ.

ولمَّا طلبَ الجمع على الدَّوامِ، طلبَ نَفْيَ ضِدِّهُ؛ وهو الفَرْق فَقَالَ:

«وَحُلْ بَيْنِي وَبَيْنَ غَيْرِكَ» شهود غيرك: هو الغفلة عَنِ المعرفَةِ. وإلاَّ فَلاَ غَيْرَ. فَكَأنه طلب الحيلولَة بَيْنَهُ وبَيْنَ الْغَفْلة؛ التي تُثْبتُ الغَيْرية، أو الحيلولة بَيْنَهُ وبَيْن الْوَهْم، إذْ هو الَّذِي يثبت الغيرية، ولقد سمعت شيْخَنَا البُوزيدي رضي الله عنه كثيراً ما يقول: «والله مَا حَجَبَ النَّاسَ عَنِ الله إلاَّ الْوَهْمُ، والْوَهْمُ: أمْرٌ عَدَمِيٌّ لاَ حَقِيقَةَ لَهُ». يَعْنِي أنَّهم تَوَهَّمُوا وُجُود السِّوَى، وَلاَ وُجُود لِلسِّوى. «الله» هذا التحقيق للجمع الذي طلبَ. وحذف النداء لدلالته على البُعْد، لاَ بُعْد مع الجَمْعِ. وكرَّر (الله) ثلاثة، على عَدَدِ الْعَوَالِمِ الثلاثة، «المُلْكُ، والمَلَكُوتُ، والْجَبَرُوتُ». فكُلُّ مَرَّةٍ يُفْنيْ بِهَا عَالَماً، ويَرْتَقِي إلَى آخَرَ. حَتَّى يَسْتَقِرَّ بالثَّالِثَةِ: فِي عَالَمِ الجَبَرُوت. فَإِذَا قَالَ: الله أوَّلاً، أفنَىٰ عَالَم المُلكِ، وإذا قالَها ثانياً، أفْنَىٰ عَالَمَ المَلَكُوتِ، وإذا قَالَهَا ثالثاً، خَافَ الجَبَرُوت، واسْتَقَرَّ فِيهِ، وسَمِعْت شيْخَنَا رضِيَ الله عَنْهُ يَقُول: إذا قال الإنسان: الله، قصَم به الكَوْن كلَّهُ إذَا تلقَّاهُ مِنَ الشيْخ. والقَصَمُ: الهَلاَكُ والذَّهابُ. وكَان شيخ شيوخنا سيِّدي علي يقول: ما ظن أحد، أن الكَوْن يذوب إذا ذكر اسْم الله عليه.

قلت: وما قاله الشيْخان رَضِيَ اللَّهُ عَنهُما صحيحٌ، فإذا قُلْتَ: الله، وتوجَّهتَ بقلبك إلى الكَوْنِ، من العَرْشِ إلى الفَرْش ، ذابَ وتلاشى، ولم يَبْقَ لَهُ أثَرٌ، فَجَزَاهما الله عنَّا خَيْراً، ويؤخذ مِن تِكرار الشيخ لهذا الاسم العظيم، جواز تكرار هذا اللفظ، والاقتصار عَلَيْه في الذِّكر؛ وهو التحقيق، خِلافَ ما ذكر الحطاب، عن عزِّ الدِّين بن عبد السَّلام، ولعَلَّهُ قبل أن يلتقي بالشيخ.

وفي المسألة ثلاثة مذاهب: الجواز مطلقاً في البِدَاية والنهاية. والمنع مطلقاً. والتفصيل يجوز في النهاية، ولا يجوز في البداية. والمشهور الأول. قال في لطائف المِنَنِ: وكَان الشيخ أبُو العبَّاس المرسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَحُضُّ عليه كثيراً، ويقول: هو سلطان الأسماءِ. وقال اليوسي: ثمرة هذا الاسم، معرفة الذَّات، وقد تولاَّه أبو الحسَن النوري، فبقي أياماً يقول: الله. الله. الله. لا يفتر. ولاَ يأكل، ولاَ يشربُ، فَذَكَرَ ذلِكَ للجُنَيْد، فَقَال لَهُ: إن كنت تقوله بنفسكَ فأنت مُشرِكٌ، وإن كنت تقوله بالله فلَسْتَ أنْتَ الْقَائِل. فَمَا هٰذَا التَّولُّهُ؟ فسَكَت، وقال: نِعْمَ الطبِيبُ أنْتَ.

ولمَّا كَان الجمع الحقيقي، الذي تَصحبُهُ النَّضرة والسُّرور، وَلاَ تَغتريه غفلةٌ وَلاَ فتورٌ، إنَّما تَكُونُ بعد البَعْثِ والنُّشورِ، تَلاَ عَلَىٰ رُوحِهِ هٰذِهِ الآية، على مَذْهَب تَفسِير أهْل الإشارة، تسْلية لَهَا فقال: «﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾» [القصص: ٨٥] أيْ إنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ أحْكَام القرآن، والعمل بِهِ لرَادّك إلى مَعَادٍ عَظِيم، فتصِل بمحبوبكَ على الدَّوَام، وأمَّا دار الدُّنْيَا فَهِي دَارُ أهْوَالٍ ومَنْزِل فرْقةٍ وانتقالٍ، لاَ تَسْتَغرِبْ وُقُوع الأكْدار، ما دُمْتَ فِي هٰذِهِ الدَّار. فإنما أبرزَتْ ما هو مُستحِقٌّ وَصْفَهَا، وواجب نَعْتها.

ثم ذكر دعاء أهْل الكَهْف، تشبيهاً بِهِم في التَّبتُّلِ والانْقِطَاع إلى الله، والفِرار مما سواهُ، فقال: «رَبَّنَا آتِنَا»: أي أعْطِنَا وامْنَحْنَا «مِنْ لَدُنْكَ»: أي من مستبْطِن أُمُوركَ؛ لأنَّ لَدُنْ، تدلُّ على الاتِّصال والقُرْبِ أكْثرَ مِن عِنْدَ. أيْ هَبْ لَنَا من خَزَائِن فَيْضكَ «رَحْمَةً» عظيمة تضمُّنا وتوحّشنا مِنْ غيرِكَ. «وَهَيِّئ» أي واجْعَل؛ «لَنَا مِن أمْرِنَا» كُلِّهِ «رَشداً»: أي صواباً. والمعْنَى، واجْعَلْ أمْرنَا كُلَّه رشداً، وصَوَاباً لمُوَافقتِهِ لمحابتكَ ومَرْضَاتِكَ؛ وهٰذَا يسمَّى عِنْدَ أهْل البَيَانِ: التَّجريد. ومعْنَاهُ: أنَّهم إذا بالغوا في الشيءِ، جَرَّدُوا مِنْهُ نوعاً آخَرَ مِنْ جِنْسِهِ. كقولكَ: لقِيتُ من زَيْدٍ أسَداً. مُبالغةً في شجاعَتِهِ. وقولكَ: لي من فُلاَنٍ صديق حميم. ومنه قَوْلُهُ تَعالَىٰ: ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾ [فصلت: ٢٨]. وكأنَّه أراد أن يكون أمره كلهُ رشداً. حتى كأنه جَرَّد مِنْهُ رشداً آخَرَ. والله تعالى أعْلَمُ.

وهٰذَا آخرُ التَّصْلية في النُّسَخ العتيقة، وزَادَ بَعْضُهُمْ: «﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾» [الأحزاب: ٥٦] وفي الآية ما يَدُلُّ عَلَىٰ تَعْظِيم أمْرِ الصَّلاَةِ على رسول الله ﷺ. حَيْث بَدَأ الحق سُبْحَانَهُ وتَعَالَىٰ بنَفْسِهِ. وثَنَّى بِمَلاَئِكَةِ قُدْسِهِ. وثَلَّث بالمؤمنين من جِنِّهِ وإنْسِهِ، فَهُوَ أعْظم مِنَ الأمْرِ بالسُّجُودِ لآدمَ عَلَيْه السَّلام. «إنَّ الله يرحم آدم فاسْجِدُوا لَهُ». وفي الصلاة عليه، عليه الصلاة والسلام، فوائد كثيرة، ولها ثمرات عديدة، ذكرها ابن فرحون وغيره، فلا نطيل، بذكرها.

فلا يَنْبَغِي للفقير أن يُهمل نَفْسه مِنْهَا. فإن كَانَ سَائِراً خَتَمَ ذِكرهُ بِهَا، وبدأ بِهَا، وإن كَان متمكِّناً اسْتغرقَ أوْقاتهُ فيها بالفِكْرَةِ، ثم امتثل أمْر الخالق فقال:

«صَلَّى الله عليه وعلى آلِهِ وصحْبِهِ وسلَّم تَسْلِيماً».

وفي وجوب الصَّلاة على النبيّ ﷺ ونَدْبِهَا خِلاف المشهور. والمشهور أنَّها واجبة مرَّة في الْعُمُرِ، ثم يبقى الاستحباب، فلا يهمل نفسه منها إلاَّ محروم.

ثم خَتَمَ بذكرٍ وَرَدَ عن سيِّدنا عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «**مَنْ أَرَادَ أن يَكْتَالَ بِالْمِكيالِ الأَوْفَىٰ، فليكُنْ آخِر دعائِهِ: سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُون، وسَلاَمٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ، والْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِين**». أي تنزيهاً لِرَبِّكَ، رب العِزَّة عمَّا يصفه بِهِ الكَفرة، مِنَ الشريكِ والْوَلدِ. وفيه إشارة إلى عِزِّه ونَصْرِهِ عليه السلامُ، لأنَّ ربَّ العِزَّة، لا بُدّ أن يُعِزَّ عَبْدَهُ المختصّ بِهِ. وسلامٌ، أي طيب وتحية، وإكرام على المرسلين المختارين لسِرّ وحْيِهِ، والحَمْدُ لله ربّ العالمين، على نَصْرِ أحبَّائِهِ وجنودِهِ، جَعَلْنا الله من جُنْده المنصورين؛ أهْل الخبرة والسرور آمين، وسلام على الْمُرْسَلين، والحمْدُ لله رب العالمين، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد خاتم النبيين، وإمام المُرْسَلين، وعلى آلِهِ وصحبِهِ وسلَّم.

شرح قصيدة «يا من تعاظم» للإمام الرفاعِي

لسيدي أحمد بن عجيبَة رضي الله عنه

ضبطها وصححها وعلق عليها
الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي
الحسيني الشاذلي الدرقاوي

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلّم تَسْليماً

يقول العبد الفقير إلى مَوْلاَهُ الْغَنِيّ بِهِ عمّا سِوَاهُ، أحمد بن محمد بن عجيبة الحسني. لطفَ الله به وحَبَاهُ، ولحضْرَتِهِ اجْتبَاهُ.

الحمد لله. نحمدكَ يَا مَنْ تَعاظمَتْ أَنْوَار جَمَالِهِ وبهائه. حتى حفيت من شدة ظهورها معاني صفاته وَأَسْمَائِهِ. ونشكركَ يَا مَنْ تَرَدّى بِرِداءِ عِزّتِهِ وكِبْرِيَائِهِ. حمداً وشكراً يقتضيان المزيد منْ عَظِيم نوالِهِ وَآلاَئِهِ. ونصلّي ونُسَلّم على مَن انشقَّت من ناسُوتِهِ الأَسْرَارُ وانفَلَقَتْ مِنْ صِفاتِ لاَهوته الأَنْوَار سيّدنا ومولانا محمد مَنْبع الأَنوار ومَعْدن الأَسْرَار. وَرَضِيَ اللّه تَعالى عَنْ أَصْحَابِهِ الأبْرَار وأَهل بَيْتِهِ الأَطْهَار.

أمّا بَعْدُ. فقد سألني بعض أَهْل المَحَبّة والوِداد مِن أَهْل التّسْليم والاعْتِقَادِ أن أَضَعَ تقييداً على قصيدة تنسَب للإمام الرفاعي رضي الله عنه؛ وهو أحْمَد بن أبي الحسن الرّفاعي. نسب إلى بني رفاعة قبيلة من العرب. وسكن بأحواز مصر قرية يقال لها: أمّ عبيدة. بِأَرض البطائحِ إلى أَنْ ماتَ بِهَا رضي الله عنهُ وقت الظُّهر، ثاني عشر جمادى الأولى سنة سَبْعِينَ وخمسمائة، وكَان شافعي المَذْهَبِ. وله أحْوال غريبَة في التواضع، وتعاطي السّفليات، وتحمُّلِ الأذى. كان رضي الله عنه يمشي إلى حارة المجذومينَ، وأهْل الأوساخ، فيغسل ثيابَهُمْ، ويَفلِي رؤوسَهُمْ ولِحَاهُمْ. ويحمل لهم الطعام ويأكل معهم اللّبَن، ويجالسهم ويسألهم الدعاء، ويقول: زيارة هؤلاء واجبة لا مسْتَحَبّة. ورأى مَرّة كَلْباً أَجْرَبَ أخرجه أهل أم عبيدة وقذروه، فخرجَ معه إلى البرية، وضرب مظلة، وجعل يطليه بالدّهْنِ، ويُطعمه ويسقيه، ويحك الجرْبَ بخرقة. فَلَمّا برئ، سخن له ماء وغسَلهُ. وقال: خِفْت أن يؤخذ حُمَيْد بهذا الكَلْبِ يوم

القيامة. ويقول الحق لِي جَلَّ وَعلاَ يا حُمَيْدُ أما علمْتَ أَنَّه خَلْق من خَلْقِي، أما أَمَرتك بالرَّحمة أَطْلِ مبتلى.

وكان يخرج إلى الطريق ينتظر الْعُمْيَانَ ويقودُهُمْ إلى مكَانِهِمْ. وإذا رأى شخصاً كبيراً يذهب إلى أهْل حارة، وَيُوصيهم عليه. ويقول: قَدْ وَرَدَ في الحديثِ: «مَنْ أَكْرَمَ ذَا شَيْبَةٍ، سَخَّرَ اللَّهُ تعالى مَنْ يُكْرِمه عِنْدَ كِبَرِهِ»[1]. وكَان إذا قَدِمَ من سَفَرٍ، وقرب مِنْ بَلَدِهِ يشِدُّ وسَطَهُ، ويخرج حَبْلاً ويجْمع حَطَباً ثم يَحْمِلُهُ على رأسه إلى الدَّارِ، ويفعل كذلك الفقراء. فإذا دَخَلَ البَلَد، فَرَّقَ ذَلِكَ عَلَى الأرَامل والْعُمْيَانِ والمساكين. وَكَانَ يَتَحَمَّلُ أَذَى النَّاسِ ما لا يَحْمِلُهُ غَيْرُهُ.

وَيَقُولُ: إِنَّهُمْ مِنْ أُمَّةِ محمَّدٍ ﷺ. لَقِيهُ مَرَّة جماعة فسبُّوهُ. وقالُوا لهُ: يا بدَّاع. يا مستحلاً للحرام، يا مبَدِّلاً للقرآنِ، يا ملحد يا كَلْب. فكشفَ رأْسَهُ، وقبَّل الأرض. وقال: اجْعَلوني في حلٍّ. وجعل يقبل أَيْديهم وأرجلهُمْ. فلما أعجزهُمْ قالوا: ما رأَينا مثلكَ في الفقراءِ تحتمِلُ منَّا هٰذَا الشَّتْم. فقال: هٰذَا بِبَرَكَاتكُمْ. وأَرْسل إليه الشيخ البوصتي كتاباً يُعاتبه، ويحطُّ مَرْتبته. فقال للرسول اقرأْهُ، فإذا فيه: يا مبتدع، يا كلب، يا جامعاً بيْن النِّسَاءِ والرِّجَال، ونحو ذلكَ. فلمَّا فَرَغَ الرسول من قراءَة الكتاب أخذه سيِّدي أحمد وَقَرَأَهُ، وصار يقول: صدق أخِي فيما يقول وجزاه اللّه عَنِّي خَيْراً. ثم أَنْشَدَ:

فَلَسْتُ أُبَالِي مَنْ رَمَانِي بِرَمْيَةٍ ... إِنْ كُنْتُ عِنْدَ اللَّهِ غَيْرَ مُرِيبِ

وَكَانَ كَثيراً ما يتجلَّى الحق له بالعظمةِ، فيذوب حتى يصير نُقْطة. ثُمَّ يَتَداركه اللطفُ، فيصيرُ يكبَر شيئاً فَشَيئاً، حتَّى يردَّ إلى جِنْسه المعتادِ. ويَقُولُ: لَوْلاَ لُطْف اللَّه تَعَالَى ما رَجعْتُ إِلَيْكُمْ. ولهُ كَلاَمٌ طويلٌ فِي الحَقائق. فَمِنْ كَلاَمِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

«الزُّهْدُ أَسَاسُ الأَحْوَال الْمَرْضية، والْمَرَاتِب السَّنية». وهو أَوَّل قَدَم القاصدين إلى الله عَزَّ وَجَلَّ. والمنقطعينَ إلى اللّهِ. والرَّاضين عنه، والمتوكلين

---

(١) روى نحوه الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب، حديث رقم (٣٥٣٤) ولفظه: «من أكرم ذا شيبة فقد أكرم نوحاً في قومه ومن أكرم نوحاً في قومه فقد أكرم الله».

عليه. فكل مَنْ لم يُحكم أسَاسه في الزُّهْدِ لَمْ يصلح لَهُ شَيْء مِنْ هٰذَا الطريق.

ومن كَلاَمِهِ أيْضاً: «الفُقَرَاء أشْرافُ النَّاسِ؛ لأنَّ الفقر لِبَاسُ الْمُرْسَلِينَ. وجَيْب الصالحينَ، وتَاج المتقينَ، وغنيمة العارفينَ، ومُنية الْمُرِيدين، وَرِضَى رَبّ العالمينَ، وكرامة الأولياء وأَهل وِلاَيَتِهِ». وسأَلَهُ شخص أنْ يَدْعُوَ لَهُ فقالَ: «يَا أَخِي إنَّ عِنْدي الْيَوْم قُوتُ يَوْمِي. ومن كَان عنده قوت يَوْمِهِ، لَمْ يُقْبَلْ له دُعَاءٌ. فإذَا بَلَغَكَ يا أَخِي أنه لَيْس عِنْدِي مَا يَأكُلُه ذُو كَبِدٍ. فَسَلْنِي الدُّعاءَ. فإنَّ لِي حينئذٍ إِسوة برسول الله ﷺ».

وكَان يقول: «لاَ يَصحّ الأُنس باللّٰهِ تَعَالى. إلاَّ لمَن كمُلتْ طهارتهُ، واستوحش مما يشغله عن اللّٰهِ تَعَالَى. فعندَ ذَلِكَ يُؤنسُهُ الله به». وكَان يقول: «الشفقة على الإخوان، ممَّا يُقرّبُ إلى الله تعالى».

وقَالَ لخادِمِه: «يا يَعقوبُ كُنْ ذَنباً وَلاَ تكنْ رأْسَاً. فإنَّ الضَّرْبة أول ما تقع تقع في الرأس. وإيَّاكَ ورؤية نفسكَ على الإخْوَانِ. فإنه لاَ يُقَالُ لَكَ عَشرة، وَلاَ يساعدك أحد. وانظر إلى النخلةِ كلما ارتفعتْ وأشرفَتْ على الجيران، جعل الله ثِقل حملها عَليْهَا وَلَوْ حَملَتْ مَا حَمَلَتْ لا يساعدها أحد. وانظر إلى شجرة اليقطين: «شجرة القرْع» لما ارتفَعَتْ، أَلْقَتْ خَدَّهَا على الأَرْضِ، كيْفَ جَعَلَ الله ثِقْل حمْلِهَا على الأَرْضِ. ولو حَمَلَتْ مَا حَمَلَتْ لاَ تَحُسُّ بِهِ».

وكَانَ يقولُ: «أَفْضَلُ العبَاداتِ الْبَدنية: الصَّدَقة». وكَانَ يَقُولُ: «التَّوحِيد وِجْدَانٌ عَظِيمٌ، والْقَلْبُ يمْنَعُ مِنَ التعطِيل والتشبيه» «وكَانَ يكرَهُ لأَصْحَابِهِ الخَوْفَ فِي الذَّات والصفاتِ». كَان يقول: «إِذَا صَلُحَ الْقَلْبُ صَارَ مَهْبِطَ الْوَحي والأَسْرَار، والأنوار، والملائكة. وَإِذا فَسَدَ صار مَهْبِط الأباطيل والظُّلْم والشياطين». وكَانَ يَقولُ: «إذا صَلُحَ الْقَلْبُ أَخْبَرَكَ عَمَّا وَرَاءَكَ وَأَمَامَكَ. وإذَا فَسَدَ حَدَّثَكَ بِأَبَاطِيلَ، يغيبُ مَعها الرّشدُ، وينتفِي مِنْهَا الْهُدَى».

وكَانَ يَقُولُ: «مِنْ شَرْطِ الْفَقِير أَنْ يَرَى كُلَّ نَفَسٍ مِنْ أَنْفَاسه أَعَزّ من الكِبْريتِ الأَحْمَرِ، فَلاَ يَضَع في كل نَفَسٍ إلا ما يَصْلح لَهُ». وكَان يقول في حديث: «مَنْ تَزَوَّج لِلهِ كَفَى وَوَفَى». مَعْناه أَن يتزَوَّجَ امتثالاً للأمْرِ. لاَ بِحكم الشَّهْوة البهيمية. وكَان يقول: «طَرِيقنا على ثلاثة أشياءَ لاَ يَسْأَلُ، وَلاَ يَرُدُّ، وَلاَ يَدَّخِرُ».

وكانَ يَقُولُ: «سعادة المريد أَنْ يفتخر بِهِ شيخهُ لِشدَّةِ مُجَاهَدتِهِ». وكَان يقولُ: «مَنْ غَضِبَ لنَفْسِهِ تَعِبَ. وَمَنْ سَلَّمَ أَمْرَهُ إلى مؤلاه نصره من غَيْر أَهْل وَلاَ عَشِيرة». وَكَان يقول: «واللّهِ ما كَانَ لِي خيْراً إلاَّ فِي الوَحْدَةِ. فيَا لَيْتَنِي لَمْ أَعْرِفْ أَحَداً، ولم يعرفْنِي أَحَدٌ».

كان يقول: «مِنْ شَرْطِ الْفَقِيرِ أَلاَّ يكُونَ له نَظَرٌ في عيُوبِ النَّاسِ». وكَانَ يَقُولُ: «إِيَّاكُمْ وتعاطِي أَسْبابَ الشُّهْرَةِ، والفرحِ بالمحبِّين والمعتقدينَ». وكَان يقول: «ما مِنْ لَيْلةٍ إلا ينزِل فيها نورٌ مِن السَّمَاءِ يُقذف في قلوب المُسْتيقظين».

وكَانَ يقول لأَصْحَابِهِ: «مَنْ تشيَّخَ عَلَيْكُمْ فَقَدِّمُوهُ ومَنْ قَدَّمَ لَكُمْ يَدَهُ لتقبلُوهَا فَقَبِّلُوا رِجلَهُ». ومعنى تَشَيَّخَ عَلَيْكُم: نَصَّبَ نَفْسَهُ للشَّيْخوخَةِ. وكَانَ يقول: «إذا أَرَادَ اللّهُ أَنْ يُرَقِّي عَبْدَهُ إلى مقامات الرِّجَالِ؛ كَلَّفَهُ بِأَمْرِ نَفْسِهِ أَوَّلاً. فَإِذَا أَدَّبَ نَفْسَهُ واسْتَقَامَتْ معهُ كَلَّفهُ بِأَهْلِهِ. فَإِنْ أَحْسَنَ إِلَيْهِم وَساسَهُمْ كَلَّفه اللّهُ بِأَهْلِ بَلَدِهِ. فَإِنْ أَحْسَنَ إِلَيْهِم وَسَاسَهُمْ، كَلَّفه جِهَةً مِنَ البلادِ فإن هُوَ نصحهم وَسَاسَهُمْ، أَصْلَحَ سَرِيرتَهُ مَعَ اللّهِ، كلفَهُ رُتْبَةَ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْض. فَإِنَّ لِلّهِ خَلْقاً لاَ يَعْلَمُهم إلاَّ اللّهُ. ثم لاَ يَزَالُ يَرْتَفِعُ مِنْ سَمَاءٍ إِلَى سمَاءٍ، حَتَّى يَرْتَفِعَ وَيَصِلَ إلى مَحَلِّ القطب الغوثِ؛ وَهُنَاكَ يُطلعه الله تعالى على غَيْبِهِ، فَلاَ تَنْبُتُ شَجَرَةٌ، وَلاَ تَخْضَرُّ وَرَقَةٌ إلاَّ بِعِلْمِهِ. وهُنَاكَ يتكلم عن اللّهِ بِكَلاَمٍ لاَ تَسعه العُقولُ، وَرُبَّمَا ذَهَبَ بِهِ إِيمَان جَمَاعَةٍ مِنَ المُنْكِرِينَ».

وكَان رضي الله عنه، إذا صَعِدَ الكرْسي، يسْمع كلامه القريب والبعيد، حتى أَهْلِ الْقرى، حَوْل أُمّ عبيدة. ويعرفُونَ جميع ما يتحدَّث بِهِ. مَعَ أَنَّ صَوْتَهُ كَان ضعيفاً. وكَانَ الأَطْرَشُ والأَصَمُّ، إذا حَضَرَا يَفْتَحُ اللّهُ أَسْمَاعَهُمَا لِكَلاَمِهِ.

وَكَانَ مَشَايخ الطَّريق يحضرونَهُ. وكَانَ جُلُّهُمْ يبسُط حُجْرَهُ. فإِذَا فَرِغَ مِنْ وَعْظِهِ، ضَمُّوا حُجُورهم إلى صُدُورِهِم، وقَصُّوا الحديث إذا رَجَعُوا إلى أصحابِهِمْ على حليته. قال خادمه يعقوب: قلْتُ يا سيِّدِي: أَنْتَ الْقُطْبُ. فقال: نَزِّهْ شيخكَ عن القطبَانية، فإِنَّ مَنْ كَانَ فِي حَضْرَةِ اللّهِ لاَ مَقَامَ لَهُ.

وَسُئِلَ مَرَّة كيْفَ كَانَ سُلوكك. فقال: مَرَرْتُ وأنا صَغِيرٌ على الشيخ عبْد الملك الجَرْبُوفي، قال: يا أَحْمَد. اسْمَعْ ما أَقُولُ لَكَ: «مَنِ الْتَفَتَ لا يَصِلُ.

وَمِثْلُهُ لاَ يُفْلِحُ. ولم يعرف من نفسه النقصان. فكل أوقاته نقصانٌ». فخرجت من عنده. وجعلت أكَرِّرُهَا سَنَةً. ثم رجَعْت إليه، فقلت: أوْصِني. فقال: «مَا أَقْبَحَ الْجَهْل بالأولياءِ والعِلَّة بالأطباء، والجفا بالأحبة. ثم خرجت وصرْت أُكَررها سنَةً. فانتفَعْت بكلامه لكوْنه اخْتَصَرَ لِي الطريق» قلت: لم نطلعْ له على شيخٍ لَهُ في طريق التربية غيْر هٰذَا. واللّهُ أعْلَمُ.

وهذا أول القصيدة التي أَرَدْنَا الكلامَ عليها:

يَا مَنْ تَعَاظَمَ حَتَّى رَقَّ مَعْنَاهُ ... وَلاَ تَرَدَّى رِدَاءَ الْكِبْرِ إلاَّ هُو

قُلْتُ: يقول رَضِيَ اللّهُ عَنهُ: يا مَنْ تعاظمَ فِي شدة ظهورِ أنواره، وتجلّيات أسْرَاره، فما زال يظهر للبصائر، ويتجلّى للسرائر، حتى خَفَا مَعْناهُ، ورق عن مدارك العقولِ نور جماله وسَنَاهُ. فما احتجب إلاّ من شدّة ظهوره، وما منَعَ الأبصار أن تدرِكَهُ إلا قهارية نوره. ولله درّ الْقَائِلِ:

لقَدْ ظَهَرَتْ فما تَخْفَى عَلَى أَحَدٍ ... إلاَّ عَلَى أَكْمَه لاَ يُبْصِر الْقَمَرا

لكن بطنتْ بِمَا أَظْهَرَتْ مُحْتجِباً ... وكَيْفَ يُبْصرُ مَنْ بِالْعِزَّةِ اسْتَتَرا

قال آخر:

وَمَا احْتَجَبَتْ إلاَّ بِرَفْعِ حِجَابِهَا ... وَمِنْ عَجَبٍ أَنَّ الظُّهُورَ تَسَتُّرُ

وقول الششتري في هٰذَا الْمَعْنَى:

يَا مَنْ بَدَا ظَاهِراً حِينَ اسْتَتَرْ ... ثُمَّ اخْتَفَى بَاطِناً لَمَّا ظَهَرْ

ظَهَرْتَ لَمْ تَخْفَ عَلَى أَحَد ... وَغِبْتَ لَمْ تَظْهَرْ لِكُلِّ أَحَد

وفي الحِكَم العطائية: «يَا مَنِ احْتَجَبَ فِي سُرَادقاتِ عِزِّهِ عَنْ أَنْ تُدْرِكَهُ الأبصار. وَيَا مَنْ تَجَلّى بِكَمالِ بَهَائِهِ، فتحققتْ عظمته الأسرار، كيْف تخفَى وأنت الظَّاهِر. أَمْ كيْف تغيبُ وأَنْتَ الرّقيبُ الحَاضِر». وقال أيْضاً: إلٰهي: «كيْفَ يُسْتَدلّ عليكَ بِمَا هو فِي وجودِهِ، مفتقر إليك. أيكُون لغَيْرك مِنَ الظُّهور ما ليْسَ لَكَ. حتى يكون هو المُظْهر لَكَ. مَتَى غبْت حتى تحتاج إلى دليلٍ يدلُّ عليكَ. وَمَتَى بعدتْ حتّى تكون الآثار هي التي تُوصل إليك. إلَهي عَمِيَت عيْن لا تراك عليْها رقيباً. وخسرت صَفْقة عَبْدٍ لم تجعَلْ من حبكَ نصيباً». فالعارفُونَ لاَ

يشهدُونَ سِوَى اللّهِ. وَلاَ يَرَوْنَ في الكَوْنيْن إلاَّ إيَّاهُ. قال بَعْضُهُمْ: لَوْ كُلِّفْتُ أَنْ أَرَى غَيْرَهُ لَمْ أَسْتَطِعْ، فَإِنَّهُ لاَ غَيْرَ مَعَهُ، حَتَّى أَشهده.

وقال الشاعِرُ:

مُـذْ عَـرَفْـتُ الإلَـهَ لَـمْ أرَ غَـيْـرَهُ ... وَكَـذَا الْـغَـيْـرُ عِـنْـدَنَـا مَـمْـنُـوعُ

مُذْ تَجَمَّعْتُ مَا خَشيتُ افْتِرَاقاً ... فَـأنَـا الـيَـوْمَ وَاصِـلٌ مَـجْـمُـوعُ

وبالجُمْلَةِ: فاسْمُه الظَّاهر، يقتضي بُطُونَ الأشياءِ، وتلاشيهَا. إذ لاَ ظَاهِرَ مَعَهُ، بِدَلِيلِ الحَصر في قولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾. [الحديد: ٣]

واسْمُه الباطن: يقتضي ظهورَ الأشياء بِهِ، ليتحقَّقُوا من اسمه الباطن بالنسبة إلى ظَاهِرِ حِسِّهَا؛ فَهُو الظَّاهِرُ في حالِ بُطُونِهِ. والْبَاطِن في حالِ ظهورِه. قال في الحِكَم: أَظْهَرَ كُلَّ شَيْءٍ بِأَنه الباطِن، وطوى وجود كُلِّ شَيْءٍ بأنه الظَّاهر. وَلاَ يذوق هٰذَا على الكَمَالِ، إلاَّ مَنْ مَنَّ اللّه عَلَيْهِ بِصُحْبَةِ الرِّجَالِ. ومَن لم يصحب الرِّجَال، بقي خفاشياً. كُلَّمَا اشْتَدَّ النُورُ. انطمسَ بصرهُ. وَهَا هُنَا احتمالٌ آخَرَ أَرَقّ مِنَ الأول وهو أن يقول:

يَا مَنْ تَعَاظَمَ في ظهور أَسْرار ذاتِهِ، وأَنْوار صِفَاتِهِ فِي مَظَاهِرِ تجلياتِهِ. حَتَّى رَقَّتْ ولطُفَتْ مَعَانِي الذَّاتِ في أَنْوَارِ الصفاتِ. فأَنْوَار الصفاتِ أَوَانِي، وأَسْرَار الذَّاتِ مَعَانِي. فَالْمَعَانِي قائمة بالأَوَانِي، والأواني حاصلة للمَعَانِي. فَلاَ قِيَامَ للأَوَانِي، إلاَّ بِالمعاني وَلاَ ظهور للمعاني في مظاهر الأواني. فَمَنْ وَقَفَ مَعَ ظَاهِرِ الأَوَانِي، حُجِبَ عَنْ شُهُود المعاني. وَمَنْ نَفَذَ إلى شُهُود المعاني، غابَ عَنْ شهود حسّ الأواني، ولذلك قَالَ الششتري رَضِيَ اللّهُ تعالى عَنْهُ:

لاَ تَنْظُرْ إلى الأَوَانِي، وَخُضْ بَحْرَ الْمَعَانِي، لَعَلَّكَ تَرَانِي. فَكُلَّمَا تَلَطَّفَتِ الأَوَانِي بِالغَيْبَة عَنْ حِسِّها ظهرتْ معاني الذَّات في أنوار الصفاتِ. وكُلَّمَا تكَثَّفَت الأواني باشتغال القلب بحِسّها الظاهر، حجبَتِ المعاني، ورقَّتْ وخَفِيَتْ. ولذلك قَالَ ابن الفارِضِ في خَمْرِيتِهِ:

وَلُطْفُ الأَوَانِي في الحقيقة تابع لِلُطفِ المعانِي، والمعانِي بِهَا تَسْمُو. ولمَّا سُئِلَ الجُنَيْدُ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ عَنِ التَّوحِيدِ أَنْشَأَ يَقُولُ:

رَقَّ الـزُّجَـاجُ وَرَقَّـتِ الْـخَـمْـرُ   فَـتَـشَـابَـهَـا وَتَـشَـاكَـلَ الأَمْـرُ

وقلتُ في تائيتي الخمرية:

لِـرِقَّةِ خَمْرٍ فِـي الأَوَانِـي تَـلَـطَّـفَـتْ   أَوَانِي مَعَانِي الْخَمْرة فِي أَصْلِ نَشْأَةِ

فَطُوراً تَغِيبُ الْخَمْر فِي جِزْمِ كَأْسِهَا   وَطَوْراً تَغِيبُ الكَأْسُ فِي خَمرة نَشْوَةِ

وَغَيْبُ الأَوَانِي فِي الْمَعَانِي مُحَقَّق   فَنَاءُ الأَوَانِي فِي الْمَعَانِي الْقَدِيمَةِ

وفي الْقرآن الْعَظِيم تَلْويحاتٌ، وإشَارَات إلى هٰذِهِ الْمَعَانِي اللطيفة، والأنْوَار الرَّبانية. كَقَولِهِ تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥]. وكقوله تـعـالـى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ٣] وَكَقَوْلِهِ تَعَالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠] وَكَقَوْلِهِ تَعَالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾. [يونس: ١٠١] قَالَ فِي الحِكَم: «أَمَرَكَ أَنْ تَنْظُرَ مَا فِي الْمُكَونات. وَمَا أَمَرَك أَن تَقِفَ مَعَ ذَوَاتِ المكوّنات: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾. [يونس: ١٠١] فتح لك بَاب الإفهام، ولم يَقلْ: انظروا السماوات. فيدلك على وجود الأجْرام».

وقد حققْنَا هٰذَا المعنى في شرحنا على الحِكَم. فَانْظُرْهُ إنْ شِئْتَ. وفِي الْحَديث الْقدسي ما يُشِيرُ إِلَى هٰذَا المَعْنَى. قال ﷺ: يقول اللّهُ تبارك وتَعَالَى: «يَا عَبْدِي مَرِضتُ فَلَم تَعُدْنِي. فيقول يَا رَبّ كيف أَعُودُكَ وأَنْتَ رَبّ العالمينَ، فيقول الله تبارك وتَعَالَى: لَقَدْ مَرِضَ عَبْدِي فلان فَلَمْ تَعُدْهُ أمَا إنك لَوْ عدته لوجدْتَنِي عِنْدهُ»(١). على مَا فِي بَعْضِ الرِّوَاياتِ. وَلاَ يَفْهم هٰذِهِ الأَسْرَارَ إلاَّ مَنْ خَافَ مَقَامَ الفَنَاء والبقاء. وَتَرَبَّى عَلَى يَدِ شَيْخٍ كَامل مُحَقق. وإِلاَّ فَحَسْبُهُ التسليمُ لِمَا رَمَزوهُ، وأَشَارُوا إِلَيْهِ:

إِنْ لَـمْ تَـرَ الْـهِـلاَلَ فَـسَـلِّـمْ   لأُنَـاسٍ رَأَوْهُ بِـالأَبْـصَـارِ

وَإِيَّاكَ أَنْ تَرْمِيَهُمْ بِمَا رَمَوْهُمْ بِهِ مَنْ لَمْ يعرف مَقَامَهُمْ، وَلَمْ يشربْ مِنْ مشربِهِمْ، كالاتحاد والحلولِ، فإِنَّهُم منزَّهُونَ عَنْهُ. إِذْ لَمْ يَبْقَ للسِّوَى عِنْدَهُمْ

---

(١) رواه مسلم من صحيحه، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه..، حديث (٢٥٦٩) [٤/ ١٩٩٠].

وُجُودٌ. حتَّى يصحَّ الاتحاد والحلول، إلى ذلِكَ أَشَرْتُ فِي تَائيتِي الخمرية، في وصف الخمرة الأزلية بِقَوْلِي:

تَنَزَّهَتْ فِي حُكْمِ الْحُلُولِ فِي وَصْفِهَا فَلَيْسَ لَهَا سِوَى فِي شَكْلِهِ حُلَّتِي

قال في الحِكَم: «يَا عجباً كيْفَ يَظْهَرُ الوجودُ فِي الْعَدَم. أَمْ كَيْفَ يَثْبُت الحديثُ مَعَ مَنْ لَهُ وَصْفُ الْقِدَم». وقال رَجُلٌ بيْن يَدَي الجُنَيْدِ: الْحَمْدُ لِلهِ، ولم يزد رب العالمينَ. فقال له الجُنَيْدُ: كَمِّلْه يا أخي، فقال له الرَّجُلُ: أيُّ قَدْرٍ للأشياء حتى تُذْكر مَعَهُ. فقال الجُنَيْدُ: كَمِّلْه يَا أَخِي. فَإِنَّ الحادثَ إذا قُرِنَ بالْقَدِيم تَلاَشَى الحَادِث وبقي الْقديمُ. انتَهَى وباللّه التوفيق.

وقَوْلُه: وَلاَ تَرَدَّى رِدَاءَ الكِبْرِ إلاَّ هُو. يُشير إلى اختصاصه تعالى بالكِبْرياءِ، وغاية التَعَالِي كما اخْتَصَّ بالعظمة وكَمَال التجلِّي. وكَأَنَّهُ يشير إلى الحديث الْقُدْسي: «يقُولُ اللّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: الْعَظَمَةُ إِزارِي، والكِبْرياء رِدَائِي فَمَنْ نَازَعَنِي فِي وَاحِدَةٍ منْهُمَا قَصَمْتُهُ»[1]. فَالْعَظَمةُ تَرْجع إلى كَمَالِ أنْوَارِ الْمَلَكُوتِ والكِبْرِياء تَرجعُ إلى تعظيم أَسْرار الجبروت؛ لأَنَّ المَلَكوت ظَهَرَتْ أنواره في التجليات؛ وهو ما ظَهَرَ فِي عَالَم الشهادة على وَجْهِ الجَمِيع. والجَبَرُوتُ: مَا لَمْ يظهَر فِي عَالَمِ الشَّهَادَة؛ وهو من عَالَم الْغَيْبِ؛ وهو الَّذِي كَان كَنْزاً لَمْ يُعْرَف. وإليه أشار ابنُ الفَارِضِ بِقَوْلِهِ:

صَفَاءٌ وَلاَ مَاءٌ ولُطْفٌ وَلاَ هَوَى وَنُورٌ وَلاَ نَارٌ وَرُوحٌ وَلاَ جِسْمُ

تَقَدَّمَ كُلَّ الْكَائِنَاتِ حَدِيثُهَا قَدِيماً وَلاَ شَكْلٌ هُنَاكَ وَلاَ رَسْمُ

ولذلك خصّصت العظمة بالإزَارِ؛ لأَنَّ من شَأْنِهِ أَنْ يَكُونَ لِلأَسْفَلِ. والرِدَاء لِلأَعْلَى. وأَنْوَارُ المَلَكوت ظَهَرَت فِي عَالم الشَّهَادَة، وأنوارُ الجَبَروت أَحَاطَتْ بِهَا، وارتَفَعَتْ عن مَدَارِكِ العُقُولِ؛ فهي أَرْفَعُ وأَعْلَى مِنْهَا مَعَ كَوْنِهَا لاَ تَنفَكُّ عَنْهَا، إِذ عَالَمُ الملكوتِ قائم بِأَسرارِ الجبروت. فَمَا احْتَجَبَتْ أَسْرار الجَبَروت إلاَّ بأنْوارِ المَلَكُوتِ. وَلاَ قَامَتْ أَنْوَار المَلَكُوت إلاَّ بِأَسْرَارِ الجَبَرُوتِ؛ وهما في

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه، حديث رقم (٢٦٥٧٨) [٥/٣٢٩] والقضاعي في مسند الشهاب، حديث رقم (١٤٦٤) [٢/٣٣١]، ورواه غيرهما.

الحقيقة شَيْءٌ واحِدٌ؛ وَمَا افْتَرَقا إلاَّ باعْتِبَارِ مَدَارِكِ السَّالِكِينَ:

فَأَوَّلُ مَا يُفْتَح لِلْمُريد عن أَنْوارِ الْمُلْكِ الْحِسِّي، فَإِذَا تَفَكَّرَ فِيهِ واعْتَبَرَ أَدْرَكَ عَظَمَةَ الصَّانِعِ، فَإِذَا تَفَرَّغَ مِنَ الشَّواغِلِ، وتَطَهَّرَتْ مِرْآةُ قَلْبِهِ مِنَ الصَدَأ، أَشْرَقَتْ عَلَيْهِ أَنْوَارُ الْمَلَكُوتِ. فَإِذَا تَمَكَّنَ مِنَ الشُّهُودِ، وبَلَغَتِ الرُّوحُ غَايَةَ الصَّفَاء. أَشْرَقَتْ عليه أَسْرَار الجبروت. فيحجَبُ حينئذٍ عَنْ عَالَمِ الْمُلْكِ والملكوتِ. وصَارَ لاَ يُشاهِدُ إلاَّ أَسْرَار الجَبَرُوتِ. فَرِدَاءُ الكِبْرِياءِ: هو الاحْتِجَابُ لحجابِ الْقَهْرِية عن مَدَارِكِ العُقُولِ مَعَ كَمَال ظهورِهِ. وفي الحديث الصحيح في صِفَةِ أَهْل الجنَّة: «مَا بَيْنَ القوم، وبَيْنَ أَنْ يَنْظُروا إِلى رَبِّهِم، إلا رِدَاءَ الكِبْرِياءِ على وَجْهِهِ في جَنَّاتِ عَدْنٍ»(١). والْمُرَاد بِهِ: إِسْدَال حجابِ الحسِّ والقهرية، على وَجْه مَعَانِي أَسْرَارِ الذَّاتِ الْعَالية. إِذْ لا حِجَابَ بيْن اللّهِ، وبيْن خَلْقِهِ إلاَّ قَهْرية نُورِهِ، وشِدَّةِ ظُهُورِهِ. وتَوَهُّم وجود الْغَيْرِية. ولقد سَمِعْتُ شَيْخَنَا الْبُوزِيْدِي رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ يَقُولُ: «واللّهِ مَا حَجَبَ الخَلْقَ عَنِ اللّهِ إلاَّ الْوَهْم، والْوَهْمُ أَمْرٌ عَدَمِي، لاَ حقيقَةَ لِوُجُودِهِ». أيْ ما حَجَبَهُمْ عَنِ الشُّهُودِ، إلاَّ وُجُود الغَيْرية. وَهِيَ في الحقيقة مُنْتَفية. وفِي الحِكَم: «مَا حَجَبَكَ عَنِ اللّهِ وُجُودُ مَوْجُودٍ معَهُ. إِذْ لاَ شَيْءَ مَعَهُ. وَإِنَّمَا حَجَبَكَ تَوَهُّمُ مَوْجُودٍ مَعَهُ». وقال أيضاً: «الحَقُّ لَيْسَ بِمَحْجُوبٍ عَنْكَ. إِنَّمَا المَحْجُوبُ أَنْتَ عَنِ النَّظَرِ إِلَيْهِ. إِذْ لَوْ حَجَبَهُ شَيْءٌ لَسَتَرَهُ مَا حَجَبَهُ. ولَوْ كَانَ لَهُ سَاتِرٌ، لكان لِوجوده حاصِرٌ. وكل حَاصِر شيْءٍ فَهُوَ له قاهِرٌ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ». قال أَيْضاً: «مِمَّا يَدُلُّكَ على وُجُودِ قَهْرِهِ أَنْ حَجَبَكَ عَنْهُ بِمَا لَيْسَ بِمَوْجُودٍ مَعَهُ».

وقَدْ أَشَرْتُ إِلَى هٰذَا في تائيتي، في وَصْفِ الخَمْرَة الأزلية، فَقُلْتُ:

تجَلَّتْ عَرُوساً فِي مِرَائِي جَمَالِهَا وَأَرْخَتْ سُتُورَ الْكِبْرِيَاءِ لِعِزَّة

وَلاَ يَذُوقُ هٰذِهِ إلاَّ مَنْ كَحَّلَ عَيْنَ بَصِيرَتِهِ بِإِثْمَدِ التَوْحِيد الخاصِّ، حَتَّى

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، باب إثبات رؤية المؤمنين..، حديث رقم (١٨٠) [١/ ١٦٣] والترمذي في سننه، باب ما جاء في صفة غرف الجنة) حديث رقم (٢٥٢٧) [٤/ ٦٧٣] ورواه غيرهما.

تَنْفَتِحَ بَصِيرَتُهُ، فَيُبْصِرَ أَنْوار الْمَعَانِي، خَلْفَ رداءِ الأَوَانِي. وإلاَّ بَقِيَ أَرْمَدَ الْعَيْنِ، كُلَّمَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ انطَمَسَ بَصَرُهُ كَمَا قَالَ الْبُوصِيرِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

قَد تُنْكِرُ الْعَيْنُ ضَوْءَ الشَّمْسِ مِنْ رَمَدٍ   وَيُنْكِرُ الْفَمُ طعْمَ الْمَاءِ مِنْ سَقَمِ

وبالله التوفيق وهو الهادي إلى سوَاءِ الطريق.

ثم قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

تَاهُوا بِحُبِّكَ أَقْوَامٌ وَأَنْتَ لَهُمْ   نِعْمَ الْحَبِيبُ وَإِنْ هَامُوا وَإِنْ تَاهُوا

قُلْتُ: التِيهُ هُنَا: هو التلف، والخروج عن الطريق المعتاد. والحبّ هُوَ المَيْلُ الدَّائِم بِالقَلْبِ الْهَائِم، وأقوام: فاعل تاهوا على لغة أزد شَنُوءَة. وَهَامَ عَلَى وَجْهِهِ: إِذَا صَارَ على غَيْرِ قَصْدٍ. يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّ أقواماً مِنْ خَوَاصِّ المحبّين، لمَّا أطلعهم الله عَلَى أَسْرَارِ عَظَمَةِ ذَاتِهِ، وكَشَفَ لَهُمْ شيئاً مِنْ رِدَاءِ كِبْرِيَائِهِ، تَاهَتْ عُقُولُهُمْ، وَهَامَتْ قُلُوبُهُمْ. وطاشَتْ أَرْوَاحُهُمْ في مَحَبَّتِهِ. ففارَقُوا الأَوْطَانَ والدِّيَارَ، وأَلِفُوا البراري وَالْقِفَارَ. وتَأَنَّسُوا بالحبيبِ، وَاشْتَغَلُوا بِمُنَاجَاةِ القَرِيب. فَهُمْ بَيْنَ سَالِكٍ وَمَجْذُوبٍ، وَمُحِبٌّ ومحبُوبٍ.

فمنهُمُ العُبّاد والزُّهّاد. ومنهم الأَبْدَالُ والأَوْتادُ، عَمَّرُوا قُلُوبهم بمحبَّة المحبُوبِ. وَرَفَضُوا مَا سِوَاهُ مِنْ كُلِّ مَرْغُوبٍ. وهذه مَحَجَّة الطالبينَ، أو السَّائِرِينَ، مِنَ الْمُرِيدِينَ.

وَأَمَا الْوَاصِلونَ إلى الْمَحْبُوبِ مِنَ الْعَارِفِينَ الْمُقَرَّبِينَ، سَكَنَتْ قلُوبُهُمْ. واطمَأَنَّتْ بِمُشَاهَدَةِ الْحَبِيبِ، ومُنَاجَاة القريب؛ فهم يشاهدون الحبيب في مَرَائي تجلياتِهِ، وآثار صِفَاتِهِ، فَلَمْ يحجبْهُمُ الخلق، عَنْ مُشَاهَدَة الحق. بَلْ هم مَحْجُوبُون بالجمْعِ عَنِ الفَرْقِ، وبمُشَاهَدَةِ الحَق، عن رُؤْية الخلقِ. بَلْ، لَوْ كُلِّفُوا أَنْ يشاهِدُوا غَيْرَهُ، لم يستطيعُوا. فَهَؤلاءِ يَرُدُّهُمُ الحق تعالى إلى مُرَافَقَةِ الخَلْقِ ومخالطتهم ليقع الانتفاع بِصُحْبتهم. فَهُمْ مُسْتَأْنِسُونَ بالحَقِّ في حَالِ مُخَالطتهم لِلْخَلْقِ؛ لأَنَّهُمْ عَرَفُوا اللَّهَ فِي كُلِّ شَيْءٍ، فَلَمْ يَسْتَوْحِشُوا مِنْ شَيْءٍ.

أَشْبَاهُهُمْ بيْن الْخَلائِقِ تَسْعَى، وَأَرْوَاحُهُمْ فِي أَنْوَارِ الملكُوتِ تَرْعَى، وإلى حَالِ الْفَرِيقَيْنِ أَشَارَ فِي الحِكَم بِقَوْلِهِ: «إِنَّما اسْتوحش العبّادُ والزُّهاد مِنْ كُلِّ شَيْءٍ لِغَيْبَتِهم عَنِ اللَّهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ. وَلَو عَرَفُوا اللَّهَ فِي كُلِّ شَيْءٍ مَا اسْتَوْحَشُوا من

شَيْءٍ». وقال أَيْضاً: «مَنْ عَرَفَ اللَّه رآهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ. وَمَنْ فَنَى بِهِ غابَ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ. وَمَن أَحَبَّهُ آثَرَهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ».

والحاصل: أَنَّ المَحَبَّةَ لَهَا بِدَايَات؛ وهي ما ذَكَرَه الشيخ في حالِ التَّائِهِينَ والْهَائِمِينَ. وَنِهَايَاتٌ: وهي السُّكُون والطُّمَأْنِينة فِي حَضْرَةِ الْمحبُوبِ. ولذلِكَ قال بَعْضُهُمْ: المَحَبَّة: أَوَّلُهَا جُنون، وَوَسَطُها فنُونٌ، وآخِرها سُكُونٌ وإلى هٰذَا المَعْنَى، أَشارَتْ رابعة العدوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا:

أُحِبُّكَ حُبَّينِ حُبُّ الْهَوَى وَحُبٌّ أَنْتَ[1] أَهْلٌ لِذاكَ
فَأَمَّا الَّذِي هُوَ حُبُّ الْهَوَى فَشُغْلِي بِذِكْرِكَ حَتَّى أَلْقَاكَ
وَأَمَّا الَّذِي أَنْتَ أَهْلٌ لَهُ فَكَشْفُكَ الحِجَابَ حَتَّى أَرَاكَ

أَشَارَتْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا إِلى ذِكْرِ المَقَامَيْنِ: بِدَايَةً وَنِهَايَةً أَوْ نقولُ: محبَّة المحبّينَ ومَحَبَّة المحْبُوبينَ. أو نقول: محبَّة السَّائرينَ، ومحبَّة الواصلينَ. وإنها سلكَتِ الأَمْرَيْنِ مَعاً. فَحُبُّ الْهَوَى هُوَ حُبُّ الْعِشْقِ والتَّمَلُّقِ مِنْ وَرَاءِ الحجاب. وَعلاَمَتُهُ: اللَّهَجُ بِذِكرِ المحبُوبِ، والاشتغال بِخِدْمَتِهِ، والفرار من الخلق للقاءِ الحقِّ. وأمَّا حُبُّ الوَاصِلِينَ، فَثَمَرَتهُ كَشْفُ الحِجَاب. والدّخُولُ مَعَ الأَحْبَابِ، ومُشَاهَدَة الحبيبِ فِي كُلِّ شَيْءٍ من تجلِّيَاتِهِ. كَمَا قال صَاحِبُ العَيْنِية:[2]

تَجَلَّى حَبِيبِي فِي مِرَائِي جَمَالِهِ فَفِي كُلِّ مرأىً لِلْحَبِيبِ طَلائِعُ
فَلَمَّا تَبَدَّى حُسْنُهُ مُتَنَوِّعاً تَسَمَّى بِأَسْمَاءٍ فَهِيَ مَطَالِعُ

وَعلاَمَة صاحب هذا المقام، سكون ظاهره من تَعَبِ الخِدْمَةِ. وعِمَارة قَلْبِهِ بنورِ الكِبْرِيَاءِ والْعَظَمَةِ أو تقول: علامتُهُ: سُكون الْقَلْبِ وَطُمَأْنِينَتُهُ عِنْدَ هَيَجَانِ رِيَاحِ الأَقْدَارِ وَوُرُود التَّعْرِيفات مِنَ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: عَلاَمَةُ المَحَبَّة أَرْبَعَةُ أَشْيَاءَ:

الإِكْثارُ مِنْ ذِكْرِهِ، وامتثال أَمْرِهِ واجتناب نَهْيِهِ وَالاسْتِسْلاَمُ لِقَهْرِهِ.

---

(١) وفي نسخة [لأنك] بدل [أنت].

(٢) هو الشيخ عبد الكريم الجيلي المتوفي سنة ٨٠٥ هجرية.

وَاعْلَمْ أَنَّ الباعِثَ عَلَى المَحَبَّةِ أَمْرَانِ: إمَّا الذَّاتِي، أو الإِحْسَان الْفِعْلِي. وقد اجْتَمَعَا فِي ذَاتِ الحقِّ تَعالى. وَأَمَّا الجَمَالُ، فَلاَ أَجْمَلَ مِنْ جَمَالِهِ تَعَالَى وَلاَ أَعْظَمَ إذْ جَمَالُهُ يُسْبِي الْعُقُولَ وَيُذْهِشُ الأَلْبَابَ. وَقَدْ وَرَدَ أَهْلَ الجنَّة إِذَا تَجَلَّى لَهُمُ الحقُّ سُبْحَانَهُ. ذُهِلُوا وَغَابُوا عَمَّا كَانُوا فيه مِنَ النَّعِيم الحِسِّي، فَلَوْلاَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَرُدُّهُمْ إِلَى حِسِّهِمْ بِإِسْدَالِ الحِجَابِ فيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُم ما تَنَعَّمُوا بِشَيْءٍ مِنَ النَّعِيمِ الحسِّي. وَمَا ظَهَرَ فِي عالم الشهادة مِنَ الجَمَالِ. فَإِنَّمَا هو رشحَة من رشحَاتِ جَمَالِهِ الأَصْلِي. كَمَا قال ابن الْفَارِضِ:

عَيْنِي لِغَيْرِ جَمَالِكُمْ لاَ تَنْظُرُ ... وَسِوَاكُمْ فِي خَاطِرِي لاَ يَخْطُرُ

وَبِقَدْرِ مَا تَصْفُو الرّوحُ مِن غَبَشِ الحِسّ، وتترقَّى إِلَى عَالَمِ المَلَكُوتِ، يُكْشَفُ لَهَا عَنْ جَمَالِ الْحَضْرَةِ. وتتنَعَّمُ بِجَمَالِ الحبيب. وبقدْرِ مَا تَتَعَلَّقُ بهذا الْعَالَم الحِسِّي وَيُكْثِرُ شُغْلها بِهِ، تحجبُ مِنْ شهُود جَمَالِ الحَضْرَةِ. ولذلك قال بَعْضهُمْ: حَضْرَةُ القُدُّوسِ مُحَرَّمَةٌ عَلَى أَهْلِ النُّفُوسِ. وقال الشاعِرُ:

أَيُّهَا الْعَاشِقُ مَعْنَى حُبِّنَا ... مَهْرُنَا غَالٍ لِمَنْ يَخْطُبُنَا
جَسَدٌ مُضْنَى وَرُوحٌ فِي الْعَنَا ... وجُفُونٌ لاَ تَذُوقُ الْوَسَنَا
وَفُؤَادٌ لَيْسَ فِيهِ غَيْرُنَا ... وَإِذَا مَا شِئْتَ أَدِّ الثَّمَنَا
وَافْنَ إِنْ شِئْتَ فَنَاءً سَرْمَداً ... فَالْفَنَا يُدْنِي إِلَى ذَاكَ الْفِنَا
وَاخْلَعِ النَّعْلَيْنِ إِنْ جِئْتَ إِلَى ... ذَلِكَ الْحَيِّ فَفِيهِ قُدْسُنَا
وَعَنِ الْكَوْنَيْنِ كُنْ مُنْخَلِعاً ... وَأَزِلْ مَا بَيْنَنَا مِنْ بَيْنِنَا
وَإِذَا قِيلَ لِمَنْ تَهْوَى فَقُلْ ... أَنَا مَنْ أَهْوَى وَمَنْ أَهْوَى أَنَا

وَأَمَّا الباعث الثاني: وهو الإحسَانُ، فَلاَ شَكَّ أَنَّ النَّفْسَ تميلُ إلى مَنْ أَحْسَن إِلَيْهَا. وَلاَ إِحْسَانَ إِلاَّ مِنْهُ تَعَالَى. وَلاَ نِعَم ظاهِرَة وبَاطنة إلاَّ مِنْ فَضْله تَعَالَى وَثوابه. قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾. [النحل: ٥٣] وقال تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾. [لقمان: ٢٠] أَنْعَمَ أَوَّلاً بِنِعْمَةِ الإِيجَادِ، وَأَنْعَمَ ثَانِيَةً بِتَوَالِي الإِمْدَادِ. وأَفْضَل النِّعَم وَأَعْظَمَهَا الْهِدَايَة إلى الإيمان والإِسْلاَمِ. والْوُصول إلى معرفته تعالى والاطلاع إلى جَلاَلِهِ وجمالِهِ، فهذه

النِّعمة المعْتبرة عند الأكْيَاس.

وَأَمَّا النِّعَمُ الحسية فقد اشتركَ فيها الْبَهَائِمُ وسَائر النَّاس وَباللَّهِ التوفيق.

وقوله: «وَأَنْتَ لَهُمْ نِعَمَ الحبيبُ»، يعْني أَنَّ أقواماً تَاهُوا فِي حُبِّ الحبِيبِ. وَطَاشَتْ عُقُولُهُمْ بقرْبِ الْقَرِيب. وَخَرَّبُوا ظَوَاهِرَهُمْ، وعَمَّرُوا بَوَاطِنَهُمْ. وَغَابُوا عَنِ الأَسْبَابِ بمشاهدة مُسَبِّبِ الأَسْبَابِ. كانَ الحق تعالى نِعمَ الحبيبُ، والمُؤنِسُ. أَنَسَهُمْ فِي بَوَاطِنِهِمْ. وَقَدمَ لَهُمْ بِمَا يحتاجُونَ إِلَيْهِ فِي ظَوَاهِرِهِم. قَامُوا بِخِدْمَتِهِ. وقَامَ لَهُمْ بِإِيصَالِ قِسْمتِهِ. مَنِ انْقَطَعَ إِلَى اللَّهِ كَفَاهُ اللَّهُ مؤونَتَهُ، وَرَزَقَهُ مِنْ حيْث لاَ يَحْتَسِبُ. كما قال عليه الصَّلاَةُ والسلامُ. وَقَالَ تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢] وقال بَعْضُهُمْ: «العِلْمُ كُلُّهُ مَجْمُوع فِي كَلِمَتَيْنِ: لاَ تَتَكَلَّفْ بِمَا كُفِيتَ. وَلاَ تضيّع مَا اسْتكْفَيْتَ». أَيْ لاَ تَتكَلَّف مَا كُفِيتَ أَمْرَه مِنَ الرِّزْقِ الْمَقْسُومِ، وَلاَ تُضَيِّعُ مَا اسْتَكْفَيْتَ الفَرْض المحتوم.

وقَوْلُهُ: «وَإِنْ هَامُوا وَإِنْ تَاهُوا» نُشِير إلى مَنْطُوقِهِ ومَفْهُومِهِ إِلَى حَالِ الْفَرِيقَيْنِ. أَعْنِي حَال أَهْل البِدَاية؛ وهُمُ الْهَائِمُونَ التَّائِهُونَ؛ ويُسَمَّوْنَ أَهْل السُّكْرِ، وأَهل الخَمْرَةِ؛ وَهُمُ المجذوبُونَ. وَحَال النِّهَايَة: وهُمُ السَّالِكُونَ المُطمَئِنُونَ: وَهُمْ أَهْلُ الصَّحْوِ السَّالِكُونَ بعد السُّكْر الجَذْب. فَأَخْبَرَ أَنَّ الحقَّ تعالى هُوَ حَبِيبٌ. ونعم الحبيبُ لِلْجَمِيع. أي وَأَنْتَ لَهم نِعَمَ الحبيبُ هٰذَا إِنْ سَكَنُوا وَاطْمَأَنُوا. بَلْ وَإِنْ هَامُوا، وَإِنْ تَاهُوا. وَلاَ شَكَّ أَنَّ مَا قَبْلَ المُبَالَغَة أَوكَدُ وَأَعْظَمُ مِمَّا بَعْدَهَا. كما هُوَ مَفْهُومٌ مِن تَرَاكِيبِ الْعَرَبِ. تقولُ: أَكْرِمْ زَيْداً وإِنْ جَاءَ عَاصِياً. أي هٰذَا إِنْ جَاءَ طَائِعاً، بَلْ وَإِنْ جَاءَ عَاصِياً. وَلاَ شَكَّ أَنَّ المُطْمَئِنِينَ الرَّاسِخِينَ أَعْظم عند الله مِنَ العاشقينَ التَّائِهِينَ: لأَنَّ الأولينَ واصِلُونَ. والآخِرين سَائِرونَ. واللّٰه أَعْلَمُ.

واعْلَمْ أَنَّ المخصصينَ بالمحبّة على ثلاثة أَقْسَامٍ:

قِسْمٌ سالكُونَ فقط. وَقِسْمٌ مَجذوبونَ فقط. وقِسْم سالكون مَجْذُوبُونَ: الجَذْبُ فِي بَوَاطِنِهِمْ، والسلوكُ فِي ظَوَاهِرِهِم. فالأَوَّلُونَ لا يصلحون للتَّرْبِية. إِذ لاَ جَذْبَ في قُلُوبِهِمْ يَجْذِبُونَ بِهِ قَلْبَ المُرِيد إلى الحَضْرَةِ. وَلاَ هِمَّةَ عِنْدَهُمْ

تنْهَضُ إلى الخِدْمَةِ. قال فِي الحِكَمِ: «لاَ تَصْحَبْ مَنْ لاَ يَنْهَضكَ حَالُهُ، وَلاَ يَدُلُّكَ عَلى اللَّهِ مَقَالُهُ».

والقسم الثاني أيضاً، لاَ يَصْلحُ للتَّرْبية؛ لأَنَّهُ مَطْمُوسُ الأَثَرِ غَرِيق الأَنْوَارِ. غَلَبَ سُكْرُه على صَحْوِهِ. فَلاَ يَعْرِف سُلُوك الطَّرِيق لِغَلَبَةِ سُكْرِهِ.

وَأَمَّا الثالث؛ وهو الجامع بيْن جَذْبٍ وَسُلُوكٍ؛ فهو الَّذِي يصلح للتَّرْبيَة لِكَمَالِهِ. لِكَوْنِهِ سَلَكَ الطَّرِيق. وَعَرَفَ وَعْرَهَا وَسَهْلَهَا وَجذبهَا وَخَصْبَهَا. سَلَكَ طريقَ الجَذْبِ، وَذَاقَ أَسْرَارَهَا، ثُمَّ رَجَعَ إلى طَرِيقِ السُّلُوكِ، وَحَقَّقَ آثَارَهَا. الجَذْبُ فِي باطنِهِ لاَ يَزُول. والسلوك في ظَاهِرِهِ لاَ يَحول؛ فَهُوَ جَامِعٌ بَيْنَ جَذْبٍ وَسُلُوكٍ. معتدل فِي أُمُورِهِ كُلِّهَا. لَمْ يَغْلِبْ سُكْره على صَحْوِهِ. وَلاَ صَحْوُه على سُكْرِهِ. وَلاَ جَمْعُه على فَرْقِهِ. وَلاَ فَرْقه على جَمْعِهِ. وَلاَ حَقِيقَتُه عَلَى شَرِيعتِه. وَلاَ شَرِيعَتُهُ عَلَى حقيقتِهِ. يُعْطِي كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ. وَيُوفِي كُلَّ ذِي قِسْطٍ قِسْطَهُ. نَفَعَنَا اللَّهُ بِبَرَكَاتِهِ. وَأَفَاضَ عَلَيْنَا مِن سره.

وقد أدركنَاهُمْ والحمْدُ لِلَّهِ، وشهدنَاهم، وأَخَذْنَا عَنْهُمْ وَصَحِبْنَاهُمْ. فلله المِنَّة والفَضل والعجب كل العَجب، مَنْ يُنْكِرْ وُجودهُمْ وَيَسُدُّ بَابَ الرَّحمة على عِبَادِ اللَّهِ. ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾. [الحج: ٤٦] ولِلَّهِ دَرُّ القَائِلِ:

وَكَمْ عَائِدٍ لَيْلاً وَلَمْ يَرَ وَجْهَهَا فَقَالَ لَهُ الْحِرْمَانُ حَسْبُكَ مَا فَاتَ

وحقيقة الجَذْب: هُوَ شُهُود حَقٍّ بِلاَ خَلْقٍ، وَحَقِيقة السُّلوك المَحْض: هو شُهُود خَلْقٍ بِلاَ حَقٍّ. وَحقيقة السُّلُوكِ بَعْدَ الْجَذْبِ: هُوَ شُهُودُ خَلْقٍ بِحَقٍّ أَوْ شهود حَقٍّ مَعَ خَلْق. وَلاَ يَذُوق هٰذِهِ المعاني إِلاَّ مَنْ سَلَكَ الطَّرِيق على أَيْدِي الرِّجَال؛ ذَوْقاً وَكَشفاً، وإِلاَّ فَشَأْنُهُ الإِيمَان بالْغَيْبِ. وبِاللَّهِ التَّوْفِيق.

وَقَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

وَلِي حَبِيبٌ عَزِيزٌ لاَ أَبُوحُ بِهِ أَخْشَى فَضِيحَةَ وَجْهِي يَوْمَ أَلْقَاهُ

الحبيبُ هُوَ المحبوبُ. إِلاَّ أَنَّ فَعيل، أَبْلَغ من مَفْعُولٍ والعَزيز: يُطلَقُ على القليل الْوُجودِ الَّذِي لاَ نَظِيرَ لَهُ. ويُطلَقُ على الْغَالِبِ الْقَاهِرِ. ولعلَّ المراد هُنَا غير هذين. وإِنَّمَا أَرَاد بالعَزيز هُنَا البَالِغ فِي المعزّة والْمحبُوبية؛ كما تقول

العامّة: فُلاَنٌ عِندِي حَبيب عَزِيزٌ قَدْ بَلَغَتْ مَحبَّته فِي قَلْبِي الغَايَةَ القُصْوَى. فَلَمَّا عشقته وأَحْبَبْتُه، أَطْلَعَنِي عَلَى مَكْنُونِ سِرِّهِ، وَكَشَفَ لِي عَنْ أَسْتَارِ غَيْبِهِ. فَلاَ أَبُوح بِسِرِّه. وَلاَ أُطْلِعُ أَحَداً عَلَيْه مِنْ غَيْرِ أَهْلِهِ، فإِنَّنِي إِنْ بُحْتُ بِسِرِّهِ، وَكَشفته لغَيْرِ أَهْلِهِ. أَخَافُ أَن يفضحني يَوْمَ لِقَائِهِ: فيقول: يا عَبْدي، قَدْ أَطْلَعْتُكَ عَلى سِرِّي، وَأَمَّنْتُكَ عَلَى غَيْبِي، ثُمَّ أَفْشَيْتَهُ لِغَيْرِي فاليوم أَحرمك من نَعِيم حَضْرَتِي، لكَوْنكَ لَمْ تَكْتَفِ بِعِلْمِي. وَلَمْ تَصُنْ سِرِّي. قُلْتُ: والغَالِبُ أَنَّ هٰذَا الْعِتَابَ يَقَعُ قبل اللِّقَاءِ فِي دَارِ الدُّنْيَا. فَإِنَّ كُلَّ مَنْ أَفْشَى سِرَّ الرُّبوبية، سَلَّط اللّٰهُ عَلَيْهِ سَيْفَ الشَّرِيعَةِ. فَيُبَاحُ دَمُهُ، وَيُهْتَكُ عِرْضُهُ. كما وَقَعَ لِلْحَلاَّجِ وغَيْرِهِ وفِي ذٰلِكَ يقول الشَّاعِرُ:

مَنْ شَهِدَ الْحَقِيقَةَ فَلْيَصُنْهَا ... وَإِلاَّ سَوْفَ يُقْتَلُ بِالسِّنَانِ
كَحَلاَّجِ الْمَحَبَّةِ إِذْ تَبَدَّتْ ... لَهُ شَمْسُ الْحَقِيقَةِ بِالتَّدَانِي
بِالسِّرِّ إِنْ بَاحُوا تُبَاحُ دِمَاؤهُمْ ... وَكَذَا دِمَاءُ الْبَائِحِينَ تُبَاحُ
وَفِي السِّرِّ أَسْرَارٌ دِقَاقٌ لَطِيفَةٌ ... تُرَاقُ دِمَانَا جَهْرَةً لَوْ بِهَا بُحْنَا

قال بَعْضُ الصالحينَ: رَأَيت رَبَّ العِزَّةِ فِي النَّوم، فقُلْتُ: يا رَبِّ. كيْف سَلَّطتَّ عِبَادَكَ عَلَى وَلِيِّك الحلاج حَتَّى قَتَلُوهُ؟ فقال: «يَا عَبْدِي إِنِّي أَطْلَعْتُهُ عَلَى سِرٍّ مِنْ أَسْرَارِي فَأَفْشَاهُ لِغَيْرِي. فَسَلَّطتُّ عليه عِبَادِي فَقَتَلُوهُ» انتهى بالمَعْنَى.

ومِن كَلاَمِهِ الذي قُتِلَ بِسَبَبِهِ: «أَنا أَنْتَ بِلاَ شَكٍّ، فَسُبْحَانَكَ سُبْحَانِي. فَتَوحيدكَ توحيدي وعِصْيَانُكَ عِصْيَانِي». وَكَقَوْلِهِ رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ:

«سُبْحَانَ مَنْ أَظْهَرَ نَاسُوتَهُ ... سِرَّ سَنَا لاَهُوتِهِ الثَّاقِب.
ثم بدا فِي خلقه ... ظاهراً فِي سورة الآكِلِ والشَّارِبِ
حتَّى لقد عاينه خلقه ... كلحظة الحاجب بالحاجب

وَلَمَّا تَقَدَّمَ لهُ السَّيَّاف، لِيَضْرِبَ عُنُقَهُ. وَجَده يقول ويَضْحَكُ:

نَدِيمِي غَيْرُ مَنْسُوبٍ إِلَى الْحَيْفِ ... سَقَانِي مِنْ شَرَابِ الْحُبِّ كَسَقْيِ الضَّيْفِ لِلضَّيْفِ
فَلَمَّا دَارَتِ الأَكْوَاسُ دَعَا بِالنِّطعِ وَالسَّيْفِ ... كَذَاكَ مَنْ يَشْرَبُ الرَّاحَ مَعَ الأَمِيرِ فِي الصَّيْفِ

ثم قَالَ:

اللَّهُمَّ إِنَّكَ مُتَوَدِّدٌ لِمَنْ يُؤْذِيكَ. فَكَيْفَ لاَ تَتَودَّد لِمَنْ يُؤذَى فِيكَ. فَهَا أَنَا

فِي دَارِ الْعَجَائِبِ أَتَعَجَّبُ فِي الْغَرَائِبِ. ثم قَالَ:

يَا لاَئِمِ فِي هَوَاهُ كَمْ تَلُوم فَلَوْ عَايَنْتَ مِنْهُ الَّذِي عَايَنْتَ لَمْ تَلُمِ
لِلنَّاسِ حَجٌّ ولِي حجّ إلى سَكَنِي تُهْدَى الأَضَاحِي وَأُهْدِي مُهْجَتِي وَدَمِ
يَطُوفُ بِالْبَيْتِ قَوْمٌ بِلاَ جَارِحَةٍ بِاللّهِ طَافُوا فَأَغْنَاهُمْ عَنِ الْحَرَمِ

قال له الشبلِي: يا أَبَا المغيثُ: ما مَعْنَى التَّفرُّد؟ فقال له: هو أن ينفرد الْعَبْد بِالواحِدِ الْفَرْدِ. فإِذَا رآه الحقّ قَدِ انفرد عَن الْخَلْقِ أَمَّنَهُ مِنْ عَذَابِ الطَّرْدِ. فيصير للحقّ مشاهداً، والحق على لسَانِهِ شاهِداً. فحينئذٍ يتخلَّفُ لمَقَامِ الْمَعْرِفَةِ. ويوحي إلى خَاطِرِهِ ويَحْرس سره مِمَّا سِوَاهُ. فَلا يَرْشَحُ فيه غَيْر الحق من حضْرَة الحق بالحق. قال الشبلِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقلْت له: ما المَعْرِفَة؟ قال: اسْتِهْلاَكُ الحسِّ في المَعْنَى. فَقُلْتُ له: ما المَحبَّةُ؟ قَالَ: الْغَيْبَة عَمَّا سِوَى المحبُوب. فَقُلْتُ لَهُ: مَا الْوُجود؟ فقال: لَهِيبٌ يَنْشأُ مِنَ الشَّوْقِ فِي الأَسْرَارِ. تضطَرب بِهِ الْجَوَارِحُ ثم يَزُولُ؛ لأنَّهُ مَقْرُونٌ بالزَّوَالِ، وتبقى نَتيجَتُهُ الْعِرْفَانية لاَ تَحُولُ وَلاَ تَزُولُ. فقُلْتُ لَهُ مَا الأُنْسُ؟ فَقَالَ: وُجودُ الْهَيْبَة مَعَ ارْتِفَاع الخَشْية وَغَلَبَة الرَّجا على الْخَوْفِ. ثم قال يَا شَبْلِي: «مَنْ رَاقَبَ اللَّهَ عِنْدَ خَطَرَاتِ قَلْبِهِ، عَصَمَهُ عِنْدَ حَرَكَاتِ جَوَارِحِهِ». ثم قال يا شبلِي: أَلَسْتَ تَحْفَظُ كِتَابَ اللَّهِ. فقال الشبلِي نَعَمْ. فَقَالَ: «قَدْ قَالَ لِنَبِيِّه عليه الصلاة والسَّلاَمُ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧] يَا شَبْلِي: إِذَا رَمَى اللَّهُ قَلْبَ عَبْدِهِ بِحَبَّةٍ مِنْ حُبِّهِ نَادَى عَلَيْهِ مَدَى الأَزْمَانِ، بِلِسَانِ الْعِتَابِ». وأَيْضاً: «مَنْ أَفْشَى سِرَّ الْمَلِكِ كَانَ خَائِناً وَمَنْ كَانَ خَائِناً لاَ يُؤْمَنُ عَلَى السِّرِّ، فَهُوَ حَقِيق أَنْ يُنْزَعَ مِنْهُ إِنْ أَفْشَاهُ لِغَيْرِ أَهْلِهِ. وإِنَّمَا يُؤْمَنُ على السِّرِّ أَهْل الثِّقَةِ والصِّيَانَةِ». كما قال الْقَائِل:

لاَ يَكْتُمُ السِّرَّ إِلاَّ ذُو ثِقَةٍ فَالسِّرُّ عِنْدَ خِيَارِ النَّاسِ مَكْتُومُ

وقَالَ آخر:

سَأَكْتُمُ عِلْمِي عَنْ ذوِي الْجَهْلِ طَاقَتِي وَلاَ أَنْثُرُ الدُّرَّ النَّفِيسَ عَلَى الْبَهْمِ
فَإِنْ قَدَّرَ اللَّهُ الْكَرِيمُ بِلُطْفِهِ وَلاَقِيتُ أَهْلاً لِلْعُلُومِ وَلِلْحُكْمِ
بَذَلْتُ عُلُومِي وَاسْتَفَدتُ عُلُومَهُمْ وَإِلاَّ فَمَخْزُونٌ لَدَيَّ وَمُكْتَتِمُ

وَقَال سيِّدنا علي كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ: «حَدِّثُوا النَّاس بِقَدْرِ مَا يَفْهَمُونَ أَتُرِيدُونَ أَنْ

يُكَذَّبَ اللّٰهُ وَرَسُولُهُ». وقال رسول الله ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أُخَاطِبَ النَّاسَ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ»(١). وقال رجل لبعض العلماءِ، وقد سألهُ وَلَمْ يُجِبْهُ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ رسول الله ﷺ قال: «مَنْ كَتَمَ عِلْماً أَلْجَمَهُ اللّٰهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنَ النَّارِ». فَقَال له الْعَالِمُ: «اتْرُكِ اللِّجَام وَاذْهَبْ. فَإِنْ مَنْ جَاءَ يَسْتَحِقُّه وَكَتَمْتُه فَأَلْجِمْنِي». وقولُنَا لغَيْرِ أَهْلِهِ. وَأَمَّا مَنْ كَانَ أَهْلاً لَهُ، فَلاَ بَأْسَ بِاطِّلاعِهِ عَلَيْهِ؛ وهُوَ مَنْ بَذَل نفسَهُ وفلْسَهُ، وزهد في جنسه. وحَطَّ رأسَهُ لأَقْدَام الرِّجَالِ. كما قال سيدي عبد الوارث الْيَلْهُوتِي رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ: بَذْل النفوس، وحط الرؤوس، وصفَاء الكُؤُوس. لاَ إِلَه إِلاَّ اللّٰهُ. وقال الشَّاعِرُ:

يَا مَنْ يَلُومُ خَمْرَ المحبَّهْ ... فَخُذُوا عَنِّي هِي حَلاَلْ
وَمَنْ يُرِد يُسْقَى مِنْهَا غِبّاً ... خَدّه يضع لأَقْدَام الرِّجَالْ
رَأْسِي حَطَطتُ بِكُلّ شيْبَاهُمْ ... الْمَوَالِي سَقَوْنِي زُلاَلْ

فكُلُّ مَنْ لَمْ يحط رأسهُ لأَهْلِ السِّر، وَلَمْ يَتَحكَّمْ لَهُمْ، فَاطِّلاَعُهُ عَلَى سِرّ الرُّبُوبية حَرَامٌ. والْمُرَاد بِسِرّ الرُّبُوبية: التوحيد الخاصّ: الذي هو الشهود والعيانُ المخْصُوص بِأَهْلِ الْعِرْفَانِ رَضِيَ اللّٰهُ عَنهُم، ونَفَعَنا بِهِمْ. وَهُو الَّذِي أَرَاد النَّاظم بقولِهِ: لاَ أَبُوحُ بِهِ. أَيْ لاَ أَبُوحُ بِسِرّه وَلاَ أُطلِعُ عليه أحداً غَيْرَ أَهْلِهِ. واللّٰهُ تَعَالَى أَعْلَم.

ثُمَّ قالَ رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ:

أُغَالِطُ النَّاسَ طُرّاً فِي مَحَبَّتِهِ ... وَلَيْسَ يَعْلَمُ مَا فِي الْقَلْبِ إِلاَّ هُو

الْمُغَالطَةُ: إِظْهَارُ الْغَلطِ، وإِيقاع الْغَيْرِ فِيهِ، مَع إِخْفَاءِ الصَّوَابِ. وتسمَّى عندَ الصوفية التلْبيس. كَإِظْهَار الرَّغْبَةِ وَإِخْفَاءِ الزُّهْدِ. وإِخْفَاءِ المحبّة وإِظْهَارِ السُّلْوَان، يَفْعَلُونَ ذَلِكَ صِيَانَةً لِلسِّرّ. وتحقيقاً لِمَقَامِ الأَخْلاَقِ. ومِنْهُ تَخْرِيبُ الظَّاهر، وتَعْمير الباطِنِ، إلى غَيْر ذَلِكَ مِنْ أَحْوَال الصوفية رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُم.

والمحبَّةُ: أَخْذ جمال الْمحبوبِ، بِمَحَبَّةِ الْقَلْبِ. حتَّى لاَ يُمْكنه الالْتِفات إِلَى غَيْرِهِ، وَلاَ العمل بما فيه رضاه، إِيثَاراً لهُ عمَّا سِوَاهُ، يقول رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ: إِنَّنِي أُغَالِط النَّاس جميعاً في مَحبَّة الْمَحْبُوبِ. فَأُظْهِر لَهُمْ السّلوانَ عَنْهُ،

(١) أورد نحوه العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (٥٩٢) [١/ ٢٢٥].

والاشتغال بِغَيْرِهِ. وَأُخْفِيَ عَنهم الاسْتغراق فِي شُهُودِهِ، ودوام ذِكْرِهِ. اكتفَاءً بِعلْمِهِ. وغَيْرةً عَلَى سِرِّه. أَنْ يَظْهَرَ لِغَيْرِ أَهْلِهِ. وأَظْهِرُ لَهُمُ الْجَهْل، وَأُخْفِي عَنْهُم الْعِلْمَ، والمَعْرِفة لَهُ، وأُظْهِر لَهُم الرَّغْبة فِي الدُّنْيَا، وأُخْفِي عَنْهُم الزُّهْد فيهَا. وأُظْهِر لَهُم الحُمْق والسَّفَه. وَأُخْفِي عنهم العقل والسكينة. وأُظْهِر لهم مخالطة أَهْل الدنْيا، وَأُخْفِي عَنْهُمُ الْعُزلَةَ فِي قَلْبِي. فَالْقَلْبُ مَعَ الحقِّ. والجِسْمُ مَعَ الْخَلْقِ. وَأُظْهِرُ لَهُمْ مَحبّة الْمُلوكِ ومخالطتهم. وَأُخْفِي عنهم الْغَيْبة عَنْهُمْ بِشُهُود مَلِكِ المُلُوكِ. وَفِي هٰذَا الْمَعْنَى قال الجُنَيْدُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لِي أَرْبَعُونَ سَنَة أُنَاجِي الْحَقَّ، والنَّاسُ يَرَوْنَ أَنِّي أُنَاجِي الْخَلْقَ». إِلَى غَيْر ذلِكَ مِنْ أَحْوَال الْمَحَبَّةِ والمَعْرِفَةِ. وقَدْ تَكَلَّمَ النَّاس فِي المَحَبَّة، وأكثرُوا الكَلاَمَ فِيهَا. كُلٌّ عَلَى قَدْرِ مِنْهَالِهِ وشُرْبِهِ.

قال القطبُ ابن مشيش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «المحبَّة أَخْذَة من اللَّه قَلْبَ مَنْ أَحَبَّ بِمَا يكْشف من نورِ جَمَالِهِ. وقُدْسِ كَمَالِ جَلاَلِهِ. وشرَابُ المحبَّة: مَزْجُ الأَوْصَافِ بِالأَوْصَافِ والأَخْلاَقِ بِالأَخْلاَقِ. وَالأَنْوَارِ بِالأَنْوَارِ وَالأَسْمَاءِ بِالأَسْمَاءِ، والنُّعُوتِ بِالنُّعُوتِ، والأَفْعَال بالأفعالِ وَيتّسع فيه النُّظر لمَنْ شاءَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ. والشَّرَابُ سَقْيُ الْقُلُوبِ والأَوْصَالِ، والعُرُوق من هذا الشراب حتى يسكر ويكون الشرْب بالتَّدريب، بَعْد التدْريب والتهْذيب. فَيُسْقَى كُلٌّ على قَدْرِهِ. فمِنْهُم مَنْ يُسْقَى بِغَيْر واسِطةٍ. واللَّهُ سُبْحَانَهُ يتولّى ذَلِكَ. ومنهم مَنْ يُسْقى مِن جهة الْوَسَائِطِ، كالملائكة والعلمَاءِ، والأَكابِرِ من المقرَّبينَ. فَمِنْهُم مَنْ يَسْكُرُ بِشُهُودِ الكَأْس ولم يَذُق بَعْدُ شيْئاً فَمَا ظَنُّكَ بَعْدُ بِالذَّوْقِ، وبَعْدُ بالشرابِ، وبَعْدُ بالرِّيِّ، وَبَعْدُ بالسكر بالمَشْرُوبَاتِ. ثُمَّ الصَّحْوُ بَعْدَ ذٰلِكَ على مَقَادِرَ شَتَّى. كمَا أَنَّ السُّكْر أيضاً كَذٰلِكَ. والنَّاس مِعرفة الحقِّ. يُعْرَف بِهَا مِنْ ذٰلِكَ الشَّرَاب الطهور المَحْضِ الصَّافِي لِمَنْ يشاء مِنْ عِبَادِهِ الْمَخْصُوصِينَ مِن خَلْق. فَتَارةً يشْهد الشَّارِبُ ذٰلِكَ الكأس صورة، وتارةً يشهدها مَعْنَوية. وتارة يشهدها عِلْمِية.

فالصُّورة حَظّ الأَبْدَانِ والنُّفُوسِ، والمَعْنَوِية حَظُّ القلوب والعُقول. والعلمية: حَظُّ الأَرْوَاحِ والأَسْرَار. فَيَا لَهُ مِنْ شَرَابٍ مَا أَعْذَبَهُ فطوبَى لِمَنْ شَرِبَ مِنْهُ، وَدَامَ وَلَمْ يُقْطَعْ عَنهُ. نسْأَل اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ، ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ

وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٤﴾. [المائدة: ٥٤] وقَدْ تجْتمع جَمَاعَةٌ مِنَ المحبِّين، فَيُسْقَوْنَ مِنْ كَأْسٍ وَاحِدَةٍ. وقد يُسْقَوْنَ مِنْ كُؤُوسٍ كثيرةٍ. وقد يُسْقى الواحِد بِكَأْسٍ وبِكُؤُوسٍ، وقَدْ تختلفُ الأَشْرِبَة على حَسَبِ عدد الأَكْوَاسِ. وقد يَخْتَلِف الشُّرْبُ مِنْ كَأْسٍ وَاحِدَةٍ، وَإِنْ شَرِبَ مِنْهُ الْجَمُّ الْغَفِيرُ مِنَ الأَحِبَّةِ». انتهى كَلاَمَ القطب ابن مشيش.

وقال تلميذُهُ: الشيخ أَبُو الحسَن الشاذِلِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «المحبَّة أَخْذة مِنَ اللَّهِ قَلْبَ عَبْدِهِ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ سِوَاهُ. فَتَرَى النَّفْسَ مَائِلة لطَاعَتِهِ. والعَقْلَ مُتَحصِّناً بمعْروفه، والروح مأْخُوذة فِي حَضرتِهِ، والسِّرُّ مَغْمُوراً فِي مُشَاهدتِهِ، والْعَبْد يَسْتزيد مِنْ حُبِّهِ، فيُزَاد وَيُفَاتِح بِمَا هُوَ أَعْذَب من لذيذِ مُنَاجَاتِهِ. فَيُكْسَى حُلَل التقريب، عَلَى بِسَاطِ الْقُرْبَةِ، ويمسّ أَبْكَار الحقائق. وثَيِّبَات العلوم. فَمِنْ أَجْل ذٰلِكَ قَالُوا:

الأَوْلِيَاءُ عَرَائِسُ وَلا يرى العرائس المجرمون. ثم قال: الشَّرَابُ: هو النُّورُ السَّاطع مِنْ جَمَالِ الْمَحْبُوبِ. وَالكَأْسُ: هو اللُّطف الْمُوصلُ ذٰلِكَ إِلَى أَفْوَاهِ القُلُوبِ، والسَّاقِي: هُوَ المتَوَلِّي ذٰلِكَ لخصوصِ الكِبَرِ، والصالحينَ مِنْ عِبَادِهِ؛ وهو اللَّهُ العَالِم بالمَقَادِيرِ، ومَصَالح العِبَادِ. فَمَن كُشِفَ لَهُ عَنْ هٰذَا الْجمَال، وحُظِي بشيْءٍ مِنْهُ نَفساً أَوْ نَفَسَيْنِ أَو أُرْخِي عليه الحجاب؛ فَهُوَ الذَّائق المشْتاق. وَمَنْ دَامَ لَهُ ذٰلِكَ سَاعَةً أَوْ سَاعَتَيْنِ؛ فَهُوَ الشَّارب حَقاً. وَمَنْ تَوَالَى عَلَيْهِ الأَمْرُ، وَدَامَ لَهُ الشُّرْبُ، حَتَّى امْتَلأَتْ عرُوقُهُ وَمَفَاصِلُهُ، مِنْ أَنْوَار اللَّهِ المَخْزُونَةِ؛ فَذٰلِكَ هو الرَّيُّ وَرُبَّمَا غَابَ عَنِ المَحْسُوسِ والمَعْقُولِ، فلا يَدْرِي مَا يُقَالُ وَلاَ ما يَقُولُ، فَذٰلِكَ هُوَ السّكر. وَقَدْ تَدُور عليهم الكَاسَاتُ. وتختلف لدَيْهم الحالاَت، ويردُّونَ إِلى الذِّكْرِ والطَّاعَاتِ، وَلاَ يُحْجَبُونَ عَنِ الصِّفَاتِ، مَعَ تَزَاحم المَقْدُورَاتِ. فَذٰلِكَ وقْت صَحْوهم، واتّساع نَظَرِهِمْ. ومَزِيد عِلْمِهِمْ، فَهُمْ بِنُجُومِ الْعِلْمِ وَقَمَرِ التَّوْحِيدِ يَهْتَدُونَ فِي لَيْلِهِمْ. وبِشُمُوس الْمَعَارِفِ يسْتضِيئونَ فِي نَهَارِهِم، ﴿أُولَٰئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾. [المجادلة: ٢٢] انْتَهَى كَلاَمُ القطب الشَاذِلِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقال أبو عبد الله القُرَشي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

«حقيقة المحبّة أن تَهَبَ كُلك لِمَن أَحْبَبْتَ، حَتَّى لاَ يَبْقَى مِنْهُ شَيْء» وقال أَبُو الحُسَين الوَرَّاق: «المحبَّة سُرُور بِاللَّهِ مِنْ شِدَّة المَحَبَّة لَهُ، والمحبَّة فِي الْقَلْبِ نَار تحرق كُلَّ دَنَسٍ. وقال بَعْضُهُمْ:

«مَنِ ادَّعَى محبَّة اللَّهِ مِنْ غَيْرِ تَوَرُّع مَحَارِمِه؛ فَهُوَ كَذَّابٌ. وَمَنِ ادَّعَى محبَّة الجَنَّة مِن غَيْرِ إِنفَاقِ مُلْكِهِ فَهُوَ كَذَّابٌ، وَمَنِ ادَّعَى حُبَّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ غَيْرِ حُبِّ الْفُقَرَاءِ فَهُوَ كَذَّابٌ، وكَان كرابعة تُنْشِدُ:

تَعْصِي الإلَهَ وَأَنْتَ تُظْهِرُ حُبَّهُ ... هٰذَا مُحَالٌ فِي الْفِعَالِ بَدِيعُ
إِنْ كُنْتَ صَادِقاً لأَطَعْتَهُ ... إِنَّ الْمُحِبَّ لِمَنْ يُحبُّ مُطِيعُ

وقال بَعْضُ الشعراءِ في هٰذَا المَنزع:

قَالَتْ وَقَدْ سَأَلَتْ عَنْ حَالِ عَاشِقِهَا ... لِلَّهِ صِفْهُ وَلاَ تَنْقُصْ وَلاَ تَزِدِ
فَقُلْتُ لَوْ كَانَ رَهْنُ الْمَوْتِ مِنْ ظمَإٍ ... وَقُلْتِ قِفْ عَلَى وَرُودِ الْمَاءِ لَمْ يَرِدِ

وَقَالَ آخَرُ:

وَلَوْ عَذَّبْتَنِي فِي النَّارِ حَتْماً ... دَخَلْتُ مُطَاوِعاً وَسَطَ الْجَحِيمِ

وقال آخَرُ:

إِذَا كَانَ الْجَحِيمُ رِضَاكَ عَنِّي ... فَمَا ذَاكَ الْجَحِيم سِوَى نَعِيمِ
إِنْ كَانَ سَفْكُ دَمِي أَقْصَرَ مُرَادِكُم ... فَمَا غَلَتْ نَظْرَةٌ مِنكُمْ بِسَفْكِ دَمِ

وقال سَحْنُون رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ذَهَبَ المُحِبُّونَ لِلَّهِ بِشَرَفِ الدُّنْيَا والآخِرَةِ؛ لأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ. فَهُوَ مَعَ اللَّه تعالى». وقال أبو يعقوب السوسي: لاَ تصلح المحبَّة، حتَّى تخرَجَ عن رُؤْية المحبَّة، إلى رُؤْيَةِ المحبُوبِ بفناءِ علم المحبَّة، من حَيْث كَانَ المحبُوب فِي الْغَيْبِ. ولم يكُن هٰذَا بالمحبَّة. فإِذَا خَرَجَ المُحِبُّ إلى هٰذِهِ، كَانَ مُحِباً مِن غَيْر مَحَبَّة. وسُئِل الشبلي عن المحبَّة فقال: كَأْسٌ له وَهَجٌ إِذَا استَقَرَّ فِي الحواسِ، وسَكَنَ فِي النفوس تَلاَشَتْ.

وقيل: للمحبَّة ظاهرٌ وبَاطِنٌ. ظَاهِرُهَا اتباع رِضَى الْمحبُوب. وَبَاطِنُهَا أَن يكُونَ مَفْتُوناً بالحبيب عَنْ كُلِّ شَيْءٍ فَلاَ تبقى فيه بَاقية لِغَيْرِهِ وَلاَ لِنَفْسِهِ.

وقال فِي المعارف: كَانَ رسول الله ﷺ يَدْعو: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ حُبَّكَ أَحبَّ

إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي وَسَمْعِي وَبَصَرِي، وَأَهْلِي وَمَالِي، وَمِنَ الْمَاءِ الْبَارِدِ»(١). فَكَأَنَّ رَسُول اللَّهِ ﷺ طَلَبَ بحكم العلم والحيلة تتعاضده بِضِدِّ العلم. مثل أَنْ يكون راضياً. والحيلة قَدْ تنكرهُ، ويكُونَ النَّظر إلى الانْقِيَادِ بِالعِلم، وإلى الاسْتقصَاءِ بالحيلة. فَقَد يحبّ الله ورسوله بحكم الإيمان. ويحبّ الأهل والولد بِحُكْم الصَّبغ المُرَاد منهُ. فَأَشَار إلى أَنَّ محبَّة الْعَوَام بِالْعِلْم والإيمَان بِالْغَيْبِ. ومحبَّة الخواصّ بِالذَّوق على نَعْتِ مُشَاهدة الْحَبِيب. والله تَعَالَى أَعْلَمُ.

وقوله: «وَلَيْسَ يَعْلَم فِي الْقَلْبِ إِلاَّ هُوَ». هٰكَذَا فِي جُلِّ النُّسَخِ بَعْد السّطر أيْ لاَ يَعْلَم مَا فِي قَلْبِي مِنَ الشغفِ والمحبة إِلا المحبوب. وفي بَعْضِ النُّسخ بَعْد السّطر أيْ لاَ يَعْلَم مَا فِي قَلْبِي مِنَ الشغفِ والمحبة إلا المحبوبُ. وفي بعْضِ النُّسَخِ: وَفِي الأغاليط سِرٌّ رقَّ مَعْنَاهُ. يشير إلى مَقام الإِخْلاَصِ. فَالسرّ الَّذِي خَفِي مَعْنَاهُ هُوَ الإِخْلاَصُ، إذ لاَ يتحقق ذوْقاً، إِلاَّ بِإِظْهَار ما يُنَافيه مِنَ الأَغَالِيطِ، ومَرْجعهَا إِلى تخريب الظَّاهِرِ. إِذْ بِقَدْر مَا يخرِّبُ الظاهر، يُعَمِّر الباطن. وبِقَدْر مَا يُعَمِّر الظَّاهر، يُخَرِّبُ الْبَاطِن. وبقدْر مَا يُزَيِّنُ الظاهر، يُقَبِّحُ الْبَاطِن. وبالعكْسِ يَتَنَوَّر الظَّاهِرُ بِالتَّأَنُّقِ فِي الثياب، وتحْسين الهيئة وبه يتظلم الباطِن. وَهٰذَا مُجَرَّبٌ عِنْدَ أَهْلِ الْفَنِّ. لاَ يُنكِرُه إِلاَّ الجاهل بالطريق.

وَالإِخْلاَصُ: إِفْرَاد الْحَقِّ بِالطَّاعَةِ بِالْعَقْلِ، وَهُوَ أَن يريدَ بِطاعَتِهِ الْقُرْبَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، دُون شَيْءٍ آخَرَ؛ مِنْ تَصَنُّع لِمَخْلُوقٍ أَوِ اكتِسَابِ مَحْمَدةٍ عِنْدَ النَّاسِ ومحبَّة مدْح الخلق. أَو مَعْنًى من الْمَعَانِي. سوى التقرّب إلى الله تعالى. قاله القشيْري. وَأَحْسَن منه تفسير الحق تعالى في الحديث القُدْسي، قال الحسَن: سَأَلْتُ حُذَيْفة عن الإِخْلاص فقال: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ عن الإِخْلاصِ ما هو؟ فقال: سَأَلْتُ جِبريلَ عليه السلام عن الإِخلاصِ فقال سَأَلْت رب العِزَّةِ عن الإِخلاصِ ما هُوَ فَقَالَ: «سِرٌّ مِنْ أَسْرَارِي أَوْدَعْتُهُ قَلْبَ من أَحْبَبْت مِن عِبَادِي»(٢)

---

(١) رواه الترمذي في سننه، حديث رقم (٣٤٩٠) [٥/ ٥٢٢] والديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب، حديث رقم (٤٨١٠) [٣/ ٢٧١] ورواه غيرهما.

(٢) رواه أبو الفيض الفاداني المكي في العجالة في الأحاديث المسلسلة، المسلسل بالسؤال عن الإخلاص [١/ ٨٨].

وقال الجنيْد رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ: «الإِخْلاصُ سِرٌّ بيْن اللَّهِ تعالى وبيْن الْعَبْد. لاَ يعلمه مَلَكٌ فَيَكتُبَهُ، وَلاَ شَيْطَانٌ فَيُفْسِدَهُ وَلاَ هَوى فَيُبْطِلَهُ». وله درجات: إخلاص العوامّ: وهو إِفْرَاد الحقّ بالطَّاعة، مع ملاحظة الجزاء في الدنيا والآخِرَة. وإخلاص الخواصّ: وهو إفراد الحقِ بالطاعة، مع ملاحظة الجزَاء الأخروي فقط وإخلاص خواصّ الخواصّ وهو إفراد الحق بالطَّاعة، مع الغيبة؛ بَلْ مَحبَّة وتعظيماً وعبودية.

قال مكْحول رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ: «مَا أَخْلَصَ عَبْدٌ أَرْبعينَ يَوْماً إِلاَّ ظَهَرَتْ ينابيع الحِكْمَة مِن قَلْبِهِ على لسَانِهِ»[1]، وهو مَوْقُوف عليه. واللَّهُ أَعْلَمُ. ويُجودُ فِي بَعْضِ النُسَخِ: أُرِيهم أَنَّنِي بِغَيْرِه كَلِفٌ؛ أَي أُظْهِرُ للنَّاس أَنَّنِي بِغَيْرِ المحبوب كَلِفٌ؛ أي مُولَعٌ ومتكلف بِهِ، ومشغول بمَحَبَّتِهِ. ولَيْس يعْلَمُ ما في قَلبِي مِن محبّة الحبيب إِلاَّ هُو، لأَنَّنِي لمَّا عَرفْتُه، وكَشفَ الحجاب بيْني وبيْنَهُ، قلت: لاَ يحجبني عنه شيْء من تجلياتِهِ. فيظهر للناس أَنِّي أُشاهد الخَلْق. ونُعَظِّمهُمْ، ونتأدَّب مَعَهُمْ. وَأَنَّا فِي الباطِنِ لاَ نُشاهِد إِلاَّ الملك الحقّ. وَلاَ نَتَأَدَّبُ إِلاَّ مَعَهُ. وَلاَ نَتَكَلف إِلاَّ بِهِ، فَللَّهِ الحَمدُ وَلَهُ الشكر.

قال الشيخ أَبُو الحسَن الشاذِلي رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ: «إِنَّا لنَنظُرُ إِلَى اللَّهِ بِبَصَرِ الإِيمَانِ والإِيقَانِ، فَأَغنَانَا ذٰلِكَ عن الدَّليل والبُرْهَانِ. وَأَنَّا لاَ نَرَى أَحَداً مِنَ الخَلْقِ. فَهَلْ فِي الوُجُودِ سِوَى المَلِكَ الحقّ. فَإِن كَانَ وَلاَ بُدَّ كَالْهَبَاءِ فِي الْهَوَى إِنْ فَتَّشْته لم تَجِدْه شَيْئاً» وَبِاللَّه التوفيق. ثم قال رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ:

قَالُوا أَتنْسَى الَّذِي تَهْوَى فَقُلْتُ لَهُمْ ... يَا قَوْمِي مَنْ هُوَ رُوحِيَ كَيْفَ أَنْسَاهُ

وَكَيْفَ أَنْسَاهُ وَالأَشْيَا بِهِ حَسُنَتْ ... مِنَ الْعَجَائِبِ يَنْسَى الْعَبْدُ مَوْلاَهُ

يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ: قال لي قَوْمِي: أَتنْسَى المَحْبُوبَ الَّذِي تَهْوَاه وتعْشقَهُ حتى تغيب عن ذِكْرِه ومشاهدة سِرّه. فقلْتُ لَهُمْ: يَا قَوْمِي مَنْ هُوَ رُوحِي وَبِهِ

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه، حديث رقم (٣٤٣٤٤) [٧/ ٨٠] والقضاعي في مسند الشهاب، [باب] ٣٢٥ من أخلص لله أربعين. . ، حديث رقم (٤٦٦) [١/ ٢٨٥] ورواه غيرهما.

قِوَامِي وَنشأَتِي، قَدْ سَرَى سِرُّهُ فِي سِرِّي، ونوره فِي كُلّية ذَاتِي، وتَخَلّلتْ محبّته جميع أَجْزَائِي كيْف أَنْسَاهُ وَأَغِيبُ عَنْهُ. وكيْف أَيْضاً أَنْسَاهُ وَأَغِيب عَنْهُ، وَالأَشْيَاء كُلّها بِهِ قَامَتْ، وبنور جماله حَسُنَتْ وابْتَهَجَتْ. فَمَا ظَهَرَ فِي الكَوْنَيْنِ إِلاَّ نور بَهَائِهِ وَجَمَالِهِ. فَلَيْسَ فِي الوجودِ قَبِيحٌ، وَلاَ بَشِعٌ؛ لأَنَّ الوجود كلّهُ بقدرة الحكيم البديع. وإلى هٰذَا، أشار صاحب العينية[1] رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ بقوله:

وَكُلُّ قَبِيحٍ إِنْ نَسَبْتَ لِحُسْنِهِ ... أَتَتْكَ مَعَانِي الحُسْنِ فِيهِ تُسَارِعُ

يُكَمِّلُ نُقْصَانَ الْقَبِيحِ جَمَالُهُ ... فَمَا ثَمَّ نُقْصَانٌ وَلاَ ثَمَّ بَاشِعُ

ثم تَعَجَّبَ نِسْيَانَ العَبْد مَوْلاهُ وَهُوَ معه أقرَب إليه من حَبْلِ الْوَرِيدِ. فَمِن أَعْجَبِ العجائِبِ، أن يكون الحقُّ قَائماً بِأَمْرِ عَبْدِهِ، لاَ يَنْساهُ مِنْ إِحْسَانِهِ وَرِفْدِهِ. والعَبْدُ غَافِلٌ عَنْ ذِكْرِهِ. مشغول بِذِكْرِ غَيْرِه. فَالواجبُ على الْعبدِ، اسْتفراغ طاقته وجُهْده في ذِكر سيّدهِ؛ ومشاهدة إِحْسَانِهِ وَرِفْدِهِ. قال تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾. [البقرة: ١٥٢] وقال تعالى: ﴿فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾. [الأعراف: ٦٩] وقد رَأَيْتَ أَحَادِيث وأَخْبَار في التَرْغِيب في ذِكْرِ اللّٰهِ، والتَفكّر في عَظَمَتِهِ، فَلاَ نطِيل بِسَرْدِهَا؛ لأَنها مقرّرة فِي مَحَلِّهَا مِنَ المُطَوَّلاَتِ. وبالله التوفيق.

ثم صَرَّحَ بِحَالِهِ مع مَحْبُوبِهِ؛ وهو الاسْتغراق فِي شهودِهِ فقال:

مَا غَابَ عَنِّي وَلٰكِنْ لَسْتُ أَبْصُرهُ ... إِلاَّ وَقُلْتُ جِهَاراً قُلْ هُوَ اللّٰهُ

يَقُولُ رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ: ما غَاب عَنِّي مَحْبُوبِي طَرْفَة عَيْنٍ؛ لأَنَّهُ أَقْرَبُ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ؛ وَبِهِ حَيَاتِي، وقيام ذَاتِي كَمَا قال ابن الفارض[2] رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ:

---

(١) العارف بالله تعالى الشيخ عبد الكريم الجيلي، وقد سبقت الإشارة إليه.

(٢) القائل هو القطب أبو مدين التلمساني شعيب بن الحسن الأندلسي التلمساني المتوفى في سنة ٥٩٤ هجرية. وتتمة الأبيات هي:

يا من بهم قد طابت حياتي ... وتهت فخراً على الوجود

أنتم شموسي وعين ذاتي ... ووجهكم قبلة السجود

خرجت عني وعن صفاتي ... وجئتكم اشتهى ورودي

وحقكم لم أزل عبيداً ... حول حماكم مأوى الفقير

بكم أنادي رخاً وشدّة ... يا سادتي فاجبروا كسيري

أَنْتُمْ شُمُوسِي وعَيْنُ ذَاتِي وَوَجْهُكُمْ قبلة السجود

فَمَحْبُوبِي لاَ يغيب عَنِّي قط. ولكن لسْت أَبْصرهُ، وَأُشاهده فِي مِرائي جماله، وتجلّياتِ ذَاتِهِ، إلاَّ وقُلْت جهاراً بلِسَانِ الحَالِ. قل هو اللَّهُ. إذ لاَ نُشَاهِد سِوَاهُ. وَلاَ نَرَى إلاَّ إِيَّاهُ؛ لأَنَّني مَحْجُوب بالجَمْعِ عَنِ الْفَرْقِ. وبِشُهودِ الْمُؤَثِّر عَلَى الأَثَرِ. وَإِن كَانَ وَلاَ بُدَّ مِنْ رؤْية الأَثَر، فَيَراهُ قائماً بِهِ، ونوراً من أنوارِهِ. لاَ وُجُود لَهُ مَعَهُ. لثبوتِ أَحَدِيتهِ. فَالأَكْوَان ثابتة بِإِثْباتِهِ. مَمْحوة بِأَحَدِية ذَاتِهِ:

مَنْ لاَ وُجُودَ لِذَاتِهِ مِنْ ذَاتِهِ فَوُجودُهُ لَوْلاَهُ عَيْنُ مُحَالِ

فَالْعَارِفُونَ فَنَوا ولمَّا لَمْ يَشْهَدُوا شَيئاً سِوَى الْمُتَكَبِّرِ الْمُتَعَالِي

وَرَأَوا سِوَاهُ على الحقيقة هَالِكاً فِي الحَالِ والمَاضي وَالاسْتِقْبَالِ

قَالَ الْقُطْبُ ابن مشيش لأبي الحسَن الشَّاذِلي رَضِيَ اللَّهُ عَنهُما: يَا أَبَا الحَسَن: «حَدِّدْ بَصَرَ الإيمَانِ. تَجد اللَّه فِي كُلِّ شيءٍ، وَعِنْدَ كُلِّ شَيْءٍ، وَمَعَ كُلِّ شَيْءٍ، وَقَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، وَبَعْدَ كل شَيْءٍ، وفَوْق كل شَيْءٍ، وتحْتَ كل شَيْءٍ، وقريباً مِنْ كل شيءٍ. ومُحِيطاً بِكُلِّ شَيْءٍ. بِقُرْبٍ هُوَ وَصْفُهُ. وبحيطةٍ هِيَ نَعْتُهُ. وعُدْ عَنِ الظرفية والْحُدُودِ، وعن الأَمَاكِنِ والجهات، وعن الصحبة والْقرْب فِي المَسَافَات، وعن الدور بالمخلوقاتِ. وامحَق الكُلَّ بوصفه الأول والآخر، والظَّاهر والباطن؛ وهو هُوَ، هو. «كَانَ اللَّهُ وَلاَ شَيْء مَعَهُ. وهُوَ الآن عَلَى مَا عَلَيْهِ كَانَ». وَأَشَارَ بقولِهِ، وعُدَّ الخ. إِلَى أَنَّ مَا جَرَى فِي كَلاَمِهِ من الظُرُوفِ لَيْسَت بزَمَانية وَلاَ مَكانية؛ لأَنَّهَا مِن جُمْلَة الأَكْوَانِ. وَإِنَّمَا هِيَ أُمورٌ ذَوْقية. فَاعْتقد كَمَال التَّنْزِيه، وبُطْلاَن التشبيه، وتمَسَّكْ بِقَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] وَسَلِّم ذٰلِكَ لأَهْلِهِ. فَإِنَّهُمْ عَلى بصيرة فيما رَمزُوا إِلَيْهِ، فيما ذاقوهُ وَوَجَدُوهُ. بل هي مِن محضِ الإيمَانِ، وخالِصِ العِرْفَانِ؛ وهو حقيقة التوحيد. وَصَفْوِ الإيمَان؛ كما قال بعض العارفينَ. قال بعض المحققين مِنَ العارفين:

الحقُّ تَعَالَى مُنَزَّهٌ عَنِ الأَيْنِ، والجِهَةِ والكَيْفِ، ولا جِسْمَ وَلاَ جَوْهَرَ، وَلاَ عَرَض؛ لأَنه لِلُطْفِهِ سَار فِي كل شَيْءٍ، ولنوريته ظَاهِر فِي كل شَيْءٍ. وَلإطلاقه

وإحاطتِهِ مُتَكَيِّفٌ بِكُلِّ كَيْفٍ غَيْر متقيّد بذٰلِكَ. وَمَنْ لَمْ يَذُقْ هٰذَا، ولم يشهده؛ فَهُوَ أَعْمَى البصيرة. مَحْرُوم من مُشاهدة الحقِ. وَمِن كَلاَم الشيخ ابن الفارض:

هُوَ الْحَقُّ الْمُحِيطُ بِكُلِّ شَيْءٍ ... هُوَ الرَّحْمٰنُ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدِ
هُوَ النُّورُ الْمُبِينُ بِغَيْرِ شَكٍّ ... هُوَ الرَّبُّ الْمَحْبُوبُ فِي الْعَبِيدِ
هُوَ الْمَشْهُود في الشَّاهِدِ يَبْدُو ... فَيُخْفِيه الشّهُود عَنِ الشَّهِيدِ
هُوَ الْعَيْن العيان لِكُلِّ غَيْبٍ ... هُوَ الْمَقْعُودُ فِي بَيْتِ الْقَعِيدِ
جَمِيعُ الْعَالِمِينَ لَهُ ظِلاَلٌ ... سُجُودٌ فِي القريب وَفِي الْبَعِيدِ
وَهٰذَا الْقَدْرُ فِي التَّحْقِيقِ كَافٍ ... فَكُفَّ النَّفْسَ عَنْ طَلَبِ الْمَزِيدِ

ولابْن عطاءِ اللَّه، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

فَالنُّورُ يَظْهَرُ مَا تَرَى مِنْ صُورَةٍ ... إلاَّ بِهِ وُجُودُ الْكَائِنَاتِ بِلاَ امْتِرا
لٰكِنَّهُ يَخْفَى لِفَرْطِ ظُهُورِهِ ... حِسّاً ويُدْرِكُهُ الْبَصِيرُ مِنَ الوَرا
فَإِذَا نَظَرْتَ بِعَيْنِ عَقْلِكَ لاَ تَجِدْ ... شَيْئاً سواه عن الذَّاتِ مُصَوَّرا
وَإِذَا طَلَبْتَ حَقِيقَةً مِنْ غَيْرِهِ ... فيزيد جهلكَ لاَ تَزَال مُعَثَّرا

وهٰذِهِ الأَسْرَار لا يَذُوقهَا، إلاَّ مَنْ صَحِبَ أَهْلَ الفناء والبَقَاءِ. وَمَنْ لَمْ يَصْحَبْهُمْ، فَحَسْبُهُ الإِيمَان بِالْغَيْبِ، واللَّهُ تعالى أَعْلَمُ.

ثُمَّ اعْلَم أَنَّ من عَادة الشعراءِ أَن يَتَغَزَّلُوا فِي مَدْحِ الحبيب. بذكر الرقبا والْعَوَاذِلِ إِذ لاَ تَخلُو الْمَحَبَّة إِلاَّ بِوُجُودِهِمْ، فمنهم مَنْ يَذْكُر ذٰلِكَ فِي أَوَّلِ مَدْحِهِ. كما فَعَلَ كَعْب بن زُهَيْر، والإِمَام البوصيري فِي بُرْدتِهِ؛ وغيرهما. ومِنْهم مَن يَسْتعمله في آخِرِ مَدْحِهِ، كما فعل النَّاظم حيث قال:

مَاذَا يَقُولُ اللُّوَاحِي ضَلَّ سَعْيُهُمُ ... وَمَاذَا تَقُولُ الأَعَادِي زَادَ مَعْنَاهُ
هَلْ غَيْرُ أَنِّي أَهْوَاهُ وَقَدْ صَدَقُوا ... نَعَمْ نَعَمْ أَنَا أَهْوَاهُ وَأَهْوَاهُ

قلتُ: التَّلاحِي: هو التَّخاصُم. وَتَلاَحَى فُلاَنٌ وفُلاَنٌ تَخاصَمَا. واللَّوَاح: جمع لائحة أي مُخَاصَمَة وَمَاذَا: إِمَّا أَن تكون اسْتِفْهامية بُرُمَّتِهَا. أَوْ ذَا مَوْصُولة. وَمَا اسْتفهامية.

يقول رَضِيَ اللّٰهُ عَنهُ عَلَى طريق التَّشْبِيب والنَّسِيب: مَاذَا: أَيْ أَيُّ شَيْءٍ تقول اللَّوَاحِي. فِي لوْمِي وَعِتَابِي على مَحَبَّة الْحَبيب. أَوْ مَا الَّذِي تقولُهُ الْعَوَاذِلُ والرقبَا فِي عَذْلِي ولوْمِي عَلَى فَرْطِ مَحَبَّتِي، والتَّهَالك في عشقِي أَضَلَّ اللّٰهُ سَعْيَهُمْ، وَخَيَّب قَصْدَهُمْ. فَإِنَّهُمْ أَرَادُوا سُلْوَانِي مِنْ عشقِي، وبُعْدِي من حَبِيبِي. فَلاَ أَسْمَعُ قوْلهُم. وَلاَ أَقبَلُ نصحَهُمْ. وما تقول الأعَادي، أيْ أَيُّ شَيْءٍ تَقُولَهُ الأعَادِي والحُسَّاد فِي دُخُولهم بَيْنِي وبيْن مَحْبُوبي؛ بِالتَّخْلِيطِ والتَّخْوِيفِ. فَمَا وقَعَ ذٰلِكَ مِنهُمْ. إلاَّ لِمَا رَأَوْا مِنْ شِدَّة إقبال الْمَحبُوب عليَّ. وتقريبه إِيَّاي، واعْتِنَائِهِ بِشَأْنِي. فاللّٰهُ يزيدنِي مِنْ تِلكَ الْمَعْنَى ويحققنِي بِذٰلِكَ الْمَقْصِد الأَسْنَى. وهل يَقُولونَ شيئاً؛ غَيْر أَنِّي أَهْواه وأُحِبّهُ. أَي لاَ يُمْكِنُهُمْ أَنْ يَعيبُوا عَليَّ شيئاً. إلاَّ أَنِّي أُحِبّهُ وَأَهْوَاهُ. ولَقَدْ صَدَقُوا فِي دَعْوَاهـم. فَإِذَا أَقَرُّ بِذٰلِكَ، وَأَفْصَحَ بالجَوَابِ. فنقول: نَعَمْ نعمْ. أَنَا أَهْوَاهُ. ثم أَهْوَاهُ وَلاَ نَسْلُو عنه أَبَداً. وهذا الذي ذَكَره الشيخ من ذِكر الخُصُوم والأَعَادي، لاَ يشترط تحققه فِي الخارج. بل ذٰلِكَ مِن فِعْل الشعراءِ. أَوْ يُسَمَّى التَّغَزُّل والتشبِيب والنَّسيب. يَحْسُن ذِكرهُ فِي أَوَّل المَدْحِ، أَوْ فِي أَثْنَائِهِ كما تَقَدَّم. ويمكن أَنْ يُقْصد بِذٰلِكَ مَنْ يلومه عَلَى التجرِيد، وترْك الأَسْبَاب، والانقطاع إلى المحبوب لا سِيَمَا إِنْ كَانَ لَهُ مَنْ يتعلَّق بِهِ من أَهْل وَأَوْلاَد. فَإِنَّ أَهْل الظَّاهِرِ لاَ يُسَلِّمُونَ لأَهْلِ الباطِن فِي هٰذَا المَعْنَى، وكذلك تخريب الظاهر، وإِتلاف المال الذي يشغل الباطنَ. فَإِنَّ غالبَ النَّاسِ يَعيبُون على من يفعل ذٰلِكَ.

وقَدْ فسَّر بعضهم العواذل والرقبا، والأعادي بالنفس والشيطان والهَوَى والدّنْيَا؛ وكل ما يشغل عن اللّٰهِ. ذكره في شرح تائية ابن الفارض وقال: هذا مراد الصوفية بِالعواذِلِ والرقبا وهو حَسنٌ. ثم إِنَّ هذه العواذِل؛ وهي القواطع التي تقطع عن اللّٰه تعالى؛ هي في الظَّاهر قواطعُ. وفي الباطِنِ محسُوساتٌ. وَمُوَصِّلاتٌ إلى اللّٰهِ تَعَالَىٰ وعلى هٰذَا الوجه ذَكَرَهُمْ صاحِب الحِكَم العطائية رَضِيَ اللّٰهُ عَنهُ. فقال في شأنِ النَّفْسِ: «حَرَّكَ النَّفْسَ عليْكَ ليدُومَ إِقْبَالكَ عليْهِ». وقال في شأنِ الشيطان: «إِذَا علمْت أَنَّ الشيطَانَ لاَ يَغفل عَنْكَ، فَلاَ تَغْفَلْ أَنْتَ عَمَّنْ نَاصِيتُكَ بِيَدِهِ». وقال في شَأنِ الدُّنْيَا: «إِنَّما جَعَلَهَا مَحلاً لِلأَكْدَارِ تَزْهِيداً

لكَ فِيهَا». وقال في شَأنِ النَّاسِ: إِنَّمَا جَرَى الأَذى عَلَيْهِمْ كَيْ لاَ تكُونَ سَاكِناً إِلَيْهم. أَرَاد أَنْ يُزْعِجَكَ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ، حتى لاَ يُشغلكَ عَنْهُ شَيْءٌ».

وقد كَانَ شيْخ شَيْخِنَا مَوْلاَي العَربي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ في شَأْنِ النَّفْس إِذَا اشْتَكَى لهُ أَحَدٌ بنفْسِهِ. جَزَاهَا اللَّهُ خيراً عَنِّي. واللَّهُ مَا رَبِحْنَا إِلاَّ مِنْهَا. يَعْنِي أَنَّهُ جَاهَدَهَا وَرَيَّضَهَا حتى انقَادَتْ، وَأَسْلَمَتْ وَتَرَوْحَنَتْ. فَجَعَلَتْ تَأْتِيهِ بِالعلوم والْمَوَاهِبِ مِنْ أَسْرَار الْغَيْبِ، فَإِنَّ الرُّوح كَانَ أَصْلها عَلاَّمَة دَرَّاكَةً. فَمَا حَجَبَهَا إِلاَّ الشَّهَوَات، والعوائد التي تَعَوَّدَتْ بِهَا حَتَّى تَظَلَّمَتْ. فَسُمِّيَتْ نَفْساً. فإِذَا مُنِعَتْ مِن شَهَوَاتِهَا وعوائِدهَا، رجَعَتْ إِلَى أَصْلِهَا. وَإِلَى هٰذَا الْمَعْنَى، أَشارَ ابْن البنَا في مَبَاحِثِهِ حيْث قال:

وَلَمْ تَزَلْ كُلُّ نُفُوس الأَحْيَا … عَلاَّمَةً دَرَّاكَةً لِلأَشْيَا
وَإِنَّمَا تَعُوقُهَا الأَبْدَانُ … وَالأَنْفُس النزَّاغ وَالشَّيْطَانُ
فَكُلُّ مَنْ أَذَاقَهُمْ جِهَادَهْ … أَظْهَرَ لِلْقَاعِدِ خَرْقَ الْعَادَهْ

ثم قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

أَسْتَغْفِرُ اللَّه إِلاَّ مِنْ مَحَبَّتِه … فَإِنَّها حَسَنَاتِي يَوْمَ أَلْقَاهُ
فَإِنْ يَقُولُوا بِأَنَّ الْحُبَّ مَعْصِيَةٌ … فَالْحُبُّ أَحْسَنُ مَا يُلْقَى بِهِ اللَّهُ

يَقُول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَسْتَغْفِرُ اللَّه: أَيْ أَطلُبُ مَغْفِرَتهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ يَصْدُرُ مِنِّي، قَوْلاً وَعَمَلاً وعقداً. إِلاَّ مِنْ مَحَبَّتِهِ، فَإِنها لاَ يَدْخلها خَلل؛ لأَنها محمودة في كل حَالٍ. فلا تحتاج إِلى اسْتغفار فَتَقُولُ له: الحبُّ أَحْسَن ما يُلْقى بِهِ اللَّهُ. لقوله ﷺ: «مَنْ أَحبَّ لقَاءَ اللَّهِ، أَحَبَّ اللَّه لِقَاءَهُ»[1]. وَلاَ يُحِبُّ لقاء اللَّهِ، إِلاَّ مَنْ تَمَكَّنَت مَحَبَّة اللَّه فِي قَلْبِهِ. فَظَهَرَ أَنَّ المحبَّةَ أَفْضَلُ الْمَقَامَاتِ، وَأَكْمل الحالاتِ، فَلاَ تَفتقِرُ إِلَى اسْتِغفَار ولذلك قال القطب ابن مشيش: «واعْلَمْ أَنَّ حُبَّ اللَّهِ قُطْبٌ تَدُورُ عليه الخيْرات. وَأَصْلٌ جَامع لجميع الكَرَامَاتِ»، إِلى آخِرِ

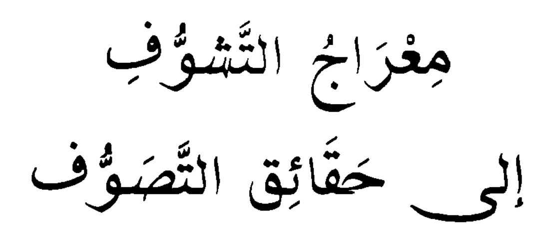
---

(١) رواه البخاري في صحيحه، باب من أحب لقاء الله. .، حديث رقم (٦١٤٢) [٥/ ٢٣٨٦]. ومسلم في صحيحه باب من أحب لقاء الله. .، حديث رقم (٢٦٨٣) [٤/ ٢٠٦٥] ورواه غيرهما.

كَلاَمِهِ فِي بَعْضِ وَصَايَاهُ.

ثم اعْلَمْ أَنَّ هٰذِهِ المحبّة الَّتِي هِيَ أَفْضَلُ المَقَامَات؛ إنما تكون مَعَ تمام المعرفة، إذ المحبَّة بلا مَعْرِفَةٍ، قد يَصْدُرُ من صَاحِبهَا سُوءُ أَدَبٍ بِمَا يَصْحَبُهَا مِنَ الْقَلَقِ، أَو الإِذْلاَل في غَيْرِ مَحَلِّهِ. فيُطرَدُ وهو لاَ يشْعُرُ بخلافِ مَنْ تَرَقَّى إِلَى مَقَامِ المَعْرِفَةِ، بَعْدَ كَمَال المحبّة. فالأدب مُحَقَّقٌ لَدَيهِ. إذ المعرفة لا تكونُ إلاَّ بَعْدَ التَّهْذِيب وَالتَّأْديب. فيلزَمُهُ الرِّضى والتَّسْليمُ. والصَّبْرُ والتوكل. وغَيْر ذٰلِكَ مِنَ المَقَامَاتِ؛ لأَنَّ الْمَعْرِفَةَ ضَمَّتْهُ لجميع ذٰلِكَ. إذ لاَ يَسْلك لَهَا إلاَّ وقطع هذه المقامات. بخلاف المحبَّة وَحْدَهَا: فقد توجد مَعَ الحجاب. فيكُون صَاحِبُهَا غيْر كَامِلٍ، كما هُوَ شأن كثير من العُبَّادِ والزُّهادِ، والعُشَّاق.

وَأَمَّا المعرفة فلا تَحْصُل إلاَّ بَعْدَ التَّرْبية والتأديب، والتهذيب بعد التدريب والتَّهْذيب. فصاحِبُها مَأْمُون من سُوء الأَدَبِ فِي الْغَالب. مَنَحَنَا اللّٰهُ مِن معرفته الكَامِلَةِ أَوْفَرَ نَصِيبٍ، إنه سَمِيع قريبٌ مجِيبٌ. بِجَاهِ سيّدنا ومَوْلاَنَا محمَّد، أَفْضَل كُل مُحِبّ وَحَبِيب. صَلَّى الله عليه وعلى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَعِتْرَتِهِ وَأَحْزَابِهِ وسلم تسليماً. والحمد لله رب العالمين.



مِعْرَاجُ التَّشَوُّفِ إلى حَقَائِقِ التَّصَوُّف

لسيدي أحمد بن عجيبة
رضي الله عنه

ضبطها وصححها وعلق عليها

الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي

الحسيني الشاذلي الدرقاوي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيماً

١ـ الشرح الأول: مِعْرَاجُ التَّشَوُّفِ إِلَى حَقَائِقِ التَّصَوُّفِ.

قال الشيخ الإمام، بحر الهُمَام. الصوفِي الكَامِل، والعارف الواصل بحر الحقائق العِرْفَانِية، وشمس المعارف العِيَانية، أَبُو العباس سيدي أحمد بن محمد بن عجيبَة الحسَنِي رضي الله عنه وأَرْضاهُ. وجَعَل في حضرةِ القُدْسِ مُتَقلبه ومثواهُ.

الحمْدُ للَّهِ الذي حَقَّقَ الْحَقائِق، وأَوْضَحَ الطرائق. والصَّلاَة والسلام على مَوْلاَنَا مُحَمَّدٍ سيّد الخلائق. المخصوص بتواتر المُعْجِزَاتِ. وتظاهر الخوَارق، ورضي الله تعالى عن أَصْحابه الأَعْلاَم، الذين أَظهر الله بهم دينَه القويم، في أقصى المغارب والمشارق.

وَبَعْدُ: فَعِلْمُ التَّصَوُّفِ هو سَيِّدُ العلومِ ورئيسُهَا، ولُبَاب الشَّرِيعَةِ وأَسَاسُهَا. وكيْف لاَ وهو تفْسيرٌ لمقام الإِحسَان، الذي هُوَ مقام الشهود والْعِيَان. كَما أن علم الكلام، تفسير لمقام الإِيمانِ. وعلْمُ الفِقْهِ تفسير لمقامِ الإِسْلاَمِ. وقد اشتمل حديث جبريل عليه السلام، على تفسير الجميع. فإذا تقرّر أَنه أَفضل العلوم، تَبَيَّنَ أَنَّ الاشتِغالِ بِهِ أَفْضلُ ما يُتَقَرَّبُ به إلى الله تعالى، لِكَوْنِهِ سبباً لِلْمَعْرِفَةِ الخَاصَّةِ، التي هي مَعْرِفة العَيانِ. وقد اشتمل على حقائق عريقة. وعبارات دقيقة، اصطلح القوْمُ على استِعْمالِهَا. فينبغي الوُقوف على مَعانيهَا. لمَن أَرَادَ الخَوْضَ فيهِ. والوقوف على مَعَانيهِ.

وقد أَردت بحول اللَّهِ وقوّته أَنْ أجمع نبذَة صالحة من حقائق هذَا الفَنّ

واضطِلاحَاتِهِ. لعلَّ الله ينفع من يريد الوقوف على هَذَا العلم. وسَمَّيته: مِعْراجَ التشوفِ، إلى حقائق التصَوُّفِ. وبالله التوفيق؛ وهو الهادي إلى سواء الطريق. وسَأذكر لكُلِّ حقيقة ما يَتَّصِلُ بهَا بداية ووسطاً، ونهاية.

التَّصَوُّفُ: علمٌ يعرف به كَيْفِيَّة السلوكِ؛ إلى حَضْرَةِ مَلِكِ الْمُلُوكِ أوْ تَصفِية البواطِنِ مِنَ الرَّذائِلِ وتَحْليتها بأنواع الفضائِلِ أوْ غَيْبَة الخَلْقِ فِي شهود الحقِّ، أو مع الرجوع إلى الأثرِ فِي أوَّلِهِ عِلمٌ. وفي وَسَطِهِ عَمَلٌ. وَآخِره مَوْهبَة.

واشْتِقَاقِهِ، إمَّا من الصَّفَاءِ؛ لأَنَّ مَدَاره عَلَى التصفية، أَو مِنَ الصِّفَة؛ لأَنَّه اتصافٌ بِالْكَمَالاَتِ.. أَوْ من صُفَّةِ المَسْجِدِ النَّبَوي؛ لأَنَّهُمْ مُشبَّهُونَ بِأَهْلِ الصَّفَّة في التوجّهِ والانْقطاعِ. أَوْ من الصّوفِ. لأَنَّ جُلَّ لباسهم الصّوف. تعَلُّلاً من الدُّنيا وَزُهداً فيهَا. اختَارُوا ذلِكَ لأنه كان لباس الأنبياءِ عليهم السَّلاَمُ. هذا الاشتقاق أَنْسَبُ إليه لغة، وأظهر نِسْبَة؛ لأنَّ لبَاسَ الصُّوفِ، حكمٌ ظاهِرٌ على الظَّاهِرِ. ونسْبتهم إليه أمْرٌ باطِنٌ. والحكم بالظاهِر أوفق وأقربُ. ويُقال: تصَوَّف، إذا لبِسَ الصوف. كما يُقال: تَقَمَّصَ إذا لبِسَ القميصَ.

والنسبة إليه صُوفِي. قال سَهْلُ التستري:

الصُّوفِي: مَن صَفَا منَ الكَدَرِ. وامْتَلأَ مِنَ الفِكَرِ. وانقطع إلى اللَّهِ من التبشيرِ، واسْتوى عنده الذَّهَبُ والمَدَرُ. أَيْ لاَ رَغْبَةَ لهُ في شيءٍ دُونَ مَوْلاَهُ.

وقال الإمام الْجُنَيْدُ: الصُّوفي، كالأرض، يطرح عليها كل قبيح، وَلاَ يخرج منها إلاَّ المليح. وقال أيضاً: الصوفي كالأرْضِ، يطؤها البَرُّ والفَاجِر. وكَالسَّماءِ يُظِلُّ كلَّ شيءٍ، وكَالمطَرِ، يسْقي كل شيْءٍ.

التَّوْبَةُ: الرجوع عَنْ كُلِّ فعْلٍ قبيحٍ، إلى كل فعْلٍ مَليحٍ. أَوْ وصْفٍ دَنِيّ، إلَى التحقق بكلِ وصف سَنِيٍّ. أَوْ عن شهود الخلق، إلى الاستغراق في شهُودِ الحقِّ.

وَشُرُوطها: النَّدَمُ، والانقطاع ونفي الإصرار. وأَمَّا رد المظالم، فَفَرْض مُسْتَقِلٌّ تصِحُّ بِدُونِهِ. كَما تَصِحُّ من ذَنبٍ مَعَ الإِصْرَارِ على آخَرَ من غَيْرِ نَوْعِهِ.

فَتَوْبَةُ العَامَّةِ من الذُّنوبِ. وتَوْبة الخَاصَّةِ مِنَ الْعُيُوبِ، وتوْبة خَاصَّة الْخَاصَّةِ مِن كُلِّ ما يشغل السِّرَّ عن عَلاَّمِ الغيوبِ. وكُلّ المَقَامَات تفتقر إلى

التَّوْبَةِ. فَالتوبة تفتقِر إلى توبَةٍ أُخرى بِعَدَمِ نصوحِهَا. والخوف يفتقِر إِلَيْهَا، بِحُصولِ الأَمْنِ وَالاِغْتِرَارِ. والرَّجَاء بِحصولِ القنوطِ والإِياس. والصَّبر بحصول الجزَع. والزُّهد، بخواطر الرَّغْبَة. والوَرَع، بتتبع الرُّخَصِ. بخواطِر الطمع. والتوكل؛ بخواطِرِ التَّدْبِيرِ وَالاختيارِ، والاهتمام بِالرِّزقِ، والرِّضَى، والتسْلِيم بالكرَاهية. والتبرِّي عند نزول الأقدار. والمراقبة بسُوءِ الأدَبِ في الظَّاهِر. وخواطر السّوءِ في الباطِنِ والمحاسَبَة بتضييع أوقات فِي غَيْر ما يقرِّب إلى الحقِ. والمحبَّة بمَيْل القلْبِ إلى غَيْر المحبوب. والمشاهدة بِالتفاتِ السِّرّ إلى غيْر المشهود. أَو باشتغالِهِ بالوُقُوفِ مَعَ شيْءٍ مِنَ الحسِّ وَعَدم زيادة التَّرَقي في مَعَارِج الأسْرار. ولذلك كَان عليه الصلاة والسلام، يسْتغفِرُ في المجلس الواحِدِ سبْعين مرّة أَوْ مِئة. والتوبة النُّصوح يجمعُهَا أَربعة أشياء:

الاستغْفَارُ بِاللسانِ، والإِقلاع بالأبْدَانِ. وعَدَم الإِصرارِ بالجنانِ، ومُهَاجرة سيء الخِلاَّنِ.

وقال سُفْيَان الثَّوْرِي: علامة التوبة النصوح أَرْبعَة:

القِلَّة، والعِلَّة، والذِّلَة، والغرْبة.

الإِنَابَةُ: وهي أَخَفّ من التوبة: لأَنه رُجُوع يَصحبه إنكسارٌ، ونُهُوضٌ إِلَى السَّيْرِ. وهي ثَلاَث مَرَاتب: رُجُوع من الذَّنْبِ إلى التَّوْبَةِ. ومِنَ الغفْلةِ إِلى اليَقَظَةِ. ومِنَ الفَرْقِ إلى الجمع على اللَّهِ.

الْخَوْفُ: اِنْزِعَاجُ القلْبِ من لحوقِ مكْروهٍ، أَوْ فَوَاتِ مَرْغُوبٍ، وثَمَرَته: النُّهُوض إلى الطاعةِ. والْهُرُوب من المعصية. فإظهارُ الخوْفِ مَعَ التقصير دَعْوَة. فخوْفُ العَامَّة من العِقاب، وفَوْت الثَّوابِ، وخَوْف الخاصَّة من العِقَابِ، وفوْت الإقترابِ. وخَوْف خَاصَّة الخَاصَّة، من الاحتجابِ بعروض سوءِ الأَدَبِ.

الرَّجَاءُ: سكون القلْب إِلى انتظَار محْبُوبٍ، بشْرطِ السَّعْيِ في أَسْبَابِهِ. وَإِلاَّ فَأُمْنِيَةٌ وغُرُورٌ. فَرَجاء العامَّة حسْن المَآبِ بِحصول الثواب، ورجاء الخاصَّة: حُصُول الروضوان والإقتراب. وَرجَاء خاصَّة الخاصَّة، التمكّن من الشهُودِ، وزيادة الترقي في أَسْرار المَلِكِ المَعْبُودِ. والخوْف والرجاء للقَلْبِ، كَجَنَاحَي الطَّائر. لاَ يطير إِلاَّ بِهِمَا. ورُبَّمَا يُرجِّح الرجاء عند العارفين، والخوف عن

الصالحينَ.

الصَّبْرُ: حبْسُ القلب عَنْ حُكم الرَّبِّ. فَصَبْرُ القَلْبِ على مشاقِّ الطاعاتِ. وَرَفض المخالفات. وصَبْر الخاصَّة: حبْس النَّفس عن الرياضيات والمجاهدَاتِ. وارْتكاب الأهوالِ، في سلوكِ طريق الأحوالِ. مع مراقبة القلبِ في دوام الحُضُور، وطلب رفع الستور. وصَبْر خاصَّة الخاصَّة: حبْس الرُّوحِ والسِّرّ في حضرة المشاهداتِ والمُعَايِنَاتِ، أو دوام النَّظْرَةِ، والعكُوفِ في الحَضْرَةِ.

الشُّكْرُ: فَرَحُ القَلْبِ بِحصول النِّعمَةِ، مَعَ صَرْف الجوارحِ في طَاعَةِ الْمُنْعِمِ، والاعتراف بنعمة المُنعِم على وجه الخضوع، ومَرْجعه لثلاثٍ:

شُكْر باللِّسَانِ: وهو اِعترافِه بِالنِّعْمَةِ بِنَعْتِ الاسْتِكَانَةِ، وشكر بالبَدَنِ. وهو اتِّصافه بالخِدْمَةِ. وشكْر بِالقَلْبِ، وهو شهُود الْمُنعِمِ عند حُصُولِ النِّعْمَةِ.

الْوَرَعُ: كفّ النَّفس عنِ ارْتِكَابِ مَا تُكْرَهُ عاقِبَتُهُ. فَوَرَعُ العَامَّةِ: تَرْكُ الْحَرَامِ والمُتَشَابِهِ، وَوَرَعُ الخَاصَّةِ: تَرْكُ كلِّ مَا يكَدّر الْقَلْبَ، ويَجد مِنْه كزَازة وظُلْمَة. ويجمعُهُ قولهُ عليه الصلاة والسلام: «**دَعْ مَا يُرِيبُكَ إِلَى مَا لاَ يُرِيبُكَ**»[1]. وَوَرَع خاصَّة الخاصَّة: رفْض التعلق بِغَيْرِ اللَّهِ، وسَدّ بابِ الطَمَعِ فِي غَيْرِ اللَّهِ. وعكوفُ الْهَمّ على اللَّهِ. وَعَدَمُ الرّكُونِ إلى شَيْءٍ سِوَاهُ. وهٰذَا هو الوَرَع الذي هو ملاك الدين. كَمَا قال الحسن البصري حين سُئِلَ. ما ملاك الدِّين؟ فقال: الوَرَع. فقيل له: وما فسَاد الدِّين؟ فَقَال: الطَّمَعُ. فالوَرَعُ الذي يقابل الطمع، كل المُقَابَلة. هو وَرَع خَاصَّة الخاصَّة. وجزء منه يَعْدِل آلافاً من الصَّلاة والصيام. ولذلكَ قال في التنوير: «وليْس يدلّ على فَهْم العَبْد كَثْرَة عِلمِهِ. وَلاَ مُدَاوَمَته على وِرْدِهِ. وإنما يدلُّ على نورِهِ وفَهْمِهِ غِنَاه بربِّهِ. والخياشة إليهِ بِقلبِهِ. والتحرر من رِقّ الطَّمَع. والتحلّي بحلية الورع. يعْني ورع الخاصَّة أو خاصَّة الخاصَّة، والله تعالى أَعْلَمُ.

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، كتاب البيوع، حديث رقم (٢١٦٩) [٢/ ١٥] وابن حبان في صحيحه، ذكر الزجر عما يريب المرء من أسباب هذه الدنيا: حديث رقم (٧٢٢) [٢/٤٩٨] ورواه غيرهما.

الزُّهْدُ: خُلُوُّ الْقَلْبِ مِنَ التعلقِ بِغَيْرِ الرَّبِّ. أَو بُرُودةُ الدُّنيا مِنَ الْقَلْبِ، وعزوف النفس عنْهَا. فَزُهْد الْعَامَّة: تَرْكُ ما فَضُل عن الحاجَةِ في كل شَيْءٍ، وَزُهْدُ الخَاصَّةِ: تزكُ مَا يشغل عن التقرب إلى اللهِ في جميعَ الأوقاتِ. **وحاصل الجميع**: بُرُودة القَلْبِ عن السّوى، وعن الرَّغْبَةِ في غَيْرِ الحبيبِ؛ وهو سبَب المحبة. كما قال عليهِ الصلاة والسلامُ: «**ازْهَدْ فِي الدّنْيَا يُحِبّكَ اللّهُ**»[1]. الحديث؛ وهو سَبَبُ السَّيْر والوصول. إذْ لاَ سَيْرَ لِلقَلْبِ إذا تَعَلَّقَ بشيءٍ سِوَى المحبوبِ.

التَّوكُلُ: ثِقة القَلْبِ باللّهِ، حتى لاَ يَعْتَمد على شيءٍ سواهُ. أَو التعلق باللّهِ، والتعويل عليهِ في كلّ شيْءٍ، علماً بأنه عالمٌ بِكلّ شيْءٍ. وأَن تكون بما في يَدِ اللّهِ، أَوْثَقُ مِنْكَ بِمَا في يَدكَ. فأَدْناهُ أَنْ تكون مَعَ اللّهِ. كالمُوَكِّل مَعَ الوكِيلِ الشفيق الملاطِف. ووسطهُ كالطفلِ مَعَ أُمِّهِ، لاَ يَرْجع في جميع أُموره إلاَّ إلَيْهَا. وأَعْلاهُ أنْ تكون كَالْمَيِّت مع الغَاسِلِ. فالأول للعامَّة. والثاني للخاصَّة. والثالث لخاصَّة الخاصَّةِ. فالأول قَدْ يَخْطُرُ بِبَالِهِ تُهْمَة. والثاني لاَ اِتِّهَامَ لهُ. لكن يتعلَّق بِأُمِّهِ عِنْدَ الحاجَةِ، والثالث: لاَ اِتِّهامَ، وَلا تعلق لهُ. لأنه فانٍ عن نفسِهِ. ينظر كل سَاعة ما يَفْعل اللّهُ بِهِ.

الرِّضَى وَالتَّسْلِيمُ: الرِّضَى تَلَقِّي التَمَالكِ بِوَجْهٍ ضَاحِكٍ. أَو سُرُورٍ يجده القلبُ عند حلول القَضَاءِ، أَو تركِ الاِخْتِيَارِ مَعَ اللّهِ، فيمَا دَبَّرَ وَأَمْضَى. أَوْ شرْح الصَّدْرِ وَرَفْع الإِنْكَارِ، لمَا يَرِد من الواحِد القهَّارِ.

والتسليم: ترْك التَّدْبيرِ والاِختيار، بالسكونِ تَحْتَ مجاري الأَقْدَارِ. فيرادِف الرِّضَا عَلَى الحدِّ الأخِيرِ، والرِّضى أَعَمُّ عنه على الأَوَّلَيْن. وقيل الرِّضَى يكون عند النُّزُولِ؛ وهو التفويض بعينِهِ. فبِدايتهما بالصَّبْرِ والمجاهدةِ. وَوسطهما بالسكونِ مع خواطر التبرّم والكراهية. ونهايتهما بفرَحٍ وسكونٍ مَعَ عَدَم التبرُّمِ.

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، كتاب الرقاق حديث رقم (٧٨٧٣) [٤/ ٣٤٨] وابن ماجة في سننه، كتاب الزهد، حديث رقم (٤١٠٢) [٢/ ١٣٧٣] ورواه غيرهما.

فالأولُ للعامَّةِ، والثاني للخاصَّة، والثالث لخاصَّة الخاصَّةِ. ويُغْتَفَرُ الخاطر الأوَّلُ عِنْدَ الجميعِ لضعفِ البشرية، إذ لاَ يَخْلُو منهُ بَشَرٌ.

الْمُرَاقَبَةُ: إِدَامَة عِلم العَبْدِ باطّلاعِ الرَّبِّ. أَوِ القيام بحقوقِ اللَّهِ سِرًّا وَجَهراً. خالصاً مِنَ الأَوْهَام. صادقاً في الاِحْتِرام؛ وهِيَ أَصْل كلِّ خَيْرٍ، وبِقَدْرِهَا تكون المشاهدة. فَمَنْ عَظُمَتْ مُرَاقبَتهُ، عَظُمَت بعد ذلِكَ مُشاهدتهُ.

فَمُرَاقبةُ أَهْل الظَّاهِرِ: حِفظ الجوارحِ من الْهَفَوَاتِ. ومُرَاقبة أهلِ الْبَاطِنِ: حفظ القُلُوب من الاسْتِرسَالِ مع الخواطر والغفلاتِ. ومُراقبة أَهْلِ باطنِ الباطِنِ: حفظ السِّرِّ من المساكنَة، إلى غَيْر ذلِكَ.

الْمُحَاسَبَةُ: عتابُ النفسِ على تضييع الأَنْفاسِ والأوقاتِ، من غَيْرِ أَنْوَاعِ الطَّاعَاتِ. وتكون آخر النَّهارِ كمَا أَنَّ المشارطَة، تكون أَوَّلَ النَّهار. يقول لنفسهِ في أَوَّل نهاره: هٰذَا يوم جَديدٌ؛ وهو عليك شَهيدٌ. فاجتهدِي في تعمير أَوْقاتِهِ، بما يقرّبكَ إلى اللَّهِ، ولو مِتّ بالأمسِ لفَاتَكِ الخَيْرُ الَّذِي تَفُوزينَ بِهِ فِيهِ. وكذلكَ يقول لها عند إقبالِ اللَّيْل، ويُحَاسبها عند إِدْبَارِهِ. هكذا يدوم عليها ومعها حتَّى تتمكَّنَ مِنَ الحَضرَةِ. فحينئذ يتّحدُ الوقت؛ وهو الاسْتِغْرَاق في الشهودِ. فَلاَ يَبْقَى مَن يُحاسب، وَلاَ مَنْ يُعاقب. فتحصَّلَ أَنَّ المُشَارطَة أَوّلاً، والمحاسبة أَخيراً والمراقبة دائماً، ما دَامَ في السَّيرِ. فإذا حَصَلَ الوُصُول، فَلاَ محاسَبَة وَلاَ مُشارطة.

الْمَحَبَّةُ: مَيْلٌ دَائِمٌ بِقلبٍ هَائم، وَيَظهر هٰذَا الْمَيْلُ أَوّلاً على الْجَوَارِحِ الظَّاهرة بالخدمةِ؛ وهو مقام الأبرارِ. وثانياً على القلوب الشائقة بالتصفية والتحلية. وهو مقام المزيد مِنَ السَّالكين. وثالثاً على الأرواح والأسْرَار الصافية. بالتمكين من شهود المحبوب؛ وهو مقام العارفينَ. فبداية المحبَّة، ظهور أَثرها بالخِدمَةِ. وَوَسَطها ظهور أَثرها بِالسكْرِ والهِيَام. ونهايتها ظهوره بالسكون والصَّحْوِ في مقام العرفَانِ. فلهذَا انْقَسم النَّاس على ثلاث مَرَاتبَ:

أَرْبَابُ الخِدْمَةِ، وأَرْباب الأحْوال، وأَرْبابِ المقامات. فَبِدَايَتهَا سُلوكٌ، وخِدمة، وَوَسَطُهَا جَذْبٌ وَفنَاءٌ، وَنِهَايَتُهَا صَحْوٌ وَبَقَاءٌ.

الْمُشَاهَدَةُ وَالْمُعَايَنَةُ: المُشاهدة: رؤية الذَّات اللطيفة، في مَظَاهِرِ تجلّيَاتها

الكَثِيفة. فترجع إلى تكثِيفِ اللطيفِ، فَإِذَا ترَقّق الوِدَادُ، وَرجعتِ الأنوار الكثيفة لطيفة؛ فهِيَ المُعَايَنَةُ، فترجع إلى تلطيفِ الكثيف. فالمعايَنَة أَرَقّ منَ المُشَاهدةِ وَأَتَمُّ.

والحاصِلُ، أنَّ شهود الذَّات، لاَ يُمْكِنُ إلاَّ بِوَاسِطَةِ تكثيفِ أَسْرَارِهَا اللطيفة في مظَاهر التجلياتِ. إذ لاَ يمكِنُ إدْرَاكُ اللَّطيف، ما دَامَ لطيفاً. فرؤية التجليات كثيفة مشاهدة. وَرَدّها إلى أَصْلِها بِانطِبَاقِ بَحْرِ الأحَدِية عليْها مُعَايَنَة، وقيل هما سواء.

الْمَعْرِفَةُ: وهي التّمكين من المشاهدة واتصالهَا؛ فهي شهود دَائم، بِقلبِ هَائِمٍ. فَلاَ يشهد إلاَّ مَوْلاَهُ. وَلاَ يَعرج على أَحَدٍ سواهُ. معَ إِقامَة العدلِ وحفظ مَراسِمِ الشريعة. فهَذه حدود مقامات قد انتهَتْ في المعرفة.

التَّقْوَى: وهي إمتثالُ الأوامر، واجتناب المَنَاكر، في الظواهِرِ والسّرَائر. ومواصلة الطاعات. والإعراض عن المخالفاتِ. فتقوى العامّة: اجتنَابُ الذنوبِ. وتقوى الخاصَّةِ: التَّخَلّي من العيوبِ. وتقوى خاصّة الخاصَّةِ: الغَيْبَة عَنِ السّوء به، بالعكوف في حضرة عالم الغيوبِ.

الاِسْتقامَةُ: إستعمال العلم بأقوال الرسول ﷺ. وأَفعاله وأَقواله وأَحْواله وأَخلاقه، من غَيْر تعمق وَلاَ تأنقٍ. وَلاَ ميْل مع أو عدم الوسواس. أَو الخروج عن المَعْهُودَات، ومفارقة الرسوم والعادات. أو القيامِ بيْن يدي الله تعالى، على حقيقة الصِّدْقِ في جميع الحالاَت. وهي في الأقوالِ بِتركِ الغِيبَةِ، وفِي الأفعال بتَرْكِ البِدْعَةِ، وفي الأحْوَال بعدَم الخروج عن سنَنِ الشريعة.

فَاسْتِقامَة العامّة بموافقة السُّنَّةِ. واسْتقامَة الخاصّة، بالتخلق بالأَخْلاَقِ النّبِيلة. واسْتقامة خاصّة الخاصّة بالتخلق بِأَخلاقِ الرحْمٰن، مع الاسْتغراق في حضرة العِيَانِ.

الإِخْلاَصُ: إخراج الخلق مع معاملة الحقّ. وإفراد الحق تعالى في الطاعة بالقَصْدِ. أَو غَيْبَة القلبِ عن غَيْرِ الرَّبِّ. فَإِخْلاَصُ العامّةِ، تصفية الأعمال عن ملاحظَةِ المَخْلُوقينَ. وإخلاص الخاصَّة: تصفيتها عَنْ طَلَبِ الْعِوَضِ في الدَّارَيْنِ. وإِخْلاصُ خاصَّة الخاصَّة: التبرّي من الْحَوْلِ والقوةِ، ومِن رؤيةِ الغيْر

في القصْد والحركة حَتّى يكونَ الْعَمَل بِاللَّهِ، وإلى اللَّهِ، غائِباً عَمَّا سِوَاهُ.

الصِّدْقُ: إسْقاط حظوظ النَّفْس، في الوِجْهَة إلى اللَّه تعالى. تعويلاً على ثَلَجِ اليَقينِ. أَو استواء الظَّاهِرِ والباطن في الأقوال والأفعال والأحْوَالِ أَو ملاَزَمَة الكتمَانِ، غيْرة عن أَسْرار الرحمْن. وَحَاصله: تصفية الباطِن من الالِتِفَاتِ إلَى الغَيْرِ بالكلية. والفَرْق بيْنهُ وبيْن الإِخلاصِ، أَنَّ الإِخلاصَ يُنفِي الشِّرْكَ الجلِي والخَفي. والصِّدْق يُنفِي النفاق والمداهنة بالكلية. فمثال الصِّدق مع الإِخلاصِ، كالتَّشجِرَةِ للذَّهَبِ. فهُو يُنفِي عنه عوارض النفاق. ويصفيه من كدورة الأوهام. وذلِك أَن صَاحِبَ الإِخْلاَصِ، لاَ يَخْلُو من مُدَاهَنةِ النَّفْسِ، وَمُسَامحة الهَوَى، بخلافِ صاحب الصدقِ، فإنهُ يُذهب المُداهنات، ويرفع المسامحات. إذ لاَ يَشمّ رائحة الصِّدْقِ من دَاهَن نَفْسَهُ أَوْ غَيْرَهُ فيما دُق أَو جُلّ. وعلاقة الصدق: اسْتواءُ السِّرّ والعَلانيةِ. فلا يُبالِي صاحب الصِّدْقِ بكشف ما يَكرهُ اِطْلاع النّاس عليه، وَلاَ يسْتحيي مِن ظهوره لغَيْرِهِ اِكْتِفاءَ بعلمِ اللَّهِ بِهِ.

فصِدْق العامَّةِ، تصفية الأَعمال، من طلب الإِعراضِ. وصدق الخاصَّة، تصفية الأَحْوَال، من قصْد غَيْر اللَّهِ. وصِدق خاصَّة الخاصَّةِ: تصْفية مشْرَبِ التوحيد، من الاِلْتفَاتَاتِ إِلَى ما سِوَى الله. وَيقالُ لصاحب المقام الأول صادقٌ. والثاني والثالث صِدِّيق. وأَما التصديق بوجودِ الحق أَو بوجودِ الخصوصية عند الأولياءِ، وتعظيمهم لأجلهَا. فَهُوَ تصديق لاَ صِدّق. خلاف ما يعتقده بعض فقراءِ زماننا هذا. ويُقال لمَن عظم تصديقه: صديق أَيْضاً: فالصّدّيق يطلق على من عظم صدقه وتصديقهُ.

الطُّمأْنِينَةُ: وهي سكون القلب إلى الله، عارياً عن التقلب والاضطرابِ. ثقةً بضمانِه أَو اكتفاءَ بِعِلْمِهِ. أو رسوخاً في معرفته. وتكون من وراء الحجابِ، بتواتُر الأدِلّةِ. واستعْمال الفكرةِ، أو بتوالي الطَّاعةِ، ومجاهدة الرياضة. وتكون بعد زوال الحجَاب، بتمكينِ النظرةِ، ورسوخِ المعرفة. فقوم اطمأنُّوا بُوجودِ اللَّهِ من طريق البُرْهان أَوِ البَيَان. وقوم اطمأَنوُا بشهودِ اللَّهِ بعد ظهورِهِ من طريق العِيَانِ. فالأول للعلماءِ، والثاني للعُبَّادِ والزُّهَّادِ والصالحينَ. والثالث للعارفين المتقرّبينَ.

الشَّوْقُ وَالاِشْتِيَاقُ:

الشوق: إِفْرَاغ القلبِ إلى لقاءِ الحبيبِ.

والاِشْتياق: إِرتياح القلب إِلَى دوام الاِتِصَالِ بِهِ. فالشوق يزول بِرُؤيَةِ الحَبيبِ ولِقائِهِ. والاِشْتياق لاَ يزول أَبَداً بطلب الروح والزيادة في كشف الأَسْرَار، والقرْب إلى الأَبَد. فشوق الْعامَّة إلى زخَارِف جنَانِهِ. وشوق الخاصَّة إلى نَيْل رضوانِهِ. وشوق خاصَّة الخاصَّة، إلى حَضرةِ عِيَانِهِ.

الْغَيْرَةُ: كراهية رؤية حبيبكَ عندَ غَيْركَ. فيهيج التنافس في حيَازته. قال الشبلي: الغَيْرَة غَيْرَتانِ: غَيْرة البشرية على النفوس، وغيْرة الألوهية على القلوب. ومعناه: أَنَّ الطبع البشريّ يكْرَه أَن يَرَى مَحْبُوبَهُ عنْد غَيْره. كَالزَّوجَةِ مثلاً. والحق تعالى يَكْرَهُ أَن يَرَى قلوب أَوْليائِهِ متعلقة بِغَيْرهِ. وفي الحديث النبوي، الذي رَوَاهُ ابْن مسعود، وخرَّجه البخاري، وأحمد والترمذي، قوله ﷺ: **«لاَ أَحَدَ أَغْيَرُ مِنَ اللَّهِ»**. ولذلك حرَّمَ الفواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ. وما في الوجود إِلاَّ الْغَيْرَةَ الإِلَهية، سَرَتْ في مَظَاهر تجلياته. فَغيْرة النفوس للعامَّةِ؛ وهي غيْرتهم على هتْكِ حرْمةِ حَريمهم. وغيْرة القلوب للخاصَّة؛ وهي غيْرتهم على قلوبهم، أن تميل لغَيْر محبوبهم. وغيْرة الأرواح والأسرار، لخَاصَّة الخاصَّةِ؛ وهي غَيْرتهم على أَرْوَاحِهِم، أَنْ تلْتفت إلى شيءٍ دونَ مَحْبُوبِهِم. وغيْرتهم على حَبِيبهم، أَنْ يميل إلى غَيْرهم. وعلى هذا الأمر العظيم، حُق للعبد أن يَغَار كما قول الشاعر:

إِذَا لَـمْ أُنَـافِـسْ فِـي هَـوَاهُ وَلَـمْ أَغَـرْ ... عَلَيْكَ فَفيمَن ليْتَ شعري أُنَافِسُ

فَلاَ تَـمْقُـتَنَّ نَـفْسِـي فَأَنْتَ حَـبِيبُـهَا ... فَكُلّ امْرىءٍ يَصْبُو إِلَى مَنْ يُجَانِسُ

قد يغارُ الحق تعالى على أَوليائِهِ. فينتقم من أعدائهم إذا آذَوْهُمْ. ومن غَيْرته أَيْضاً عليهم: أَلاَّ يُظهرهم لجملة الخلقِ. فَيَضِنّ بهم على خلقِهِ، حتى يلقوْه تحت أَسْتارِ الخمولِ، وهم عرائسُ حضرتِهِ.

الْفُتُوَّةُ: وهي الإِيثار على النَّفْس بِمَا تحِبُّ. والإِحْسانُ إلى الخلق بِما يحِبُّ. لِذَا قيل: لَمْ تكْمُل الفُتُوَة إلاَّ لرسولِ اللَّهِ ﷺ، حيْثُ يقول في مَوْضع: لاَ يذكر فيه أَحداً حتى نفسه: **«أُمَّتِي أُمَّتِي»**. وقيل: أَلاَ ترى لنفسِكَ فضلاً على غَيْرِكَ. والفتَى من لاَ خَصْم لَهُ، ومرجعها إِلَى السَّمَاح والتواضع، والشجاعة في

مَوْطِنِ الاضطِرابِ. ففتوّة العامّة بالأموالِ، وفتوّة الخاصّةِ بِالنُّفُوسِ. وفتوة خاصّة الخاصّة بالأرواحِ وَبَذْل المُهَجِ في جَانِبِ المحْبُوبِ.

الإِرَادَةُ: هي قَصْد الوصول إلى المحبوب بِنَعْت المجاهدة. أو التحبّبِ إلى الله بمَا يَرْضَى. والخلوص فِي نَصيحَة الأمّةِ، والأنس بالخلوةِ، والصَّبْر على مقاسات الأَهْوَالِ، ومُنَازلاَت الأحْوَالِ، والإيثار لأَمْرِهِ. والحياء من نظرِهِ. وبَذْل المجهودِ في محبوبِهِ. والتعرّض لكل سَبب يوصل إليه. ومحبَّة من يَدرّ عليْه، والقناعة بالخمولِ، وعدم سكون القلْبِ إلى شيء دون الْوُصول؛ وهي أول منزلة القادمين وطريق السَّالِكِينَ.

الْمُرِيدُ: من لاَ إِرادةَ له دون مَوْلاَهُ؛ وهي ثلاثة مراتب: إرادة التبرك والحُرْمة؛ وهي لمَن ضعفتْ هِمَّتُهُ، أَوْ كثرتْ عَلاَئِقهُ. وإرادة الوصول إلى الحَضْرَة؛ وهي لأهْل التجريد وقوَّة العَزْمِ. وإِرادة الخِلاَفَة وكَمال المعرفة؛ وهي لِمَنْ ظَهَرتْ نَجَابَتهُ. وكَملت أَهليته. وصرّحَ له بالخلافة من شيْخ كاملٍ. أَو هاتف صادِقٍ.

الْمُجَاهَدَةُ: وهي فَطْمُ النَّفس عن المألُوفاتِ، وحملها على مخالفة هواهَا في عموم الأوقات. وخرق عوائدها في جميع الحالات. قال بَعْضُهُم؛ مَرْجعها إلى ثلاث: لاَ تأْكُلْ إلاَّ عند الفاقة، وَلاَ تنامُ إلاَّ عند الغَلبَةِ. ولاَ تتكلَّمُ إلاَّ عنْدَ الضرورة. ونهايتها المشاهدة، فَلاَ مجاهدة بَعْدَهَا. فلاَ تجمع مجاهدة ومشاهدة. إذ نهاية التَّعَبِ، تمام السَّفرِ. فَإذا حَصَلَ الوصول، فما بَقِي إلاَّ الرَّاحة. ومُشاهدة الحبيب مع حِفْظِ الأدَبِ، وهي ثلاث: مجاهدة الظَّوَاهر بدوام الطاعاتِ وكفّ المَنهيات. ومجاهدة البواطن، بنفي الخواطر الرديئة، ودوام الحضور في الحضْرَةِ القدسية. ومجاهدة السَّرائِرِ باستدامة الشهودِ. وعدم الالتفات إلى غَيْر المعبودِ.

الْوِلاَيَةُ: وهي حُصُول الأنسِ بعد المكَابدة. واعتناق الرُّوح بعد المجاهَدَةِ. وحاصلها: تحقيق الفناء في الذَّات، بعد ذَهاب حسّ الكَائنات. فيفنَى ما لم يكُنْ ويَبْقى ما لم يزلْ. فأَوّلها التمكين من الفناءِ، ونهايتها التحقيق بالبقاءِ، وبقاء البقاءِ. ويَبْقى التَّراقي والاتساع فيها أَبداً سَرْمداً إلى مَا لاَ نهاية له. قال إِبراهيم بن أَدْهَم لرَجلٍ: أَتُحبُّ أَنْ تكون لله وليًا؟ قال نَعَمْ. قالَ لاَ تَرْغب

في شيْءٍ من الدّنيا والآخرة. وفرّغ نفسكَ لله عزّ وجلّ. وأَقبِل بِوَجهكَ عليه. يرق عليك ويواليكَ. وقال غيْرُهُ: الوليّ من كَان همُّهُ اللّهُ، وشغله اللّهُ. وفناؤه دائماً في اللّهِ. وتطلق على ثلاث مَرَاتب: وِلاَية عامّة؛ وهي لأَهْلِ الإِيمَانِ والتقوى. كما في الآية؛ وهي قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ٦٢]. وَوِلاَية خاصّة: وهي لأَهل الاسْتِشرافِ على العلم باللّهِ. وَوِلاَية خاصّة الخاصّةِ؛ وهي لأهل التمكّن في معرفة اللّهِ على نَعْتِ العِيَانِ. قيل: مَنْ أوْلِياء اللّهِ يا رسول اللّهِ؟ قال: «المتحابُّونَ في اللّهِ». وفي رواية: «**الذين نَظَرُوا إلى باطِنِ الدّنيا، حينَ نَظَرَ النّاس إلى ظَاهِرِهَا**».[1] الحديث. فشمل الحديث وِلاَية الخاصّة، وَخَاصّة الخاصّة. والله تعالى أَعْلَمُ.

الْحُرِّيَّةُ: وهي تصفية الباطِنِ، من حُبِّ غَيْر الحقِّ، حتى لاَ تبْقى فيه بقية لغَيْر اللّهِ، وهذه الحرية الكَسْبية؛ وهي سبَب الظّفر بالحرية الْوهبية؛ وهي غيبة العَبْد فِي مظَاهر الرّبِّ. فتَنْتفِي ظلمة الحدوث في نورِ الْقِدم. وتختفي قَوَالِبُ العبودية، فهِي تجلّي مظاهر الرّبوبية. فيبقى الخلق بِلاَ خلْق. فحينئذ يكتب للعَبْد عقد الحرية، فتكون عبادة وعبودية. شكراً لاَ قهراً. كما قال سيّد

(١) قال الإمام السيوطي في الدر المنثور: «أخرج أحمد في الزهد وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن وهب قال قال الحواريون: يا عيسى من أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. قال عيسى عليه السلام: الذين نظروا إلى باطن الدنيا حين نظر الناس إلى ظاهرها والذين نظروا إلى آجل الدنيا حين نظر الناس إلى عاجلها وأماتوا منها ما يخشون أن يميتهم وتركوا ما علموا أن سيتركهم فصار استكثارهم منها استقلالا وذكرهم إياها فواتا وفرحهم بما أصابوا منها حزنا وما عارضهم من نائلها رفضوه وما عارضهم من رفعتها بغير الحق وضعوه خلقت الدنيا عندهم فليس يجدونها وخربت بينهم فليس يعمرونها وماتت في صدورهم فليس يحبونها يهدمونها فيبنون بها آخرتهم ويبيعونها فيشترون بها ما يبقى لهم ويرفضونها فكانوا برفضها هم الفرحين وباعوها فكانوا ببيعها هم المربحين ونظروا إلى أهلها صرعى قد خلت فيهم المثلات فأحبوا ذكر الموت وتركوا ذكر الحياة يحبون الله تعالى ويستضيئون بنوره ويضيؤن به لهم خبر عجيب وعندهم الخبر العجيب بهم قام الكتاب وبه قاموا وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا وبهم علم الكتاب وبه علموا وليس يرون نائلا مع ما نالوا ولا أماني دون ما يرجون ولا خوفا دون ما يحذرون.

العارفينَ ﷺ: «أفَلاَ أكون عبداً شكوراً»(١)، وقال إمَامُ هذِه الطائفة: الجُنَيْد: «عبادة العارف تَاجٌ على الرّؤوس». يَعْنِي كمال الكَمَال.

الْعُبُودِيَّةُ: وهي القيام بِآدَابِ الرّبوبية، مع شُهودِ ضعف البشرية. وقال بَعْضهم: هي القيام بحق الطاعات، بشرْط التوقير، والنظر إلى ما فيكَ بِعَيْن التقصير. أَو تركِ الاختيَارِ. فيما يَبْدو من الأقدار. أَو التبرّي من الحول والقوة، والإقرار بما يوليك ويعطيك من المِنّة.

وأَجمعُ العبارات فيها، ما قاله ابن عطاء الله: حفظ الحدود، والوفاء بالعهودِ، والرضَى بالموجودِ. والصبر على المفقود. قلت: وأَحْسَن ما في تفسير العبودية، أَنْ تقدّرَ أَنَّ لكَ عبداً اشتريتَهُ بمالِكَ. فكما تحب أَن يكون عَبْدُكَ معَك، فكُن أَنْتَ مع مَوْلاَكَ. فالعَبْد لاَ يملك مع سيده شيئاً من نفسِهِ وَلاَ من مالِهِ، وَلاَ يمكنُه مع قَهْرية سيّده تدبيرٌ وَلاَ اختيارٌ. وَلاَ يتزَيّن إلاَّ بِزَيِّ العَبِيدِ أَهْل الخِدمة، ويكون عند أَمر سيدِهِ ونَهْيِهِ. وإذا كَان حاذقاً فَاهماً عمل ما يُرضي سيدَهُ، قبل أَن يدمرهُ، ويفهم عن سيده بأَدنى إشارة، إلى غيْر ذلك من الآداب المرضية في العبيد المؤدّبينَ. وقال أَبُو علي الدّقاق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «العبودية أَتَمُّ مِنَ العبادةِ» فَأَول المراتب عبَادة. ثم عبُودية، ثم عُبُودة. فَالْعِبادة للعوام، والعبودية للخواصّ. والعبودة لخواصّ الخواصّ. قلت: والعبودة هي الحرية الْوهْبية. والله تعالى أَعلمُ.

الْقَنَاعَةُ: الاكتفاء بالقِسْمَة وعدَمُ التشوق للزيادة. والاسْتِغْنَاءِ بالْمَوْجودِ. وترك التشوق إلى المفقودِ؛ وهي الحياة الطيبة، والرزق الحسن في قوله تعالى: ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ [الحج: ٥٨]. أي والذين هاجروا في سبيل الله، ثم قيلَ بعضهم أو ماتَ. ليَرْزقنّ اللَّهُ من بَقِيَ مِنْهُمْ رزقاً حسناً، وهي من ثَمَرَة الغِنَى باللَّهِ. قال وَهْبُ بنُ مَنْبَهِ: «إِنَّ العِزَّ والغِنَى، خرجا يجولاَنِ، فلَقِيَا القَنَاعة، فاسْتقَرّا فيها». ومرجعها إلى سَدِّ باب الطمع، وفتح باب الوَرَعِ. وهي

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، باب قوله تعالى: «ليغفر لك الله..» حديث رقم (٤٥٥٦) [٤/ ١٨٣٠] ومسلم في صحيحه، باب إكثار الأعمال والإجتهاد في العبادة، حديث رقم (٢٨١٩) [٤/ ٢١٧١] ورواه غيرهما.

مَطْلُوبَةٌ في أُمُور الدّنيا فقط. وأَمَّا فِي أُمُور الآخِرَةِ، أَوْ في زيادة العلم. والترقية في المعرفة فمَذْمُومَة؛ ولذا قيل: «القَنَاعة مِنَ اللَّهِ حِرْمَانٌ».

الْعَافِيَةُ: وهي سكونُ القلْب وخُلُوُّهُ مِنَ الانزعاجِ والاضطرابِ والتَّقلُّب. ثُمَّ إِنْ كَانَ بالسكونِ إلى الله، والرّضَى عنهُ؛ فهي العافية الكاملة. وإن كَان بجَرَيَانِ الأسْبَابِ الواقفة، فهي العافية العادية، وفي الحديث: «مَا أُعْطِيَ أَحَدٌ بَعْدَ اليقين خَيْراً مِنَ الْعَافيةِ»(١) فعافية الْعامَّة: سكونُهُمْ إلى الأسْبَابِ. فإذا انخرَمَتْ اضْطَرَبَتْ قلوبهم وتَزَلْزلَتْ لِخَرابِهَا من نور اليقين. كما قال بعضهم: «نَحْنُ كَالنُّجوم، كُلَّمَا اشتَدَّتِ الظلمَة، قَوِيَ نُورُنَا». وقال ذُو النُّون المِصْري رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ: «لَوْ كَانَتِ السماء من أُجاج، والأَرض من نحاسٍ، ومِصْرُ كلها عيالي. ما اهتَمَمْت لهُمْ بِرزقٍ». وعافية خاصَّة الخاصَّة: سكونهم إلى شهود الحقّ. غائبينَ عن الأسْبَابِ وَعَدَمِها. غرْقَى في بَحْر التوحيدِ؛ وأَسْرَار التفريد. لاَ تنزِل الهموم بساحَتهم. وَلاَ تكَدّر صفَاء شربهم. جعلنا الله منهم.

الْيَقِينُ: وهو سكُون القَلْب إلى اللَّهِ بِعلمٍ لاَ يَتَغَيَّر، وَلاَ يُحَوَّلُ وَلاَ يتقَلَّبُ، وَلاَ يَزُولُ عِنْدَ هيجَانِ المحرّكاتِ، وارْتِفَاع الرِّيَب، في مُشاهدة الغَيْبِ. وعلامته ثلاث:

رفع الهمة عن الخلق عند الحاجَةِ. وترْك المَدْح لهم عند العطية. والتنزّه عن ذَمهم عند المنعة. فيقين العامَّة بتوحيد أَفْعَالِهِ. فسكَنوا إليه في المنع والعطاءِ. ويقينِ الخاصَّة بتوحيد صفاتِهِ. فرأَوُا الخلْق مَوْتَى، ليْس بيَدهم حركة وَلاَ سكونٌ. يقين خاصَّة الخاصَّة، بتوحيد ذاتِهِ، فَشَاهدُوهُ في كل شيءٍ، وعَرَفوهُ عند كلِّ شيءٍ. ولم يشهدُوا معه شيئاً.

عِلْمُ الْيَقِينِ: وَعَيْنُ الْيَقِينِ، وَحَقُّ الْيَقِينِ:

علم اليقين ما كَان ناشئاً عن البُرْهانِ. **وعيْن اليقين**، ما نشأ عن الكشف والبيَان. **وحق اليقين**: ما نشأ عَنِ الشهودِ والعَيانِ. فعلم اليقين لأرْباب العقول

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الصغير، باب الألف من اسمه أحمد، حديث رقم (١٦٣) [١/ ١١٣] ورواه غيره.

من أَهْلِ الإِيمَانِ. وعيْن اليقين لأرْباب الوُجْدَانِ، من أَهْلِ الاسْتِشْرافِ على العيانِ. وحق اليقين، لأهْل الرّسوخِ والتمكين في مقام الإحسان.

ومِثال ذلِكَ: كمَن سَمِع بِمكّة مثلاً ولم يَرَهَا. فعنده علم اليَقِينِ بِوُجُودِهَا، فإذا اسْتشرف عليْهَا وَرَآهَا ولم يَدْخلها، فعندهُ عيْن اليَقِين. فإذا دَخَلَها وعَرَف طُرُقها وأَمَاكنها، فهذا عنده حق اليقين. وكذلكَ النّاسُ في معرفة الحق تعالى. فَأَهل الحجاب، اسْتَدَلُّوا حتى حصل لهم العلم اليقينِ بوجودِ الحقّ. وأَهل السَّيْر مِن الْمُرِيدِينَ الْمُشرفِين على الفناءِ في الذاتِ، حصل لهم عيْن اليقينِ، حين أشرقت عليهم أنوار المَعانِي. وغابَتْ عنهم ظلال الأوانِي. غيْر أنهم باقونَ في دَهْشة الفناءِ، لَمْ يتمكّنُوا من دوام شهودِ الحقّ. فَإِذا تمكّنُوا من دوام شهودِهِ، ورَسَخَتْ أَقدامُهُمْ فِي معرفَتِهِ. حصل لهم حقّ اليقين. وهذه نِهاية النِّعْمَة، وغاية السَّعَادَةِ جعلنَا اللَّه منهم بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ آمين.

النِّعْمَةُ: هي مُلاَزمة الأفراح، ومُبَاعدة الأتراح، وإصَابة الأغراض، ونَزَاهة الأعراض؛ وهي على قسْميْن: نعمة ظاهرة: كالصحة والعافية. والكِفَايَة من الحَلالِ. ونعمة باطنة، كالإيمان والهداية والمعرفة.

والنّاس في النعمة الظّاهرة على ثلاثة أقسام: قوم فرِحُوا بالنعمة لِمَا لهُمْ فيها مِنَ المُتْعَةِ، فحُجبُوا بِهَا عن المُنْعِم. وقوم فرحوا بالنعمة: لإقبال المُنعم عليهم. حيْث ذكّرهم بِهَا. وقوم فرِحُوا بِالمنعِم دون شيءٍ سواهُ. قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾. [الأنعام: ٩١] فشكر الأوّليْن، يزيد بِزيادتها، ويزول بِزوالها. وشكر الثالث دائم في السَّرّاء والضّراءِ؛ وهذا هو شكر الخواصّ.

الْفِرَاسَةُ: وهي خاطِرٌ يهجم على القَلْبِ. أَو وارد يتجلّى فيه، لاَ يُخْطِىء غالباً إذا صَفَا القلبُ. وفي الحديث: «اِتقُوا فِرَاسَةَ المُؤمِن، فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللّهِ»[1]. وهو على حسَبِ قوة القرْب والمعرفةِ. فكلما قوِي القرْب، تمكّنتِ

(١) رواه الترمذي في سننه، باب ومن سورة الحجر، حديث رقم (٣١٢٧) [٥/ ٢٩٨] والطبراني في المعجم الأوسط، من اسمه بكر حديث رقم (٣٢٥٤) [٣/ ٣١٢] ورواه غيرهما.

المعرفة؛ وصَدُقت الفِرَاسَة؛ لأنّ الروح إذا قربت من حضْرَة الحقّ، لاَ يتجلَّى فيها غالباً إلاّ الحق؛ وهي على ثلاث مراتب: فِراسة العامّة: وهي كشف ما في ضمائر النّاس، وما غاب من أَحْوَالِهِم؛ وهي فتنة في حقّ من لَمْ يتخلق بِأَخْلاقِ الرحمن. وفراسة الخاصّة: وهِيَ كشف أَسْرَارِ المقاماتِ والمُنَازَلاَت. والإطلاع على أنوار الملكوتِ. وَفَرَاسَةُ خَاصّة الخَاصّة: وهي كشف أَسْرَارِ الذَّاتِ، وأنوار الصّفَات. والغرْق في بَحْرِ أَسْرَار الجبروت.

وقال الكتّانِي: هي مكاشفة الحق، ومُعَاينة الْغَيْب. وقال الواسطِي: هي سواطع أنوار الذّاتِ، وتمكين جملة السِّرَائِرِ في الغيوب من غَيْبِ إلى غَيْبِ حتى يشهد الأشياء، من حيث أشهده الحق إِيَّاهَا. فيتكلم على ضمائر الخلق. قلت: قوله: فيتكَلّمُ، ليس بشرط في فِرَاسَة الخاصّة. والله تعالى أَعْلَمُ.

الْخُلُقُ: وهيَ ملكة تصدر عنه الأفعال بِسُهولة. ثم إِن كَانَتِ الأفْعَالُ حسَنَة، كالحِلْم والعفوِ والجودِ ونحوهَا، سُمّي خُلُقاً حسَناً. وإن كانَت سيئة، كالغَضَب والعجلةِ، والبُخْلِ، سُمّيَ خُلُقاً سَيّئاً. قال وهب: ما تَخَلّق عَبْدٌ بِخُلُقٍ أَرْبَعينَ صَبَاحاً، إلاّ جعل اللّهُ له ذلِكَ طبيعةً فيه. فَالْخُلُق الْحسَنُ يكتَسَبُ. والسّيىء يُجَاهد حتى يَزُولَ. وَالخُلُقُ الحَسَنُ يعدل الصيام والقيام؛ وهو ثمرة التصوف. فَمَنْ لَمْ يُحَسِّنْ خُلُقَهُ فتصوّفه أشجارٌ بلاَ ثِمَارِ. وَمَرْجعُ حُسْنِ الْخُلُقِ، أَلاّ تَغْضَبَ، وَلاَ تبخَل، وَلاَ تحقِدَ. وبالله التوفيق.

الْجُودُ وَالسّخَاءُ وَالإِيثَارُ: فالجود: أَلاّ يصعبَ عليه الْبَذْل. فَمَنْ أَعْطى البَعْضَ وأَبقَى الأَكْثَرَ؛ فصاحِبُ سَخَاءِ. وَمَنْ بَذَلَ الأَكْثَرَ، فصاحب جُودِ. ومن قَاسَى الضَّرّاء وآثر غيْره، فَصَاحب إِيثَارِ. فجود الْعامّة بِالأَمْوَالِ، وجود الخاصّة بِالنفوسِ. وجود خاصّة الخاصّة بالأرواحِ يَبْذلونها للمَوْتِ بالمجاهدةِ. ثم تحيا الحياة الأبدية بالمشاهدة.

الْفَقْرُ: هو نَفْض اليد من الدنيا، وصيانَة القَلْبِ مِن إظهار الشَّكْوى. ونعت الفقير ثلاثة أَشياءِ: صِيَانة فقرهِ، وحِفظِ سِرّهِ، وإقامة دينه. قال جعفر الْخُلْدِي ما غَمُضَ على النّاس: خَدمْت ستمائة شيْخ.. فما وجدت منْ شَفَا قَلْبِي مِن أَرْبَع مَسَائل حتى رأَيْتُ رسول الله ﷺ في النّوْمِ، فَقَالَ لي: «سَلْ عَنْ

مَسَائِلِكَ». فقلت يا رسول الله: ما العَقْلُ؟ فَقَالَ: «أَدْنَاهُ تَرْكُ التفكر في ذَاتِ اللَّهِ». قلت: ومَا التَّوحيد؟ فقال: «كُلّ مَا أَتَى بِهِ الْوَهْمُ، أَوْ جَلاَهُ الْفَهْمُ، فَرَبُّنَا عَزَّ وَجَلَّ مُخَالِف لِذَلِكَ». فقلْتُ: وما التصوُّف؟ فقال: «تَرْكُ الدَّعاوي، وكتمان المَعَانِي». فقلْتُ: وما الْفَقْرُ؟ فَقَالَ: «سِرٌّ مِن أَسْرَارِ اللّهِ. يُودِعُهُ فِيمَنْ شَاءَ مِن عِبَادِهِ. فَمَنْ كَتَمَهُ فَهُوَ مِن أَهْلِهِ. وزاد اللّهُ مِنْهُ. ومن بَاحَ بِهِ، نَفَاهُ اللّهُ عَنْهُ».
قلت: جواب كل إنسَانٍ على قدْرِ مقامِهِ. كما قال عليه الصَّلاةُ والسَّلاَمُ: «خَاطِبُوا النَّاسَ بِقَدْرِ مَا يَفْهَمُونَ»[1]. فقوله عليه الصلاة والسلام في العقل: أعْلاه ترْك التفَكّر في ذاتِ اللّهِ. أما التفكر في كنه الرّبوبية، فنهى عَنْهُ. إذ لاَ يُدْرك. وأما التفكر في أَسْرَارِ الرُّبوبية، وأنوارِ صفاتها، فلا عبادة أعْظَم مِنْهَا. وقوله أيضاً عليه الصلاة والسلام في التوحيد، كل ما أتى به الْوَهْمُ الخ: الوهم لاَ يُدرك إلاّ حسّ الكَائناتِ فهو قَصيرٌ والفَهْمُ بِلاَ ذوْق، لا يدرك أَسْرَار التوحيد لأنها خارجة عن الْوَهْمِ وَدَرْكِ العَقل. فظهر قوله ﷺ: كل ما أتى بِهِ الوهم إلخ.. وقوله عليه الصلاة والسلام، في شأن الفقر، من كَتَمَهُ فهو من أَهْلِه. أي فيكون من السَّابِقِينَ. وَيَزيده تعالى من أَسْرَارِهِ وأنواره. وهي حَلاَوَة المعاملة والمعرفة. يحكى عن أبي علي الدقاق، أنه جلس يوماً مع بَعْض أَصْحابه، فَكَانَتْ منه غَفْلة، حتى شكا ضيقَ حالِهِ، فلما تفرّقَ أَصْحَابُهُ، نَامَ بَعْضُهُمْ، فهتف به هاتف وقال: بِاللّهِ أَبْلَغ أَبَا عبد اللّهِ الدّقاق، ما أقول لَكَ. ثم أَنْشَدَ:

قُلْ لِلرُّوَيْجِلِ مِنْ ذَوِي الأَقْدَارِ ... الْفَقْرُ أَفْضَلُ شِيمَةَ الأَحْرَارِ
يَا مَنْ شكا للخلقِ فِعْلَةَ ربِّهِ ... هَلاَّ شَكَوْتَ تَحَمُّلَ الأَوْزَارِ
إنَّ الَّذِي أُلْبِسْتَ مِنْ حُلَلِ التّقَى ... لوْ شَاءَ رَبُّكَ كُنْتَ عَنْهَا عَارِ

الذِّكْرُ: هُوَ إذَا أُطْلِقَ يَنْصَرِفُ لِذِكْرِ اللِّسَانِ؛ وهو رُكْنٌ قَوِيٌّ فِي طريق الوُصولِ. وهو مَنْشُورُ الولاَيَةِ. فَمَنْ أُلْهِمَ الذِّكر، فقد أُعْطِيَ المَنْشُورَ. وَمَن سُلِبَ الذِّكْرَ فَقَدْ عُزِلَ. فذِكر الْعَامَّةِ بِاللِّسَانِ. وذِكر الخاصَّة بالجنان. وذِكر

---

(١) لم أجده بهذا اللفظ وورد بألفاظ أخرى متقاربة منها: «أمرت أن نكلم الناس على قدر عقولهم» (الفردوس بمأثور الخطاب، حديث رقم (١٦١١) [١/٣٩٨]).

خاصَّةِ الخاصَّةِ بِالرُّوحِ والسِّرِّ؛ وهو الشهود والعيَان. فيذكُرُ اللَّهَ عِنْدَ كُلِّ شيءٍ. وعلى كل شَيْءٍ. أَيْ يعرف الله فيه. وهنا يخرس اللسان. ويَبْقَى كَالمبهوتِ في محلِّ العيَانِ. ويُعدّ ذِكر اللسَان في هذا المقام ضعفاً وبِطالةً، كما قال القائل:

مَـا إنْ ذكـرتـك إلاَّ هَـمَّ يَـلْـعَـنُـنِـي ... سِرِّي وَقَلْبِي وَرُوحِي عِنْدَ ذِكْرَاكَ

حَتَّى كَأَنَّ رَقِيباً مِنْكَ يَهْتِفُ بِي ... إِيَّـاكَ وَيْـحَـكَ والـتِّـكْـرَارَ إِيَّـاكَ

أَمَا تَرَى الْحَقَّ قَدْ لاَحَتْ شواهِدُهُ ... وَوَاصِلِ الكُـلَّ مِـنْ مَـعْـنَـاهُ مَـعْـنَـاكَ

وقال السيوطي مشيراً لهذا المقام: الذَّاكِرُون في ذِكره، أَشَدُّ غَفْلَةً مِنَ النَّاسِ لِذِكْرِهِ؛ لأَنَّ ذِكرهُ سواهُ.

الْوَقْتُ: قد يطلقُونه على ما يَكُونُ العبد عليه في الحالِ. من قَبْضٍ أو بَسْطٍ، أَوْ حُزْنٍ أَوْ سُرُورٍ. قال أَبُو علي الدَّقاق: الوقت مَا أَنْتَ فيه فِي الحَالِ. فإن كنت بالدّنيا، فَوقتكَ الدّنيا. وإن كُنْتَ بالْعُقْبَى، فَوقتكَ الْعُقْبَى. يُرِيدُ أَنَّ الوقت مَا كَان الغالب على الإنسَان. وقد يَعْنُونَ بِه الزَّمان، الذي بيْن المَاضِي والمُسْتَقبل.

يقولون، الصوفي ابن وقتِهِ. يريدون أَنَّهُ مشتغِلٌ بما هو أولى بِهِ في الوقتِ، لا يُدَبِّرُ في مستقبلٍ وَلاَ ماضٍ. بل يهُمُّهُ ما هو فيه. وكل وقت له آداب تطلبُ فيه. فَمَن أَخلَّ بأَدَبِهِ مقتَهُ. ولذلك قيل: الوقتُ كَالسَّيفِ، فَمَنْ لاَيَنَهُ سَلِمَ، ومن خاشنهُ قُصِمَ. وَمُلاَيَنَتُهُ، القيام بِأَدَبِهِ. فوقت القهرية، آدابه الرضى والتسليم تحت مجاري الأقدار. ووقت النِّعْمَةِ، آدابُهُ الشكر، وَوَقت الطَّاعة: آدابه شهود المِنَّةِ من اللَّهِ. ووقت المعصية: آدابه التوبة والإنابة.

الْحَالُ وَالْمَقَامُ: الحال مَعْنَى يَرِد على القلبِ من غَيْرِ تَعَمُّدٍ وَلاَ اجتلابٍ؛ وَلاَ تَسَبُّب وَلاَ اكتسَابٍ. مِن بَسْطٍ أَوْ قَبْضٍ، أو شَوْقٍ أَوِ انْزِعَاجٍ، أو هيبة أو اهْتياج. ويظهر أثره على الجوارحِ قبل التمكن، من شطح وَرقص وسَيْر وهيام؛ وهو أَثر المَحبَّةِ؛ لأنها تحرِّكُ السَّاكِن أولاً، ثم تسكن وتطمئنُّ. ولذا قيل فيها: أَوَّلها جُنُونٌ، وَوَسَطها فنون، وآخِرها سكُونٌ. وقَدْ يُكْتَسَبُ الحال بنوع تَعَمُّلٍ، كَحُضور حلقِ الذِّكْرِ، واستعمال السَّمَاعِ. وقد يطلب اكتسابه بِخَرْقِ عَوَائد النَّفْسِ، حين يعتريها برودة وفتور. وفرْق وكَسَل. فينبغي أَن يتحرَّكَ في

تسْخينها. مما يثقل عليها من خرْق العوائِدِ. وقد يطلق الحال على المَقام. فيُقالُ: فلان صار عنده الشهود مئة حالاً. ومنه قول المجذوب:

حققتُ ما وجدت غيْرهُ وَأَمْسَيْتُ في الحالِ هَانِي

وأما المقام: فهو ما يتحققه العبد بمنازلة واجتهادٍ؛ منَ الأدَبِ، وَمَا يتمكَّن فيه من مقامات اليقين. بتكسُّب وتطلُّبٍ. فمقام كل واحدٍ مَوْضعُ إقامَتِهِ. فالمقامات تكون أوّلاً أحْوَالاً حيْث لم يتمكّن المريد منْهَا؛ لأنها تتحوَّل، ثم تصير مقامات بعد التمكين. كالتوبة مثلاً. تَحْصُل ثم تُنْقَضُ؛ حتى تصير مقاماً؛ وهي التوبة النَّصُوحُ؛ وهكَذا بقية المقامات.

وشرطهُ: أَنْ لاَ يَرْتَقيَ مقاماً حتى يسْتوفيَ أَحْكامهُ. فَمَن لا توبةَ لَهُ، لا تصحّ له إنابَة. رجوعٌ. ومن لاَ إنابَةَ لَهُ، لا تصحُّ له اسْتقَامة. ومن لا وَرَعَ لَهُ، لا يصحُّ له زُهْدٌ. وهكَذا.

وقد يتحقق المقامُ الأول بالثاني، إذا ترقَّى عَنْهُ قبل إِحْكَامِهِ؛ إنْ كَانَ له شيْخ كاملٌ. وقد يطوي عنه المقامات، ويُدسُّه إلى الفَنَاءِ إن رآه أهلاً بتوقّدِ قريحتِهِ. ورقَّةِ فِطْنَتِهِ. فَالأحْوال مواهب، والمقامات مكاسب. هَذَا معْنَى المَقَام بفتح الميم. وأَمَّا المُقَام بِالضَّمِّ، فَمَعْنَاهُ الإقامَة. وَلاَ يكمُل لأَحدٍ مُنازلة مَقَام، إلاَّ بشهودِ إقامَة الحقّ تَعَالى فِيهِ. وفي الحِكَم العطائية: من عَلاَمَاتِ النُّجح فِي النهاية، الرجوع إلى الله في البِدَايَةِ. وقال أيضاً: «مَنْ كَانت بِاللَّهِ بدايتهُ، كَانَت إليهِ نهايتهُ».

الْقَبْضُ وَالْبَسْطُ: وَهُما حَالاَنِ بَعْدَ الترقّي من حال الخوْف والرَّجَاء. فالقبْض للعارفِ، بِمنزلة الخوْف لِلطَّالِبِ. والبَسْط للعارف بمنزلة الرجَاء للمريد. والفرْق بيْنَ الْقَبْضِ والخَوْفِ. وَبَيْنَ الرَّجَاءِ والبَسْطِ. إنَّ الخوف متعلقه مسْتَقِل. إمَّا فوات مَحْبُوبٍ، أَوْ هُجُوم محْذورٍ. بِخلافِ القَبْضِ. فإنه مَعنى يَحْصلُ في القَلْبِ. إمَّا بِسَبب أَوْ لاَ. وكَذَلِكَ الرجاءُ يكون لانتظار محبُوبٍ في المُسْتَقْبَلِ. والبَسْط شيْء موهوب يحصل في الوقتِ. فحقيقة القبْضِ: انكماش وضيق يحصل في القَلْبِ، يُوجبُ التحرُّكَ والانبسَاطَ. ولكلّ واحد آداب مذكورة في المطوَّلات.

الْخَوَاطِرُ وَالْوَارِدَاتُ: الخواطِرُ خطابات ترد على القلوبِ، تكون بِإِلْقَاءِ مَلَكٍ أَوْ شيطان. أَوْ حديث نَفْسٍ. فإذا كان مِنَ المَلَكِ فَإِلْهَامٌ. أَوْ من الشيطانِ فوسْوَاسٌ. أَوْ من النَّفس فهواجسٌ. فما وافق الحق، ودعا إلى اتباعِهِ فَمِنَ المَلَكِ. وما وافق الباطل. أَوْ دَعَا إلى معصية، غالباً فَمِنَ الشيطان، وَقَدْ يَدْعُو إلى الطاعة حيْث يَترتَّبُ عليها معصية. كالرياء وحبّ المَدْح. وما دَعَا إلى اتّباع الشهوة والدَّعة، أي الراحة، فمِنَ النَّفْسِ.

قال أَبُو عَلِيّ الدَّقاق: مَنْ أَكَلَ الْحَرَامَ، لم يفرِّق بيْن الإلهام والوسْواس. وكذلكَ مَنْ كَانَ وقتهُ مَعْلُوماً. وفرَّق الجنيْد بيْن هواجس النَّفس، وَوسواس الشيطان. بأن مَا دعَتْ إليهِ النَّفْس لاَ تنتقل عَنْهُ فلا تعاوده مرَّة بعد مَرَّة، إلاَّ بعد مجاهدة كبيرة. ووسواس الشيطان ينتقل عنهَا، فإذا خالفته في معصية، انتقل لأخْرَى. وَرُبَّمَا ذهب بِالتعوذِ ونحوهِ. ولذلكَ كَانتِ النفسُ أَخبث من سبعين شيطاناً.

وأَمَّا الواردات: فهي مَا يَرِدُ على القلوب من التجليات القوية. أو الخواطر المحمودة. بما لاَ يكون للعبْدِ فيه تكسُّبٌ. والفرْق بيْن الوارداتِ والخواطِرِ: أَنَّ الوارداتِ أَعَمُّ مِنَ الخواطِرِ، لأَنَّ الخواطِرَ تختَصُّ بنَوْعٍ، أَوْ ما يَتَضَمَّنُ مَعْنَاهُ. والوارداتُ تكون واردَ سُرُورٍ، ووارد حُزْنٍ، وواردَ قَبْضٍ، ووارد بسْطٍ، ووارِدَ شَوْقٍ، وواردَ خَوْفٍ، إلى غير ذلكَ من المعاني. وقد يختطفهُ شاهد حسِّي؛ وهو قريب من الحالِ. وقد يأتِي الواردُ بكشف غيْبٍ، فيجب تصديقهُ. إن صَفَا القلْبُ من كُدُورة الخواطِرِ. والله تعالى أَعْلَمُ.

النَّفْسُ وَالرُّوحُ وَالسِّرُّ: النَّفْسُ عند القوم، عبارة عما يُذَمّ من أَفْعَال الْعَبْدِ وأَخلاقه. فالأول ما كَانَ من كَسْبِ العَبْدِ كمعاصيه ومخالفتِهِ. والثاني من كانَ من جبلَّتِهِ وطبيعتهِ. كالكِبْر والحَسَدِ والغَضَبِ وسوء الخُلُق. وقلة الاحْتِمَالِ وغير ذلكَ من الأخلاق الذَّميمة؛ يُنْسب لِلنَّفْسِ أَدباً مع الحق.

والرُّوحُ عبارة عن محلِّ التجليات الإلّهية، وكشف الأنوار الملكوتية. والسّرّ عبارة عن محلِّ تجليات الأسرار الجَبروتِيَة. فالنفس للعوام، والروح للخواصّ، والسرّ لخواصّ الخواصّ. والنفس لأهل عَالَم المُلكِ. والرّوح لأهل

عَالَم المَلكُوت. وَالسّرُّ لأَهْلِ عَالَمِ الْجَبَرُوتِ. وَسَتَأْتِي حَقَائِقُهَا.

وهل النَّفس والرّوح والسّرّ متعددات في نفسها، أو متّحدة. وإنما تختلف التسمية، باختلاف التصفية؟ قال بَعْضُهُمْ: النفس لطيفة مُودعة فِي هٰذَا القَالَب، وهي محل الأخلاق المحمودة. ومحلها واحدٌ: وهو الإنسَان. فَالنَّفسُ والرُّوحُ من الأجساد اللطيفة، كالملائكة والشّياطين. وهما سَاكنانِ في الإنسَانِ. فكما أَنَّ الْبَصَر محل الرُّؤيَة. والأذنَ محلُّ السمع. والأنف محل الشَّمّ مِنْ ذَاتٍ واحدة. فكذلكَ محلّ الأوصاف الذّميمة النفس. ومحل الأوصاف الحميدة الرُّوح. وأما السِّرّ؛ فهي لطيفة مودعة في القلب كالرُّوحِ، إلاَّ أنه أشرف من الرُّوحِ، لكمال أوصافِهِ. قال الساحلي: النفس والقلب والرُّوحُ والسِّرُّ والباطِن، أسماء لمسمّى واحدٍ، وهي اللطيفة الرَّبّانية، التي كان بها الإنسَانُ إنسَاناً. وتختلف أسماؤها باختلافِ أوصافها. فإن مالتْ لجهة النَّقْصِ سمّيَتْ نفساً. وإن تخلصّتْ من مقام الإسلامِ إلى مقامِ الإيمانِ سميَتْ قلباً. وإن تخلصَتْ منه إلى مقام الإحسانِ، ولكن بَقِي بها أَثَر النقص، كأثر الجراحات بعد البُرْءِ سميت روحاً. وإن ذهَبَتْ تلك الآثار، وصَفَتْ، سمّيَتْ سِرّاً. وإن أشكل الأمر سمّيَتْ بالباطِنِ.

والاختلاف في الروح شَهيرٌ. قال بَعضهم: هي الحياة. وقال بعضهم أعْيَانٌ مودعة في هذه القوالِب، أجْرَى الله العادة بخلق الْحَيَاةِ في القوالبِ، ما دامَتْ الحياة فيه. فالإنسَان حي بالحياة. ولكنَّ الأرواحَ مودعة في القوالبِ. ولها ترَقٍّ في حال النَّوْمِ. ومفارقة ورجوع. وهي التي وقع بِهَا النَّفْخُ. وأما النفس فهي مخلوقة في الجنين، قبل نفخ الرّوح، بهَا يقع التحرك. وهي ملازمة للبَدَنِ، لا تفارقه إلاَّ بالموتِ. فتخرج الروح أَوّلاً، ثم تنقطع النفس، فتقطع الحياة.

فالإنسَان روح وَنفسٌ وجَسَدٌ، والحشر للجملةِ، كذلكَ العقاب والثواب. والأرواح، مخلوقة قبل الأبْدانِ. سَارِية فيها سَرَيَان النَّار في الفَحْمِ، والمَاء في العودِ الرَّطبِ. قلت: هذه الأعيان المودعة في القوالب، هي اللطيفة الرَّبّانية اللاهوتية؛ وهي التي تتطور، وتختلف أَسْماؤها باختلافِ تطورها، كما قال الساحلي، والله أَعْلَمُ. وكوْن الأرواح حادثة، يجري على مَذْهب الفَرْقِ. وأَمَّا

أَهل الجَمْعِ فَلاَ حَادِث عِنْدَهُمْ لفناءِ الكَائِنَاتِ عن نَظرِهم. قال الجُنيْد: إذا اقترَن الحادث بالقديمِ، تلاشى الحَادث وبقي القديمُ. وسألت بعض إخواننا العارفينَ: هل الأرْواح حادثة أو قديمة؟ فقال: الرّجال: الأشباح عنْدَهُمْ قديمة. يشير إلى مقام الفناءِ كَما تقدَّمَ. لكنَّهُ سِرّ مكتومٌ.

النَّصْرُ وَالتَّأْيِيدُ وَالْعِصْمَةُ: النَّصْر تقوية الجوارح على فِعل الْخَيْرِ. والتأييد: تقوية البصيرة من دَاخِلٍ. فالْبَاعِث الباطنِي تأييدٌ. والبَطْش ومُسَاعدة الأسْبَاب من خارج نَصْرٌ، وهو جامع للهداية التي مرجعها للبصيرة العلمية الكَاشفة، لِمَا عليه الشيءُ بحقيقَتِهِ. والرُّشْدُ الذي مرْجِعُهُ إلى الإِرَادة الباعثةِ، إلى جِهَة المسَاعدة. والتَّسْديد، الذي مَرْجعه إلى القدرة على توجيه الحركاتِ إلى نحوِ المطلوبِ، وتيسيرها عليه مِنَ التَّأْيِيدِ، ويقرُب من التأييدِ الجامع لما ذكِرَ العصمة؛ وهي عبارة عن وجودِ إلَهي يسبَحُ في الباطِن. يقوى به الإنسان على تحرّي الْخَيْرِ. وتجنب الشَّرِّ، حتى يصير كمانع في باطنِهِ غير محسوس؛ قاله الغَزّالي. فهذه ست حقائق. الهداية، والرشد، والعصمة، والتسْديد، والنُّصْرة، والتأييد. وقد علمْت كُلَّها مِن كَلاَمِ الغزَّالي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. والتحقيق: أنَّ الهداية: هي تصويب العبد إلى طريق توصّله إلى الحقِّ. وقد تطلق على بيانها فقط. والرّشد: هو توجيه القلْبِ إلى طريق السعادة. والتَّسْدِيد: هو القدرة على سلك طريق الخيرِ، وتجنب الشَّرِّ. والعصمة: هو وجود إلَهي إلى آخِرِ ما تقدَّمَ.

الْحِكْمَةُ: وهي إتْقَان الشيْءِ وإبْدَاعهُ. ففي العلم: تحقيقهُ والعمل به. وفي الْقَولِ: إيجَازُهُ وتَكْثيرُ معانيه. وفي العمل: إتقانه وإكمالُهُ. ويُقَالُ: ترتبَتِ الحِكمَة على ثلاثِ فِرَق: على ألْسِنَة العربِ، وأَيْدِي الصِّين، وعقول اليُونَان. والله تعالى أعْلَمُ.

الْعَقْلُ: وهو نُورٌ يُميِّز بِهِ بيْن النَّافعِ والضَّارِّ، ويحجز صاحبه عن ارتكابِ الأوزارِ. أَوْ نُورٌ روحاني تُدرك به النفسُ العلومَ الضَّرُورِيَّة والنظرية. أَو قوَّة مهيأة لقبولِ العلمِ؛ سُمِّيَ عقْلاً؛ لأنهُ يَعْقل صاحبَهُ عما لاَ ينبغِي؛ وهو على قسْمين: عقل أَكْبَر، وعقل أَصْغَرْ.

أما العقل الأكْبَرُ، فهو أَوّل نورٍ أظهرَه الله للوجودِ. ويقال له: الرّوح

الأعظم. ويُسَمَّى أَيْضاً: بالقَبْضَة المحمدية؛ ومن نوره يَمْتَدُّ الْعَقْلُ الأَصْغَر. كَامْتِدادِ القمر مِن نور الشمسِ فلا يزال نورهُ بالطاعة والرياضة، والتَّطْهير من الهَوَى، حتى يدْخلَ الْعَبْد مقام الإحْسَان. وتشرق عليه شمس العرفانِ، فينطوي نوره في نُورِ الْعَقْلِ الأَكْبَرِ. كَانْطِواءِ نورِ القَمَرِ عند طلوعِ الشَّمْسِ فيرى مِنَ الأسْرَار والغيوب، ما لم يكُنْ يَرَهُ قَبْلُ؛ لأَنَّ العقل الأَصْغَرَ نوره ضعيف لا يدرك. إلاَّ افتقارَ الصنعة إلى صَانِعِهَا. وَلاَ يَدْرِي مَا وَرَاءَ ذَلِكَ بِخِلاف العقل الأَكْبَر، فإنه يدرك الصَّانع القديم. قبل التجلّي وبعدهُ لصفَاءِ نوره، وشدَّة شعاعِهِ. وفي بعض الأخبَار: «أولُ ما خَلَقَ الله الْعَقْل. فقال له: أَقْبِلْ، فَأَقْبَلَ. ثم قَالَ لَهُ: أَدْبِرْ، فَأَدْبَرَ. ثم قالَ لهُ: أُقْعُدْ، فَقَعَدَ. ثم قال لهُ: قُمْ، فقامَ. فقال: وعِزَّتِي وَجَلالِي، لاَ حَلَلْتَ حَلاَلاَ أَجْعَلَك إلاَّ فيمَن أَحْبَبْتُ مِن عِبَادِي، أَوْ كما قال عليه الصَّلاَةَ وَالسَّلاَمُ. والحديثُ متكَلَّم فيه. فالْعَقل الأكْبَرُ لا ينالُهُ إلا المحبُّونَ، الَّذِينَ اختارَهُمُ اللَّهُ لمعرفتِهِ الخاصَّة. وأمَّا العقل الأصْغَرُ فيعطيه للخاصِّ والعامِّ. وهو على قسْمينِ: عَقل مَوْهُوبٌ، وَعَقل مكْسُوبٌ. فالموهوب: هو الذي جَعَلَهُ اللَّهُ فيه غريزة. والمكسُوب: هُو الذي يكتسَبُ بِالتَّجَاريب والرياضات وارْتكاب المِحَنِ. قال بَعْضُهُمْ: عَلاَمَة العقل ثلاث: تقوى الله عَزَّ وَجَلَّ، وصدق الحديث، وترْك مَا لاَ يَعْنِيِ. وقال عليه الصَّلاَة والسلام: **«ألاَ وَإنَّ من عَلاَمَاتِ الْعَقْلِ: التجَافِي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلودِ، والتزَوّد لسُكْنى القبور، والتأهُّبُ ليوم النشور»**[1].

قال بعض الحكماء: خيْر ما أُعْطِي الإنسان عقل يزجرُهُ. فإن لم يكُنْ فحياء يَمْنَعُهُ. فإن لم يكُنْ فَمَالٌ يسْتُرُهُ. فإن لم يكُن، فصاعقة تحرِقُهُ، يسْتريح منه البِلاد والعباد. وهل الأرْوَاح قبل الأشباح كَان لها عَقْلٌ؟ والتحقيق أَنَّها كَانت

---

(١) روى نحوه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، كتاب الرقاق، حديث رقم (٧٨٦٣) [٣٤٦/٤] ونصه: عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: تلا رسول الله ﷺ وسلم فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام فقال رسول الله ﷺ: «إن النور إذا دخل الصدر انفسح» فقيل يا رسول الله هل لذلك من علم يعرف به قال نعم: «التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله».

لها عقول مقتبسة من العقل الأكْبَر. لذلك أَقَرَّت بالرّبوبية. بل كَانت عَلاَّمَة درَّاكة للأشياءِ. كما قال الشيخ ابن البنَّا. والمعرفةُ والإدراكُ، إنما يكونَانِ بالْعَقْلِ. فلما بَرَزَتِ لعالَم الأشباح، أَزَالَ اللَّهُ منْها ذلِك العَقْل؛ الذي هو مِنَ العَقْلِ الأكْبَرِ. وأَنْبَتَ فيها العَقل الأصْغَر؛ عند اجتنانِ الوَلَد في البطن. فما زال يَنْمُو إِلى الحُلُم. وقيل: إلى أَرْبَعِينَ سَنَة. فإذا اتَّصَل العبدُ بالطبِيبِ، عالجَهُ حتى يُؤَهِّله إلى الْعَقْلِ الأَكْبَرِ، فيكونُ صاحبُه من الأوليَاءِ، وبالله التوفيق.

التَّوْحِيدُ: وهو على قسْمَيْن: توحيد البُرْهان. وَهُوَ إفراد الحق بالأفعال والصفات والذَّاتِ عن طريق البُرْهَان. وتوحيد العِيَان: وهو إفراد الحقّ بالوجود في الأزَلِ والأبَد. وقال الجُنَيْد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هو مَعْنى تضمحِلُّ فيه الرسوم. وتندرج فيه العلوم. يكون الله كما لَمْ يَزَلْ، وأُصُولهُ خَمْسَة أَشياء: رفع الحدث، وإِفْرَاد القِدَم، وهجران الإخوان، ومفارقة الأوطان، ونسْيان ما عُلِم وَجُهِل. قلت: والْمعْنَى الَّذِي تضْمَحِلّ فيه الرُّسُوم؛ هو ظهور أَسْرَارِ الذَّات. فإذَا قع الكشف عنْهَا بِغَيْبَةِ حِسّ الكَائنَاتِ، التي هي أَوَانِي لتلك المعانِي، انفَرَد الحق بالوجودِ، ويكون فيما لم يَزَلْ. كما كَانَ في الأَزَلِ. كَانَ اللَّهُ وَلاَ شيء مَعَهُ، هو الآن على ما عليه كَانَ. فيرتفع الحدث، وينفرد القِدَمُ. ويهجرُ صاحب هٰذَا الذَّوْقِ جميع الإِخْوَانِ، إلاَّ مَنْ يستعين بهم على رَبِّهِ. ويفارق الأوطان في طلبِ الحقّ. لأنَّ الهجْرَةَ سنة. ويَنْسى ما علم وما جهل. أَي يغيب عنه في جَنْبِ الكَنْزِ الَّذِي ظفِرَ بِهِ. وسُئِلَ أَيْضاً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن التوحيد فقال: لوْن الماء لوْن إِنَائِهِ. ومعْنَى كَلامه رضي الله عنه: إِنَّ الذَّات الْعَلية، كَانَتْ لطيفة خفية نُورَانية، فَلَمَّا تجلَّتْ بِالرُّسُومِ والأشكالِ، تَكَوَّنَتْ بِتَكَوُّنِهَا، فَافْهَمْ، وَسَلِّم إن لم تَذُقْ. ومقامات التوحيد غيرُ مُتَنَاهِيَة، لأنَّهَا تتزَايد بِتَزَايد الكَشف والتَّرَقِّي. فَفوْق التوحيد:

التَّفْرِيدُ: فإنهُ أَرَقُّ من التوحِيد وأعلى؛ لأنَّ التوحيد يصدق على توحيد أَهْل الْعِلْمِ. والتفريد خَاصّ بِأَهْلِ الذَّوْقِ، وفوْق التفريد.

الأَحَدِيَّةُ، وَالإِيحَادُ، وَالْفَرْدَانيَّة وَالْوَحْدَانِيَّةُ، وَالإِنْفِرَادُ: وهكَذَا رُتْبَتُهُمْ في القوة.

فالأحدية: مُبَالغةٌ في الْوِحْدةِ، والإيحاد: مصْدر أَوْحَدَ الشيء إذا صَارَ واحِداً. والفرْدانية والوحدانية والانفراد معناها: إفرادُ الْحقِّ بالوجودِ، وَلاَ يكون إلاَّ بعد انطباق بحر الأحدية على الكُلِّ، بحيْث لم يَبْقَ وجد لغَيْرِه قط؛ وهو يذوق ذلِكَ ذوقاً. ويغرق فيه غرقاً. ويُقال لأهل هذا المقام: الأفراد والآحاد؛ وهم أكمل من القطب في العلم بالله، كما قال الحاتِمِي. وخارجون عن دائرة تعرفه. والله تعالى أَعْلَمُ.

حَقِيقَةُ الذَّاتِ الْعَلِيَّةِ: هي ذَاتٌ عَلية أَزلية، لطيفة خفية، متجلّية بالرسوم والأشكال. متّصفة بصفاتِ الكَمالِ. واحدة في الأزلِ. وفيما لاَ يزال هذا رَسْمُهَا بِالخواصّ. وأما كُنْه الحقيقة فلا يحيط بها إلاَّ هو تَعالَى.

الْعَمَاء: معناه السحاب، وهو عبارة عن صفة الذَّاتِ العلية في الأزل قبل التجلّي. وحقيقتهُ: صَفَاءٌ لَطِيف خفي صافي، لا حدَّ لفوقيته، ولا لتحتيته، وَلاَ لجوانبهِ الأربع، وَلاَ نهاية لأوليتهِ، ولاَ لآخريته. خالٍ عن الرسوم والأشكال. متّصف بأوصاف الكمالِ، من القدرة والإرادة والعلم والحيَاة، والسمع والبصر والكَلام. ويجمعهُ قول ابن الفارضِ في خمريتهِ:

يَقُولُونَ لِي صِفْهَا فَأَنْتَ بِوَصْفِهَا ... خَبِيرٌ أَجَلْ عِنْدِي بِأَوْصَافِهَا عِلْمُ
صَفَاءٌ وَلاَ مَاءٌ وَلُطْفٌ وَلاَ هَوَا ... ونُورٌ وَلاَ نَارٌ وَرُوحٌ وَلاَ جِسْمُ
تَقَدَّمُ كُلَّ الكَائِنَاتِ حَدِيثُهَا ... قَدِيماً وَلاَ شَكْلٌ هُنَاكَ وَلاَ رَسْمُ

ثم تجَلَّتْ بِالرسُوم والأشكالِ بِحيْثُ صار اللطيف كثيفاً، والخفيّ ظَاهراً، والغيْبُ شهادة. فما كَان في الأزل، هو عيْن ما تجلَّى به في الأبَدِ. كَانَ اللَّهُ وَلاَ شيء معَهُ؛ وهو الآن على مَا عليه كَان. وفي حديث الترمذِي، عن ابن رزيْنِ الْعُقَيْلِي: قلت يا رسُولَ اللَّهِ: أَيْنَ كَان رَبُّنَا قَبْلَ أنْ يخلق خلقهُ؟ قال: «كَان في عَمَاء؛ مَا فوقهُ هواء ومَا تحتَهُ هَوَاء» أَيْ كَان في خَفاءٍ وَلَطَافَةٍ، ليْس فوقَهُ هواء، وَلاَ تحته هواءٌ. بَلْ عظمَة ذاتِهِ أَحاطَتْ بِكُلِّ فوْق، وبكلّ تحْت، وبكل هواء. وقيل لسيّدنا عليّ كَرَّمَ اللَّهُ وجْهَهُ: يَا بْنَ عَمِّ رسول الله ﷺ: أَيْنَ كَان ربُّنَا؟ وهَلْ لَهُ مَكانٌ؟ فتغَيَّرَ وجْهُهُ وَسَكَتَ سَاعة. ثم قال: قولكم أَيْنَ اللَّهُ سؤال عن مَكانٍ. وكَانَ اللَّهُ وَلاَ مَكَانَ. ثم خلق الزَّمَانَ والمَكَانَ. وهو الآن كما

كَانَ دونَ زَمَانٍ وَلاَ مَكانٍ. أَيْ كَانَ اللَّهُ وَلاَ شيء مَعَهُ. وهو الآن شيءٌ مَعهُ فافْهَمْ.

الْفَنَاءُ وَالْبَقَاءُ: إذا أُطلقَ الفناء: إنما يَنْصرف للفَنَاءِ في الذَّاتِ. وحقيقته: مَحْو الرّسوم والأشكَال بِشهودِ الكبيرِ المتعال. واستهلاك الحسّ في شُهُودِ المَعْنَى. قال أَبُو المواهب. محوٌ واضمِحْلاَلٌ. وَذهابٌ عنكَ وَزَوَالٌ. قال أَبُو سعيد ابن الأعرابي: هُوَ أَنْ تَبْدُوَ العَظَمة والإجلال على الْعَبْدِ. فتنَسِّيهِ الدّنيا والآخرة. والأحوالَ والدَّرَجَاتِ، والمعَاملاتِ والأذكَار. يغنيه عن كل شيْءٍ. وعن عقله وعن نفسه، وفنائه عن الأشياء. وعن فنائِهِ عَنِ الفَنَاءِ؛ لأنه يغرق في التعْظيم. أي تتجلّى لله عظمة الذّات. فيغنيه عن رؤية الأشياء. ومن جملتها نفسهُ، فيصير عيْن العَيْنِ. ويغرق في بحر الأحدية. وقد يُطلق الفناء على الفناء في الأفعَالِ. فلا يرى فاعِلاً إلاَّ اللَّهُ. وعلى الفناءِ في الصفاتِ. فلا قديرَ وَلاَ سميع وَلاَ بصيرَ إلاَّ اللَّهُ. يعْني، أَنَّه يرى الخلق مَوْتَى. لاَ قدْرَة لهُمْ، وَلاَ سَمْعَ وَلا بَصَرَ إلاَّ بِاللَّهِ. وبَعْدَ هَذَا، يَقَعُ الفناءُ فِي الذَّاتِ. وفي ذلِكَ يقول الشَّاعِرُ:

فـيـفْـنَـى ثُـمَّ يَـفْـنَـى ثُـمَّ يَـفْـنَـى   فَـكَـانَ فَـنَـاؤهُ عَـيْـنَ الْـبَـقَـاءِ

وأَمَّا البقاء فهو الرّجوع إلى شهود الأثرِ، بعْدَ الغَيْبَة عَنْهُ. أَوْ شُهُود الحسّ بَعْدَ الغَيْبَةِ عَن شُهُود المَعْنَى. لكن يَرَاه دائماً بِاللَّهِ. ونوراً من أَنْوار تجلياتِهِ. إذْ لوْلاَ الحِسُّ مَا ظهرتِ المَعْنَى، ولوْلاَ الواسطة ما عُرِف المَوْسوط. فالحق تعالى تجلّى بَيْنَ الضّدَّيْنِ: بيْن الحسّ والمَعْنَى. وبيْن القدرة والحِكْمَةِ، وبيْن الفرْق والجمع. فَالْغَيْبَةُ عَنْ أَحَد الضّدَّيْنِ فَنَاءٌ. وَرُؤْيَتُهما مَعاً بَقاءٌ. فالغيبة عن الحسّ، وعن الحِكمَة، وعن الفَرْقِ فَنَاءٌ. وملاحظتهما معاً بقاءٌ. فالبقاء اتِّساع فِي الفناءِ، بحيْث لا يحجبه جَمعهُ عن فَرْقِهِ، وَلاَ فناؤه عن بقائِهِ. وَلاَ شهود القدرةِ عن الحِكْمَةِ. بل يُعْطى كلّ ذي حقّ حَقَّهُ. ويُوفِي كلَّ ذي قِسْطٍ قِسْطَهُ. وقد يطلق الفناء عَلَى التخَلّي والتَحلّي. فيقالُ، فَنَى عَنْ أَوصافِهِ المَذْمومَة. وبقي بالأوصاف المحمودة. والله تعالى أَعْلَمُ.

الْقدْرَةُ والحِكْمَةُ: القدرة عبارة عن إظهار الأَظْهار على وفق الإرادَةِ. والحكمة عبارة عن تَسَيُّرِهَا، بوجود الأسْباب والعِلَلِ. فالقدرة تبرُزُ، والحِكْمَةُ

تَسَتُّرٌ. والقدرَة لاَ تنفكُّ عَنِ الحكمَةِ إلاَّ نادراً؛ في مُعْجِزَةٍ أَوْ كَرَامَةٍ أَو شَعْوَذَةٍ. وقد تطلق القدرة على الذَّاتِ بَعْدَ تجليتهَا. مِن إطلاقِ الصِّفَةِ على الْمَوْصُوفِ. والحِكمَة ما يسْترهَا مِنَ الحسِّ، وأَوْصافِ البشرية. وأَحْكام العبودية. فظهورُه تعالَى بمقتضَى اسْمه الظاهِرِ، يُسَمَّى قُدْرةً. وبطونُهُ في ظهورِهِ؛ بمقتضى اسمه الباطِنِ، يُسَمَّى حِكمَة. فَتجَلِّيه تعالى من عَالَمِ الغَيْبِ إلى عَالَم الشهادَةِ قُدْرَةٌ. وخفاؤهُ في ظهورِه حكْمةٌ. وإليه يشير قول الحِكَم العطائيه. «سُبْحَانَ مَن سَتَرَ سِرّ الخصوصية، بظهور وصْفِ البَشرية. وظهر بعظمة الربوبية، في إظهار العبودية.

الْفَرْقُ وَالْجَمْعُ: الْفَرْق عبَارة عن شهودِ حسِّ الكَائنات، والقيام بأَحكَامِهِ وآدَابِهِ، مِنَ العِبَادَةِ والعبودية. والجمع عبارة عن شهود الْمَعْنَى القائم بِالأَشْيَاءِ، متصلاً بالْبَحْرِ المحيط الجَبرُوتي. أَو تقول: الفَرْق شهود القوالِب. والجمع شهود المظاهِرِ. فالقوالِبُ محلّ الشرائع، والمظاهر، عيْن الحقائق. وقال أَبُو عليّ الدّقاق: الفرقُ مَا نُسِبَ إلَيْكَ. والجمعُ ما سُلِبَ عَنْكَ. فالفَرْق بِلاَ جَمْع فسُوق، وجمود وجَهْل باللَّهِ تعالَى. والجمْعُ بِلاَ فَرْقٍ زَنْدَقَةٌ وكُفرٌ إنْ لَمْ يكُنْ سُكْراً؛ لأنه يؤدّي إلى إبطالِ الشرائِع التي جَاءَتْ بِهَا الرُسُلُ عليهم الصَّلاةُ والسَّلاَمُ. وإلى إبطالِ الحِكمَةِ. والقُدْرَةُ لاَ تنفَكُّ عَنِ الحِكْمةِ. فَالواجبُ أَنْ يكون العَبْدُ مَجْمُوعاً فِي فَرْقِهِ، مَفروقاً في جَمْعِهِ. الجمع في الباطِنِ موجود. والفرْق على الظَّاهرِ مشهودٌ.

الْحِسُّ وَالْمَعْنَى: الحِسُّ عبَارة عن تكثِيفِ لِلأَشْيَاءِ ظَاهراً. والمَعْنَى عِبَارة عَنْ تلطيفها باطِناً. فحِسّ الكائنات أَوَانٍ حاملة للمَعَانِي. قال التستري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لاَ تَنظُرْ إلى الأَوَانِي. . وَخُضْ بَحْرَ الْمَعَانِي. . لَعَلَّكَ تَرَانِي. فمثال الكوْنِ؛ كالثَّلْجَةِ، ظَاهِرها ثلجٌ، وباطنها ماء. كَذَلكَ الكَوْنُ، ظَاهِرهُ حِسٌّ. وباطِنُهُ مَعْنى.

والْمَعْنَى هيَ أَسْرَار الذَّاتِ اللطيفة القائمة بالأشيَاءِ. فَقد سَرَتِ المعانِي في الأوانِي سَرَيَان الماء في الثلجة. وفي ذلِك يقول قطب الأقطابِ: الشيخ عبد الكريم الجيلاني رضيَ اللَّهُ عَنْهُ:

وَمَا الْكَوْنُ فِي التِّمْثَالِ إلاَّ كَثَلْجَةِ   وأَنْتَ لَهَا الْمَاءُ الَّذِي هُو نَابِعُ
فَمَا الثَّلْجُ فِي تحْقِيقِنَا غَيْرُ مَائِهِ   وغَيْرَان فِي حُكْم دَعَتْهُ الشَّرَائِعُ

فَلاَ قيام للحسّ إلاَّ بِالْمَعْنَى، وَلاَ ظُهُور للْمَعْنَى إلاَّ بالحِسّ. فَالمَعْنَى رقيقة لطِيفةٌ لاَ تُدْرَك إلاَّ بتحسّسِهَا فِي قَوالِب الكَائنَاتِ. فَظهُور المَعْنَى بِلاَ حِسّ مُحَالٌ. وشهود الحِسّ بِلا مَعْنى جَهْلاً وَظلمة. ولذلكَ قَالَ فِي الحِكَم: «الكَوْنُ كُلهُ ظُلْمَة. وإنما أنارهُ ظهور الحقُّ فِيهِ» إلخ.. فَلاَ يُرَى الحقُّ تعالى، إلاَّ بِوَاسِطة التجليات في هٰذِهِ الدَّار، وفي ذلِك يقول بَعْضُهُمْ:

وَلَيْسَتْ تُنَالُ الذَّاتُ مِنْ غَيْرِ مَظْهَرِ   وَلَوْ هُتِكَ الإنْسَانُ مِنْ شِدَّةِ الحِرصِ

الْمُلْكُ وَالْمَلَكُوتُ وَالْجَبَرُوتُ: الْمُلْكُ مَا ظَهَرَ مِن حِسّ الكَائِنَاتِ. والملكوتُ: مَا بَطُنَ فيها مِنْ أَسْرَارِ المَعَانِي. والجَبَرُوتُ: البَحْرُ المحيط الَّذي تَدَفّقَ مِنْهُ الحِسُّ والْمَعْنَى. والحاصِلُ: أَنَّ القَبْضَة التي ظَهَرتْ أَوّلاً مِن فَضَاءِ الْعَمَاءِ. حِسُّهَا الظاهرُ مُلكٌ. وَمَعْنَاهَا الباطِن ملكُوتٌ. والبحرُ اللطيف المحيط الَّذِي تَدفَّقَتْ مِنْهُ: جَبَرُوتٌ. فَأَسْرَارُ المَعَانِي رياض العَارِفينَ. لأَنَّهَا محلّ نزهة أَرْوَاحِهِمْ. وَلا شَكَّ أنَّ المَعَانِي لطيفَة، لاَ تظهر بَهْجَتُهَا إلاَّ في الحِسّ الَّذِي هُوَ المُلْكُ. والحِسُّ من حيْث هُوَ، مُضَاف إلى نَبِيِّنَا عليه الصَّلاةُ والسَّلاَمُ. لأَنَّهُ مَا ظَهَرَ إلاَّ لَهُ. وَمَا انشَقَّتْ أَسْرَار الذَّات إلاَّ مِن نُورِه. فلذلكَ قال القطب بن مشيش رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ: فَرِياضُ المَلَكُوتِ بِزَهْرِ جمَالِهِ مُونِقَةٌ. أي مُحْسَنَةٌ معجبة. فقد ذكر المُلْكُ بالإلْتِزام. لأنَّ جمالَ زَهْر المَعَانِي، لاَ يظهر إلاَّ في حِسّ الكَائِنَاتِ؛ وهُوَ المُلْكُ. وقوله: وحِيَاضُ الجَبَرُوتِ بِفَيْضِ أَنْوَارِهِ مُتَدَفِّقَة. الأمل أن يقول: وبَحْرُ الجَبَروت بفيْضِ نُورِه مُتَدفِّقٌ. يشير إلى ظهور القبضَة المُحَمَّدية، من بَحْر نورِه اللطيف، وإنما عَبَّر بالحياضِ ليناسب الرياض، وإنما جمع نور القبضَة لِتَفَرّعِهِ إلى أنْوار كثيرة. كما جمع الْعَالَمِيْنِ، مَعَ أنَّ العالم وَاحِدٌ، لتعدد أنْوَاعِهِ. والله تعالى أعْلَمُ. فحقيقة المُلْكِ: ما يُدركُ بالحسّ والْوَهم. وحقيقة المَلكوت، ما يُدْرك بِالعلمِ والذَّوْقِ. وحقيقة الجَبَرُوتِ: مَا يُدْركُ بِالكَشفِ والْوُجْدَانِ. فالوجود واحِدٌ. وإنما تختلف النِّسْبَة باعتبارِ الرّؤية والتّرْقية. فَمَنْ وَقَفَ مَعَ حِسّ الكَائناتِ، وَحُجِبَ بِهَا عَنِ الْمَعْنَى، سُمّيَ في

حَقِّهِ مُلْكاً، وَمَنْ نَفَذَ إلى شهود المعانِي، سُمِّيَ في حَقِّهِ مَلَكُوتاً. وَمَنْ نَظَر إلَى أَصْلِ الْقَبْضَةِ التي بَرَزَتْ مِنهُ، سَمَّاهُ جَبَرُوتاً. فَإِن ضَمَّ الفرعَ إلى الأصول، وتلَطَّفَتِ الأوَاني، حتى صَارَتْ كلّها مَعانِي. وانطبق بَحْر الأحدية على الكلِّ. صارَ الجميع جَبَروتاً، فكل مقام يحجُبُ عما قَبْلَهُ.

فالمَلكُوتُ: يحجبُ عن شهودِ المُلكِ. والجبَرُوتُ يَحْجُبُ عَنِ الْمَلَكُوتِ. إلاَّ بالتَّنَزُّلِ فِي حَالِ السُّلُوكِ. واللَّهُ تعالى أَعْلَمُ.

النَّاسُوتُ واللاَّهُوتُ والرَّحَمُوتُ: النَّاسوتُ: عِبَارَةٌ عَن حِسِّ الأوَانِي. وَاللاَّهُوتُ: عبارة عن أَسْرَارِ المعانِي. ومرجع الأول للمُلْكِ. والثاني للملكوتِ. والرَّحمُوتُ: عبارة عَن سَرَيَانِ اللطفِ والرَّحمة في جميع الأشياءِ: جلالها وجمالها. قال في الحكم: «مَنْ ظَنَّ انفكَاك لطْف اللَّهِ عَنْ قَدَرِه، فَذْلِكَ لقصُور نظرِهِ».

التَّوَاجُدُ والْوجْدُ وَالْوِجْدَانُ وَالْوُجُودُ:

التَّوَاجُدُ: تكلف الْوجْدِ. واستعمالهُ كاسْتعمال الرَّقصِ والشطح والقيام وغير ذلِكَ؛ وهو غَيْرُ مُسَلَّم إلاَّ للفقراءِ المتجرِّدِينَ؛ فلا بأْسَ بتكلفِ الْوُجد واسْتعمالِهِ. كما يُطلَبُ الحالُ دواءً للنفوسِ. وهو مقام الضعفاءِ، وقد تسْتعملهُ الأقوياء مُسَاعفةً أو حَلاَوة.

قيل لأبي محمد الجريري، ما حالُكَ في السَّمَاعِ؟ فقال: إذا حَضر هناك مُحْتَشِمٌ أَمسَكْتُ وَجْدي. فإذا خَلَوْت أرسَلْتَ وَجْدِي فتواجَدتُ. وأما الجُنَيْد فكَان أَولاً يتواجَد، ثمّ سَكَنَ. فقيل لهُ يا سَيِّدي: أَمَا لَكَ في السماع شيْءٌ؟ فقال: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ﴾ [النمل: ٨٨] قلتُ: وقد حضَرْت سماعاً مع شيخنا البُزَيْدِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فكَانَ يتمايل يميناً وشمالاً.

وحدَّثني من حَضَر سَمَاعاً مع شيخه؛ مولاَي العربِي الدّرقاوِي. فقال: ما زال قائماً يَرْقُص حتى كمل السَّمَاعُ. وَلاَ يُنكِرُ السَّمَاعَ إلاَّ جَاحِدٌ جَاهِلٌ خالٍ مِن أَسْرَارِ الحقيقة.

وأَمَّا **الوُجْدُ**: فَهُوَ الَّذِي يَرِدُ على القَلْبِ وَيُصادِمُهُ بِلاَ تَأَملٍ وَلاَ تَكلُّفٍ. إمَّا شوق مقلق، أَوْ خَوْف مُزعج؛ وهو بَعْد التواجد. ويُقالُ: التواجُد ثمرات

المُنَازَلة، فهي أَسْرَارُ الحقائق. كما أَنَّ حَلاوة الطَّاعات ثمرات المُنَازلة في الطاعة الظاهرة. فكلما اشتدَّ التحقق بِأَسْرَارِ الحقائق والتوحيد قَوِيَ الوجْدُ. كَما أَنَّهُ كلما اشتدَّ الدَّوام على الطَّاعةِ قوِيَتْ حَلاَوتها.

وأَمَّا **الوُجْدَانُ**: فهو دوام حَلاَوة الشُّهُودِ، واتِّصَالِهَا مَعَ غَلبَة السّكر والدّهشة، فإِنِ اسْتَمرَّ مَع ذلِكَ، حتى زَالتِ الدَّهْشة والحَيْرَة، وَصَفَتِ الفِكْرَة والنظرة، فهو الوُجُود. وَإِلَيْه يشير قول الجُنَيْد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

وُجُودِي أَنْ أَغِيبَ عَنِ الوُجُودِ بِمَا يَبْدُو عَلَيَّ مِنَ الشُّهُودِ

قال أَبُو عليّ الدَّقاق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

التَّوَاجُد يُوجب استيعاب العَبْد. والوُجْدُ: اسْتغراق الْعَبْدِ. والوُجُود: يُوجب اسْتهلاَكَ العَبْدِ. فهو البَحْرُ. ثم ركب، ثُم غرق.

وقال القشيري: وترتيب هذا الأمر، قصود ثم وُرُودٌ، ثم شُهُودٌ، ثم وُجُودٌ ثم خمُودٌ. فالمقصودُ للمتواجِدِينَ القاصدينَ. والوُجدُ والورود للواجِدِينَ الشَّارِبينَ الخمرة. والشهود لأهْل الوُجْدَانِ السُّكَارَى. والوجود والخمودُ لأهل الصَّحْوِ، والله تعَالَى أَعْلَمُ.

الذَّوْقُ وَالشُّرْبُ وَالسُّكْرُ وَالصَّحْوُ:

الذَّوْق يكونُ بَعْدَ الْعِلْم بالحقيقة، وهو عبارة عن بروقِ أنوار الذَّاتِ القديمة على العقل. فيغيبُ عَنْ رُؤْيَةِ الحدوثِ في أَنْوَارِ القِدَم. لكِنَّهُ لاَ يَدُومُ ذلِكَ. بَلْ يَلْمَعُ تَارَة ويختفي أُخْرَى. فَصاحبه يَدْخل ويخرجُ. فإذا لَمَعَ غَابَ عَنْ حِسِّهِ. وَإِذا خفِيَ، رجَعَ إِلى حِسِّهِ، ورؤية نَفْسِهِ؛ فهذا يسمَّى عندهم ذَوْقاً. فَإِن دَامَ لهُ ذلِكَ النُّورُ سَاعة أَوْ سَاعَتَيْنِ؛ فَهُوَ **الشُّرْبُ**. وإن اتَّصَلَ ودامَ؛ فهُوَ **السّكْرُ**. ومَرْجعه إلى فنَاءِ الرُّسُومِ. ويسَمَّى أَيضاً الفناءِ. فإن رجعَ إلى شهود الأثرِ وقيامها باللَّهِ، وأَنها نور من أَنوارِ الله، فَهُوَ الصَّحْوُ. ويسَمَّى أَيْضاً بالرَّيّ وبالبَقَاءِ. لإِبْقاءِ الأشياءِ بِاللَّهِ بَعْدَ فَنَائِهَا، ويسَمَّى أَيْضاً: فناء الفناءِ؛ لأَنهُ عَلِمَ أَنهُ لَمْ يكُنْ ثَمَّ شَيْءٌ بِعَيْنِهِ غَيْرَ الوَهْم والجَهْلِ؛ وهُمَا لاَ حقيقةَ لهُمَا.

قال القشيري: وَاعْلَمْ أَنَّ الصَّحْوَ عُلُوُّ قَدْرِ السُّكْرِ. فكلُّ مَن كَان سكرهُ بِحَقٍّ، كَان صحوهُ بحقٍّ. ومن كَان سكره بحظٍ مشوباً كَان صحوه بِحَظ

مصحوباً. ومن كَان مُحِقًّا فِي حالِهِ، كَانَ مَحْظُوظاً في سكرهِ. ثم قال: فَمَنْ قوي حُبّهُ تَسَرْمَدَ لِشُرْبِهِ. ولِلَّهِ دَرُّ القائل:

شَـرِبْـتُ كَـأْسـاً بَـعْـدَ كَـأْسٍ فَـمَـا نَـفَـذَ الـشَّـرَابُ وَلاَ رَوِيـتُ

الْمَحْوُ وَالإِثْبَاتُ: المَحْوُ: الغَيْبَةُ عن الكَائنات فَنَاءَ. والإِثْبَاتُ: إثبَاتُها بقاءَ. ويُطلق على مَحْوِ الأوصَافِ الذَّمِيمَةِ. وإثبات الأوصاف الحميدة؛ وهي ثلاثة: مَحْوُ الزَّلَّةِ عَنِ الظَّوَاهِرِ، وَمَحْوُ الغَفْلَةِ عَنِ البَوَاطِنِ. وَمَحْوُ الْعِلَّة عَنِ السَّرَائِرِ. ففِي مَحْوِ الزَّلَّةِ: إثْبَات التَّوْبَةِ. وفي مَحْوِ الغَفْلة إثْبَات اليَقَظةِ. وفي مَحْوِ الْعِلَّةِ: إثبَاتُ الصَّفَاءِ.

السَّتْرُ وَالتَّجَلِّي: السَّتْرُ عندَهُمْ عِبارة عَنْ غَيْبَةِ الْعَبْدِ عَنْ رَبِّهِ، تَرْويحاً وَتَنَزُّلاً وَشُغْلاً، بِشَأْنٍ مِنَ الشُّؤُونِ. والتجلّي عِبَارة عَنْ كَشْفِ الْعَبْدِ بعظمةِ رَبِّهِ. وهذا قبل الرّسُوخ. وأمَّا بَعْد الرّسُوخِ، فَلا غيْبَة لَهُ. فالعوامُّ فِي غِطاءِ السَّتْر على الدَّوامِ. والخواصّ بيْن كشفٍ وغطاءٍ. وخواصُ الخَواصّ فِي دوامِ التجلّي. فالسَّتْرُ للعَوامّ عقوبةٌ. وللخواصّ رحمة. إذ لوْلاَ أنهم يُسْتَرُ عنهُمْ في بعض الأَحْيَانِ، لتلاَشَوْا عِنْدَ سُلْطَانِ الحقيقةِ. ولكنه كما يظهر لهم، يستر عنهُمْ. فَالْخَوَاصّ بيْن عيْشٍ وطَيْشٍ. إذا تجلَّى لهُمْ طاشُوا، وَإذا ستر عنهم ردّوا إِلَيْهِم فَعَاشُوا.

الْمُحَاضَرَةُ وَالْمُكَاشَفَةُ وَالْمُسَامَرَةُ: المُحَاضَرَةُ: حُضُور الْقَلْبِ مَعَ الرَّبِّ. وَيكُون من وَرَاءِ الحِجَابِ، إِمَّا بتواتر الْبُرْهَانِ، أَوْ بِفِكْرةِ الاعْتبَارِ، أو بِاسْتِيلاَءِ سُلْطَانِ الذِّكرِ على القَلْبِ. ثم بعده المكاشفَة: وهي حضور القَلْبِ مَعَ الرَّبِّ بِنَعْتِ البَيَانِ. غَيْر مفتقر في هذه الحالةِ إلى تأمُّلِ الدَّليل. وتطلّب السَّبيل. ويكون أَيْضاً مع الحِجَابِ بِنَعْتِ القرْبِ فِي مَقَامِ المُرَاقَبَةِ؛ وهُوَ لِلْعُبَّادِ والزُّهَّادِ ونهاية الأسْرَار. أمَّا مكَاشفة ضمائر النَّاس، فليْسَت بِمقصُودَة عِنْدَهُمْ. بل يُعطاها مَنْ لم يَبْلُغ هذا المقام. وبعد المحاضرة والمكَاشفة. المُسَامرة: وهي ظهور أَسْرار الذَّات، فيغيب العبد عن وجوده. ويغرق في بَحْر الأحدية ساعة أَوْ سَاعَتيْنِ. ثم يرجع إلى شاهده وحِسِّهِ. كمَن يَسْتَمِرُّ في عَوْمِهِ تحتَ الماءِ سَاعة أَوْ أكثَر، ثم يخرجُ؛ هي مِنْ بِدَايَةِ الوُجْدَانِ، ولمعان أَنْوَارِ المشاهدة. ثم بعدها المشاهدة؛ وَهِيَ دَوَام شهُودِ الحقّ

بِلاَ تَعَبٍ. أو وجُودِ الحقِّ بِلاَ تهمَة.

وقال الجُنَيْد رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ: المشاهدة: وجود الحقِّ مع فقدانِكَ. وقد تقَدَّم تفسيرهَا. وإنما أُعيدتْ هُنَا، لترتيبها على ما قبلَها. قال القشيري: فصاحب المحاضرة مَرْبوط بِآيَاتِهِ. وصاحب المُكَاشفَة، مَبْسُوط بِصفاتِهِ. وصاحب المشاهدة ملقى بِذَاتِهِ. قلتُ: وصاحب المُسَامَرَة. تارة بتارة. ثم قال القشيري: صاحب المحاضرة، يهديه عقْلُهُ. وصاحب المكَاشفَة، يُدنيهِ عِلْمُهُ. وصاحب المشاهدة، تَمْحُوهُ معْرفتهُ. وأَجْمع ما قيل في المشاهدة، أَنها: تَوالِي أَنوَارُ التجلِّي على القَلْبِ، مِنْ غَيْر أَنْ يَتَخلَّلَهَا سِتْرٌ وانقطاعٌ. كما لَوْ قدِّر اتصال البروق، في الليلة الظلماءِ. فإنها تصير في ضوءِ النهار، كذلك القلب، إذا دَامَ له دَوَام التجلّي، فلا لَيْلَ. وأَنْشَدُوا:

لَـيْـلِـي بِـوَجْـهِـكَ مُـشْـرِقٌ وَظَـلاَمُـهُ فِـي الـنَّـاسِ سَـارِ
الـنَّـاس فـي سـدَف الـظَّـلاَ مِ ونَـحْـنُ فـي ضَـوْءِ الـنَّـهَـارِ

والسَّدَفُ بالسِّينِ: الظلمة كما في القاموسِ. وقال النوري: إذا طلع الصباحُ، اسْتُغْنِي عن المِصْبَاح. وقول الشاعر: ليلي إلخ.. ليل وجودي مشرق بوجودِ ذلِكَ. فَقَدْ ذهبَتْ ظلمة وجودِهِ، في نَهَارِ وجودِهِ.

اللَّوَائِحُ وَاللَّوَامِعُ وَالطَّوَالِعُ: وهي أَلفَاظ متقاربة؛ وهي أَصْل البِداياتِ، حينَ تبرق عليهم أَنوَار الشهود، ثم تستر. فتكون أولاً لوائحُ ثم لوامع، ثم طوالعُ. فاللوامعُ أَظْهَرُ من اللوائح. والطوالع أظهر من اللوامع. فقد تبقى اللَّوَامع سَاعتيْن أَوْ ثلاث، بخلاف اللوائح. فإنها أَخف لِزَوَالِهَا بسُرْعةٍ. كما قال الشاعرُ:

افْـتَـرَقْـنَـا حَـوْلاً فَـلَـمَّـا اجْـتَـمَـعْـنَـا كَـانَ تَـسْـلِـيـمُـهُ عَـلَـيَّ وَدَاعَـا

وقال آخر:

يَـا ذَا الَّـذِي زَارَ وَمَـا زَارَ كَـأَنَّـهُ مُـقْـتَـبِـسٌ نَـارَا
مَـرَّ بِـبَـابِ الـدَّارِ مُـسْـتَـعْـجِـلاً مَـا ضَـرَّهُ لَـوْ دَخَـلَ الـدَّارَا

وَأَمَّا الطَّوَالع، فَإِنَّهَا أَبْقَى وَقْتاً، وأَقوى سلطاناً. وأَذهب لِلظلمَةِ. وأَنْفى للتُّهْمَةِ. لكنَّهَا على خَطَرِ الأفولِ. لم يتمكَّنْ صاحبها من طلوعِ شَمْسِ عِرْفَانِهِ.

فأوقَاتُ حُصُولها وشيكة الارتحالِ. وأَحْوَالُ أُفولِهَا طويلة الأذيَالِ. لكن إذا غَرُبَتْ أنوارهَا، يعيش في بركَاتِ آثَارهَا، إلى أَن تعودَ ثانياً. هَكَذَا تطلع شمس نهَارِه بتمكّنِهِ. فَلاَ مَغِيبَ لَهَا حينئذٍ. قال الشاعر:

طَلَعَتْ شَمْسُ مَنْ أُحِبُّ بِلَيْلِ ... واسْتَنَارَتْ فَمَا تَلاَهَا غُرُوبُ
إِنَّ شَمْسَ النَّهَارِ تَغْرُبُ لَيْلاً ... وَشُمُوسُ الْقُلُوبِ لَيْسَتْ تغيبُ

الْبوادِهُ وَالْهُجُومُ: الْبَوَادِهُ مَا يَفجَأُ الْقَلْبَ مِنْ نَاحِيَةِ الْغَيْبِ، على سَبِيلِ البغتة. إما موجب فرَح، أوْ تَرَح. والْهُجُومُ، مَا يَرِدُ على الْقَلْبِ بِفَوْتِ الوقْتِ من غيْر تقنّع وَلاَ تكسُّبٍ. وتختلف أَحْوَالُهُمْ على حسَب ضعفهم وقوّتهم. فمنهم من تغيّره البوادهُ. وتتصرف فيه الهَوَاجمُ. ومنهم من يكونُ فوْق ما يفجأهُ حالاً وقوة؛ لا تغيره الهواجِمُ. وَلاَ تتصرَّف فيه البوادهُ. وَلاَ تُزَعْزِعهُ الهموم. وَلاَ تحرِّكه المخاوف. أُولئِكَ سَادَةُ الْوقت كما قيل:

لا تهدي نوب الزمان إليهم ... ولهم على الخطب الجليل لجامُ

وهؤلاء أَهْلُ الرسُوخ والتمكين. جَعَلَنَا اللَّهُ مِنهم آمين.

التَّلْوِينُ وَالتَّمكِينُ: التلوين هو الانتقال من حالٍ إلى حالٍ. ومن مَقام إلَى مَقَام. وقد يسقط ويقومُ. فإذا وَصَلَ إليه صريح العِرْفَانِ. وتمكَّنَ من الشهود، فَصاحب تمكينٍ. فصاحب التلوين أبَداً في الزيادة. وصاحب التمكين، وصل وتمكَّنَ. فانتهاء سَيْرهم، الظفر بنفوسهم، فإذا ظَفَرُوا بها فقد وصَلُوا. فانخنَسَتْ أَوصاف البشرية. واسْتولى عليها سلطان الحقيقة. فإذا دَامَ ذلِكَ للعَبْدِ؛ فهو صاحب تمكينٍ. وقد يكون التلوين بعد التمكين. ومعناه: النزول في المقاماتِ، كنزولِ الشمس في بُرُوجِهَا. فَيَتَلَوَّنُ العارفُ مع المقادِيرِ، ويدورُ مَعَها حيث دَارَتْ. ويتلوّن بِتَلَوُّنِ الْوَقْتِ. فيكون بيْن قَبْضٍ وبسْطٍ، وقوة وضعفٍ. ومَنْع وعَطَاء وسُرُور وَحزْنٍ. وغيْر ذلِكَ مِنْ تقلّبَات الأحْوَالِ. غيْر أنه مالِك غيْر مملوك. لاَ يتغَيَّر بتغيّر الأحوال. وَلاَ يتأثر بالزَّلازل والأَهْوالِ. والله تعالى أَعْلَمُ.

الْقُرْبُ وَالْبُعْدُ: القرْب كنَاية عن قرْب العبْد من ربِّهِ، بطاعتِهِ وَتَوْفيقِهِ؛ وهو على ثلاثِ مَرَاتبَ: قرْب بالطَّاعَةِ وترْك الْمُخَالَفَةِ. وقرْب بالرياضة والمجاهدة. وقرْب بالوصولِ والمشاهدة. فقرْب الطالبينَ بالطَّاعَةِ. وقرْب المريدين

بالمجاهدةِ. وقرْب الواصلينَ بِالمشاهدة. فَأول البُعْد: البُعْد عن التوفيق. ثم البُعْد عن سلوك الطريق. ثم البُعْد عن التحقيق. وفي الحديث القدسِي عن الله عَزَّ وجَلَّ، يقول: «**مَا تقرَّبَ إِلَيّ المُتَقَرِّبُونَ، بِمثل أَدَاءِ مَا افْتَرضته عليهم. وَلا زال العبد يتقرَّبُ إليّ بالنَّوَافِلِ حتَّى أُحِبُهُ. فإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنتُ له سَمْعاً وبَصَراً**»[1] الحديث. وفي حديث آخر: «**فَإِذا أَحْبَبْتُهُ كُنتُهُ**»[2]. فقرب العبد من ربهِ: اِنحِيَاشه إليهِ بِقلبِه. وقرْب الحق من عَبْدِهِ، تغييبهُ عن وجوده الوهمي. وكشف الحجاب عن عَيْن بَصِيرَتِهِ حتى يرى الحقَّ أقربَ إليه من كل شَيْءٍ. ثم يغيب القرْب في القرْبِ. فيتَّحِد الْقَرِيبُ والقرْب والمحبّ والحبيبُ كما قال القائل:

أَنَــا مَــنْ أَهْــوَى، وَمَــنْ أَهْــوَى أَنَــا

وكما قال التستري:

أَنَـا الـمُـحِـبُّ والـحـبِـيـبُ مـا ثَـمَّ ثَـانِـي

الشَّرِيعَةُ وَالطَّرِيقَةُ وَالْحَقِيقَةُ: تكليف الظَّوَاهِرِ. والطريقة: تصفية الضمائر. والحقيقة شهود الحق في تجليات المظاهر. فالشريعة أَنْ تَعبُدهُ. والطريقة أَنْ تقصدهُ. والحقيقة أَنْ تَشْهَدَهُ. فلمّا تجلَّى الحق بيْن الضِّدّيْن، فتجلَّى بمظاهر عظمة الرُّبوبية. في قوالبِ العبُودية، ظَهَرَت الشريعة والحقيقة. فشهود العظمة من حيْث هي: حقيقة. والقيام بِآدَابِ القوالِبِ عبادة. وعبودية شريعة. وأَما الطريقة فهي إصْلاح الضَّمَائِرِ، لتتهيَّأ لإشراق الحقائق عليْهَا.

فالشريعة لإصلاح الظواهر، والطريقة لإصلاح الضمائر، والحقيقة لتزْيينِ السَّرائر. ويُقَالُ: الشريعة عيْن الحقيقة. من حيْث إنها وَجَبَتْ بِأَمرِهِ. والحقيقة عَيْنُ الشريعة مِنْ حيْثُ إنها مكلف بِهَا من قبل الشريعة. وقد تطلق عندهم الشريعة، على كل ما يتوصل به إلى شيْءٍ. أو يكون سَبباً في إدراكِهِ. فالأَسْبَابُ كُلُّهَا شرائعُ. والمَقاصد كلها حَقائق. فالحِسُّ شريعة المَعْنَى. إذ بِهِ قُبِضتْ، والمجاهَدَة شريعة المشاهدةَ. والذّلّ: شريعة العِزِّ، والفقر: شريعة الغِنَى.

(١) هذا الحديث سبق تخريجه.

(٢) هذا الحديث سبق تخريجه.

وهٰكذا. والحرث والغَرْسُ شريعة جَنْي الثمار. ولذلكَ يقولون: مَنْ غَرَسَ الشرائع، أثمَرَتْ له الحقائق. ومن غَرَس الحقائق، أثمرتْ له الشرائع. أي أخْرَجَتْهُ إلى الرجوع إلى الشرائع. وفي ذلِك يقول الشاعِرُ:

ثِمَارَ مَا قَدْ غَرَسْتَ تَجْنِي وَهَذِهِ عَادَةُ الزَّمَانِ

الذَّاتُ وَالصِّفَاتُ: إعْلَمْ أَنَّ الحق جلَّ جلاله، ذات وصفات في الأزلِ وفي الأبَدِ. أَعْنِي قبل التجلّي وبعدهُ. إذْ صِفَاته قديمة بقِدَم ذاتِهِ. والصفة لاَ تفارق الموصوف. فحيْث تجلّتِ الذّات. فالصفاتُ لاَزمةَ لهَا. فالذَّات ظاهرةٌ، والصفات باطنَةٌ. والمراد بالصفات: صفات المعاني؛ وسائر أَوصاف الكَمَال. فكل ما وقع به التجلّي والظهور، فهو بيْن ذاتٍ وصفات. الذَّات لاَ تُفَارِق الصفات. والصفات لاَ تفارق الذات. وهذا التلازُمُ الذي بيْنهما في الوجود؛ هو الذي قَصَدَ من قال: الذَّات عيْن الصفات. أي مظهرهما واحد. كما قالوا: الحِسُّ عيْن المَعْنَى. أَي اتَّحَدَ مظهرهما. قال بعض المشارقة، في بعضِ أَزجالِهِ:

يا واردَ العَيْن إنْ حقَّقتَ زَالَ الشك الذَّاتُ عَيْن الصفاتِ مَا فِي الْمَعَانِي شك

وَلاَ يَصُدَّنك عن شهود الذَّاتِ رداءُ الحِسِّ المنشور على وجه المعاني. فإنَّ هٰذَا الأمر من مدارك الأذواق والوجْدَان. لاَ من طريق دليل العَقل والبُرهان. ولِلّهِ دَرُّ ابن الفَارض حين يقول:

فَثَمَّ وراءَ النَّقْلِ عِلْمٌ «يَدِقُّ عَنْ» مَدَارِكِ غَايَاتِ العقولِ السَّلِيمَةِ

واعلم أَنَّ الذَّاتَ لاَ تتجلَّى إلاَّ فِي مَظَاهِر الصفاتِ. إذْ لَوْ تجلَّتْ بِكَ من دون وَاسطة لاَضْمحلَّت المُكَوّنَاتُ وتلاشَتْ. ولذلك يقولون: تجلّي الذات جلالي. وتجلّي الصفات جَمَالِي؛ لأَنَّ تجلِّي الذَّات بواسطةٍ، يُمْحقُ ويُحْرق، كما في الحديث. تجلّي الصفات يكون بالأثَرِ. فيكون معه الشهود والمعرفة؛ فهو جمالي. ثم تَوسعوا فأَطْلقُوا على كل ما هو جلالي ذات. وعلى كل ما هو جمالي صفاتٌ على سبيل التشبيه. فَقَالُوا: الفقر ذات. والغِنَا صفاتٌ. الذُّلُّ ذَات. والعِزّ صفات. الصَّمْتُ ذَاتٌ. والكَلاَمُ صفاتٌ. هكذا. وَهٰذَا الاصطلاح، ذكره شيخ شيوخنا، سيّدي عَلِي الجَمَل العمراني رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ فِي كِتَابِهِ: وَلاَ أَدْرِي هَلْ سُبِق به أَمْ لاَ.

الأَنْوَارُ وَالأَسْرَارُ: الأنوار عبارة عمَّا ظَهَر من كثائف التجليات. والأَسْرَارُ: عِبَارة عمَّا بَطن فيها من المَعَانِي اللطيفة. فالأسرار أَرَقّ مِنَ الأنوارِ للذَّاتِ. والأنوار للصفاتِ؛ لأنها أثرُها. فالذَّات بَعْدَ التجلّي، بيْن أَنْوَار ظَاهِرَة، وأَسْرَار باطِنَة. وأما في حال الكَنْزِيَة، فَمَا كَانَ إلاَّ الأسرارِ. فَالْجَبَرُوتُ كُلُّهُ أَسْرَارٌ. والمَلكُوت أَنْوَارٌ. والمُلْكُ أغيار وأَكْدَارٌ.

فالجود واحِد. فَمَن نظر إلى باطِنِه، لم يَرَ إلاَّ الأسرار ومَن نظر إلى ظاهره بعَيْن الجمع، لم يَرَ إلاَّ الأنوار. ومن نظرهُ بِعَيْنِ الفَرْق، لم يَرَ إلاَّ الأغيار. جَمْع غَيْر بالسكونِ. ومن شغله عن التوجه إلى الله بتشغِيبِهِ وأَهْوَاله، كَان في حقل انحِدار. وإنما سمّيت تجليات الحقّ أنواراً على وجه التشبيه. لأنه من شأن النور أنْ يكشف الظلمة ويُذْهبَهَا. وكذلكَ تجلّي الحقّ، يكشف عن ظلمة الجَهْلِ، ويظهر العلْم بِهِ. ولذلكَ قالوا: العلم نورٌ، والجهل ظلمة على وجه الاستعارة. وأَما السِّرُّ فهو الأمر الخفي الذي لا يُدرَكُ. فلذلكَ قالوا فِي حق الخمرية الأزلية. والمعاني القديمة أَسْرَاراً. وسمُّوا الأرواحَ بعد التصفية أسراراً. لأنها لمَّا تصفَّتْ رجَعَتْ لأَصْلِهَا؛ وهي قطعة مِنَ السِّرِّ الجبَرُوتي القديم. فإذا اسْتَوْلتْ على الأشباحِ، رجعَ الجميع قديماً. والله تعالى أَعْلَمُ.

وَأَمَّا الضمائر والأَسْرَارُ، فقيل معناهما واحدٌ. وقيل السَّرائر أرق وأَصْفى. كَما أَنَّ الروح أَرق من القلبِ؛ لأَنَّ الضمائر: كل ما خفي فِي الباطن، خيراً أَو شرًا. والسَّرَائر كَمن فيه المحاسن. والتحقيق: أَنها شيء واحدٌ. عبَارة عَمَّا كَمَنَ فِيهِ البَاطِن من العقائد والنيات بدليل الآية: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩﴾ [الطارق: ٩] والله تعالى أَعْلَمُ.

النَّفَسُ: بالتحريك: قال القشيري، يعنُون بِهِ ترويح القلوبِ، بلطائف الغيب. فصاحب الأنفاس أَرفع من صاحب الأحوال، ومن صاحب الوقتِ. فكَأَن صاحبَ الوقتِ مُبْتدىءٌ. وصاحب الأنفاسِ منتهيٌ. وصاحب الأحوال بيْنهما. فالأوقات لصاحب القلوب. والأحوال لصاحب الأرواحِ. والأنفاس لأهل السَّرَائر. قُلْتُ: النَّفَسُ: أَدَقُّ مِنَ الوَقْتِ. فحِفْظ الأوقاتِ من التَّضْييع لِلْعُبَّادِ والزُّهَادِ. وحفظ الأنفاسِ للعَارفينَ الواصلينَ، واستعمال الأحوال

للمريدين. والمراد بحفظِ الوقت: حضور القَلْبِ فيه. وبحفظ النَّفَسِ، حضور السِّرِّ في مشاهدة الحق. يُقال، فلانٌ طابَتْ أنفاسه، إذا صَفَا مشربهُ من عيْن التوحيدِ؛ من كدورة الأغيَارِ. فقوله في حدِّ النَّفَس: ترويح القلوب، أي خروجها من تَعَبِ العِسَّة، ودوام المراقبة؛ إلى راحة المشاهدة. مما يَبْدُو لَهَا من لطائف أَسْرَار التوحيد، وفضاء الشهود. ثم قال القشيري: وقالُوا: أفضل العِبَادة حفظ الأنفاسِ. أَي دوام الفكرة والنظرة. كما قال الشاعر:

مِنْ أَحْسَنِ المَذَاهِبِ سُكْرٌ عَلَى الدَّوامِ
وأَكْمَلِ الرَّغَائِبِ وَصْلٌ بِلاَ انْصِرَامِ

قال أبُو عليّ الدَّقاق: العارفُ لاَ يَسْلَمُ لَهُ النَّفَسُ، أَي تضييعه. إذ لاَ مُسَامحة تجْري مَعَهُ. والمُحِبُّ لاَ بُدَّ لَهُ مِنَ النَّفَسِ، إذ لَوْلاَ ذَلِكَ لتلاشَى لعَدم طاقتِهِ. فالْعَارِفُ، لمَّا اتَّسَعَتْ مَعْرِفَتُهُ، سَهُلَ عليه حفظ أَنْفَاسِهِ، لسُهُولة حُضُورِهِ، وتَمَكُّنِ شهودِهِ، بخلافِ المُحِبِّ. فَلِضِيْقِ حالِهِ، لاَ يسْتطيع دَوَامَ حُضُورِهِ فِي خِدْمَتِهِ. وعلى تقدير سُهُولِها عليها، لفنائه فِيهَا. وقد تخلّ بشريتهُ. ولذلكَ قال عليه الصلاة والسلام: **«رَوِّحُوا قُلُوبَكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْمُبَاح»**[1]. أَوْ كَما قال ﷺ لحَنْظلةَ والصّدّيق: **«لَوْ تَدُومُونَ كما تكونُونَ عِنْدِي لَصَافَحَتْكُم المَلاَئكة. ولكِن سَاعة بِسَاعَةٍ»**[2].

---

(١) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

(٢) روى نحوه مسلم في صحيحه، باب فضل الذكر. . ، حديث رقم (٢٧٥٠) [٤/ ٢١٠٦].
ورواه غير مسلم ونصه: عن حنظلة الأسيدي قال وكان من كتاب رسول الله ﷺ قال لقيني أبو بكر فقال كيف أنت يا حنظلة قال قلت نافق حنظلة قال سبحان الله ما تقول قال قلت نكون عند رسول الله يذكرنا بالنار والجنة حتى كأنا رأى عين فإذا خرجنا من عند رسول الله ﷺ عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات نسينا كثيرا قال أبو بكر فوالله إنا لنلقى مثل هذا فانطلقت أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول الله ﷺ قلت نافق حنظلة يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: وما ذاك؟ قلت يا رسول الله: نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة حتى كأنا رأي عين، فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات نسينا كثيراً فقال رسول الله ﷺ والذي نفسي بيده إن لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم ولكن يا حنظلة ساعة وساعة ثلاث مرات».

الْفِكْرَةُ والنَّظْرَةُ: الفِكْرَة جَوَلاَنُ الْقَلْبِ، في تَجلِّيَات الرَّبِّ. وقال في الحِكَمِ: هي سَيْر القلب في مَيَادِين الأغيَار. وهذه فِكرة الطَّالِبينَ. وفِكرة السَّائِرِينَ سَيْر القلبِ في مَيَادِين الأنوار، وفكرة الصالحينَ: سَيْر الرّوح في ميادِين الأسرار. وترجع إلى فِكْرَتَيْنِ: فِكْرَة تصديق وإيمَانٍ؛ وهي لأهل الاعْتبار، من عامّة أَهْل اليمين، وفِكرة شهود وعيَانٍ. وهي لأهل الاسْتِبصارِ، من نجبَاءِ المريدينَ، وخاصّة العارفينَ المتمكِّنِين؛ وهي سِراج القَلْبِ، فإذا ذهبَتْ فلا إضاءة لهُ. وهي سَبَبُ الْغِنَا الأكْبَر؛ وبِها يتحقق السَّيْرُ، ويَحْصُل الوصول. فَمَنْ لاَ فِكْرَةَ لهُ. لاَ سَيْرَ لَهُ. وَمَنْ لاَ سَيْرَ لهُ، لاَ وُصُولَ لَهُ. وكَان شيخنا البُوزَيْدي رضي الله عنه يقولُ: الفقيرُ بِلاَ فِكْرَةٍ، كالخيَّاطِ بِلاَ إبْرَةٍ. وأمّا النظرةَ؛ فهي أَرَقُّ مِنَ الفِكْرَةِ وأَرْفَعُ. لأنها مَبْدَأُ الشهودِ. فالجَوَلانُ فِي الأكوَانِ، وهدمها وَتلطيفها فِكْرَةٌ. والنظرة في نفسِهِ أَو غيرِهِ من التجليات، وغيبته عنها بشهودِ الحقّ نظرةٌ. فإن تمَكَّنَ مِنَ الشُّهُودِ ودامَ فيهِ، سُمِّيَ العكوفُ في الحَضْرَةِ. ولذلِكَ يُقَالُ؛ أَوّلَ المَقَاماتِ ذِكرٌ، ثم فكرة، ثم نظرة، ثم عكوف في الحَضْرَةِ. واللّه تَعَالَى أعْلَمُ.

الشَّاهِدُ: قال القشيري: قد يجري في كَلاَمِهِمْ: فلانٌ بِشَاهِدِ العلم. وفُلاَنٌ بِشاهِدِ الوجْد، وفلانٌ بِشاهِدِ الحالِ. ويريدون بلفظ الشاهِدِ: ما يكون حاضر قلبِ الإنْسَانِ. وَمَا هُوَ غَالِبُ ذِكرِهِ؛ لأنه يراهُ ويُبْصِرُهُ. وإن كَانَ غائباً عَنْهُ. وكل ما يسْتَولي على قَلْبِ الإنسَانِ فهو شاهدهُ. فإن كَان الغالب عليه ذِكر الْعِلْمِ: فهو بشاهِدِ الْعِلْم. وإن كَانَ الغَالِبُ عليه الْوَجْدُ؛ فَهُو بِشاهِدِ الْوَجْدِ. وَمَعْنَى الشاهد: الحاضر. فكل ما هو حاضِرُ قلبِكَ؛ فهو بشاهِدِكَ.

الْخَمْرَةُ وَالْكَأْسُ وَالشَّرَابُ:

أَمَّا الخَمْرَة، فَقد يطلقُونَهَا على الذَّاتِ العَلِية قَبْلَ التجلّي. وَعَلى الأسْرَارِ القائمة بالأشياءِ بعد التجلّي. فيقولون: الخمْرَة الأزلية تجلّتْ بِكَذَا. ومِنْ نَعْيها كَذَا. وقامَتْ بِها الأشياء، تَستَراً على سِرّ الرّبوبية. وعليها غَنَّى ابن الفارضِ في خمريته. وإنما سمّوها خمرية؛ لأنّها إذا تجلّتْ للقلوبِ غابَتْ عَنْ حِسِّهَا، كما تغيب بالخَمْرَةِ الحسّية. وقد يطلقونها على نفس السّكْر والوجد والوُجْدَانِ.

ويقولونَ: كُنَّا فِي خَمْرَةٍ عظيمَة، أي في غيْبَة عنِ الاحْسَاسِ كبيرة. وعلى هٰذَا غَنَّى التستري حيْث قال:

خَــمْــرُهَــا دُونَ خَــمْــرِي   خَــمْــرَتِــي أزَلِــيَّــهْ

أيْ سُكْر خَمْرَةِ الدَّوالِي دون خَمْرَتي.

وأمَّا الكَأْسُ الذي تُشربُ منه هذه الخمرَة، فهو كناية عن سُطُوعِ أنْوَارِ التجلّي على القلوبِ، عنْدَ هَيَجَانِ المحبَّة، فَتُدْخِلُ عَلَيْهَا حَلاَوة الْوَجْد حتى تغيبَ. وَذَلك عِنْدَ سَماعٍ أوْ ذِكْرٍ أوْ مُذَاكرةٍ. وقيل: الكَأْس هو قلْبُ الشيخ: فقلوب الشيوخ العارفينَ كؤوس لهذه الخمرة، يسْقونها لمَن صحبَهم وأحَبَّهُمْ.

والشّرْب حضور القَلْب، واستعمال الفكرة والنظرة. حتى تغيب عن وجودكَ في وجودِهِ؛ وهو السكر. فالشرب والكأسُ متَّصلانِ في زمن واحد في هذه الخمرَة، بخلافِ خمْرة الدّنيا.

وقال القطبُ بن مشيش: المَحَبَّة آخِذَةٌ مِن اللّهِ قَلْبَ مَنْ أَحَبَّ، بما يُكْشف لهُ من نُورِ جمالِهِ، وقدسِ كَمَال جلالِهِ. وشَرَاب المحبَّة: مَزْجُ الأوصافِ بِالأوصَافِ، والأخلاق بالأخلاق، والأنوار بالأنوار، والأسماء بالأسماءِ، والنعوتِ بالنعوتِ، والأفعال بالأفعالِ. ويتسعُ النظر لمَن شَاءَ الله عزَّ وَجَلَّ. والشرابُ يسْقي القلوبَ والأوصالَ والعروق من هذا الشربِ. ويكون الشرب بالتدريبِ بعد التدريب، والتهذيب. فيسقى كل على قدرهِ.

فمنهم من يُسْقَى بِغَيْرِ واسطةٍ. والله يتولَّى ذلكَ منْهُ. قلت: وَهٰذَا نَادِرٌ. ومنهم من يسْقَى مِن جهة الوسائِطِ، كالملائكة والعلماءِ، والأكابر من المقرَّبينَ. ثم قال: والكأس معْرِفة الحق، يُغرف بها من ذلكَ الشراب الطهور المَحْضِ الصَّافِي لمَن شاء من عباده المخصوصينَ، إلى آخر كَلاَمِهِ. وقد فَسَّرْنَاه في شرح الخمرية.

الْمُرِيدُ وَالْفَقِيرُ، وَالْمُلاَمِتِي وَالْمُقَرَّبُ:

أَمَّا المريد: فهو الذي تعلقَتْ إرَادته بمعرَفةِ الحقِّ، وَدَخَل تحتَ تَرْبِيَةِ المشايخ. وقد تَقَدَّمَ.

وأَمَّا الفَقيرُ: فهو الَّذي افتقر مما سِوَى هٰذِهِ، ورفَض كل ما يُشغله عَنِ اللَّهِ. ولذا قالوا: الفقيرَ لا يَمْلِك وَلاَ يُمْلَكُ. أَي لاَ يَمْلِك شيئاً، وَلاَ يملكهُ شَيْءٌ. فهوَ أَنْصَفُ من المريدِ وأَخَصُّ؛ لأَنَّ المريدَ قَدْ يكونُ من أَهْلِ الأَسْباب. وقيل: الفقير هو الذي لاَ تُقِلّه الأَرْضُ، وَلاَ تُظِلُّهُ السَّمَاءُ. أَي لاَ يحصرهُ الكَوْنُ، لرَفع هِمَّته. ونفوذ بصيرته.

وقال بَعْضهُمْ: شروط الفقير أَرْبَعَةٌ: رَفْعُ الهِمَّةِ، وحسْنُ الخِدْمَةِ، وَتَعْظِيمُ الْحُرْمَةِ، وَنُفُوذُ الْعَزِيمَةِ.

وأَمَّا المُلاَمِتي: فَقَالُوا: هو الَّذِي لاَ يُظهر خيْراً، وَلاَ يُضمِرُ شرًّا. أَي هو الَّذِي يخفِي بيتهُ، ويظهر من الأحوالِ، ما يُنفر النَّاس عنْهُ.

والمُقَرَّبُ، هو المحقق بالفَنَاءِ والبقاءِ. وقال بعْضُهُمْ: الفقر والمُلاَمَة والتقريب، أنواع من التصوف ومرَاتب فِيه. فَإِنَّ الصُّوفِي هو العامل في تصفية وقتِهِ، ممَّا سِوَى الحقّ. فإذا سَقط ما سوى الحق من يدهِ فهو الفقيرُ. وإن كَان لاَ يُبَالِي بالنَّاس، وَلاَ يُظهر خَيْراً، وَلاَ يُضْمِرُ شرًّا، فَهُوَ المُلاَمِتي. والمقرَّبُ: مَن كَمُلَتْ أَحْوَالُهُ. فَكَان بِرَبِّهِ لِرَبِّهِ، ولَيْسَ لهُ عن سوَى الحقّ إخبارٌ، وَلاَ مع غَيْر اللَّهِ قرارٌ.

الْعُبَّادُ وَالزُّهَّادُ وَالْعَارِفُونَ: هذه أَلْفاظ، مَعَانِيهَا متقاربة. يجمعها معْنَى التصوف في الجملةِ؛ الذي هو قصد التوجه إلى الله تعالى. إلاَّ أَنَّ مَنْ غَلَبَ عليه العملَ كَانَ عَابداً، ومَنْ غَلَبَ عليه الترك، كَان زاهِداً. ومن وصل إلى شهود الحق ورسَخَ فِيهِ، كَانَ عَارفاً. فَالْعُبَّاد والزُّهَّاد، شَغَلَهُمْ بِخِدْمَتِهِ. إِذْ لَمْ يَصْلُحُوا لصريح معرفتِهِ. والعارفُونَ شغَلَهُمْ بِمَحَبَّتِهِ. ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ۝٢٠﴾ [الإسراء: ٨٢٠].

الصَّالِحُونَ، وَالأَوْلِيَاءُ، وَالْبُدَلاَءُ، وَالنُّقَبَاءُ، وَالنُّجَبَاءُ، وَالأَوْتَاد، وَالْقُطْبُ:

أَمَّا الصالحونَ، فَهُمْ مَن صَلُحت أَحْوَالُهُمُ الظَّاهِرَةُ، واستقامَتْ أَحْوَالُهُمُ الباطِنة.

وأَمَّا الأولياء: فهُم أَهْل العلم بِذلِكَ، على نَعْتِ العِيَانِ مِنَ الْوَلِي: وهو القرْبُ، وقيل: مَنْ تَوَالَتْ طَاعَتُهُمْ، وتحقَّقَ قُرْبُهُمْ، وَاتَّصلَ مَدَدُهُمْ.

وأَمَّا البُدَلاَءُ: فَهُمُ الذينَ اسْتَبْدَلُوا المَسَاوِىء بِالمحَاسِنِ. واسْتَبْدَلُوا صِفَاتِهِمْ بِصِفَاتِ مَحْبُوبِهِمْ.

وأَمَّا النُّقَباءُ: فَهُمُ الَّذِينَ نَقَّبُوا الكَوْنَ، وخَرَجُوا إلى فضاءِ شهودِ المكَوِّنِ.

وأَمَّا النُّجَباء: فهم السَّابِقونَ إلى اللَّهِ، لِنَجَابَتِهِمْ؛ وهم أَهْل الجِدِّ والقَرِيحَةِ الْمُرِيدينَ.

وأَمَّا الأَوْتَادُ: فَهُمُ الراسِخُونَ فِي مَعْرِفَةِ اللَّهِ. وهم أَرْبعة. كأنهم أَوْتَاد لأركَان الكَوْنِ الأَرْبَعَةِ.

وأَمَّا القُطْبُ: فهو القائم بحقِّ الكَوْنِ والمُكَوِّنِ؛ وهو واحد. وَقَدْ يُطْلَق على مَنْ تحقق بمقام. وعلى هٰذَا، يتعدد فِي الزَّمانِ الواحد أَقطابٌ في المقاماتِ والأحْوَالِ والعلوم. يُقال: فلان قطب في العلوم. أَو قطب في الأحوال أَو قطبٌ فِي المَقَاماتِ. إذا غَلَبَ عليه شَيْءٌ مِنْهَا. فإِذَا أُرِيدَ المقامُ الذي لاَ يتّصف به إلاَّ واحد، عُبِّرَ عَنْهُ بِالْغَوْثِ؛ وهو الَّذِي يصل منه المَدَد الرّوحانِي إلى دوائر الأولياءِ من نَجِيبٍ ونَقيبٍ، وأَوتاد، وأَبْدال. وله الإمامَة والإِرْثُ، والخِلافَة الباطنة، وهو روح الكَوْنِ الَّذي عليه مَدَارُهُ. كما يسيِّرُ إلى ذٰلِكَ. كوْنه بمنْزِلَةِ إنسانِ العَيْنِ مِنَ العَيْنِ. وَلاَ يعرف ذلكَ إلاَّ مَن لهُ قِسْط وَنَصِيبٌ مِنْ سِرِّ البَقَاءِ بِاللَّهِ.

وَأَمَّا تَسْميته بِالغَوْثِ، فمِنْ حيْث إِغَاثَتُهُ الْعَوَالِمَ بِمادَّته وَرُتْبتِهِ الْخَاصَّة. وله عَلاَماتٌ يُعْرَفُ بِهَا. قال القطب الشهير، العَلامة أَبُو الحَسَن الشَّاذِلِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: للقطبِ خَمْسَةَ عَشَرَ عَلامَة. فَمَنِ ادَّعَاهَا، أَو شيئاً منْهَا، فليبرزْ بمَدَدِ الرَّحْمَةِ وَالْعِصْمَةِ والخلافَةِ والنيابَة، ومدد حَمَلة العرْشِ العَظِيم، ويكشف له عن حقيقة الذَّاتِ، وإحاطةِ الصفاتِ، ويُكْرَم بِالحُكْمِ والفعْلِ بيْن الوُجُودَيْنِ، وانفصالِ الأول عن الأَوَّلِ. وما انْفَصَلَ عنه إلى منتهاهُ، وما ثبت فيهِ. وحُكْمُ مَا قَبْلُ، وَحُكْمُ ما بَعْدُ. وعِلم البَدءِ؛ وهو العِلْمُ المحيط بِكلِّ عِلْمٍ. وبكل معلوم. وما يعود إليه.

فَالْعَلاَمَةُ الأولَى: أن يكونَ متخلقاً بأخلاقِ الرَّحمةِ، على قَدَمه مَوروثِهِ ﷺ، صاحب حِلْم ورأْفَةٍ، وشفقةٍ وعَفوٍ وعقل ورزانة، وجود وشجاعَةٍ. كَمَا وأن مَوروثه ﷺ.

والعلامةُ الثانية: أَنْ يُمَدَّ بِمَدَدِ الْعِصْمَةِ؛ وهي الحفظ الإلٰهي، والعصْمَة

الرَّبَّانِية، كَمَا كَان موروثهُ ﷺ. غيْرَ أنَّها فِي الأنبياءِ واجبَةٌ وفي الأولِيَاءِ جائزة. ويُقال له: الحفظ. فلا يتجاوَز حداً، وَلاَ ينقض عَهْداً.

الثالثةُ: الخِلاَفَةُ: وهُوَ أَن يكونَ خليفة اللّٰه فِي أَرْضِهِ، أَميناً عَلَى عِبَادِهِ، بِالخلافَة النَّبَوِيَّةِ، قد بَايعتْهُ الأرْوَاحُ، وانقادَتْ إليه الأشْبَاحُ.

والرَّابِعَةُ: النيابَةُ: وهو أَنْ يكُونَ نائباً عَنِ الحقِّ، في تصريف الأحْكَامِ. حسبَمَا اقتضته الحِكمَة الإلَهية. وفي الحقيقة، مَا ثَمَّ إلاَّ القدْرة الأزلية.

والخَامِسَة: أَنْ يُمَدَّ بِمَدَدِ حَمَلَةِ الْعَرْشِ، من القوة والقرب، فهو حامل عَرْش الأكْوَانِ، كَمَا أَنَّ الملائكة حاملة عَرْش الرحْمٰن.

والسَّادِسَة: أَنْ يُكْشَفَ له عن حقيقة الذَّاتِ. فيكون عارفاً باللّٰهِ معرفَةَ العِيَانِ. وأَمَّا الجَاهِل بِاللّٰهِ، فَلاَ نَصِيبَ لَهُ فِي القُطْبَانية.

والسَّابِعَة: أَنْ يُكْشَفَ له عَنْ إحَاطَةِ الصِّفَاتِ بالكَائِنَاتِ. فَلاَ مُكَوَّن، إلاَّ وهو قائم بالصفاتِ، وأسْرَار الذَّاتِ. ومعرفة القطبِ بإحاطة الصفاتِ، أَتَمُّ مِنْ غَيْرِه لأنها في حقه ذَوْقية لا عِلمية.

والثامِنَةُ: أن يكرم بِالحكْم والفَصْل بيْن الوجودَيْن. أَي بيْنَ الوجود الأول قبل التجلّي؛ وهو المعَبَّرُ عنه بِالأزَلِ. وبِالكَنزِ القديم. وبَيْنَ الثاني؛ وهو الذي وقع فيه التجلّي. والفَصْل بينهما أن يُعْلَم، أَنَّ الأول ربوبية بلا عبودية، ومعْنى بلا حسٍّ، وقدرة بِلاَ حِكْمَة. بخلاف الثاني. فإنه متّصف بالضدّيْنِ: ربوبية وعبودية، ومعنى وحس، وقدرة وحِكمة، ليتحقق فيه اسْمُهُ الظَّاهر، واسْمُه الباطِن. فالضدَّين خاصّة بِالقبضة المتجَلّى فيهَا. وأَمَّا الْعظمة المُحِيطة بِهَا، الباقية على كَنْزيتها؛ فَهِيَ باقية على أَصْلهَا. فَافْهَمْ.

والتاسعة والعَاشِرَة: أن يَكْرمَ بالحُكْمِ، بانْفِصَال الأولِ عَنِ الأوَّلِ. والمراد بانفِصَالِ الأولِ، انفِصَالُ نور القبْضة، عَن النُّورِ الأزلي الكَنزِي، وهو بَحْرُ الجَبَرُوتِ. والمراد بما انفَصَل عنهُ: ما تفرّع من القبضة إلى مُنْتَهَاهُ، مِن فروع التجلياتِ. أَي في الحالِ، وأما في المَآلِ فَلا انتهاءَ لهُ؛ لأنَّ تجلياتِ الحقِّ لاَ تَنقطع أَبداً. فإذَا انقضَى هَذَا الوجود الدّنيوي، تجلَّى بِوُجُودِ آخَرَ أُخْرَوِي وَلاَ نِهايَةَ لهُ.

والْحَادِيَةَ عَشَرَ: أَنْ يعلم ما ثبت في المنفصلاتِ. مِنَ المَزَايا والكراماتِ. أو ضِدَّ ذلك: يَعْني فِي الجُمْلَةِ. وأَمَّا التفصيل، فَمِنْ خَصَائص الرُّبوبية.

والثانيَة عَشَرَ: أَنْ يَعلم حُكْم ما قبل. أيْ ما قبل التجلّي. وحُكمُهُ: هو التنزيل المطلقُ؛ لأنه بَاقٍ على كَنْزيتهِ. لَم تدخله الضدَّانِ.

والثالثة عَشَرَ: أن يعلم حُكْم ما بعْدَ: أَيْ يَعْلَمُ مَا لاَ قَبْلَ لَهَا وَلاَ بَعْدَ لَهَا؛ وهي الخَمْرَة الأزلية. والذَّات الأصلية. كَمَا قال ابن الفارض:

فَلاَ قَبْلَهَا قَبْلٌ وَلاَ بَعْدَهَا بَعْدٌ وَقَبْلِيَةُ الأبْعَادِ هِيَ لَهَا حَتْمُ

والرَّابعة عَشَرَ: أَنْ يَطَّلِعَ على عِلْمِ البَدْءِ، والمراد عِلْمُه تعالى الأزلي، السابق لِلأَشيَاءِ قَبْلَ أن تكون؛ وهو المحيط بكل علم وبكلّ معلوم. إذ لاَ يخرج تعالى عن علمه شيْء، وكل علمٍ وكل معلومٍ يعود إِلَيْهِ؛ وهذا هو سِرُّ القَدَرِ. فقد يكاشف القطبُ على جُزْءٍ مِنْهُ، وَلاَ يشترط إحاطته بكلية الأشياءِ وجُزئياتها؛ لأن ذلِك من وظائف الرّبوبية. وإنما يطلعهُ اللّه تعالى على جُزئياتٍ من نَوْع مَخصُوصٍ وقد أشار الشيخ أَبُو العبَّاس المِرْسي ـ رحمه الله تَعَالَى ـ إلى شيءٍ من ذلك فقال: مَا مِنْ وليّ لله كَانَ، أَوْ هو كَائِن، إلاَّ وقد أطلَعنِي اللّهُ عليه، وعلى اسْمِهِ ونَسَبِهِ، وحظه من اللّه تعالى. وقال آخرُ: ما مِنْ نطفَةٍ تَقعُ فِي الأَرْحَام، إلاَّ وقد أطلعَنِي اللّهُ عليْهَا؛ وما يكونُ مِنْهَا من ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى. وهذا من جملة الكَرامَات التي أتحف الله بِهَا أولياءَهُ.

وَقَدْ يَكُونُ قُطباً وهو لم يطلع على شيءٍ من هذه الأمورِ إلاَّ أنه عارف باللّهِ، راسخ القدَمِ فِي المَعْرِفَةِ. وَإِذا أَرَادَ اللّهُ تعالَى أَنْ يُظْهِرَ شَيئاً فِي مَمْلَكَتِهِ أطلعه عَلَيْهَا. وقد لاَ يُطلِعُهُ. وقد قال عليه الصلاة والسلامُ: «**واللّه لاَ أَعْلَمُ إلاَّ مَا عَلَّمَنِي رَبِّي**»[1] قال ذلِكَ حينَ ضلَّتْ ناقَتُهُ. فَلَمْ يَدْرِ أَيْنَ ذَهَبَتْ، فتكلمَ بعضُ المُنَافِقِينَ فِي ذَلِكَ، ثم أَعْلَمَهُ اللّهُ تعالى بِهَا.

وبالجملة. فالاطِّلاعُ على الْمُغَيّبَاتِ، من جملةِ الكراماتِ؛ وهي لاَ تشترط فِي الْوَلِيّ، قطباً كَانَ أَوْ غَيْرَهُ. واللّهُ تعالى أَعْلَمُ. وصَلَّى اللّهُ عَلى سيدنا محمد

---

(١) أورده أبو محمد الأصبهاني في كتاب العظمة، [١٤٦٨/٤]؛

وآلِهِ وصحبه وسلم تسْليماً.

هٰذَا آخِرُ ما جَمَعْناهُ من حَقَائِقِ التصوف، وشرح ما يَتَعَلَّقُ بكل حقيقة، جعلهُ الله خالصاً لوجْهِهِ الكريم. وأَدَامَ به النفع العميم. جامعه: أحمد بن محمد بن عجيبة الحسني. لطف الله به في الدارين آمين. وآخر دعوانا أَن الحمد لله رب العالمين. لله در العارف الجليل، والصوفي الشهير، القطب الكامل، سيدي ومولاي أحمد بن محمد بنعجيبة الحسني، رضي الله عنه، وقدس سرّه، وجعلنا على هذيه آمين. ناقله هنا عبد ربه، وراجي عفوه، عبد السلام بن عبد السلام بن أحمد العمراني الخالدي. وكَان الفراغ من نقله هنا، عَشية يوم الثلاثاء خامس شوال عام ١٣٩٩ هجرية، الموافق لثامن وعشرين غشت سنة ١٩٧٩م.

شرح صلاة الشيخ الأكبر
محيي الدين بن عربي الحاتمي
رضي الله عنه

لسيدي أحمد بن عجيبة
رضي الله عنه

ضبطها وصححها وعلق عليها

الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي

الحسيني الشاذلي الدرقاوي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآلِهِ وصَحْبِهِ وسلَّم تَسْليماً

شَرْحُ التَّصْلِيَةِ عَلَىٰ النَّبِي، لابْنِ الْعَرَبِي الْحَاتِمِي

يقول الْعَبْدُ الفقير، إلى مَوْلاه الْغَنِي عَمَّا سِوَاهُ: أحمد بن محمَّد بنعجيبة الحَسَنِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ونَفَعَنَا بِبَرَكَاتِهِ آمين.

الْحَمْدُ لله المتجلِّي بِكَمَالِهِ؛ الواجِد في ذَاتِهِ وصِفَاتِهِ وأفْعَالِهِ، والصَّلاة والسَّلاَمُ عَلَىٰ قُطْبِ دائِرَة الْوُجُودِ، وَبَذْرة التجلِّي لِكُلِّ مَوْجُودٍ، ورَضِيَ اللَّهُ تَعَالَىٰ عَنْ أصْحَابِهِ الْكِرَام، وآلِ بَيْتِهِ ذَوِي النَّزَاهَةِ والاحْتِرامِ، وَبَعْدُ:

فَقَدْ سَألَنِي بعض الإخوان، أن أضع تقييداً على صلاة النبي ﷺ، لابْن العربي الحاتِمِي، نُبَيِّنُ ما انْفَلَقَ مِنْ مَعَانِيهَا، وَمَا أُشْكِلَ مِنْ مَبَانِيهَا، فأَجَبْتُ سُؤالَهُمْ، بَعد أنِ اسْتَأْذَنْتُ شَيْخَنَا الْعَارِف الرَّبَّانِي البُوزيدي الحسَنِي؛ لأنَّ سِرَّ الإِذْنِ أمْر كبيرٌ. واعْلَمْ أنَّ النَّاسَ فِي مَدْحِهِ ﷺ على قِسْمَيْن: قِسْمٌ مَدَحُوا شَخْصَهُ الظَّاهِر، فَذَكَرُوا ما يتعلَّق بِجَمَالِهِ الحِسِّي، وَمَا يتبَعُ ذلِكَ مِنَ الْكَمَالاَتِ الظَّاهِرَة والباطنة، وما يلتحق بِهِ من المعجزاتِ والخوارقِ؛ وهم أهْلُ الظَّاهِرِ. وقِسْمٌ مَدَحُوا سِرَّهُ الْبَاطِنِي، ونُورَهُ الأصْلِي، فَذَكَرُوا نُورَهُ المتقدِّم، وَمَا تَفرَّعَ عَنْهُ مِنَ التجلياتِ الحِسِّيَّة، كالقطب ابن مشيش وأضْرَابه، ومنْهُمْ العارف الرَّبَّاني، والقطب الصَّمَدانِي، بحر زمانه، وفريد عصره وأوانه، محيي الدِّين بن العربي الحاتِمِي، المتوفَّى في حُدُودِ القَرْن السَّادِس حيث قال:

«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَىٰ الذَّاتِ الْمُطَلْسَم».

أيْ عَلَى الْكَنْزِ المَكْنُونِ. فالْمُطَلْسَمُ: هو السَّاتر للشيءِ، والصَّوَّان لهُ.

وذٰلِكَ أنَّ الحقَّ جلَّ جَلالُهُ؛ كَانَ كَنزاً لَمْ يُعْرَف، أي سِرًّا خَفِيًّا غَيْبِيًّا، فَلَمَّا أرَادَ أن يُعْرَفَ، ظَهَرَ قَبْضَةً مِنْ نُورِ ذَاتِهِ، سَمَّاهَا مُحمداً ﷺ، فَلَمَّا تجلَّتِ الْقَبْضَة مِنْ بَحْرِ الْجَبَرُوتِ، كَسَاهَا رِدَاءَ الْكِبْرِيَاءِ؛ وهُوَ حِجَابُ الْحُسْنِ، إذْ لاَ بُدَّ لِلْحَسْنَاءِ مِنْ نِقَابٍ، وَلِلشَّمْسِ مِنْ سَحَابٍ، لِيَبْقَىٰ الكَنْزُ مَدْفُوناً، والسِّرُّ مَصُوناً، فَحِجَابُ الْحُسْنِ الَّذِي احْتَجَبتْ بِهِ أَسْرَارُ الذَّاتِ هو الطِّلَسْمُ. وَالْمَعَانِي الَّتِي هِيَ بَاطِن القَبْضَة وكليتها هو الكَنْز، وهو عَيْن الذَّاتِ فِي مَقَامِ الْجَمْعِ، فالقَبْضَةُ المُحَمَّدِية لمَّا كَانَتْ مِنْ عَيْنِ الذَّاتِ، أُطلق عليها الذَّاتُ، ولذلكَ قال: على الذَّاتِ المُطَلْسَمِ. وَمِنْ هٰذِهِ القَبْضَةِ تَفَرَّعَتِ الكَائِنات كُلُّهَا. مِنْ عَرْشِهَا إلى فَرْشِهَا، بِذَوَاتِهَا وَأَرْوَاحِهَا. فنوره ﷺ، هو بَذْرَة الْوُجُودِ، والسَّبَبُ فِي كُلِّ مَوْجُودٍ، فَمِنْ سِرِّهِ ﷺ، انشقَّتْ أسْرار الذَّات، وانفلَقَتْ أنْوَارُ الصِفاتِ، فكُلُّ تَجَلٍّ مِنْ تَجليات الحقِّ، إنما يَبْرزُ من نورِهِ ﷺ، فحياض الجبروت بِفَيْضِ أنواره متدفقة، مُنذُ ظَهَرتِ القبْضَةُ، إلى مَا لاَ نِهَايَةَ لَهُ، حتَّى إنَّ أنفاسَ الجِنان ونعيمَهَا، بارزَة من هٰذَا النُّور المحمَّدِي؛ لأنها حسِّية، والحسُّ من حيث هو، كلهُ مضاف لنبينا ﷺ ومَنْسُوبٌ إلَيْهِ، وإن كَانَ من عيْن الذَّاتِ؛ لأنَّ الإضافة لاَ تُخرجه عَنْ أصْلِهِ، ففي التحقيق: ما ثَمَّ إلاَّ الله، وَلاَ شَيْءَ سِوَاهُ.

تنبيهٌ: إعْلَمْ أنَّ الفُرُوعَ النَّاشِئَة مِنَ القبضَةِ، والمتفرّعة عنها، كُلُّها كُنُوزٌ مطَلْسَمَةٌ أيْضاً؛ لأنَّ حكْمَ البَعْضِ، حُكْمُ الْكُلِّ، فالأوانِي طَلاَسِمُ للمَعَانِي، فكُلُّ شَخْصٍ عِنْدَهُ كَنْز بين جَنْبَيْهِ، حَجَبَتْهُ عَنِ الغَفْلةِ والوقوف مَعَ الحسِّ، والنَّظَرِ إلى وُجُودِهِ، والانْهِمَاكِ فِي حُظُوظِ نَفْسِهِ، وفي ذلك يقول التستري رضي الله عَنْهُ:

يَا قَاصِداً عَيْنَ الخَبَرْ ... غَطَّاهُ أيْنُك
الْخَمْرُ مِنْكَ والْخَبَرْ ... والسِّرُّ عِنْدَكْ
إرْجِعْ لِذَاتِكَ وَاعْتَبِرْ ... مَا ثَمَّ غَيْرُكْ

فَمَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ، وَرَيَّضَهَا وأدَّبَهَا، حَتَّى إذَا مَاتَتْ، وحَيِيَتْ رُوحُهُ، ظَهَرَ لَهُ كَنْزُهُ، وبَدَا لَهُ سِرُّهُ. وَلِذَلِكَ قَالَ بَعْدَ ذٰلِكَ:

وَاتَّهِمْ إنْ كُنْتَ تَفْهَمْ ... لأنَّ كَنْزَكَ قَدْ عَدِمَ عَن كل طَلْسَم

وقال ابن العريف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

بَـدَا لَـكَ سِـرٌّ طَـالَ عَـنْـكَ اكْـتِـتَـامُـهُ ... وَلاَحَ صَـبَـاحٌ كُـنْـتَ أنْـتَ ظَـلاَمُـهُ

فأنْتَ حِجَابُ الْقَلْبِ عَنْ سِرِّ غَيْبِهِ ... وَلَـوْلاَكَ لَـمْ يُـطْـبَـعْ عَـلَـيْـهِ خِـتَـامُـهُ

فَـإنْ غِـبْـتَ عَـنْـهُ حَـلَّ فِـيـكَ وطُـفْـتَ ... على مَوْكب الكشفِ المصونِ خيامُهُ

وَجَـاءَ حَـدِيـثٌ لاَ يُـمَـلُّ سَـمَـاعُـهُ ... شَـهِـيٌّ إلَـيْـنَـا نَـشْـرُهُ ونِـظَـامُـهُ

إِذَا سَمِعَتْهُ النَّفْسُ طَابَ نَعِيمُهَا ... وَزَالَ عَـنِ الـقـلـب الـمُـعَـنَّـى غَـرَامُـهُ

وَلاَ بُدَّ مِنْ صُحْبَةِ شَيْخٍ عَارِفٍ كَامِلٍ، يُعرّفك كيْفية الحَفْرِ على هٰذَا الكَنْزِ. أيْنَ مَوْضِعه لتحفُرَ عليه. وإلاَّ بقيتَ جَاهِلاً بِهِ، فقيراً على الدَّوَام، مع كَوْن الكَنْزِ بَيْن جَنْبَيْكَ؛ وهو رُوحكَ وسِرّكَ، فإذَا اسْتَوْلَتْ روحانيتكَ على بشريتكَ، ومعناكَ على حسِّكَ، ظَهَرَ كنزُكَ، وصِرْتَ غَنِيًّا كَبِيراً، تُتِيهُ على الكَوْنِ بِأسْرِهِ، وتَتَعَرَّفُ فِيهِ بِهِمَّتِكَ، وبالله التَّوْفِيق، ثمَّ قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَالْغَيْبِ المُضَمْضَمِ» أي المحجَّبُ المَسْتُور. يُقال: ضَمْضَمَ كَذَا، إذَا سَتَرَهُ واختوى عليه، فَهُوَ مُضَمْضَمٌ؛ أي مَسْتُورٌ، وانظر القاموس، فهو بِضَادَيْن مُعجمَيْنِ، لاَ بِطَاءَيْنِ، وَلاَ شَكَّ أنهُ ﷺ، غَيْبٌ مِن غُيُوبِ الله، وسِرٌّ مِنْ أسْرَارِهِ، لاَ يَطلعُ عَلَيْهِ، وَلاَ يُحِيطُ بِهِ إلاَّ رَبُّهُ؛ الَّذي خَلَقَهُ وأظْهَرَهُ، وَعَنْهُ ﷺ: **«والله مَا عَرَفَنِي حَقِيقَةً غَيرُ رَبِّي»**[1].

وَفِي تصلية القطب ابن مشيش، أيْ عنهُ «تَضَاءَلَتِ الْفُهُومُ، فَلَمْ يُدْرِكْهُ مِنَّا سَابِقٍ وَلاَ لاَحِقٌ». وقال أوْس القَرْنِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «والله مَا رأى أصْحَابُ محمَّدٍ، مِن محمدٍ إلاَّ قشرة الظَّاهِرِ. وأمَّا الباطِنُ فَلَمْ يعرفْهُ أحَدٌ». فقيل: وَلاَ ابْن أبي قحافة فقال: ولا ابن أبي قحافة. والمرادُ: نَفْيُ الإحَاطةِ بسرِّهِ عليه السَّلام، ومِنْهُمْ مَنْ يُدْرِكُ روحهُ. وأمَّا إدْرَاكُ البعْضِ، فَلَهُمْ فِي ذٰلِكَ نَصِيبٌ، عَلَى قَدْرِ التَّوجُهِ والمعرفة، كذلكَ الأولياء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم، يتفاوتون في إدراكِ باطِنِهِ عليه السلام، على قَدْرِ معرفتهم بالله، فمنهم مَنْ يُدْرك شيئاً مِن سِرِّه ﷺ، ومنهُمْ مَنْ يُدْرِكُ رُوحَهُ، ومنهم مَن يُدْرِكُ قَلْبَهُ، ومنهُم مَنْ يُدْركُ عَقْلَهُ، ومنهم مَن يُدْرِكُ نفسَهُ. فأهْلُ الرُسُوخ والتمكين، يدركون سِرِّهِ ﷺ؛ الَّذي هو سارٍ في

---

(١) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

كل شيْءٍ؛ فلذلك لا يغيبُون عنهُ طرفَةَ عَيْنٍ، وأهل التلوين قَبْلَ التمكينِ، يدركونَ روحَهُ، فَيُشاهِدونَهُ فِي غَالِبِ الأوقاتِ، وأهْل السَّيْرِ من المريدين، يُدْركونَ قَلْبَهُ، فيحصل لهم كَمَال الإيقانِ، وتقل رُؤْيتهم لهُ عليه السلام، وأهْل الحِجاب من عامَّةِ الصَّالحين، يُدْركونَ عقلهُ أوْ نفْسَهُ، فَيَرَوْنَ فِي المَنَامِ، وفي اليقظة، شخصه الحسّي، عَلَى قَدْرِ فَنَائهم فيهِ، وأهْلُ هٰذَا المَقام، هم أهل حضرة الأشباحِ، كما أنَّ السَّابقينَ قبله، هم أهل حضرة الأرواح والأسرار، والله تعالىٰ أعلم.

ثم قال رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ: «وَالْكَمَالِ الْمُكْتَتَم». وَلاَ شَكَّ أنه ﷺ، جمعَ الكَمَالاَتِ كُلَّهَا. فَكَانَت صورته الشريفة في غَايَة الجمالِ، وروحَهُ المُطَهَّرة، في غاية الكَمَالِ. وسرُّهُ البَاهِر، في غاية التَّمامِ. وقدِ اجْتَمَعَ فيهِ مِنَ الكَمَالاَتِ والمحاسِنِ، ما لم يجتمعْ فِي مخلوقٍ قطُّ، وكل كَمالٍ ظَهَرَ في غَيْرِهِ، فإنَّما هو مُعارٌ مِنهُ. وَرَشْحَةٌ مِنْ رشَحَاتِهِ، وكل نُورٍ أو سِرٌ نَالَهُ غَيْرُهُ، فإنَّما هو مُقْتَبَسٌ من نُورِهِ، كما قال البوصيري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

فَكُلُّهُمْ مِن رسُولِ الله مُلْتَمِسٌ غَرْفاً مِنَ الْبَحْرِ أوْ رَشْفاً مِنَ الدِّيَمِ
وَوَاقِفُونَ لَدَيْهِ عِنْدَ حَدِّهِمُ مِنْ نُقْطَةِ الْعِلمِ أوْ مِنْ شكلَةِ الحِكَمِ
فإنَّهُ شَمْسُ فَضْلٍ هُمْ كَوَاكِبُهَا يُظْهِرْنَ أنوَارَهَا للنَّاسِ فِي الظُّلَمِ

إلاَّ أنَّ الحق جلَّ جلالهُ كَتَمَ ذلِكَ الكَمَال، وحجَبَهُ، ولَوْ أظْهَرَهُ، لَعُبِدَ مِنْ دُون الله، كَمَا عُبِد عِيسَىٰ، فكَان كَمَالُهُ وجماله مُكْتَتَماً، لاَ يَطَّلعُ عليه، إلاَّ مَنْ صَقُلَتْ مِرْآةُ قَلْبِهِ. فنظَرَ إلى بَاطِنِهِ دُونَ ظَاهِرِهِ، كَالصِّدِّيق، وَمَنْ كَانَ على قَدَمِهِ، والله تَعَالَىٰ أعْلَمُ.

ثمّ قَالَ: «لاَهُوتُ الْجَمَالِ، وَنَاسُوتُ الْوِصَالِ» قلتُ: اللاَّهوتُ عبارة عن أسْرار المعانِي الباطنية القائمة بالأشياءِ؛ وهي أسْرار الذَّاتِ. والنَّاسُوتُ عبارة عن حسِّ الأوانِي الظَّاهِرَة. والحاصل: اللاَّهوت: ما بَطن. والنَّاسوت: ما ظَهر.

ومعْنَىٰ كَلامِهِ: أنَّ كل جَمَالٍ في عالَم الملكوتِ، فالمصطفى عليه السَّلامُ، أصْلُهُ ومَعْدنهُ وسِرُّهُ ولُبُّهُ؛ فَهُوَ مَعْدِنُ الجمالِ، وأصْلُ الكَمَالِ. فما تَبهَّجَ رياض الملكوتِ، إلاَّ بِزَهْرِ جَمَالِهِ، وما ظَهرتْ بَهْجَة المُلْكِ إلاَّ بحسْنِ

كَمالِهِ؛ وهو معنى قولِهِ: لاَهوتُ الجمالِ، أي أصْله ومعدنُهُ، وباطنهُ ولُبُّهُ. فَمِنْ مَعْدِنِ سِرِّهِ ﷺ، تَفَرَّعَتْ أنواع الجمال، وكأنه يشير إلى جمال المعاني؛ الذي يسْبي الأرواحَ، ويغيب العقول، كما قال الشاعر:

تَـرَانِـي غـائِـبـاً عَـنْ كـل أيْـنِ كَـأْسَ الـمـعـانِـي حُـلُـوُّ الـمَـذَاقِ

وَبِالْجُمْلَةِ: فجمال المعاني؛ هو من جمال سِرِّهِ ﷺ. فيه عُرِفَ، وفيه ظهَرَ، وَما ذاق أحد شيئاً من حَلاَوة المعانِي، ولذَّة الشهودِ، إلاَّ باتباعِهِ، والتخلق بأخلاقه ﷺ، فهو لاَهُوت جمال المعانِي ومَعْدنها، فالمعاني الباطنية تُسَمَّى ملكوتاً، والحسّ الظَّاهر، يُسَمَّى مُلْكاً، والبَحْرُ المحيط: مِنَ الأسْرَارِ اللطيفة الباقية على أصْلها؛ الذي تَتَدفَّقُ أنْوَارُ الكَائِنات مِنْهُ، يُسَمَّى جَبَرُوتاً، فجمال المَعَانِي، إنَّما عُرِف وظَهَر بِهِ ﷺ. وجمال الحِسّ إنما تَبَهَّجَ بنورهِ ﷺ؛ وإلى هذا أشار القطب ابن مشيش رضي الله عنه بقولِهِ: «فَرِياضُ الملكوتِ بِزَهْر جَمَالِهِ مُونقة، وحِيَاضُ الجَبَروت بِفَيْضِ أنوارِهِ مُتَدَفِقة».

وقوله: نَاسُوتُ الوِصَالِ: يُشير إلى ظاهره ﷺ. كَانَ في مَحَلِّ الوصال والاتِّصَالِ، ولم يَكُن في محل الفرْق والانفِصَالِ. فكما أنَّ باطنَهُ كان مَعْدِنَ الأسْرَار، كذلك ظاهره محلّ الأنوار، فكَان مسْتغرقاً في بَحْرِ الأحدية، بِظَاهِرِهِ وَبَاطِنِهِ، والله تَعالَىٰ أعْلَمُ.

ثم قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**طَلْعَةُ الْحَقّ**»: أي أوّل تجلِّيهِ؛ وظهورِهِ فِي عَالَمِ الْغَيْبِ، فأوّلُ مَا طَلَعَ مِن أسْرار الذَّاتِ الكَنْزِيةِ. القَبْضةُ المُحَمَّدِيَّةُ، فمنها انشقت أسْرار الذَّاتِ، وظَهرتْ أنْوارُ الصفاتِ. فَلَوْلاَهُ عَلَيْه السَّلامُ، مَا ظَهَرَ الْوُجُود، وَلاَ عرف المَلِك المَعْبُود؛ فهو الواسطة بيْن الله ومخلوقاتِهِ، فَلَوْلاَ الواسطة لذهَبَ الْمَوْسُوط.

ثم إنَّ القبضَة المُحَمَّدية هِيَ عَيْن الذَّاتِ، بَرَزَتْ مِنْ عَيْن الذَّاتِ، لَكِنْ تَسَمَّى مَا تَكَشَّف مِنْهَا وتحسَّسَ محمَّداً ﷺ، وأمَّا ما بَطَنَ، فَبَاقٍ عَلَىٰ أصْلِهِ؛ مِنَ اللاَّهُوتية، فالقدرُ الَّذي سَمَّاهُ مِنْهَا محمَّداً ﷺ. إنَّما هو حِسُّهَا، وَجَوْهَرها الظَّاهر. وأمَّا ما بطن من المعانِي؛ فَهُو لاَهُوتِي؛ ولَيْسَ هو بِحُلُولٍ؛ لنَفْي الْغَيْرِيةِ ومَحْوِهَا عَن نَظَرِ العارفينَ.

ولمَّا كَانَتْ تلك القبضةُ بِهَا ظهرَ الكَنزُ المَدْفُونُ، وَبِهَا انكشَفَ السِّرُّ المَصُونُ، شَبَّهَهَا بِثَوْبِ النِّقَابِ؛ الَّذي يُغَطَّى بِهِ الوَجْهُ الحسَنُ، فقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **«كَثَوْبِ عَيْنِ إِنْسَانِ الأَزَلِ، فِي نَشْرِ مَنْ لَمْ يَزَلْ»**:

فشبَّهَ الأَزَلَ، بإنسَانٍ لَهُ عيْن حسنى، كَانَتْ محجوبةً مصونةً، مستُورة بثوْبٍ، فلمَّا أرَاد أن يُظهِرَهَا، كَشَف ثَوْبَ نِقَابِهَا، وظهَرَتْ محاسِنُهَا، وبَاهرُ جمالِها، كذلكَ الخمرةُ الأزلية، كَانَتْ لطيفة خفية، فلمَّا أرادتْ أن تظهر، كشَفَتْ عن وجْهِ سِرِّهَا، فأظهرتْ مِن جَمَالِهَا نُور القبضة المحمدية، ثم انتشَرَ من الْقَبْضَةِ سائرُ الفُرُوع الكَوْنِية، وهٰذَا معْنَى قَوْلِهِ: نَشْرُ مَنْ لَمْ يَزَلْ؛ أيْ هُوَ عليه السَّلامُ، كَثَوْبِ عَيْنِ إنسَانِ الأَزَلِ، ويَرْجع الكَلاَمُ إلى قولِهِ: هو كَثَوْبِ عَيْن الأزلِ، المنشور عليه، فكَشفه في إرادة نَشْرِ مَنْ لَمْ يَزَلْ؛ أي عِنْدَ إرادة إظهاره من لم يَزَلْ من الفروع الكَوْنية الْحَدِيثة، وهٰذَا مُجَرَّد اصْطِلاَحٍ: يقولونَ فِي السِّرّ الأزلي في حَال الكَنْزِية أزل. وفيما تفَرَّعَ مِنْهُ لَمْ يَزَلْ. والكل واحِدٌ. الفَرْعُ عيْن الأصل. والأصل عَيْن الفَرْع. ما تجلّى بِهِ فِيما لَمْ يَزَلْ، كَان الله وَلاَ شيء مَعَهُ، وهو الآن على ما عليه كَانَ، ولله دَرُّ القَائِلِ:

فَلَمْ يَبْقَ إلاَّ الله لَمْ يَبْقَ كَائِنُ ... فَمَا ثَمَّ مَوْصُولٌ وَلاَ ثَمَّ بَائِنُ
بِذَا جَاءَ بُرْهَانُ الْعِيَانِ فَمَا أرَى ... بِعَيْنِي إلاَّ عَيْنَهُ إذْ أُعَايِنُ

ثُمَّ قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **«مَنْ أَقَامَتْ بِهِ نَوَاسِيتُ الْفَرْقِ، فِي قَابِ نَاسُوتِ الْوِصَالِ»**: مَن بَدَا من الذَّاتِ، ونَوَاسيتُ جمع نَاسُوتٍ: وهو ما ظَهَرَ مِن الحسِّ. كَما أنَّ اللاَّهوت ما بَطَنَ مِنَ الْمَعْنَىٰ، وقابُ القوْس: ما بيْن مَحَلِّ وتره وطَرفِهِ. والمَعْنَى: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَىٰ الذَّاتِ الْمُطَلْسَم، الَّذِي أَقَامَتْ، أي دَامَتْ بِهِ، أي بِبَركَة اتِّبَاعِهِ، أشْبَاحُ أهْل الفَرْقِ، فِي مَقَامِ الْقُرْبِ، فَكَانُوا مِنْ حَضْرَةِ الْوِصَالِ، مقدارَ قَابِ قوْسَيْن أوْ أدْنَىٰ، فأقَامُوا فِي الْقُرْبِ مِنَ الله بِهِ ﷺ، وَلَوْ أعْرضُوا عَنْهُ لَطُرِدُوا وأُبْعِدُوا، وإنَّما عَبَّرَ بِالنَّوَاسِيتِ، دونَ القلوب والأرْواح؛ لأنَّ القُلُوبَ والأرواحَ مَحَلُّهُمَا الجَمْعُ بناسوتِ الوِصَالِ كِنَايةٌ عَنْ حَضْرَةِ الوِصَالِ. وَلاَ شَكَّ أنَّ مَنْ تَبِعَهُ ﷺ، وتَمَسَّكَ بِسُنَّتِهِ، وتخلَّقَ بِأخْلاقِهِ، نَالَ القُرْبَ بَعْدَ البُعْد، والوِصَال بَعْد الفِرَاق، فإنه ﷺ، باب الله وحجابه الأعْظَم؛

فَمَنْ رَامَ الدخُولَ على الله مِن غَيْر بَابِهِ، طُرِدَ وَأُبْعِدَ، كَمَا قَال القائِلُ:

وأَنْتَ بَابُ الله أي امْرِىءٍ وَافَاهُ مِنْ غَيْرِكَ لاَ يَدْخُلُ

كَمَا أنَّ مَنْ أرَاد الوصولَ إلى المُلُوكِ، لا بُدَّ أن يتحبَّبَ إلى وُزَرَائِهِمْ، ويَهْدِي لَهُمْ، ويخدُمُهُمْ، فَحينئذٍ يُوصلونَهُ إلى المَلِكِ. فَكَذَلِك مَن أراد الدُّخول إلى الله. لاَ بُدَّ أنْ يخدُمَ رسول الله ﷺ بِكَثْرَةِ الصَّلاَةِ عَلَيْهِ، ويُعَظِّمَهُ، ويُعظِّم ما انتَسَب إلَيْهِ، ويُعَظِّمَ خلفاءَهُ؛ وهم الأولياء، ويُقبِّل التراب مِن تَحتِ أقْدَامِهِمْ، فحينئذ يُوَصلُونه إلى الحضرَةِ، وإلاَّ بقي بعيداً مِنْ حَيْث يَظنّ الْقُرْب، وبَالله التوفيق.

ثم قال: «**الأَقْرَبِ إِلَىٰ طَرِيقِ الْحَقِّ**»: أي الأقرب من غَيْرِهِ، من سَائر الرُّسُلِ إلى طُرُقِ الحقِّ، فَكَانتِ الرسل كُلُّها تدعو إلى الله، وتبيِّنُ الطُّرُق إلى الوصولِ إلَيْهِ، ونبيُّنا محمَّدٌ ﷺ؛ هو أقربُ مِنهُمْ إلَى طُرُقِ الْحَقِّ. فَبَيَّنَ من اسم الطريق، ومعالم التحقيق، في أقرَبِ وَقْتٍ، فَهَدىٰ الله على يَدَيْهِ من الخلق فِي زَمَانٍ يَسيرٍ، ما لم يَهْدِ على يَدِ غَيْرِهِ، في الأزْمِنَة المتطاولة، وكذلكَ مَن كَان على قَدَمِهِ من الأوْلِيَاءِ الجامعينَ بَيْن الشريعة والحقيقة يَهْدي الله على أيْدِيهم الجَمَّ الْغَفِيرَ، فِي زَمَانٍ يسير؛ لأنَّهم على بصيرَةٍ. قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف: ٨٠] أيْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي يَدْعُو إلَى الله على بَصيرة؛ وهي بصيرة العِيَانِ، والذَّوْق والوُجْدَانِ، لاَ بَصِيرة التَّقليد؛ التي هِيَ ناشئة عَنِ الدَّليل والبُرْهَانِ.

ثمَّ قَالَ: «**فَصَلِّ اللَّهُمَّ بِهِ فِيهِ مِنْهُ عَلَيْهِ وَسَلِّم**»: قلتُ: إذَا فنَىٰ الْعَبْدُ عَنْ نَفْسِهِ وحِسِّهِ، لَمْ يَرَ إلاَّ أَنْوَارَ النُّبُوءَة ظَاهِرةً، وأسْرَار الرُّبُوبية بَاطِنَةً، فإذَا صَلَّىٰ على رسول الله ﷺ، رَأى نُورَهُ ﷺ، لاَ هُوَ، وإذا سَبَّحَ أوْ هَلَّلَ، رأى أنَّ الحقَّ جَلَّ جَلاَلَهُ، سَبَّحَ نَفْسَهُ بِنَفْسِهِ، وَوَحَّدَ نَفْسَهُ بِنَفْسِهِ، وإلى هٰذَا، أشار الهروي، حينَ سُئِلَ عَن التوحيد الخاصِّ بِقَوْلِهِ:

مَا وَحَّدَ الْوَاحِدُ مِنْ وَاحِدٍ فَكُلُّ مَنْ وَحَّدَهُ جَاحِدُ

وَتَوْحِيدُ مَنْ يَنْطِقُ عَنْ نَفْسِهِ تَثْنِيَةٌ أبْطَلَهَا الْوَاحِدُ

تَوْحِيدُهُ إيَّاهُ تَوْحِيدُهُ وتَوْحِيدُ غَيْرِهِ لاَحِدُ

وإلى هٰذَا المَعْنَى، أشَار الششتري بِقولِهِ:

إنَّـا بـالـلَّـهِ نَـنْـطِـقُ وَمِـنَ الـلَّـهِ نَـسْـمَـعُ

وهذه نتيجة محبَّة الحقّ للعَبْدِ، لقولِهِ: «فَإذَا أحْبَبْتُهُ كُنْتُهُ»(١). وَمَعْنَىٰ كَلاَم الشَّيْخ: فَصَلِّ اللَّهُمَّ بِهِ، لاَ بِنَفْسِي، وَفِي الْحَدِيثِ عَنْهُ ﷺ، قِيل لَهُ: أرَأيْتَ صلاة المصلينَ عليكَ فمَنْ يأتي بعدكَ، ما حَالَتُهُمْ عِنْدَكَ؟ فقَالَ: «أمَّا أهْلُ المَحَبَّةِ فأسْمَعُ صَلاتَهُمْ، وأعْرِفُهُمْ، وتُعْرَضُ عَلَيَّ صَلاةُ غَيْرِهِمْ عَرْضاً». وأهْلُ المحبَّة؛ هم أهْل الفَنَاءِ، الَّذِينَ يُصَلُّونَ عَلَى سِرِّهِ، ويُشَاهِدُونَهُ فِي كُلِّ سَاعَةٍ، كما قال الْمُرْسِي وغَيْرهُ؛ وهم أهْلُ الجمع. وأمَّا أهْلُ الفَرْقِ، فَتُعْرَفُ صَلاَتُهُمْ عَلَيْهِ عَرْفاً. وقولُهُ: مِنْهُ عَلَيْهِ؛ أيْ وتكون تلك الصَّلاة صادرةً مِنْهُ، وَارِدَةً عَلَيْهِ، بِلاَ وَاسِطَةِ أحَدٍ، فَالْعَارِفُ لَمْ تَبْقَ لَهُ وَاسِطةٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الله، وَلاَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رسول الله ﷺ، بل يأخُذُ الأشْيَاءَ مِنْ مَعَادِنِهَا، فالحقيقة يأخُذُهَا مِن مَعَادنِهَا؛ وهو شُهُود الذَّات الأقدَس، بِلاَ واسِطَة حِسّ الأكْوَانِ، بَلْ تُمْتَحَىٰ الأكْوَانُ، وَتُمْحَقُ مِنْ نَظَرِهِ، فَلاَ يَرَىٰ إلاَّ المُكَوِّنَ، ويأخُذُ الشريعة مِن مَعَادِنِهَا؛ وهي الكِتَابُ والسُّنَّةُ؛ إنْ كَانَ أهْلاً، وإلاَّ اسْتَفْتَىٰ قَلْبَهُ، ولذَلِكَ قيلَ: الصُّوفِي لاَ مَذْهَبَ لَهُ: أيْ لاَ يُقَلِّد أحَداً مِنْ أهْل الْمَذَاهِب.

والسَّلامُ: هُوَ التَّأْمينُ، أيْ أمَّنَهُ الله مِنْ كُلِّ مَا يَخَافُهُ عَلَىٰ أُمَّتِهِ، والله تَعَالَىٰ أعْلَمُ، وصلَّىٰ الله على سيِّدنا محمَّد الحبيب المحبوب، والشفيع المُقَرَّب، وعلى آلِهِ وصَحْبِهِ وسَلَّمَ تَسْلِيماً، وآخِرُ دَعْوَانَا أنِ الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ اهـ.

---

(١) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

سلك الدرر
في ذكر القضاء والقدر

لسيدي أحمد بن عجيبة

رضي الله عنه

ضبطها وصححها وعلق عليها

الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي

الحسيني الشاذلي الدرقاوي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وصلَّىٰ الله على سيِّدنا محمَّد وآلِهِ وصحبِهِ وسلَّم تسليماً

قَالَ الشَّيْخ الإمام، العالم العارف بربِّه، الكامل الصوفي، الولي الصالح الواصل: أبُو العبَّاس، سيِّدي أحْمد بن محمد بن عجيبة الحسَنِي، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ونَفَعَنَا بِبَرَكَاتِهِ آمين:

الْحَمْدُ لِلَّهِ، الْمَلِك الْقَدِير، الْمُنْفَرِد بالإيجاد والتَّدْبِير؛ الذي أبْدعَ الأشيَاء وأتقنها على ما سبق في علم التقدير، والصلاةُ والسَّلام على سيِّدنا ومَوْلاَنَا محمَّد البشير النَّذير، والسِّراج المنير، ورضي الله تَعَالَىٰ عن أصحابه الكِرَامِ، الذين قَرَّرُوا شَرِيعته المطهرة أيَّ تقرير.

وبَعْد: فَبَحْرُ القَدَرِ والقضاء، بحرٌ عميق، لا يخوضه إلاَّ أهل التحقيق، ولا يقوده إلاَّ ذو الهداية والتوفيق. هذه نُبْذة يسيرة، تعين على الخوْضِ فيه، تسكن القلوب للرضى بمجاريهِ. حَمَلَني عليه، أنِّي رأيْت كثيراً ممَّن يُشار إليه بالعلم والعَمَل. قد ضلَّ عنهُ وأضَلَّ، وجعل يدافع المقادير بما يقدر عليه من الأسباب والحِيَلِ، وقَدْ قيلَ: زَلَّة عالِم يضلُّ بها عالَمٌ. فقد رأيت كثيراً من العلماءِ زَمَن الوَبَاءِ، يأمرون بغلقِ أبواب المدينة ويفرون من الدُّخول على المَرْضَىٰ خوفاً من المَوْتِ، وهذا الذي حملني على تقييد هذا التأليف، فلا عِبْرَة بعلم الأوراق، إذا لم يؤيِّده الْوُجْدَان والأذواق. فالعلم النافع الذي ينكشف به عن القلب قناعهُ، ويَنْبسط في الصدور أنوار اليقينِ وشعاعهُ، ويدور عن القلب الشكّ والاضطراب، وتحصل له الطمأنينة بشهودِ الأرْباب، فَمَن لا يقين عنْدَهُ ولاَ تحقيق، فَلاَ علم لَهُ وَلاَ هِداية ولاَ توفيق، فشاهِد الْعِلم العمل. وشاهد العمل الصحيح هو الحال. وشاهد الحال هو الذُّوق، وغاية الذَّوْقِ الشُّكْرُ؛ وهو

الغَيْبَة عمَّا سوى الحقِّ، وغاية الشُّكر الصحو؛ وهو شهود الآثار بالحق، وميزان هذا هو اليقين، والسُّكون عند ربِّ العالمينَ؛ وهو السكون عند مجاري الأقْدار، وترْكَ الخوض بالتدبير، والاختيار، والرِّضى بِمَا يبرز من عُنْصُر الأقدارِ، والتسليم لأحكام الواحِدِ القهَّار. وينحصر المقصود من هذا التأليف في خمسة أبْوابٍ:

الباب الأول: في حقيقة القدرِ، وما يتعلق بهِ. **الباب الثاني**: في الاسْتدلالِ عليه من الكتاب والسنَّة، وكلام السَّلَف الصالح، ومن طريق الكشْفِ. **الباب الثالث**: في بَيانِ الحِكمة التي هي كالرِدَاءِ للقدرِ والقضاءِ، وبَيَان القدْرَةِ التي بها يقع الإظهار والإضمار. **الباب الرَّابع**: في إبطال العَدْوَىٰ والطِّيَرَة. **البابُ الخامِسُ**: فِي اكتسابِ اليقين، وذكر مواده ومواطنِهِ.

وَسَمَّيْتُهُ سِلْك الدُّرَرِ فِي ذِكْرِ الْقَضَاءِ والْقَدَرِ: نسْأل الله تعالىٰ ربَّنَا، أن ينفَعَ بِهِ مَنْ كتبَهُ، أوْ كَسَبَهُ، أو سمعه، أو طالعهُ، بِمَنِّهِ وكَرَمِهِ، وأن يلقح في قلبِنا وقلبِهِ أنوار اليقين، ويشرق في سَمَاءِ أسْرَارنا شموسُ العارفين، بجاهِ خَاتم النبيين، وإمام المُرْسَلينَ، وقُدْوة المُربّين، سيِّدنا ومَوْلانَا محمَّد الصادق الأمين، صلَّى الله عليه وعلى آلهِ، وأهْل بيْته الأطهرين.

البَابُ الأوَّلُ:
فِي تَفْسِير الْقَدَرِ وَالْقَضَاءِ؛ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِذٰلِكَ

الْقَدَرُ بتحريك الدَّالِ المهملةِ وسكُونها، مصدر، قدَّرت الشيْء إذا أحَطت بمقدارِهِ؛ وهو عبارة عن تعلقِ عيْن علم الله بالكَائِنَاتِ قبل وجودِهَا؛ فلا يظهر في عالم الشَّهادة شيء من الخلائقِ، إلاَّ وقَد سَبَق في عِلْمِهِ وقدَرِهِ السَّابق، وَلاَ يصدر من خلقِهِ قول ولا فِعل، وَلاَ حَركة ولاَ سكونٌ، إلاَّ وقد سبَق في علمِهِ وقدرِهِ كيْف يكون، فأيام العَبْد محصورة، وأنفاسه معدودة، وخطواته مكتوبة، وفي ذلك يقول الشاعر:

مَشَيْنَاهَا خَطى كتِبَتْ عَلَيْنَا ... وَمَن كتبت عليه خطى مَشَاهَا
وَمَنْ قسمَتْ منيتُهُ بِأرْضٍ ... فَلَيْسَ يموت بأرضٍ سِوَاهَا

وما مثَل العَبْد مع القَدَر السابق، إلاَّ كالصَّبِيِّ الذي يتبع التحنيش، الَّذي

حَنَّشَه له الفقيهُ، فَإذا كَمُل التَّحْنيش الذي حَنَّشه له الْعِلم الأزلي، على ما سبق به القدر والقضاء، رحل إلى مَوْلاهُ. فالواجب على الْعَبْد أن يسْكن تحت مجاري الأقدار، وينظر إلى ما يفعل الواحد القهار، فالقدر والقضاء والإرادة والمشيئة، شيء واحد عند أهْل السُّنَّة، ومَرْجعها إلى سبْق العلم الأزَلي بالأشياءِ قبلِ ظهورها. ويستمِرّ العلم بها بعد ظهورها. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [الحجر: ٢٤]. فتقول على هذا، قَدَّرَ الله كَذا، وقضاه وأراده، وشاءهُ بمعنى واحد. وأمَّا الرِّضَىٰ والمحبَّة في حقه تعالى، فَهُمَا أخَصُّ مِن الإرادة والمشيئة؛ لاختصاصِ الرِّضَى والمحبَّة بالطاعة دون المعصية، فالطَّاعة قدَّرها وأرادها ورضيَهَا. والمعصية قدَّرها وأرَادَهَا ولَمْ يَرْضَهَا، ولم يحبها شرْعاً، هذا مقتضى الأدَب، والله تعالى أعْلَمُ.

البَابُ الثَّاني

في الاسْتِدْلاَلِ عَلَيْهِ مِن الكتابِ والسُّنَّة، وكَلاَم السَّلَف الصَّالح

أمَّا الاسْتِدْلاَل عليه من الكتاب العزيز، فقال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر: ٤٩] أي كل شيءٍ أبرزناهُ هو بقدَرٍ سَابِقٍ. وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢]. هو اللَّوْحُ المحفوظ. وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨]. وقال تعالىٰ: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨] وقال تعالىٰ: ﴿لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾. [الأنفال: ٤٢] وقال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾ [الحديد: ٢٢]. أيْ مَا أصَابَ النَّاسَ من مصيبة من شرٍّ أو خيرٍ في الأرضِ بالجدبِ والقحْطِ، أو الْغَرْقِ، وَلاَ فِي أنفسكم بالمَوْتِ أو الْقَتْلِ، إلاَّ في كتابٍ؛ وهو اللَّوْح المحفوظ، من قَبْلِ أن نَبْرأها، أي نُظْهِرَهَا.

ثم قال تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣] لأنه أمْرٌ قدّر في أزلِهِ، أنه لا يكون، أو لا يدومُ، فَلاَ تَحْزَنْ عَلَىٰ شَيْءٍ لَمْ يَكُنْ لَكَ، أو انقضى أجَله عندكَ. ﴿وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣] لأنه سَبَق قَبْلَ ظهورهِ أنَّهُ لَكُمْ، وأنه واجب إتْيَانُهُ إلَيْكُمْ، والمطلوب هو الاعْتِدال في المَنْعِ والعَطَاءِ، والقَبْضِ والبَسْطِ، والفقْد والوَجْد، والذلّ والعزّ، والفَقر والغِنى، والصحّة

والمَرَض، وغَيْر ذٰلِكَ من اختلافِ الأحْوَالِ، وانتقالاَت الأطوار، إذ جميع ذٰلِكَ، قد جَرَتْ بِهِ الأقدارُ، فَلاَ يُظْهر الحُزْن على شيءٍ فَاتَ وَلاَ يُظهِر الفرَحَ بشيْءٍ آتٍ، قال تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣] أي أجَلاً معلوماً، ووقتاً محدوداً. لا يتقدَّمُ عليه لحظة، ولا يتأخَّرُ عَنْهُ ساعة، وقال تعالى في شأنِ أجَلِ المَوْتِ: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾ [آل عمران: ١٤٥]. أي مُقَدَّراً مَحْدُوداً قَبلَ أنْ يخلقَهَا. وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ [الأنعام: ٢]. فالأوَّل للمَوْتِ. والثاني للبَعْثِ.

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ [الأنعام: ٦٠] أي ليَبْلغ المتيقظ آخر أجَله المُسَمَّى عِنْد الله فِي أزلِهِ. ثم يَرْجع إلى ربّه. ثم قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١] أي لاَ يَتَجاوزُون ما حُدَّ لَهُمْ منَ الأجَلِ. بزيادة أوْ نُقْصانٍ.

وقال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأعراف: ٣٤] أي إذا جاءَ مَوْتُهُمْ، بِٱلعَذَابِ أو بِغَيْرِهِ لاَ يستأخِرونَ سَاعَة، ولاَ يستقدمُونَ. وقال تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ [فاطر: ١١]، ومعْنَى الآية، وَمَا يُعمَّر مِنْ أحَدٍ. أيْ يُجْعَلُ عمره طويلاً، وَلاَ ينقصُ مِنْ عُمُرِهِ: أي يجعل عُمُرهُ قصيراً إلا في كتابٍ، أي في اللوح المحفوظِ، فتضَمَّنَتِ الآية شَخْصَيْن، أحَدُهما عُمِّر طويلاً، والآخر نقصَ من عُمرِهِ في أجلِهِ. فكَانَ عُمُره قصيراً. كل ذلك في كتاب مُبينٍ.

وقيل النقص من العُمْر، باعتبار عِلْم الملائكة فإذا وَصَلَ رَحِمَه مثلاً، ظهرتِ الزيادة التي عند الله، وليْسَ للعَبْدِ عِنْد الله إلاَّ عُمُرٌ واحِدٌ، لاَ يزيد وَلاَ يَنقُصُ. وأمَّا قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ [الرعد: ٣٩]. فَمَعْنَاهُ: يَمْحُو مَا عِنْدَ الملائِكَة، ويثبِّتُ مَا عِنْدَهُ، وهُوَ أمُّ الكِتاب. وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ [غافر: ٦٧، ٦٨] الآية، أي ومِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلِ الشيخوخةِ، ويؤخِّركم لتبلغوا أجلاً مُسَمًّى، سبَق به العلم القديمُ. وسَطَّرَتْهُ المَلاَئِكة وقت

نَفخ الرّوح، ولعلَّكم تعقلونَ. فتعرفُونَ أنَّ المَوْتَ والحياة بِيَدِ الله. أي لاَ تأثير لشيءٍ من الأسباب في المَوْتِ. كالوباء وغَيْرها. بل الأمر كله لله، ولذلكَ قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ [غافر: ٦٨] أي لاَ غيرهُ، ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾ [غافر: ٦٨] من مَوْتٍ أوْ غيْرِهِ ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧]. وَقَالَ: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [نوح: ٤٠] فهذه الآيات صريحة في تحديد الأجَلِ، وتقديره في الأزلِ. فَلاَ يتأخَّرُ وَلاَ يتعجَّلُ، لاَ بِوبَاءٍ وَلاَ بِغَيْرِهَا. فَلْيَسْكُن الإنْسَان عِنْدَ رَبِّهِ، ويَنْظُر ما يفعل ربُّهُ بِهِ، فَلاَ يخاف وَلاَ يحْذَرُ، إذْ لاَ يَنفَعُ حَذَر مِن قَدَرٍ.

وأمَّا الاستِدْلاَل بالسُّنَّةِ: فقال ﷺ لابْنِ عبَّاسٍ رضِيَ الله عَنْهُ: «**يا ابْنَ عبَّاسٍ إني أُعَلِّمُكَ كَلِمَات: احْفَظِ الله يَحْفَظْكَ، احْفَظِ الله تَجِدْهُ أمَامَكَ، تَعَرَّفْ إلى الله فِي الرَّخَاءِ، يَعْرِفْكَ في الشِّدَّةِ، واعْلَمْ أنَّ مَا أخطأكَ لم يَكُن ليصيبكَ، وَمَا أصَابك لَمْ يَكُنْ ليُخطئَكَ**»[1]. زَادَ فِي رِواية، رُفعت الأقلام، وطويت الصحف، أي ما أخطأكَ في الأزَلِ، بحيْثُ لم يكتبْ لكَ، لم يَكُنْ ليصيبكَ أبَداً، خَيْراً كَانَ أوْ شرًا، وَمَا أصَابَكَ فِي الأزَلِ، بحَيْثُ قدَّرَهُ الله عَلَيْكَ، لَمْ يَكُنْ ليخطئكَ، خيراً كَانَ أوْ شرًا: حياةً أوْ مَوْتاً، وقال عليه الصَّلاة والسَّلام لأبي هُرَيْرَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**جُفَّ القَلَمُ بِمَا أنتَ لاَقٍ يَا أبَا هُرَيْرَةَ**»[2] الحديث. وقال ﷺ: «**كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ، حتَّى العَجْزُ والكَيْسُ**». رواه مالك في الموطأ. وقال ﷺ: «**إنَّ الرَّجُلَ ليعمل بِعمل أهلِ الجَنَّةِ، حتَّى مَا يكون بَينَهُ وبَينها إلاَّ ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيَعْمَل بعمل أهل النَّار فيدخلها، وإنَّ الرجل ليعمل بعمل أهل النَّار، حتى ما يكون بينه وبَينَها إلاَّ ذِراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنَّةِ فيَدْخلها**» رواه البخاري وغيره. وقال ﷺ: «**إنَّ الرِّزْقَ**

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك، ذكر عبد الله بن عبد المطلب، حديث رقم (٦٣٠٤) [٣/ ٦٢٤] والقضاعي في مسند الشهاب، حديث رقم (٧٤٥) [١/ ٤٣٤] ورواه غيرهما.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، باب ما يكره من التبتل والخصاء، حديث رقم (٤٧٨٦) [٥/ ١٩٥٢]. والطبراني في المعجم الأوسط، من اسمه محمد، حديث رقم (٦٨١٤) [٦٨١٤] ورواه غيرهما.

ليطلب العبد كَمَا يَطْلُبُهُ أَجَلُهُ»[١] الحديث. وقال ﷺ: **«إنَّ الله وَكَّلَ بالرَّحِم مَلَكاً يقول: يَا ربّ نطْفَةٍ، يا رَبّ عَلَقة، يا ربّ مضغة»**[٢] فإذا نفخ فيه الرُّوح. قال: يا رب ما الرّزق. وما الأزل؟ شقيّ أمْ سعيد. فيكتب ذلك في بطن أُمّه كله. أوْ كما قال عليه السلام، رواه البُخاري ومُسْلِمٌ، وقال ﷺ في تفسير حقيقة الإيمانِ: **«أنْ تؤمِن بالله ومَلاَئِكته وكُتُبه ورُسُلِهِ، واليوم الآخِرِ، وأن تُؤمِنَ بِٱلْقَدَرِ خَيْرِهِ وشرّه»**. زَادَ فِي بَعْضِ الرّوايات: حُلْوِهِ ومُرّهِ، فالْخَيْر هو الطّاعَة والإحْسَانُ. والشرُّ: هو الكُفْرُ.

الحُلْوُ: ما يُلائِمُ الإنْسَان، كالصحّةِ والعافية. وأنواع الجمال.

والمُرّ: كل ما يُؤلِمُ الإنْسَان كٱلْمَرَضِ والفَقْر، والذُّلّ وسائر أنواع الجَلاَل.

فكل هٰذَا سبَق به القَضَاءُ والقَدَرُ، فَمَن شكّ فِي هٰذَا، فهو كَافِر إجْماعاً، ومَنِ اعْتقده عِلْماً، ولَمْ يَرْضَ بِهِ عِنْدَ نُزُولِهِ ذَوْقاً فَهُوَ فَاسِق إجماعاً. ولذلك قال مالِكٌ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ: مَنْ تَشَرَّعَ وَلَمْ يتصوَّفْ، فقد تَفَسّقَ. وقال الشّيخ أبُو الحَسَن رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ: «مَنْ لَمْ يَتَغَلْغَلْ فِي عِلْمِنا هٰذَا مَات مُصِرًا عَلَىٰ الكَبَائِرِ، وَهُوَ لاَ يَشْعُر، فكل مَنْ لَمْ يصحب أهْل الصّفا، لا يطمع أن يَتّصِفَ بالصّفَا. والصّفَا هو الرّضَىٰ والتّسْليمُ بِكُلِّ مَا يُبْرزُ من عِنْد الحكيم العليم» وقال عليه السّلام: **«إنّ رُوحَ القُدُس، نفَثَ فِي رُوحِي، إنَّ نفساً لَنْ تَمُوتَ حتَّى تستكمِل رِزْقها، فَٱتَّقوا الله، وأجْمِلُوا فِي الطلبِ»**[٣]. وقال عليه السّلامُ: **«فَرَغ رَبُّكَ مِنْ أرْبَع: خَلْقٍ، وخُلُق، ورِزْق، وأجَل»** رواه الطّبراني في الأوْسَطِ. وفي رواية أحمد: **«فرَّغ الله عَزَّ وجَلَّ إلى كل عَبْدٍ مِنْ خَمْسٍ: مِنْ أجَلِهِ، وَرِزْقِهِ، وأثره،**

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه، [باب] ذكر الإخبار عما يجب على المرء من قلة. . ، حديث رقم (٣٢٣٨) [٨/ ٣١] ورواه غيرهما.

(٢) رواه ابن كثير من تفسيره، قوله تعالى «أنشأناه خلقا آخر». [٣/ ٢٤٢] وفيه «أي رب» بدل يا رب» ورواه بلفظة أبو نعيم الأصبهاني، [ترجمة] حماد بن زيد، [٦/ ٢٦٠].

(٣) رواه القضاعي في مسند الشهاب، (٧٢٨ إن روح القدس. . ،) حديث رقم (١١٥١) وعبد الرزاق في مصنفه، باب القدر، حديث رقم (٢٠١٠٠) ورواه غيرهما.

ومَضجعه، وشقي أو سعيد» والْمُرَاد بالأثَرِ: الخطوات التي يَمْشِيهَا، فإنَّها مكتوبة كما قدمنا. فقد قُسِّمَتِ الأرزَاق فِي الأزَلِ: الحسِّيَّة والمَعْنَويَّة، كما قسمتِ الآجَالُ والخَطَوات، كذلكَ المَرَاتب والمقاماتُ، كل ذلِكَ جَفَّ به الْقَلَمُ، قَالُوا: يا رسول الله ﷺ: فَفِيمَ العمل؟ قال ﷺ: **«اعْمَلُوا، فكُلٌّ ميَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ، فَأمَّا إن كَانَ مِن أَهْل السَّعَادة، فَسَيُيَسَّرُ لعملِ أهْل السَّعَادة، وأمَّا مَنْ كَان مِنْ أهْل الشَّقاوة فَسَيُيسَّرُ لعمل أهْل الشقاوة»**، ثم قرأ عليه الصَّلاة والسَّلاَمُ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾[1] [الليل: ٥، ١٠] فإن قلْتَ: إذَا كَانَ القدر جَرَىٰ بِمَا يكونُ، وَلاَ محيد للعَبْد عَنْهُ، فَعَلامَ يحاسب العَبْد ويُعَذِّبُ؟ قُلْتُ: قد جَعَلَ الله بِحكمته الباهرة في العَبْدِ كَسْباً فيما يظهر لهُ، يُقصد به الخَيْرُ والشَّرُّ، وفي الحقيقة: هُوَ مَجْرُور بسِلسلة، لكن الشَّريعة تنسب الفعل إلَيْه، بِسَبَبِ ذلِكَ الكَسْبِ، فتقوم الحجَّةُ عليه. قال تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ۝﴾ [الأنعام: ١٤٩]. فَالْمُلْك ملكهُ، والعبيد عبيدهُ، ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ۝﴾ [الأنبياء: ٢٣]. وكذلكَ أَمْرُ الرِّزقِ، هو مُقَسَّمٌ فِي الأزَلِ، مضمُون بكفالةِ الله تَعالىٰ، لكن اقتضَتْ حِكْمتُهُ، تغطية أسْرَار الرُّبُوبيَّة، فقرَنَته بوجودِ السبب عِنْدَهُ، لاَ بِهِ. فَلاَ بُدَّ مِنْهُ وُجوداً، والغَيْبَة عنه شُهُوداً. نَعَمْ منْ تحقق بالتَّقْوَىٰ، وانقطع إلى الله، رزقه بِلاَ سَبَبِ. قالَ تَعالَىٰ: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣] وَقال الشَّيخ أبو العبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ: للنَّاس أسْبَابٌ، وسَبَبُنَا الإيْمَانُ والتَّقْوىٰ، ثم قرأ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦] الآية. وسَيَأتي زيادة بيانٍ، في الكلام على الحِكْمَة والقدرة إن شاءَ الله تعالى، وبالله التوفيق.

وأمَّا كَلاَمُ السَّلفِ الصَّالِحِ فِي الْقَدَرِ: فَمِمَّا اشتهَرَ على ألْسنتهم: ما شَاءَ الله كَانَ ومَا لَمْ يَشَأْ رَبّنَا لَمْ يَكُنْ. وقيل: إنه حديث. وقال عمر بن عبد العزيز

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، باب كيفية الخلق الآدمي، باب قوله وكذب بالحصن» حديث رقم (٤٦٦٦) [٤/ ١٨٩١] ورواه غيره.

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَصْبَحْتُ وَمَا لِي سُرُور إلاَّ في مواقع الْقَدَرِ. وقيل لبعضهم: ما تشتهي؟ قال: مَا يَقْضِي الله. وقال ابن عطاءِ اللَّه فِي الحِكَم: «مَا مِنْ نَفَسٍ تُبْدِيهِ، إلاَّ وله قَدرٌ فيك يمضيه». وقال أيضاً: «كَيْفَ يَكُونُ طلبك اللاَّحِق، سَبباً في عَطَائِهِ السَّابقِ؟ جَلَّ حُكْمُ الأَزَلِ، أنْ يُضَافَ إلى الْعِلَلِ عنايتهُ فيكَ، لاَ لشَيْءٍ مِنْكَ، وأيْن كُنْت؟ حين واجهتك عِنَايته وقابلتكَ رِعَايتهُ. لَمْ يَكُنْ فِي أَزَلِهِ إخلاصُ أعْمَالٍ، وَلاَ وجود أحْوَالٍ، بل لَمْ يكُن هُنَاك إلاَّ مَحْضُ الإفْضَالِ، ووجود النَّوَال»، يَعْنِي أنَّ قَضَاءَهُ لكَ، السَّابِق فِي عالم الْغَيْبِ، هو الَّذِي ظَهَرَ لكَ فِي عَالَمِ الشَّهَادةِ، ولم يَكُنْ مِنكَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ عمل تسْتحق بِه العَطَاءَ، وَلاَ حَالَ، تَسْتحق بِهِ التقريبَ، أو الْوُصُولَ، وإنَّما أعْطاكَ فضلاً مِنْهُ وجُوداً، والله ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيم.

واعْلَمْ أنَّ النَّاسَ فِي النَّظَرِ إلَى الْقَضَاءِ السَّابِقِ، والحكم اللاَّحِق أرْبَعَةُ أقسام: قِسْمٌ نَظَرُوا إلَى الْعَوَاقِبِ، لعلمهم بأنَّ الأعمال بخواتيمِهَا. وَقِسْمٌ نَظَرُوا للْوَقْتِ، لَمْ يشتغِلُوا بالسوابق، وَلاَ بِالْعَوَاقب، غَيْر أداء ما كلفُوا به من حُكْم الوقتِ، عالمينَ بأنَّ الفَقير ابن وقتِهِ، لاَ يَرَىٰ غَيْر الوقت الَّذِي هُوَ فِيهِ، وقِسْمٌ نَظَرُوا للَّهِ وَحْدَهُ، لعلمهم أنَّ الماضي والمُسْتَقبل والحال، متقلِّبُون في قبضة الحقِّ، متصرِّفُونَ بِحُكْمِهِ، والأوقات كلها قابِلَة للتَّغَيُّرِ، وتبديل الحالِ، فَلاَ يَرَوْنَهَا، وإنَّما يشاهدون كل شيْءٍ بيدهِ؛ وهذا القِسْمُ قَد اسْتَرَاح من كَدرِ التَّدْبِيرِ، لغيبَتِهِ عَن شهود المُدَبِّر، عن سَابق التقدير، بخلافِ الثلاثِ الأوَلِ، قد غَلَبَ عليهم شهود الْفَرْقِ. فالأَوَّلُ: أذْهله خَوْف السوابق. والثَّانِي: أدْهَشَهُ خَوْف العواقب والخواتم. والثالث: غَيَّبَه حكمُ الوقتِ، وشُهُودُ أحْكَامِهِ، عن شُهُودِ الموقتِ. والرَّابعُ: لمَّا كُشف عَنْهُ الحِجَابُ، وشَاهَدَ رَبَّ الأرْبَابِ، شَغَلَهُ شهُودُ واحِدٌ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ، ولَمْ يُشغِلْهُ عَنِ الله شَيْءٌ، ولذلِكَ قَالُوا: الصُّوفِي مَنْ لاَ يَرَىٰ فِي الدَّارَيْنِ غَيْرَ الله؛ وَلاَ يُشاهِد مَعَ الله سِوَاهُ. قَدْ سُخِّرَ لهُ كلّ شَيْء، ولَمْ يُسَخَّر هو لشيءٍ، يَصْفُو بِهِ كَدَرُ كل شَيْءٍ، ولَمْ يكدِّرْ صفوهُ شَيْءٌ، شَغَله واحد عن كل شيْءٍ، ولم يُشْغِله عن الواحِدِ شَيْءٌ.

والْحَاصِلُ: أنَّ مَنْ أرَاد الرَّاحَةَ الدَّائِمة، فَلْيَنْطَرِحْ بيْنَ يَدَي الله، ويَنْظُر في

كل وَقْتٍ ما يَبْرُزُ من عِنْدِ الله، ويسكن تحت مَجَارِي الأقدارِ لهُ، ولْيَنْعَزِل عَن تدبيرهِ واخْتِيَارِهِ، ويتأمَّل ما قَالَهُ القُطْبُ سيدي يقوت العرشي:

مَا ثَمَّ إلاَّ ما أَرَادَ فاتْرُكْ هُمُومَكَ وَانطَرِحْ وَاتْرُكْ شَوَاغِلَكَ الَّتِي اشْتَغَلْتَ بِهَا عَنْهُ تَسْتَرِحْ

وأمّا دَلِيلُهُ مِنْ طَرِيقِ الكَشْفِ والْوُجْدَانِ: إنَّ مَن رَقَّ حجابُهُ، وتَلَطَّفَتْ بَشَرِيتهُ، يُطْلِعُهُ الله تَعَالَى، على مَواقِعِ الأقْدَارِ، قَبْلَ أنْ تَنْزِلَ، إمَّا أنْ يُخَاطبَ بِهَا فِي الْيَقَظَةِ، وإمَّا أنْ يَرَاهَا فِي النَّوْمِ. وقال عليه الصَّلاة والسَّلاَمُ: **«رؤيا المُؤْمِنِ جُزْءٌ مِنْ ستَّة وأرْبَعِينَ جُزْءً مِنَ النُّبُوءةِ، إذَا تَقَارَبَ الزَّمان، لاَ تَكَاد رُؤيَا المُؤْمِنِ تُخطِىءُ»**[1]. وقد تحققنا هٰذَا الأمر مِنْ أنْفُسِنَا والْحَمْدُ لِلَّهِ، فقبل أن ينزل بنا أمْرٌ جَلاَلِي، أوْ جَمَالِي، إلاَّ نَرَاهُ قَبْل نُزُولِهِ بمدَّةٍ. مِنْهُ ما تطول مُدَّتهُ، ومنْهُ ما تقربُ، فَنَنْتَظِر وُقُوعهُ، كما ينْتَظرُ الغَائِبُ الْقَادِمُ مِنْ سَفَرِهِ، فَإذَا نَزَلَ، وجَدَ الْقَلْبَ قَدِ اسْتَعَدَّ لِنُزُولِهِ، وتوطَّنَ لهجُومِهِ، فَلاَ تحرّكه صَدَمَاتُهُ، وَلاَ تُدْهِشُهُ وارداته، فتحققنا ذَوْقاً وكشفاً؛ أن المقادير جَرَتْ فِي الأزَلِ، وتعَيَّنَتْ أوْقاتُهَا ومقاديرُهَا، لاَ تتقَدَّمُ وَلاَ تتأخَرُ، لكِن من حِكْمَةِ الحكيم، أنْ غَطَّى هٰذَا السِّرَّ بِردَاءِ الحِكْمَةِ، فَجعَلَ لكل شَيْءٍ سَبَباً، فَيُنْزِل الْقَدَر فِي وَقْتِهِ الَّذِي تَعَيَّنَ لهُ فِي الأزَلِ، ويُغَطِّيه بِوجُودِ سَبَبِهِ، فَيُقال: فُلاَن فَعَلَ كَذا، فَجَرَىٰ لهُ كَذا، وفُلاَن مَشَىٰ إلَى مَوْضِعِ الْوَبَاءِ مثلاً، فَمَاتَ بِهَا، أوْ نَقَلَهَا إلى غَيْر مَوْضِعهَا، والوقوف مع هٰذَا، دونَ النَّظَر إلَى بَاطِنِ الأَمْرِ وتَصْريف الْقُدْرَةِ، حجاب غَلِيظٌ، وجَهْل قَبِيحٌ، رُبَّما يؤدّي إلى الكُفرِ إن اعتَقَدَ التَّأْثِير، وأنْكَرَ الْقَدَرَ، وَهُنَا زَلَّتْ أقْدَامُ كثيرٍ مِمَّنْ يَدَّعِي الْعِلْمَ، ولَيْسَ عِنْدَهُ إلاَّ رَسْمُهُ، والإخْبَار بِالأُمور قَبْلَ أنْ تَقَعَ، أمْرٌ مُتَوَاتِرٌ، منها ما كَانَ مِنْ طَرِيقِ الْوَحْيِ، كقولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ [المائدة: ٩]. قبلهم وقد مكَّنَ الله الصَّحَابة، مِنْ مشارق الأرضِ ومَغَاربها،

---

(١) روى نحوه الطبراني في المعجم الأوسط، باب من اسمه إبراهيم ١، حديث رقم (٩٥٥) [١/ ٢٩١] ونصه: «إذا تقارب الزمان لم تكد رؤيا المؤمن تكذب وأصدقهم رؤيا أصدقهم حديثاً، ورؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة، والرؤيا الصالحة بشرى من الله، والرؤيا مما يحدث بها الرجل نفسه، والإحتلام من الشيطان؛ فإذا رأى أحدكم ما يكره فلا يحدث به».

وكقولِهِ تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾ [الروم: ٢] وَقَدْ غلبُوا فارِسَ زَمانَ الحُدَيْبِيَّة، وقوله تعالى: ﴿لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ﴾ [الفتح: ٢٧]. وَقَدْ وَقَعَ يَوْمَ الْفَتْحِ، وأمّا إِخْبَارهُ عليه الصَّلاة والسَّلام بِٱلْمُغَيَّبَاتِ المستقبلة، فَلاَ تَكَادُ تُحْصَىٰ، وقَدْ حَذَّر ﷺ، مِنَ الْفِتَنِ الَّتِي تأتِي بَعْدَهُ، كأنَّه يُشَاهِدهَا، فَوَقَعَ ذلِكَ كُلّهُ، وقد وُجِدَ مكتوباً بِقَلَمِ الْقُدْرَةِ عَلَى جِدَارِ قصْرٍ دَارِسٍ مَا نَصُّهُ:

مَا لاَ يُقَدَّرُ لاَ يَكُون بِحِيلَةٍ ... أَبداً وَمَا هُوَ كَائِنٌ سَيَكُونُ
سَيَكُونُ مَا هُوَ كَائِنٌ فِي وَقْتِهِ ... وأَخُو الْجَهَالَةِ مُتْعَبٌ مَحْزُونُ
هَوِّنْ عَلَيْكَ وَكُن بِرَبِّكَ وَاثِقاً ... فأَخُو الْحَقِيقَةِ شَأْنُهُ التَّهْوِينُ

فَلَوْ كَانَتِ الأُمُور تَبْرُزُ اتفاقيةً، كَمَا تقوله الرَّوَافِض والقَدَرِيةُ مَجُوسُ هذه الأمَّةِ، لَمْ يَقَعِ الإخْبَار بها قَبْلَ أن تكُونَ، ثم يَقَعُ كَذَلِكَ، فإنْ قُلْتَ: ما ذَكَرْتَهُ إخبار بِمَعْلومٍ، إذ المسلمون كُلُّهم يقرؤونَ هٰذَا، قلْتُ: لَيْسَ مُرَادُنَا الاكْتِفاء بمجَرَّدِ الْعِلْمِ، بل مُرَادُنا تَرْبِيَة اليقينِ، وَلاَ شكَّ أنَّ ذِكْرَ ما يُقوّيه مطلوب، وهو جُنْد مِن جنودِ الأنْوَارِ؛ وهو التوفيقُ؛ وهو الهادي إلى سواءِ الطريق.

البَابُ الثَّالِثُ:
فِي بَيانِ الحِكْمَةِ والْقُدْرَةِ

اِعْلَمْ فَهَّمَكَ الله سَبِيل رُشْدِهِ، وَجَعَلَكَ من أهل مَحَبَّتِهِ وَوُدِّهِ، أنَّ بَحْرَ الحِكْمَة بَحْرٌ زَاخِرٌ، وأمْرٌ ظَاهِرٌ، يُظهِرُ الأسبابَ، ويُسْدِل الحجابَ، ويصونُ السِّرَّ الْمَصُونَ، ويَسْتُرُ الكَنْزَ الْمَدْفُونَ، يَرْبِط الأحْكَامَ بِٱلْعِلَلِ، ويُقرر الشرائع والمِلَلِ، يُغَطِّي مَا يَبْرُزُ من عُنْصُرِ الْقُدْرَةِ بِرِدَائِهِ، وَيَسْتُرُ مَا يَبْدُو مِنْ أَسْرَار الرُّبوبية، بِعِزِّ كِبْرِيَائِهِ، يصُون الحقيقة، ويُظهِرُ الطريقة، يُظهر العبودية، ويُبْطِن أسْرَار الرّبوبية، من وقفَ مَعَهُ كَان محجوباً، وَمَنْ نَفَذَ مِنْهُ إلى شُهُودِ القُدْرَة كَانَ مَحْبُوباً، وبالغَاية مصحوباً، وبَحْرُ القُدْرة أيْضاً بَحْرٌ زَاخِرٌ، وأمْرُه قَاهِرٌ، لَيْسَ لَهُ أوَّلٌ وَلاَ آخِرٌ، يَظْهَرُ ويَبْطُنُ، ويتحرك ويسكنُ، يُعطي ويَمْنعُ، ويُخْفِض ويَرْفع، بيده مَقَادِير الأُمُورِ؛ وعلى قُطْبِ دَائِرتِهِ أفْلاَكُ التصاريفِ تدورُ، فإذا أرادتِ القُدْرة أن تُظهِرَ شيئاً من بَحْرِ القَدَرِ؛ الذي سَبَقَ فِي الأزلِ، غَطَّتْهُ الحِكْمة برداءِ

الأسباب والْعِلَلِ؛ لِيَبْقَىٰ الكَنْزُ مَدْفُوناً، وسِرّ الرُّبوبية مَصُوناً، وتَظْهر مَزِية الْعَارِف على الجَاهِلِ، ويتميَّزُ الباعِدُ من الواصل، والمؤمن من الكافِرِ، الْعَارِف الَّذي لاَ يرى إلاَّ تصريف القُدْرة، ويعرف سِرّ الحِكْمة، فلا يحجب بِهَا عن شهُود القُدْرَةِ، والجاهل يقف مع شهود الحِكمة، ويحجب بِهَا عن القُدْرة، العارف نَفَذ إلى شهودِ اللُّبِّ الخالصِ، والْجَاهل وقَفَ مَعَ القِشْر الظَّاهِر الْيَابِسِ ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾. [الزمر: ٩].

الْعَارِف نَظَرَ إلى مُسَبِّب الأسْباب، فَزَال عَنْهُ الحِجَاب، ودَخَلَ مَعَ الأحْبَابِ، والْجَاهِل وقَفَ مَعَ قِشْرِ الأسْبَابِ، وقَنَعَ بِٱلْوُقُوفِ مِنْ وَرَاءِ الْبَابِ، العارفُ مَوْصُوفٌ بالإقرار فيما يَبْدُو مِنْ نَوَازل الأقْدَارِ، والْجَاهِلُ مرسومٌ بالإنكارِ لما يظهَرُ من حَضْرَةِ القهَّارِ، العَارفُ يَتَلقَّى مَا يَبْرُزُ من عُنْصُرِ القُدْرَةِ، بالفَرَحِ والسُّرُورِ، لشهودِهِ ما بيده قدرتِهِ تصاريفُ الأمور، والجاهل من خُصَّام الحَقِّ دَائماً وهو لاَ يشْعُرُ، ولذلك قال بَعْضهم: «مَنْ عَامَلَ النَّاس بالشريعةِ، طال خصامهُ مَعَهُمْ، ومَنْ عَامَلَهُمْ بِٱلحَقِيقَة عَذَرَهُمْ، فالواجب أن يعامِلهم في الظَّاهر بالشريعة؛ فيُذَكِّرَهُمْ، وفي الباطِنِ بالحقيقةِ فَيَعْذرَهُمْ، فتحصَّلَ من هذا، أنَّ القدرَة تُبرِزُ وتُظْهِرُ، والحِكْمَة تغطي وتستر، والحِكْمة عَيْن القدرة، والقدرة عَيْن الحِكْمَة، إذ الْفَاعِل واحِدٌ، فاعِل السَّبَب؛ هو فاعل المُسَبِّبِ، لكن لاَ بُدَّ للشَّمْس من سَحَابِ، وللحَسْناءِ من نِقابِ، فَمَا أَظْهَرَتْهُ القُدْرَة من الأسْبَابِ والعِلَلِ، سُمِّيَ حِكْمَة، وما أبْطَنته مِنَ الإيجاد والاختراع، سُمِّيَ قُدْرة، والفَاعل واحِدٌ، فإذا سَبَق للعَبْدِ شيء من مقدورات الحقِّ، جلالية أو جمالية، ووصَلَ وقت نزول ذلِكَ، حرَّكه الله إلى سبَب في الغَالِبِ، فينفذ ذلِكَ المَقدورُ بتصريفِ الْقُدْرَة الأزليةِ، مستتراً بِرداءِ الحِكْمَة الإلَهية، فالجاهل يقف مَعَ قِشْرِ السَّبَب، والعارف يَنفذ إلى شهودِ مُسَبِّبِ ذَلِكَ السَّبَب، وكذلك إذا سَبَق في الأزلِ، نزول بَلاَءٍ في بَلْدَةٍ، حرَّكهُمْ إلى سَبَبِ ذلِكَ، رغماً على أنفِهِم، حتى يَمْضِي أمْرُ الله فِيهِمْ. قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾. [:] ومن ذلِكَ أمْرُ الوَباء إذا سَبَقَ في قَدَر الله وقضائِهِ، أنْ يَنزلَ فِي مَدِينةٍ أوْ قَرْيَةٍ، في وقْتٍ مُعَيَّنٍ، جعل لذلِكَ الحقُّ بحكمَتِهِ تَعَالَىٰ سبباً وعِلَّةً، فَتَنْزِلُهُ القدرةُ الأزلية، في الوقت الَّذِي سَبَق به العلم

القديمُ، مسوَّراً بِرِدَاءِ الحِكْمَةِ، وهو ذلك السَّبب، لتظهر مزية الإيمانِ بِٱلغَيْبِ؛ لأنَّ الدُّنيا دَارُ التكليف، لا دار التعريف، بخلاف الآخرة. فيقول الجاهل: لوْلاَ فُلاَن نقلَهُ ما انْتَقَلَ. ويقول العارفُ: هٰذَا ما سَبَق في حُكْم الأزَلِ، كذلك إذا نَقَلَتْهُ القُدْرَة إلى مَوْضعها ومات. يقول الجاهل: لَوْ لَمْ ينتقلْ مَا ماتَ، هٰذَا اعتقاد من طبع الله على قَلْبِهِ مِنَ الكُفَّارِ. وقد نَهَى الله تَعالَىٰ المؤمنينَ عن التشبُّه بِهِمْ، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝٩﴾ [الأحزاب: ٩]. وقال الله أيضاً: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ﴾ [آل عمران: ١٥٤] إلخ. وسَيَأتي الكَلاَم على الْوَبَاءِ فِي مَحَلِّهِ إن شاء الله. هٰذَا مَا يَتَعلَّق بالحِكْمَةِ والْقُدْرَةِ، لِمَنْ فَتَحَ الله بَصِيرَتَهُ، وبالله التَّوْفيق، وهُوَ الْهَادِي إلى سواءِ الطَّريقِ.

الْبَابُ الرَّابِعُ:
فِي إبْطَالِ الْعَدْوَىٰ والطِّيرة

أمَّا العَدْوى: فهو انتقال المَرَضِ مِنْ محلٍّ لآخَرَ، كما يَزْعمُهُ الفَلاَسِفة، والطَّبَائعيونَ؛ وهو باطِلٌ عند أهْل التوحيد. قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الرعد: ١٦] وقال في شَأنِ السِّحْرِ: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾. [البقرة: ١٠٢] وقال تعالى: وهو حكمَهُ ومشيئتُهُ، أوْ قَدَرهُ وقضَاؤهُ. وقال ﷺ: «**لاَ عَدْوَىٰ وَلاَ طِيَرَة، وَلاَ صفر ولا هَامَ**»(١). فمن اعْتَقَدَ أنَّها تَعْدُو بِطَبْعِهَا؛ فهو كَافِرٌ إجماعاً، ومَن اعتقد أنَّها تَعْدُو بقوَّةٍ فيها فهو عَاصٍ. وفي كُفرِهِ قَوْلاَنِ. مَنِ اعتقد أنها تَعْدُو بِقُدْرَةِ الله وقَدَرِهِ على وَجْهِ الحِكْمَة، وسَيْرِ القُدْرَةِ فَهُوَ مُؤمِنٌ.

والأمْرَاضُ الَّتِي تَعْدُو عِندهُمْ، هي: الْجَرَبُ، والْوَبَاءُ، والجُذَامُ.

أمَّا الجَرَبُ فيكون في الإبِلِ، والْغَنَمِ، والكِلاَب والآدَمِي، وكل ذلِكَ

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، باب الجذام، حديث رقم (٥٣٨٠) [٥/٢١٥٨] ومسلم في صحيحه، حديث رقم (٥٣٨٠) [٥/٢١٥٨] ورواه غيرهما.

بِقُدْرَةِ الله وقَدَرِهِ. قَدْ سَبَق فِي الأزَلِ أنه يَنزِل بذلكَ الشخص فِي وَقْتٍ مخصوصٍ مَحْدُودٍ، لا يتقدَّمه ولا يتأخَّرُ عَنْهُ، لكن من حِكْمة الحَكِيم، أن قَرَنَ الأشْيَاءَ بأسْبَابِهَا عندها، لا بِهَا، فإذَا وَصَلَ الْوَقْتُ الَّذِي سَبَق أنه يَنْزِل به ذَلِكَ الْمَرَض حَرَّكهُ، بِسَبَب تغطيته لسِرِّ قَدَرِهِ، فيختلط مع من فيه، وقَدْ يَنْزِلُ به ذَلِكَ الْمَرَض حَرَّكهُ، بِسَبَب تغطيته لسِرِّ قَدَرِهِ، فيختلط مع من فيه، وقَدْ يَنْزِلُ بِلاَ سَبَبٍ، وفي الحديث؛ أنه لمَّا قال عليه السلام: **«لاَ عَدْوَىٰ وَلاَ طِيَرَة»**. قَالُوا: يَا رَسُولَ الله مَا لِلإِبْلِ تكُون كالضباب، فإذا نَزَلَ بِهَا جَمَلٌ أجْرَبُ، أجْربها كُلَّها. قال عليه السَّلامُ: «ومَنْ أعْدَىٰ الأوَّل؟» أيْ ومَنْ أنزَلَ ذلِكَ الدَّاء بالأوَّلِ، فأعلمَهُمْ أنَّ كُلَّ شَيْءٍ بِقَدَر اللَّه وقُدْرَتِهِ، وكما غطَّى سِرُ إنْزَالِهِ بالأسْبَابِ؛ كذلك غطَّى سِرَّ رَفْعِهِ بِالتَّداوي. وفي الحَدِيثِ: **«مَا نَزَّلَ الله دَاءً، إلاَّ أنزَلَ لَهُ دَوَاء»** فالتَّدَاوِي لاَ يُنَافِي التوكل، إن كَانَ يَرَىٰ الشفاءَ مِنَ الله، والدَّواء حِكْمَةٌ سَمَّرَتِ الْقُدْرَة، فَلاَ تأثير له البتَّة، فَمَن اعْتَقَدَ أنَّ لَهُ التَّأثير، فَهُوَ مُشْرِكٌ مَعَ الله. قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾[الروم: ٣٣]. فالدُّعَاءُ والتَّدَاوي كِلاَهما سَبَبٌ، فإذا وَقَعَ الفرَجُ على يَدِ أحَدٍ بِدَوَاءٍ أوْ غَيْرِهِ، فَاعْتَقَدَ أنَّهُ هو الَّذِي نَجَّاهُ مِن ذَٰلِكَ، فَقَدْ أشْرَكَ مَعَ الله، إمَّا شِرْكُ اعْتِقاد، أوْ شِرْك اسْتِنادٍ؛ وَهُوَ مَيْلُ القَلْبِ وَرُكُونهُ إلى ذَٰلِكَ الوَاسِطَةِ؛ وهو قَدْحٌ فِي التوحيد عِنْدَ الخواصِّ. ولذلك قال القطب ابْن مشيش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لأبِي الحسَن: «اهربْ من خَيْر النَّاس، أكْثَر من أن تَهْربَ مِنْ شَرِّهم يا أبَا الحسَن، فإنَّ خَيْرهم يصيبكَ في قَلْبِكَ، وشَرَّهُمْ يصيبُكَ فِي بَدَنِكَ، وأن تصابَ فِي بدنِكَ، خَيْر من أن تُصَابَ في قَلْبِكَ، ولَعَدُوٌّ تَصِلُ بِهِ إلى رَبِّكَ، خَيْرٌ مِن حَبِيبٍ يقطعكَ عنْ ربكَ». فالخلق مَحْذُوفُونَ من نَظَرِ أهْل التحقيق، يشكرونهم بِاللِّسَانِ، ويغيبون عنهم بِالْجِنَانِ، لقوله عليه السَّلام: **«مَنْ لَمْ يَشْكُر النَّاسَ لَمْ يشكُرِ الله»**[1]. فلا بُدَّ من السَّبَب وُجُوداً والغَيْبَة عنه شُهُوداً،

---

(١) رواه الترمذي في سننه، باب ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك، حديث رقم (١٩٥٤) [٤/٣٣٩] وأحمد في المسند، عن أبي هريرة، حديث رقم (٧٤٩٥) [٢/٢٥٨] ورواه غيرهما.

فالسَبَبُ قياماً بِحَقِّ الحِكْمَة، والغَيْبَة عَنْهُ قياماً بِشُهُودِ القُدْرةِ. فَمَنْ أنْكَرَ الأسْبَاب فَهُوَ جَاهِلٌ بِقُدْرةِ الله وحِكْمَتِهِ، والقُدْرَة والحِكْمَة كِلاَهُمَا مِن أوْصَاف الحقّ. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الأحزاب: ١]. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥] والله تَعَالَىٰ أعْلَمُ.

وأمَّا الْوَبَاءُ فهُوَ عِنْدَ الأطِبَّاء فَسَاد الهوى والوَخم، وعِنْدَ أهْل السُّنَّةِ، وخزُ الجِنّ، أي طعنُهُ؛ وهو صريحُ الحديث. فَفِي الجامع الصَّغير: «الطَّاعُون وَخزُ أعْدَائِكُمْ مِنَ الجِنّ؛ وهُوَ لَكُمْ شَهَادَة» رواه الحاكِمُ. وفيه أيضاً: «الطَّاعُون رِجزٌ وعَذَابٌ، أُرْسِل على طائفة مِن بَنِي إسْرَائيل، فإذا وقَعَ بأرض وأنْتُمْ بِهَا، فَلاَ تَخْرُجُوا مِنْهَا فِرَاراً مِنْهُ، وإذَا وَقَعَ بِأرْضٍ ولَسْتُمْ بِهَا، فَلاَ تَهْبطُوا عَلَيْهَا» رواه الشيخان والترمذي. هكذا رمَز لهُ. وفيه أيْضاً: «الطاعونُ شهادة لكلِّ مُسْلم» رواه الحاكم والشيخان. وفيه أيْضاً: «كَانَ عذاباً يَبْعَثهُ الله على مَنْ يَشَاءُ، وإنَّ الله جَعَلَهُ رحمةً للمؤمنين، فَلَيْس من أحَدٍ يَقَع الطاعُونُ، فيمكُث في بَلَدِه صَابِراً، مُحْتَسِباً، أنه لا يُصيبُهُ، إلاَّ ما كَتَبَ الله لَهُ، كَانَ لَهُ مثل أجْر شَهِيدٍ» رَوَاه الحاكمُ والبخاري. وفيه أيضاً: «الطَّاعُون غدة كغدة البَعِير المقيم بِهَا كالشهيد، والفارُّ منها كالفَارِّ مِن الزَّحْفِ». رواه الحاكم. وَقَدْ يُجْمَع بَيْن الحديث وقول الأطباء، بأنَّ الحق تعالى، إذا أراد أنْ يَبْعَثه على عِبَادِهِ، غَيَّرَ الهَوَاء، وأرسل فيه الجِنّ، فَيَهيج الجِن بإذْنِ الله، في وقت فَسَادِ الهوى بقدرة الله. أمَّا هيجَان الجِن، فَمُحَقق بالمشاهدة، فقد رآه كثير من النَّاسِ، يقظة ومَنَاماً، على صُورة الآدمي، رَجُلاً أو امرأة، وقد يجتمع منه عَسْكراً في مَوْضع وَاحِدٍ، فَيَرَاهُمُ الآدمي يقظةً أوْ مَناماً، وقد سمعت الطبل في قبيلة أنجرة، بَيْن السَّماء والأرضِ، زَمَن الوباءِ، وقوله عليه السَّلامُ: «**إذَا وَقَعَ بِأرْض أنتم بِهَا، فَلاَ تخرجُوا مِنْهَا**» المشهورُ في الخروج أنَّهُ حَرَامٌ. والمشهور في الإقدام أنه مكروهٌ. ولذلك قال ابن رُشْدٍ في القدوم علَيْهَا: لاَ يأثَمُ إجماعاً. ووجه النَّهْي، أنَّ الإنسان إذا قَدِمَ عَلَيْهَا، ووافق تمام أجَلِهِ، فَمَاتَ بِهَا، فَرُبَّما يقَعُ فِي وَهْمِهِ، أوْ وَهم غَيْرِهِ، أنَّه لَوْ لَمْ يقْدِمْ لما مَاتَ، فيقع في الإشْرَاكِ. وأمَّا أهْلُ الْيَقِين التَّامِّ فَلاَ كَرَاهِية فِي حَقِّهِمْ، لانْتِفَاءِ العِلَّةِ مِنهُمْ، فَالنَّهي إنَّما هو في حَقِّ الضعفاءِ. وأمَّا الأقْوِيَاءُ فَلاَ يشملهُمْ، وهٰذَا كقَوْلِهِ عليه الصَّلاة والسَّلاَمُ: «**فِرَّ مِن المجذوم**

فِرَارك من الأَسَدِ»[١] وثبت أَنَّهُ أكَلَ معَهُ. وقال: «لاَ عَدْوَىٰ وَلاَ طِيَرَةَ»[٢]. فَلِلأَقْوِيَاءِ حُكْمٌ غَيْر مَا للضعفاءِ. وأما رجوع سيِّدنا عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ الشَّام، لما بَلَغه أنَّ فِيهِ الْوَبَاء، فإنَّ الجيش مختلط، فيه الأقوياء وغيرهم، فأشفق رضي الله عنه على الضعفاءِ؛ أن يختلِجَ في قلوبهم شَيْءٌ، وقد كَانَ فِيهِمْ من لاَ صُحْبَة لَهُ، لكَوْنه حديث عهدٍ بالإسلامِ. قُلْتُ: وقد رأيْتُ كثيراً مِن أصْحَابِنا، تقدَّمُوا لغَسْلِ الموتَى، ومُبَاشرة المَرْضَىٰ فِي مَدِينَة تطوان، وطنجة، وسَلاَ والرباط، ومداشير القبائل، لم يتقَدَّمْ إلى ذلكَ غيْرهم، فَغَسَّلُوا وكَفَّنُوا، وباشَرُوا المرْضَى، فَلَمْ يُصبهم شيء، بل بعضهم باقٍ على قيد الحياة، وقد رأيت بعضهم أُعْطِيَ قشابة مات صاحبها بالوبَاءِ، فلبسها في الحينِ، فلم يُصبهُ شَيْءٌ، فَعَاشَ بعد الوَبَاءِ زَمَناً طَوِيلاً، ورأيت بعض أصحابنا من أهْل أنْجَرَة، قدم على البلاد التي فيها الطَّاعون، فبقي أكْثَر من شَهْرٍ، يَغْسِل ويكَفِّنُ، ويُبَاشر المَرْضَى بِهَا، ثم قَدِمَ سالماً، فعاش بعد الوَبَاءِ زَمَناً طَوِيلاً، فبطل القول بالْعَدْوى والانتقالِ، وكما نقول لأصحابِنا: مَنْ أرَاد تَرْبِيَة اليقينِ، وتعلُّم القوة والشَّجاعة. فَلْيَذْهَبْ إلى مَحَلِّهَا، مُتوكِّلاً على الله، معتمداً فِي ذلِكَ على قول ابن رُشْدٍ، مع ما قدَّمناهُ مِنَ التفصِيلِ. وأمَّا التَّحَصُّنُ مِنْهُ بِحَرْسِ الأبْوَابِ وغَلْقِهَا، فَلاَ فَائِدَةَ فِيهِ. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨] وقد يتأخَّرُ الوقتُ في الأزَلِ، فَيَظُنُّ الجَاهِل أن تأخِيرَهَا إنَّمَا هُوَ مِنْ حِرْصِهِ وتَحَفُّظِهِ، ولَيْسَ كذلك، إذْ لاَ يَنْفَعُ حَذَرٌ مِنْ قَدَرٍ، وإنَّما الوقت اقْتَضَىٰ التَّأخِير. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣]، ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١].

حكاية مسْتظرفة: بَلَغنِي أنَّ صاحِبَنَا الفقيه المفرج، لما دَخَلَ الوباءُ طَنْجَة،

---

(١) رواه أحمد في المسند عن أبي هريرة حديث رقم (٩٧٢٠) [٢/٤٤٣] وابن أبي شيبة في مصنفه، (١٦٩) من رخص في الطيرة حديث رقم (٢٦٤٠٨) [٥/٣١١] ورواه غيرهما.

(٢) رواه البخاري في صحيحه في أبواب عدة، باب الطيرة، حديث رقم (٥٤٢١) [٥/٢١٧١] ورواه مسلم في أبواب عدة منها باب لا عدوى ولا طيرة.. ، حديث رقم (٢٢٢٠) [٤/١٧٤٣] ورواه غيرهما.

وقد كانُوا أغلَقُوا الأَبْوَابَ، ومَنَعُوا من أتى من بَلَد الْوَبَاءِ من الدُّخُول، أتى إلى البَوَّابِينَ؛ لمَّا تحقق ظهورها في البَلَدِ فقال لَهُمْ: بَيْنِي وبَيْنكُم القائِد، لِمَ تَرَكْتُمُ الوبَاءَ يَدْخُلُ؛ ردًّا لِزَعْمِهِمْ، فإن قلتَ: قَدْ وُجِدَ مَن سَدَّ بَابَهُ في زَمَنِهَا، فَسَلِمَ مِنْهَا، قُلْتُ: الحِكْمَة حقُّ مَنْ تَمَسَّك بها، لاَ تُخْرَق في حَقِّهِ، لَكِنَّهُ يكون محجوباً بِهَا عَنْ رَبِّهِ، مَعَ التحقق، أنَّ القَضَاءَ والْقَدَر هكذا جَرَى فِي حَقِّهِ، فَمَا تَعَاطَىٰ إلاَّ مَا جَرَىٰ بِهِ القَلَمُ، لكنّه محسوبٌ مِنَ الضُّعَفَاءِ، لاَ نَصِيبَ لَهُ فِي مَقَام الأَقْوِيَاءِ. ويَدْخل فِي قوله عليه السَّلام: **«الفَارُّ مِنْه ـ [أي الطاعون] ـ كَالْفَارِّ من الزَّحْفِ»**[1] وأمَّا التَّحَصُّنُ بِالدُّعَاءِ فَلاَ بَأْسَ بِهِ عُبُودِيَة، مَعَ اعْتِقادِهِ أَنَّهُ لاَ يزيد في الْعُمُر شَيْئاً.

وفائدته: التأييدُ واللطف، ونزول الصَّبْرِ، والرِّضَى عند أوْقَات الشِّدَّةِ، وقد ذكر القسطلاني دعاءً مخصوصاً، يُقال عِنْد هَيَجَانِهَا، أوْ يُعَلّق تميمَة، فإن الله يحفظه بِبَرَكَتِهِ؛ وَهُوَ هٰذَا: اللَّهُمَّ سَكِّنْ فِتْنَة صَدْمة قَهرمان الجَبَرُوت، بِالْطَافِكَ الخفية، الواردة، النازلة من باب المَلَكُوتِ، حَتَّى نَتَشَبَّث بِأذْيَالِ لُطْفِكَ، وَنَعْتَصِم بِكَ مِنْ إِنْزَالِ قُدْرَتِكَ، يَا ذَا الْقُدْرَة الْكَامِلَةِ، والرَّحْمَة الشَّامِلة، يَا ذَا الْجَلاَلِ والإِكْرَامِ اهـ.

وينفع في ذلِك أيْضاً حِزْبُ النَّوَوِي، صباحاً مساء بعد العشاء، فقد قيلَ: إنَّ قارئَهُ لاَ يتسلَّطُ عليه برٌّ وَلاَ فَاجِرٌ، بِحَيْث لاَ يَتَصَرَّف فِيهِ أحَدٌ، لاَ مِنْ جِهَة الْهِمَّة كَالأَوْلياءِ، وَلاَ مِن جِهَة الفعل الحسِّي، كالجَبَابِرة من الإنسان والجِنِّ، وكذلك وظيفة الشيخ زروق رضي الله عَنْهُ، صباحاً ومَسَاءً، مثل ذلكَ، آية الحِرصِ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] إلى آخر السورة يكَرِّرُها سَبْعاً، ومثل ذلك، الإكْثار من الصلاة على رسول الله ﷺ، فإنّها تكشف الكروبَ والهمومَ والغمُوم، مما كَتَب بِهِ إلينا شَيْخ شَيْخنا، مولاي العربي الدّرقاوي رضي الله عَنْهُ، ما نَصّه بعد كلام طويلٍ: «وَمَهْمَا تروَّعتَ من شَيْءٍ،

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الأوسط، من اسمه بكر، حديث رقم (٣١٩٣) [٣/ ٢٩٣] وأحمد في المسند، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه حديث رقم (١٤٥١٨) [٣/ ٣٢٤] ورواه غيرهما.

فبادِر إلى الطهارة إن كنت على غَيْرها، وصَلِّ ركْعَتَيْنِ، واتلُ سورتَيْن قصيرتَيْن، أوْ صَلِّ على رسول الله ﷺ ولَوْ عَشْرَ مَرَّاتٍ، أو ثلاث مرَّات، وقل: حسْبنا الله ونِعمَ الوكيل، وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قوّة إلاَّ بالله الْعَلِيّ الْعَظِيم، مثل ذلكَ، وكُن لِرَبّك هٰكَذَا دَائِماً، تَرَىٰ عَجَباً، وإياكَ أن تكون على غَيْر هٰذَا. إذ لاَ يفيدنا إلاَّ الرُّجُوعُ إلى ربّنا، والسكون إليه عند الرَّخاءِ والشِّدَّة، وَلاَ يفيدنا غَيْره قطُّ».

وقولنا: تطهر إن كنت على غَيْرها، وجدّ كَذَا، واتْلُ كَذَا، أو افعل الجميع. قُلْتُ: «وهو الَّذِي نَفعَلُ، نُصَلِّي ركعتَيْنِ، ونَتْلُو سورَتَيْن قَصِيرَتَيْنِ، كألم نَشْرَحْ، ولإيلاَفِ قُرَيْشٍ، ونُصَلِّي على رسول الله ﷺ عَشْراً، ونقول: حسبُنَا الله ونِعْم الوكيل عشراً، وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إلاَّ بالله عشراً، ثم قال رضي الله عنه: فإن الشر يذهب والخير يأتي إذ في الرجوع إلى الله والسكون إلَيْه من الفوائد وخَرْقِ العَوائِدِ، والله إن كُنَّا على ما قُلْنَا، حتى تكون لَنَا الطريق في السَّماءِ، كما هِيَ لَنَا فِي الأرْضِ، أكثر من ذٰلِكَ وأقْرَبُ، ولَعَنَةُ الله على مَنْ كذَّبَ والله إن اعتصمنا بربنا لما قررنا حتى تصحبنا نيابته في جميع أوقاتنا، ويَصْحَبُنَا عَوْنُهُ وَفَضْلُهُ، وكَرَمهُ وحِلْمُهُ، وجُودُهُ وعطفُهُ، ونَوَالهُ فِي حَرَكَاتِنَا وسَكَنَاتِنا، والله يأخذ بِيَدنا» انْتَهَى كَلامه رضيَ الله عَنْهُ.

ومِمَّا يتأكَّدُ على الإنسَان في زَمَنِ الْوَبَاءِ، الرِّضَىٰ والتَّسْلِيم، والصَّبْر على مفارقة الأحْبَابِ، إنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأولَى، فَفِي الله خَلَقٌ مِن كلِّ تَلَفٍ، لاَ سِيَّما فِي هٰذَا الزَّمان الصَّعْبِ، فَيَنْبَغِي ألاَّ يُفْرَح بِمَوْلُودٍ، وَلاَ يُحْزنَ على مفقود، فما بقي إلاَّ غورة النَّصَارىٰ، وخروج الدَّجَّال، ويَأجوج ومَأجُوج، فَمَن أخَذَهُ الله إليه، فَقَدْ خلَّصَهُ الله من هٰذِهِ الأهْوَالِ، ومَن بَقِيَ، فليتحَصَّنْ بالكَبِير المتعال، وقد تقدم قوله عليه السَّلامُ، لابْن عَبَّاس رضيَ الله عَنْهُ: **«اِحْفَظ الله يحفَظْكَ، اِحْفَظه تجِده أمَامَكَ، تَعَرَّف إلى اللهِ فِي الرَّخَاءِ، يعرفكَ فِي الشِّدَّةِ»** الحديث[1].

وَقَدْ حَدَّثَنِي مَنْ أثِقُ بِهِ مِن أصْحَابِنَا، وهو الفقيه العالِم، الولي الصَّالح،

---

(١) هذا الحديث سبق تخريجه.

سيِّدي محمَّد بن معروف الصحراوي، أنَّهُ قال لي: رأيتُ فِي كتاب البُوني[١] (شمس المعارف). قال فيه: «إذَا دخلَت النَّصارىٰ مصر، وظَهَرَ الْوَبَاء بِٱلْمَغْرِبِ، وخَرَجت النَّصارى بالسواحِلِ، ظَهَرَ الإمام المهدي، ونَزَل عِيسَىٰ ابن مَرْيَمَ عليه السَّلام، فَمَنْ مَاتَ حَبِيبُهُ فِي هٰذَا الزَّمَانِ، فَلاَ يتأسَّف عَلَيْهِ، ومَن أَحَسَّ بانتقالُ روحِهِ إلى الله، فليَفْرَحْ بِلِقَاءِ الله، ومُلاَقَاة رسول الله ﷺ، ومَن تقدَّمه من أَوْلِيَاء الله، وكَانَ بِلاَل يقول عند مَوْتِهِ: واطرَبَاهُ، غَداً أَلْقَى الأحِبَّة: محمَّداً وحِزْبَهُ، فإنَّ الرُّوح إذا خَرَجَتْ مِنْ سِجْن البَدَنِ، تَصَوَّرَتْ عَلَىٰ هَيْئَةِ صَاحِبِهَا، شَكْلاً كَامِلَ الأعْضَاءِ، لَطِيفاً روحانياً، كالملائكة، يَرَىٰ ويسمع ويعرف، فإذا خَرَجَتْ مِنَ الْبَدَنِ، كَسَتها المَلاَئِكَة ثياباً أَتَتْ بِها مِنَ الجَنَّةِ، مع حنوطٍ وَطِيبٍ، فتصعد بِهَا إلى السَّمَاءِ، ولها رائحة طيبة، فَتَقُول الملائكة: هٰذِهِ روح فُلاَنِ ابن فُلان، رَحِمَهُ الله، فَيُصَلُّونَ عَلَيْهِ، ويُشَيِّعُونَهُ مِن سَمَاءٍ إلى سَمَاءٍ حتى يَفْضِيَ إلى سِدْرَةِ المُنْتَهَىٰ، فتقول المَلاَئِكَة: هٰذَا عَبْدُكَ فُلاَن قَدْ أَتَيْنَاكَ بِهِ، فَيَقُول: «ٱكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي علِّيِّينَ، وأروهُ مقْعَده مِن الجِنَانِ، فَيَذْهَبُونَ بِهِ إلى الجنَّةِ، فيرى ما أَعَدَّ الله مِنَ الإحْسَانِ، ثم يُرَدُّ إلى السُّؤَالِ، فإذا وُضِع الجَسَدُ عَلَىٰ النَّعْشِ كَانَتْ فَوْقَهُ بِذِرَاع، تقول: قَدِّمُونِي قَدِّمُونِي، وإذا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ، وأُلْقِيَ عَلَيْه التُّرابُ، دَخَلَتْ فِي ٱلْقَبْرِ، وحَيِيَ البَدَنُ حَيَاةً خارقة لِلْعَادَةِ، أشْبَهُ شَيْءٍ بِحَالَةِ النَّائِم، فَإذَا سُئِلَ فِي قَبْرِهِ، وثَبَّتَهُ الله بِٱلْقَوْلِ الثَّابِتِ، حَتَّى أَجَابَ رُسُلَ رَبِّهِ، صَعِدَتْ رُوحُهُ إلى المَقَام الَّذِي أعَدَّهُ الله لَهُ، قَالَ تَعالَى: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝٨٨ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ [الواقعة: ٨٨].

قال بَعْضُ العارِفِين: رَوْحُ الوِصَالِ، وَرَيْحَان الجَمَالِ، فإذا انْفَصَلَت الرُّوحُ من هٰذَا الْبَدَنِ، اتَّصَلَتْ بِٱلْحَضْرَةِ الْقُدْسِيَّة؛ وهو الرُّوح، ولم تَرَ إلاَّ الْفَضَاءَ وسَعَةَ الْجَمَالِ؛ وهو الرَّيْحَانُ، ثمَّ تَدْخُلُ الجَنَّة، فَتَتَنَعَّمُ فِيهَا بأنواعِ الخَيْرَاتِ، وَلاَ تُحْصَرُ فِي الجَنَّةِ، بَلْ تَذْهَبُ حَيْث شَاءَتْ، وَفِي بَعْضِ الأثرِ، إذَا مَاتَ العارِفُ: قِيلَ لِرُوحِهِ: اِذْهَبْ حَيْث شِئْتَ. وقيل للرّوح: الاسْتِرَاحة من تَعَبِ

---

(١) هو الشيخ أحمد بن علي بن يوسف البوني المتوفي سنة ٦٢٢ هجرية.

الدُّنيَا وأهْوَالِهَا، والرَّيْحَان: الرزق الَّذي يليق بِحَالِهَا، فإنَّ رُوحَ الشهداءِ، تأكل من ثِمَارِ الجَنَّةِ، وتَشْرَبُ مِن أنهَارِهَا، وَرُوح الصدِّيقينَ تأكُلُ من ثمارِ المعارف، وتشرب من نَسِيمِ لذَّة الشهودِ والمعَاينَة.

وقال التِّرمِذي: الرَّوْحُ الرَّاحَة فِي القَبْرِ، والرَّيْحَان دُخُول الجنَّةِ. وقال بَسَّام بن عبد اللَّهِ: الرَّوْحُ السَّلاَمَةُ. والرَّيْحانُ الكرامة. وقال سَعْدُ: الرَّوْحُ معانقة الأبكار. والرَّيحانُ مُرَافقة الأبْرَارِ.

فالمُقَرَّبُونَ يَتَنَعَّمُونَ بِنِكَاح الأبْكَارِ، ويَجْرِي عَلَيْهم رزقهم قبل قيام السَّاعة؛ لظَاهِرِ الآيَة. وقال الخرَّاز: الرَّوْحُ كشف الغِطاءِ. والرَّيحان الرُّؤية واللقاء. وقيل الرَّوْحُ: الرأفَةُ، والرَّيحانُ: النَّجَاة من الآفَةِ. وقيل الرَّوْحُ: المَوْتُ على الشَّهَادَةِ. والريحانُ: بَذْءُ السَّعادة. وقيل الرَّوْحُ: كشف الكُرُوبِ. والرَّيحانُ: غُفْرَان الذُّنُوبِ. وقيل الرَّوحُ: الثبات على الإيمانِ. والرَّيحانُ: نَيْل الأمْنِ والأَمَان. وقيل الرَّوْحُ: فَضْلُهُ. والرنحانُ: وَصْلُهُ. وقيل الرَّوْحُ: عفْوٌ بِلاَ عِتَابٍ، والريحانُ: رزق بِلاَ حِسَابٍ، وقيل الرَّوحُ للسابقين، والرَّيحان للمقتصدينَ، والجنَّة للظالمينَ. وقيل الرَّوحُ لأزوَاحِهِمْ. والرَّيحانُ لِقُلُوبِهم، والجنَّة لأبْدَانِهِمْ، والحقُّ لأسْرَارِهِمْ.

والمُقَرَّبُونَ: هم السابقونَ. والسَّابقون: هُمْ أهْل الْهِمَمِ العالية؛ الَّذِين سَبَقَتْ أرْوَاحهم إلى الحضرة القُدْسِية؛ وهم أهْل الفَنَاءِ والبَقَاءِ. فالمَوْتُ فِي حَقِّ هٰؤُلاَءِ، انتقال مِنْ وَطَنٍ إلى وَطَنٍ، ومن دَارٍ إلى دَارٍ، وفي ذلك يقول الغزالي، بَعْدَ مَوْتِهِ، وُجِدَتْ تحتَ عمَامَتِهِ:

لاَ تَظُنُّوا الْمَوْتَ مَوْتٌ إنَّهُ ... لَحَيَاةٌ وَهْوَ غَايَةُ الْمُنَى
لاَ تُرَوِّعكُمْ هَجْمَةَ المَوْتِ فَمَا ... هُوَ إلاَّ انْتِقَالٌ مِنْ هُنَا
فَاْخلَعُوا الأجْسَادَ مِنْ أنْفُسِكُمْ ... تُبْصِرُوا الحقَّ عِيَاناً بَيِّنَا

وإلى آخِرِ قَصِيدتِهِ. وأمَّا إن كَانَ مِن أصْحَابِ اليَمِين، فَتَصْعَد المَلاَئِكَة بِرُوحِهِ مَا تَقَدَّمَ، ثم ترجع للسؤال، فإن سُئلتْ انتقَلَتْ بأهْلِهَا في عَالَم البَرْزَخِ، فَيُسَلِّمُونَ عَلَيْهَا، ويَسْألُونَهَا عن أحْوَالِ الأحْيَاءِ، ثمَّ تَبْقَىٰ مَحْصُورَةً فِي عَالَم البَرْزخِ إلى يَوْمِ البَعْثِ، بخلاف أرْوَاحِ المُقَرَّبِينَ، فإنَّها مطلقة تذهَبُ حَيْثُ

تَشَاءُ، وتَتَصرّف تَصَرُّف الأحْيَاءِ. والـمُرَاد بأصْحَابِ اليمين: أهْل الدَّليل والبُرْهَان، الذين حَصَرَتْهُمُ الأكْوَان. ولم يُفْضوا إلى فَضَاءِ الشهودِ والعِيَانِ، سواء كانُوا عُلَمَاء أوْ صَالِحينَ، أوْ عُبَّادَ أوْ زُهّاد.

والحاصِلُ: أنَّ مَنْ خَرَجَتْ فِكْرَتُهُ عَنِ الأكْوَانِ، واتَّصَلَتْ بِشُهُودِ المُكَوِّنِ؛ فهو مِنَ المقَرَّبِينَ، ومن بَقِيَتْ مسجونة فِي الأكْوَانِ، لم تُفْتَحْ لها مَيَادِين الغُيُوب؛ فهو مِنْ أهْلِ اليَمِينِ، وبالله التَّوفيق. وبقي عندهم من الأمراض العادية، عندهم الجذامُ؛ وهو قليل في قطرنا هٰذَا، فلا نتكَلَّمُ عليه والسَّلامُ.

البَابُ الْخَامِسُ:
فِي اكْتِسَابِ الْيَقِينِ، وَذِكْرِ مَوَادِّهِ وَمَوَاطِنِهِ

اليَقِينُ: هو سكونُ القَلْب واطْمئنانُهُ بِزَوَالِ التَّوَدُّدِ والاضطرابِ، من قولهم: يَقِنَ الماء في الحَوْضِ، إذا سكن واسْتَقَرَّ فِيهِ. ثم يتفاوتُ اليقين بِتَفاوُتِ مَوَادِّهِ وأنواره، فإذَا سكَنَ إلى الله تَعَالىٰ سكوناً تامًّا، لَكِنَّهُ مِن وَرَاءِ حِجَاب الأكْوَانِ، يسْتدلّ بالأثَرِ على المُؤَثِّرِ، سُمِّيَ هٰذَا المقام، علم اليقين. ومَوَادّه التَّفَكُّرُ والاعتبار، فكلما قَوِي التفكُّر والاعْتِبار، قَوِيَ نُورُ الْيَقِينِ، فإذا نَظَرَ إلى هذه المَصْنوعاتِ العلوية والسُّفلية، وتفكَّرَ في عجائب صُنْعِهَا، واختلاف أشخاصها وأنْوَارهَا؛ وتعَدُّد أفرادِهَا، وكُلُّهَا فِي قَبْضَتِهِ تَعَالَىٰ، وتَحت قُدْرَتِهِ وإرَادَتِهِ، أحَاطَ بِهَا عِلْماً، وسمعاً وبصراً، لا يَعْزُبُ عنه مثقال ذرّة فِي الأرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ، عَلِمَ عِلْمَ يَقِينٍ عظمة خَالِقِهَا، وبَاهِرَ قُدْرَتِهِ، وسِعَة عِلْمِهِ، فإذا تَعَطَّشَتْ الرُّوح إلى مَعْرِفَة ذَاتِهِ، واشتاقَتْ إلى الْوُصُول إلى حَضْرَتِهِ، رزقَهَا الحقُّ تَعَالىٰ الإنَابَة إلَيْهِ، فأوحَشَهَا مِنْ خَلْقِهِ، وأنَّسَهَا بِهِ، وأشْغَلَها بذكره، وقيَّض لها وليًّا مِنْ أوْلِيَائِهِ، فلا يَزَال يسيرُ بِهَا مِنْ مَرْحلٍ إلى مرحلٍ، مِنْ مَنْهَلٍ إلَى مَنْهَلٍ، حَتَّى يَقُولَ لَهَا: هَا أنتَ وَرَبُّكَ، ذلِكَ حتَّى تنقشع ظُلْمَة الأكْوَانِ عَنِ الْقَلْبِ، فَيُشَاهِد أنْوَارَ الْغَيْبِ حَاضِرَةً، وأسْرَار الذَّاتِ لائِحَةً، فَيَغرقُ فِي الأنْوَارِ، ويَغِيبُ عَن شُهُودِ الآثَارِ، ويُسمَّى هٰذَا الْمَقَامُ، عَيْنَ الْيَقِينِ، وهو مقام الفناءِ ومَوَادُّهُ: الذِّكْرُ الْقَلْبِي، وجَوَلاَن الفِكْرَة فِي مَيَادِين الغيُوبِ، مع دَوَام صُحْبَةِ الْعَارِفينَ، وخِدْمَةِ الْوَاصِلِينَ، وإذَا تَمَكَّنَ مِن شُهُودِ الأنْوَارِ، ورجَعَ إلى شُهُودِ الآثَارِ يَرَاهَا

قَائِمَةً بِالله، لاَ وجودَ لَهَا مَع الله، سُمِّيَ هٰذَا الْمَقَامُ حَقُّ اليقينِ. ومَوَادُهُ: الْفِكْرَة والنَّظْرَة، ولُزُوم الصُّحْبَةِ والخِدْمَةِ.

ولم يَبْقَ بَعْدَ هٰذَا، إلاّ التَّرَقِّي فِي الْمَعْرِفةِ أَبَداً سَرْمَداً فِي هٰذِهِ الدَّار، وَفِي تِلْك الدَّار، إذْ عظَمَةُ الحقّ لاَ نِهَايَة لَهَا، فالترقِّي لاَ نِهَايَة لَهُ. وقد تَكَلَّم أَبُو الْقَاسِم القشيري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَلَىٰ هٰذِهِ الْمَقَامَات الثلاث؛ أَعْنِي عِلْم اليَقِين، وعَيْن الْيَقِين، وحقّ، الْيَقِين.

فقال: «عِلْمُ اليقينِ ما كَانَ بِشَرْطِ البُرْهَان. وعَيْنُ اليقين مَا كَان بِحُكْم الْبَيَانِ. وحقُّ اليقين مَا كَانَ بِنَعْتِ البَيَانِ، فَعِلْمُ اليقين لأربابِ العُقُولِ. وعَيْنُ اليَقِين لأرْبَابِ العُلُومِ. وحقُّ اليقينِ: لأصحاب المعارفِ». وأحْسنُ مِنْهُ، ما قال أَبُو سَعِيدِ الفَرْغانِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «اليقينُ: هُوَ سُكُون الْقَلْبِ واسْتِقْرَارهُ، فإِذَا أُضيف هٰذَا السكون إلى النَّفْس والْعَقْلِ بِنَاءً عَلَىٰ حجَّةٍ ودَلِيلٍ يدلهما عَلَى الأَمْرِ المطلوبِ، سُمِّي علم اليقين، وإذا أُضيفَ إلى الرُّوح الرُّوحانية، بطريق زوال الحُجُب الحَائِلَة بَيْنَهَا وبَيْن ذلِكَ الأمْر المطلوبِ، فَتُعَايِنُهُ وتُشَاهِدهُ كَما هُو في مَعْدنِهِ، يُقَال لَهُ: عَيْنُ اليَقِين. وإذا أُضيف ذلِكَ السكون إلى السِّرّ، يُسَمَّىٰ حقّ اليقين». انتهى مختصراً.

ومثال ذلِكَ في الشَّاهد: عِلْمُنَا بِوُجُود مكّة مثلاً، فَمَا دَامَ الإنْسَان لَمْ يَصل إلَيْهَا، عِنْدَهُ مِنْهَا عِلْمُ اليقين، فإذا اسْتشرفَ عَلَيْهَا وَرَآهَا، حَصَلَ لَهُ عَيْن اليقين، فإذا دَخَلَهَا، وعَرَفَ طُرُقَها حَصَلَ لَهُ حقُّ اليقين، وكَذٰلِكَ مَعْرِفَة الذَّاتِ العالية، فما دَامَ العَبْدُ مؤمناً بالغَيْبِ، يشاهد الأكْوَان، ويستدلّ بها على المُكَوّنِ، فهذا العلمُ الَّذِي عِنْده بالله، يُسَمَّى علم اليقين، فإذا انقطع إلى الله، واتَّصل بشيخ التربية، فسار بِهِ حتَّى غَيَّبَهُ عَن شُهُودِ الأكْوَانِ، بشهودِ المُكَوّنِ، بِحيْث فَاضَتْ أنوار المعانِي عَلَيْهِ، فغَيَّبَتْهُ عَنْ شُهُودِ الأوَانِي، فَهٰذَا يُسَمَّىٰ عَيْنُ اليقين، فإذَا تَمَكَّنَ مِنَ الشُّهُودِ، ورسَخَ قَدمه في شهودِ المَلِك المَعْبُودِ، فَرأَى المَعَانِي قائِمَة بالأوَانِي، فَهٰذَا يُسَمَّى حقُّ اليقين، وإلى هذه المقاماتِ الثلاثِ، أشَارَ ابْنُ عطاءِ اللَّه في الحِكَم بِقَوْلِهِ: «شُعَاعُ الْبَصِيرَةِ يُشْهِدُكَ قربَ الحَقّ مِنْك، وعَيْن البصيرةِ يُشْهِدكَ عَدَمَكَ لِوُجُودِهِ، وحقُّ الْبَصِيرة، يُشهدك وجود الحق لاَ عَدَمَكَ، وَلاَ

وُجودكَ، كَانَ الله وَلاَ شَيْء مَعَهُ، وهُوَ الآن عَلَىٰ مَا عَلَيْه كَان».

وهذه المَقَامات الثلاث: أعْنِي عِلْمَ اليقينِ، وعيْن اليقين، وحقّ اليقين، تَجْرِي في كل ما يُطْلَبُ فِيهِ تَرْبِيَة اليقين، كَضَمَانِ الرِّزقِ، وعَدم الخَوْفِ مِن الخَلْقِ، وتَحْدِيد الأجَل، وجَرَيان مَواقِع القَدَرِ، كَالْبَعْثِ وَمَا بَعْدَهُ، فأمَّا ضَمَانُ الرِّزقِ، فيحصل فيه علم اليقين، بالتفكُّرِ في الآيات الّتِي وَرَدَتْ فِيه، فكثيرة في كَلاَم الله فِي شَأنِه، وكالأحاديث التي وَرَدَتْ عن الصادقِ المَصْدُوقِ فِي ضَمَانِهِ.

فأمَّا الآيَاتُ الّتِي وَرَدَتْ، فَكَثِيرَةٌ جِدًا، قَالَ تَعالَىٰ: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝﴾ [هود: ٦]. وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢]. وقَالَ تَعالَىٰ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝﴾. وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾[الروم: ٤٠]. فوسطه بَيْن الخلق والإماتة. فَكَمَا لاَ تَشكُّ أنَّ الله الّذِي خَلَقَكَ؛ وهو الّذِي يميتكَ، ثم يحييكَ، فكَمَا لاَ تَشُكُّ أنَّ الله يَرْزقكَ، إذ كلها سَوَاء. وقَالَ تَعالَىٰ: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر: ٣]. وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ [غافر: ٦٤] وقَالَ تَعالَىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦]. وقَالَ تَعالَىٰ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٤]. وأمَّا الأحَادِيثُ النَّبوِيّةُ، فَقَدْ قَالَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**لَوْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَىٰ الله حَقَّ تَوكُّلِهِ، لَرُزِقْتُمْ كَمَا تُرزَقُ الطَّيرُ، تَغدُو خِمَاصاً، وتَرُوحُ بِطَاناً**». وقال ﷺ: «**إنَّ رُوحَ القُدُسِ نفثَ فِي روعي، أنَّ نَفساً لَنْ تَمُوتَ، حتَّى تَسْتكْمِلَ رِزْقَهَا، فاتّقُوا الله، وأجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ**». وقال ﷺ: «**إنَّ الرِّزقَ يطلبُ الرَّجُلَ، كما يطلبهُ أجلُهُ**». إلَى غَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ الأحَادِيث الّتي لَمْ نستحضِرْها. وأمَّا قوله عليه السَّلامُ: «**إنَّ الله تَكَفَّلَ بِرزقِ طَالِبِ عِلْمٍ**». فَالْمُرَاد بِهِ تَكَفّلٌ خاصٌّ؛ وهو إتيانُهُ بِغَيْرِ سَبَبٍ، وَلاَ تَعَبٍ، وأنَّ الله قَدْ تَكَفَّلَ بِرزْقِ جَمِيع عِبَادِهِ، لكنّه سُبْحَانَهُ سَتَرَ ذٰلِكَ بِرِدَاءِ الحِكْمَةِ؛ وهو

وجود الأسْباب الْعَادِية.

وَمَنِ اشْتَغَلَ بِطَلَبِ الْعِلْم النَّافِع مُخْلِصاً فِيهِ، أتَاهُ رِزْقُهُ مِنْ غَيْرِ سَبَبٍ، وإنَّمَا سَتَرَ الحقّ سُبْحَانَهُ هٰذَا الضَّمَان بِرِدَاءِ الحِكْمَةِ؛ وَهُوَ وُجُود الأسْبَابِ؛ لأنَّ إبْرَازَ الرِّزْقِ، مِنْ عَيْن المِنَّةِ ظَاهِراً من غَيْرِ سَبَبٍ كَشْفٌ لأسْرَارِ الرُّبُوبية، وهَتْكٌ لأسْتَارِ عظَمة الألوهية. في هذه الدَّار التي هِيَ دَارُ التكليفِ، لا دار التعريفِ لِتَظْهَر مَزِيَّةُ الإيمَانِ بِٱلْغَيْبِ، فَلاَ بُدَّ مِن رِدَاءِ الحِكْمَة أن يُنْشَرَ عَلَىٰ تَصَرّف القُدْرةِ، فَيَبْقَىٰ السِّرُّ مَصُوناً، والكَنْزُ مَدْفُوناً، فإذَا كَانَ يَوْم الْقِيَامَة، ظَهَرَتِ القُدْرَة، وبطنتِ الحِكْمَة، فَظَهَرتِ الأسْرَارُ بَادِية الأنْوَارِ، فَتَبْرُز حِينَئِذٍ الأرْزَاقُ مِنْ عَيْنِ المِنَّةِ، بَادِية ظَاهِرَةً مِن غَيْر رِدَاءٍ وَلاَ سِتْرٍ؛ لأنَّها دَارُ التعريفِ، لا دار التكليفِ، فحينئذٍ تَظْهر ثَمَرَة الإيمانِ، ويتميَّزُ الرِّبْحُ مِن الْخُسْرَانِ، باعْتِبَار مَا غَرَسُوا هُنَا.

فَعِلْمُ الْعَبْدِ بهٰذَا الضَّمَان، مِنَ الآيات التي قَدَّمْنَا، والأحاديث النَّبوية، يُسَمَّى عِلْم اليقين، فإذا أرَاد تحصيلَ عَيْنِ اليقين، فَلْيَنْقَطِعْ إلى الله انقطاعاً كُلِّيًا، ويَتَجَرَّد عَنِ الأسْبَاب قلْباً وقَالباً، فإنَّ الله يأتيه برِزقِهِ مِنْ غَيْرِ سَبَبٍ؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا . .﴾ [الطلاق: ٤]. وقَوْلُهُ عليه السَّلامُ: **«مَنِ انْقَطَعَ إلى الله، كَفَاهُ الله تَعَالَىٰ كُلَّ مَؤُونَةٍ، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيث لاَ يَحْتَسِبُ، ولْيَسْكُنْ تَحتَ قَهْرِيةِ الْفَاقَةِ، حتَّى يذوق أسْرَارها، ويحصل له علم ضروري»**[1]. إنَّ الله يرزق بالسَّبَبِ، وبِلاَ سَبَبٍ، فإذَا رسَخَ فيه هٰذَا الْعِلْمُ، ولَمْ يَبْق فِيهِ خَصْمٌ وَلاَ وَهْمٌ، سُمِّيَ ذٰلِكَ حقّ اليقين.

وأمَّا عَدَمُ الْخَوْفِ مِنَ الخَلْقِ، فيحصل فيه علم اليقين، في التفكُّر في الآيات الدَّالة على توحيد الأفعَالِ، وأنَّهُ لاَ فَاعِلَ إلاَّ الله، كقولِهِ تَعَالىٰ: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢]. وكَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة:

---

(١) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

١٥٣]. وكَقَوْلِهِ تَعَالى حِكاية عَنْ سيِّدنا إبْرَاهِيم: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا﴾ [الإنعام: ٨٠]. وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾ [الأعراف: ١٩٥] قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: ١١٢]. وقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ [القصص: ٦٨]. وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝﴾ [الصافات: ٩٦].

وفي الحديث عنه ﷺ، قال لابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **«واعْلَمْ أنَّهُ لَوِ اجْتَمَعَ الْخَلْقُ على أن يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَم يُقَدِّرْهُ الله عَلَيكَ، لَمْ يَقْدِرُوا عَلَىٰ ذٰلِكَ، جُفَّتِ الأقلامُ، وطُوِيت الصحف»**[1] إلى آخر الحديث المشهور، فإذا أرَاد تَحْصِيل عَيْن اليَقِين، فليورد مواطِن الحُتُوفِ والأماكن التي يخاف بها النَّاس من غَيْر تقرير. حتى يكتسب عَيْن اليقين. فإذا دَامَ عَلَىٰ هٰذَا الْعَمَل، تمَكَّنَ فِيهِ حَقُّ اليقين. وتحقق حينئذٍ ذوقاً وكشفاً، ألاَّ فَاعِلَ إلاَّ الله، وَلاَ فَاعِل سِوَاهُ، ثم إذا وجد من يسير به إلى الله، حَصَلَ له توحيد الذَّاتِ، وأنَّهُ لاَ مَوْجُود إلاَّ الله، وهو النِّهاية. قال تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝﴾. [نجم: ٤٢]

وأمَّا تَحْدِيدُ الأجَلِ، وجَرَيَانُ مَوَاقِعِ الْقَدَرِ؛ فَقَد تَقَدَّمَتِ الآيات الدَّالة على ذٰلِكَ. فإذَا تأمَّلَ فِيهَا مُفرِغاً قَلْبَهُ، وحَصَلَ لَهُ عِلْمُ اليقينِ، فإذا أرَادَ تحصيل عَيْن الْيَقِين، فَلْيَرِدْ أيضاً مواضِعَ الْخَوْفِ، ومواطن الْحُتُوفِ؛ كَبَلد الْوَبَاءِ، إن كَانَ له يقينٌ فِي التوحيد، أو الصَّبْر في بَلَدِهِ، حتى يحصل له عيْنُ اليقين. إنَّ الأجل مَحْدُود، وقد يحصل عَيْن اليقين، بالنَّظَرِ لِمَنْ فَعَلَ ذٰلِكَ، وبَاشَر الحتوفَ، وسَكَنَ مواطِنَ الهلكةِ؛ وهو سَالِمٌ. فإذا دَامَ فِي مواطِنِ الخَوْفِ، حتى تمكَّنَ مِنْ قَلْبِهِ العِلْمُ اليَقِينيّ، حَصَلَ له حق اليقين.

وأمَّا الْبَعْثُ وَمَا بَعْدَهُ، فأمْرٌ شَهِيرٌ، وآياته فِي القُرْآن كثيرة جدًّا، وجُلُّ النَّاس حَصَلَ لهم فيه عِلْمُ الْيَقِين، وَلاَ يَحْصَل عَيْن اليقين، وحقّ اليقينِ، حتى تقوم السَّاعة، ويراها النَّاسُ عِيَاناً، فحينئذٍ يحصل لَهُمْ عَيْن اليقينِ، وحقّ اليَقينِ، نَعَمْ، قد تَتَوارَدُ الأنْوَارُ عَلَىٰ الْقَلْبِ فَيَصِير الغَيْبُ فِي مَعَدِّ العِيانِ، والأجَلُ فِي

---

(١) روى نحوه الطبراني في المعجم الكبير، حديث رقم (١٢٩٨٨) والترمذي في سننه حديث رقم (٢٥١٦) [٤/٦٦٧] وروى نحوه وغيرهما.

مَعَدّ الْعَاجِلِ. وكُلُّ آتٍ قريبٌ، وانظرهُ إلى قولِ حَارثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كأنّي أنظر إِلَى أهْلِ الجنَّةِ يَتَزَاورُونَ بَيْنَهُمْ، وكأنّي أنظُرُ إلى أهْلِ النَّارِ يَتَعَاوَوْنَ فِيهَا»[1] الحديث أو كما قال ذلك رضي الله عنه، فانْظرهُ كَيْف جَعَلَ الآتي وَاقِعاً، والغائِبَ شَاهِداً؛ ولذلكَ قال ﷺ: «الْزَمْ قَدْ عَرَفْتَ عَبْداً دَخَلَ نُور الله قَلْبَهُ»[2] أو كما قال عليه السَّلامُ.

وطريق اكتساب اليقين، هو صُحْبَة أهْل اليقين، والله ما أفْلَحَ مَنْ أفْلَحَ، إلاَّ بِصُحْبَةِ مَنْ أفْلَحَ، ومن تحقق بِحَالة، لا يَخْلُو حَاضِرُوه مِنْهَا. وَفِي بَعْضِ الأحَادِيث: «تَعَلَّمُوا الْيَقِين، فإنِّي أتَعَلَّمُهُ»[3]. وفي بَعْضِ رِواية أُخْرَىٰ: «تَعَلَّمُوا الْيَقِين بِمُجَالَسَةِ أهْلِ الْيَقِينِ»[4]. وقال بَعْضُ الْعَارِفين: «إنَّ لله رِجَالاً إذَا نَظَرُوا أغْنُوا» وكَانَ الشَّيْخ الشاذِلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ فِي شَأنِ تِلمِيذِهِ أبي العَبَّاس الْمُرْسِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «نِعْمَ الرَّجُلُ أبُو الْعَبَّاس، يأتِيهِ الرَّجل الْبَدَوِيُّ يَبُولُ عَلَىٰ سَاقِهِ، فَلاَ يُمْسِي إلاَّ وَهُوَ وَلِي مِنْ أوْلِيَاءِ الله». وقال أبو العَبّاس المُرْسِي نَفْسه: «والله ما بَيْنِي وَبَيْنَ الرَّجُلِ، إلاَّ أنْ أنْظُرَ إليه، وقَدْ أغْنَيْتُهُ». قُلْتُ: وَكُلّ زمَان له رِجَالٌ يغْنُونَ بالنَّظَرِ، وقد أدْرَكْنَاهُمْ والحمد للّهِ، وصحبْناهُمْ، أظهرهُمُ الله ظُهُورَ نَارِ الْقِرَىٰ عَلَىٰ عَلَمٍ، بل ظهور الشَّمْسِ في أُفُقِ السَّمَاء، لكن لاَ بُدَّ للشَّمْس من سَحَابٍ، وللحَسْنَاءِ من نِقَابٍ:

وَكَمْ مِنْ عَائِبٍ لَيْلَىٰ وَلَمْ يَرَ وَجْهَهَا فَقَالَتْ لَهُ الْحِرْمَانُ حَسْبُكَ مَا فَاتَ

---

(١) و(٢) رواه ابن رجب الحنبلي في التخويف من النار، فصل أحوال بعض الخائفين. . ، [١/ ٣٢] والحكيم الترمذي في نوادر الأصول في أحاديث الرسول [١/ ١٤٥] ورواه غيرهما.

(٣) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء، عن ثور بن يزيد، [٦/ ٩٥] ورواه علي بن الحسن الشافعي في تاريخ مدينة دمشق، كتاب الوزاء [١٦/ ١٩٨] ونصه: «تعلموا اليقين كما تعلموا القرآن حتى تعرفوه فإني أتعلمه».

(٤) هذا الأثر لم أجده بلفظه فيما لدي من مصادر ومراجع.

شرح بعض مقتطفات
الشيخ علي الششتري

لسيدي أحمد بن عجيبة
رضي الله عنه

ضبطها وصححها وعلق عليها

الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي

الحسيني الشاذلي الدرقاوي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سُبْحَانَ مَنِ اخْتُصَّ بِالْحَمْدِ والثَنَاءِ مِنَ الْعِبَادِ. وَتَقَدَّسَ ذَاتاً وَصِفَاتاً عَنِ الشُرَكَاءِ والنُظَرَاءِ والحلول والاتحادِ. خَصَّ أقواماً بِكَمال المحبّة والوداد. فَهُمْ بَيْنَ سَالِكٍ ومَجذُوب، ومُحِبّ ومحبُوبٍ. لاَ يطرق سَاحَة قلوبهم الأغْيَارَ والأنْكَار.

واخْتصَّ أقْواماً بِغَايَة الخِدْمَةِ والاجْتِهَادِ فَهُمْ بَيْنَ عُبَّادٍ وَزُهَّادٍ، وَبُدَلاَء وَنُجَبَاء. صَالحينَ وَأوتاد، يقومُونَ فِي دَيَاجِي اللّيْلِ بِمُنَاجَاةِ الحبِيبِ. والتعلقِ بَيْنَ يدي القريب المجيبِ. وإذا همّ عليهم نسِيم الأسْحَار. فَاضَتْ أعْينهم بَالبُكَاءِ والنَّحِيبِ. فكُلّ هؤلاَءِ كَانَ سَعْيهم مَشْكوراً. ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ٢٠﴾. [الإسراء: ٢٠] نَحْمَدُهُ تَعالَى ونشكُرُهُ حمْداً وَشُكْراً يَقْضِيَانِ بتوالي الإمْدَادِ. ويعطفانِ على قَائلهما بالتعرفِ والودَادِ.

ونُصَلّي وَنُسلم على مَنْبع الأَنوارِ. ومَعْدِن المعارف والأَسْرَارِ سيّد الوجود، ومنبت الكرم والجود. سيدنا ومَوْلاَنَا أفضل كل حامدٍ ومحمُود. ورضِي اللّه تعالى عَنْ أصحابه الأبْرَارِ. وأهْل بَيْتِهِ الأطْهَارِ.

أمَّا بعد: كل شيء قبله وبعده. فعلم الباطنِ عِلْمٌ كبيرٌ. وفَضْله مِنَ الكتاب والسنة شهيرٌ بَذْل المهج والأرواح في نيله نَزْر يسيرٌ وركوب بَحْره الهائل أمر خطير. إلا مَن ركبه مع رئيس عارف كبير. عالم بأحوال البَحْر وأهْوَالِهِ. عارف باسْتِخْرَاجِ يواقيته وَلآلئه. إذا تعَاصفت عليه الأمواج والرياحُ. أوَى إلى سفينة السّنّة والأخبار الصحاح. ومَدَار هٰذَا العلم على تربية اليقين وتحقيق شهودِ ربّ العالمينَ. فبدايته مجاهدة. ونهايته مُشاهدة. ومِمّن خَافَ هٰذَا البحر الخطير، وتضلع من ماء عِلْمِهِ الغزير الشيخ الكَامِل المحقق الواصل بحري

زمانه. ورئيس دهره وأَوَانِهِ. أَبُو الحَسَن سيدي علي بن عبد الله النميري الششتوري، الأندلسي الأصل. الرباطي الدَّار. وشُشْتر بشينَيْن مُعْجَمَتَيْن، أَوَّلهما مضمومة، وثانيهما ساكنة، بعدها تاء مضمومة فوقية، هِي قَرْية بالأندلس. وششتر أيْضاً. مدينة بالعراق.

سكَنَ الشيخ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الرِّبَاط. ثم جَالَ فِي البِلاَدِ. فدخَلَ فاس ومكناس، ثم رَحَلَ إلى المشرق فجال في بلادِهَا. وبها توفي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. رُوي أنّهُ لَمَّا وَصَلَ إلَى الشَّام. نَزَل بساحل دمياط؛ وهو مَرِيض، فَنَزَلَ قَرْيَة هُنَاك، على سَاحِل البحر الرّومِي. يضطاد فيها السَّمَكَ. فقال: ما اسْمُ هذه القرية؟ فقيل لهُ: الطينة. فقال: حنَّت الطينة إلى الطينة فَوصَّى أَنْ يُدْفَنَ بمقبرة دمياط. فَحَمله الفقراء على أَعْنَاقِهِمْ، فتوفي بها يوم الثلاثاء تاسع عشر صَفَر، سنة ثمانية وستين وستمائة (١٩ صفر سنة ٦٦٨هـ).

كَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من الأمراء، وأولاد الأمراء. فصار من سادة الفقراء. أخَذَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ طريق التجريد والتخريب، فنال غَاية التفريد والتقريب. رُوي أَنّه لما التقى شيخه ابن سَبْعينَ، وَأَرَادَ أن يَأْخُذَ عَنْهُ: قال له الشيخ: لاَ تَنَالُ من علمنَا هٰذَا حَتّى تُسْقِط جَاهكَ. وَتُفْني مَالَكَ. فَبَاع كُلَّ مَا عِنْدَهُ وتَصَدَّقَ بِهِ. ولبس قشَّابة، وأتى إلى الشيخ، فَقَالَ: خُذْ بِنْدِيراً وادْخل السوق. فقال له: مَا نقول؟ فقال: قُلْ: بَدَأْتُ بِذِكر الحبِيبِ، وهِمْتُ وَعَيْشِي يطيب. وبخت بِسِرٍّ عجِيبْ. لَمَّا دار الكاسْ ما بيْن الجلاسْ. وأحيتهم الأنفاسْ. عنهم زال الباسْ الخ كلامِهِ. هكذا سَمِعْت الحكَاية مِنْ شيخِنَا، وسمعتها أَيْضاً مِنْ غَيْرِه. ممَّن له اغتناء بِكَلاَمِهِ. وَلَمْ أَقف عَلَيْهَا. ولَهُ تَآليف منها: كتاب العرْوَة الوثقى، في بَيَان السّنَن، وإِحْصَاء العلوم. وما يجب على الْمُسْلم أن يَعْلَمَهُ ويَعْتقده إلَى وَفَاتِهِ. ومنه اخْتصر رسالته، التي اختصرها التّجيبي في الإنَالة، ومنها المقاليد الوُجُودية في أَسْرَارِ إِشَارات الصوفية. وله الرسالة القدْسية، في توحيد العَامَّة وَالخَاصَّة، والمراتب الإسلامية، والإِيمَانِية، والإِحْسَانية. وله أَشعار وأزجَال ومقطعات فِي غَايَة النّبل. جمعتْ فِي ديوان كبير. ومنها قصيدته التي أَرَدْنَا الكَلاَمَ عَلَيْهَا. التي أوّلها: صَحَّ عِنْدِي الْخَبَر، وسرى في سري. . . إلى آخرها. وقيل هي لشيخه

عبد الحق بن سَبْعين. لكني رَأَيْته فِي ديوانِهِ من جُمْلة أَشْعَارِهِ. فاللّه أَعْلَمُ. وتوفي شيخه ابن سبعين بعد وَفَاتِهِ بِسَنَةٍ. قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «المقتطفة الأولى».

صَحَّ عِنْدِي الْخَبَرْ.. وسَرَى فِي سِرّي.. إنَّ عَينَ النَّظَرْ.. عَيْنُ عَيْنِ الفِكْرِي...

أَغْمِضْ طَرْفَكَ تَرَى.. وَتلوح أَسْرَارَك.. وَافْنَ عَنِ الْوَرى.. تَبْدُو لَكَ أَخْبَارَكْ...

يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: صَحَّ عِنْدِي الْخَبَر وحققته. وَسَرَى فِي قَلْبِي وروحي وسِرّي حتى ذقته وهو أن عيْن النظر، التي أَمَرَ اللَّهُ باسْتعمالِهَا، والنَّظر بها في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾. [يوسف: ١٠١] وبقوْلِه: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾. [يوسف: ١٠٩] هي عَيْنُ الْقَلْبِ؛ الَّذِي هُوَ مَحَلّ الفكر والاعْتِبَارِ. لا عَيْنَ البَصَر الحِسّي؛ لأَنَّ عَيْنَ الْقَلْبِ؛ وهي عَيْن الفِكْرِ. لاَ تَرَى إلاَّ المَعَانِي الْقَديمة والأنوار القدْسية. وَتُسَمّى البصيرة بِخلاف عَيْن البَصَر الحِسّي، لاَ يَرَى إلاَّ المحسوسات الحديثة المفروقة. فإذا انفتحتِ الْبَصِيرة. وهي عَيْن الفِكْر، اسْتَوْلتْ على الْبَصَرِ الحِسّي. فلاَ يَرى البَصَر حينئذ إلاَّ المَعَانِي التي تراها البصيرة. فيستولي المعْنَى على الحِسّ. والجمعُ على الْفَرْقِ. وتَسْتولِي الرّوحانية على البَشَرية. فتخنس البَشَرية، وَلَمْ يَبْقَ لهَا أَثَرٌ. فَيَغِيبُ الأَثَرُ، وَيَبْقَى المُؤثر. وحِينَئِذٍ يقول صاحب هذا المقام: طَلَعَ النَّهار على الأقمار، وَلاَ بقي إلاَّ رَبِّي. ويقول أَيْضاً:

مُذْ عَرَفْتُ الإِلَـه لَـمْ أَرَ غَيْراً ... وكَذَا الْغَيْرُ عِنْدَنَا مَمْنُوعُ

مُذْ تَجمَّعْتُ مَا خَشِيتُ افْتِراقاً ... فَأَنَا الْيَوْمَ وَاصِلٌ مَجْمُوعُ

ويَقول أَيْضاً:

لَوْ كُلّفت أَنْ أَرَى غَيْرهُ لَمْ أَسْتَطِع. فَإِنَّه لاَ غَيْر مَعهُ حَتَّى أَشهدهُ فمشهد البَصر والبصيرة ضِدّانِ، يحجب أحدهما عَنِ الآخرِ. فَمَن وقَفَ مَعَ المحسوسات التي هِي مَشْهَد البَصَرِ. وَاشْتَغَل بِحِسّيتها. واغْتَرّ بزخرفها، حُجِبَ عَنِ المَعَانِي اللطيفة؛ التي هي مَشْهَد البَصِيرة وَصَارَ مَحْجُوباً عَنِ اللّهِ. واقفاً مَعَ القِشر الظّاهر، لَمْ يَنْفذ إلى اللّبّ الباطنِ. قال الشيخ ابن عطاء الله السكندري

في الحِكَم: «الأكْوَان ظَاهرهَا غرّة. وَبَاطنها عِبْرة. فالنفس تنظر إلى ظَاهر غرّتها. والقلب ينظر إلى باطن عبْرتها» هـ.

وقيل لرسول الله ﷺ: مَنْ أولياء اللّه الّذين لاَ خَوْفَ عَلَيْهم وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ. فقال: «الَّذِين نَظَرُوا إلى بَاطِن الدّنيا، حينَ نَظَرَ النَّاس إلى ظَاهِرها واهتمّوا بَأجَل الدّنيا حينَ اهتمّ النَّاس بِعَاجِلِهَا. فَأَمَاتُوا مِنْهَا مَا خَشَوا أن يميتهُمْ. وتَرَكُوا منها ما علمُوا أَنْ سَيَتْرُكهُمْ. فَمَا عَارضهم مِن نَائلها عارض إلاَّ رَفَضُوهُ، وَلاَ خَادعهم من رفْعتها خَادِعٍ إلاَّ وضَعُوهُ. خلقت الدّنيا في قلوبهم فما يُحَدّدونَهَا. وخربت بيوتهم فَمَا يُعَمِّرُونَهَا. وماتَتْ في صدورهم فما يُحْيُونَهَا. بل يُهَدِّمُونها، فيبنونَ بِهَا آخِرَتَهُمْ. ويبيعونَهَا فيشترون بهَا ما يَبْقَى لَهُمْ. نَظَرُوا إلى أَهْلها صَرْعَى قد حَلَّت بِهِم المَثلاتُ. فَمَا يَرَوْنَ أَمَاناً دُون مَا يَرْجُونَ، وَلاَ خَوْفاً دُونَ مَا يَحِذُرونَ» هـ. ويحتمل أَن يريد بعَيْن النَّظر محلّه أَوْ ذَاتهُ. فيكون المَعْنَى حِينَئِذٍ: صَحَّ عِنْدِي الخَبَر. إنَّ مَحَلَّ النظر، هو محلّ الفكر؛ وذلِكَ لاتّحادِهِمَا عنْدَ الْعَارِفِ؛ لأنَّ مَا كَانَ غيْباً يُدْرِكُ بِالفكر، صَارَ عنده شهادة يُدْرك بالنَّظَرِ. فَصَارَ عيْنُ النظر. هُوَ عَيْن الفِكْرِ. وعيْن الفكر هو عَيْن النَّظر؛ لأنَّ البصيرة إِذَا فتحت، اسْتولتْ على البَصَر فَاتَّحَدَ مدْرَكُهُمَا.

وأما غيْرُ العَارف، ففكرتُهُ فِي المعانِي الغيْبية، ونظرهُ في الأشياءِ الحسّية. قال في الحِكَم: «الفِكرة فِكْرتَانِ: فكرة تصديق وإيمَانٍ. وفِكْرَة شهودِ وعيَانٍ فالأولى لأربابِ التَّصْديقِ والاعْتِبَارِ. والثانية، لأرْبَابِ الشهودِ والاسْتبْصَارِ». هـ.

والحاصل أنه كلما يغمُضُ بصرهُ عَنِ النَّظَرِ إلى الحسّيات الفَانية، تُشْرِقُ عليه أَنْوَار المَعَانِي الباقية. وإليه أَشَار بقوله: إغمض طرفك، ترى وَتَلوح أَسْرَارك. أي أَغْمض طَرْفك عن المحسُوسات الحادثة الفانية، ترى المعاني القديمة الباقية. اغمض طرفك مِن وُجُودكَ الوَهْمِي تلوح أَسْرَارك الحقيقية الأزلية؛ وهي العلم الوهبي. فالحسّ في الحقيقة عَيْن المعْنى. لكنه رداء وحجاب للمعانِي. فإذا تَنَحّى رداءُ الصَّوْنِ عن الكَوْنِ. أَشْرقت أَنْوار القِدَمِ، على صفحَات العَدَمِ. فتلاشَى الحادث، وبقي القديم. وقد أَشَرْت إلى هذا المَعْنَى فِي عيْنيتي فقلْتُ:

تَنَحَّ رِدَاءُ الصَّوْنِ عَنْ كَوْنِ رَبِّنَا فَصِرْنَا إِلَى نُورِ الْحَبِيبِ نُسَارِعُ
فَقَالَ لَنَا أَهْلاً وَسَهْلاً وَمَرْحَباً فَهٰذَا جَمَالِي حَقًّا فِيهِ تَمَتَّعُ

أَوْ نَقُولُ المحسُوسات أَوَانِي، حَامِلة للمَعَانِي، فَإِذَا تَكَسَّرَتِ الأَوَانِي، سقطت المَعَانِي، وفي ذٰلِكَ يقول النَّاظم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

لاَ تَنظر إلى الأوَاني وخض بحرَ المعانِي لَعَلَّكَ تَرَانِي.

وَأَكْبَر الحُجب: النَّظر إلى ظاهر الخَلْق. والغيبة عن المَلِك الحقّ. والاغْتِرَارِ بما هُم فيه. والخَوْف مَعَهُمْ في حِسِّهِمْ الَّذِي هُوَ لعبٌ ولَهْوٌ. فَمَن فَنَى عَنْهُم، وغابَ عَنْ حِسِّهِمْ، لاَحَتْ لَهُ أَنوار وظهَرت له أَسْرار، وإلى ذٰلِكَ أَشَار بِقوله: وافْنَ عَنِ الوَرَى، تَبْدُو لَك أَخْبَارَك. أي افْنَ عَن رُؤْية الوَرَى؛ بِعَيْنه الفَرْقِ. تَبْدو لَكَ أَخْبَارُك أي عُلومك، حَتَّى تَرَاهُمْ بِعَيْنِ الجَمْعِ. وفي هٰذَا المَعْنَى، قال شيخ شيوخِنَا المجذوب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

الخَلْق نُوَّارْ وأَنَا رعِيتْ فِيهِمْ هُمُ الحُجُبُ الأَكْبَر. وَالْمَدْخَلْ فِيهِمْ

وهُمُ الحُجُبُ الأَكْبَرُ لِمَنْ وَقَفَ مَعَ ظَاهِرِهِمْ. والمَدْخَلُ فِيهم، لِمَنْ نَفَذَ إلى شُهُودِ خَالِقِهِمْ فِي ظَاهِرَهِمْ. قال في لطَائف المِنَنِ: فَمَا نُصبت الكَائِنات لتَرَاهَا، ولكِن لتَرَى فيها مَوْلاَهَا. فَمُرَاد الحقّ مِنْكَ أَن تراها بِعَيْن مَن لاَ يَرَاهَا. تَرَاهَا مِنْ حَيْث ظُهُوره فيهَا. وَلاَ تَرَاهَا مِنْ حَيْث كَوْنيَتِّهَا. قال: ولنا فِي هٰذَا المعْنَى: مَا أَثْبَتت لك المعالم إلاَّ لتراهَا بِعَيْن مَنْ لاَ يَرَاهَا.

فَارقَ عَنْهَا رُقى مَنْ لَيْسَ يَرْضَى حَالَةً دُونَ أَن يَرَى مَوْلاَهَا هـ. فَالنَّاظر للكَائِنَاتِ غَيْر شَاهد للحقّ فيها، غَافلٌ. والفَانِي عنْهَا عَبْدٌ بِسَطَوَات الشهود ذاهلٌ. والشَّاهد للحق فيها عَبْد مخصّص كَامِلٌ. وإنما تُرْفع الهِمَّة عَنِ الكَوْنِ مِنْ حيْث كَوْنِيَتّهُ، لاَ مِنْ حَيْث ظُهُور الحقّ فِيهِ فَإِغْضَاءُ الزُّهَاد والعُبّاد وأَهْلُ الإرَادة عَنِ الكَوْنِ؛ لأَنَّهُمْ لَمْ يَشْهَدُوا ظهور الحق فِيهِ. وذلك لِعَدم نُفُوذِهم إليه في كل شَيْءٍ لاَ لعَدم ظهوره فِي كل شَيْءٍ. فَإِنَّهُ ظَاهر فِي كُلّ شيْءٍ. حتَّى إنه ظَهَرَ فيما بِهِ احْتَجَبَ بِلاَ حِجَاب هـ.

وقال الشيخ أَبو الحسَن الشَّاذِلِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي بَعْض كتب اللّهِ المنزّلَة على أَنْبِيَائِهِ: «مَنْ أَطَاعَنِي فِي كُلّ شَيْءٍ، بِهِجْرَانِهِ لكُلّ شَيْءٍ أَطَعْته في كل

شيء، بأَنْ أَتَجلَّى لَهُ دُونَ كل شَيْءٍ، حَتَّى يَرَانِي أَقرب إليه مِن كلّ شَيْءٍ». قال: وهذه طريق أولَى، وهي طريق السَّالكينَ. وطريق أُخْرى كُبْرى: مَنْ أَطَاعَنِي فِي كُلِّ شَيْءٍ، بِإِقباله على كُلِّ شَيْءٍ. لحسْن إِرَادة مَوْلاَه فِي كُلِّ شَيْءٍ، أَطَعْتُهُ فِي كل شَيْءٍ؛ بِأَنْ أَتَجَلَّى لَهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ، حَتَّى يَرَانِي كَأَنِّي كل شيء هـ. قال ابن عطاءِ اللَّهِ فِي لَطَائِفِهِ: وَإِذَا عَرَفْتَ ذٰلِكَ فَاعْلَمْ أَنَّهُمَا وَلِيَّانِ. وَلِيّ يَفْنَى عن كُلِّ شَيْءٍ، فَلاَ يَشْهَد مع الله شيئاً. وَوَلِيّ يَفْنَى فِي كُلّ شيء. فيشهد اللَّهَ في كل شيْءٍ. وَهٰذَا أَتَمُّ: لأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَم يُظهر المملكة إلاَّ حَتَّى يُشْهَدَ فيها. فالكَائِنَات مِرْآة الصفات. فمن غاب عن الكون، غابَ عن شهود الحق فيه هـ. وقال في الحِكم: «مَنْ عَرَفَ اللَّه رَآه في كل شيْءٍ. ومَن فَنَى فيه، غابَ عَن كُلِّ شَيْءٍ. وَمَن أَحبَّه، آثره على كل شيءٍ» هـ.

وفي بَعْضِ الأَثَرِ: «مَا رَأَيْتُ شيئاً، إلاَّ رَأَيْت اللَّهَ فِيهِ». وَلاَ تَحْصُل هذه الرؤية إلاَّ لِمَنْ صَقلت مِرْآة قَلْبِهِ. وتطهَّرَتْ مِنَ الأَغْيَار وحينئذ تَتَجَلَّى فيهِ الْحقائِق والأَسْرَار وإلى ذٰلِكَ أشار بقوله:

وَبِصَقْلِ المِرْآ. . بِهِ تَزُول أغيَارك. . وَتَلُوح لَكَ أَسْرَارْ. .

مِن أغينك تَسْرِي. . والتَفِتْ إِنْ ظَهر. . فِي سَمَاكَ الدُّرِّي.

قلت: المِرْآ بِكَسْرِ الميم، هي المِرآة التي تنطبعُ فيهَا الأشياء عِنْدَ مُقَابَلَتِهَا، إذا صقُلتْ مِن الصَدَا. وكذلكَ عَيْن البصيرة؛ وهي عَيْن الفِكْرِ أَوْ عَيْن القَلْبِ، مثل المِرْآةِ كلما اشتدَّ صقلها وصَفاؤها. اشتدَّ ظهور الأنوار فيهَا. وصقلها يكون بِذِكرِ اللَّهِ بِالْحُضُورِ وانجماع القَلْبِ، والتفرّغ من الاشتغال. وفي الحديث: **«لِكُلِّ شيْءٍ مِصْقَلَةٌ. ومِصْقَلَةُ القلوب ذكر اللَّه»**(١)، وقال ﷺ أيضاً: **«إنَّ القلوبَ تَصْدَى كَمَا يَصْدَى الحَدِيد. وإِنَّ الإيمان يَخْلق كما يَخْلق الثَوْبَ الجَدِيد»**(٢). أيْ يَبْلَى كَمَا يَبْلَى الثوبُ. فَإِذَا صُقِل القَلْبُ مِنَ الأغيَارِ أَشْرَقت فيه شموس

---

(١) هذا الحديث لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

(٢) القسم الأخير من الحديث رواه الديلمي في الفردوس بلفظ: «الإيمان يخلق في جوف أحدكم كما يخلق الثوب الخلق فاسألوا الله عز وجل أن يجدد الإيمان في قلوبكم» حديث رقم (٣٨٧) [١/ ١١٤].

المَعَارف والأنوار. فرغْ قلبك مِنَ الأغْيَار. يُملأ بالمَعَارف والأسْرَار. فَأَسْرَار الذَّات العالية وأَنوار الصفات الأزلية، ظَاهِرة بَادِية. وَمَا مَنَع القلوب أَن تشهد إلاَّ انطباع صور الأكْوَانِ فِي مِرْآتِهَا. فتظلمت القلُوب بالأكْدَارِ. وَفِي الحكم: كَيْفَ يشرق قلْبٌ صُورُ الأكْوَانِ مُنطَبِعَة فِي مِرْآتِهِ. أَمْ كَيْفَ يَرْحَلُ إِلَى اللّهِ وَهُوَ مُكَبَّلٌ بشَهَوَاتِهِ أَمْ كَيْفَ يَطْمَعُ أَن يَدْخُلَ حَضرَة اللّهِ؛ وهُوَ لَمْ يَتَطَهَّرْ مِن جَنَابة غَفلاتِهِ. أَمْ كَيْف يَفْهَم دَقَائقَ الأسْرَارِ؛ وهو لَمْ يَتُبْ مِنْ هفوَاتِهِ هـ. وقال الشاعر:

إنْ تَلاَشَى الكَوْنُ عَنْ عَيْنِ قَلْبِي ... شَاهَدَتْ غَيْبَهُ فِي بَيَانِي

فَاطْرَحِ الكَوْنَ عَنْ عَيْنَاكَ وامْحِ ... نُقْطَة الْغَيْنِ إِنْ أردتَّ تَرَانِي

وهٰذَا مَعْنَى قول النَّاظِم: وبصقل المِرآ ـ أي مِرْآة ـ القَلْبِ بِهِ تزول أغيارك. أيْ بِذٰلِكَ الصَّقل يزول أغيارك. أي مَا يُغَيِّر قَلْبَكَ عَنِ الشُّهُودِ. ويَحُول بيْنَك وبَيْنَ رؤية المَلِك المعبود. جَمْع غِير بِكَسْر الْغَيْن، وغَيْرَ بِفَتْحِهَا وهو ما سِوَى الحقّ. وإِذَا زَالت عَنِ القَلْبِ الأغْيَارُ. أَشْرَقت فيه الأنوار والأسْرَارُ. أَعْنِي أَنْوَار الصفاتِ، وأَسْرَار الذَّاتِ. فَيَرى الوُجُود كله نوراً متصلاً بِأَنْوَارِ الجبَرُوتِ. هُوَ الأول والآخر. والظاهر والباطنُ. وَلاَ يَذُوق هذا إِلاَّ مَنْ مَنَّ اللّهُ عليه بصحبةِ شيخ كاملٍ يُرَقِّيهِ مِنْ ظلمة عَالَمِ الأشباح، إلى أنوار عَالَم الأرواح. أَوْ مِن ظلمة المُلكِ إلى نور الملكوتِ. ومن نُورِ المَلكوتِ إلى أَسْرَار الجبروت. وإلاَّ فَالْغَالِب عليه احتجابه بظلمة الأغْيَارِ. أو وقوفه مع الأنْوَار. وفي الحِكَم: رُبَّمَا وقفتِ القلوب مَعَ الأنْوَار، كما حجبَت النُّفُوسِ بكثائفِ الأغْيَارِ. وقال النَّاظم رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ فِي نونيته:

تَقَيَّدْتَ بِالأَوْهَامِ لَمَّا تَدَاخَلَتْ ... عَلَيْكَ وَنُورُ الْعَقْلِ أَوْرَثكَ السِّجْنَا

وَهِمْتَ بِأَنْوَارٍ فَهِمْنَا أُصُولَهَا ... وَمَنْبَعَهَا مِنْ أَيْنَ كَانَ فَمَا هِمْنَا

وَقَدْ تَحْجُبُ الأَنْوَارُ لِلْعَبْدِ مِثْلَ مَا ... تُبَعِّد مِنْ أَظْلاَمِ نَفْسٍ حَوَتْ ضِغْنَا

واللّه تَعالى أَعْلَم.

وقَوْلُهُ: وتلُوحُ لَكَ الأسْرَار، معطوفة على تزول. أي وبِسَبب صَقْلِ مرْآةِ قَلْبِكَ، تزول عَنكَ الأغْيَار. وتلوح لَكَ الأسرار؛ وهي أَسْرار الذَّاتِ. مُرْتَدية

بِأنوار الصفاتِ. أوْ تقول: تلوح لك أسْرَار الملكوت. فائضة مِنْ بحَارِ الجَبَرُوتِ، جَارية بالقُدْرةِ. مُرْتدية بحجابِ الحِكْمَةِ؛ التي مَدَارها على عَالم المُلْكِ.

فَالمُلكُ مَا ظَهَرَ مِنَ التجلياتِ. والملكوتُ ما بطن مِنْ أسْرَار الذَّاتِ. والْجَبَرُوت مَا سَبَقَ قَبْلَ التجليات. فَإذا ضُمَّت الفروع إلى الأصُول، صار الجميع جبروتاً وَلاَهُوتاً؛ وهذه الأسْرَار مجموعَة فيكَ أَيُّهَا الإنْسَانُ. فَظَاهِركَ مُلْكٌ. وَبَاطنكَ ملكوتٌ. فَإذَا تَلَطَّفَتْ عَوَالِمُكَ، وفَنيت دائرة حسِّكَ، صِرْتَ جَبَرُوتاً. فتكُون تِلْكَ الأسْرَار تَسْرِي مِنْكَ إلَيْكَ. وهٰذَا مَعْنَى قولِهِ: من عُيُونِك تَسْرِي. أَيْ تَسْرِي إلَيْكَ مِنْ عَيْنِي وُجُودِكَ والجمع للتعظيم. وهٰذَا كقوله في بَعْضِ أشْعَارِهِ: مِنِّي عَلَيَّ دَارَتْ كُؤوسِي. وكقولِهِ أَيْضاً:

يَا قَاصِداً عَيْنَ الخَبَرْ ... غِطَاه أَيْنك

الخبر منك والخبر ... والسِّرُّ عِنْدَكْ

اِرْجِع لِذَاتِكَ وَاعْتَبِرْ ... مَا ثَمَّ غَيْرُكْ

وكقوْل صاحب العَيْنية[1]:

نَفْسُكَ تَحْوِي بالحقيقة كُلَّها ... أَشَرْتُ بِجِدِّ القَوْلِ مَا أنا خَادِعُ

وقوله: والتفت إن ظهر في سما قلبك... الخ أي التفت إلى الوجودِ تجده ظاهراً فِي سَمَا قلبك الصَّافِي كَالدُّرِّ؛ لأنَّ القَلْبَ إذَا صَفَا، اتَّسَعَتْ دَائِرَة شُهُودِهِ، فانطبَع فيه الوجود بِأَسْرِهِ مِنْ عَرشِهِ إلَى فرشه. وصَار فيك كَنُقطة مِنْ بَحْرِ ولذلكَ قَالَ بَعْضُهُمْ:

لَوْ كَانَ الْعَرْشُ فِي زَاوِيَة مِنْ زوايَا قَلْبِ العَارف. ما أَحَسَّ بِهِ. وقال آخَر: العرش والكرسي مُنْدَقَّانِ فِي ترسي. وقال صاحب المباحث:

أَلَيْسَ فِيكَ الْعَرْش والكُرْسِيُّ.. والْعَالَمُ الْعُلْوِيّ والسُّفْلِيُّ.. مَا الْكَوْنُ إلاَّ

---

(١) الشيخ عبد الكريم الجيلي المتوفى سنة ٨٠٥ هجرية وقد سبقت الإشارة إليه وإلى عينيته.

رَجُلٌ كَبِيرٌ. . وأَنْتَ كَوْنٌ مِثْلُهُ صَغِيرُ.

قلْتُ: كوْن الكَوْنِ رجلاً كَبِيراً والإنْسَان كَوْناً صغيراً. مَحَلّه مَا لَمْ يَصِرْ عَارِفاً بِاللَّهِ. وَأَمَّا إِذَا كَانَ عَارِفاً؛ فَهُوَ رَجُل كبير، والكوْن رجُل صَغير لاتّسَاع دَائرة شهودِهِ. فتسْرح فِكْرتهُ. حتَّى تَسْتَوْلِي على الوجدِ بأَسْرِهِ. ومِمَّا يُنْسَبُ لابْنِ عبَّاسٍ المرْسِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

يَا تَائهاً فِي مَهْمَهٍ عَنْ سِرِّهِ ... انْظُر تجِدْ فِيكَ الوجود بِأَسْرِهِ
أَنْتَ الكَمَالُ طَرِيقَةً وحقيقَةً ... يَا جَامِعاً سِرَّ الإلَهِ بِأَسْرِهِ

وقال النَّاظم أَيْضاً فِي بَعْضِ أَشْعَارِه:

وأَنْتَ مرآة النَّظَرْ ... قُطْبُ الزَّمَانِ
وَفِيكَ يطْوى ما انتَشَرْ ... مِنَ الأَوَانِي

وَقَال أَيْضاً فِي بَعْضِ أَزْجَالِهِ: إِذَا رَأَيْتَ الوجودْ قَدْ لاَحَ فِي ذَاتِكْ كَذَا وَلاَزم الْجُحُود ذَاكَ صِفَاتكْ وَاضرِبْ بتُرْسِكَ الْعُقُودْ. وأَلْقِ عَصَاتكْ. وَأَشار إلى هٰذَا المَعْنَى بِقَوْلِهِ:

الْفُلْكْ فيكْ يَدُورْ وَيُضِيءْ وَيَلْمَعْ. . والشُّمُوسْ وَالْبُدُور. . فِيكَ تَغِيبْ وتَطْلَعْ. . فَاقْرَأْ مَعْنَى السُّطُورْ. . الَّتِي فِيك اجْمَع. . لاَ تُغَادِرْ سَطَرْ من سطوركْ وَادْرِي. . أَسْرهُ مَعْنَى الْقَمَرْ. . الَّذِي فِيكَ يَسْرِي. .

قُلتُ: الفُلْك شيْء مستدير بِكُرة الأرض عِنْدَ أَهْل التَّنْجِيمِ؛ وهو عِنْدَهم متعدد إلى تَسْعَة أَفْلاَكٍ.

هَلْ هِيَ السماوات أَوْ غَيْرها قوْلاَنِ عِنْدَهُمْ. فيحتمل أَن يُريد بِهِ الحسِّي؛ لأَنَّ العَارِفَ اتّسَعَ عليه الفضاء؛ فلا يَحصرهُ الكَوْن؛ لأن رُوحَانيتَهُ اسْتَوْلَتْ على الوُجُودِ بِأَسْرِهِ. مِنْ عَرْشِهِ إلى فرْشه. فالأَفْلاَكُ تَدُور فِي جَوْفِهِ، بِشَمْسِها وقَمَرِهَا ونجومهَا؛ فهِي تَغِيبُ وَتَطْلَعُ في وسَطِ رُوحانِيتِهِ. وتُضِيءُ وَتَلْمَعُ فِي عَيْن فِكْرَتِهِ. هٰذَا بِاعْتِبَار الرُّوحَانية. وَأَمَّا باعْتِبَارِ البَشَرِية؛ فهي مَحْصُورة بالأَكْوَانِ دَائِرة عَلَيْهَا. قال في الحِكَم: وَسِعَكَ الكَوْن مِنْ حَيْثُ جُثْمَانيتُكَ، وَلَمْ يَسَعْكَ مِنْ حَيْثُ ثُبُوتُ رُوحَانِيتِكَ. وَلاَ يَفْهَم هٰذَا إلاَّ مِنْ غَلَبَتْ رُوحَانيته عَلَى بشريته.

وفي الحِكَم أَيْضاً: الكَائِنُ فِي الكوْنِ؛ وَلَمْ يفْتَح لَهُ مَيَادِين الغيُوب، مَسْجُون بِمُحِيطاتِهِ. مَحْصُور فِي هَيْكَل ذَاتِهِ هـ. فيكُون حينئذ مِنْ أَهْلِ الدَّلِيل والبُرْهان، يسْتدل بوجودِهِ على وجودِ خَالِقِهِ. قال تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾. [الذاريات: ٢١] وإِلَى هٰذَا القِسْم أَشَارَ بِقَوْلِهِ: فاقرأ مغنى السّطور التي فيك أَجْمع. وَهُوَ ما سَطَّرَتْهُ القُدْرةُ فِي ظَاهِرِ البَشَرِية، مِن تَسْوِيَةِ الأَعْضَاءِ، وحُسْن التقويم. فَقَدِ انْطَوَى فِي هذه البشرية الحِسّية ما وُجد في الوجود الحِسّي، مِن العَرْش إلى الفرش. والرَّأس كَالعَرْشِ. والصَّدْرُ كالكُرْسِي والأمْعَاء كالأَفْلاَكِ. والعظام كالجِبَالِ. واللَّحْم كَالتُّرَابِ. والشَّعَر كَالشَجَر. والقمل كَالدَّوَابِّ. والعروق التي تجري فيها الدَّم، كالعيُون والأنْهار. فَسُبْحَان الوَاحد القهَّار. فَتَحَصَّلَ من هٰذَا أَنَّ الرّوحَ إذا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْها، وَرَجَعَتْ إلى أَصْلِهَا، اسْتَوْلَتْ على الوجودِ بِأَسْرِهِ. فتكُون الأفْلاَكُ تدُور في بَاطِنِهَا. وإليه أَشار بِقَوْلِهِ:

الفلك فيكَ يَدُور إلى آخِرِ البَيْت. وَإِنْ لَمْ يُفْتَحْ عَلَيْهَا، وَبَقِيَتْ مَحْصُورة في هَيْكَلِ ذَاتِهَا اسْتَدَلَّتْ بِحُسْنِ صُورَتِهَا على وُجُودِ خَالِقِهَا. كما يستدلُّ القارِىءُ بِالرّسم على المَعَانِي والفُهُوم. وإليه أَشار بقَوْلِهِ: فَاقْرَإِ السُّطُورْ، التي فيك أَجْمع لا تغادر. . . أي لاَ تترك سطراً واحداً من سُطُورِكَ الَّتِي سَطَّرَتْهَا فِيكَ الْقُدْرة الأزلية. والحِكْمة الباقية. وَاذرِ حِينَئِذٍ مَعْنَى قَمَرِ التَّوْحِيدِ؛ الَّذِي نُورُهُ يَسْرِي فِي قَلْبِكَ. فَتَهْتَدِي بِهِ إلى مَعرفَة رَبِّكَ. فَإِذا مَنَّ اللَّهُ عَلَيْكَ بِصُحْبَةِ عَارِفٍ. أَخْرَجَكَ مِنْ سجْن نفسكَ إلى فَضَاءِ شُهُودِ رَبِّكَ. فتكون مِنْ أَهْلِ القسم الأَوَّلِ؛ الَّذِين تَدُور الأفلاَكُ فِي وَسَطِ رُوحَانيتهم، وتطلع الشَّمْس والقمر والنجوم، وتغيب في جَوْفِ فِكْرَتِهِمْ. فَبَدَأَ النَّاظِمُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِالقسم الْعَالِي. ثم نَزَل إلى القِسْم الأسْفَلِ، مِن بَابِ التدلّي. كقوْلِهِ ﷺ في تفسير الإحْسَانِ: «أَنْ تَعْبُد اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ. فَإِن لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»[1]. فَإِن لَمْ تَكُن مِمَّنْ يَعْبُد اللَّه كأَنَّهُ يَرَى. فَكُن مِمَّن يَعْبُدُ كَأَنَّ اللَّهَ يَرَاهُ، على أَحَدِ التفاسير. وعند أَهْلِ الإشارة فَإِنْ لَمْ

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، باب «لا تشرك بالله إنا الشرك لظلم عظيم» حديثه رقم (٤٤٩٩) [٤/١٧٩٣] ومسلم في صحيحه، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان. . ، حديث رقم (٨) [١/٣٦] ورواه غيرهما.

تَكُنْ، فَحِينئذ تَرَاهُ. واللّهُ تَعالَى أَعْلَمُ.

ويحتَمل أَن يُريد بالفلك فلك الحقيقة؛ وهي الأَنوَار المحيطات بالأغيَار الماحية للآثار. قال في الحِكَم: «محقتَ الآثَارَ بِالآثَارِ. ومَحَوْت الآثَارَ بمحيطات أفلاك الأنوار.» هـ. فالآثار التي محقت بالآثار؛ هي الأكوَان التي احْتوى عليها العَرْش. فإنها بالنّسبة إليه، كحلقة في فلاة. فقد محقت في جانبِ العَرْش واضْمَحَلَّتْ. وللآثار التي محيت بمحيطات أفلاك الأنوار؛ هي العَرْش وَمَا احْتَوى عليْه؛ فإنه لاَ وجود لَهُ بِالنّسبة إلى أفلاَكِ الأنوار الأزلية المحيطة به. فقد محقته وأفنيْت وُجُوده. ولذلِكَ قيل: حقيقة الفَنَا عنْدَ الصُّوفية هو مَحْو وَاضمحلاَل وَذَهاب عنْدَكَ وَزَوَالُ هـ. أَيْ يَفْنَى مَا لَمْ يَكُنْ، وَيَبْقَى مَا لَمْ يَزَلْ. والْمُرَاد بالشُّمُوسِ حينئذ شموس المَعَارِفِ. وبِالْبُدور بُدُور التوحيد الذَّاتِي والصفاتي والفِعْلِي. فَإذَا غَابَتْ شموس المعَارف، أَعْنِي الأَذْوَاق. أَشْرَقَتْ عليهم بُدُور التوحيد، ونجوم العِلْمِ. فَإِذَا أَرَدتَّ أَنْ تَتَرَقَّى إلى هٰذَا المَقام. فاقرأْ مَعْنَى السُّطُور الَّتي سطَرتها القدرة في ظَاهِرِ بشريتكَ. حتى تتعشق إلى صانعك، فَإذَا رأى تعطُّشكَ رَزَقَكَ مَنْ يَأْخُذُ بِيَدِكَ إلى أَنْ يُوَصّلكَ إلى شُهُودِهِ. فتكون مِن هٰذَا الْطَرِيق الأعْلَى؛ الّذِي تَدُور الأَفلاَكُ فِي وسَطِ قلوبهم، وتشرق شموس المعارف على روحانيتهم، فتكون من المقرَّبِينَ مَعَ النَّبيين والصّدّيقين، وحَسُن أُولَئِكَ رفيقاً. والحمد لله رب الْعَالمينَ. جَعَلنَا اللّهُ مِنْهُمْ وحَشرَنَا معهم آمِينَ بِمِنّهِ وَكَرَمِهِ، وبِسَيّدنا محمد نبيه. ثم قال رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ:

بَحرُ فِكْرِي عَمِيقْ.. ريح مسْك يفبق.. مَنْ دَخلُوا حقيقْ.. لاَش يَخَافْ أَن يَغرَقْ.. يَدرِي هٰذَا الطَّرِيقْ.. مَنْ كَانَ عَبْد الْحَق.

يقول رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ: بَحرُ فِكْرِي عَمِيق. أي لاَ قَعْرَ لَهُ وَلاَ حَدَّ ينتهي إلَيْهِ؛ لأَنَّ الْفِكْرَةَ إِذَا تَسَرَّحتْ تَبعَتِ المَعَانِي. ومَعَانِي الرُّبُوبية لاَ نِهَايَة لأَوَّليتهَا وَلاَ لآخِرِيَّتِهَا. هُوَ الأَوَّلِ والآخِرِ والظَّاهِر والباطِنُ. ولهٰذَا المعْنَى أَشَار ابن الفَارِض فِي خَمْريته بِقَوْلِهِ:

فَلاَ قَبْلَهَا قَبْلٌ وَلاَ بَعْدها بَعْدٌ ... وَقَبْلِيَةُ الأَبْعَادِ هِيَ لَهَا خَتْمُ

فَإِذَا سَبَحَتِ الفِكرة فِي بَحْر عَظَمة الأَزَلِيةِ وَجَدَتْهُ لاَ سَاحِلَ لَهُ. وَإِذَا

سَبَحت فِي بَحْرِ عَظَمَة الأحَدِيَة. وجدته لاَ سَاحِل لَهُ. وكَذَلِكَ بَحْرُ الْفَوقِيَة والتَّحْتِية. لاَ حَدَّ لَهُ وَلاَ نِهَايَة، لاَ تحيط بِهِ الأفكَار. وَلاَ تُدْركهُ الأبْصَار. وَلاَ تَكيّفُهُ الْعُقُول. فَالعَارِفُونَ يعومُونَ بِسُفُنِ أفكَارِهِمْ فِي بَحْر العَظمَة الأزَلية والأبَدِيه. فَإِذَا خَافوا مِنَ الغَرَقِ رَجعُوا إلى عشّ الْعُبُودية. فَأقَرُّوا بِالْعَجْز وَتَأدَّبُوا بَيْن يَدي الرُّبُوبية. رُوي أنَّ مَلَكاً اسْتَأذَنَ رَبَّهُ أنْ يطيرَ إلى سَمَاءِ العَظمَةِ العُلْوِية. فَطَارَ ثلاثين ألف سَنَة. فَقَالَ يَا ربّ أيْنَ أنْتَ؟ فقال لهُ: أنَا مَعَكَ. ثم طَارَ كَذَلِكَ، فقال يَا رَبّ. أيْنَ أنْتَ؟ فقال لَهُ: أنَا مَعَكَ. فقال: سُبْحَانَكَ. مَا أعْظَمَ شَأنَكَ! فَطَلَبَ مِنَ الحقّ تعالى أنْ يَرُدَّهُ إلى مَوْضِعِهِ فَرَجَعَ إلى عُبُودِيتِهِ. وَكَذَلِكَ فكْرةُ الْعَارِفينَ، تَعُومُ في بحْر العَظمَة الأزلية والأبَدية. والفَوْقية والتَّحْتية. فَلاَ تَجِدُ له ساحلاً يَنْتَهِي إِلَيْهِ. فترجع إلى عشّ العبودية والعجز. فتقول حينئذ العجزُ عَنِ الإدْرَاكِ إدْرَاكٌ.

وقوله: ريح مسك يعْبق: يعْنِي أنَّ مَن دَخَلَ بَحْر الفِكْرَة، وعَامَ فيه، هَبَّ عليه نَسِيم الوِصَالِ. وريحان الجَمَالِ. حتى يَلِجَ به جَنَان الكَمَال، فَيَسْكُنُ فِي رَوْحِ وَرَيْحَانِ وَجَنَّةِ نَعِيم.

وقوله: مَن دخلُوا حقيق... الخ أيْ مَن دَخَلَ هٰذَا البحر مَعَ رئيس عارفٍ كالشيخ النَّاظم وأمْثَالِهِ، لاَ يَخَاف أنْ يَغْرَقَ؛ لأنَّ الرئيس عارف بِأهْوَال البَحْرِ، كلما هَاجَتْ عليهم عواصف الريح آوى بهم إلى سفينة السّنّة المحمدية: وهي مضمونَة مِنَ الغرقِ، كَسَفِينَة نوح عليه السَّلاَمُ. وقوله: لاَ ش يَخَاف. يحتمل أنْ تكون الشين زائدة. أي حقيق بِأن يُقَال في حقّه: لأيّ شَيْءٍ يَخَاف أن يَغْرق؛ وهو مَأمُونٌ إنْ آوَى إلَى سَفِينَة النجاة.

وقوله: يَدْرِي هٰذَا الطريق... الخ يَعْنِي أنَّ طريق اسْتعمال الفِكْرَة ودُخول بحرهَا يعرفها من كَانَ عبداً لله حقيقة حُرّاً مِمّا سِوَاهُ. وأمّا إنْ كَانَ عَبْداً لنَفْسِهِ وَهَوَاهُ. فهُوَ ضَالٌّ في عِلْمِهِ. جَاهِل بحكمِهِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: ٢٣] ... الآية. فإن تَبَحّرَ أو دَخَلَ البَحْرَ وَحْدَهُ، هَاجَتْ عليه الرِّيَاحُ. وَتَلاَطمتْ عَلَيْهِم الأمْوَاجُ. فَكَانَ مِنَ الْمُغرقين في بَحْرِ الزَّنْدَقِةِ والكُفرِ. وَفِي قوله: عبْد الحق: إشَارة لطيفة إلى تَعْظِيم شيخه:

عبْد الحق بن سبْعين أيْ يَدْرِي هٰذَا الطريق، مَنْ كَانَ مِثْلَ عَبْدِ الحقّ. فِي مَعْرفته وتحقيقه. وإن كَانَت القصيدة لشيخِهِ، فيكون أَشَارَ إلى أَنَّ هٰذَا الطريق، لاَ يَدْرِيهَا إلاَّ مَنْ عَلاَ قَدَمُهُ، مِنَ التجريد والتَّخْرِيب. واللّٰهُ تَعَالى أَعْلَمُ.

ثم قال رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ: (ص) **إِنَّ ذاكَ البَحْر. . . لاَشْ يُقَاسْ بِبَحْري. . بحْرُ فِكْرِي دُرَرْ. . والزَّهْرُ فِي برّي.**

(ش) قلْتُ: الإشارة واللّٰهُ أَعْلَم إلى البَحْر الحسّي. وإن كَان لَمْ يتقدَّم له ذِكْر بالخُصُوصِ. أَيّ إِنَّ ذَاكَ البَحْر الحسّي، لأيّ شيءٍ يُقَاسُ بِبَحْرِي أَوْ لاَ يُقَاس بِبَحْرِي؛ لأنَّ البَحْر الحِسّيّ مَحْدُودٌ مَحْصُورٌ. وَبَحْرِي عَمِيق لاَ نِهَايَةَ لَهُ بَحْرِي كُلُه دُرَرُ الحِكَم، ويَوَاقِيت الْعُلُوم بِخِلاَفِ البَحْرِ الْحِسّي. فَدُرَره حسية حجرية. وهي مَعَ ذٰلِكَ قليلة نَادِرة. وَبَحْرِي أَيْضاً داخله دُرَرٌ. وظَاهِره أَزهارٌ أَغْنِي باطنه تحقيق. وظَاهره تشريع. بَاطِنُهُ منَوَّرٌ بنورِ الحقيقة الأزلية. وَظَاهره مُبَهَّجٌ بِزَهر جَمَال الشريعة المحمدية. واللّٰهُ تعالى أَعْلَم. ثم قال رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ:

فَالْتَفَتُ الخِطَابْ. . وَسَمِعْتُ مِنّي. . كُلّي عَنْ كُلِّ غَابْ. . وَأَنَا عَنّي مَفْنِي. . وَارْتَفَعْ لِي الْحِجَابْ. . وَشَهِدتُ أَنّي. . .

يَقُولُ رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ: لَمّا دَخلَتْ فِكْرتِي مَيْدَانَ التَّوْحِيد، وخَاضَتْ فِي بِحَارِ التَّفريدِ. حَصَلَ لِي الجمع الكُلّي. حينَ جَمَعَ اللّٰهُ شَمْلِي، فَاجْتَمَعَتِ الْفُرُوع بالأصُولِ. وَصِرْت بالوصُول نصول. فاتَّحدَ عندي الوجود وصَقَلَ لِي غَايَة الشهود. فَالْتَفُّت إلى الخِطَابِ الصَّادِر من الأحْبَاب، فَإِذَا هُوَ مِنّي لِي. حين صَارَ بَعْضِي كُلّي. فَصِرْتُ بِاللّٰهِ أَنْطقُ. ومِنَ اللّٰهِ أَسْمَعُ. قَدْ غَابَ كُلّي عَنْ كُلِّ شَيْءٍ، في شُهُودِ الَّذِي لَيْسَ كَمِثْلِهِ شيء. فأنَا عَنْ شهود نَفْسِي مَفْنِي. حينَ غِبْتُ عَنْ وجُودِي الوَهْمِي. فَارْتَفعَ عَنّي الحجاب. وَدَخلْتُ مَعَ الأحْبَابِ. وانقَشَعَ عَنْ عَيْن قَلْبِي الغَيْن. وشهدتُ أَنّي عَيْنَ الْعَيْنِ. فَإِنْ لَمْ تَذُقْ مَا ذَاقَتِ النّاسُ فِي الْهَوَى. فَلِلّٰهِ يَا خَالِي الْحَشَا لاَ تُعَنّفْنا. . إِنْ لَمْ تَرَ الهِلاَلَ فَسَلِّمْ. لأُنَاسٍ رَأوهُ بِالأَبْصَارِ. . ثم قال رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ:

مَا بَقَا لِي أثَرْ. . غِبْتُ عَنْ أَثَرِي. . لمْ أَجِدْ مَنْ حَضَرْ. . فِي الْحَقِيقَة غَيْرِي.

أَخْبَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ غابَ عَن حِسِّهِ، وشهود رسْمِهِ. فَانطَوى وُجُوده فِي وجودِ مَحْبُوبِهِ. وشُهُوده فِي شهود مَعْبُودِهِ؛ فَهُوَ غَرِيقُ الأَنْوَار. مَطْمُوس الآثَار قَدِ اتَّحَدَ عِنْدَه الوجود، فصَار وجوداً وَاحِداً. فَلَمْ يَجِدْ فِي الحقيقة غَيْر وجودِهِ؛ لأَنَّ وجوده صَارَ مَوْصُولاً بِالحَضْرة القدسية؛ والأَنوار الأزلية. فَلَمْ يشهد في الحقيقة سوَاهُ. وَلَمْ يَرَ فِي الكَوْنَيْن إلاّ إِيَّاهُ. فَإِن قلتَ: الْغَيْبَة عَنِ الأَثَرِ بِالكُلِّية، نَقْصٌ باعْتبار ما بَعْدَهُ من شهود الأثر والمؤثر. كما قال في الحِكَم وأَكْمَلَ مِنْهُ رجُل شَرِبَ فَازداد صَحْواً، وغابَ، فازداد حُضوراً. فَلاَ فَرْقُهُ يَحْجُبُهُ عَن جَمْعِهِ. وَلاَ جَمْعُه يحجُبُهُ عَنْ فَرْقِهِ. وَلاَ فَنَاؤه يَصُدّهُ عَنْ بَقَائِهِ. وَلاَ بَقَاؤه يَصْرِفُهُ عَنْ فَنَائِهِ. يُعْطِي كل ذي حَقٍّ حقَّهُ، وَيُوفِي كُلَّ ذِي قِسْطٍ قسْطهُ. قُلْتُ: لاَ طَرِيقَ لشهودِ الأَثَرِ والمُؤثر، إلاَّ الْغَيْبَة أَوَّلاً عَنِ الأَثَرِ؛ فَهِيَ قَنْطَرة تؤدّي إِلَيْهَا. وكُلُّ مَنْ دَخَلَ مَقَام الفَنَاء لاَ بُدَّ أَن يَخْرُجَ إلى مَقامِ البَقَاءِ. إِنْ كَانَ لَهُ شَيْخ يُرَبِّيهِ، كَالنَّاظِمِ وأَمْثَالِهِ. فَلَعَلَّهُ فِي هٰذَا الْوَقْتِ، كَانَ غَرِيقَ الأَنْوَارِ ثمَّ تَكَمَّلَ بَعْدَ ذٰلِكَ. فَالْفَنَا ضَامِنٌ للبَقَاءِ لاَ مَحَالة. بِخِلاَفِ مَنْ لَمْ يَسْلُكْ مَقَامَ الفَنَاءِ، لاَ يطمَعُ فِي مَقَامِ البَقَاءِ أَبَداً. وقَدْ رَأَيْتُ كثيراً مِمَّنْ غلط فِي نَفْسِهِ، فَادَّعَى المقَام الثانِي؛ وهو البَقَاءُ، قَبْلَ سُلُوكِهِ مَقَامَ الْفَنَاء. بَلْ هُوَ ظَاهِرِي مَحْض، لَم يُعْجب الرِّجَال، وَلاَ سَلَكَ عَلَى أَيْدِي الكُمَّالِ وَهُوَ يَتَرَامَى عَلَى هٰذَا المقَام الرفيع. فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ.

فصل: وَقَدْ تَكَلَّمْتُ مَعَ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ المتجمِّدِينَ عَلَى ظَاهِرِ الشريعة فَقَالَ لِي: نَحْنُ هُمْ أَهْل مقام الإِحْسَان إِذ هُوَ فيهم الكتاب والسُّنَّة. فَقُلْتُ لهُ: واللَّهُ مَا هُوَ الَّذِي تَفْهَم. ثم قُمْت عَنْهُ وَتَرَكْتهُ فاللَّه يعصمنا منَ الغَلَطِ والزَّللِ ويُوفقنا لصَالِح القَوْل والعَمَلِ. ثم قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

سَادَتِي وَافْهَمُوا. . الْمُرَاد مِنْ قَوْلِي. . هٰذَا لاَش نَكْتِمُوا. . عَنْ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِي. . سِرِّي لاَ يَفْهَمُوهْ. . إِلاَّ مَنْ هُوَ مِثْلِي. .

أَمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَنْ سَمِعَهُ، أَنْ يَفْهَم الْمُرَادَ مِنْ تِلْكَ الْعِبَارَاتِ، ومَا وَرَاءَ تِلْكَ الإِشَارَاتِ مِن دَقَائِقِ الأَسْرَارِ. وحَقَائِقِ الأنوار؛ فَإِنَّ عِلْمَنَا كُلَّهُ إِشَارَة. فَإِذا صَار عِبَارة خَفِي. ثُمَّ عَاتَبَ مَنْ فَهِمَ تِلْكَ الأَسْرَارَ ثُمَّ كَتَمَهَا عَنْ

أَحَدٍ مِنْ أَهْلِهَا. لقولِهِ عليه السلامُ: «لاَ تُؤْتُوا الحِكْمَةَ غَيْرَ أَهْلِهِا، فَتَظْلِمُوها وَلاَ تَمْنَعُوهَا أَهْلَهَا فَتَظْلِمُوهُمْ».(١) وأهل هٰذَا السِّرِّ: هُوَ مَنْ أَعْطَى كُلِّيَّتَهُ لِلّٰهِ، أَعْطى نَفْسَهُ وَفِلْسَهُ. وَزَهِدَ فِي جِنْسِهِ. وَتَجرَّد ظاهِراً وَبَاطناً فإِذَا فَعَل هٰذَا حَرُمَ كَتْم السِّرِّ عَنْهُ. كَما حَرُم التصريح بِهِ لِغَيْرِ أَهْلِهِ، لقَوْلِ سَيِّدِنا عَليٍّ كَرَّمَ اللّٰهُ وَجْهَهُ: «خَاطِبُوا النَّاس بِقَدْرِ مَا يَفْهمُونَ أتريدون أَن يكذّب اللّٰهُ وَرسوله». وقال الشاعر: وَمَن مَنَحَ الْجُهَّالَ علماً أَضَاعَهُ ومَنْ مَنَعَ الْمُسْتَوْجِبِينَ فَقَدْ ظَلَمْ. .

وقد كان الجنيد رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ يُلْقِي الْحَقَائق على رؤوس الأشهاد. فقيل له في ذٰلِكَ. فقال: علمُنَا محفوظٌ مِن أَنْ يأخذه غيْر أَهْله. أَوْ كَلاَمٌ هذا مَعْنَاهُ. وإليه أَشار الناظم بقولِهِ: سِرِّي لاَ يَفْهَمُوهُ. إِلاَّ مَنْ هُوَ مِثْلِي أيْ مِمَّن دَخَلَ الفَنَاءَ وَعَرَفَ مَقَامَ الإِحْسَانِ وإِلاَّ لَمْ يَذُقْ مِنْهُ شَيْئاً. وبِاللّٰه التوفيق. ثم اعْتَذَرَ عَنْ إِظْهَارِ تِلْكَ الحقَائِق للنَّاسِ وفيهم الخاصّ والعامّ. بكَوْن السكر غالباً عليه فقال:

سِلْك عِقْدِي انتَثرْ. . وَبَدَا لِي دُرِي. . نظُمُوه يَا جِوَارُ. . إِنَّنِي فِي سُكْرِي.

قلْت: سِلك العِقد بكَسْرِ العَيْن: هو الخيط الَّذِي انتظمت فيه الجواهِر. وانتثاره قطعه. فَإِذا قطع انتثرت الجواهر وسقطت. يقول رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ: كَانَتْ هذه الأَسْرَار التي نطقت بها في هٰذَا النَّظم: جواهر ويواقيت في سِرِّي محفوظة، مَنْظُومة في سلكهَا. فَلمَّا غلبَ عَلَيَّ السُّكْر انقطع عِقْدهَا وانْتَثرَ. فَنَطَقْتُ بِهَا والسّكْر غَالبٌ عَلَيّ. فانظموها أيها السَّامِعون وصُونُوهَا عَن غَيْرِ أَهْلِها. وقيدوها، واحفظُوها كي لا تضيع، فإنِّي غَائب فِي سُكْرِي. والجِوَارِي بِكَسْرِ الجيم، جمع جار أَوْ جارية، أَطْلَقه على أَصْحَابِهِ المجَاوِرِينَ لَهُ. وعبَّر عَنهم بالجِوَارِي مجازاً وَتَلْمِيحاً: لأَنَّ الشعر يحسن فيه استعمال الجِوَار والمغنيات وغَيْر ذٰلِكَ ممَّن هو مَقْرُون بالخمرِ الحسِّي. واللّٰهُ تَعالَى أَعْلَم.

---

(١) روى نحوه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، كتاب الأدب، حديث رقم (٧٧٠٧) وعبد بن حميد مسنده، عن ابن عباس حديث رقم (٦٧٥) [١/ ٢٢٥] ورواه غيرهما.

وصَلَّى اللَّهُ على سيدنَا ومَوْلانَا محمَّدٍ وآلِهِ وصحبِهِ وسَلَّم.

هٰذَا آخر التقييد المُبَارَك بِحَوْل اللَّه وقوته. وكَانَ الفراغُ مِن تبييضِهِ زَوَال يوم الخميس سابع صَفَر عام أربعة عشَر ومائتين وألف بمنزل الشريبي مِنْ بَسَاتِين تطوان. عَمَّرَها الله بالإسلام والإيمان. وبالصَّالحينَ أَهْل الشهود والعيان آمين، والحمدُ للَّهِ ربِ العالمين هـ.

«المقتطفة الثانية: في الاسم المفرد»

وقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: في قصيدة يذكر فيها الاسم المفرد، وَمَا فيه مِنَ الأَسْرَار، فَقَالَ:

أَلِفٌ قَبْلَ لاَمَينِ.. وهَاءٌ قُرَّة الْعَينِ..

أي هُوَ قرَّة العَينِ وقرَّة العَيْن: بُرُودتها بِدمْعِ الفَرَحِ؛ لأَنَّهُ بَارد. والقُرُّ في اللُّغة: هو البَرْد. وَهُوَ بِضَمِّ القافِ على المَشْهُورِ. وَدَمْع الْفَرَحِ بَارِدٌ، كَمَا هو مجربٌ أي هذا الاسم، هو فَرَح قَلْبِي وسروره، وبهجته وحبوره والاسم هُنَا عيْن المُسَمَّى. إذ الفَرَح إنما هو بالذَّاتِ. ثم قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

أَلِفٍ أَوَّلَ الاسْمِ.. وَلاَمَانِ بِلاَ جِسْمِ.. وَهَاءُ آيَةُ الرَّسْمِ... تهَجَّا سِرّ حَرْفَيْنِ.. تَجِدْ إِسماً بِلاَ أَيْنِ..

هٰذَا تَقرير لما قَبْلهُ وتوضيحٌ لَهُ. وقوله: وَلاَمان: الصواب أَنَّهُ مَرْفُوعٌ، معطوف على ألِفٍ. وقوله: بلا جِسْم. أي مُسَمَّى ذٰلِكَ الاسم هو بلا جِسْم بَلْ مُنَزَّه عَنِ الْحَصْرِ فِي الجِسْمية والأينية. وقوله: آية الرسم. أي عَلاَمَة تمامِهِ فِي الرسم والخطِّ. لا في المعْنَى. إِذْ لا نِهَايَة لَهُ.

قوله: أَتَهَجَّى سر حرفيْن هي الهاء والواو. من هو كأنه تكلم على المفرد ولفظه هُوَ من طريق المشارقة. يَذْكُرون إِسْمَ الجلالة مفرداً ثم يذكرونه هُوَ هُوَ. حتى يسْتغرقون في الهوية. وهي الحقيقة. تجد إِسماً بلا أيْن. أي تجد مسَمَّى ذلك الحرفيْن هوية وحقيقة بِلاَ جِهَة وَلاَ أَيْنِية. لاَ زمانية وَلاَ مَكَانِية. كَانَتْ قَبْلَ الزَّمَانِ والمَكَانِ. وقد بقي الأَمْرُ على مَا كَانَ. واللَّهُ تعالى أَعْلَمُ. ثم قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

«حُرُوف كُلّهَا تُتْلَى. . تَرَى الْقَلْبَ بهَا يُجْلَى. . وَيَسْلَى بَعْدَ مَا يَبْلَى. . . وَيُدْرَج بَيْنَ كَفنَين. . بِرَمْزَيْنِ رَقِيقَيْنِ.

قلت: المراد بالحروف التي تُتْلَى: حروف اسْمِ الجَلاَلَةِ. وَذْلِكَ إِذَا ذكرت الحروف كلها، صار مدخولها: اللّه. وإذا حُذِفَتِ الهمزة واللامَان صار: هُو وَلاَ تَحذف الهاء؛ لأنها آية الرَّسْم. وعلامة كَمَا تقدَّم فحرُوف اسْم الجلالة كلّها تُتْلَى مَعَ صحّة المعْنَى. واللّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ.

وَقَولُهُ: ترى القلْبَ فيها يُجْلَى؛ أَي يُصْقَلُ وتنجلي عنهُ عظمة الغفلة وصُوَر الأكْوَانِ: التي تحول بيْنه وبيْن الشُّهودِ والْعيَانِ. إن دَامَ عَلى مَذْكَر مذْخول تلكَ الحروف، وهو اللّهُ: أَوْ هُوَ لمَن اسْتَغرقت فِكْرتهُ في الهَوِية. وفي الحديث: «لِكُلِّ شيءٍ مِصْقَلَةٌ ومِصْقَلَة الْقُلُوبِ ذِكْر اللّهِ»[1].

وقوْلُهُ: ويسلى بعد ما يَبْلى؛ أي ويتَسَلَّى عَنِ الهُمُومِ والأكْدَارِ بِالْغَيْبَةِ عَنْهَا فِي ذِكْرِ الواحِدِ الْقَهَّارِ بعد ما يَبْلَى ويختبر بِالفكرة فيهَا، والخوف في ظلمتها. فَإِذَا ذكَرَ اللّهُ انجَلَى عَنهُ ذْلِكَ وَيَتَسَلَّى عَنهَا. وَأَنس بِاللّهِ وَحْدَهُ. اسْتوحش مِمَّا سِوَاهُ. وقوله: وَيُدرج بيْن كفنيْن: الضمير في يُدْرج يَعُود على القَلْبِ. والمُرَاد بالكَفْنَيْنِ: الْبَشرية والرّوحانية؛ أَوِ الحِسّ والمعْنَى أو القدرة والحِكمة؛ لأنّه لَمَّا مَاتَ عَنْ حُظُوظِهِ وَشهواتِهِ. كُفِّن بِرداءٍ من رداء نوراني روحاني، ورداء ظلماني جِسْمَاني؛ وهو مُقيمٌ بَيْنَهُمَا. يُعْطِي كُلَّ ذِي حقٍّ حَقَّهُ. ويُوفِي كُلَّ ذِي قسْطٍ قسْطه؛ لأنَّ الحقَّ تَعَالَى جَعَلَ فيه عَيْنَيْنِ: إِحْدَاهما تَنْظُرُ للبَشَرِية والحِكْمة. والأخرى تنظُرُ لِلرُّوحَانية والقُدْرة. فَإِذَا نَظَرت إلى البشرية أعطتها حقها من العبودية. قياماً بِرَسْم الحِكْمَة. وإذا نَظَرَتَ إلى الرّوحانية، أَعْطتها حَقَّها مِنَ الشهود والمَعْرِفَةِ. قياماً بحقِ الْقدرة. فَإِذَا أَهْمَل الْقَلْبُ النظر إلى إِحدى الجهتَيْنِ كَان أَعْوَر، وَإِذَا أَهْمَلهما معاً كَانَ أَعْمَى والعياذ بِاللّهِ. قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾. [الصدور: ٤٦].

وقوله: بِرَمْزَيْن رقيقَيْنِ: أي بِإِشَارَتَيْن رقيقتيْن لطيفتَيْنِ؛ لاَ يَفْهَمها إلاَّ مَنْ

---

(١) هذا الأثر لم أجده بلفظه فيما لدي من مصادر ومراجع.

تَلَطَّفَتْ رُوحُهُ. ورقّت بشريته. إذ لاَ يعرف البشرية والرّوحانية، والقدرة والحكمة، والحسّ والمعنى، إلاَّ مَن تَلَطَّفَتْ عَوَالِمُهُ، ورقت بشريتهُ. وفنيَت دائرة حسّه وإلاَّ فَحَسْبه الإيمان بِالْغَيْبِ، والتّسْليم لأَرْبَابِ المعرفَة. رَضِيَ اللَّهُ عَنهُمْ. ثم قال رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ:

غَرَامِي فِي الْهَوَى قَدْ بَاحَ. . وَفَجْرِي بَعْدَ لَيلَى لاَحْ. . وَصِرْتُ لِلْوُجود مِصْبَاحْ. . شَمْسٌ بَيْن قَمَرَيْن. . وَلاَ أدرِي أَيْنَ أيني. .

قلت: الْغَرَامُ: هو العِشقُ. والهوَى: ما تميل إلَيْه النَّفْسُ، وتنجذب إليه، فِي الحقّ أوْ فِي البَاطِلِ. فَأَخْبَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ، أَنَّ عشقَهُ فِي هَوَى الحبيب قَدْ بَاحَ. أَيْ ظَهَر واشتهر. وفَجْر وصوله للمحْبُوبِ، بَعْدَ لَيْل قطيعته عنهُ قد لاَح. أيْ طلع وانتشَر. وصار مصباح أهْل زمانِهِ. يُسْتَضَاءُ بِهِ فِي ظُلْمَةِ الْجَهْلِ والكُفْرِ ويُهْتدى بِهِ في سلوكِ البَرّ والبَحْرِ.

وقَوْلهُ: وشمْس بيْن قَمَرَيْنِ: يوجد في النسخ بالرّفعِ. أي وَأَنَا شَمْس بيْن قَمَرَيْنِ. ويصحّ فيه النَّصْب بالعطفِ على مصباح لأنه منصوب. ووقف عليه بالسكون، على لغَة ربيعة للوَزْنِ.

والمراد بالقَمَرَيْنِ: قمر أهْل الشريعة الظاهِرة، وقمر أهْل الحقيقة الباطنة. أَخبر رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ: أَنَّه صَارَ مصباحاً للفريقَيْنِ، يقتبس من نُورِهِ أَهْل الظَّاهِر، وأَهْل الباطن كَما يقتبس القمر نوره من نور الشمس.

وقـولـه: لاَ أَدرِي أَيْـنَ أَيْنِـي. أي لاَ أَدْرِي أَيْـنَ وُجُـودي وأثـري لـغـلـبـة سُكْري. وهذه حالة شريفة، ومَرْتبة منيفة. ولله درّ ابن الفارض حيْث قال:

فَلاَ عَيْش فِي الدّنيا لِمَن عَاشَ صَاحِياً ... ومَنْ لَمْ يَمتْ سكران بِهَا فَاتَهُ الْحَزْمُ
عَلَى نَفْسِهِ فَلْيَبْكِ مَنْ ضَاعَ عُمْرُهُ ... ولَـيْـسَ لَـهُ مِـنْـهَـا نَـصِـيـبٌ وَلاَ سَـهْـمُ

فالسكْر ضَامِنٌ للصَّحْو والفَنَا ضَامِن للبقاءِ. واللَّهُ تعالى أَعْلَم. ويحتمل أن يريد بالقَمَرَيْن: قَمَر توحيد الأفعال وقَمَر توحيد الصفات. أَوْ قَمَر أَهْل الإسلام، وقمر أَهْل الإيمان. وباللَّهِ التوفيق. ثم قال رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ:

فَمَعْنَى حُبِّيَ الأَتْقَى. . بِأَن أَفْنَى فيه عِشْقَا. . وَأَفْنَى فِي الْفَنَا حَقاً. . بِوُجُودِ دُونَ فَقْدَيْنِ. . حيَاة فِي فَنَاءَيْنِ. . قلت: الَّذِي يَظْهَرُ أَنَّ المُرَاد بالحبِّ هُنَا هُو

النَّبِيّ ﷺ. لِقَولِهِ عليه السلام: «أَنَا أَتقَاكُمْ لِلَّهِ. وَأَنَا أَعرَفكم بِهِ»[١] أَوْ كَمَا قَالَ عليه السلام، حسب ما هو في صحيح البخاري وَلاَ بُدَّ من حَذْفِ مضاف قبل المبتدأ. ومتعلق الخَبَر قبل الخبر. والتقدير: فشهد مغنَى حُبِّي الأتقى يحصل بأَن أَفنَى فيه عشقاً، فيكون الشيخ أَخْبَر أَولاً عن جَذْبِهِ وفَنَائِهِ. بقوْلِهِ: وَشمس بيْن قَمَرَيْنِ. وَأَخبر ثانياً عن صَحْوه وبَقَائِهِ. بشهودِ الواسطة، بعد شهود الموسوطِ بِقَوْلِهِ: فَمَغنَى حُبِّي. . الخ. فيكون كقول الشيخ ابن مشيش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في تصليته المشهورة: واجْعَل الحجاب الأعْظَم حيَاة روحِي. أي اجْعَل شهود الحجاب الأعظم؛ وهو النَّبيّ ﷺ سبب حياة روحِي. بعد أَنْ قال: وَأَغْرقنِي في عيْن بحر الوحدة. . الخ.

وقوله: وَأَفْنَى في الفنا حقاً. هُوَ عَلى حَذْفِ مُضافٍ. أي وَأَفْنَى فِي ذي الفنا حقاً؛ وهو الحق تَعَالَى. لأنه هو الَّذِي يسْتحق أَنْ يَفْنَى، دون غَيْره. خَافَ أَنْ يَقَع مَعَ الواسطة، دون شهود الموسوط. فَأَخْبَرَ أَنَّهُ فَنَى فِي الذَّاتِ الْعَالِية. ثم رَجعَ إلى شهودِ الواسطة. لكن على وَجْه بحيْث لا تَحْجُبه عن الموسوط؛ وهو الحق تعالى فَهُوَ كقول القطب ابن مشيش أَيْضاً: بتحقيق الحَقّ الأول أي اِجْعَل شهود الحجاب الأعْظم حياة روحي مع تحقيق شهود الحق الأول؛ وهو اللَّهُ تعالى.

ثم كَمَّل هٰذَا المَعْنَى بقولِهِ: بجود دون فقدين. فهُو على حَذْف مُضافٍ. والباء بِمَعْنَى مَعَ. أي مَعَ شهود وجود قديم باق دون فقد في أَوَّلِهِ، وَلا فقد في آخِرِهِ. بل هو واجب الْوجُودِ لاَ يتصوّر فقده أَوَّلاً وَلاَ آخِراً. «هُوَ الأَوَّلُ والآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ». فَإِذَا تَحَقَّقَ وُجُوبُ شهود وجود هذه الذَّات القديمة الباقية.

---

(١) روى نحوه مسلم في صحيحه، باب صحة صوم من طلع عليه الفجر. . ، حديث (١١٠٨) [٢/ ٧٧٩] والبيهقي في السنن الكبرى، باب وجوب القضاء على من. . ، حديث رقم (٨٧٩٤) [٤/ ٢٣٤] ورواه غيرهما ونصه عند مسلم: «عن عمر بن أبي سلمة أنه سأل رسول الله ﷺ أيقبل الصائم فقال له رسول الله ﷺ سل هذه لأم سلمة فأخبرته أن رسول الله ﷺ يصنع ذلك فقال يا رسول الله قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فقال له رسول الله ﷺ أما والله إني لأتقاكم لله وأخشاكم له».

مَعَ شهود الواسطة المحمدية. فقد حصَلَت حياة في فَنَاءيْنِ. فناء في ذَات الحق؛ وهو الموسوط. وفناء في ذاتِ الرسول ﷺ؛ وهو الواسطة؛ وهذه هي الحياة الطيبة. والعيشة الراضية. متَّعَنَا اللّٰهُ بِهَا على أكمل حال نحن وأَحِبَّاؤنا، ومن تعلق بنا آمين. والحمد لله رب العَالمينَ. ثم قال رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ:

مُنَائِي مَنْ بِهِ هِمْتُ. . وقوت الرُوحِ إِنْ مِتُّ. . وَحَرْف البَيْن أَنْشَدتُ. . مَتَّى يَا قُرّة الْعَيْنِ. . أرَى وَصْلاً بِلاَ أَيْنِ.

المُنَا: هو ما يتمنَّى الإنسَان ويقعدهُ. والبَيْن: هو الفرق وَالبُعْد أَخْبَر رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ أَنَّ مُنَاهُ وهَوَاه؛ هو ما هَامَتْ بِهِ رُوحُه. وانْجذب إليه سِرُّهُ؛ وهو الحق تعالى. وهو قوت الرُوح، لمن ماتت نفسه عن شهواتها وحظوظها، فقد سُئل سهل بن عبد الله رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ عن القوت فقال: هو الحيّ الَّذِي لاَ يَمُوتُ. فقيل: إِنَّمَا سَأَلْنَاكَ عَنِ القِوَام فقال: القِوَامُ: هو الْعِلْمُ فقيل: سَأَلْنَاكَ عن الغذاء فقال: هو الذِّكْرُ، فقيل: سَألناك عن طعم الجسد. فقال: مَا لَكَ وللجَسَدِ دَعْ الذي تَولاَّه أوّلاً يتوَلاَّه آخِراً. إذا دَخَلَتْ عليه عِلَّة، رُدَّهُ إلى صَانِعِهِ. أَمَا رَأَيْت الصَنعَة إذا عِيبتْ ردّوهَا إلى صَانِعِهَا حتى يُصْلحها هـ. وأَنْشدُوا:

كَمِّلْ حَقِيقَتَكَ التي لَمْ تَكْمُلْ	والجِسْمُ دَعْهُ فِي الْحَضِيضِ الأَسْفَلْ
أَتُكَمِّلُ الفَانِي وَتَتْرُكَ بَاقِياً	هَمَلاً وَأَنتَ بِأَمْرِهِ لَمْ تَحْفُلْ
فالجِسْمُ والنَّفس النَّفِيسَة آيَةٌ	مَا لَمْ تَحَصِّلْه فِيهَا لَمْ يَحْصُلْ
يَفْنَى وَتَبْقَى دَائِماً فِي غَبْطَةٍ	أَوْ شَقْوَةٍ وَنَدَامَة لاَ تَنْجَلْ
أُعْطِيتَ جِسْمَكَ خَادِماً فَخَدَمْتَهُ	أَتَمَلَّكُ المَفضول رقّ الأَفْضَلِ
شِرْكٌ كُنتُ أَنتَ فِي حِبَالِهِ	مَا دَامَ يُمْكِنُكَ الْخَلاَصُ فَعَجِّلْ
مَنْ يَسْتطيعُ بُلُوغ أَعْلَى مَنْزِل	مَا لَهُ يَرْضَى بِأَدْنَى منزل

هـ. وقال آخر:

يا خَدِيمَ الجِسْم كَمْ تَشْقَى بِخِدْمَتِهِ	وتَطْلُبُ الرِّبْحَ فِيمَا فِيهِ خُسْرَانُ
عَلَيْكَ بِالنَّفْسِ فَاسْتَكْمِلْ فَضِيلَتَهَا	فَأَنْتَ بِالنَّفْسِ لاَ بِالجِسْمِ إِنْسَانُ

والمراد بالنَّفس الرُوحُ؛ لأَنَّهُمَا شَيْءٌ واحدٌ. وإنما تفترق التسمية، باعْتبار

التَّصْفية. فالروحُ هي المُنَعَّمة فِي عَالَمِ البَرزَخ وَمَا بَعْدَهُ. أَوْ مُعَذَّبَة عَلَى مَا سَبَقَ لَهَا. وللغَزَّالِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي قصيدة وُجدت تَحْت عَمَامته بعد مَوْتِه. وقيل لغَيْرِه: قال فيها:

قُـلْ لإِخْـوَانٍ رَأَوْنِـي مَـيْـتـاً ... فَـبَـكُـونِـي وَرَثَـوْنِـي حَـزنـاً
أَتَـظُـنُّـونَ بِـأَنِّـي مَـيْـتُـكُـمْ ... لَـيْـسَ ذٰلِكَ الْـمَـيِّـتُ والـلَّـه أَنَـا
أَنَـا فِـي الـصُّـورِ وَهٰـذَا جَـسَـدِي ... كَـانَ لِـبْـسِـي وَقَـمِـيـصِـي زَمَـنـاً
أَنَـا كَـنْـزٌ وَحِـجَـابٌ طَـلْـسَـمٌ ... مِـنْ تُـرَاب قَـدْ تَـهَـيَّـأَ لِـلْـفَـنَـا
أَنَـا دُرٌّ قَـدْ حَـوَانِـي صَـدَف ... طِـرْتُ عَـنْـهُ فَـتَـخَـلَّـى وَهَـنَـا
أَنَـا عُـصْـفُـورٌ وَهٰـذَا قَـفَـصِـي ... كَـانَ سِـجْـنِـي فَـأَلِـفْـتُ الـسَّـجْـنَـا
فَـأَشْـكُـرُ الـلَّـهَ الَّـذِي خَـلَّـقَـنِـي ... وَبَـنَـى لِـي فِـي الْـمَـعَـالِـي وَطَـنـاً
كُـنْـتُ قَـبْـلَ الْـيَـوْم مَـيِّـتـاً بَـيْـنكُـمْ ... فَـحَـيِـيـتُ وَخَـلَـعْـتُ الْـكَـفَـنَـا
فَـأَنَـا الـيَـوْمَ أُنَـاجِـي مَـلَـكـاً ... وَأَرَى الـحـقَّ جِـهَـاراً عَـلَـنـاً
عَـاكِـفـاً فِـي الـلَّـوْحِ أَقْـرَأُ وأَرَى ... كُـلَّـمَـا كَـانَ أَوْ يَـأْتِـي أَوْ دنَـا
وَطَـعَـامِـي وشَـرَابِـي وَاحِـدٌ ... وَهُـوَ رَمْـزٌ فَـافْـهَـمُـوهُ حَـسَـنـاً
لَـيْـسَ خَـمْـراً سَـائـغـاً وَعَـسَـلاً ... لاَ وَلاَ مَـاءٌ وَلٰـكِـنْ لَـبَـنَـا
هُـوَ مَـشْـرُوبُ رَسُـولِ الـلَّـهِ إِذْ ... كَـانَ سِـرٌّ فِـطْـرَةٍ فَـطَـرَنَـا

انتهى المراد مِنْهَا:

وَقوله: وحَرْف البَيْنِ أَنْشَدت: حَرْفُ البَيْنِ هو ياء النِّدَاء. لأَنه يُنَادِي بِهَا البعيد. وَأَمَّا مَنْ كَانَ حَاضِراً، فَلاَ يحتاج إلى نِدَاء. وإِنَّما اسْتعملتْ فِي حَقِّهِ تعالى، مَعَ كَوْنِهِ قَرِيباً مِنَ الدَّاعِي تَنْزيلاً للدَّاعِي مَنْزِلة البَعِيد. تحقيراً لشأْنِ النَّفْسِ وخِستها. وَأَمَّا مَنْ غَلَبَ عليه الحُضُورُ والقُرْب فَلاَ يحتاج إلى نِدَاءٍ؛ وَهٰذَا الْحَرْف الَّذِي أَنْشَدَه الشيخ، هو قَوْلُهُ: مَتَى يَا قُرَّةَ الْعَيْنِ الخ. أي يَا قُرَّةَ عَيْنِي، مَتَى أَرَى وَصْلاً متأبداً. لا يصحبه بَيْنٌ وَلاَ فَرْقٌ. ومُرَادهُ واللَّهُ أَعْلَمُ مَا يَحْصُل بَعْدَ الْمَوْتِ مِنَ الرَّوْحِ وَالرَّيحَانِ وَجَنَّة نَعِيم؛ وهو الشهود الدَّائم. والنَّعِيم المُقِيمُ. فَهُو كَقَوْلِ الشَّيْخ ابن مشيش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مُخَاطِباً لروحِهِ

عَلَى اقتبَاس أَهْل الإشَارةِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ﴾. [القصص: ٨٥] ويَحْتملُ أن يُريد بِحَرْفِ البَيْنِ، مَا أَنْشَده في القصيدةَ كلها مِنَ التغَزّلاَتِ والإشَارَاتِ؛ لأَنَّ الإِشَارَاتِ بِهَا تَدلّ على البَيْن والْبُعْدِ. قال في الحِكم: «ما العارف: مَن إذَا أَشَار وجد الحق أقرب إليه من إشارته. بل العارف مَنْ لا إِشَارَة لَهُ، لِفَنَائِهِ فِي شهودِهِ. وانطِوَائِهِ في وُجُودِهِ». هـ. قال: فالعَارِفُونَ حينَ حَصَلَ لَهُمُ الْوُصُول. فَنَوْا عَن رُؤْيَةِ وُجُودِهِمْ، في وُجُودِ مَحْبُوبِهِمْ. فَلاَ مُشير غير المشار إلَيْهِ قَدِ اتَّحَد الوجود، وَلَمْ يَبْقَ إلاَّ المَلِك المَعْبُود؛ وَهٰذَا هُوَ الَّذِي تَمَنَّاهُ النَّاظِم بِقَوْلِهِ: مَتَى يَا قرّة العَيْن. . أَرَى وَصْلاً بِلاَ أَيْنِ. . أي بِغَيْر وُجُودِي، وَلاَ شهود نَفْسِي. وقد حقَّق الله له ذَلِكَ بِلاَ مَيْنِ. كَمَا يَشْهَد بِذٰلِكَ كلامُهُ فِي قَصَائِده وَأَزْجَالِهِ. إذ الكَلاَم صِفة المتكلم. وَمَا فيكَ، ظَهَرَ على فيكَ. وكُلّ إنَاءٍ بِالَّذِي فيه يَرْشَحُ. فَاللَّهُ تعالى يَمْنحنا وأَحباءنَا مَا منحتهُم بِهِ، أَوْ أَعْظم. بِمِنِّهِ وَكَرَمِهِ. وبسيّدنَا محمد نبيه وحبيبِهِ صَلَى اللّه عليه وسلم وعلى آلِهِ وصحبِهِ.

وَهٰذَا آخِر التقييد المُبَارك بِحَوْلِ اللَّهِ وَقُوَّتِهِ. وتوفِيقه وحسْن عَوْنهِ. كَسَاه الله جُلْبَاب القبول. وَبَلَغ بِه القَصْد والمأمول آمين. والحمد لله رب العالمين. ووافق الفراغ من تبْييضِهِ زوال يَوْم الخميس أَواسط صَفَر. عام أَربعة عشر، ومائتَيْن وأَلْف في ثَغْر وادي اللّيَان. عَمَّرَه اللّه بأهل الإحْسَان آمين. سُبْحَان ربك رب العِزَّةِ عَمَّا يَصفُونَ. وسَلاَم على المُرْسلينَ، والحمد لله رب العالمين.

شَرْحُ الأَبْيَاتِ الثَّلاَثَةِ لأَبِي الْقَاسِمِ الْجُنَيْدِ

لسيدي أحمد بن عجيبَة
رضي الله عنه

ضبطها وصححها وعلق عليها
الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي
الحسيني الشاذلي الدرقاوي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وصلى الله على سيدنا محمد وآلِهِ وصحبه

الحمد لله وحده. وصلى الله على سيّدنا محمد وآلِهِ وصحبه وسلم تسليماً إلى أَخِينَا الفقيه الأَجَلّ السيّد علي بن عبد الرحمٰن. أَصْلَحَكَ الله ورعَاكَ. وَأَعَانَك على الدِّين والدّنيا. سلامُ الله تعالى عليك وبركاتهُ. وبعد فقد وَرَدَ عَلَيْنَا كتابك ومسطورك. وتَأَمَّلْناهُ، فظهر لنا أَنك تريد الجواب عن مسْأَلة الأبيات الثلاثة المنسوبة لشيخ الطريقة، وإمام الصوفية، ومُحيي الحقيقة، الشيخ: أَبُو القاسم الجُنَيْد، نفعنا الله ببركاته آمين:

تَوَضأْ بِمَاءِ الْغَيْبِ إِنْ كُنتَ ذَا سِرّ ... وَإِلاَّ تَيَمَّمْ بِالصَّعِيدِ أَوِ الصَّخْرِ

وَقَدِّمْ إِمَاماً كُنْتَ أَنْتَ إِمَامَهُ ... وَصَلِّ صَلاَةَ الْفَجْرِ فِي أَوَّلِ الْعَصْرِ

فَهَذِ صَلاَةُ الْعَارِفِينَ بِرَبِّهِمْ ... فَإِنْ كُنتَ مِنهُمْ فَانْضَحِ الْبَرَّ بِالْبَحْرِ

فَاعْلَمْ أَيُّهَا الأَخ: أَنَّ كَلاَمَ الأَوْلياء العارفينَ، والعلماء العالمينَ، الَّذِي ليس بمنقول عَمَّنْ تَقَدَّمَ. وَإِنَّمَا تكلموا به من قريحة أنفسهم. فيكون منطوياً على أَسْرَارِ مصونة، وجواهر مكنونة، لا يكشفها إلاَّ هُمْ. وَلاَ تَتبيَّن حقائقها إِلاَّ بالتَلَقِّي عَنهُمْ. ومثل هذا يسأل عنه الأولياء العَارِفُونَ. وَأَمَّا أَنَا بمعزلٍ عن هٰذَا. وبعيد لكثرةِ جَهْلِي، ومخالفة رَبِّي، وكثرة زلَّتِي، وعَمَى بصيرتِي. ونقصان عَقْلِي. لكن لمَّا أَتَانِي كِتَابكَ. استَحيَيْتُ أن أُهمِلَهُ. ولم أُجِبْهُ؛ لأَنَّ الكتابَ يَنُوبُ عَلَى صَاحِبِهِ. وَأُجِيبُ عَلَى قَدْرِ مَا مَنَحَنِي اللّٰهُ تَعَالَى بِفَضْلِهِ وجودِهِ وَكَرَمِهِ. فَلِلّٰهِ الحَمْدُ وله الشكر.

على قَدْرِ فَهِمنَا كَلاَمَ المُتَقدِّمِينَ رَضِيَ اللّٰهُ عَنهُم. فَاعْلَمْ أَيها الأخ بِأَنَّ الطَّهَارة طَهَارَتَانِ: طهارة حسية، وطهارة معنوية. فالطهارة الحسية، صغرى

وكبرى، كما هي مَعْلومة والطَّهَارة المعنوية طهارتانِ: ظاهرية وباطنية. فالطهارة الظاهرة، طهارة الجوارحِ من المعاصي والباطنة، طهارة القلْب من الأدْنَاسِ والأغْيَارِ ومِنْ مخالفة الدَّيَّان الملك الجبّار. وَأن يمتثِل الإنسَان بجميع جوارِحِه ما أَمَرَه به الواحد القَهَّار فجمع المصنف رحمه اللَّهُ تعالى في هذه الأبيات: الطهارة المَعْنوية كلها، وعلوم الصوفية. والحقيقة والشريعة.

فَقَوْلُهُ: «تَوَضَّأْ بِمَاءِ الْغيبِ إِنْ كُنتَ ذَا سِرّ» أي تَطَهَّرْ للدّخُولِ فِي الْحضْرَةِ الرَّبَانِية الإِلَهِية؛ أَيْ تطهَّرْ مِنَ المعاصي بالتوبة والتَّجريد من الأغْيَار والنَّدَمَ على ما فاتَ مِن عُمرِكَ، وكثْرَة الاسْتغفار، والنية، وصِحَّة اليقين. كما لاَ تَدْخل في الصَّلاَةَ إِلاَّ بِالطَّهَارة الحسيَة. فَكَذٰلِكَ إِذَا أَردتَّ أَن تدخلَ في حضرة اللَّهِ تعالَى والتقرب إليه. فتطهَّرْ وتوضَّأْ بماءِ الْغَيْبِ. أي اليقين الَّذِي لاَ شَكَّ فِيهِ، وَلاَ شَكَّ مَعَهُ. والنية، والصدق، والإخلاصِ. ودليل ماء الغَيْب هو اليقين والله أعْلَمُ.

فقوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ١، ٣] وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣] أَي يُؤْمِنُونَ بقلوبِهِم، ويؤْمِنُونَ بالآخِرة؛ لأَنَّ الآخِرة غَيْبٌ. وَلاَ يُؤْمِنُ بالآخِرَة إلاَّ الموقنونَ. فَلِذٰلِكَ قال الشيخ: تَوضَّأْ بمَاءِ الْغيبِ؛ الَّذِي هُوَ اليقين، وفَسَّرَه الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣] إلى قوله ﴿يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٣]. بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥]. فهٰذِهِ مَزِيَة هٰذَا الْوُضوء، وأَيُّ مَزِيةٍ أَعْلَى، لِمَنْ شَهِدَ اللَّهُ لَهُ بِالهدَى والفَلاَحِ.

وقوله: «إِنْ كُنتَ ذَا سِرّ». أي إِنْ كنتَ صاحب سِرّ. والسِّرُّ هُوَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ؛ لأَنَّها شَرْط فِي جميع العِبَادَات. فَإِذَا انْتَفَى الشرط، انتفَى المَشروط. وقوله: لاَ إِله إِلاَّ اللَّهُ. هو سِرّ الأسرار. وَأَصْل جميع أَعْمَال الأَخْيَار؛ لأَنَّا لَوْ فَرَضْنَا أَنَّ أَحَداً يعملَ الأعمال الصالحات كلها؛ من صَلاَةٍ، وصيام، وقِراءة، وَيَأْتِي بوجوه العباداتِ كلها، واسْتكْبَرَ عَنْ قولِ لاَ إِله إِلاَّ اللَّهُ. أَوْ نطق بها ولم يَعْرِفْ مَعْنَاها، بل نطق بِهَا خاصَّة، فلا ينفعه عملٌ مِنَ الأعمال كلِّهَا. وإِن هذه

الكلمة الطيبة المُبَارَكَةَ؛ هِيَ أَصْل الأسرار الربانية. والمواهب الإلٰهية؛ وبها يسْتحق المُؤمن رضاء ربّ العالمينَ. ووجه المناسبة بينها. وبيْن الوضوء المَذكور. حتى جعلها شرطاً فِي صحَّة ذلِك؛ لأنَّ الكُفْر نجس. لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ﴾ [التوبة: ٢٨]. الآية. وبقول لاَ إلٰه إلاَّ الله المذكورة، يَظْهَرُ ذٰلِكَ النَّجسُ مِن حينِهِ. ويصير من نَفْسِ قَوْلِهَا واعتقادها وليّاً لله تعالى. والله وليّ المُؤمنينَ. فَهٰذَا مُراد النَّاظم بقوله: «إِن كُنتَ ذَا سِرٍّ». والله تعالى أَعْلَمُ؛ لأَنَّ هذه الكلمة يَدْخل تحتها جميع الأسرار الرّبانية. واتفقوا على أَنَّ ذِكرها مفتاح الوِلاَية الكُبْرى. فَأَيُّ سِرٍّ أَعْظَم مِن هٰذَا السِّرّ.

وقولُهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ: **«وَإِلاَّ تَيَمَّمْ بالصَّعِيدِ أَوِ الصَّخْرِ»**: أَيْ إِذَا عدمْت ماء الغَيْب؛ وهو اليقين. وكنت من أَصْحَابِ السِّرِّ. فتيمَّمْ بِالصَّعِيدِ أَوْ بِالصَّخْرِ؛ لأَنَّكَ لاَ تَدْخل الْحَضْرة حضرة اللَّه تعالى، إلاَّ بالطَّهارة الْمَعْنَوية. كما لا تَدْخل للصلاة إِلاَّ بِالْوُضُوءِ، أَوْ بِالتَّيَمُّمِ إِنْ عُدِمَ الْمَاءُ كَمَا هُوَ المقرّر.

ومراده بِالصَّعيد هُنَا: مخالطة الأولياء العارفين. والعلماء العاملينَ، أَهْل اليقين. لأنَّ الطباع تسْرق الطباع. فتقتدي بِأَهْلِ اليَقِين. وتهتدي بِهِم، حتى تكون من أَهْل اليقين؛ ولذلك اتَّفَقَ أَهْلُ هٰذَا الطَّرِيقِ عَلىٰ أَنَّ الشيخ لاَ بُدَّ مِنْهُ. قال الشيخ أبو القاسم الخليل: «مَنْ لاَ شَيْخَ لَهُ فالشيطان شيخُهُ». وقال: ومخالطة الأخيار محبَّتهُمْ مِن أَعْمَال الْخَيْرِ وإِن كَانَ جنباً. لقولهم: إِن لم تكُنْ منهم، فَعَلَيْكَ بمحبَّتهم؛ لأَنك بحبك إليهم تَصِلُ إليهم. ولقوله ﷺ: **«مَنْ أَحَبَّ قَوماً حُشِرَ مَعَهُمْ»**[1] وقال بَعْضُهُمْ: «مَنْ فاتته درجة الولاية والصَّلاَح، فعليه بمحبَّةِ أَهْلِهَا؛ لأَنَّ محبَّتهم وِلاَية». ومن أَحَبَّ أَهْل الخير، وَإِن كَانَ جُنُباً، فَلاَ بُدَّ أَنْ يَتَطَهَّرَ بمخالطتهم فهذا مُراد الناظم بالتيمم بالصَّعيدِ. والمراد بالجنابة: الجنابة المعْنوية؛ وهي الغفلة عن طَاعَةِ اللَّهِ. والانْهِمَاك فِي معاصي اللَّهِ؛ والإصرار عليْهَا فيجبُ على العَبْدِ أَن يتطَهَّرَ مِنْ غَفْلَتِهِ، وسوء فِعْلِهِ، بتوبته، ورجوعِهِ إلى رَبِّهِ، ووقوفه عند أَمْرِ اللَّهِ ونَهْيِهِ واتّبَاع سُنَّة رسول الله ﷺ. إن كان

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، كتاب الهجرة، حديث رقم (٢٣٥٣) [٢/ ٢٩٠].

عارفاً بذلك وكثرة اليقين. والتصديق، والنية والإخلاص. وإن كَانَ جاهِلاً بذلكَ، وغلبه الأمْرُ فَعَليه بمخالطة الأَخْيَارِ العارفين، وأَهْل اليقين. نسأل اللّه التوفيق لنَا ولكُمْ:

وقوله رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ: «أو بالصخر». أي أَنَّكَ إِذَا لم تَجِدْ مَاءَ الغَيْبِ الذي يَرْفَعُ الحدث الأَكْبَر؛ وهي الغفلة، فَلاَ غِنَى لَكَ عَنِ التيمم بِالتُّرَابِ؛ وهي مخالطة الأولياء العارفينَ والعلماءِ العاملينَ. لأَنَّ التراب ينبت فيه كل نباتٍ. فكَذٰلِكَ الأولياء العارفُونَ كَلامُهُم حِكمة، ينبت في القلوب شيْئاً فشيئاً. والانتفاع بِهِمْ حَاصِلٌ. نَفَعَنَا اللهم بِهِمْ. فَإِنْ لَمْ تطلع عليهم لأَنَّهُمْ عَرَائس، والعرائس لاَ يَرَاهُمْ إِلاَّ مَحْرَم مِنْهُمْ فعليك بمخالطة علماء السُّوءِ والمتسببين والمدَّعِينَ؛ لأنك رُبَّما تَسْمَعُ كلمَةً تَنْتَفعُ بِهَا مِنْ نِيتكَ وصِدْقِكَ؛ لأَن من اعتقد الخير في صَخْرَةٍ نَالَ مِنها. وَمُرَادُ النَّاظم بالصَّخْرِ: الحجر لكوْنه لا ينبت فيه نبات في غالِب الأحْيَانِ، وربما ينبتُ في بَعْضٍ بِكَثرةِ الأمطارِ. أَوْ بكثرة مُرُور الماءِ عليهِ. فكذلك علماء السوء، والمتسبوُنَ، لاَ يُنْتَفع بهم في غالب الأحوال، لكن إِذَا دَامَ على مجالستهم، فَرُبَّمَا يَنْتَفعُ بِهِمْ؛ أَيْ بِأَقْوَالهم: وَلأَنَّ مَن تشبه بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ. ولذلك أُمر بالإنصات للوُرَّاقِ، والخطيب. وقراءة كتب أَهْل التصوفِ؛ لأَنه ربما يَسْمع كلمةً فيتعِظُ بِهَا. قال الشيْخ زروق رحمَهُ الله تعالى في صَدْرِ شرحِه على المباحثِ الأصلية، قال:

تَشَاجَرَ الحق والباطلُ، فَغَلَبَهُ الباطِلُ فقتلهُ. فخافَ أَنْ يطلبَ بِهِ، فَأَحْرَقَهُ. فجاء أَهْلُهُ وَفرَّ مِنهُمُ الْبَاطِلُ. وجمعوا رماد الحق وَجَعَلُوهُ في المَحَابِرِ وكَتَبُوا بِهِ الكتب. فَمَن أَرَادَ الحق في زمانِنَا هَذَا فَلاَ يَجده إِلاَّ في الكُتبِ. فهذا مُرَادُ الناظم بالصَّخْرِ لِكَوْنِهِمْ يَسْمَعُ مِنهُمْ مَا كَانَ موافقاً، ويترك فِعْلَهُمْ لمَا قيل: «اِجْنِ الثّمَارَ وخَلِّ العود لِلنّارِ». ولذٰلِكَ قِيل وربّما يسمع كلمةً، ينتفع بها سَامِعُهَا ويُحْرَمُ مِنهَا قَائِلُهَا. والله الموفق بِمَنِّهِ للصواب.

وقوله رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ: **«وَقَدِّمْ إِمَاماً كُنتَ أَنتَ إِمَامَهُ»**. فَالإِمَامُ هو المتبوع، والمأموم هو التَّابعُ. والمراد به هُنَا. هو النبيُّ ﷺ. فيجبُ على الإنسان أن يتبعَهُ، ويُقدِّمهُ، ويتخذه إماماً. بِإتباعِ الكتابِ والسُّنّةِ. قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن

كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾. [آل عمران: ٣١] فهو إِمَامٌ بِاتباعه لَهُ.

وقوله: «كُنْتَ أَنْتَ إِمَامَهُ». فَإِنَّ الإنْسَان لَمَّا كَان مُرْتَكِباً لِلْمَعَاصِي، والكبَائِرِ، قبلَ التَّوْبة في حال المُؤمِنِ الْعَاصِي. أَوْ حَالِ الكَافِرِ، أَوْ المشركِ؛ لِمَنْ كَانَ كافراً قبل أن يُسْلِمَ وهو يَفِرُّ مِنَ التَّوْبَةِ، والإسلام. وَدَعْوَةُ النَّبِيِّ ﷺ تَتْبَعُهُ. حتى عمَّتِ الآفَاق كُلُّهَا بِحَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى فَعَلَى هٰذَا الْمتبُوعُ هُوَ الكَافِر، حيْث فَرَّ مِنَ الحقِّ لِلْبَاطِلِ. فَالْمَتْبُوعُ: إماماً. والتابع المأمُومُ؛ وهو التَّابعُ لَهُ؛ وهُو رسول الله ﷺ قضى حياته بالمعجزاتِ والْبَرَاهين، والحجة، والأمر والنَّهْي، والنَّذر والوعظِ، والقتال وهم فارُّونَ مِنْهُ؛ وهم يتبعهم؛ حرصاً على هِدَايَتِهِمْ حَتَّى هَدَاهُمُ اللّه لِلإِسْلاَم، فَأُمِرُوا باتباعِهِ. فحينَ كَانُوا مَتْبُوعِين لَهُ كَانُوا أَئِمَّةً لَهُ. لكَوْنِ المتبوع كله إماماً لتابِعِهِ. والآن أَمَرَهُمُ الشَّرْعُ العزيز بأَنْ يَتبَعُوا النبيَّ ﷺ. فصارَ إِمَامَهُمْ باتباعهم لَهُ. وكذلكَ عصاة المُؤْمِنينَ لَمْ يزالوا هَارِبِينَ من سُنَّة رسول الله ﷺ وطاعته. والأولياء يتبعونهم بالمواعظِ، من الكتابِ والسُّنَّة. ويأمرونهم بالمعروف. وينهونَهُمْ عَنِ المُنْكرِ. وكذلكَ العلماء. ولم يَزَل كتاب الله تعالى يُخَاطبهُمْ وسُنَّة رسول الله ﷺ، إلى أَنِ اسْتَيقظُوا منْ نَوْمِ الغَفْلَةِ، وسكرة الأهواء. وبادروا إلى التَّوْبة، بالرجوع إلى اللَّهِ، على قَدْر صِدْقهم فيعزلونَ نفوسهُمْ مِنْ هذه التبعية. ويكونون تابعينَ للكتاب والسُّنَّةِ والعلماء، فكانوا قبل التوبة متبوعينَ، والمتبوع إِمَاماً لِمَنْ تبعه كما تَقَدَّمَ، والآنَ حين تَابُوا أُمِرُوا بالكتابِ والسُّنة والعلماء، والأولياءُ الَّذِينَ كانُوا تَابِعِينَ لَهُمْ، صَارُوا مَأْمُومينَ لِمَنْ كَانَ إِمَاماً لَهُمْ. وهذا مراد النَّاظم بقولِهِ: «وَقَدِّمْ إماماً كُنْتَ أَنْتَ إِمَامَهُ». والله تعالى أَعْلَمُ.

وقوله: «وَصَلِّ صَلاَةَ الْفَجْرِ فِي أَوَّلِ الْعَصْرِ». أي مراده واللَّهُ أَعْلَمُ بالْفَجْرِ: الطَّاعة فِي حَالَةِ الشَّبَابِ، والْعَصر آخر العمر.

وَلَمَّا كَانَ حَال كُلِّ مُسْلِم، وأوانُ موته مجهولاً، لا يعلم كل أَحَد بموتِهِ. أي يوم أو أي ساعة. والنَّاس مُخْتَلِفُونَ. فمنهم مَنْ يَمُوتُ صغيراً، ومِنْهم من يَمُوتُ كَبِيراً، ومِنْهُم منْ يَمُوتُ شَابّاً. ومِنْهُمْ من يَمُوتُ شيْخاً. صَارَ كُلُّ إِنْسَانٍ

صغيراً كَان أوْ كبيراً فِي عَصْرِ يَوْمِهِ. أي آخِر عُمُرهِ. وَيُصَلِّي صلاة الفجر في حالة شبابِهِ. بأن يطيعَ اللَّهَ تَعَالَى، ويتوبَ فِي أَوَّلِ عَصْرِهِ، أي في أول عُمرهِ؛ لأَنَّ صلاة الفَجْرِ فِي كَلاَم النَّاظِم: الطاعةُ والتوبة، والنَّدَمُ، والرّجوع إلى الله تعالى في حالة الشبابِ، وهو أَوَّلُ العَصْرِ أي أول العُمُر؛ لأَنَّ عَصْرَ النَّهَار هو آخِرُهُ. وكل سَاعة من الساعات على الإنسَانِ؛ فَهِي آخر عمرهِ لاَ يَدْري هَلْ يفوتها أَمْ لاَ. فهذا مُرَادُهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ. والله أعْلَمُ؛ لأَنَّ الإنسَان إِذَا أَصْبحَ، فَلاَ يُحدِّث نفسَه بِالْمَسَاءِ. وإِذَا أَمْسَى فَلاَ يحدِّث نفسه بالصَّبَاحِ.

وقوله: «فَهٰذَا صَلاَةُ الْعَارِفِينَ بِرَبِّهِمْ»؛ لأَنَّ العارفين رَضِيَ اللَّهُ عَنهُم، مهما تفَكَّرُوا أَوْ تيقظوا من الْغَفْلَةِ، رَجعُوا إلى اللَّهِ. وتابُوا تَوْبَةً نَصُوحاً. خَوْفاً أَنْ يُدْركهُمُ المَوْتَ قَبْلَ الفَوْتِ. ويندمُونَ على ما فَاتَ من عُمُرِهِمْ. فهذه حالة أكابِر الأولياءِ والصالحين؛ لأَنَّهُمْ لَمْ يكونُوا مُوَفَّقِينَ في حال شبَابِهِمْ. بل كانُوا عُصَاةً مُذْنِبِينَ. فَلَمَّا كَانُوا في آخِرِ عُمُرهم. تَدَاركَهُمُ الله بِعَفْوِهِ ومغفرتِهِ. فكَانَ أَوَّلَ عَصْرِهِمْ، وَصَلاَةَ فَجْرِهِمْ فتَابُوا فِي ذٰلِكَ الْوَقْتِ، ورجعُوا إلى اللَّه تبارك وتَعَالَى وفتح اللَّهُ عليهم. وبلَّغَهُمْ حَضْرَة قدسِهِ في الحينِ، بفضلِهِ وإِحْسَانِهِ. كالفضيل بن عياض، رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ. وَأكابرهم منهم. بل جُلُّهم نفعَنَا اللَّهُ بِبَرَكَاتِهِمْ فكان الوقت الذي تفكَّروا فيه، هو صلاة فَجْرِهِمْ وأَوَّل عصرهم. وإِنْ لم يكونُوا في أول الشبابِ؛ لأَنَّ الإنْسَانَ يجب عليه المُبَادرة إلى التوبة. مهما تفَكَّرَ وتيقَّظَ. سواء في حَالَةِ الشباب. أو في حالةِ الكهولة أو الشيخوخة. ومنهم نفعنا الله ببركَاتِهِمْ، كَانَ مُوَافِقاً في حال الصِّغَرِ، كمعروف الكَرَخي، والشيخ الجيلاني، والشيخ مولاَنا عبد السلام بن مشيش، وأَمثالهم، فقليلُونَ، نَفَعَنَا الله ببركاتهم. والله الموفق بِمَنِّهِ.

وقوله: «فَإِنْ كنتَ مِنهُمْ فَانضَح الْبَرَّ بِالْبَحْرِ». النَّضحُ: هُوَ الرَّشُّ بِالْيَدِ تقول: نَضَحْتُ الشَّيْءَ إذا رشَّيْته بِالْمَاءِ. والبَرّ: الشريعة، والبَحْر: المراد بِهِ الحقيقة. أي كُنْ ملتبساً بالشريعة. مُلاَزماً للحقيقة.

الشريعة هي أنْ تَعْبُدَهُ؛ وهي أَمْرٌ وَنَهْيٌ. والحقيقة أَنْ تُشَاهِدهُ: وهي قَضَاءٌ وَقَدَرٌ، فيجب عليكَ أَنْ تَقِفَ مَعَ الشريعة في حالِ الأمْرِ والنَّهي. وَلاَ تخرج عن

الحقيقة، في حال القضاءِ والقدَر. ودُمْ على ذلك إلى أَنْ يَحين المَمَات.

الْقُشَيْري: الشريعة: مُلاَزمة العبودية. والحقيقة: مُشاهدة الرّبوبية. فكل شريعة غَيْر مقيَّدة بالحقيقةِ غيْر مقبولة. وكل حقيقة غير مقيَّدة بالشريعة؛ فهي غيْر محمودة. وهذا مُرَاد النّاظِمِ بِقَولِهِ: «فَانْضَحِ البَرّ بالْبَحْرِ». أي انْضَح الشريعة بالحقيقة. أي اِجْمَعْ بيْنَهُمَا.

قَالَ الشَّيْخ الشّرِيشي:

ولِلشَّيْخِ آيَةٌ إذَا لَمْ تَكُنْ لَهُ فَمَا هُوَ إلاّ فِي لَيَالِي الْهَوَى يَسْرِي

إذَا لَمْ يَكُنْ عِلْمٌ لَدَيْهِ بِظَاهِرٍ وَلاَ بَاطِنٍ فَاضْرِبْ بِهِ لُجَجَ الْبَحْرِ

فَعِلْمُ الشريعة هو عِلْمُ الظَّاهِرِ. قال الشيخ: علمٌ لَدَيْه بظاهِر. وعلم الحقيقة: هو علم الْبَاطِنِ الّذِي قال الشيْخ: وَلاَ بَاطِنٍ إلاّ أن علم الشريعة محصور في خَمْسَة أقسام على ما قال المطرفي. وعلى ما قال ابن السبكي بستة بزيادة الأولى. وعلم الحقيقة مواهب لاَ تُحْصَى. وَهٰذَا مَا حَضَرَ لأَخِيكم في الله في هذا الجواب.

وأَمّا هذه الأبيات، فقد احتوتْ على كثير مِنَ الْعُلُوم لَوْ جَعَلْنَا عليها المُجَلّدات، والدّوَاوين والأسفار، ما احتوت على أَحَدِهَا بكَوْنه كَلام منٌور، صدر من شيخ كاملٍ جليل. فكيْف لعاجِزٍ مِثْلِي تحومُه وكيْف لِنَاقص بِطَاعَةِ مِثْلِي يَتَسوّقَ سُوقه. فنسأل الله تعالى أَنْ يَمُنّ علينا بفتح بصيرتنا، وأَن يتجاوَزَ عَنْ سيئاتنا بجاه سيدنا محمد المصطفى ﷺ.

اللّهم صَلّ على سيدنا محمد وآلِهِ وصحبه وسلّم تَسْليماً.

فهرس المحتويات